

تحليل الخطاب الروائي

(الزمن - السرد - التبيين)

سعيد يقطين

المركز الثقافي العربي



تحليل الخطاب الروائي

* تحليل الخطاب الروائي (الزمن السرد - التبيين)
* المؤلف: سعيد يقطين .
* الطبعة الثالثة، 1997
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر : المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع
* العنوان :

■ بيروت / الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث .
ص . ب / 113 - 5158 / هاتف / 343701 - 352826 / * فاكس / NIZAR 23297 LE /

■ الدار البيضاء / 42 أشراف الملكي (الأحياس) - ص . ب / 4006 / * هاتف / 307651 - 303339
● 28 شارع 2 مارس * هاتف / 271753 - 276838 / * فاكس / 305726

تحليل الخطاب الروائي

سعيد يقطين



الإهداء

إلى :
الطفل حنظلة العربي
ذكرى زمن قادم . . .

تقديم

كيف يمكننا تحليل الرواية العربية بدون تصور نظري للرواية؟ ما هو موضوع هذه النظرية؟ ما هي أدواتها وأسئلتها؟ كيف يمكننا إقامتها وتطويرها؟؟...

يحاول هذا البحث الإجابة عن بعض هذه الأسئلة ، وطرح أخريات مثلها ، ولا يدعي أنه يقدم الجواب الشافي الكافي . لكن يحق له الذهاب إلى أن الهاجس النظري والوضوح النظري كانا رائديه ، وهو يستفيد مما أنجز في مجال تحليل الخطاب الروائي في الغرب ، متموقفاً من بعض الاتجاهات ، ومتسائلاً عن أصولها وحدودها ، وإمكانات تطويرها . ونفس الممارسة كانت تحكمه وهو يطبق على الخطاب الروائي العربي مستكشفاً ومنقباً بمرونة وحيوية .

موضوع «تحليل الخطاب الروائي» كما يدل عليه عنوانه ليس الرواية ولكن الخطاب . وليس الخطاب غير الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية . قد تكون المادة الحكائية واحدة ، لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولته كتابتها ونظمها . لو أعطينا لمجموعة من الكتاب الروائيين مادة قابلة لأن تحكى ، وحددنا لهم سلفاً شخصياتها وأحداثها المركزية وزمانها وفضاءها لوجدناهم يقدمون لنا خطابات تختلف باختلاف اتجاهاتهم ومواقفهم ، وإن كانت القصة التي يعالجون واحدة . هذا ما يجعلنا نعتبر الخطاب موضوع التحليل . وبدفعنا إلى البحث في كيفية اشتغال مكوناته وعناصره .

منذ الشكلايين الروس إلى الآن حققت نظريات السرد تطوراً هائلاً . تتعدد المقاربات والاتجاهات ، ولكل منها جذوره المعرفية وخلفيته ومراميها . ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه منها ونحن نحاول الاستفادة منها أو استلهاها؟

نسلك في تحليلنا هذا مسلكاً واحداً . ننتقل فيه من السرديات البنيوية كما تتجسد من خلال الاتجاه البويطقي الذي يعمل الباحثون على تطويره وبلورته بشكل دائم ومستمر ، وعبر تتبعنا للعديد من وجهات النظر داخل الاتجاه نفسه ، حاولنا تكوين تصور متكامل نسير فيه مزاجين بين عمل البويطقي وهو يبحث عن الكليات التجريدية ، والناقد وهو يدقق

كلياته وبيئورها من خلال تجربة محددة .

في تحليلنا للخطاب الروائي وقفنا على ثلاثة مكونات هي :

- 1 - الزمن .
- 2 - الصيغة .
- 3 - الرؤية السردية .

إنها المكونات المركزية التي يقوم عليها الخطاب من خلال طرفيه المتقاطعين : الراوي والمروي له ، أي أننا وقفنا عند حدود ما يعرف بالمظهر النحوي أو البنيوي ، وهذا إجراء أساسي يفرضه علينا التحليل السردى . في «انفتاح النص الروائي» ، سنحاول الانتقال إلى المظهر الدلالي أو الوظيفي .

ونحن نقف على المظهر النحوي للخطاب تقودنا أسئلة محددة حول الخطاب بصدد كل مكون من تلك المكونات . حاولنا تحليلها من خلال عمليتين متكاملتين :

- في الأولى : قمنا بدراسة جزئية لرواية الزيني بركات لجمال الغيطاني ، عبر تقسيمنا الخطاب إلى عشر وحدات ، حاولنا من خلال كل واحدة منها معاينة تجلي آليات المكون وطرائق اشتغاله .

- في الثانية : أنجزنا دراسة كلية لأربعة خطابات هي :

- 1 - الوقائع الغربية : إميل حبيبي .
- 2 - أنت منذ اليوم : تيسير سبول .
- 3 - الزمن الموحش : حيدر حيدر .
- 4 - عودة الطائر إلى البحر : حليم بركات .

وحاولنا من خلال ذلك استخراج البنيات المشتركة بين هذه الخطابات على صعيد كل من الزمن والسرد والتبثير ، وانتهينا إلى تسجيل مجموعة من الخلاصات من خلال علاقة الراوي بالمروي له في الخطاب .

ولكي نقدم دراسة متكاملة ، مزجنا النظرية بالتطبيق ، فصدرنا التحليل بمقدمة حول الخطاب ومكوناته . وبخصوص كل مكون من المكونات الثلاثة كتبنا مقدمة تتبّع فيها أهم الآراء والاتجاهات لتتاح للقارئ إمكانية تشكيل تصور عام يُمكنه من مساهمة التحليل ومتابعته . حرصنا أن يكون عرض تلك الآراء مركزاً وموجزاً وواضحاً ، كما حرصنا على ممارسة الوضوح في التطبيق والتحليل . وكان رائدنا دائماً هو الوضوح المنهجي ، والانطلاق من السؤال النقدي ، ونحن نعي صعوبة الأرض التي كنا نتحرك فوقها . فإن وقفنا

فذلك أقصى ما نأمل ، وإلا فما قدمنا كفيل بإبراز الصعوبات والمشاكل التي ستظل دائماً
مثارة بصدد قراءتنا ونقدنا العربيين ما لم نتحزم لذلك بما يكفي من الجرأة ، ونتجشم
مصاعب البحث والتحليل ، وما لم تتكاثف الجهود من مشرق الوطن ومغربه عبر حوار
صريح وموضوعي لدفع عجلة النقد العربي إلى الأمام

سعيد يقطين

الدار البيضاء : أبريل 1988

I - مدخل إلى تحليل الخطاب الروائي

أ - الخطاب

ب - تحليل الخطاب الروائي

ج - تحليل الخطاب الروائي العربي
(تصورنا).

مدخل إلى تحليل الخطاب الروائي

أ- الخطاب :

1- من الأدب إلى الأدبية فتحليل الخطاب :

1.1. ظل الطموح العلمي مهيمناً خلال القرن التاسع عشر على كل الممارسات النقدية التي تفاعلت إيجابياً مع مختلف الإنجازات التي تم تحقيقها على صعيد العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية . لكن ما يعرف عادة بالنقد العلمي في الأدبيات التاريخية للفكر النقدي بقي حبيس الإنجازات التي تكونت في علوم أخرى . كما ظل تعامله معها يقوم على أساس تطبيقها على الأدب ، على غرار ما كان الباحثون في تلك العلوم يمارسون على ظواهر مختلفة . لذلك لم ينجح «النقد العلمي» في تحديد موضوعه التحديد الملائم الذي سيصبح أحد أهم الهموم المركزية في الممارسات النقدية التي ستبني على أنقاضه منذ بدايات هذا القرن وبالأخص مع الحركة الشكلية الروسية .

لم يهتم الشكلانيون الروس على غرار سابقهم بالأدب كمفهوم عام ، ولا بالعمل الأدبي وما شابه ذلك من المصطلحات غير الدقيقة في كتابات القرن التاسع عشر ، كما أصبح ممكناً تلمس ذلك اليوم . وبهـاجس علمي منشد إلى الصرامة والدقة في تحديد موضوع الدرس وتعيين حدوده ، نادى الشكلانيون أولاً بضرورة ميلاد علم جديد للأدب هو «البوطيقا» كمقابل لبوطيقا أرسطو . وموضوع هذا العلم سوف لن يكون الأدب كمفهوم عائم ، ولكن أدبية الأدب . يكتب جاكسون في هذا الصدد : «إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية ، أي ما يجعل من عمل أدبيا»⁽¹⁾ ، وكان للتركيز عليها محاولة من الشكلانيين الروس لتجاوز مختلف التصورات القديمة للأدب التي لم تكن تأخذ في الاعتبار ما يضعه الشكلانيون شرطاً أساسياً لإنجاز دراسة علمية للأدب . يكتب أيخنباوم موضعاً : «لقد اعتبرنا ولا نزال نعتبر كشرط أساسي أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى وهذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بواسطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبرراً لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد»⁽²⁾ (التشديد مني) .

إن قوله جاكسون غدت مركز تفكير الشكلايين الروس واهتمامهم العملي ، كما أنها ستلعب الدور الهام في تحفيز وتحريك الدراسة الأدبية خطوات إلى الأمام وذلك عن طريق تحريف مجراها ووضعها في الطريق السوي الذي سيضطلع الباحثون بمواصلته ومتابعته ، بمداه بكل مقومات البحث العلمي ومستلزماته . ويمكن بدون مجازفة مضارعة هذا التحديد بتميز دوسوسير بين اللسان والكلام ، وما كان ذلك من أثر بالغ في تغيير مجرى البحث اللغوي وإقامة علم جديد لدراسة اللغة . ومن خلال مواصلة البحث عن هذه الأدبية «كموضوع» ومن خلال السعي إلى إقامة علم جديد للأدب عرفت الدراسة الأدبية منذ الشكلايين الروس مساراً مختلفاً . وتحققت خطوات عملية في تسريع عجلة فهمنا للأدب وتطوير دراستنا وتحليلنا إياه .

2.1. بمحاولة تحديد موضوع العلم الأدبي تم الانتقال من الأدب بمعناه الأوسع إلى الأدبية كخصائص نوعية للأدب ، ومن خلال محاولة تدقيق المفهوم ، وإعادة قراءة كل المحاولات السابقة التي جعلت وكدها تقديم تحديد صارم له ، انتهى تودوروف⁽⁴⁾ إلى أن مختلف التحديدات التي عالجهها من خلال :

- أ - الأدب كمحاكاة (أرسطو - الكلاسيكية) .
- ب - الأدب كنظام (الرومانسية الألمانية) .
- ج - محاولات التوفيق (ويليك - فراي) . . .

ظلت بعيدة كل البعد عن ملازمة التحديد الكفيل برصد كل ما يمكن أن يتسع له هذا المفهوم من أشكال وأنواع أدبية تُغيب في هذا التحديد أو ذاك ، لأسباب منهجية ، مردها إلى غياب تمثيلها لهوية الأدب في مختلف تجلياته وطبائعه . بل إن كل المحاولات ستظل قاصرة في مسعاها ما لم تحدد موضوعها الذي تبحث فيه ، ومجال البحث الذي تنطلق منه . وكما حددت البويطيقا الجديدة مع الشكلايين الروس موضوعها وطرائق تحليله ، حددت البويطيقا المتجددة مع البويطيقين بشكل أدق موضوع «الأدبية» الذي سيصبح هو «الخطاب» الأدبي وليس الأدب بوجه عام . وفي تعريف جيرار جنيت للبويطيقا يؤكد أنها هي «النظرية العامة للأشكال الأدبية»⁽⁴⁾ ، والشكل الأدبي هنا ليس إلا الخصائص النوعية للأدب ، وهذه الخصائص لا يمكن البحث عنها إلا من خلال الخطاب . في هذا النطاق يقول تودوروف : «ليس العمل الأدبي في ذاته هو موضوع البويطيقا : إن ما تبحث عنه البويطيقا هو خصائص هذا الكتاب الخاص الذي هو الخطاب الأدبي»⁽⁵⁾ .

لكل ذلك نجد تودوروف نفسه في مناقشته للتعريفات السابقة للأدب يستنتج ضرورة إدخال مفهوم جنسي «générique» هو «الخطاب» . ويدعو إلى استعمال الخطاب الأدبي محل الأدب أو العمل الأدبي ، وذلك لاعتبارات عديدة من بينها أن هناك علاقات بين

الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية . وَبَحْثُنَا عن خصائص الخطاب الأدبي يساعداً على إبراز ما يميزه عن غيره ، الشيء الذي سيدفع التحليل والنظرية معاً إلى مداهما الأبعد بإقامة بويطيقا متكاملة ومفتوحة على خطابات عديدة وإنجاز تصنيفات لها⁽⁶⁾ .

3.1. نلاحظ بجلاء أن مختلف الأدبيات الحديثة تسلك الطريق نفسها وإن بأدوات وأسئلة متعددة ومختلفة ، منتقلة من الحديث عن الأدب أو العمل الأدبي إلى الأدبية فالخطاب . وما محاولات التمييز بين الخطابات الأدبية وفق خصائص معينة تتصل بطوابع مهيمنة أو بقواعد النوع إلا خير دليل على ذلك . كما أن ظهور اختصاصات جديدة خاصة بهذا الخطاب الأدبي أو ذاك ليس إلا ترجمة عملية وتطويراً للأسئلة وللمشاريع التي دشنها الشكلاينيون الروس منذ بدايات هذا القرن . لذلك يمكننا تسجيل كون الطموح العلمي في الدراسة النقدية مع «النقد العلمي» لم يكن إلا نزوة علموية . وأن طموح الشكلاينيين الروس كان أكثر واقعية وعلمية في الأخذ بروح الممارسة العلمية من خلال تحديده موضوع دراسته ، وترك فرص ومهام البحث عن عناصر الموضوع وخصائصه مفتوحة أمام أي إغناء أو اجتهد . وما زال البحث فعلاً ، في «الأدبية» و«الخطاب» مشرعاً للسؤال والبحث والتحليل . . .

فإلى أي مدى يمكن اعتبار تحديد هذا الموضوع «الخطاب» عاملاً من عوامل تطوير الدراسة الأدبية؟ وعندما نقول أن الموضوع هو «الخطاب» ماذا نقصد بذلك؟ وبما أننا بصدد الحديث عن الرواية ، ماذا نعني بـ «الخطاب الروائي» أو «خطاب الرواية»؟ ما هي عناصر هذا الخطاب وخصائصه ومكوناته؟ وما هي علاقته بخطابات أخرى؟ أسئلة كثيرة تفرض علينا نفسها ، وسنحاول الإجابة عنها جهد الإمكان وبحسب ما يفرضه المقام لما للقضية المتناولة من تشعبات وزوايا ، سواء على المستوى النظري أو التطبيقي ، مع ترك العديد من القضايا مفتوحة للبحث والسؤال ويكون ذلك من خلال محاولة تقديم إضاءات حول مفهوم الخطاب أولاً والخطاب الروائي ثانياً . . .

2 - الجملة - الخطاب :

1.2. كان للنجاح الباهر الذي حققته اللسانيات في دراستها للغة أثره البالغ في حقل الدراسات الأدبية والاجتماعية والإنسانية بصفة عامة . فكان أن استفادت البحوث الأدبية من العديد من الإنجازات التي حصلت عليها اللسانيات سواء على مستوى بعض النتائج التي استلهمها الدارسون أو على مستوى منهجية البحث . يظهر لنا هذا - على سبيل المثال - في هيمنة المصطلحات اللسانية على الدراسة الأدبية بشكل كبير جداً . ومنذ الشكلاينيين الروس كان التلازم وثيقاً بين اللسانيات والأدب ، ونحاول الآن إبراز نوعية هذا التلازم .

حددت اللسانيات «الجملة باعتبارها أكبر وحدة قابلة للوصف النحوي» . وستصبح هذه

القول التي يعزوها الكثير من الباحثين إلى «بلومفيلد» بمثابة الحد الذي يتفق حوله كل المشتغلين باللسانيات . وعندما نقول إنَّ الجملة هي أكبر وحدة ، فمعنى ذلك أنها تتضمن وحدات أخرى يطالها الوصف اللساني بالضرورة . وإذا كانت النظرية اللسانية التقليدية بحسب ما يسجل ذلك لاينس⁽⁷⁾ ، تميز بين مستويين أساسيين في الوصف النحوي هما الكلمة والجملة ، فإن اللسانيات الحديثة ترى أن الكلمة الواحدة تتضمن أحياناً وحدات صغرى هي المورفيمات . وبين الكلمة والجملة يعترف النحويون غالباً بوجود وحدتين آخرين هما المركب (syntagme) والقضية (proposition) . ويكون التمييز بينهما باعتبار المركب كل مجموعة من الكلمات المتوازنة نحوياً بواسطة كلمة واحدة ليس لها فاعلها الخاص والتي يصبح محمولها مركباً . وعلى عكس ذلك فمجموع الكلمات التي لها فاعلها الخاص ومحمولها الخاص الذي يدخل في جملة كبرى هو القضية⁽⁸⁾ . وهكذا حسب لاينس تصبح العلاقة بين الوحدات الخمس القابلة للوصف اللساني (المورفيم - الكلمة - القضية - المركب - الجملة) علاقة تركيب (composition) . وإذا كانت الجملة هي الوحدة الكبرى والمورفيم هو الوحدة الصغرى أمكننا تصنيف هذه الوحدات إلى درجات (الجملة - القضية - المركب - الكلمة - المورفيم) ، ونقول إنَّ وحدات الدرجة العليا مركبة (composé) من وحدات الدرجة السفلى ، وبالمقابل يمكننا القول إنَّ وحدات الدرجة العليا ، يمكننا تحليلها بتقسيمها إلى وحدات الدرجة السفلى .

نلاحظ - استطراداً - أن الدراسة الأدبية الحديثة سيكثر فيها استعمال هذا المصطلح (الوحدة) . وغالباً ما يتم تقسيم الخطاب إلى وحدات على غرار ما يفعل اللسانيون كما سنبين ذلك في حينه . وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن اللسانيات بوقوفها عند حد «الجملة» كوحدة كبرى ما تزال مطروحة عليها العديد من القضايا والمشاكل التي يثيرها الموضوع ، وتتعدد في تناوله ومقارنته الاتجاهات والنظريات . لذلك نجد العديد من اللسانيين إلى يومنا هذا ما يزالون يصرون على ضرورة الوقوف عند حد الجملة وعدم تجاوزها⁽⁹⁾ ، وإن كان آخرون يؤكدون على حتمية تخطي هذا الحد لماله من فوائد على تحليل الجملة ذاته⁽¹⁰⁾ . ماذا يعني تجاوز الجملة كوحدة كبرى؟

2.2. إن تخطي الحد معناه بكلمة وجيزة - حسب بعض اللسانيين - الاضطراب والتعقيم وعدم الوضوح . ويكمن ذلك بدءاً في التسميات التي تأخذها هذه «الوحدة» التي تتجاوز الجملة . فهي عند البعض «الملفوظ» ، وعند آخرين «الخطاب» ، وعند آخرين «النص» . . . وكل واحد من هذه المصطلحات متعدد الدلالات والمعاني . وهي أيضاً يقابل بعضها الآخر ، أو يرادفه في هذا السياق أو ذاك وبسحب هذا الاتجاه أو الآخر .

ومن خلال رصدنا للعديد من الآراء حول هذه المصطلحات نجدها أحياناً تتقارب إلى

درجة أنها تصبح ذات مدلول واحد . وأحياناً أخرى تتباعد إلى الحد الذي يصبح لكل منها مدلوله أو مدلولاته الخاصة . وبما أن هدفنا المركزي هو تقديم التصور الخاص بالمفهوم على ضوء ما نشتغل به في التحليل فإننا سنتعرض لأهم الآراء على اعتبار العديد منها رجحاً لآراء أخرى أو تنوعاً على بعض تفاصيلها . وبدون الدخول في العديد من الجزئيات المغرقة في الدقة ، سترجيء إثارة بعض هذه القضايا إلى الكتاب الثاني* حيث سنتحدث عن النص لنلامسه على ضوء التحديد الذي سنوظفه لتعيين المقصود بالخطاب والخطاب الروائي خاصة .

3.2. في معرض محاولة لا ينس تحديد الوحدات النحوية وانتهائه إلى الحديث عن درجات الوحدة الكبرى ، نجده يثير قضية «الملفوظ» (Enoncé) باعتباره وحدة قابلة للوصف اللساني ويعرض لتحديد هاريس إياه : «إن الملفوظ هو كل جزء من أجزاء الكلام (Partie du discours) يقوم به متكلم ، وقبل هذا الجزء وبعده هناك صمت من قبل هذا المتكلم»⁽¹¹⁾ .

بهذا التحديد يصبح الملفوظ باعتباره كلاماً منجزاً وحدة متكاملة دلالية . لكن هذه الوحدة لها تجليات كثيرة . قد تتجاوز الجملة فتصبح خطاباً . كما أنها قد تتشكل من كلمة أو مركب أو جملة «غير مكتملة» . وهذه التجليات الكثيرة والممكنة في الملفوظ سواء كان مكتوباً أو شفوياً هي مدار تعدد آراء اللسانيين وتضاربها حول إمكان اهتمام اللساني بها كموضوع للبحث ، أو تنحيتها على اعتبار خروجها عن دائرة الموضوع .

3 - الخطاب وتحليل الخطاب :

يكاد يجمع كل المتحدثين عن الخطاب وتحليل الخطاب على زيادة ز. هاريس (1952) في هذا المضممار من خلال بحثه المعنون بـ «تحليل الخطاب» . إنه أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتحدى الجملة إلى الخطاب .

1.3. باعتبار هاريس توزيعياً ، فإنه سعى إلى تحليل الخطاب بنفس التصور والأدوات التي يحلل بها الجملة . بدءاً اهتم في أشغاله بتحليل الخطاب انطلاقاً من مسألتين : أولاً توسيع حدود الوصف اللساني إلى ما هو خارج الجملة . وهذه مسألة لسانية محضة . أما المسألة الثانية فتتعلق بالعلاقات الموجودة بين اللغة والثقافة والمجتمع . وباعتبارها قضية خارج لسانية فلم يهتم بها هاريس . ببقائه ضمن حدود المجال اللساني ، عرف الخطاب بأنه «ملفوظ طويل ، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر ، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نطل في مجال لساني محض»⁽¹²⁾ .

* انفتاح النص الروائي - منشورات المركز الثقافي العربي - بيروت - الدار البيضاء .

وبمقتضى هذا التعريف يسعى هاريس إلى تطبيق تصوره التوزيعي على الخطاب ، والذي من خلاله تصبح كل العناصر أو متتاليات العناصر لا يلتقي بعضها ببعض بشكل اعتباطي ، وفي مختلف مواطن النص . إذ أن التوزيعات التي تلتقي من خلالها هذه العناصر تعبر عن انتظام معين يكشف عن بنية النص . ومحدد هذا الانتظام بين متتاليات الجملة يكمن فيما يسميه بالتوازي (équivalence) . ومن خلال بحثه عن طبقات التوازيات الموجودة بين العناصر (أجزاء النص المورفيمات . . .) فيما بينها وبحسب الترابطات الموجودة بينها يضبط بنية النص وذلك عن طريق تشكيل طبقات التوازي الحاصلة في لوحة ذات محورين أفقي وعمودي . تظهر في المحور الأول العلاقات بين طبقات التوازي داخل كل جملة في النص . أما في المحور العمودي فإننا نجد تتابع الجمل حسب ترتيبها كما هي عليه في النص المتن⁽¹³⁾ .

لقد اشتغل هاريس في تحليله للخطاب على متون قصيرة وذات طبيعة إخبارية تكثر فيها التوازيات بشكل ملموس . كما أن اختزاله التحليل بحسب المكونات المباشرة يجعل كل جملة تعود إلى بنيتها الأولية : مركب اسمي + مركب فعلي . وإذا كان كل نص قابلاً لأن يرجع إلى هذه البنية الأساس ، فإن هذا النمط من الاختزال ، كما يسجل ذلك صاحباً كتاب «المدخل إلى التحليل النصي» ، يصبح بلا أهمية في تحليل الخطاب ، لأنه بدل العمل على إبراز البنية الخاصة لجمل نص ما في تسلسلها ، يقف التحليل عند حد تقديمه الخطاب كمتتالية من مركبات إسمية وفعلية ذات علاقات معينة⁽¹⁴⁾ .

2.3. إذا كان هاريس يقدم تحديده للخطاب انطلاقاً من تعريف بلومفيلد للجملة عبر تأكيده على وجود الخطاب رهيناً بنظام متتالية من الجمل تقدم بنية للملفوظ ، فإن باحثاً فرنسياً سيكون لتعريفه للخطاب من منظور مختلف أبلغ الأثر في الدراسات الأدبية التي تقوم على دعائم لسانية . هذا الباحث هو «بنفنتس» الذي يرى أن الجملة تخضع لمجموعة من الحدود ، إذ هي أصغر وحدة في الخطاب . ومع الجملة «ترك مجال اللسانيات كنظام للعلامات» ، على اعتبار أن الجملة تتضمن علامات وليس علامة واحدة ، «وندخل إلى مجال آخر حيث اللسان أداة للتواصل نعبر عنه بواسطة الخطاب»⁽¹⁵⁾ .

بإقامة هذا التمييز يجعلنا بنفنتس أمام مجالين يختلف أحدهما عن الآخر ، وإن كانا يُعَانِقَانِ الواقع الواحد ، ويقدمان تبعاً لذلك لسانيتين مختلفتين وإن كانت طرقيهما تقاطع دائماً . فهناك من جهة «اللسان» كمجموعة علامات مستخلصة بواسطة إجراءات صارمة ، ومن جهة أخرى هناك تجلي اللسان في عملية التواصل . وتبعاً لذلك تغدو الجملة متممة إلى الخطاب ، ويمكن تعريفها بأنها وحدة الخطاب⁽¹⁶⁾ .

وعكسما رأينا مع هاريس والتوزيعيين في وقوفهم عند حد الملفوظ نجد بنفنتس يُقيمُ

مع العديد من اللسانيين الغربيين مفهوم التلفظ (Enonciation) ، وهو يعني الفعل الذاتي في استعمال اللغة : إنه فعل حيوي في إنتاج نص ما ، كمقابل للملفوظ (énoncé) باعتباره الموضوع اللغوي المنجز والمنغلق والمستقل عن الذات التي أنجزته . وهكذا يتيح التلفظ دراسة الكلام ضمن مركز نظرية التواصل ووظائف اللغة . ويرى بنفنست أن التلفظ هو موضوع الدراسة وليس الملفوظ .

من هذا المنطلق التحديدي يعرف بنفنست الخطاب باعتباره «الملفوظ منظوراً إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل» . والمقصود بذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين في مقام معين ، وهذا الفعل هو عملية التلفظ . وبمعنى آخر يحدد بنفنست الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنه «كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»⁽¹⁷⁾ .

انطلاقاً من هذا التعريف نجدنا أمام تنوع وتعدد الخطابات الشفوية التي تمتد من المخاطبة اليومية إلى الخطبة الأكثر صنعة وزخرفة . وإلى جانب الخطابات الشفوية نجد أيضاً كتلة من الخطابات المكتوبة التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية وتستعيد أدوارها ومراميتها من المراسلات إلى المذكرات والمسرح والكتابات التربوية . . . وباختصار كل الأنواع التي يتوجه فيها متكلم إلى متلق وينظم ما يقوله من خلال مقولة الضمير «La»⁽¹⁸⁾ «personne» .

بعد هذا التعريف الذي يتحدد من خلال عملية التلفظ يميز بنفنست بين نظامين للتلفظ بواسطة تحليله لمقولة الضمير والزمن ، فيبرز لنا نظامين للتلفظ هما الحكي (histoire) والخطاب (Discours) . وبين كون هذا التمييز لا يرتبط مطلقاً بالتمييز الذي يقام عادة بين اللسان المكتوب واللساني الشفوي . فالتلفظ القصصي يحتفظ به الآن في اللغة المكتوبة بينما الخطاب يوظف كتابة وشفوياً . وفي الممارسة العملية للتلفظ نجدنا في الآن نفسه نتقل من أحدهما إلى الآخر⁽¹⁹⁾ .

إن التمييز الذي يقيمه بنفنست بين الحكي والخطاب انطلاقاً من مجموعة من العناصر التي يتميز بها أحدهما عن الآخر ، وإن كانا يتكاملان ويتقاطعان معاً على صعيد الممارسة التواصلية ، سيتأسس انطلاقاً منه تصور متكامل حول تحليل الخطاب الروائي والسرد بصفة عامة وسنقف عند ذلك عندما نتحدث عن الخطاب الروائي وكذا عندما نتحدث عن بعض خصائصه وأحد أهم مكوناته : الزمن .

3.3. مع هاريس وبنفنست رأينا محاولات أولى لتحديد الخطاب . لكننا سنلاحظ منذ بدايات السبعينات محاولات عديدة لمناقشة التحديدات السابقة وقراءتها على ضوء

التصورات التي بدأت تتمايز عن بعضها البعض ، بتعدد المنطلقات والمقاربات . لكن مشكلة الخطاب وتحليل الخطاب غدت إحدى الإشكالات المركزية التي يدلي فيها كل باحث بوجهة نظره ، ويقدم اقتراحاته وإجراءاته للإسهام في بلورة تصور مناسب لمفهوم «مائع» ومتعدد الدلالات . وسنحاول الآن التعرض بإيجاز لوجهات النظر هاته .

في مقدمة دراسته «لدلالة التشاكالات» يطرح فرانسوا راستيه تصوره تحت عنوان «من أجل تحليل الخطاب»⁽²⁰⁾ . يبين راستيه في البداية أن اللسانيات تحققت كعلم لنجاحها في تحديد موضوعها وأن على تحليل الخطاب أن يحدد موضوعه وهذه ضرورة تاريخية بسبب علاقته الوطيدة باللسانيات . وبعد أن يقدم لنا راستيه تعريف الجملة عند بلومفيلد باعتبارها موضوع اللسانيات ، يؤكد على أن التحليل الذي ينبغي تجاوزه الجملة أن يعلن عن الحدود التي يمكن أن يقف عندها ، وينتهي إلى أن أمامنا ثلاث استراتيجيات ممكنة وهي على الشكل التالي :

(1) اختزال الخطاب إلى موضوع للسانيات وتحديد كقطاع بسيط وخطي للجمل كما فعل هاريس وكارتس . وللاضطلاع بتحليل خطابات أدبية علينا أن نوفر قواعد نحوية جديدة مثل قواعد الحذف وهذا خيار ممكن .

(2) أن نبعد الخطاب عن أن يكون موضوعاً للسانيات ونعتبره غير مرتبط باللسان ولكن بالكلام . وفي هذه الحالة سوف لن يكون داخلياً ضمن مجال علوم اللسان . وهناك العديد من اللسانيين - كما سبق أن أشرنا - الذين ما يزالون يعترضون على أن يكون تحليل الخطاب علماً لسانياً .

(3) وضع علم للخطابات يكون موازياً للسانيات ويكون موضوعه الفعلي واحداً ، وموضوعه المعرفي مختلفاً : وهكذا سنجدنا بالضرورة أمام عالمين مختلفين وإن كانا يتقاطعان ويتكاملان . وهذا الخيار ممكن بدوره وسنلاحظ أنه ممارس في تحليل الخطابات الأدبية . وذلك من خلال التمييز بين لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب أو النص كما سنعاين ذلك في حديثنا عن الخطاب الروائي .

إن راستيه من خلال تقديمه لهذه الاستراتيجيات الثلاث يكون - عملياً - يقدم لنا وجهات النظر الموجودة في بدايات السبعينات بصدد الخطاب وتحليله . فهناك تصور هاريس الذي يوسع مجال الدراسة اللسانية بإدخال الخطاب ضمن موضوعها وهناك التصور الذي يرفض ذلك مطلقاً ، وهناك أخيراً التصور الداعي إلى خلق علم جديد للخطاب على غرار اللسانيات باعتبارها العلم الرائد . وسنلاحظ راستيه يقدم لنا مقترحاً جديداً لا يختلف - جوهرياً - عن التصور الأخير وإن كان ينتقده من وجهة خاصة .

يذهب راستيه إلى عدم اعتبار البنيات الخطابية مختلفة مسبقاً عن البنيات اللسانية إذ علينا أن نسمي تلك البنيات التي تنظم عناصر المستوى اللساني الواحد بنيات بلاغية ، وأن نسمي البنيات التي تطابق عدة بنيات بلاغية وعلى مستويات متعددة بنيات أسلوبية . وعلينا من جهة ثانية ألا نعطي للجملة ولا لأية وحدة لسانية دوراً نظرياً مسبقاً ، لأنه سيكون من العبث إنجاز لسانيتين مختلفتين إحداهما عن الأخرى لتحليل مقطعين «لرونسار» بذريعة أن اللسانيات الأولى تهتم بالجملة والثانية بالعديد من الجمل . وبذلك يمكننا أن نقدم «تحليلاً للخطاب» كاختصاص جديد له موضوعه الخاص . وانطلاقاً من هذا التصور يقوم راستيه بدراسته عن التشاكالات في البنيات الخطابية على غرار العمل الذي قام به غريماس وهو ينطلق مما يسميه بالسميولوجيا المركبية⁽²¹⁾ .

4.3 . وقریباً من التعريفات التي أوردها راستيه سنة 1972 نجد أصحاب «معجم اللسانيات» (1973) يقدمون لنا ثلاثة تحديدات للخطاب . فهو أولاً يعني اللغة في طور العمل ، أو اللسان الذي تتكلف بإنجازه ذات معينة ، وهو هنا مرادف للكلام بتحديد دوسوسور . وهو يعني ثانياً ، وحدة توازي أو تفوق الجملة ، ويتكون من متتالية تشكل رسالة لها بداية ونهاية وهو هنا مرادف للملفوظ . أما التحديد الثالث فيتجلى في استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدى الجملة منظوراً إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل . ومن هذه الزاوية فإن تحليل الخطاب يقابل كل اختصاص يرمي إلى معالجة الجملة كأعلى وحدة لسانية⁽²²⁾ . بعد تقديم هذه التعريفات الثلاثة يتم عرض وجهتين للنظر تتصل أولاهما بتصوير بنفست والأخرى بمشروع هاريس ، وما يطرحانه من قضايا وطرائق في التحليل .

نعابن بجلاء من خلال وجهات النظر التي تعرضنا لها إلى الآن أن المشكلة الرئيسية التي لازمت تحليل الخطاب هي تحديد موضوعه . هذا الموضوع الذي ظل يتردد حول المفهوم نفسه (الخطاب) . وهذه المشكلة التي لازمتها منذ البداية ستظل لاصقة به إلى أيامنا هاته رغم التطورات التي طرأت على القضية المطروحة ، ورغم التقدم الهائل الذي حققه تحليل الخطاب من جهة والخطاب من جهة ثانية . تظهر هذه التطورات ، وهذا التقدم في ظهور اختصاصات عديدة تدعي كون «الخطاب» موضوعها الرئيس بامتياز . وأن لها تصوراتها وإجراءاتها الخاصة التي تسعفها في تقديم تصور متكامل لتحليله ؛ وبلورة أدواتها ونظريتها لتصبح قابلة للتعميم على موضوعات أخرى . وإذا كان المشكل الذي أثير بدءاً عن الخطاب وتحليل الخطاب هو كونهما غريبين وسط قلعة اللسانيات العتيدة ، فإن المشكل الذي سيتعرضان له منذ أواسط السبعينات هو أنهما سيصبحان أهلاً لكل المجالات والاختصاصات . وبعض من هذه المشاكل هو ما سيتعرض له كتاب د . مانكينو (D.

(Maingueneau) وبسبب طول هذه المقدمة الذي صدر بها الكتاب الذي يتناول أهم اتجاهات تحليل الخطاب إلى أواسط السبعينات فإننا سنركز على أهم القضايا التي يثيرها .

5.3. يبدأ منكينو أولاً بإثارة أكثر مشاكل تحليل الخطاب خطورة والتي يراها تكمن ليس فقط في مشكلة أن يجد له مكاناً ضمن العلوم الإنسانية ، ولكن أيضاً مشكلة أن يحدد وحدة في داخل النظرية اللسانية ما دام لم يحدد بعد منهجيته وموضوعه بالشكل المناسب . ومصدر مشاكله أيضاً يبدو في كونه يستعير أدواته من مجالات مثل الدلالة والتلفظ وهما من المجالات الأكثر تقلباً وبحثاً عن الاستقرار في الفكر اللساني المعاصر . ولعل مرد كل ذلك يعود إلى كونه يمتلك خاصية موقعة في نقطة اللقاء بين اللسانيات والعلوم الإنسانية . ونتيجة لذلك هناك نوع من «الطلب» النظري من قبل العلوم الإنسانية وهناك بالمقابل «العرض» غير الكافي من قبل اللسانيين الذين يودون لو أن تحليل الخطاب يمدّم بالتقنية العلمية التي تتيح لهم نتائج شكلية تصلح لتأويلاتهم الفوق لسانية⁽²³⁾ .

يحدد الباحث الخطاب باعتباره مفهوماً يعوض الكلام عند دوسور ويُعارض اللسان . وبعد وقوفه عند تمييز دُوسُور بين الكلام واللسان يتبين كون الجملة لا تدخل في إطار اللسان ولكنها تنتمي إلى الكلام موئل الفعالية والذكاء . وهذا التعريف نجده يشاكل تعريف بنفنست للجملة حين يعتبرها وحدة خطابية . يثير بعد ذلك موقف كل من هاريس وبنفنست من الخطاب ويكشف لنا عن تعدد دلالاته من خلال إبراز كون تحليل الخطاب عكس مجالات لسانية عديدة يذلل موضوعه بصعوبة منتهياً إلى تعيين ستة تعريفات للخطاب على الشكل التالي :

(1) الخطاب مرادف للكلام عند دوسوسور وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية .

(2) هو الوحدة اللسانية التي تتعدى الجملة وتصبح مرسلة كلية أو ملفوظاً .

(3) تعريف هاريس السابق الذكر (انظر فقرة 1.3) .

(4) في المدرسة الفرنسية وخصوصاً مع كيسبن (L. Guespin) تتم المعارضة بين الملفوظ والخطاب : فالملفوظ متتالية من الجمل الموضوعية بين بياضين دلاليين . أما الخطاب فهو الملفوظ المعتبر من وجهة نظر حركية خطابية مشروط بها . وهكذا فنظرة تلقى على نص من وجهة تَبْيِيْنِهِ لغوياً تجعل منه ملفوظاً وأن دراسة لسانية لشروط إنتاج هذا النص تجعل منه خطاباً .

(5) تعريف بنفنست السابق الذكر (انظر فقرة 2.3) .

(6) تعريف أخير يعارض بين اللسان والخطاب . فاللسان ينظر إليه ككل منته وثابت

العناصر نسبياً . أما الخطاب فهو مفهوم باعتبار المآل الذي تمارس فيه الإنتاجية وهذا المآل هو «الطابع السياقي» (Contextualisation) غير المتوقع الذي يحدد قيماً جديدة لوحداث اللسان . لذلك نقول حسب هذا التعريف أن تعدد دلالات وحدة معجمية هو أثر للخطاب الذي يتحول باستمرار إلى أثر للسان .

بعد تقديم هذه التعريفات ومن منظور يضع في الاعتبار الشروط السوسيو- تاريخية ينحاز إلى التعريف الرابع لأنه يركز على أساس إنتاج الخطاب . ويشير بعد ذلك بعض المشاكل المتصلة بهذا الربط بين الملفوظ والخطاب بتقديم قراءة لتصور ديكر و هو يميز بين المكون اللساني الذي يثبت المعنى الحرفي بعيداً عن السياق التلفظي وبين المكون البلاغي الذي يؤول هذا الملفوظ بإدماجه في مقام سياق تَوَاصُلِيَّين محددين . وتبعاً لهذا التصور وكما يقدم ذلك شارودو (P. Charaudeau) من وجهة نظر مانكينو يصبح الملفوظ خاصاً بالاستعمال والمعنى ، ويصبح الخطاب وهو الملفوظ بزيادة مقام التواصل خاصاً بخاصية الإنتاج والدلالة . وواضح هنا أن معنى الملفوظ يتحدد خارج النطاق التلفظي وأن دلالة الخطاب ترجع إلى شروط وملابسات التواصل . ثم ينتقل مانكينو بعد ذلك إلى تعريفات قريبة من التعريفات اللسانية (Paralinguistique) عند كل من ديريدا وميشيل فوكو وكريستيفا ، التي يرى أنها ذات خصوصية إذ أنها تعريفات واسعة جداً باستثناء كريستيفا التي تسعى إلى إقامة نظرية للنص . ويخصص الباحث بعد المقدمة أربعة فصول لأربع مقاربات : المعجمية والتركيبية والتلفظية وأنحاء النص .

6.3. ومنذ أواسط السبعينات إلى يومنا هذا سيعرف تحليل الخطاب وتعريفه مشاكل جديدة . ونوع هذه المشاكل لا يتصل هذه المرة بصعوبة تحديده لموضوعه أو ما شابه هذا من المشاكل التي صاحبت البدايات . إن هذه المرحلة (أواسط السبعينات) شهدت تبلور الاتجاهات وتطور المجالات اللسانية والإنسانية بصفة عامة . وعلى سبيل المثال لم يبق الحديث - كما كان في أواسط الستينات جارياً حول «التحليل البنيوي للحكي» ، وإنما أصبح الحديث عن بوطيقا الحكي بعد أن تميزت الاختصاصات وتكشف الاتجاهات . . .

إن هذا التطور الحاصل سينعكس بشكل إيجابي على تحليل الخطاب وتعريف الخطاب . وبذلك ستصبح إحدى مشاكله الجديدة مرتبطة بالمشاكل الواقعة على مستوى مختلف العلوم اللسانية والأدبية . ومنها أنه سوف لن يظل حبيس مشاكل تحديد موضوعه وموقعه ضمن باقي العلوم ، إذ سيصبح له موقعه المتميز ضمنها كما أن موضوعاته ستتعدد بتعدد الاتجاهات والمجالات التي تمارسه .

ذلك ما سيلاحظه جان كارون سنة 1983 حين يسجل أن مفهوم الخطاب بدأ في السنوات الأخيرة «يستقطب مختلف الأعمال ومن منظورات جد مختلفة تذهب اللسانيات إلى

البلاغة وفلسفة اللغة والسيكو- لسانيات»، وهي ذات طبائع متباينة تبدأ من الإحصاء المعجمي إلى نظريات السيميوطيقا النصية...»⁽²⁴⁾.

ومن منظور سيكو- لساني يعرف الخطاب بأنه «متتالية منسجمة من الملفوظات»⁽²⁵⁾ ويفسر هذا التعريف انطلاقاً من ثلاث ملاحظات هامة :

1- إن الخطاب يفترض تعالفاً يتم بواسطة الفعالية التلفظية بين مجموعة من الملفوظات . وهذه الملفوظات لا يجب اعتبارها مبنية سلفاً وأن علينا أن نربط بينها ، وذلك إنطلاقاً من أن أي ملفوظ لا يمكن أن يكون منعزلاً عن غيره . إنه يدخل معها في علاقات علينا تحديد معناها ووظيفتها .

2- لكن الطابع السابق ليس كافياً فالخطاب هو أيضاً عملية مستمرة : إنه يجري في الزمن بشكل موجه . وهذا الطابع الموجه ينعكس داخل الملفوظ ذاته من خلال البنية : علاقات الموضوع بالمحمول . . . وهكذا يتجلى الخطاب كتنابع تحويلات تتيح الانتقال من حالة إلى أخرى وهكذا . . .

3- وأخيراً إن التتابع لا يتم بأي وجه ، إنه يأخذ طابع التصاعد في اتجاه هدف ما . وتبعاً لذلك تغدو للخطاب فعلاً قصدية . ومن خلال هذا العنصر الأخير يبدو المنطلق السيكلوجي الذي يتحدد ضمنه تصور كارون ، وكذا من خلال ترابط هذه الملاحظات يتحقق الخطاب كفعل منسجم⁽²⁶⁾.

7.3. وعلى غرار العمل الذي قام به كارون نجد موشلر (1985) (J. Moeschler) يعرف الخطاب وتحليل الخطاب انطلاقاً من منظور خاص يتحكم في تحديد موضوع تحليل الخطاب وطريقة ممارسة التحليل . يسعى موشلر إلى إقامة تحليل تداولي للخطاب . يبدأ أولاً بالحديث عن مجالات تحليل الخطاب التي يحصرها في ثلاثة :

(1) في فرنسا ، اهتم تحليل الخطاب بـ «خارج اللساني» بالمعنى التقليدي أي كل ما تهتم به اللسانيات بالمعنى السوسوري . وتدخل في ذلك آثار الكلام والآثار السياقية والأيدولوجية . ويبين كون تحليل الخطاب اعتمد على المقاربة المعجمية أو الدلالية أو حول التأويل الاجتماعي - السياسي للخطاب .

(2) في التقليد التوليدي يتعارض تحليل الخطاب وتحليل الجملة . وهكذا يسعى التوليديون الذين يشتغلون على الخطاب إلى إقامة نحو أو أنحاء للخطاب على غرار أنحاء الجملة . ومن نفس المنطلقات التي تحددها التوليدية .

(3) في التقليد الأنجلو- ساكسوني ، وبالأخص مدرسة بيرمنغهام يرتبط تحليل الخطاب بنمط معين من تحليل الحوار (المخاطبة) انطلاقاً من التفاعلات داخل القسم بين المعلم

والتلاميذ ، وذلك عبر تحديد مجموعة من المقولات والوحدات الحوارية من العلاقات والوظائف التي يمكن أن تحققها هذه الوحدات .

وبعد عرضه لهذه الاتجاهات الثلاثة يبين انحيازه إلى الأخير بتأكيده على أن الخطاب يعني الحوار ، وتوضيحه بأن التحليل التداولي للخطاب عليه - بحسب وجهة نظره - أن يبنى على ثلاثة مجالات يختلف بعضها عن بعض وهي :

1 - التداولية اللسانية . 2 - نظرية البرهان . 3 - تحليل الخطاب أو المخاطبات .
ويقوم الباحث بعد ذلك بإجراء تحليلاته للخطاب (الحوار) بناء على هذه المُقدمات⁽²⁷⁾.

8.3. منذ أواخر السبعينات وبدايات الثمانينات ، بدأ تحليل الخطاب يتبلور بشكل مختلف عما وجدناه في الأدبيات الفرنسية والأوروبية بصفة عامة ، في الكتابات الأنجلو- أمريكية . ومرد ذلك إلى الثورات اللسانية التي تحققت في أمريكا لأسباب عديدة لا مجال للحديث عنها هنا . وأهم ملاحظة يمكن تسجيلها في هذا النطاق هو استبعاد التراث الأدبي الأوروبي في مجال تحديد الخطاب ، وَكَأَنَّ الدراسات الأنجلو- أمريكية تنطلق من فراغ لذلك تكاد تخلو الكتابات الانجليزية من الانطلاق من النظريات الأوروبية .

يتبدى لنا هذا بجلاء في تعامل موشلر مع الخطاب وتحليله بانطلاقه من مدرسة بيرمنكهام التي تحصر الخطاب في الحوار وسنلاحظ أن العديد من اللسانيين الذين يكتبون بالانجليزية ينطلقون من هذا التحديد ، أو ما يتصل به . مثال ذلك ما نجده مع «مايكل هُوو» في كتابه «حول ظاهر الخطاب» . يبرز «هُوو» إنتماءه إلى مدرسة بيرمنكهام التي يترعّمها أوجين ونيتير (E. Winter) ويؤكد أنه سيتعامل مع الخطاب باعتباره «المونولوج» شفوياً كان أو كتابياً . وفي الممارسة يظهر الأسس الاختبارية التي يقوم عليها تحليله للخطاب بإبراز التطبيقات العملية التي أجريت على طلبة المعهد ونتائجها⁽²⁸⁾.

وقريباً من هذا التصور وبان بشكل مختلف يناقش ستابس Stubbs مختلف آراء الباحثين في الخطاب وتحليله وبصفة خاصة في الأدبيات الأنجلو- ساكسونية من هاليداي إلى فان ديك وويدسان ويؤكد انحيازه إلى استعماله الخطاب كمقابل للحوار إلا أنه يدرسه من زاوية سوسيو لسانية⁽²⁹⁾.

يقصر العرض عن تتبع مُختلف الاتجاهات والتجارب وفيما أبرزناه كفاية للدلالة على المشاكل التي طرحناها في بداية هذا المدخل ، هذا مع العلم أن هناك آراء أخرى لا يمكن تجاوزها أجّلناها إلى الحديث عن النص لأن أصحابها يقيمون تميزات بينهما ، وبالأخص فَاَن دِيك (1972 - 1977) وهاليداي (1976 - 1978 ...) ، الأول وهو يبحث عن أنحاء النص والثاني وهو يبحث في الوظائف على غرار ما سنلاحظ ذلك مع بعض الباحثين في الرواية في

الأدبيات الأنجلو-أمريكية عندما نتحدث عن الخطاب الروائي .

9.3. نستخلص من كل ما تقدم ملاحظتين أساسيتين :

1 - تتعدد دلالات الخطاب بتعدد اتجاهات ومجالات تحليل الخطاب . وعلى هذا الأساس ، تتداخل التعريفات أحياناً أو تتقاطع ، وأحياناً أخرى يكمل بعضها الآخر أو يتباعد وإياه .

2 - لتحديد الخطاب وتحليله التحديد والتحليل المقبولين علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتمي إليه والمجال الذي نشتغل فيه وفق أسئلة إبستمولوجية محددة . نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة : لماذا هذا التعريف ؟ ما هي الأدوات والإجراءات المناسبة؟؟ إلى ماذا نبغي الوصول؟ وكيف؟؟...

ب - تحليل الخطاب الروائي

1.5. إذا كان الخطاب ، بحسب التعريفات التي تعرضنا إلى بعضها بدءاً من متسالية من الجمل إلى الحوار فالمونولوج مروراً بالملفوظ والتلفظ ، وما يدخل في علاقة بأحدهما ، فما الذي يباعد بينه ، ونحن نتحدث هنا عن الخطاب الروائي ، وبين التصورات التقليدية في النقد التي تعاملت مع الرواية والعمل الروائي وما شابه ذلك من المفاهيم التي سجلنا في المدخل (أ - 1 - 1) أنها لا تدل على «موضوع» الدراسة بدقة كما تم ذلك مع الشكلايين الروس وهم يبحثون في «الأدبية» كموضوع أو «الخطاب» مع البويطيقا الجديدة أو غيرها من الاختصاصات؟.

قد يبدو هذا السؤال مشروعاً عندما ننظر إلى تلك التعريفات نظرة تبسيطية ، لكن هذه المشروعات سرعان ما تزول عندما نعرف أن خصوصيات تلك التعريفات تحمل في طياتها طرائق جديدة في التصور ، وإجراءات مختلفة في التحليل . وبحسب تحديدنا للشيء يتم فهمه وصياغة آليات هذا الفهم . وهذا ما سنحاول معاينته الآن من خلال عرض تحديدات الخطاب الروائي ، وما يستتبعها من اختلاف على مستوى تحديد مكوناته وخصائصه بشكل يجعلنا نلامس بجلاء التمايزات الجوهرية أو العرضية بحسب نوع الفهم الذي انطلاقاً منه نفهم الخطاب الروائي .

2.5. في هذه النقطة من التقديم سنتحدث عن «الخطاب الروائي» لذلك نرى من الضروري قبل تحديده كخطاب أولاً ومكونات وخصائص ثانياً ، ومن خلال تحليلات معينة للخطاب ثالثاً ، أن نقدم توضيحين متلازمين :

1 - كان الأولى أن نتحدث هنا ، عن الخطاب الحكائي أو السردى ، بدل الحديث عن الخطاب الروائي ، لسبب بسيط ، وهو أن التحليلات التي سنقوم بقراءتها أجريت على خطابات تقوم أساساً على الحكى (récit) ، ومنه تستمد طابعها الحكائي (قصص قصيرة - روايات - حكايات شعبية...) لذلك فحديثنا عن الخطاب الروائي يأتي انطلاقاً من المتن الذي سنشتغل عليه .

2- إن الخطاب الروائي يندرج ضمن الخطاب الحكائي أو السردى (وسنوضح لاحقاً الفرق بينهما) ، لذلك كانت التحليلات التي ستعرض لها تقدم إجراءات أو نماذج قابلة للاختبار على الخطاب الحكائي أيّاً كان نوعه . وتكون تسمية نوع الخطاب المشتغل عليه متصلة بالحكي مرة أو بإحدى أنواعه مرة أخرى ، الشيء الذي يبرر عمق العلاقة بينهما . ولهذا نرى أهمية هذا التوضيح ذي الطابع المنهجي .

(1) القصة والخطاب :

إن كل الذين اشتغلوا على الحكي لجأوا إلى إجراء تمييزات داخل كل عمل حكائي كيفما كان نوعه . وسنلاحظ اختلافات بينهم على هذا الصعيد ، ويمكن معاينة كون هذه التمييزات تأخذ شكلين : ثنائي أو ثلاثي . وكل هذه التمييزات ثنائية كانت أو ثلاثية يتم تسجيلها بشكل رئيسي عندما يتعلق الأمر بتحديد الحكي أو عند الحديث عن الزمن . نبدأ أولاً بالحديث عن التقسيم الثنائي للحكي ، ونحدث بعد ذلك عن التقسيم الثلاثي من خلال الأسئلة التي طرحناها مع الوقوف عند مميزات هذا التحديد أو ذلك وما يصاحب ذلك من فروقات واختلافات .

1.1. عندما حدد الشكلاينيون الروس «الأدبية» موضوعاً للعلم الجديد (البوطيقا) الذين يسعون إلى إقامته ، انطلقوا من مجموعة من الإجراءات التي تغيّر النظرة التقليدية للأدب . بل إن جزءاً كبيراً من أعمالهم انصب على السجال ولا سيما في البدايات مع الآراء القديمة . كان نزوعهم الوضعي من خلال اهتمامهم بالشكل أو الخصائص النوعية للأدب بارزاً منذ بداياتهم الأولى . كما كان استلهاؤهم للترعات العلمية المعاصرة بادياً على السطح ، من خلال اعتمادهم على اللسانيات وهي في بداياتها سواء من خلال تصريحاتهم المباشرة ذات الطبيعة النظرية ، أو تطبيقاتهم التي أجروها على اللغة الشعرية وما يتصل بالشعر من جوانب ذات طبيعة لسانية أو على باقي أنواع الخطاب الأدبي (قصص - حكايات - قصائد - روايات ...) .

في هذا الصدد يبيّن واخنباوم أهمّ اللحظات الرئيسية في تطوّر الشكلاينيين الروس من خلال أهمّ القضايا التي تناولوها في أربع لحظات :

1 - إقامة التقابل بين اللغة اليومية واللغة الشعرية ، وما استتبع ذلك من نتائج ودعوات إلى إقامة بلاغة جديدة تضاف إلى البوطيقا .

2 - انطلاقاً من المفهوم العام للشكل بمعناه الجديد تم التوصل إلى مفهوم النسق ومفهوم الوظيفة .

3 - انطلاقاً من التقابل بين الإيقاع الشعري والوزن تم التوصل إلى إدراك الشعر كشكل

متميز للمخاطب يتوفر على خصائصه اللسانية المتميزة (نظم - معجم - دلالة) .

4 - انطلاقاً من تحديد مفهوم النسق والوظيفة تم الانتقال إلى إقامة تصور جديد لتطور الأشكال تاريخياً . . . (30).

من خلال هذه الخلاصات المركزة التي يستنتجها ايخناوم تهمنا بالدرجة الأولى الملاحظة الثانية وجزئياً الملاحظة الأخيرة . نعين بجلاء من خلال هاتين الملاحظتين دور الشكلايين الروس في البحث عن مختلف أنساق الحكى تزامنياً وتزمنياً . لقد تم اهتمام الشكلايين بالأنساق البنائية في العمل الحكائي انطلاقاً من إقامة تماثل بين أنساق تركيب المبنى الحكائي وبين الأنساق الأسلوبية في الاستعمال الجاري للغة . وهذا ما نعينه بجلاء من خلال أبحاث شلوفسكي عن بناء القصة القصيرة والرواية وتوماشفسكي في دراسته عن نظرية الأغراض .

ركزت الدراسة الأدبية قديماً كل اهتمامها على المادة الحكائية . وهي التي كانت تسميها المضمون رادة كل ما تبقى للشكل الخارجي (31) لكن توماشفسكي وانطلاقاً من تصور الشكلايين الروس يميز ضمن العمل الحكائي بين ما يمكن تسميته بالمبنى الحكائي والمتن الحكائي . يقول : «إننا نسمي متناً حكاياً مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها ، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل وفي مقابل المتن الحكائي ، يوجد المبنى الحكائي الذي يتألف من نفس الأحداث بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل ، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا . . . » (32).

إن هذا التمييز في تقديري نظير تمييز دوسوسر بين اللسان والكلام ، وما كان له من دور في تغيير مجرى الدرس اللساني بجعله مقتصر على دراسة اللسان كموضوع . وفي أعمال الشكلايين سنجدهم يركزون على المبنى الحكائي (Sujet) الذي يولونه الأهمية الخاصة في بحثهم عن الأنساق الوظائف والحوافز . يبدو لنا هذا بجلاء في تحليل شلوفسكي لرواية دون كيشوط عندما يبرز الصفة غير المستقرة للبطل ، ويصل إلى استخلاص «أن هذا النوع من الأبطال هو نتيجة للبناء الروائي» ، وهكذا كان يقع الإلحاح على أسبقية المبنى (Sujet) والبناء على المادة (fable)، (33).

كان لهذا التمييز الدور البارز في إعطاء الدراسة الأدبية بعداً جديداً ، لأن كل الذين سيطورون أعمال الشكلايين الروس سيحددون المبنى الحكائي موضوعاً . وليس المبنى الحكائي إلا الخطاب كما سنعين ذلك مع تودوروف الذي ينطلق من أعمال الشكلايين الروس مطوراً إياها إلى جانب العديد من الباحثين .

2.1. في دراسته الهامة عن مقولات الحكى الأدبي في عدد «تواصلات» الخاص

بالتحليل البنيوي للحكي ، والذي يمكن من خلاله تسجيل حقبة جديدة في تحايل الحكي ، ينطلق تودوروف من تمييز توماشيفسكي بين المتن والمبنى ، فيؤكد بدءاً أن لكل حكي أدبي مظهرين متكاملين . إنه في آن واحد : قصة وخطاب⁽³⁴⁾ .

إن القصة (histoire) تعني الأحداث في ترابطها وتسلسلها وفي علاقاتها بالشخصيات في فعلها وتفاعلها . وهذه القصة يمكن أن تقدم مكتوبة أو شفوية بهذا الشكل أو ذاك . أما الخطاب (Discours) فيظهر لنا من خلال وجود الراوي الذي يقوم بتقديم القصة ، وبخيال هذا الراوي هناك القارئ الذي يتلقى هذا الحكي . وفي إطار العلاقة بينهما ليست الأحداث المحكية هي التي تهمنا (القصة) ، ولكن الذي يهم الباحث في الحكي بحسب هذه الوجهة هو الطريقة التي بواسطتها يجعلنا الراوي نتعرف على تلك الأحداث (الخطاب)⁽³⁵⁾ .

ينبني تودوروف تمييزه هذا بين القصة والخطاب انطلاقاً من تمييز الشكلايين الروس من جهة ، وتميز بنفست بين الحكي والخطاب من جهة ثانية . لكنه يذهب بعيداً في التاريخ الأدبي ليرز كون هذا التمييز يجد له أصولاً حتى في البلاغة القديمة التي تقيم اختلافاً بين مظهرين للعمل : فالقصة تتصل بما يسمى في البلاغة بـ (Inventio) ، ويرتبط الخطاب بما كانت تسميه بـ (Dispositio) .

بهذه الإحالة التي تمتد من التاريخ مع البلاغة إلى البوطيقا مع الشكلايين الروس واللسانيات مع بنفست يقدم تودوروف تصوراً متكاملاً لدراسة الحكي ، سواء في التمييز بين مظهريه في اختلافهما أو تكاملهما ، أو في خصائص كل واحد منهما . ثم يقدم لنا بعد ذلك مكونات كل من المظهرين ، مركزاً بشكل رئيسي على ما ينبغي أن يهتم به التحليل الأدبي بحثاً وتقصياً .

فالحكي كقصة يتم التمييز فيه بين مستويين هما : منطق الأحداث من جهة والشخصيات وعلاقاتها بعضها ببعض من جهة ثانية . أما الحكي كخطاب فيركز على تحليله من خلال ثلاثة جوانب : زمن الحكي وجهاته وصيغه .

يهمنا في هذا النطاق أن نسجل كون تعريف تودوروف للخطاب باعتباره يتصل بطريقة تقديم القصة يتماشى والمنطلق الذي انطلق منه توماشيفسكي من جهة ، والتحليل اللساني من جهة ثانية . فإذا كان اللساني في تحليله الفعل بحسب زمنه (temps) وجهته (aspect) وصيغته (Mode) ، فإن مكونات الخطاب الحكائي بحسب هذا التصور هي مكونات الجملة الفعلية . وهذا التماثل بين الجملة الفعلية والخطاب الحكائي هو الذي على أساسه يمكن أن نقيم تحليلاً بوطيقياً للحكي . وعندما يبين تودوروف كون ما يهمنا بالدرجة الأولى هو طريقة

الحكي (الخطاب) يغدو تحليل الخطاب من جهة مظهره الفعلي أو اللفظي مركزياً (Aspect verbal). والتركيز على المظهر الفعلي لا يعني إمكان إلغاء المظاهر الأخرى ، تركيبية كانت أو دلالية (A. Syntaxiques /Sémantiques). وسنعاين تودوروف في طبعة 1973 لكتابه البويطيقا يطرح مشاكل تحليل النص الأدبي بصفة عامة ومن خلال مختلف جوانبه.

3.1. من المنطلق نفسه يقيم جيرار جنيت تمييزاً بين ما يسميه الحكي (récit) والخطاب (Discours) في دراسته حول «حدود الحكي» التي ضمها عدد «تواصلات» السالف الذكر . يرى جنيت أن البويطيقا الكلاسيكية مع أرسطو وأفلاطون قبله تختزل مجال الأدب التمثيلي بجعله مقتصرأ على المحاكاة . وهي بذلك تلغي العديد من الخطابات ذات الوظيفة التمثيلية في الشعر . ويقترح تمييز بنفست بين الحكي أو القصة (histoire) والخطاب (Discours) ، ملاحظاً أن هذا التمييز يسعفنا بتجاوز الاختزال الذي حصرت فيه البويطيقا الكلاسيكية نفسها . وهكذا سيصبح مفهوم الخطاب عند بنفست شاملاً لكل ما أسماه أرسطو بالمحاكاة المباشرة . وتدخل فيه خطابات الشاعر أو الراوي ، التي تعطي للشخصيات . ثم يقوم بعد ذلك جيرار جنيت بقراءة لتمييز بنفست من خلال بعض الأمثلة التي وظفها بنفست نفسه أو استقاها من نصوص أخرى⁽³⁶⁾.

إن جيرار جنيت كما نلاحظ هنا ينطلق بدوره من البويطيقا الكلاسيكية ومن تمييز بنفست ، وسنقف عند تحديداته للخطاب الروائي ومكوناته وخصائصه عندما نتحدث عن التقسيم الثلاثي ، وهي تحديدات ومكونات لا تختلف جوهرياً عما رأينا عند تودوروف .

4.1. إذا كان تودوروف وجنيت من خلال تعريفهما للخطاب الحكائي ينطلقان من تمييز بنفست كلساني ويحاولان إعطاء أبعاداً تساير تصورهما البويطريقي ، وبماثلان بين الجملة والخطاب على مستوى التحليل النحوي من خلال التركيز على الجوانب الفعلية الثلاثة ، فإن مجموعة «ليبيج» تتوخى الهدف نفسه وهو تقديم مشروع متكامل لتحليل الخطاب الأدبي لكن انطلاقاً من تصورهما البلاغي . في سنة 1970 ظهر كتاب «البلاغة العامة» الذي تبين فيه الجماعة قراءتها البلاغية الجديدة ، وتذيل اجتهاداتها بطرح تصور لما أسميته بـ «صور السرد» وهو القسم الثاني للكتاب .

إن السرد (Narration) أو الحكي (récit) في رأي الجماعة غير قابل للوصف انطلاقاً من مقولات النحو⁽³⁷⁾ . وهنا يمكن أن نسجل اختلافها مع تودوروف وجنيت اللذين يقيمان تماثلاً بين تحليل الجملة والخطاب بحسب مقولات النحو . ويكمن السبب ، في رأي الجماعة ، في أننا نجد عدة أنظمة غير لسانية يستعمل فيه الحكي أو السرد مثل الفنون التشكيلية والمسرح والسينما . . . وبما أن الحكي يشكل حقلاً مهماً للتعميم البلاغي فإنهم يسعون إلى إقامة تصور متكامل في تحليل الحكي كيفما كان تجليه النظامي ، أو بمعنى آخر ، سواء

تجلى هذا الحكي من خلال أنظمة لسانية أو غير لسانية . . .

لإنجاز ذلك نجدهم ينطلقون من التمييز الذي قام به يلمسليف (Hjelmslev) بين : شكل وماهية التعبير من جهة ، وبين شكل وماهية المحتوى من جهة ثانية ، على اعتبار كون هذا التمييز كما يلاحظ ذلك نيكولا روفي (N. Ruwet) يتيح إمكانية تحليل أنظمة علامات أخرى غير اللغات الطبيعية .

تبعاً لهذا التمييز لا نجد الجماعة تتحدث عن الحكي أو السرد كما نجد ذلك عند تودوروف وجنيت ولكن عن العلامة (أو الدليل) السردية أو الحكائية (لا نجد عند الجماعة تمييزاً بين السرد والحكي) . والعلامة الحكائية تتشكل من خلال علاقة الحكي السارد بالحكي المسرود . أو بمعنى آخر أكثر وضوحاً بين «الخطاب (Discours)» و«الحكي (récit)» . إن الجماعة تفضل هذين الاستعمالين وتشير إلى كثرة الاستعمالات الواردة في عدد «تواصلات» الخاص بالتحليل البنيوي للحكي . فكيف تميز الجماعة بين الخطاب والحكي انطلاقاً من تمييز يلمسليف؟ .

في محورين أفقي وعمودي يتكون أولهما من الماهية والشكل والثاني من التعبير والمضمون تملأ الجماعة مختلف البياضات التي تربط بينهما من خلال هذا الشكل :

	العلامة	الشكل	الماهية	التعبير
الحكاية		الخطاب السردية	رواية - فيلم - رسوم متحركة	المضمون
		الحكي	عوالم واقعية أو متخيلة ، قصص واقعية أو متخيلة	

(بنية سيميوطيقا الحكي لدى جماعة ليبج)

نلاحظ من خلال هذا الشكل أن العلامة الحكائية تنظم الخطاب والحكي : الأول باعتباره شكل التعبير ، والثاني كشكل للمضمون . ومصطلح العلامة مأخوذ هنا من العلامة عند دوسوسور وقد أصبحت مع يلمسليف وحدة للشكل تتكون من شكل المضمون (المفهوم) وشكل التعبير (صور سمعية) ، وتبعاً لهذا التصور نجد هنا أيضاً تماثلاً بين العلامة والعلامة الحكائية .

في تحليل الجماعة للعلامة الحكائية نجدها تقيم تمييزاً بين الخطاب والحكي .

فتناول الخطاب من جهة : الزمن سواء تعلق الأمر بعلاقات المدة أو التابع أو التضمنين ثم فضاء الخطاب وأخيراً من خلال وجهة النظر . أما المحكي فتتم دراسته من خلال الشخصيات والقرائن والمؤشرات والأشياء والعوامل . . .

نستنتج من خلال هذا العرض المركز لوجهة نظر أصحاب البلاغة العامة أنهم يعرفون الخطاب باعتباره شكلاً للتعبير . وهذا الشكل لا يمكن أن يدرس إلا في ارتباط بشكل المضمون لما بينهما من صلات تتحدد بواسطتها العلامة الحكائية . ويبقى الاختلاف في التحديد رهين الاختصاص المنطلق منه (البلاغة) والأدوات الإجرائية الموظفة في التحليل ، رغم ما يمكن أن يبدو لنا من تشابه بين تصور الجماعة وتودوروف وجنيت في بعض الجوانب المتعلقة بالخطاب . إن التصورين يتفان مثلاً فيما يتصل بالزمن ووجهة النظر وإن كانا يختلفان في كيفية التعامل معهما ، أما الفضاء بالنسبة لتودوروف وجنيت فلا يمكن إدخاله ضمن مقولات «نحو» المحكي .

5.1. بعد تمييز موريس جان لوفيف (M.J. Lefebvre) بين الخطاب الأدبي واليومي ، وبين كيف فهم الأدب قبل التحول الذي طرأ مع القرن التاسع عشر وبعده ، يستعير من اللسانيات بعض المصطلحات الأساسية قصد تدقيقها ، ما دام الأدب معالجة خاصة للغة . من أجل ذلك ينطلق من التمييز الذي قام به دوسوسور بين اللسان والكلام ويرى على غرار أريك بيزنس (Buysens) في كتابه «اللغات والخطاب» ، ضرورة إدخال مصطلح جديد وثالث يضاف إلى السابقين وهو الخطاب⁽³⁸⁾ .

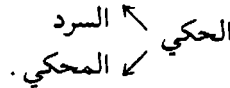
إن الخطاب يتعارض في آن مع اللسان والكلام . وإذا كان اللسان خزان العلامات والقواعد فإن الخطاب يتعلق بالترابطات التي تتم على هذه العلامات بحسب القواعد التي تملئها الشفرة ، (code) ، أما الكلام فيصبح إذن هو الاستخراج الملموس لهذه التنسيقات ، أي أنه فعل التواصل ذاته ، ويخضع الخطاب الأدبي لنفس «الشفرة» التي نجدها في الخطاب اليومي ، لكنها تختلف مع ذلك ، ما دام الأدب استعمالاً خاصاً للغة . وهذا سيدفعنا إلى افتراض شفرة ثانية يمكن إضافتها إلى الشفرة العادية . يسمي لوفيف هذه الشفرة بالشفرة البلاغية ، ويرى ضرورة إقامة متتالية من القواعد التي تشكل اللسان الأدبي . وتبعاً لذلك يُقر بأن الشفرة البلاغية تختلف عن اللسانية وهذا يستدعي ضرورة البحث في خصائصها⁽³⁹⁾ .

من هذا المنطلق الذي يحدد فيه لوفيف مصطلحاً جديداً هو الخطاب يضاف إلى الكلام واللسان ، لا نجده كما سبق أن رأينا يقيم تماثلاً معيناً بين الكلام أو الملفوظ والخطاب أو توسيعاً لحدوده بجعله يتجاوز الجملة . وهذا ما سيجعله على خلاف التصورات التي تنطلق من أعمال بنفست أو يلمسليف يعتبر الخطاب شيئاً مستقلاً بخصائصه

ومميزاته وبالتالي شفراته بالقياس إلى الكلام أو اللسان .

يظهر لنا هذا بجلاء عندما يتحدث عن الخطاب الأدبي وبالأخص عن الخطاب الحكائي . إذ لا نجده يقترح تقسيماً على غرار ما سبق أن رأينا بين الخطاب والحكي أو القصة والخطاب . بل نجده يتحدث بصفة عامة عن خطاب الحكي . لكنه يجد أمامه تميزات للحكي عند كل من تودوروف وجيرار جنيت فينطلق منها . وهكذا نجده في الفصل الذي يخصصه لخطاب الحكي يبدأ بتميز هذا الخطاب بجعله يستوعب السرد (Narration) والمحكي (Diègèse) . فيقول: الحكي هو «كل خطاب يدفعنا إلى استدعاء عالم مدرك كواقع مادي أو روحي . وهذا العالم يقع في مكان وزمان محددين ، وهو يعكس غالباً فكراً محدداً لشخص أو مجموعة من الأشخاص بما فيها الراوي»⁽⁴⁰⁾ . وهذا العالم المفترض لا يمكن الوصول إليه إلا عبر الخطاب .

إن الحكي يبدو بحسب هذا التعريف كآلية يتداخل فيها السرد والمحكي على هذا الشكل :



وليس السرد إلا الخطاب اللفظي الذي يخبرنا عن هذا العالم ، وهو الذي يسمى أحياناً بالتلفظ (Enonciation) . أما المحكي فهو ذلك العالم الذي يتضمن الفضاء والشخصيات والأحداث . إنه كما يصرح لوفيف نفسه ليس إلا الحكي في إحدى التقسيمات (جنيت) ، أو القصة المتخيلة (Fiction) التي يضعها ريكاردو مقابل السرد .

نلاحظ بجلاء أن لوفيف ينطلق من تحديد خاص للخطاب بوضعه مقابل اللسان والكلام . لكنه ينتهي في تحديده للخطاب الحكائي إلى التميزات الشائعة ولا سيما تلك التي أقامها تودوروف بناء على تمييز الشكلايين الروس وبنفست . كما أننا نلاحظه يستعمل السرد والمحكي تقريباً بنفس الدلالات التي نجدها عند تودوروف ، لكنه وبسبب التصور الذي ينطلق منه نجده يحدّدهما كخصائص ومميزات بشكل مختلف نسبياً .

إن التصور الذي يحمله لوفيف انتقائي ، إذ نجده يستفيد من البوطيقا والبلاغة ، كما أننا نجده يطرح أسئلة تتجاوز أسئلة البنيويين بصفة عامة مثل تساؤله عن لماذا يحدث الخطاب الأدبي أثراً معيناً في القارئ؟ وهذا التصور سينعكس على طريقة تحليله . ويبدو هذا في بحثه عن الخطاب كسرد من خلال إحياءات السرد ورؤياته السردية ، وفي بحثه عن المحكي كخطاب من خلال تركيزه على البعد الواقعي والجمالي في المحكي انطلاقاً من الشفرة البلاغية ومن خلال بحثه عن الوظائف والعوامل التي يستلهم فيها سيميوطيقا

غريماس ، والتي من خلالها يبحث عن آثار الخطاب في القارئ من وجهة نظر بلاغية ومرجعية .

6.1. يعود تودوروف في طبعة 1973 لكتابة «البوطيقا» ليطور المنطلقات التي تحدث عنها في «مقولات الحكيم الأدبي» سنة 1966، مستفيداً من العديد من الإنجازات ، وبالأخص التطوير الخصب الذي أضفاه جنيت على تحليل الخطاب الروائي سنة 1972 من خلال كتابه «خطاب الحكيم» . في فصل مركزي يتعلق بـ «تحليل النص الأدبي» ، يطرح تودوروف تصوراً متكاملًا حول تحليل النص الأدبي .

يبدأ أولاً بتسجيل كون النص الأدبي يتحدد من خلال ثلاثة جوانب مركزية . هذه الجوانب هي : الدلالي والتركيب والفعلي . وهذه الجوانب الثلاثة مدرجة منذ القدم . فالبلاغة الكلاسيكية تقسم حقولها إلى ثلاثة : الفعلي (Elocutio) والتركيب (Dispositio) والدلالي (Inventio) . والشكلاونيون الروس وزعوا دراساتهم الأدبية إلى ثلاثة : أسلوبية وتركيبية (Compositio) وغرضية (Thématique) . واللسانيات المعاصرة تفصل الفونولوجيا عن التركيب عن الدلالة⁽⁴¹⁾ .

مورس التعامل مع هذه الجوانب الثلاثة باختلافات عديدة بين البلاغة والبوطيقا واللسانيات . كما أنه - تاريخياً - كان التركيز يتم أحياناً على هذا الجانب أو ذاك . وهذا الوضع ما يزال مستمراً إلى يومنا هذا ، وله أسبابه ومحدداته .

يبرز تودوروف أن الجانب اللفظي (الفعلي) هو المركزي بالنسبة للبوطيقا التي يشتغل فيها ، فيما يتصل بتحليل الحكيم ، لأن هذا الجانب أساسي في بعده هذا بالمقارنة مع الحكيم الذي نجده يتم باستخدام وسائط أخرى غير لفظية كالسينما مثلاً . وبعد أن يعطي فكرة عن كيف تم التعامل مع مختلف هذه الجوانب في فترات زمنية عديدة . يؤكد أن الجانب اللفظي حظي - راهناً - باهتمام العديد من التيارات النقدية الجديدة : الأسلوبية ، وجهات السرد ، الأبحاث المورفولوجية الألمانية ، وجهات النظر في النقد الأنجلو-أمريكي . ويقدم لنا فكرة عن مختلف هذه الجوانب معطياً للجانب اللفظي المكانة الأساس .

إن هذه الجوانب الثلاثة مع المقولات التي تتضمنها على مستوى التحليل تبدو لنا على الشكل التالي :

(1) الجانب الدلالي : نجيب فيه عن سؤالين : كيف يدل النص على شيء؟ وعلى ماذا يدل؟ ونطرح فيه قضايا سجلات الكلام .

(2) الجانب اللفظي : يتضمن المقولات التالية : الصيغة (Mode) والزمن (Temps)

والرؤيات (Visions) ، والصوت (Voix) .

3) الجانب التركيبي : ويتضمن : بنيات النص - النظام الفضائي (وهو خاص بالشعر) - التركيب السردى - تخصيصات وارتدادات (وهنا يتحدث عن المحمولات السردية) .

نسجل هنا بوضوح أهم الجوانب التي يرى تودوروف أنها شاملة بما أنها تَسُغ النص الأدبي بكامله . لكن البويطيقا كما مارسها هو وجيرار-جنيت تقف عند حدود الجانب اللفظي . لذلك كان فهمهما للخطاب بالمعنى الذي رأيناه معهما مقتصرًا على الحدود التي تقف عندها التصورات البنيوية . وسيسعنا عرض تودوروف هذا لجوانب النص الثلاثة على تبين مختلف المواقف التي نحن بصدد عرضها وبالأخص موقف فاوولر ولودج وويدوسن ، كما أنه سيفيد في إبراز موقفنا وتصورنا .

7.1. رأينا - إلى الآن - مجموعة من الآراء التي تسعى إلى تحديد الخطاب الحكائي عن طريق التمييز بوجه عام بين «القصة والخطاب» بأشكال متعددة ، وهي تستفيد أحياناً من الشكلايين الروس أو اللسانيات بصفة عامة وخصوصاً مع بنفست أو يلمسليف . كما رأينا أن التمييز الأكثر وضوحاً وانسجاماً هو الذي نجده مع تودوروف وجنيت ، وأن باقي التقسيمات (لوفيف - جماعة ليبج) تنطلق من تقسيمهما لكنها تعطيه دلالات وأبعاداً تنسجم مع التصورات المنطلق منها بلاغية كانت أو انتقائية بصفة عامة ، وبالأخص فيما يتصل بالجانب السيميوطيقي سواء مع الجماعة ولوفيف أو الجانب المرجعي مع لوفيف .

كما أننا نلاحظ كون هذا التمييز أو تحديد الخطاب الحكائي بصفة عامة يماثل بين التحليل اللساني للجملة والتحليل الممكن للخطاب الحكائي ، ولقد رأينا هذا بوضوح مع بويطيقا تودوروف وجنيت .

وعلى غرار العمل الذي قام به تودوروف نجد هارلد فاينريش (H. Weinrich) ينطلق في دراسته للحكي من خلال مقولة واحدة هي الزمن في الخطاب الحكائي ، وليس من خلال قراءة لمختلف مقولاته كما سنرى مع جنيت (1972) . لكنه في تحديده للخطاب نجده يستعيد التمييز الذي قام به بنفست والذي سبق عرضه مقيماً تقابلاً بين القصة والخطاب ، ساعياً من وراء ذلك إلى اقتراح تصور لللسانيات الخطاب أو النص على غرار العمل الذي أنجزه اللساني بنفست⁽⁴³⁾ .

في عمل فاينريش يظهر لنا بجلاء ما سبق لنا أن قلناه عن تودوروف وجنيت ، سواء على مستوى تحديد مفهوم الخطاب أو على مستوى تحليل إحدى مكوناته (الزمن) . وسنقف بشكل ملموس عندما نتحدث عن زمن الخطاب عن الطريقة التي يمارس بها تحليل الخطاب

الروائي بالمقارنة مع جنيت وتودوروف وغيرهما ، بهدف الوقوف على كيفية ممارسة المماثلة بين التحليل اللساني للزمن وتحليل لسانيات الخطاب للخطاب الحكائي أو الروائي .

لا نريد الذهاب بعيداً في مواصلة الحديث عن التقسيمات الثنائية للحكي ، وإلا فإن ذلك سيخرج بنا عن الغاية التي نتوخى . وتكفي في هذا الإطار الإشارة إلى أن العديد من الباحثين الذين اشتغلوا على الحكي قدموا تمييزات ثنائية ضمنه ، دون أن يسموا بشكل مباشر أحد طرفي الثنائية بالخطاب على غرار ما رأينا ، وإن كان يحمل دلالاته . وعلى سبيل المثال نجد صاحبي كتاب عالم الرواية يتحدثان عن القصة (histoire) والسرد (Narration) . والسرد هنا يأخذ معنى الخطاب⁽⁴³⁾ . وسوزان روبين سوليمان تتحدث عن النص السردى وتميز ضمنه بين مستويين : مستوى القصة ومستوى الحكي ، وليس الحكي هنا إلا الخطاب بالمعنى الذي نجده عند تودوروف أو جنيت ، وحتى مكوناته نجدها تستعيرها من جنيت ، لكن ما يتصل بمستوى القصة تأخذه عن غريماس⁽⁴⁴⁾ . أما في الكتابات الأنجلو-أمريكية فنجد نظير ذلك عند فورستر أو شولتز وكيلغ حيث نجدهم يميزون بين القصة (Story) والحبكة (Plot) . فالقصة بخيب شولتز وكيلغ مفهوم عام يشمل الشخصيات والأحداث في الشكل الحكائي . أما الحبكة فهي مفهوم خاص يتصل فقط بالأحداث دون الشخصيات أو بدرجة أقل⁽⁴⁵⁾ . ونظير هذا تقريباً ما نجده عند جيرالد برينس في كتابه عن «السرديات» وهو يميز بين مستويين في كل عمل حكائي مكتوب : الأول يتشكل من علامات الحكي أو السرد ذاته (Narrating) ، ونجده يتضمن مستويات سفلى وهي الراوي والمروي له والسرد كفعل (Narration) ، وهذا المستوى هو الخطاب كما رأيناه . أما المستوى الثاني فهو المسرد أو المحكي (narrated) ويتضمن الشخصيات والزمن الذي تجري فيه أفعال الشخصيات والفضاء⁽⁴⁶⁾ .

إن التقسيم الثنائي للحكي أو للعمل الحكائي بوجه عام يجد منطلقه بشكل رئيسي في تمييز الشكلايين الروس . لكن تحديد الخطاب كمستوى حكائي لا نجده يتم بحسب المنطلقات التي حددناها في البداية إلا مع البويطيين بشكل خاص : تودوروف وجنيت وفاينريش . على اعتبار الخطاب يأخذ هنا طابع «موضوع» عمل البويطي من خلال الوقوف عنده كجانب لفظي كما رأينا بوضوح عند تودوروف . أما الأعمال الأخرى ، فإنها وإن كانت تقيم تمييزاً داخل الحكي بين مستويين فإنها لا تحدد موضوع الدراسة أو الاهتمام بالدرجة الأولى ، إذ تدرسهما معاً بنفس الهمة والاهتمام . وهذا ما يجعلها تكون انتقائية أي أنها تستفيد من أعمال البويطي وهو يشتغل على الخطاب - وأعطي هنا مثال سيزان سوليمان - كما تستفيد من أعمال السيميوطيقي مثلاً وهو يشتغل على القصة كوظائف وأعمال وعوامل . . . ولكل من هذه الممارسات ، سواء كان ذلك على مستوى التحديد أو تشخيص

المكونات أو المقولات أبعاده وتصورات وأسلته الخاصة التي حاولنا طرحها في مقدمة هذا البحث من منظور ابستمولوجي .

2- القصة ، الخطاب ، النص :

في هذا الجانب ، يمكننا التمييز بين قسمين رئيسين : القسم الأول ، من حيث الجوهر نعتبره ثنائياً . وأجللنا الحديث عنه إلى هذه النقطة لأنه من جهة أولى ينبني على تمييز الحكيم من خلال ثلاثة عناصر ، ولأنه من جهة ثانية سيجلي لنا من خلال المقارنة الأسس التي يقوم عليها التقسيم الثلاثي المحض وهو الذي سنتحدث عنه في القسم الثاني .

نجد القسم الأول بالخصوص مع تمييزي بارث وجنيت للحكي وسنبين لماذا يمكن إدراجهما ضمن التقسيم الثنائي . أما القسم الثاني فستعرض له من خلال كتابات «ريمون - كينان» و«روجر فاؤلر» و«جوفري ن . ليش» و«مايكل هـ . شورت» . وبعد عرضنا لمختلف هذه التصورات سنبين موقفنا والتصور الذي سنأخذ به في تحديد الخطاب الحكائي بصفة عامة والروائي خاصة ، وفي تحديد مكوناته التي سنقوم بتحليلها في التطبيق على الرواية العربية .

1.2. نجد دراسة رولان بارث «مدخل إلى التحليل البنيوي للحكي» تصدر العدد «تواصلات» الخاص بالتحليل البنيوي للحكي . ولهذه الدراسة أهميتها التاريخية لأنها تضع الأسئلة والأسس التي ستهتم الأبحاث اللاحقة ببلورتها وتوسيع إجراءاتها . ينطلق بارث أولاً من اعتماد اللسانيات كمبدأ أساس لتحليل الحكيم بحثاً عن نظرية أو نموذج . وإذا كانت اللسانيات تقف عند حدود الجملة فعلى لسانيات الخطاب أن تقام حالياً على دعائم اللسانيات المعاصرة . إذ لا يمكن للخطاب باعتباره مجموعة من الجمل إلا أن يدرس من هذه الزاوية . وبعد إشارته إلى إقدام العديد من اللسانيين على تحليل الخطاب مثل بنفست وهاريس وروفي ، يرى أن إمكانية تقديم نظرية لسانية للخطاب ما يزال بعيداً ، غير أن ما يمكن القيام به حالياً هو إبراز العلاقة الموجودة عن طريق المماثلة بين الجملة والخطاب⁽⁴⁷⁾ .

تظهر هذه المماثلة ، يسجل بارث ، في كوننا نجد في الحكيم كل المقولات الرئيسية التي نجدها في الفعل من زمن وصيغة وجهة وضماير وهذا ما قام به البويطيون . كما أننا نجد في النمذجة العملية مع غريماس الوظائف الأولية للتحليل النحوي من خلال تعدد الشخصيات . إن المماثلة بين اللغة والأدب تبعاً لهذا ثابتة وقائمة .

وإذا كانت اللسانيات تصف الجملة على عدة مستويات (صوتية - نحوية - فونولوجية...) . وتتيح لنا نظرية المستويات مع بنفست النظر إلى نمطين من العلاقات التوزيعية والإدماجية فعلينا القيام بإنجاز مثل هذا العمل فيما يتصل بالحكي . يقدم لنا مثلاً

لهذا العمل من خلال الإشارة إلى تودوروف الذي انطلق من الشكلايين الروس وميز بين مستويين : القصة والخطاب ، وبحث في الخطاب من ناحية الزمن والجهة والصيغة .

بعد هذه المقدمات يوضح لنا بارث اقتراحه الذي على أساسه يمكننا تحليل الحكيم تحليلاً لسانياً . بدءاً يميز بين ثلاثة مستويات : الوظائف والأحداث والسرد . ويؤكد أن هذه المستويات مرتبط بعضها ببعض بحسب نمط الإدماج المتصاعد . ليس للوظيفة معنى إلا لكونها تأخذ مكاناً ضمن الحدث العام للعامل . وهذا الحدث يأخذ معناه من خلال السرد الذي ينجز عبر الخطاب الذي له شفرته الخاصة⁽⁴⁸⁾ ، ويقوم بعد ذلك بدراسة كل مستوى على حدة .

إن مستوى الوظائف يستعمله بمعنى بروب وبريمون ، ومستوى الأحداث بمعنى غريماس للأعمال والعوامل . أما مستوى السرد فهو يأخذ معنى الخطاب عند تودوروف . نلاحظ بجلاء من خلال هذا التقسيم أن المستويين الأول والثاني متداخلان ويمكن تسجيلهما معاً من خلال ما أسماه تودوروف بـ «القصة» ، لما بين الوظائف والأحداث من علاقات تتصل بمادة الحكيم . وبإزائهما يمكن الحديث عن مستوى السرد أو الخطاب باعتباره يتصل بطريقة الحكيم .

2.2. يبدأ جيرار جنيت في كتابه خطاب الحكيم الذي تتضمنه «صور 3» بطرح المشاكل التي يثيرها مفهوم الحكيم (le récit) ، ويرى أن على السرديات (Narratologie) أن تسهم في حل هذه المشاكل ، ويلاحظ أنه يمكننا تمييز ثلاثة تحديدات عن بعضها فيما يتصل بالحكي وهي :

1- في الاستعمال العادي . نقصد بالحكي الملفوظ السردية ، أو الخطاب شفويّاً أو كتابياً وهو الذي يتكلف بربط حدث بحدث أو مجموعة من الأحداث (حكي أوليس : أي الخطاب الذي قام به البطل في الأناشيد 9 - 12) .

2- في الاستعمال الجاري عند المنظرين والمحللين : يعني الحكيم تتابع مجموعة من الأحداث واقعية أو متخيلة وهي التي تكون موضوع الخطاب ، و«تحليل الحكيم» تبعاً لهذا يعني : دراسة مجموعة الأحداث منظوراً إليها في ذاتها (مجموع المغامرات التي عاشها أوليس منذ سقوط طروادة إلى وصوله عند كاليبسو) .

3- في الاستعمال الأقدم : يعني الحكيم أيضاً الحدث ، لكنه ليس الذي نحكي هذه المرة ، ولكنه الذي يتعلق بشخص ما يحكي شيئاً . إنه فعل الحكيم (السرد) ذاته⁽⁴⁹⁾ .

وبعد تمييزه بين هذه الاستعمالات الثلاثة يبين أن نظرية الحكيم لا تهتم كثيراً بالتلفظ السردية لكونها تركز أكثر على الملفوظ ومضمونه ، ويفسر المنطلق الذي ينطلق منه لإقامة

نظرية للحكي . يشرع أولاً في توضيح المقصود من الحكي في عنوان كتابه (Discours du récit) ، فيسجل أن الحكي هنا يأخذ معناه الجاري أي الخطاب السردى (في الأدب) أو النص السردى⁽⁵⁰⁾ ، لكن تحليل الخطاب السردى يؤكد جنيت يؤدي إلى دراسة علاقات :

- الخطاب والأحداث (المعنى الثانى).

- الخطاب والفعل الذى أنتجه واقعياً هوميروس ، وتخليلاً أوليس . وهذا هو المعنى

الثالث .

ولتجنب أي إبهام أو غموض يسعى إلى تغيير الأسماء المتصلة بالاستعمالات الثلاثة للحكي لتصبح ثلاثة وهي :

(1) القصة (histoire) : المدلول أو المضمون السردى .

(2) الحكي (récit) : الدال أو الملفوظ أو الخطاب أو النص السردى ذاته .

(3) السرد (Narration) : الفعل السردى المنتج .

نعين بجلاء التقسيم الثلاثى الذى يقدمه جنيت ، انطلاقاً من محاولته توضيح السمات التى يأخذها الحكي فى أي عمل أدبى . لكن تقسيمه هذا يمكن أن نرجعه إلى قسمين فهناك من جهة القصة ومن جهة ثانية الحكي والسرد لما بين الحكي والسرد من وشائج عميقة ، وسنلاحظ من خلال حديثنا فى الفصل الثانى عن الصيغة (Mode) كيف يظهر ذلك .

لكن جنيت وعلى غرار تودوروف يرى أن الحكي بمعنى الخطاب هو وحده الذى يمكننا دراسته وتحليله تحليلاً نصياً⁽⁵¹⁾ . وذلك لسبب بسيط هو أن القصة والسرد لا يمكن أن يوجد إلا فى علاقة مع الحكي . وكذلك الحكي أو الخطاب السردى لا يمكن أن يتم إلا من خلال حكيه قصة وإلا فليس سردياً . إن الخطاب سردى بسبب علاقته بالقصة التى يحكي ، وبسبب علاقته بالسرد الذى يرسله .

لذلك على تحليل الخطاب السردى أن يهتم بدراسة العلاقة الموجودة بين الحكي والقصة من جهة والحكي والسرد من جهة ثانية والقصة والسرد من جهة ثالثة ، وذلك ما يمكن أن يتم من خلال «خطاب الحكي» .

يوضح بعد ذلك المقولات الثلاث التى تحدث عنها تودوروف حول الخطاب ويبين اتفاقه الجوهرى معه رغم بعض الاختلافات ، وينتهى إلى اعتبار أي حكي نتاجاً لسانياً ، ولأنه كذلك فمن الطبيعى معالجته كتطوير لشكل فعلى أو لفظى (Forme verbale) بالمعنى النحوى للكلمة ليصبح من ثمة توسيعاً فعلياً . وهذا يتيح لنا تكوين قضايا تحليل الخطاب السردى بحسب المقولات المستقاة من نحو الفعل (Grammaire du verbe) ، والتى يمكن

اختزالها في ثلاث وهي : الزمن ، والصيغة ، والصوت . فالزمن والصيغة يتمان على مستويين للعلاقات بين القصة والحكي ، أما الصوت فيتصل في آن بعلاقات السرد والحكي والسرد والقصة .

نستنتج كون جنيت يلتقي بشكل أساسي مع تودوروف وفابريش سواء على مستوى تحديد مفهوم الخطاب أو تحديد مكوناته انطلاقاً من مبدأ المماثلة بين لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب . وإذا كانت بعض التحديدات التي تعرضنا لها توسع مجال اهتمامها بمستويات الحكي الأخرى فإننا مع البويطيقا نقف عند المظهر الفعلي أو اللفظي في بعده النحوي مع تجاوز الجوانب الأخرى دلالية كانت أو تركيبية . أما التحديدات الأخرى التي تدخل جوانب أخرى تتصل بالأحداث أو الوظائف أو بمسميات أخرى ، فذلك لكونها تهتم بمظاهر ترتبط بالدلالة إما في بعدها السوسولوجي مع سوليمان وليفيث أو في بعدها السيميوطيقي مع بارث وجماعة ليج وسوليمان أيضاً .

3.2. في التقسيمات الثلاثية بالمعنى المحض سنبدأ بالحديث عن «شلوميث ريمون كينان» (Sh. R. Kenan) لكونها تنطلق من بويطيقا جنيت متجاوزة الحدود النحوية التي يقف عندها .

تنطلق كينان في كتابها التخيل الحكائي (البويطيقا المعاصرة) من التساؤل أولاً ما هو الحكي (Narrative)؟ ولماذا نجد في تعليق صحفي سرداً ولا نجد حكياً؟ تضع بحثها في البداية ضمن أعمال البويطيقيين وتطرح أسئلة البويطيقا بنجامين هروشفوسكي (1976) وتعريفه لها . ثم تعرف التخيل الحكائي (Narrative Fiction) بأنه «سرد» متتابع لأحداث متخيلة»⁽⁵²⁾ .

وتحدد هذا التعريف على الشكل التالي : يعني السرد (Narration) التواصل المستمر الذي من خلاله يبدو الحكي (Narrative) كمرسلة يتم إرسالها من مرسل إلى مرسل إليه . والسرد ذو طبيعة لفظية (Verbal) لنقل المرسلة . وبه كشكل لفظي يتميز عن باقي الأشكال الحكائية (الفيلم - الرقص - البانتوميم . . .) . أما الأحداث فهي الأشياء التي وقعت . ويعني التتابع حكي أكثر من حدث واحد بشكل مترابط ، والمتخيل يأخذ معاني كثيرة ويمكن أن تدخل فيه ما يحكيه شعب عن آخر والإشاعات والتعليقات الصحفية . . . وإن كانت أقل تخيلاً مما نجده في الرواية والقصة القصيرة والشعر السرد . . .

إن تحديد التخيل الحكائي يقوم على هذه الجوانب الثلاثة؟ : 1 - الأحداث . 2 - تمثيلها اللفظي . 3 - الفعل القولّي أو الكتابي . ومن منطلق جنيت الذي يميز بين السرد والحكي والقصة تقول كينان سأعمل على إقامة هذا التقسيم :

1 - القصة (Story) . 2 - النص (Text) . 3 - السرد (Narration) . فالحكى يظهر لنا من خلال القصة كأحداث مسرودة مجردة من تركيبها في نص ومعاد تركيبها . وإذا كانت القصة هي تتابع الأحداث ، فإن النص هو الخطاب المكتوب أو الشفوي الذي من خلاله نتمكن من قراءتها . وبما أن النص هو الخطاب فلا بد له من كاتب أو متكلم . لذلك فإن فعل أو عملية الإنتاج هي التي يمكن اعتبارها الجانب الثالث أي السرد . ومن خلال النص نتعرف على القصة باعتبارها موضوعه والسرد باعتباره عملية إنتاجه .

ثم نقوم بدراسة كل جانب على حدة . وهكذا نجدها تُحلل القصة من زاوية الأحداث والشخصيات . والنص من حيث الزمن والتشخيص (وهو عنصر يتصل بمقولة الشخصية) وأخيراً التبثير . ونلاحظ من خلال هذه الجوانب أن الكاتبة توظف تحليل جنيت للخطاب ولمكوناته . أما السرد فتدرسه على مستوى علاقة الكاتب بالراوي وعلاقة السرد بالقصة ثم على مستوى صيغ السرد . ثم تعود من جديد إلى النص لتحدث عنه في علاقته بالقارئ وفعل القراءة .

لماذا نعين في حديث كينان عن الحكى ما يرتبط بوثوق بتصور جنيت وفي آن يختلف عنه؟ ولماذا تستعمل مكونات خطاب الحكى عند جنيت لما تسميه بالنص؟ هل الأمر مجرد تغيير كلمة بأخرى أم لأسباب أخرى؟ .

إن التقسيم الثلاثي يظهر لنا واضحاً : فالعلاقة بين المستويات الثلاثة واضحة . لكن الباحثة تركز عليها جميعاً ، ولكنها تولي أهمية خاصة نسبياً للنص والسبب في ذلك يعود إلى كونها لا تقف عند الحدود التي يقف عندها جنيت وتودوروف (الجانب الفعلي) ، إذ تتعداه إلى جوانب أخرى تتجاوز ما أسماه جنيت بـ «نحو الفعل» . إنها تستفيد في دراستها من النقد الأنجلو- أمريكي الجديد والشكلانيين الروس والبنوية الفرنسية (البوطيقا - السيميوطيقا) ومعهد تل أبيب للبوطيقا وفينومينولوجيا القراءة . والمجالان الأخيران هما اللذان أمداهما بالأدوات المناسبة لتجاوز الحدود النحوية انطلاقاً من الأسئلة التي تطرحها حول خصوصية التخيل الحكائي وحول طبيعته ومجموع علاقاته التي تتجاوز «الداخلي» أو «البنوي» الذي وقف عند حدوده تودوروف وجنيت .

4.2 . وجه آخر للتقسيم الثلاثي نجده عند روجر فاولر (R. Fowler) في كتابه اللسانيات والرواية . ينطلق فاولر من المماثلة بين الجملة والنص على مستوى التحليل اللساني . وعلى سبيل المثال أن الروايات مثل الجمل تتأسس على مقولات بنوية تشترك وعناصر بنية الجملة⁽⁵³⁾ . لذلك سنجد للنص بنية سطحية وأخرى عميقة مع ما تحمله هاتان البنيتان من مكونات وعناصر . وبعد حصره لمظاهر بنية الجملة من خلال : البنية السطحية والقضية والجهة يماثل بين هذه المظاهر الجميلية ومظاهر الحكى على الشكل التالي :

الجملة	الحكي :
- البنية السطحية	- النص
- الجهة	- الخطاب
- القضية	- المحتوى

ويؤكد أن النص معناه البنية السطحية النصية الأكثر إدراكاً ومعاينة . وإذا كانت البنية السطحية عند اللساني هي متوالية الجمل في تطورها وتتابعها ، فإن تيار الجمل يؤدي إلى تحديد سرعة وإيقاع القراءة ، لذلك كانت العلاقة بين التركيب والإخبار هي المحور المركزي في بنية النص . وضمن النص نجد فاولر يدخل الجوانب الفيزيائية مثل الخط وتنقسم الفقرات والفصول والصفحات ، وهو ما سنجده عند ليتش وشورت يحمل اسم الجانب الكرافي . أما الخطاب فهو ما تؤديه اللغة عن معتقدات الكاتب وتطور أفكار الشخصيات وقيمتها والراوي والشخصيات والقارئ . لذلك كان الخطاب مائلاً للجهة التي تظهر لنا من خلال أفعال الجهات وأفعال الكلام ويعني بالمحتوى ما يتصل بالبكة والموضوع والخصائص الدلالية والأسماء منظوراً إليها كأفعال عميقة⁽⁵⁴⁾ .

وبعد تحليله لهذه المستويات يؤكد أن اهتمام اللساني سيكون بالضرورة مركزاً على الجانبين الأول والثاني ، وذلك لبعد المستوى الثالث عن اهتمام الباحث اللساني .

إن فاولر في تصوره للعمل الحكائي من هذه الزاوية يبدو متأثراً بالمقاربة الوظيفية كما جدها عند اللساني الإنجليزي هالداي . وإذا كان هالداي يحصر هذه الوظائف في ثلاث : لوظيفة النصية والتواصلية (Interpersonal) والتجريبية (التجربة) (Ideational)، فإن جوانب لحكي ستوازي كل واحدة منها وظيفة من تلك الوظائف . فالنص يماثل الأولى والخطاب لوظيفة الثانية والثالثة والمحتوى الوظيفة الثالثة .

نلاحظ أن التقسيم الثلاثي مع فاولر يأخذ صورة غير التي سبق تكوينها من خلال العرض ، فبتحديده لهذه المستويات بهذا الشكل تبدو لنا القطيعة بارزة مع اللسانيات البنوية ومع الاتجاهات النقدية التي تمتع منها . إن للوظيفية فهماً آخر للغة ، وطريقة أخرى للتحليل . لذلك نجد فاولر وهو يحاول إقامة نحو للنص يسجل كون «النقد المعاصر يؤكد على أن الأدب لا شخصي وموضوعي» . وإن النقاد ينكرون كون الأدب تعبيرياً ، ويسعى للإقناع . كما أن اللسانيات المعاصرة تركز على الوظيفة الإخبارية ، وتهمل دور اللغة كوسيط بين المتكلم والمخاطب ، أو وظيفتها كمظنة لعلاقات تواصلية وكوسيط لمختلف الأوضاع⁽⁵⁵⁾ . لذلك نجد فاولر في دراسته يركز على القراءة والمجتمع من خلال تحليل الوظائف .

إننا من التقسيم الثنائي إلى الثلاثي ، بمعناه الثاني نجدنا بكلمة موجزة نتقل من «البنوي» إلى «الوظيفي» . وهذا سيظهر لنا بجلاء مع ليتش وزميله شورت .

5.2. على أساس «الأسلوبية الجديدة» كما حاول تحديدها روجر فاوولر والتي تسمى إلى الاستفادة من آخر الإنجازات اللسانية مطورة الأسلوبية الحديثة ، ينطلق الباحثان في دراستهما حول «الأسلوب في الرواية : مدخل لساني إلى الشر الحكائي الإنجليزي» بهدف تقديم تصور متكامل وجديد في تحليل أسلوب الرواية⁽⁵⁶⁾.

يشرعان أولاً في مناقشة التصورات التقليدية التي أقيمت على الأسلوب . وهذه التصورات إما ثنائية تميز بين التعبير أو الشكل والمحتوى ، أو أحادية تؤكد ترابط المستويين الشكلي والمضموني . وبما أن الأسلوب معقد ولا يمكن اختزاله إلى ثنائي أو أحادي ، يقترحان تعدد مستوياته ، شأنه في ذلك شأن اللغة (ص 136) . ويريان أن القول بتعدد هذه المستويات يتيح إمكانية التمييز بين ثلاثة مستويات هي : المستوى الدلالي والتركيبى والكُرَافى . لكن التمييز بين المستويات ليس كافياً لإقامة أسلوبية جديدة لذلك لا بد من ربط هذه المستويات بالوظائف .

وبما أن «الأسلوب» مثله مثل «اللغة» متعدد المستويات ، فإن الانطلاق من نظرية لسانية كاف لإعطاء هذا التماثل كامل أبعاده وإجراءاته . وهنا نجدهما يؤكدان ارتباطهما بنظرية «هاليداي» حول الوظائف كما سبق أن رأينا ذلك مع روجر فاوولر . يوازي الباحثان بين وظائف هاليداي الثلاث ومستويات الأسلوب كما يقترحان على هذا الشكل :

الوظائف (اللغة)	المستويات (الأسلوب)
أ - التجريبية	← أ - الدلالي
ب - التواصلية	← ب - التركيبى
ج - النصية	← ج - الكُرَافى

وبعد أن بينا اختلافهما بعض الشيء عن تحديد هاليداي للوظائف ، يقترحان تمييزاً بين الوظيفتين التواصلية والنصية ، وذلك انطلاقاً من التمييز بين الخطاب والنص .

وهكذا يغدو الخطاب توأماً لسانياً منظوراً إليه كإجراء يتم بين المتكلم والمخاطب ، أو كفعالية تواصلية يتحدد شكلها بواسطة غاية اجتماعية . وينظر إلى النص باعتباره تواصل لسانياً ، كمرسلة مشفرة عبر وسيطها المكتوب أو الشفوي . وتبعاً لهذا التمييز يتصل الخطاب بالجانب التركيبى والنص بالجانب الكُرَافى في خطيته كما تتجلى لنا على الورق . وهذا التمييز يتم ضمن إطار ما يسميانه ببلاغة النص أو بلاغة الخطاب (ص: 209) . وتبعاً لذلك نجدهما يبحثان في الخطاب عن علاقة المرسل بالملتقى من خلال الكاتب والقارىء ،

والراوي والكاتب ، والراوي والشخصيات وجهة النظر والقيمة اللغوية والمعارضة والنبر .
ومن خلال تحديد مكونات الخطاب الحكائي بهذه الصورة يتبدى لنا بجلاء تركيزهما على
عمق العلاقة التفاعلية كوظيفة بين الكاتب والقارئ وما يتصل بذلك من مكونات تجري على
المستوى التركيبي ، من خلال وجهة النظر والمعارضة والنبر ، وما يتصل بها جميعاً من قيم
أخلاقية واجتماعية وانفعالية (أو عاطفية)

6.2. يظهر لنا من خلال عرض وجهة نظر التقسيم الثلاثي للحكي ، كيف أنه في
تحديده للخطاب الحكائي ومكوناته يختلف عن التقسيم الثنائي . ومرد ذلك إلى كون هذه
التقسيمات تقوم على أسس محددة تتصل من جهة ، بالخلفية النظرية المنطلق منها ،
وبالأسئلة التي يرمي الباحثون إلى الإجابة عليها . وكل ذلك يسهم في إدخال التغيرات سواء
على مستوى التحديد الإطلاحي أو الفهم النظري . وهكذا نعين كون فاولر وشورت وليتش
وهم ينطلقون من النظرية الوظيفية عند هاليداي ، كيف أن تحديداتهم للخطاب تختلف عن
باقي التحديدات كلياً لانطلاقها من نظرية لسانية محددة . كما أننا نعين اختلافاً بين فاولر
من جهة وليتش وشورت من جهة ثانية ، وإن بشكل أقل ، لأن ليتش وشورت يرميان إلى
إقامة تصور متكامل لأسلوبية جديدة ومتكاملة تذهب من التركيبي إلى الكرافي مع تحديد
مختلف للوظيفة التواصلية والنصية عما نجده مع فاولر . كما أن التقسيم الثلاثي عند
«شلوميت كينان» يأخذ أبعاداً أخرى لانطلاقها من البويطيقا وغيرها (فينومينولوجيا القراءة) . .
الشيء الذي يجعلها تقف بعيداً عن وظيفية الآخرين . . . وهكذا يمكننا تلمس عناصر أخرى
تدخل في نطاق ما حددناه سابقاً من عوامل تسهم في إعطاء المفاهيم والآراء هذه الوجهة أو
الأخرى .

إن الوعي بهذه الاعتبارات جميعاً كفيل بجعلنا نعرف مواطناء أقدامنا في أراض زاهرة
بالمؤتلفات والمختلفات . وكلما كان وعينا عميقاً بها وهواجسنا كبرى ، وميلنا أشد نحو
الوضوح النظري والاستيعاب النقدي كلما أمكنا تجنب العديد من المزالق والمنزلقات التي
يزخر بها نقدنا العربي الجديد! . . .

فكيف نحدد خطاب الرواية؟ ما هي مكوناته التي سنقوم بتحليلها إلى أين نبغي
الوصول من وراء هذا التحليل أو ذاك التحديد؟ ما هي الخلفية النظرية التي ننطلق منها؟ وما
هي الأسئلة التي نطرح لإنجاز تحليل متكامل وذي نزوع علمي للخطاب الروائي العربي؟ ما
هي حدود هذا التحليل وإمكاناته المفتوحة للإغناء والتطوير؟

ج - تحليل الخطاب الروائي العربي: تصورنا

1. الحكوي - السرد:

تعرف التحديدات العربية للعديد من المصطلحات المعاصرة الكثير من الخلط والغموض . ولعل أهم مفهوم يستوقفنا أولاً ، وقبل الحديث عن «القصة» و «الخطاب» ، هو مفهوم «الحكوي» الذي نضعه مقابل (Le récit) في الفرنسية و (Narrative) في الانجليزية . ودون الدخول في التفاصيل أو السَّجَال الذي يضيق عنه هذا البحث، سواء على مستوى الفهم أو الترجمة في مختلف الكتابات العربية ، نكتفي ، هنا ، بالتحديدات التالية حول مفهومين مركزيين هما «الحكوي» و «السرد» .

يتحدد «الحكوي» بالنسبة لي كتجلٍ خطابي ، سواء كان هذا الخطاب يوظف اللغة أو غيرها. ويتشكل هذا التجلي الخطابي من توالي أحداث مترابطة ، تحكمها علاقات متداخلة بين مختلف مكوناتها وعناصرها . وبما أن الحكوي بهذا التحديد متعدد الوسائط التي عبرها يتجلّى كخطاب أمام متلقيه، نفترض - على غرار ما ذهب إليه بارث - أنه يمكن أن يقدم بواسطة اللغة أو الحركة أو الصورة منفردة أو مجتمعة بحسب نوعية الخطاب الحكائي .

بهذا المعنى عندما نتحدث عن الخطاب الحكائي ، يكون حديثنا عاماً أي أن منطلقه المركزي يكمن في حضور الحكوي أياً كان وسيط تجليه . لذلك ، لا غرو أن نجد هذا التحديد يلتقي وما نجده في عدد «تواصلات» الثامن 1966 حيث يستعمل الحكوي بمعناه العام كـ (récit) . يبدو لنا ذلك في تضمن العدد دراسات عن السينما مع كريستيان ميتز ، وأخرى عن الخطاب الصحفي مع جول غريتي وغيره عن الأساطير أو الرواية . . .

إن الحكوي بهذا المعنى يغيب بعض الجوانب المميزة الكامنة تحته ، والتي بواسطتها يمكننا تحديد نوع الخطاب الحكائي تحديداً أدق . هنا يمكننا إدخال مفهومي «السرد» (Narration) أو «العرض» (Représentation) في إطار المقارنة بين خطابين حكايتين فقط لتوضيح ما نرمي الوصول إليه . وسنعطي مثلاً لذلك عن الرواية والمسرحية .

في الرواية والمسرحية نجد حكياً بحسب التحديد السابق . لكن الحكوي في الرواية

يقدم لنا من خلال «السرد» (Narration) ، أي أن هناك راوياً يتكلف عبر «السرد» كفعل بإرسال الحكّي . أما في المسرحية ، فالحكي يقدم لنا من خلال العرض أو التشخيص أو التمثيل «Représentation» ، أي أن الأحداث تصلنا مباشرة عبر الشخصيات وهي تقوم بـ «تشخيص» الحكّي . قد نجد السرد في المسرحية والعرض في الرواية لكن الطابع المهيمن في الرواية هو السرد وفي المسرحية العرض .

إننا نستعمل هنا معيار الصيغة للتمييز بين الخطابات الحكائية ، وبحسب طابع الهيمنة . وتبعاً لهذا التحديد يصبح الحكّي عاماً والسرد خاصاً . ولذلك نجدنا أمام تمييزات من قبيل: الخطاب الدرامي (Dramatique) والخطاب السردى (Narratif) . ضمن الأول يمكننا إدخال المسرحية والخطابات المجاورة ، وضمن الثاني ندخل الرواية والحكاية الشعبية والقصة والسيرة . . .

بتوظيف الصيغة معياراً للتمييز بين الخطابات الحكائية نجد الاختصاص الذي يهتم بـ «سردية» (Narrativité) الخطاب السردى مشتق من الصيغة نفسها ويصبح هو «السرديات» (Narratologie) . أما الآخر الذي يهتم بالجانب «الدرامي» أو «المسرحي» (Théatralité) فهو: (Théâtrologie) علم المسرح .

انطلاقاً من هذا التمييز بين الموضوع والاختصاص نجد جرار جنيت يحتجّ على تسمية توماس بافيل (T.G. Pavel) كتابه بـ «التركيب السردى لتراجيديات كورني» 1976 قائلاً : «بالنسبة لي إن التركيب في التراجيدية لا يمكن أن يكون إلا درامياً وليس سردياً»⁽⁵⁷⁾ .

وفي إطار محاولة لتحديد «السرديات» كاختصاص وتدقيق موضوعها ، نجدنا أمام إتجاهين : حصري وتوسيعي ، وبحسب تحديد المجال وموضوعه يتم التمييز بين الحكّي والسرد كما سنبين من خلال الاتجاهين :

1 - الاتجاه الحصري : وهو الاتجاه الأقدم زمنياً . نجد بواده مع جيرار جنيت وتودوروف ، إنه يقوم على أساس اتخاذ الصيغة معياراً .

2 - الاتجاه التوسيعي : وهو لاحق زمنياً . وسأعرض له من خلال وجهة نظر بول ريكور وميشيل ماتيو - كولاس ، من خلال دراسة لهذا الأخير حول «حدود السرديات» 1986⁽⁵⁸⁾ .

يتناول كولاس مفهوم «الحكي» و«السرد» من خلال جذورهما الدلالية ، وما يعنيه تاريخياً . ويميز بين تصور جنيت الذي يوظف الصيغة أساساً للتمييز بين الخطابات الحكائية ، وبين تصور بول ريكور التوسيعي الذي يتخذ له كميّار «الموضوع» أي الشكل التعبيري ، وليس صيغة الخطاب اللفظي كما نجده عند جنيت . إن ريكور لا

ينطلق في تحديده لسردية الحكيم من الصيغة باعتبارها وضعية المتكلم ، ولكن من تعريف أرسطو «لتحريك الأحداث» . إنه تحديد عام عكس ما نرى مع جنيت .

يعمل كولاس على مناقشة تصور جيرار جنيت بانطلاقه من القصة كعنصر حكائي شامل . ومن خلال تمييزه بين المحاكاة (Mimésis) والمحكي (Diégésis) ينتهي إلى محاولة لتوسيع موضوع السرديات . إن الصيغتين نجدتهما في كل الخطابات الحكائية . وهكذا بانطلاقنا من التمييز بين القصة والخطاب يمكننا الوصول إلى هذا الشكل ذي الطابع التوسيعي (ص 104):

بنيات سردية		بنيات درامية		بنيات محكية	
↙	↘	↙	↘	↙	↘
صيغة	صيغة	صيغة	صيغة	صيغة	صيغة
محكية	درامية	محكية	محاكائية	درامية	سردية

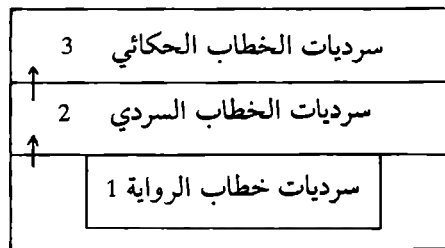
من خلال هذا الشكل يوضح كولاس أن الاقتراح الأول توسيعي وهو ما نجده مع ريكور لأنه يدخل ضمن السرد ما هو درامي . أما الاقتراح الثالث فجيت يرفضه اللهم إلا إذا اعتبرنا كون المسرح يطور «المحكي» . وينتهي كولاس في محاولته توسيع موضوع السرديات إلى تأكيد على قبولها استيعاب كل الدراسات التي تعالج موضوعاً سردياً نجده في كل عمل حكائي . وبما أن هناك جوانب أخرى غير سردية في الحكيم (السينما - المسرح - الصور المتحركة ...) فهل معنى ذلك أن السرديات ستصبح شاملة لمجموع الاختصاصات التي تغطي جزئياً أو كلياً أنظمة سردية؟ يجب كولاس باستحالة ذلك ، وأن السرديات ستتقاطع مع العديد من الاختصاصات التي تتناول موضوعاً لا يخلو من سرد وأنها ستحدد موضوعها حيثما كان السرد ، وكيفما كانت الصيغة الموظفة . وفي هذا التحديد انفتاح وتوسيع لموضوع السرديات لا حصر له كما نرى مع جنيت . وبناء عليه يمكننا الحديث عن سرديات عامة أو سرديات مقارنة تقتحم السينما والمسرح وباقي الخطابات الحكائية (ص 103) .

من خلال هذين الاتجاهين أجدني أنحاز إلى الاتجاه الأول لاعتبارات عديدة من بينها أن التوسيع كما اقترحه ريكور أو كولاس له أبعاده المقبولة في الثقافة الغربية التي تتطور فيها الاختصاصات الأدبية بشكل متوازن ، الشيء الذي يسهل عملية التعميم والاستفادة . أما في ثقافتنا فالأمر مختلف جذرياً ، لذلك لا بد لنا من الحصر أولاً ، وكلما أمكننا توسيع المجال وذلك ليس رغبة ذاتية ولكن حاجة علمية يفرضها طابع توسيع الأفاق عندما نحقق أجوبة عن الحدود الأولى التي وقفنا عندها ، أمكننا الانطلاق خارج الحصر أو الحد الذي طوقنا به أنفسنا في البداية .

لذلك أجدني أعلن إنحيازي إلى تحديد جنيت وأحدد موضوع البحث الذي أشتغل به كلما توفر شرطان : الحكوي والسرد . وأحدد سردية الخطاب الحكائي كلما كانت صيغة السرد مهيمنة ، وكلما كانت العلاقة بين التقرير والحكي تتم من خلال هيمنة الحكوي . وبهذا المقياس يمكنني استبعاد الخطاب التاريخي الذي نجد فيه حكياً وسرداً ، وأخيراً قصدية الكاتب .

إن ما يحدد سردية الخطاب الحكائي أضبطه من خلال ثلاثة معايير :

- 1- الصيغة : السرد .
 - 2- الزمن : استيعاب الحكوي التقرير (كما سأوضح ذلك عند فائيرش) .
 - 3- قصدية الكاتب : هل يكتب الكاتب ضمن حدود الخطاب السردى أم خارجها؟ وقصدية الكاتب هي قصدية القارئ أيضاً ، من خلال الميثاق النوعي بينهما .
- فمن السرديات بهذا المعنى ، أجدني مضطراً للقيام بتحديد آخر أدق ، فالخطابات السردية التي تتوفر فيها المعايير أعلاه عديدة (القصة - الحكاية الشعبية - السيرة الشعبية - السيرة الذاتية...) . وإذا كان الهدف من الممارسة العلمية هو تحقيق التعميم ، فإن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التخصيص (أنظر مقدمة بارت للتحليل البنيوي للحكي) . وهكذا يمكن القول إن الاختصاص الذي انطلق عنه هنا هو «سرديات خطاب الرواية» . وعندما ننجح في التقدم خطوات هائلة في هذا السبيل يمكن توسيع مجال هذه السرديات على الخطاب السردى أيأ كان نوعه ، ثم بعد ذلك الحكائي وفق هذا الشكل :



حدود السرديات .

ولكنما أمكننا التطور في مراكمة إنجازات داخل «السرديات» عمودياً كلما أمكننا توسيع مجالها أفقياً في إطار علاقتها باختصاصات أخرى من العلوم الإنسانية : سوسولوجيا ، تحليل نفسي ، تاريخي... وبذلك نضع أنفسنا في الطريق السوي الكفيل بتطوير الاختصاص .

2 . القصة - الخطاب - النص :

في «تحليل الخطاب الروائي» (النقطة الثانية من هذا المدخل) تحدثنا عن تقسيمات الحكيم إلى ثنائية وثلاثية وفق أسس وأهداف معينة حاولنا الوقوف عندها والتركيز عليها ، وسأقدم موقفي منها من ناحيتين :

- الأولى : أعلن فيها انطلاقي من تمييز تودوروف وجنيت الثنائي للحكي إلى قصة وخطاب . ووقوفي في تحليل الخطاب الروائي على ما أسميناه بـ «المستوى النحوي» .

- الثانية : أدخل فيها مفهوماً ثالثاً هو النص ، وضمنه أجدني أنتقل من «المستوى النحوي» إلى «المستوى الدلالي» الذي لا يهتم به تودوروف وجنيت ، وإن أعطانا تودوروف في «البوطيقا» حضوره كمستوى لم يهتم به السرديون البنيويون بعد . وفي هذه الناحية أجدني أمارس تقسيماً ثلاثياً للحكي على غرار شلوميت وفاولر وليتش لكن من منظور مغاير ، وإن كانت الأهداف واحدة : الانتقال من البنيوي إلى الوظيفي .

كل حكي يتم من خلال مكونين مركزيين : القصة والخطاب . إن القصة هي المادة الحكائية . والخطاب هو طريقة الحكي ، وهو «الموضوع» الذي نبحت فيه ضمن ما أسميناه «سرديات خطاب الرواية» . وباعتبار القصة كذلك فهي قابلة لأن تأخذ خطابات عديدة بواسطتها تتجلى كحكي . يمكننا تلخيص القصة إلى جمل مركزة أو إقامتها من خلال خانات أو خطاطات تضم موادها الأساسية (شخصيات - أحداث - زمان - مكان . . .) . إنها تبعاً لذلك مثل «الصيغة الصرفية» التي يتحدث عنها النحوي العربي . إنها نظير المستوى الصرفي ، لكن الخطاب هو الذي يعطيها تركيبها أو نحويتها⁽⁵⁹⁾ ، وذلك عن طريقين على المستوى اللساني :

1 - ملء الصيغ الصرفية بمواد لغوية ومعجمية .

2 - بإعطاء المادة اللغوية - المعجمية تركيباً .

وأوضح ذلك من خلال هذا الشكل الذي يميز بين المستويين : الصرفي (القصة) والنحوي (الخطاب) :

المستوى الصرفي (الصيغة)	المستوى النحوي (التركيب)
1 - فعل - فاعل - مفعول .	1 - ضرب - علي - مقتول . . .
2 - فعل فاعل فعلاً .	2 - ضرب زيد عمراً .
	- عمرو ضربه زيد .
	- زيد ضرب عمراً . . .

بنقل هذه الخطاطة إلى علاقة القصة بالخطاب نلاحظ أننا في المستوى الأول نبحث في صرفية المادة (القصة) أو مورفولوجيتها . وهذا العمل هو الذي قام به فلاديمير بروب وهو يبحث في وظائف الحكاية الشعبية وسار عليه السيميوطيقيون وهم يبحثون مثلاً في العوامل والوظائف وما شابه ذلك من العناصر المتصلة بمادة الحكاية (القصة) . لذلك نجد أنهم نجحوا إلى حد بعيد في إقامة «نماذج» (Modèles) لبنيات حكاية ثابتة قابلة للتعميم . وفي هذا الإطار يمكننا الوصول إلى درجة قصوى من «الصورنة» (Idealisation) وهذا ما نلاحظه مثلاً عند العديد من الباحثين مثل بريمون وغريماس وفان ديك وسواهم . لكن هذه (الصورنة) ممكنة في تصوري ، لأن الاشتغال لتحقيقها تمّ على نصوص مكتملة ومنتهية وغير معاد إنتاجها بشكل مختلف جذرياً ، لأن قواعد «الثبات» فيها واردة جداً ، مثل الحكايات الشعبية والأساطير وغيرها من النصوص السردية القديمة التي اشتغل عليها أغلب المشار إليهم .

لكن التركيب النحوي للخطاب من الصعوبة بمكان الوصول فيه إلى هذه الدرجة من الصوّنة أو إقامة نماذج ، لأن قواعد «الخرق» فيه هي الثابتة . ولهذا نجد ، أيضاً ، أغلب المشتغلين على الخطاب الروائي كمظهر نحوي كما رأينا تحديده مع تودوروف لا يبحثون في الأغلب إلا في نصوص القرن التاسع عشر لاحتمال وجود قواعد الثبات ، وفي حال غيابها نجد السرديين ينجحون في الوصول إلى نتائج هامة لكنها لا تصل إلى أقصى درجة من «الصورنة» . من المكونات النحوية في الخطاب الروائي عدد لا يحصى من التصنيفات والمصطلحات . أفسّر ذلك بعوامل كثيرة من أهمها اختلاف النصوص المنطلق منها في التحليل . لكن هذا لا يعني استبعاد الوصول إلى درجة عليا من الصورنة أو التجريد ، إلا أنه الآن في نظري ما يزال بعيداً لأن ما هو على السرديات من قضايا أكبر ممّا تعمل جاهدة للإجابة عليه بخطوات صارمة وهائلة . ولعل في النقاشات السردية الحالية دليلاً على ذلك !

إننا الآن أمام تصورات عديدة ، كلها جادة في تحليل وتحديد الخطاب الروائي وتوسيع النصوص المشتغل عليها لتحقيق نتائج أعم . لذلك نرى أن من أحد همومنا المركزية في هذا البحث تقديم تحليل وتحديد دقيقين للخطاب الروائي العربي ولمكوناته .

من هذا المنطلق أجدني لا أهتم بـ «القصة» ، كجانب من الحكاية بشكل مستقل ، كما يعمل العديد من الباحثين السيميوطيقيين . ومن خلال الارتباط الوثيق بين القصة والخطاب ، سوف لن أبحث في القصة إلا من خلال علاقتها بالخطاب لأن الخطاب هو الذي أهتم به بالدرجة الأولى على غرار أغلب السرديين .

وتحديد الخطاب الروائي يتم من خلال مظهره التركيبي أو النحوي . لذلك أراني أقصر مكوناته على هذه العناصر :

- 1 - الزمن .
- 2 - الصيغة .
- 3 - الرؤية والصوت .

هذه هي المكونات التي يركز عليها السرديون بصفة عامة ، وإن كنا نجد اختلافات بينهم في ترتيبها وربطها بعضها ببعض . وإذا كان عنصر الزمن لم يثر بصدده كبير نقاش بين السرديين فإن المكونين الآخرين الصيغة والرؤية والصوت أثاروا جدلاً كبيراً بين الباحثين نود إرجاء التفصيل فيه إلى المقدمات التي سنصدر بها كل فصل من فصول خطاب الرواية الذي خصصناه لكل مكون منها ، لما في ذلك من جزئيات وتفاصيل يضيق عنها هذا التقديم .

إن قطبي خطاب الرواية من حيث مظهره النحوي هما الراوي والمروي له . وبسبب كون جنيت وتودوروف يقفان عند حدود المظهر النحوي فإنهما يظلمان عند حدود خاصة لا تسمح بتجاوز الراوي والمروي له في إطار علاقتهما بالخطاب .

بالنسبة لي ولأسباب تتصل بالأسئلة التي أطرحها على «الرواية» كخطاب أدبي ينتج ضمن خطابات أخرى أدبية وغير أدبية ، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية وغيرها ، لا أرى أن الحد النحوي لوحده كفيلاً بالإجابة على هذه الأسئلة . لذلك كان لا بد ، بالنسبة لي ، من توسيع الحد النحوي وتجاوزه إلى ما أسماه تودوروف في حديثه عن المستويات بالمستوى الدلالي . لكن السرديات البنيوية لا تقدم لي إلا عناوين عامة ولم يتم إنجاز أي شيء عنها وضمن الإطار النظري نفسه الذي يشتغل فيه السرديون .

في حديث تودوروف عن المستوى الدلالي يقول إننا نجيب فيه عن هذه الأسئلة : كيف يدل النص على شيء؟ وعلى ماذا يدل؟ (انظر 6.1 من هذه المقدمة) . فأني لنا الإجابة على هذين السؤالين مع حد معقول من المواءمة والانسجام كشرطين ضروريين لإنجاز تصور نظري متكامل؟ .

لقد أخذت مني هذه الأسئلة الوقت الكثير من البحث والتأمل . ومنذ البداية (ماي 1983) ، وجدتني أرى في مشروع بير فـ «زيمّا» ما يمكنني من الإجابة على بعض الأسئلة التي أطرح . لكن زيمّا يبني مشروعه انطلاقاً من السيميوطيقاً أولاً ، و «النظرية النقدية» مع جماعة فرانكفورت ثانياً ، فكيف يمكننا تحقيق هذا الانتقال من المظهر النحوي إلى الدلالي وفق أسئلة مشروع آخر منطلق منه؟

هنا وجدتني مقيداً بالسرديات البنيوية ، ولتجنب التعسف في الانتقال منها إلى سوسيولوجيا النص مع زيمّا ، وجدتني أعمل على توسيع مجال السرديات أفقياً وليس عمودياً كما بينت ذلك عندما تحدثت عن حدود السرديات ، فكان علي تجاوز الحد النحوي إلى

الدلالي ، وبذلك وجدتهني ألتقي مع زيماء وأنا مشدود إلى المظهر النحوي . إن المظهر الدلالي توسيع للمظهر النحوي وليس إلغاء له أو قطعة معه .

تم هذا التوسيع بهذا الشكل الذي أبين من خلاله نوعية التقسيم الثلاثي الذي أحاول بلورته في كل حكي :

الحكي } - القصة : المستوى الصرفي .
- الخطاب : المستوى النحوي .
- النص : المستوى الدلالي .

بإدخال النص كمفهوم متميز عن الخطاب ، وإعطائه بعد المستوى الدلالي وجدتهني أعطي «النص» دلالات خاصة عكس ما نجد مع السرديين الذين يعتبرونه مرادفاً للخطاب ، لذلك فجئني وهو يتحدث عن الخطاب السردى أو النص السردى نجده يحملهما بنفس الدلالة ، وعلى اعتبار النص مفهوماً مختلفاً عن الخطاب فإن له مكوناته الخاصة به والتي لضمان الانسجام لا يمكن إلا أن تكون توسيعاً لمكونات الخطاب ، ولا يمكن لقطبيه الرئيسيين إلا أن يكونا توسيعاً لقطبي الخطاب على هذا الشكل :

المستوى النحوي	المستوى الدلالي
الخطاب أ - الراوى - المروى له ب - الزمن - صيغ الخطاب - الرؤية / الصوت	النص أ - الكاتب - القارئ . ب - البناء النصي . - المتعاليات النصية (التفاعل النصي) - الرؤيات - البنيات السوسيو - لسانية

إننا في الزمن في الخطاب نبحث عن علاقة زمن القصة بزمن الخطاب وعلاقة ذلك ببناء النص . وإذا كنا في صيغ الخطاب نتحدث عن نوعية العلاقات بين الخطابات وكيفية اشتغالها (خطاب مسرود ، معروض ، منقول . .) فإننا في المتعاليات النصية سنتحدث عن علاقة النصوص بعضها ببعض ضمن «نص الرواية» . وهكذا سوف لن نتحدث عن خطاب مسرود مثلاً ولكن عن مناص وتناص وميتا - نص . . . ونبحث في كيفية اشتغال النصوص ، داخل نص الرواية وأبعادها النصية . وبهذه المناسبة يمكن التأكيد على كون جيران جنيت

تحدث عن هذه «المتعاليات النصية» أكثر من غيره من الباحثين الذين وقفوا عند حدود التناص كعلاقة نصية ، وهذا ما قام به زبدا نفسه في سعيه لإقامة سوسولوجيا النص الأدبي . وإذا كنا في الرؤية والصوت نبحت عن المتكلم ، والذي يرى ، والمنظور الذي من خلاله تقدم الأحداث ، فإننا في الرؤيات والبنيات السوسيو- لسانية نجدنا نبحت في رؤيات الكاتب والقارئ والنصوص أي كل ما يتصل بما هو متعال عن النص و«خارج عنه» (Extratextuel) .

بهذا العمل وجدتي أوسع تحليل نفس المكونات والخصائص مع الحفاظ على الانسجام النظري اللازم . لذلك وجدت العمل الذي أنهج يتقاطع مع سرديات الخطاب كما نجدها عند السرديين (جنيت/ تودوروف) ومع سوسولوجيا النص الأدبي عند زبدا دون أن أتبنى أطروحاته أو أطبقها من الخارج . إنني أستفيد مما يقدمه دون أن أقحم ذلك على التصور الذي أنطلق منه . ولهذا يمكن اعتبار العمل الذي أقوم به توسيعاً للسرديات أفقياً بأهم الإنجازات التي نجدها في سوسولوجيا النص الأدبي .

وهذا المسلك جعلني لا أقع في الانتقاء الذي نجده عند العديد من الباحثين الذين يستفيدون من إنجازات متعددة بدون مراعاة مبدأ الانسجام أو المواءمة ، كما أشرت إلى ذلك عندما كنت بصدد مناقشة التقسيمات الثنائية أو الثلاثية . إن الذي دفعتني إلى القيام بهذا العمل يكمن فيما استلهمته من التقسيمات الثلاثية وما تحرص عليه من ضبط ودقة مع كيان وفالور بالأخص وهما يسعيان إلى الانتقال من مظهر إلى آخر انتقالاً طبيعياً لا انتقائياً .

يظهر ذلك في تقسمي هذا العمل إلى كتابين : الأول هو : «تحليل الخطاب الروائي» وفيه أحلل مكوناته الثلاثة من خلال ثلاثة فصول : الزمن - الصيغة - الرؤية السردية والصوت وفق المستوى النحوي ، وأذيله بخاتمة أتحدث فيها عن الراوي والمروي له في الخطاب الروائي .

في القسم الثاني الذي عنوانته بـ «انفتاح النص الروائي» ، قسمته بدوره إلى ثلاثة فصول : البناء - التفاعل النصي - البنيات السوسيو- نصية ، وذيلته بخاتمة عن الكاتب والقارئ في النص .

صدرت كل باب بمقدمة نظرية . في الأولى (وهي هاته) حاولت طرح مفهوم الخطاب ومشاكل تحديده . وفي مقدمة الكتاب اللاحق ابتدأت بالتمييزات الموجودة بين الخطاب والنص لأنتهي إلى التعريف الذي أرتضيه للنص وفق التصور الذي أنطلق منه ، كما صدرت كل فصل أيضاً بمقدمة نظرية أوضح فيها المشاكل والقضايا التي يثيرها المفهوم المتحدث عنه قبل الانتقال إلى التطبيق .

وفي نهاية هذا التقديم أود التشديد على أن مجمل الأسئلة والقضايا ذات الطبيعة النظرية والعملية لا يمكن أن تحل بشكل سحري ، وذلك لأن الممارسة تعطي لمختلف ما تشكل منه خلفيتنا النظرية والنقدية كلّ أبعاد التبلور إلى أن يتأكد هذا المسعى على الصعيد العملي والتطبيقي فهل سيتأتى لنا ذلك؟!... إننا نأمل، وإن كنا مقدرين للمخاطر والمشاكل المحدقة، ولا سيما ونحن نتحرك فوق أرض لم توطأ بعد، بنفس الهموم والهواجس التي منها ننطلق ، والآفاق التي نرمي الوصول إليها. . .

هوامش مدخل إلى تحليل الخطاب الروائي:

- (1) الشكلايون الروس: نظرية المنهج الشكلي. ترجمة أ. الخطيب. مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت) الشركة المغربية للنashرين المتحددين (الرباط) ط 1، 1982، ص 35.
- (2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- T. Todorov: les genres du discours. édi. Seuil (Paris). 1978 P.23. (3)
- G. GENETTE: Figure III. Seuil (Paris). 1972. P. 10. 11. (4)
- T. TODOROV: Poétique. Seuil /Points. 1973. P. 25 – 26. (5)
- (6) ت. تودوروف: (1978)، ص 23 – (1973) ص 19.
- J. Lyons: Linguistique générale. trad. F. Dubois Charlier /D. Robinson Larousse. 1970. P: 131. (7)
- (8) ج. لايس المرجع السابق. الصفحة نفسها.
- (9) في معرض حديث «فان ديك» عن وجهات تحليل النص أو الخطاب بورود موقف (Pike) 1967 الذي يناقش تصور بعض اللسانيين الذين ظلوا من بلومفيلد إلى تشومسكي يعترضون على تحليل الخطاب تاركين المجال فقط لدراسة الأدب والأسلوبين. انظر:
- V. Dijk: Some aspects of text grammars. Mouton. 1972. P: 28 – 30.
- (10) فان ديك: المرجع السابق ص 29.
- (11) ج. لايس. م. س ص 133.
- F. Marchand et autres: Les analyses de la langue. Delagrave. 1978. P: 116. (12)
- (13) مرشان 1978 ص 118، 123، 150.
- R. Lafont /F.G-Mardray. Introduction à l'analyse textuelle. Larousse. 1976. P.28. (14)
- E. Benveniste: Problèmes de Linguistique générale. édi. Gallimard. Tome. I. 1966. P. 129 – 130. (15)
- (16) أ. بنفست: المرجع السابق ص 129.
- (17) أ. بنفست. المرجع السابق ص 241 وما بعدها.
- (18) أ. بنفست. المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (19) المرجع السابق الصفحة نفسها.
- F. Rastier: Sémantique des isotopies. in «Essai de Sémiotique poétique». Larousse. 1972. P. 80. (20)

- (21) ف. راستيه : المرجع السابق ص 82.
- (22) J. Dubois et autres: Dictionnaire de Linguistique. Larousse 1973. P.156.
- (23) D. Maingneneau: Initiation aux méthodes de l'analyse des discours. Hachette université. 1976. P.3 - 20.
- (24) J. Caron: Les régulations du discours. Puf. 1983. p.111.
- (25) ج. كارون . المرجع السابق الصفحة نفسها.
- (26) ج. كارون . المرجع السابق ص 112.
- (27) J. Mœschler: Argumentation et conversation. Hatier - Credif. 1985. P.15 - 19.
- (28) M. Hoey: On the surface of discourse. édi. G. Allen and Unwin. London. 1983. P.1 - 15.
- (29) M. Stubbs: Discourse Analysis. édi. Basil Blackwell. Oxford. 1983. P. 9.
- (30) بوريس ايخناوم : نظرية المنهج الشكلي في نصوص الشكلانيين الروس ، مرجع مذكور ص 67 ، 68.
- (31) ب. ايخناوم مرجع مذكور ص 48.
- (32) توماشفسكي : نظرية الأغراض . في نصوص الشكلانيين الروس - مرجع مذكور ص 180.
- (33) ب. ايخناوم ، م ، م ، ص 41.
- (34) T. Todorov: Les catégories du récit. «Communications» n° 8 1966 P.165.
- (35) ت. تودوروف المرجع السابق ص 133.
- (36) G. Genette: Frontières du récit, in «communications» no 8. 1966. Seuil. P. 165 - 166.
- (37) Groupe: Rhétorique générale. Seuil /Points. 2^{ème} édi. 1982. P.171 - 172.
- (38) M.J. Lefebvre: Structure du discours de la poésie et du récit. édi. de la Baconnière. 1971. P.18.
- (39) لوفيف: م ، س ، ص 20 ، 21.
- (40) لوفيف: م ، س ، ص 116.
- (41) ت، تودوروف (1973) ص 31.
- (42) H. Weinrich: Le temps. édi. Seuil. 1973. P.60 - 62.
- (44) R. Bourneuf-R. Ouellet: L'univers du roman. Puf. 1981. P. 35 - 75.
- (44) S.R. Suleiman: Le roman à thèse. Puf. 1983. 194. 95.
- (45) R. Scholes /R. Kellogg. The nature of narrative. édi. Oxford University Press - London. 1968. P.208.
- (46) G. Prince: Narratology: the form and fonction of narrative. Mouton. 1982. P.8.
- (47) R. Barthes: Introduction à l'analyse structurale du récit. Communication n° 8. 1966. P.9.
- (48) ر. بارت ، م ، م ، ص 12.
- (49) G. Genette: Discours du récit. in Figures III. Seuil 1972. P.71 - 72.
- (50) ترجم كتاب جيرار جنت «خطاب الحكيم» سنة 1980 ، إلى الانجليزية تحت عنوان «Narrative discourse» أي الخطاب الحكائي ، وفيه يستعيد التقسيم الثلاثي ، ويدقق استعمالاته حول المصطلحات الجنسية المركزية (الحكي السرد...) انظر كتابه:
- Nouveau discours du récit: Seuil. 1983. P.8 - 10.

- (51) ج. جينيت 1972، ص 74.
- (52) S.R. Kenan: Narrative fiction. Contemporary Poetics. edi. Methuen London and New York. 1984. P.3 – 28.
- (53) R. Fowler: Linguistics and the Novel. Methuen. London and New York third edi. 1983. P.23.
- (54) ر. فاوولر، م، م، ص 46.
- (55) ر. فاوولر، م، م، ص 42.
- (56) G.N. Leech and M.H. Short: Style infiction: A linguistic Introduction to English fictional Prose. (56) London and New York. third édi. 1984. P. 1 – 8 – 136.
- (57) G. Genette: Nouveau discours du récit. édi. Seuil. Coll. Poétique. 1983. P.12 – 13.
- (58) M. Mathieu Colas: Groutières de la narratologie, in «Poétique» n° 65. 1986. P.91.
- (59) استعمال الصرفي والنحوي هنا انطلاقاً من التصور الذي أقامه تمام حسان بصدد حديثه عن زمن الفعل. فالزمن الصرفي نفهمه من الصيغة والزمن النحوي نفهمه من السياق، والزمن في اللغة العربية لا نفهمه من الصيغة (الصرف) ولكن من السياق (النحو) وهكذا فـ «يفعل» صرفياً تدل عند النحويين على الحال أو الاستقبال. لكن استعمال «يفعل» في سياق هو الذي يعطيها زمنيتها : «لم يلعب» : حيث تصبح يلعب دالة على علة الماضي وليس على الحال أو الاستقبال. انطلاقاً من هذا التصور أقول أن :
- زمن القصة : صرفي ← القصة مستوى صرفي .
- زمن الخطاب : نحوي ← الخطاب مستوى نحوي .
- انظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1973، الفصل الخاص بـ «الزمن» .

الفصل الأول

الزمن في الخطاب

- 1 - تقديم نظري .
- 2 - زمن القصة زمن الخطاب .
- 3 - التمفصلات الزمنية الصغرى .
- 4 - خصوصية الزمن في «الزيني بركات» .
- 5 - الزمن بين الخطاب التاريخي والخطاب الروائي .
- 6 - زمن الخطاب الرواية العربية .
- 7 - خلاصة .

تقديم نظري

1 - تقديم :

1.1 «ما هو الزمن؟ عندما لا يطرح على أحد هذا السؤال، فإنني أعرف. وعندما يطرح عليّ فإنني أنذاك لا أعرف شيئاً» (1). بهذه الصرخة عبر القديس أوغسطين عن موقفه من الزمن وهو على عتبة تأملاته التي ضمنها «الإعترافات». لا تخلو هذه الصرخة من دلالات وأبعاد عميقة نجد تعبيرات عديدة عنها في الفكر الإنساني بصدد التأمل والبحث في مقولة الزمن. كان الزمن وما يزال يثير الكثير من الإهتمام، وفي مجالات معرفية متعددة. إبتدأ التفكير فيه من زاوية فلسفية، وخاض فيه الفلاسفة من منظورات تنطلق من اليومي لتطال الكوني والانطولوجي، ودخلت في هذه المنظورات مجالات كثيرة فلكية وسيكولوجية ومنطقية وغيرها. وكانت حصيلة تصور مقولة الزمن تجد إختزالها العلمي والمباشر مجسداً بجلاء في تحليل اللغة وبالأخص في أقسام الفعل الزمنية التي نظر إليها من خلال تطابقها مع تقسيم الزمن الفيزيائي إلى ثلاثة أبعاد: الماضي، الحاضر، المستقبل. وما يزال التفكير في الزمن يأخذ شيات وأشكالاً عديدة إلى يومنا من هذا البعد الفلسفي، حتى وإن كان يتخذ لبوسات معينة بحسب إتجاه الباحث أو المفكر. وتكفي في هذا الصدد الإشارة إلى تأملات برجسون وغاستور باشلار ليتضح لنا هذا بجلاء.

2.1. إن مقولة الزمن متعددة المجالات. ويعطيها كل مجال دلالة خاصة ويتناولها بأدواته التي يصوغها في حقله الفكري والنظري. وقد يستعير مجال معرفي ما بعض فرضيات أو نتائج مجال آخر، فيوظفها مانحاً إياها خصوصية تسير نظامه الفكري. وانطلاقاً من هذا يراكم بدوره رؤيته المستقلة للزمن وتصوره المتميز عنه. وقد يذهب إلى مستوى القطيعة مع الأصول المعرفية الأولى المنطلق منها. كما قد يظل بالمقابل رهين تلك الأصول يستمد منها تصوره، ويعود إليها بين الفينة والأخرى ليحاكم فرضياته أو ليجتهد لها عن سند...

يبرز لنا المظهر الأول بوضوح في علاقة تحليل زمن الفعل في اللغة، بأصوله الفلسفية

والمنطقية. لقد كان تحليل الزمن في اللغة أسير المطابقة الفيزيائية، لكن التطور الذي حققته اللسانيات منذ بدايات هذا القرن إلى الآن جعلها تقطع مع ذلك التصور. وتقدم فرضياتها التي راكمت اختبار صلاحيتها من خلال دراسات هامة ورائدة.

ويتجلى لنا المظهر الثاني، وإن بشكل مختلف، في تحليل الزمن من خلال الخطاب أو النص. إن هذا التحليل يستمد أهم مقوماته من تحليل اللسانيات للزمن. وكل ما يقوم به إلى الآن هو اعتماد نتائج البحث اللساني للزمن. شددنا في حديثنا عن هذا المظهر الثاني عن الاختلاف، لأن تحليل الخطاب مجاله هذا مرتبطاً بوثوق بالتحليل اللساني، وهو من ثمة يمتلك «شرعية» استخدام مفاهيمه وأدواته وإجراءاته التي ينقلها من مجال الجملة إلى ما فوق الجملة أو يتعداها. لذلك فالاختلاف يبدو لنا هنا جلياً بمقارنة هذا مع «الزمن» في اللغة العربية الذي لم يقطع بعد صلاته بالأصول المنطقية التي قام عليها منذ قرون عديدة. لذلك تمكن الإشارة إلى إفتقار اللغة العربية الشديد إلى التحليل العلمي لهذه المقولة، لكونها لم تستطع بعد الخروج عن تلك الأصول - الأسس التي إنطلقت منها، رغم بعض المحاولات التي سنعود إلى بعضها.

1.3: مع الثورة اللسانية التي ارتبطت في بدايات هذا القرن مع فردناند دوسوسير، أمكن الحديث، مع ما تلاها من أبحاث عن قطيعة حقيقية مع التحليل التقليدي للزمن في اللغة. وكان طبيعياً أن يستفيد تحليل الخطاب الروائي، بالأخص، من التطور اللساني الحاصل في دراسة الزمن، وخصوصاً مع البويطيقا وفي جانبها الذي يعالج الأشكال السردية بصفة خاصة. لذلك وقبل تناولنا زمن الخطاب الروائي في الزيني بركات بالتحليل، سنعمل أولاً على طرح أهم الإشكالات والقضايا التي يثيرها تحليل الزمن، وذلك من خلال هذه النقطة:

- 1 - اللسانيات والزمن: وفيها سنحاول بتركيز شديد إبراز شكل تعامل اللسانيات مع مقولة الزمن، ليتأتى لنا بعد ذلك توضيح تعاطي محلي الخطاب الروائي مع مقولة الزمن.
- 2 - الروائيون الجدد والزمن: نطرح فيها كيف فهم ثلاثة روائيين جدد الزمن من خلال كتاباتهم النظرية، وهم: ريكاردو - روب غريه - ميشيل بوتور.
- 3 - لسانيات الخطاب والزمن: وفيها سنعرض تصور العديد من الباحثين لمقولة الزمن في الخطاب السردى والروائي ضمنه، وبسط آراءهم وكيفية تطبيقهم هذا التصور على أعمال بعينها.

وسنختتم هذا التقديم بطرح الزمن في العربية، والإقتراح الذي أنطلق منه لتحليل زمن الخطاب الروائي من خلال الزيني بركات وباقي الروايات.

2- اللسانيات والزمن :

1.2 باكتشاف السنسكريتية، وما تلاها من أعمال النحو المقارن، وتلاها جميعاً وصولاً إلى الثورة اللسانية مع سوسور، أمكن الحديث عن التقدم الهائل الذي ستحققه اللسانيات لتصبح العلم الرائد، وعن الدور الذي ستقوم به في تغيير النظر ليس فقط في ما يتعلق بقضايا اللغة ومشاكلها، ولكن أيضاً في مختلف العلوم الإنسانية التي ستصبح تستفيد من أهم إنجازاتها. ومن بدايات هذا القرن إلى يومنا، يشهد التطور الحاصل في البحث اللساني، ما يعطي لهذا التخصص الجديد كامل خصوصيته وطييعته.

إذا كان الزمن من إحدى المقولات الأساسية التي اعتنى بها النحو التقليدي، فإنها إحدى أهم المقولات التي سيعيد البحث اللساني طرحها ومساءلتها من منظور جديد. ذلك ما يبدو لنا من خلال ما قام به الباحث اللساني جون لاينس⁽²⁾ (Lyons). انطلق هذا الباحث من التقابلات الثلاثة التي حدد من خلالها النحويون القدماء اليونانية واللاتينية على مستوى الزمن وأقاموا التقسيم الثلاثي: الماضي، الحاضر، المستقبل، وافترضوا لهذا التقسيم طابع الكلية والشمول.

يرى «لاينس» أن هذا التقسيم غير دقيق. فالزمن لا يوجد في كل اللغات، كما أن هذه التقابلات ليست زمنية محضة. وأن الذي قاد إلى هذا الاعتقاد الخاطيء هو القول بانعكاس التقسيم الطبيعي للزمن الواقعي على اللغة بالضرورة⁽³⁾. ويناقش بعد ذلك تحليل أوتويسبرسن (O. Jespersen) للزمن في كتابه «فلسفة النحو»، والذي كان فيه يسبرسن (O. Jespersen) ضحية هذا الاعتقاد. في خط أفقي تتوسطه درجة صفر تمثل الحاضر، وما قبلها هو الماضي، وما بعدها الحاضر، يبين يسبرسن أن الماضي يقع قبل الآن، وأن المستقبل بعده. ويقسم بعد ذلك الماضي والمستقبل بإدخال قبل وبعد عليهما معاً، فنصبح نتحدث عن ما قبل الماضي وما قبل المستقبل وما بعدهما. ويلاحظ لاينس كون الحاضر (نقطة الصفر) غير مقسم في هذا التصور، ليستنتج بعد ذلك كون الزمن النحوي يعرف أشكالاً تقطيعاً وتصنيفاً مقولية (Catégorisations) متعددة.

يقدم «لاينس» عدة تقطيعات وتصنيفات مقولية يرى أنها ممكنة وتعرف طرائق متعددة للنداخل فيما بينها، وتوجد في الإستعمال بأشكال عديدة تخرج عن الخطاطة التي أقترحها يسبرسن تحت تأثير الاعتقاد بانعكاس الزمن الطبيعي على الزمن النحوي. ومن بين هذه التقسيمات التي يشير لاينس إلى بعضها نجد:

(1) اجتماع نقطة الصفر (الحاضر) مع الماضي الشيء الذي يعطي ثنائية مستقبل - لا مستقبل.

(2) اجتماع النقطة نفسها مع المستقبل لتقدم لنا ثنائية الماضي - اللاماضي .

(3) وعلى أساس التمييز بين الآن وغير الآن ، وبدون اعتبار جريان الزمن يمكن تقديم ثنائية أخرى بين الحاضر واللاحاضر .

(4) باستعمال مفهوم القرب (Proximité) يمكن التقسيم حسب قريب - لا قريب أو تقسيم ثلاثي يشمل الآن والقريب والبعيد .

في كل هاته الاقتراحات ينطلق لاينس من الخاصية الأساسية لمقولة الزمن، والتي تكمن في ربط لحظة الحدث في الجملة بلحظة التلطف (الآن). وبعد أن يعطي مثلاً من الإنجليزية في تقسيمها بين الزمن الماضي والحاضر في الفعل يلاحظ أن التقابل الحقيقي هو بين الماضي لأن الماضي يحيل إلى ما قبل الآن، بينما اللاماضي ليس محدوداً بما هو معاصر للحظة التلطف⁽⁴⁾. ويؤكد بعد ذلك أن مثل هذا نجده في العديد من الأزمنة الأبدية واللازمنية التي سيناقشها بتفصيل في كتابه الدلالة اللسانية الذي يطرح فيه صلة الزمن النحوي والمرجع التعيني (Déictique) للزمن⁽⁵⁾. ويلاحظ لاينس بصدد ما هو معروف كمستقبل في الإنجليزية من خلال الفعلين المساعدين (will-Shall) أنهما ليسا للاستقبال دائماً وأن المستقبل يدخل ضمن الموجه (mode) وليس ضمن الزمن. ويُعرّج بعد ذلك على الموجه والجهة (aspect) ليعين تداخلهما وتقاطعهما ومقولة الزمن.

2.2: من المنطلق ذاته، وإن بشكل مختلف يعالج «إميل بنفست» مقولة الزمن في العديد من كتاباته ومقالاته التي تضمنها كتابه «قضايا اللسانيات العامة» بجزئيه. سنركز بالأساس هنا على ما كتبه تحت عنوان «اللغة والتجربة الإنسانية» من الجزء الثاني، و«علاقات الزمن في الفعل الفرنسي» من الجزء الأول.

في الموضوع الأول يطرح بنفست بدءاً مفهوميين مختلفين للزمن: فهناك من جهة الزمن الفيزيائي للعالم، وهو خطي ولا متناه، وله مطابقتها عند الإنسان، وهو المدة المتغيرة، والتي يقيسها كل فرد حسب هواه وأحاسيسه وإيقاع حياته الداخلية. وهناك من جهة ثانية الزمن الحدوثي (Temps Chronique) وهو زمن الأحداث الذي يغطي حياتنا كمتتالية من الأحداث. وما نسميه عادة بالزمن هو هذا الأخير. والزمنان معاً مزدوجان ذاتياً وموضوعياً، وهناك محاولات تاريخية لقياس هذا الزمن وضبطه. لكن هذا الزمن لا يلتقي والمقولات الخاصة بالتجربة الإنسانية للزمن.

وهناك نوع من الزمن يمكننا أن نضعه مقابل الفهم السابق. إنه «الزمن اللساني» (Temps Linguistique). يقول: «بواسطة اللغة تتجلى التجربة الإنسانية للزمن. والزمن اللساني، كما يبدو لنا، لا يمكن إختزاله في الزمن الحدوثي أو الفيزيائي»⁽⁶⁾ إن هذا الزمن

مرتبطة بالكلام، ويتحدد ويتنظم كوظيفة خطابية، ومركز هذا الزمن في راهنية إنجاز الكلام. وبمعنى آخر كما يقوله في موضوع آخر «الجهاز الشكلي للتلفظ»: «إن الحاضر هو منبع الزمن»⁽⁷⁾ فالحاضر اللساني هو أساس كل التقابلات الزمنية للغة. وهناك لحظتان:

- الأولى يكون الحدث فيها غير معاصر للخطاب، ويمكن استدعاؤه عبر الذاكرة.

- الثانية لا يكون الحدث في الحاضر، لكنه سيكون.

وليس في الواقع إلا زمن واحد هو الحاضر يسجل من خلال الالتقاء الضمني بين الحدث والخطاب. أما الزمانان الآخران فيتحددان في علاقتهما بالحاضر. ولا يبراز ذلك يلاحظ أنه عندما أحكي ما وقع لي، فإن الماضي الذي أحيل عليه لا يتحدد إلا في علاقته بحاضر فعل الكلام الذي أنجزه حالياً، وفي علاقتي مع الآخر الذي يطابق زمنه زمني. ومن خلال هذا التداخل الذاتي تتم تجربة العلاقة الأولية والثابتة بين المتكلم والمخاطب⁽⁸⁾.

3.2. في ربط بنفسه الزمن بالتجربة الإنسانية كان يتحدث عن الخطاب كما سنحدده من خلال تعريفه إياه. وفي الموضوع الثاني ينطلق بنفسه من التمييز بين الأشكال البسيطة والمركبة في الفعل. ويلاحظ أن التعبير عن الماضي في الفرنسية عرف تغييراً وتحولاً لم يطرأ بالنسبة للمستقبل. فالماضي المركب (Composé) والماضي البسيط (Simple) في التأويل الفرنسي القديم هما بمعنى واحد. لكن الشكل الأول ما يزال مستمراً في اللغة اليومية والكتابية، بينما الثاني كتابي فقط.

ويتساءل الباحث لماذا هذا التغيير؟ فيجب بضرورة إعادة تحليل بنية الفعل في علاقة ذلك مع الزمن، ويلاحظ «كون الأزمنة في الفعل الفرنسي لا تستعمل كأطراف في نظام موحد. لكنها تتوزع بحسب نظامين مختلفين ومتضافرين. ويتضمن كل واحد منهما نصيباً من أزمنة الفعل. وكل هذه الأزمنة، من خلال النظامين معاً ضرورة في استعمال كل متكلم»⁽⁹⁾.

هذان النظامان يبرزان في مستويين مختلفين للتلفظ وهما: الخطاب (Discours) والحكي (histoire) وهذا النظام الأخير مخصص الآن للغة المكتوبة، ويتميز بحكي أحداث الماضي. في هذا الحكي يتم تقديم أحداث أو أفعال تقع في زمن ما، بدون تدخل المتكلم في الحكي (ص 239)، وكأن الأحداث تحكي نفسها. والزمن الأساس هو (Aoriste) أو الماضي البسيط في الفرنسية: أي زمن الحدث خارج شخص الراوي (المتكلم).

أما الخطاب (ص 241) فيقدمه في معناه الواسع: «كل ملفوظ يشترط باثناً ومتقبلاً وعند الأول هدف التأثير على الثاني بأية طريقة». تتنوع الخطابات، وتمتد من المحادثة اليومية إلى الخطبة الأكثر إمعاناً في الزخرفة البديعية. إن الملاحظة التي يمكن تسجيلها هنا هي كون

النظامين معاً يستعملان في الكتابي لكن الخطاب نجده في الشفوي أيضاً. ويمكن داخل الحكي أن يبرز الخطاب، عندما يعيد المؤرخ إنتاج أقوال الشخصيات أو يتدخل هو بنفسه لتقييم الحدث المحكي. كما يمكن أن يتداخل الحكي والخطاب في نمط ثالث للتلفظ من خلال الخطاب غير المباشر (Indirecte).

وباختيار أزمنة الفعل، يختلف الخطاب نهائياً عن الحكي. في النظام الثاني تستعمل هذه الأزمنة مع هيمنة ضمير الغائب: «الماضي البسيط» و (Imparfait) و (plus que parfait) (ص 239). أما في الخطاب فنجد الحاضر و (Le parfait)، والأشكال الأخرى باستثناء الماضي البسيط. كما أننا في الخطاب نستعمل بحرية كل ضمائر الفعل بما فيها الضمير «هو»، لكن ليس بالقيمة التي يأخذها في الحكي.

4.2. من زاوية دلالية يتحدث دوکرو وتود وروف عن الزمن والموجهات في اللغة⁽¹⁰⁾. ينطلقان من المنطلق نفسه، وإن لم يصرحا بذلك، لأنهما يدخلان ذات التلفظ في الاعتبار. هذه الذات التي ترددت اللسانيات كثيراً، بعد سوسور في إدخالها في التحليل خشية الخلط بين اللسان والكلام.

ينطلق المقال من أن هناك مبدئين لتصنيف مختلف المفاهيم الزمنية المعبر عنها في اللغة. فهناك من جهة ضرورة تصنيف المؤشرات الزمنية تبعاً للموقع الذي تحتله في الجملة. من هذه المؤشرات نجد التأشير للحقبة، أو التدقيقات الكرونولوجية التي يعبر عنها من حدث الفعل نفسه (تَعَثَّى) أو بعض الكلمات المرتبطة بأحداث معروفة كالأعياد وما شابه هذا. وأخيراً زمن الفعل كما يتبدى من حيث الشكل. ومن خلال تحليل جملة، يتم إبراز هذه المؤشرات الزمنية وإحصاؤها، ومختلف الاحتمالات الدلالية للزمن من خلالها. هذا هو المبدأ الأول. وهناك من جهة أخرى مبدأ ثان، يتعلق باعتماد مؤشرات الجهة (Aspect). هذه المؤشرات تكون دائماً في المحمول، على اعتبار كونه لا يشكل فقط موضوع كيفية معينة أو حدث معين، ولكن أيضاً نمط تجلّي زمن هذا الحدث أو الكيفية (ص 391). ومن خلال بعض الجمل يتم إبراز مختلف التميزات الموجودة في الفرنسية بين هذه الجهات وإمكانات تداخلها.

5.2. شكل آخر من أشكال تجاوز التصور التقليدي لمقولة الزمن، نجده في معجم اللسانيات⁽¹¹⁾ الذي يستعيد فكرة لاينس عن التصنيف والتقطيع المقولي للزمن، والذي من خلاله يقابل الحاضر (لحظة الملفوظ المنتج في «الآن») اللاحاضر (Non-présent). هذا الأخير يُمكن أن يكون هو الماضي (ما قبل الآن) أو المستقبل (ما بعد الآن). ويتم التأكيد على أن هذين هما الزمانان المطلقان. وبما أن الحاضر هو أيضاً لا ماض ولا مستقبل، فإن هذا يجعله قابلاً لترجمة حقائق لا زمنية (تدور الأرض حول الشمس). ثم يقدم المعجم

نماذج لهذه التقطيعات والتصنيفات المقولية من خلال تداخل المقولات الزمنية وتقاطعها. وتدقيق ذلك أخيراً يتم من خلال علاقة الزمن بمقولة «الموجّه» و«الجهة»، للوصول إلى تأكيد التقابل بين الملفوظ والحكي وهما ما رأينا عند بنفست بمفاهيم أخرى.

6.2. من خلال طرح هذه التصورات حول مقولة الزمن، والتي لم نتوسع في تشخيصها قصد معاناة دقائقها أكثر، نعاين بجلاء صعوبة دراسة الزمن كما لاحظ ذلك «لايس» ونستخلص كون الإتجاه السائد رغم الفروقات والاختلافات بين الاتجاهات، هو محاولة تحليلاته. ومحاولة الوصول إلى خلاصات أساسية تسهم في تعميق فهمنا لمقتضيات استعمال الزمن في ربطه بالمقام أو السياق أو المعينات من خلال تقطيعات وتصنيفات للمقولة تنبني على الملاحظة المتأنية وصولاً إلى اقتراحات استنتاجية تسهم في بلورة تحليل هذه المقولة كما رأينا، وبالأخص مع إميل بنفست الذي سيعتمد منطلقاته في تحليل الخطاب العديد من الباحثين كما سنلاحظ. وقبل ذلك نحاول إلقاء نظرة على كيفية فهم الروائيين الجدد للزمن لخصوصيتهم وفراة تجربتهم وبالأخص مع الزمن والفضاء.

3- الروائيون الجدد والزمن :

1.3. الزمن اللغوي مطابق للزمن الواقعي هذا هو رأي النحو التقليدي كما يرى اللسانيون. وعلى أساس هذا الفهم وظف الروائيون التقليديون الزمن. مورس الوصف بكثرة في روايات القرن 19، وكان هدفه كما يرى «الآن روب غرييه»⁽¹²⁾ هو زرع الديكور، وتحديد إطار الحدث، وإبراز المظهر الفيزيقي للشخصيات، وذلك بقصد ماثلة العالم الواقعي. لأن ذلك يضمن أصالة الأحداث والأقوال والحركات. لكن الوصف في الرواية الجديدة يختلف جذرياً، لأن أهميته لا تكمن في الشيء الموصوف، ولكن في حركة الوصف نفسها. ونلاحظ الشيء نفسه بالنسبة للزمن. لا يتعلق الأمر في الرواية الجديدة بزمان يمر، لأن الحركات على العكس من ذلك ليست مقدمة إلا جامدة في اللحظة (ص. 16). ويرد على كافة المنتقدين الذين يرون كون بنية العمل عنده لا تقدم الثقة في امتلاكها الحقيقة الموضوعية للأشياء...

يقدم نموذجاً لتصوره لفيلمه «السنة الفاتنة في مارينباد» منطلقاً من أن مدة العمل ليست بأي شكل لا تلخيصاً ولا تكثيفاً لمدة أكثر إتساعاً وأكثر «واقعية» هي مدة القصة المحكية. إن هناك على العكس «تماماً» مطلقاً بين المذّتين. ف«قصة مارينباد» لا تمر لا في عامين ولا في ثلاثة أيام، ولكن بالضبط في ساعة ونصف (مدة المشاهدة). إن كل قصة الحب التي حكيناها يقول الكاتب وكأنها شيء مضى كانت في طور أن تتم أمام أعيننا هنا والآن (ص 166)، لأنه لا يمكن أن يكون «هناك» ممكن بدون «سابقاً». ويستنتج أن الزمن الوحيد هو زمن الفيلم. وبعد كلمة «نهاية» سوف لن يحدث أي شيء. لم تكن هذه الرواية خاضعة

لأي كرونولوجيا، وأي محاولة لترتيبها لأي كرونولوجيا خارجية لا تؤدي إلا إلى متتالية من المتناقضات.

إذا كان التصور التقليدي يرى أن الزمن هو الشخصية الرئيسية في الرواية ففي الرواية الجديدة يمكن القول أن الزمن يوجد مقطوعاً عن زمنيته. إنه لا يجري، لأنَّ الفضاء هنا يحطم الزمن، والزمن ينسف الفضاء، واللحظي ينكر الاستمرار (ص 168). يتضح من خلال هذا التصور الذي يقدمه لنا «غرييه»، الرؤية الجديدة للزمن والتي تنكر أي تماثل أو انعكاس للزمن الواقعي، وليس هناك أي زمن إلا الحاضر (زمن الخطاب) أما اللاحاضر سواء كان قبل أو بعد فهو غير موجود!...

2.3. إذا كانت لروب غرييه خصوصيته في الرواية الجديدة كروائي ومنظر ضمن الإنجاه ذاته، فإن جان ريكاردو وميشيل بوتور يختلفان عنه في ممارستها النقدية إلى جانب مساهمتهما وغيرهم النظرية في مجال الرواية الجديدة. لذلك فإنهما عند يتعرضان للحديث عن الزمن نجدتهما يتحدثان عنه من زاوية أخرى.

يميز جان ريكاردو في كتابه قضايا الرواية الجديدة⁽¹³⁾ بين زمن السرد وزمن القصة، ويضبطهما معاً من خلال محورين متوازيين، يُسَجَّلُ في أحدهما زمن السرد وفي الآخر زمن القصة؛ وينظر من خلال عدة نماذج أنواع العلاقات التي تتم بين المحورين (ص 163). وفي سرعة السرد يحاول دراسة علاقات الديمومة القائمة بحسب طبيعة الحكي بين المستويين الزمنيين. وهكذا يحدد ضمن سرعة السرد هذه الخصائص:

- مع الحوار يكون نوع من التوازن بين المحورين.
- مع الأسلوب غير المباشر الذي يلخص العديد من الأحداث تسرع وتيرة السرد.
- مع التحليل السيكولوجي والوصف، يتباطأ الحكي (ص 165).

ومن خلال الشكل ذاته يبرز ما يتعرض له الحكي من حذف وإيقاف وغيرهما من الظواهر التي ستعرض لها عند غيره من الباحثين، ليستنتج بعد ذلك كون نقص سرعة الحكي بسبب ظهور الفصول والانتقال من فصل إلى فصل يبرز لنا الكتابة وهي مقنعة بالأحداث المحكية. كما إن الكتابة المستمرة تظهر بوضوح طابع معمارية الكتاب. كما أنَّ طول السرد يسهم في الحركة والتزايد، فإن القصة على العكس تتوقف. وهنا يكون الوصول إلى نتيجة مزدوجة: فالكتابة ليست هنا مُقنَّعة بجريان القصة، ولكنها (الكتابة) موضوع نزاع بحسب تكرارها بواسطة معمارية الكتاب (ص 170).

4.3. يعتبر ميشيل بوتور من أهم الروائيين الجدد، ولقد تعرضت العديد من أعماله لدراسات ميدانية، كما أنَّ مقالته حول «بحوث في تقنية الرواية» أُعيدَ إنتاجها مراراً من لدن

العديد من الباحثين الذين ظلوا يحيلون إليها في تحليلاتهم . يقدم ميشيل بوتور إمكانية تقسيم زمن الرواية إلى ثلاثة أزمنة على الأقل : زمن الكتابة وزمن المغامرة وزمن الكاتب . وكثيراً ما ينعكس زمن الكتابة على زمن المغامرة ، بواسطة زمن الكاتب . وهكذا يقدم لنا الكاتب (الروائي) خلاصة قصة نقرأها في دقيقتين أو في ساعة ، وتكون أحداثها جرت خلال يومين أو أكثر للقيام بها ، أو خلاصة لحوادث تمتد على مدى سنتين ، أو عكس هذا تماماً... (14) .

ونحن نشعر بالأهمية القصوى التي تكون للمقاطع الروائية حيث يحدث التلاقي بين مدة القراءة والمدة التي استغرقها الحدث الذي نقرأ ، وغالباً ما يتجلى هذا في الحوار ، كما رأينا ذلك مع جان ريكاردو . وانطلاقاً من هذا التلاقي يمكننا أن نبرز بدقة التباطؤ والإسراع (ص 102) .

ثم يتحدث عن مختلف التجليات الزمنية الممكنة في العمل الروائي ، والتي يطرحها من خلال : التسلسل التاريخي الذي يسود فيه نوع من الخطية يصعب التسليم بإمكانيته في الحفاظ على هذه الخطية الشيء يجعلنا أمام ضرورة دراسة مختلف أنواع التابع والتعاقب التي يعرفها هذا التسلسل . ثم يتحدث عن شكل آخر هو الطباق الزمني الذي يُجَلِّي من خلاله العودات إلى الوراء ، ومختلف النظرات الملقاة على المستقبل ليصل إلى الانقطاع الزمني الذي يتم فيه الانتقال من زمن إلى آخر باعتماد إشارات مثل (وفي الغد) أو (وبعد قليل) أو بتغيير الفصول . وبعد أن يتحدث عن سرعة السرد ينتقل إلى خصائص المدى لإبراز الإمكانات الهائلة التي يقدمها تقطيع الزمن حسب مسافة ما في التحليل لمعرفة أدق مميزاته وخصائصه .

مع الرواية الجديدة والتنظيرات المواكبة لها ، والتي تجد لها في أعمال روائية هامة عند أمثال بروست وفولكنر وغيرهما ، تتخذ مقولة الزمن أبعاداً ودلالات جديدة سواء في الممارسة (الكتابة الروائية) أو في التحليل (تحليل الخطاب) آن الأوان لمساءلتها ومعانيتها أبرز خصائصها .

4 - لسانيات الخطاب والزمن :

1.4 . في الانتقال من الجملة ، إلى ما فوقها ، يثار كثير من الإبهام والالتباس وما تزال مختلف إتجاهات تحليل الخطاب تسلم بصعوبة هذا الانتقال ، ومشاق احتمال التغلب عليه وتجاوز أمرياته وحديثاته ، كما سبق إبراز ذلك . وإذا كانت اللسانيات بمختلف مظاهرها وتياراتها تقرر بأهمية تحليل الزمن وصعوبته ، فإن الأمر حين يتعلق بمجابهة تحليل الخطاب لمقولة الزمن يزداد إشكالاً وتعقيداً . لذلك سنلجأ في هذه النقطة إلى إبراز مختلف تجليات

تحليل الزمن من خلال دراسات نقدية على أعمال تطبيقية تحتفظ فيها النصوص المدروسة بخصوصية كونها تعرف بـ «رواية الزمن»، مثل «بحثا من الزمن المفقود» لمارسيل بروست، والجبل السحري «لتوماس مان، وأغلبه أعمال الروائي ميشيل بوتور وغيرها من الروايات.

2.4 كان الدور الذي لعبه الشكلايون الروس رائداً في توجيه النظر إلى الجوانب النبوية في تحليل الخطاب الأدبي. وكان للتمييز الذي أقاموه داخل أي عمل حكائي، بين ما سماه توماشفسكي (Sujet/Fable) أثر فيما سيلي من الأبحاث يقصد توما شفسكي بالمتن الحكائي مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل. وأنّ المبني الحكائي يتكون من الأحداث نفسها، لكنه يراعي نظام ظهورها في العمل كما يراعي ما يتبعها من معلومات تُعَيِّنُها لنا(15).

إن العلاقة جدلية بينهما، وزمنياً، يظهر المتن الحكائي كمجموعة من الحوافز المتتابعة بحسب السبب والنتيجة. كما يتجلى المبني الحكائي أيضاً كمجموعة من الحوافز لكنها مرتبة بحسب التابع الذي يفرضه العمل. وانطلاقاً من نوعية هذه العلاقة، يمكن للكاتب أن يقدم لنا أشكالاً متعددة للتجلي الزمني كما يظهر من خلال المبني الحكائي. فعندما يعرفنا الكاتب منذ البداية بالشخصيات، فإننا هنا نجدنا أمام العرض المباشر (Directe Exposition)، لكنه عندما يبدأ عمله السردى بالأحداث في تطورها المتنامي، ولا يخبرنا عن الشخصيات إلا من خلال التطور، فنحن هنا بصدد العرض المؤجل (retardée). وهناك شكل ثالث يتم فيه سرد ما سيحدث لاحقاً وقبل وقوعه كحدث. من خلال هذه الأشكال الثلاثة يقدم لنا توما شفسكي نوعية العلاقات بين المتن الحكائي والمبني الحكائي. ويشير إلى أهمية تحليل الزمن وإبراز الأدوار التي يقوم بها في العمل الحكائي، مميزاً بين زمن المتن الحكائي وزمن الحكّي. يقصد بالأول افتراض كون الأحداث المعروضة قد وقعت في مادة الحكّي. أما زمن الحكّي فيرى فيه الوقت الضروري لقراءة العمل أو مدة عرضه. وهو يوازي المفهوم الذي لدينا عن حجم العمل (ص 192)، أي ما يمكن أن نفهم منه الزمن الخطي للخطاب كما سنلاحظ عند غيره من الباحثين.

ويركز أخيراً على زمن المتن الحكائي الذي يرى أن بإمكاننا الحصول عليه من خلال التأريخ للأحداث أولاً، والمدد الزمنية التي تشغلها الأحداث ثانياً، وأخيراً، من خلال المدة (La durée) التي يتصرف فيها الكاتب بحرية من خلال إدراج خطابات مطولة في مدة زمنية قصيرة جداً، أو تمديد كلمات موجزة أو أحداث سريعة إلى فترات طويلة.

كان الشكلايون الروس يمثلون بداية حقبة جديدة في تحليل الخطاب الروائي أو الأدبي بوجه عام، وسنلاحظ أن من جاء بعدهم أعطى أبعاداً جديدة لمنطقاتهم وأبحاثهم. وسنبين هذا من خلال تطوير فهمهم للزمن وبالأخص مع تودوروف وجنييت.

3.4. يمكن اعتبار دراسة هارلد فاينريش، من أشمل وأعمق الدراسات التي خصصت لفرضية الزمن⁽¹⁶⁾. منذ البدء يعلن فاينريش انطلاقه من اللسانيات، ومحاولته ممارسة قراءة لسانية نصية كامتداد وتطوير للسانيات البنيوية (ص 12). يعتمد بعض الدراسات المنجزة في الثقافة الألمانية حول الزمن وبالأخص مع كونتر مولر (G. Mullet) وكيت هابورغر (K. Hamburger)، وكذلك في الثقافة الفرنسية مع جان بويون وإميل بنفست، وبيني محاولة إقامته نظرية حول «الزمن النصي» بالاستعانة بهم والانطلاق من تأسيساتهم.

من فرضية مفادها أن توزيع الأشكال الزمنية في أي نص من النصوص ليس اعتباطاً، يمارس الإحصاء والبحث في نوعية تجلي هذه الأشكال الزمنية وتوزيعها في النص، مقيماً من خلال ذلك تصوراً متميزاً ومفاهيم إجرائية خاصة. وهو على غرار «كونتر مولر» الذي يميز بين زمن الحكي والزمن المحكي والذي يرى أن الزمن المحكي لا يوازي الزمن الفيزيائي (ص 58) ينتقد التصور الكلاسيكي حول الزمن وثلاثية تقسيمه قائلًا: «لا يمكن للنظرية اللسانية للزمن أن تنطلق من هذا التقسيم الثلاثي وعليها أن تضع فعل التواصل (procés de communication) كنقطة إنطلاق لأي تأمل تركيبى» (ص 67).

يأخذ نصين لجان بول سارتر، الأول من كتابه «نقد العقل الجدلي»، والثاني من سيرته الذاتية «الكلمات». يقوم بإحصاء الأشكال الزمنية في كل واحد منهما أولاً وبتصنيفها ثانياً لينتهي إلى تأكيد هذه الخلاصة: «يمكن أن نتخيل أن هذه التواترات المختلفة، تختلط اعتباطاً في النصوص، وتتوزع فيها بحسب قوانين الاحتمال. هذا ليس صحيحاً، لا هنا، ولا في نصوص غيرها. إن تتابع الأزمنة في نص ما يخضع بوضوح لمبدأ نظامي معين» (ص 20).

وعلى غرار إميل بنفست، الذي يُقرُّ الكاتب بأن مقارباته اللسانية قريبة من تصوّره، يخلص إلى أن هناك مجموعتين زمنيتين. في المجموعة الأولى تهيمن أزمنة: الحاضر - الماضي المركب - (P. composé) والمستقبل. وفي المجموعة الثانية تهيمن أزمنة أخرى: الماضي البسيط (Conditionnel - Plus que Parfait - Imparfait - P. Simple). بعد هذا الإحصاء الذي يظل عند حدود المستوى الشكلي، يعتمد معايير أخرى تتصل بالمحتوى في المجموعتين، فيعابن كون النصين يختلفان غرضاً وتوجهاً: غرض النص الأول علمي، علاقة الفلسفة ببعض المعطيات الاجتماعية لذلك كان يعتمد البرهان أو التقرير المنهجي، أما النص الثاني فإنه يتحدث فيه عن أسلافه وأعمالهم. إن النص الأول يتواءم والمجموعة الزمنية الأولى. بينما النص الثاني تلائمه أزمنة المجموعة الثانية. إن الزمن الأول تقريرى (Commentatif)، والثاني سردي (Narratif). يعتمد الأول على التقرير (Commentaire) والثاني على الحكي (récit). وهما معاً يشكلان العنوان الفرعي للكتاب: «الزمن بين الحكي والتقرير».

من زاوية «نظرية التواصل» يدخل مقولة الضمير في التحليل (ص 27) والحروف وعلاقة الباث بالمتقبل ، ويقترح تسمية «العالم» (Le Monde) على هذا الموضوع الذي يحمل دلالة معينة . ويمكن للموضوع أن يأخذ أشكالاً متعددة بحسب نوعية التواصل القائمة بين الباث والمتقبل وهكذا فالأزمة التقريرية هي من «عالم تقريرى» والأزمة السردية «من عالم محكي» (ص 23) .

باستعمال الأزمة التقريرية نبغي افهام المتقبل أن النص يستدعي نوعاً من التوتر . وعلى العكس مع الأزمة السردية نعلن للمتقبل وضعاً آخر مغايراً يتطلب نوعاً من الارتخاء (détente) . ومن خلال التقابل بين أزمة العالم المحكي وأزمة العالم التقريرى يجسد المفهوم المحوري الأساسي الأول : «وضعية القول» (Attitude de Locution) . (ص 30) .

تحت هذا المفهوم الأساسي يميز ، وبحسب الأزمة ، بين نوعيات النصوص التي تدخل ضمن هذا العالم أو ذاك وما تستلزمه علاقة التواصل من توتر أو ترأخ . وهكذا يدخل في إطار أزمة العالم التقريرى : الحوار الدرامي - افتتاحيات الصحف - التقرير العلمي - المقال الفلسفي - التعليق القضائي وكل أشكال الخطاب الطقوسي . وتطابق أزمة العالم المحكي مقامات أخرى للقول (situations) . هي : قصة شباب - الحكى عن رحلة صيد - قصة مخترعة - أسطورة دينية - قصة قصيرة - حكي تاريخي - رواية - تغطية صحفية حول ندوة صحفية . . . (ص 33) .

وإذا كانت كل إشارة لسانية تشكل جزءاً من نص تحيط بما قبل وبما بعد ، فإنه يمكننا أن نتحدث عن زمن النص (Text-Zeit) . ويمكن تقسيم زمن النص إلى اتجاهين أساسيين للتواصل : الإخبار القبلي والإخبار البعدي . ومن خلالهما النظام الزمني . وفي أزمة العالمين معاً يمكن أن نجد تقسيمات أخرى داخلها : فالإخبار يكون إما ارجاعياً (Com-munication rapportée) أو استباقياً (Anticipée) . إن لهذين المفهومين الأخيرين قيمة علائقية ترتبط بالعلاقة بين ما يسميه زمن النص وزمن الحدث . وبإمكان هذين الزمين أن يلتقيا أو يفترقا . فزمن النص وزمن الحدث يلتقيان في «درجة الصفر» ، وتتمثل على مستوى التقرير في الحاضر ، وعلى مستوى الحكى في (Imparfait-P. Simple) أو الاختلاط بينهما . ويمكن أن لا يلتقيا إلا عبر الارجاع ، أو الاستباق وعلى مستوى التقرير والحكى وإن بشكل مختلف . فالإرجاع يكون حيث هيمنة (Passé composé-Plus que Parfait-P. antérieur) . ويكون الاستباق حيث هيمنة (Futur- Conditionnel) (ص 70) وكل ما يتم في هذا التمييز بين زمن النص وزمن الحدث يمكن إدراجه تحت المفهوم الأساسي والمحوري الثاني عند فاينريش وهو منظور القول (La perspective de Locution) .

أما المفهوم الأساسي الثالث الذي يقيمه فاينريش في الفصل الرابع من كتابه فهو

«الإبراز» (Mise en relief) . ويلاحظ في البدء أنَّ الأساسي ليس المفهوم في ذاته ولكن ما يؤدي إليه (ص 108) ويمكن تعويضه شريطة أن يعبر عن فكرة مفادها أن الأزمنة يكون من وظيفتها إبراز شيء ما في النص وذلك بأن نضع في المستوى الأول (Le 1er Plan) بعض المضامين ، ونُنحِّي مضامين أخرى إلى مستوى ثان ، الخلفية (Arrière Plan) .

وبعد مناقشته صعوبة توظيف مفهوم الجهة (L'Aspet) عند لاينس ، وتطبيقها في تحليل زمن النص يخلص إلى أن أطروحته تختلف ، لأن الوظائف الزمنية يمكن إرجاعها للنص أو إلى مقام القول وليس إلى مضامين الخطاب . (ص 109) .

ومن خلال قراءة مقطع من «العادلون» لالبيرو كامو يعاين تتابع الأزمنة في جريانها في النص ليخلص إلى نوعية العلاقة التي تقوم بين زمنين يتفاوتان (P Simple- Imparfait) ، لينتهي من خلال التحليل إلى أن (Imparfait) خالص للخلفية وأن (P. Simple) خالص للمستوى الأول . في تحليل رائع يتتبع فيه الجزئيات من خلال رصد وظائف هذا التناوب بين الزمنين ، والموقع الذي يحتله كل واحد منهما في المقطع المحلل . وإن متابعة أهم أفكار الكتاب ستخرج بنا عن المراد . لذلك تنبغي الإشارة أخيراً إلى نقطة هامة يتحدث عنها وهي التنقلات الزمنية (ص 198) ، والتي يقسمها إلى قسمين رئيسيين : متجانس وغير متجانس .

إن النوع الأول يضمن نصية النص وانطلاقاً منه يمكننا مساءلة معناه . أما الثاني فيعطيه حداً أقصى من الاخبار (كما نجده في نظرية التواصل) (205) .

4.4. إذا كان فاينريش من خلال بحثه عن الزمن يعمل من أجل إقامة نظرية متكاملة حول تحليل زمن الخطاب فإن تودوروف في مقاله الهام حول مقولات الحكيم الأدبي⁽¹⁷⁾ . يسعى بدوره إلى بلورة جملة من المفاهيم بصدد تحليل الخطاب الأدبي بوجه عام ، وسنركز هنا بالأخص على ما يطرحه حول مفهوم الزمن .

على غرار الشكلايين الروس يميز تودوروف بين القصة والخطاب . وهما مرادفان لما رأيناها حسب ترجمة إبراهيم الخطيب سابقاً للمتن الحكائي والمبنى الحكائي . إن زمن الخطاب بأحد المعاني يرى تودوروف ، خطي ، وزمن القصة متعدد الأبعاد . إن العديد من الأحداث في القصة يمكنها أن تجري في وقت واحد . لكن في الخطاب لا يمكنها أن تأتي مرتبة واحدة بعد الأخرى ، وذلك بسبب الانحرافات الزمنية المتعددة التي تمدنا بها العديد من الخطابات على المستوى الزمني (ص 138 - 139) . وهكذا نجد أشكالاً متعددة بحسب علاقة زمن القصة وزمن الخطاب من خلال التضمين أو التسلسل أو التناوب .

في التسلسل نجدنا أمام تتابع حكي قصص متعددة أو أحداث كثيرة ، وبانتهاء أي واحد منها يبدأ حكي الثاني وهكذا . أما في التضمين فيمكن لقصة أصل أن تستوعب قصصاً

فرعية تحكى ضمنها ، كما نعاين في ألف ليلة وليلة . وأخيراً يقصد بالتناوب حكي قصتين معاً في آن . وتترك كل قصة عند حد معين لتستأنف القصة الأخرى وهكذا دواليك .

إن تودوروف هنا ، رهين تصور الشكلايين الروس ، غير أن يستعيده بوضوح ويضعه في سياق أكثر انسجاماً مع بقية العناصر التي يرصدها ، ويقيم تودوروف بعد ذلك تمييزاً آخر بين زمن الكتابة وزمن القراءة (ص 140) ، فالأول يصبح عنصراً أدبياً بمجرد ما إن يتم إدخاله في القصة . أو في الحالة التي يتحدث فيها الراوي ، في حكيه الخاص عن الزمن الذي يكتب فيه أو يحكيه لنا . أما الثاني فيتحدد في إدراكنا إياه ضمن مجموع النص ، ولا يصبح عنصراً أدبياً إلا بشرط كون الكاتب معتبراً في القصة .

5.4 . في سنة 1970 تصدر دراسة متميزة «لفرانسواز فان روسم - كيون» بعنوان «نقد الرواية ، حول رواية» التحوير «لميشيل بوتور» . تضع روسم - كيون بحثها ضمن البويطيقا ، وتقدم دراستها كإسهام في تطويرها وبلورتها . تدرس رواية ميشيل بوتور من ثلاثة أركان أساسية : المتحقق منه ، والمحمّل ، والمنظورات السردية ، وضمن هذا الركن الأخير نجد تناولاً لزمن الخطاب الروائي يمتد على مدى 43 صفحة⁽¹⁸⁾ .

تنطلق في تناولها عنصر الزمن من إسهامات الشكلايين الروس وليمرت (Lämmert) وكونتر مولر الألمانيين ، وكذلك من بعض النظريات التي مارسها ميشيل بوتور حول الزمن في العمل الروائي . وعلى أساس التمييز بين المبنى الحكائي والمتن الحكائي (توماشفسكي) وبين الزمن المسرود وزمن السرد (كونتر مولر) ، وبين التقسيم الذي اعتمده ليمرت عن الشكلايين الروس ، تقسم بين زمن القصة (La Fiction) وزمن السرد (Narration) .

إن الزمن الأول يشمل ما هو كوني ، ويتضمن الفصول والأيام والشهور ، والمؤشرات الزمنية التي نجدها تضبط أوقات الرحلات في محطات القطار ، ويشمل كذلك ما هو سيكولوجي ، ويضم مختلف الذكريات والأحاسيس ، ومشاريع الأعمال التي يقوم بها البطل ، وتاريخي ، ويشمل الآثار والأعمال الفنية ، أما الزمن الثاني ، فيبدو من التابع المنظم للوصف ، ومن التدخل المتنامي والحقيقي لمختلف المتتاليات الزمنية ، بالإضافة إلى تحويل الحوافز التيمية (ص 221) .

من الربط الذي يقوم به جان بويون بين «وجهة النظر» والزمن ، تبرز كون رواية بوتور «رواية زمن» ، لأنه انطلاقاً من الحاضر يتم استدعاء الذكريات والمشاريع التي تمت في الماضي . وكلها يتم ترهينها في الحاضر . وبذلك لا يغدو الزمن إطاراً شكلياً ، وفي داخله تجري القصة إذ أنها تجري من خلال ليس فقط الزمن ، ولكن أيضاً من خلال الوعي بالزمن .

وبعد تشديدها على كون البناء الزمني في رواية بوتور لا يستند فقط على تحفيزات سيكولوجية أو واقعية ، وإنما على حوافز توليفية (Motivation Compositionnelle) تميز بين زمن المبنى الحكائي (Sujet) وزمن السرد (Narration). يتضمن الأول تسلسلاً لأفعال الشخصيات خلال الرحلة . ويغطي هذا الزمن ، فترة تقرب من زمن القراءة (236 صفحة) ، ويدو لنا الثاني في تتابع الجمل الذي يظهر متماثلاً وزمن الحدث المحكي . لكن هذا التماثل بين الزمنين ليس إلا تقريباً لأننا نجد الإسراع والتباطؤ والتقطع ، وكل هذا لا يسهم إلا في استعمال الحذف أو التفاصيل الزائدة وما شابه هذا . لذلك تستنتج ضرورة المقارنة ليس فقط بين القصة والمبنى الحكائي (Sujet) ، لكن بينهما والسرد (ص 227) .

بواسطة الإشارات الزمنية يمكن إقامة القصة (Histoire) ، وذلك بجمعها كلها في نظام كرونولوجي . وانطلاقاً من تحديد هذه الإشارات الزمنية تتاح إمكانية تقويم اتساع (Ampleur) الزمن المسرود بتمييزه إلى حقب وذلك بالاستعانة بإشارات زمنية أخرى مرتبطة بالأيام والساعات . وتكون جميعاً مضبوطة ودقيقة . في رواية بوتور تلاحظ الباحثة أن الزمن المسرود يتطور على مدى عشرين سنة ، لكن خمس حقب هي المسجلة فقط من خلال الحكوي . وبما أن القصة مختلفة عن المبنى الحكائي (Sujet) ، فإن اختيار ما هو محكي يخبرنا إذن عن المبنى الحكائي ، لكن يجب أيضاً لتحديد قوانين تنظيمه الزمني ، اعتبار الطريقة التي بواسطتها حكيت الأحداث : أي النظام الذي وزعت عليه الاخبار (ص 232) .

إن هناك متاليتين لمعطيات مقيسة :

أ - المؤشرات الزمنية (زمن القصة - الزمن المسرود) .

ب - التصفيح (Pagination) : توزع هذه المؤشرات أو الإشارات حسب صفحات الرواية .

ومن الضروري مطابقتها معاً على مستوى الحقب المحكية من جهة ، والصفحات المطابقة لسردها من جهة ثانية . وتمارس الباحثة ذلك من خلال لوحة خاصة للزمن تذيّل بها الكتاب .

من هذه اللوحة - الشكل التي حاولت من خلالها رصد مختلف الإشارات الزمنية في شكلها العام (السنوات) ، (الماضي - الحاضر- المستقبل) ، والخاص (الأيام - الساعات) ، ومطابقتها مع فصول الرواية التسعة وأجزائها الثلاثة ، تشرع في قراءة تفصيلية للزمن في الرواية وذلك من خلال تقطيعها للمتاليات الزمنية بحسب الحقب مميزة بين الزمن المسرود وزمن الفصّة وكذلك من خلال تقطيع الفقرات حسب الزمن لتخلص إلى أنواع مختلف التنويعات الزمنية التي تعرفها الرواية . وتستنتج خصوصية الوعي بالزمن في رواية بوتور، مما

يجعلها، كما انطلقت من ذلك، بالفعل «رواية زمن» بالإضافة إلى كونها «رواية مكان» . . .

6.4. مع كتاب «خطاب الحكيم» لجيرار جينيت⁽¹⁹⁾، يمكن الحديث عن مرحلة متطورة في تحليل الخطاب الروائي من الزاوية التي دشنها الشكلاونيون الروس وطورها من سار في اتجاههم مستوعباً مختلف مستجدات التحليلات اللسانية . يحتل تحليل الزمن ثلثي الكتاب والقسم الرئيسي في البحث . ينطلق جيرار جينيت من قوله لكرستيان ميتر يؤكد فيها كون الحكيم مقطوعة زمنية مرتين : فهناك من جهة زمن الشيء المحكي ، ومن جهة ثانية زمن الحكيم . أي أن هناك زمنين : زمن الدال وزمن المدلول . يحيل جيرار جينيت نوعية العلاقة بين الزمنين على ما أسماه المنظرون الألمان بزمن القصة وزمن الحكيم .

ويلاحظ كون الزمن بهذه الصورة موجود في السينما وفي مختلف أشكال الحكيم الشفوي غير أن الحكيم الأدبي هو أكثر صعوبة للاحاطة به واستيعابه . وذلك لأن أي زمن لا يمكن أن «يستهلک» أي يُرَهن إلا في زمن محدد هو زمن القراءة . وعلى غرار ما سبق أن رأيناه مع الآن روب - غرييه يلاحظ «أن النص السردی ، شأنه شأن أي نص ، لا زمنية له ، إلا التي يستعيرها مجازاً ، من خلال قراءته الخاصة» (ص 87) . لذلك يمكننا اعتبار هذا الزمن الأخير زمناً زائفاً بأحد المعاني (Pseudo-Temps) . ودراسة نوعية العلاقة بين زمن القصة وهذا الزمن الزائف : زمن الحكيم (récit) حسب هذه المحددات الأساسية الثلاثة :

(1) علاقات الترتيب (Ordre) الزمني بين تتابع الأحداث في المادة الحكائية (Diègèse) وبين ترتيب الزمن الزائف وتنظيماتها (Disposition) في الحكيم .

(2) علاقات المدة أو الديمومة (Durée) المتغيرة بين هذه الأحداث أو مقاطع حكائية ، والمدة الزائفة (Pseudo- Durée) (طول النص) ، وعلاقاتها في الحكيم : علاقة السرعة التي هي موضوع مدة الحكيم .

(3) علاقات التواتر (Fréquence) بين القدرة على التكرار في القصة والحكي معاً .

إن الباحث ، بمعنى آخر يبحث في نوعية العلاقة بين القصة والحكي (الحكي هنا مرادف للخطاب عند تودوروف) من خلال ثلاثة مستويات : الترتيب ، المدة ، التواتر . في المستوى الأول بين الكاتب كون دراسة الترتيب الزمني للحكي يأخذ معناه من مواجهة ترتيب تنظيم الأحداث في الخطاب السردی بترتيب تتابع الأحداث نفسها في القصة ، كما يبدو ذلك من خلال الحكيم مباشرة حيث يمكننا استدلال هذا المؤشر أو ذاك بطريقة غير مباشرة . لكن القيام بهذا العمل ليس دائماً ممكناً لأننا نعثر أبداً ، وفي كل الحالات ، على هذا النوع من الترتيب الخالص للأحداث ، لأننا سنجدنا باستمرار أمام «مفارقات سردية» (Anachro- nies Narratives) تتجلى من خلالها مختلف أشكال التفاوت بين الترتيب في القصة

والحكي . إن المفارقة ليست وليدة اليوم بل إنها من إحدى المميزات التقليدية للسرد الأدبي . وهكذا نلاحظ في الالفاذة أن بدايتها في وسط الحكي ، تتلوها عودات إلى الوراء (للتفسير) . وهذا ما نجده أيضاً في روايات القرن التاسع الواقعية . ومن خلال تمييزه بين المقطع السردى والموقع الزمنى يستنتج من خلال التحليل لنموذج من «بحثاً عن الزمن المفقود» مختلف العلاقات الزمنية الممكنة والتي يعطيها مفاهيم خاصة : الاستباق (Prolepse) ، ومعناه حكي شيء قبل وقوعه . والارجاع (Analepse) ، ويعني استرجاع حدث سابق عن الحدث الذي يحكى . وفي تحليله للمفارقات أبرز كونها يمكن أن توضع في الماضي أو المستقبل ، بعيدة بهذا الشكل أو ذاك عن لحظة «الحاضر» . وهكذا فالمسافة الزمنية التي تفصل بين فترة في القصة يتوقف فيها الحكي ، وفترة في القصة يبدأ فيها الحكي المفارق ، هي التي يسميها بـ «السعة» (Portée) . ويمكن للمفارقة أن تغطي مدة (Durée) طويلة أو قصيرة من القصة وهي المدى «Amplitude» .

ويعطي مثلاً من النشيد التاسع عشر من الأوديسا . فعندما يستدعي هوميروس الملابس التي كان فيها «أوليس» مراهقاً ، وقصة أثر الجرح ، في الوقت الذي كانت أوريكلي تغسل رجليه ، نجد كون هذا الارجاع يستغرق الأبيات (394 - 466) ، أي أن مداه يشمل عدة سنوات في حين لا يستغرق اتساعه إلا لبضعة أيام . (ص 98) ، ويشرع بعد ذلك في دراسة كل من الارجاعات والاستباقات على حدة من خلال الرواية التي يحللها . منطلقاً من أن كل مفارقة تشكل في علاقتها بالحكي الذي تدخل ضمنه حكياً زمنياً ثانياً ، ومرتبطة بالاول . وعندما يكون هذا المدى أو ذاك الاتساع لا يخرج عن الحكي الاول ولا يتجاوزه لا إرجاعاً ولا استباقاً يسمى بالارجاع الداخلي أو الاستباق الداخلي . وعلى عكس ذلك يسميان معاً بالخارجي .

وبعد تقسيم الارجاع إلى داخلي وخارجي يتحدث عن إرجاع مختلط يكون فيه المدى سابقاً والاتساع لاحقاً لنقطة بدء الحكي الاول . ويقسم بعد ذلك الارجاع الداخلي قسمين رئيسيين : براني الحكي وجوّانيّه . فالأول (Hétérodiégétique) يتم في خط القصة من خلال مضمون حدثي مغاير للحكي الاول ، كما نجد عادة عندما تدخل شخصية الأحداث ، ويتم استحضارها فيها . أما جواني الحكي (Homodiégétique) فهو على العكس يوضع في خط الحدث ذاته الذي يجري فيه الحكي الاول ، ويقسم هذا النوع الثاني إلى قسمين ارجاعات تكميلية (Complétives) وارجاعات تكرارية (Répétitives) .

يتم النوع الاول من خلال الارجاعات التي تأتي لملء ثغرات سبق القفز عليها زمنياً ، أو تم المرور بجانبها دون أن يشكل ذلك حذفاً زمنياً ، وهو ما يمكن تسميته بالحذف المؤجل

(Paralipse) . بينما في النوع الثاني يعود الحكي بين الفنية والأخرى إلى ماضي الحكي عن طريق التذكر .

ويميز بعد ذلك ، بادخال المدى والسَّعة ، بين ارجاعات جزئية وأخرى كلية . تظهر الأولى (Partielles) نوع الاسترجاع الذي ينتهي إلى حذف دون أن يصل إلى الحكي الأول . وفي الثانية ، يمتد الاسترجاع ليغطي مدة طويلة في الماضي إلى الحكي الأول . ويبين بعد ذلك وظائف كل من هذه الأنواع (ص 101 = 102) .

بصدد الاستباقات يلاحظ أنها أقل تواتراً في الأعمال الحكائية الكلاسيكية . ويمارس إزاءها ما تبينه من خلال الارجاعات تقسيماً وتوزيعاً (ص 111) . لينتهي بعد ذلك إلى نوع آخر من المفارقات المركبة أو المزدوجة ، وهو الذي يمكننا من خلاله الحديث عن إرجاعات استباقية أو عن استباقات ارجاعية .

ونجد الباحث في الفصل الثاني الخاص بالمدة (Durée) مبتدئاً بطرح المشاكل التي تعرفها نوعية العلاقة بين الحكي والقصة على مستوى المدة وصعوبة قياسها . وإذا كانت نقطة الصفر التي يلتقي فيها التابع الحكائي والسردى كما نجد مثلاً في الحوار حيث التساوي بين المقطع السردى والمقطع القصصي كما رأينا ذلك مع ريكاردو وبوتور ، فإننا سنجد متغيرات عديدة تطرأ على هذا المستوى بين القصة والحكي . وتتجلى هذه المتغيرات من خلال التلخيص (Sommaire) والوقف (Pause) والحذف (ellipse) والمشهد (Scène) . وبعد إبراز هذه المتغيرات في رواية مارسيل بروسست يلاحظ إمكانية تحديد الرواية كمشهد ، ولا نجد فيها ذلك التناوب التقليدي بين التلخيص والمشهد (ص 144) .

أما الفصل الثالث فيخصصه لما يسميه بالتواتر (Fréquence) أو التكرار بين الحكي والقصة . يربط هذا المفهوم بما يسمى عند اللسانيين بالجهة ، وينطلق في تحديده من كون الحدث أي حدث ، ليس له فقط إمكانية أن ينتج ، ولكن أيضاً أن يعاد إنتاجه أي يتكرر مرة أو عدة مرات في النص الواحد . وأنواع التواتر التي يضبطها هي : الانفرادي (Singulatif) ، التكراري (Répétitif) والتكراري المتشابه (Itératif) . في الانفرادي نجد خطاباً وحيداً يحكي مرة واحدة ما جرى مرة واحدة . وهذا هو العادي . أما في التكراري فنجد خطابات عديدة تحكي حدثاً واحداً ، وقد يكون ذلك من شخصية واحدة أو عدة شخصيات . أما التكراري المتشابه فنجد من خلال الخطاب الواحد الذي يحكي مرة واحدة أحداثاً عديدة متشابهة أو متماثلة . وبعد إبرازه من خلال الاحصاء التناوب الموجود بين الانفرادي والتكراري المتشابه ونوعيات العلاقة بينهما ينتهي إلى ما يميز زمن الخطاب الروائي في «بحثاً عن الزمن المفقود» عن السرد الكلاسيكي من خلال التكتيفات والانحرافات والتحريفات الزمنية التي كان

يمارسها وعن وعي ، باستثناء الحكي التكراري المتشابه الذي يرى جينيت أنه لم يكن يدركه ، ليخلص إلى أن رواية مارسيل بروست ذات تعامل نوعي مع الزمن ، باعتبارها «رواية زمن» لها وعي خاص بالزمن وتلعب معه وبواسطته لعباً جميلاً .

7.4. عندما تحدث تودوروف ودوكرو عن الزمن دلاليًا كما رأينا في (4.2) أشارا إلى إمكانية تحليل الزمن من زاوية أخرى نحوية من خلال الخطاب في «زمن الخطاب»⁽²⁰⁾ . يقصدان معاً بزمن الخطاب ، المسافة بين تمثيل الزمن في الفعل مع راهنية إنجاز التلفظ . وبذلك يتم استبعاد علاقة زمن الفعل بزمن آخر وجودي أو فلسفي . إن هذا الزمن ينتظم حول «الحاضر» كمقولة لسانية محضة تعني لحظة التكلم . ويمكن تبعاً لذلك تقسيم بقية الأزمنة إلى مجموعتين تبعاً للعلاقة التي تربطهما مع الحاضر ، وبصفة عامة مع التلفظ . في المجموعة الأولى نجد الاشارات الكرونولوجية الأكثر دقة في علاقتها بالحاضر أو بمساعدة المعينات . وهي بذلك تحيل على مقام التلفظ (الحاضر - الماضي المركب (P. Composé) المستقبل . . .) . أما المجموعة الثانية فإنها تحاول اخفاء شروطها التلفظية الخاصة . حيث تقع الأحداث في علاقة بعضها ببعض ، وفي علاقة مع كرونولوجية «موضوعية» . إن الحدث الموصوف منعزل عن الحاضر ، ليس عبر مسافة زمنية (السنوات . . .) . ولكن بقصد مضبوط من المتلفظ (المتكلم) (الماضي البسيط - Imparfait) . ويمكن أن يتداخل استعمال أزمنة المجموعتين . وبعد استعراض أعمال «بولر» ، و«بنفست» و«فاينريش» وغيرهم من الذين قاموا بتصنيفات من هذا النوع يخلصان إلى أن قضايا الزمن مركبة في العمل الحكائي . وبذلك يمكن أن نميز من خلاله بين : 1/ زمن القصة . 2/ زمن الكتابة (أو زمن السرد) . 3/ زمن القراءة . وباعتبار هذه الأزمنة الثلاثة داخلية ، فإن هناك أزمنة خارجية هي : زمن الكاتب وزمن القارئ والزمن التاريخي . إن العلاقة بين كل هذه المقولات تحدد الاشكالية الزمنية للحكي . (ص 400) . ثم يشرعان في توضيح العلاقات الموجودة مثلاً بين زمن القصة وزمن الكتابة من خلال العديد من التجليات التي رأينا مع جينيت وغيره ، وإن بأسماء مغايرة ، وكذلك العلاقة بين الأزمنة الداخلية والخارجية .

8.4. في كتابه الخاص عن «البويطيقا» يتحدث تودوروف⁽²¹⁾ عن الزمن كمظهر من مظاهر الاخبار يتيح إمكانية الانتقال من الخطاب إلى القصة (Fiction) . ينطلق من أن مشكل الزمن يثار بسبب العلاقة الموجودة بين زمنين : العالم المقدم والخطاب المقدم ، ليوضح هذا من خلال تمييز الشكلايين الروس بين نظام الأحداث ، ونظام الخطاب . وبعد إشارته إلى كون الزمن بدأ يحظى بالاهتمام من لدن الباحثين ، يذكر مانديلو وليكاتشيف وريكاردو ، وجينيت ، يعمد إلى طرح أهم القضايا المرتبطة بالزمن من خلال الترتيب والمدة ، والتواتر ، أي أنه بكلمة يستعرض آراء جينيت التي سبقها الحديث عنها .

9.4. وسنلاحظ الشيء نفسه تقريباً من خلال ما قام به جان «ميشيل آدم» «وبير غولد نشتاين» في كتابهما اللسانيات وتحليل الخطاب⁽²²⁾. في ما يتعلق بالزمن نجدهما ينطلقان من التمييز بين الحكوي (القصة) والخطاب. ومن التحديد الذي وضعه بنفسه عن الحاضر، وفي تمييزه بين القصة والخطاب، وما يتعلق بهما من أزمنة، وكذلك ينطلقان من التمييز الذي وضعه فاينريش بين الخطاب التقريري والخطاب السردى وما يتعلق بهما على نحو ما رأينا. ومن خلال توظيف هذه المعطيات يتم تحليل بعض الشذرات النصية من زاوية الزمن ومن منظور علاقة التلفظ بالملفوظ. وسيعود جان ميشيل آدم في كتابه عن «الحكي»⁽²³⁾ لينطلق من الشكلايين الروس في حديثه عن الزمن وليعرج على تحليلات جيرار جينيت المقدمة، مستلهماً منها بعض الأدوات الواصفة، وليحلل بعد ذلك بعض النماذج.

10.4. يقسم صاحباً كتاب «عالم الرواية»⁽²⁴⁾ الزمن إلى ثلاثة أقسام: 1- زمن المغامرة. 2- زمن الكتابة. 3- القراءة، وذلك انطلاقاً من أن الرواية فن زمني، وأن الزمن لم يبق تيمة أو شرطاً للإنجاز، إذ أنه أصبح موضعاً للرواية وأحياناً بطلها (ص 128). إن التقسيم المعتمد هنا نجد أساسه عند ميشيل بوتور، لكنهما سيطعمانه بكل ما جد من تصورات جاءت بعد بوتور.

هكذا نلاحظهما في الحديث عن «زمن المغامرة» يستعيدان تصور جيرار جينيت، ويقومان باستعراض أهم مراحل وخطواته (ص 133)، وكذلك الشأن مع ريكاردو في تمييزه بين زمن القصة، وزمن السرد. أما في «زمن الكتابة» فنجدها يثيران صعوبة تناوله لأن زمن الكتابة ليس معطى بسيطاً كما يمكن أن يذهب الظن. إن لحظة الكتابة مهمة بالمعنى الذي يرجع فيه زمن المغامرة أقل من زمن عصره. فالكاتب «راسين»، وهو يضع على الخشبة شخصيات أسطورية أو تاريخية، فإنه كان يعالجها من وجهة عصره، لذلك لا يمكن عزل التقنية الروائية عن لحظة الكتابة. وبعد تمييزهما بين اللحظة التي يأخذ فيها القارئ في معرفة القصة، واللحظة التي تكون فيها المغامرة تجري أو تحكى، يبرزان الفاصل بين زمن الكتابة والقراءة والذي يختلف باختلاف علاقة الكتاب والقراء من عصر إلى آخر. ويقدمان المثال من رواية 1984 لجورج أورويل كيف كانت تقرأ في الخمسينات، وكيف ستقرأ في (1984 - 1985)، وهكذا تعدد الأمثلة والنماذج ليصلا إلى عناصر عديدة تدخل في التكوين والتثقيف ووسائل الاعلام...

11.4. سبق أن رأينا أن العديد من الباحثين اتخذوا لهم أساساً في التعاطي مع تحليل الزمن التصور الذي طرحه جينيت في كتابه «خطاب الحكوي» غير أن هناك منتقدين أشار إليهم في كتابه الجديد «خطاب الحكوي الجديد» الذي يستعيد فيه تصوره السابق موضحاً،

وراداً على المتقدين أو مدعماً آراءهم وتصوراتهم عن الكتاب (ص 25). يبين جينيت انتقاد «فان ريس» إياه حول استعماله لـ «الزائف» أو (Pseudo) قبل الزمن أو التكرار المتشابه (Itératif). فيلاحظ جينيت أن المفهومين ليس لهما نفس الوضع ابستمولوجيا. وعلى سبيل المثال فزمن الحكوي (المكتوب) هو زمن زائف (Pseudo-Temps) بالمعنى الذي يدل عليه اختبارياً بالنسبة للقاري، في فضاء النص الذي تعطيه القراءة وحدها طابع الديمومة. وبصدد المدة، أبان أن مدة القصة والقراءة تُمدُّ في الواقع عن طريقين: 1- مدة القصة على طول النص. 2- طول النص في مدة القراءة، ويلاحظ من خلال ذلك ضرورة تسمية مكان المدة «سرعة الحكوي» أو سرعات الحكوي التي يمكن قياسها من خلال المتغيرات الزمنية في النص السردى (داخلياً) قصد معاينة مختلف التنوعات التي تتم، أو خارجياً، من خلال قياس زمن الحدث والصفحات المكرسة له في الخطاب. ولهذه الاعتبارات الكمية المحض، يمكن أن تضاف دراسة أكثر كيفية من خلال التلخيص والمشهد والحذف والوقف والعلاقات التي تجري بينها جميعاً.

إذا تعرضت أعمال جيرار جينيت للانتقاد، فإنها أيضاً كانت مركز استلهم بالنسبة للعديد من الباحثين الذين اعتمدوا تصوره عن الزمن السردى وحاولوا تطبيقه على نصوص عديدة ومختلفة وكشفت أبحاثهم عن غنى هذا التصور وكفايته في الرصد والتحليل. ويمكن الإشارة هنا إلى الفصل الخاص بالزمن في كتاب شلوميت كينان حول التخييل الحكائي ليظهر لنا هذا بجلاء⁽²⁶⁾.

12.4. لاحظنا من خلال عرض هذه التحليلات المتعلقة بمفهوم الزمن، من زاوية لسانيات النص كما يسميها فاينريش. أو لسانيات الخطاب بشكل عام، كونها جميعاً تنطلق بهذا الشكل أو ذاك من اللسانيات التي قطعت صلاتها بالنحو التقليدي الذي يماثل في تصوره للزمن بين زمن الفعل والزمن الوجودي. وسنلاحظ هنا بجلاء تصوراً مغايراً يتجاوز المنطلق أو الحدود التي لا تتعدها التحليلات التي استعرضناها، والتي تظل في مجموعها تقف عند حدود الخطاب وبنيته الداخلية، حتى وإن رأينا من خلال بعض تلك التصورات محاولات الحديث عن زمن القاري أو الكاتب أو الزمن الروائي، وما شابه هذا من القضايا التي تشي بتجاوز حدود الخطاب، والتي ظلت تلك التصورات بصدها رهينة الانطباع أو إثارة المشكل، ولا تتجاوز هنا الحديث في العموميات.

إن التصور المغاير الذي سنركز عليه حالياً، يبدو لنا بالأخص من خلال بحث جان بويون، وقراءة بول ريكور للزمن.

13.4. يعالج جان بويون في كتابه «الزمن والرواية»⁽²⁷⁾ قضية الزمن من منطلق سيكولوجي يحكم تصوره في معالجة الشخصيات وأحداث الرواية وبما يرتبط بالرواية بشكل

عام . وهو يرى أن على العمل الروائي أن يتوفر على طابعين رئيسين : يتمثل الطابع الأول في كثافة سيكولوجية للحكي يفترض رؤية واقعية للشخصيات ، ومن خلال ذلك يعالج ما أسماه بأنماط الفهم ومن خلالها يحلل الرؤيات (من الخلف - مع - من الخارج) . ويبرز الطابع الثاني من خلال وصف المدة التي ليست جرياناً بسيطاً بدون أي من السمات الخاصة بالزمن (ص 22) . أبرز هذه السمات يحللها بويون من خلال علاقة الاحتمال والضرورة في بعدهما الفلسفي ، في ارتباط مع الزمن لأنه يرى أن نمط فهم بطل الرواية ليس تجلياً لحظياً ، ولكن ذلك يتم من خلال وجوده في الزمن (ص 155) .

ومن خلال التابع الزمني يتحدث عن الضرورة والاحتمال في ارتباط مع الحرية والقدر ، والتي تعمل الرواية على إبرازهما من خلال سيكولوجية الشخصيات ومن الطريقة التي يريدون أن يحددوا «اليوم» بواسطة «ماضيهم» ، لي طرح السؤال بعد ذلك عن علاقة الحاضر بالماضي في الرواية . يرى بويون - كما لاحظنا مع بنفنست - أن الحاضر هو منبع الزمن (ص 164)، لذلك يظل يبحث عن أسباب هيمنة (Imparfait) في الحكي من خلال ربط ذلك مع «الرؤية من الخلف» ليستنتج الفارق الذي يقام في الرواية بين الكاتب (الراوي) والقارئ . ويحاول إبراز ذلك من خلال بعض النماذج التي يأخذها مجالاً للتطبيق من عالم فولكنر الروائي .

14.4 . أما بول ريكور ففي كتابه «الزمن والحكي» يطرح قضية الزمن من زاوية أخرى، وسنركز هنا على الجزء الثاني ، وبالأخص الفصل الذي يستعير عنوانه من جينيت والذي يحمل عنوان «اللعب مع الزمن»⁽²⁸⁾ . ينطلق ريكور من التمييز بين التلفظ والملفوظ اللذين يرتبط بهما الحكي من خلال قدرته على أخذ مسافة من إنتاجه الخاص وفي النقطة التي يتحدث فيها عن أزمنة الفعل والتلفظ ، يقوم باستعراض آراء بنفنست ، وكيت هامبورغر وهارلد فاينريش ، وتوضيح منطلقاتها ، لينتهي بعد ذلك إلى معاينة الحدود التي يفقون عندها ، وبالأخص فاينريش ، مبرزاً عدم قبوله مجازة ما يذهب إليه في تمييزه بين الزمن في الفعل والزمان قائلاً : «في اعتقادي ، إنَّ نظام أزمنة الفعل ، كيفما كان مستقلاً في علاقته مع الزمان، وفي تسمياته الجارية، لا يقطع بأية حال مع تجربة الزمن» ص (109، 110) . وذلك لأن الزمن في الفعل في خدمة إبراز معنى زمن العالم (ص 113) . وبفعل الشيء نفسه في عرضه آراء جينيت حول الزمن وحول قراءته لرواية مارسيل بروسست ، من خلال مقارنة آرائه وآراء غونتر مولر ليصل إلى أن السرديات لم تهتم بالزمن (الوجودي) ، ورغم ادخال جينيت مفهوم «الصوت السردى» الذي تظهر لنا من خلاله ذاتية الراوي ، فإنها مع ذلك لم تهتم بما نسميه بـ «التجربة الحكائية» التي يأخذ فيها الزمن كامل ابعاده السيكلوجية والميتافيزيقية، وبدون التشديد على هذه التجربة ، يمكننا الحديث فقط عن اللعب مع الزمن

(Jeu) ، لكننا لا نستطيع الامساك بـ «المبتغى» (En jeu) في «بحثاً عن الزمن المفقود» . ويمارس تصوره الخاص الذي يربط فيه بين الزمن وزمن الفعل ، أي ما يختزله في «التجربة الحكائية للزمن» من خلال تحليله للجبل السحري لتوماس مان ، وبحثاً عن الزمن المفقود ، لبروست والسيدة دالوي لفرجينيا وولد .

هـ - إشكالية الزمن في العربية:

1.5 : إن النحو العربي التقليدي ما يزال يمارس حتى الآن سلطته وعلى كافة المقولات التي يتأسس عليها ، وضمنها الزمن . ورغم المحاولات التجديدية التي تظهر اليوم بشكل مستمر ، فإنها ما تزال تفتقر إلى أن تشكل تصوراً جديداً لنحو العربية ، أو أن تمتلك السلطة التي تؤهلها لتكون واقعاً يمارس في المدرسة أو الجامعة ، كما نجد ذلك في البلدان التي حققت فيها اللسانيات قطيعة مع النحو التقليدي ، وأصبحت تمارس كواقع .

بصدد مقولة الزمن ما يزال تقسيم الأزمنة (أو أشكال الفعل) يعرف التقسيم الثلاثي الانعكاسي : «وأما الفعل ، فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع»⁽²⁹⁾ ، هذا التقسيم الذي استعمله سيبويه سنجده هو أساس كل التقسيمات التي ستلي مع نوع من الاختلاف . ولقد استعمل الكوفيون «الدائم» كدلالة عن الزمن من خلال صيغة إسم الفاعل ، غير أن هذا التقسيم ، يدل في العمق على دلالة واحدة ، وهي التطابق بين العالم الفيزيقي للأحداث المحققة من قبل الناس ، واختيار شكل الفعل الزمني . وكل خروج عن هذا ، فإنه ليس خروجاً عن القواعد النحوية ، ولكنه خروج عن قوانين الطبيعة ، كما لاحظ ذلك فيرستينغ في بحثه حول مفهوم أزمنة الفعل عند النحويين العرب⁽³⁰⁾ .

2.5 . ولما كانت الأساليب العربية في التعبير عن الزمن لا تأخذ بهذا التقسيم الثنائي أو الثلاثي ، فإنهم كانوا يلجأون إلى التأويل ويكفي أن نلاحظ هذه العناوين ليتبين لنا كون هذا التقسيم لا يعبر عن وضعية الفعل العربي ، أو التجليات التي يتخذها الزمن في الجملة العربية .

- الاتيان بالفعل بلفظ الماضي ، وهو حاضر أو مستقبل وبالعكس⁽³¹⁾ .

- باب من إسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى⁽³²⁾ .

- إنهم يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبرون عن الشيء الحاضر .⁽³³⁾

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير (معاني القرآن للقراء)⁽³⁴⁾ ، أو من كتب النحو أو

فقه اللغة بشكل عام (الخصائص لابن جني)⁽³⁵⁾، وغيرها من الكتب من إشارات عميقة تتجاوز مستوى التقسيم الثلاثي الكلاسيكي للزمن، وتتعداه إلى محاولة معاينة بعض الخروجات التي تتم في الاستعمال اللغوي، من خلال شواهد من الشعر، أو آيات من القرآن، حيث تصبح تلك الصيغ الزمنية خلواً من أي زمنية، بسبب تجلي هذه الزمنية من خلال بعض المعينات، أو من خلال ادخال بعض الأدوات وما شابه هذا من الظواهر التي تزخر بها بنية الفعل العربي. انتبه العرب إلى أن «منيع الزمن» «هو الحال: أو حاضر التكلم، وانطلاقاً منه، وإن لم يتم ذلك بشكل متكامل راحوا يبحثون - اعرابياً - أو تركيبياً عن بعد الزمن الذي لم يكن هو همهم الأساس. وسنحاول هنا إعطاء مثال من مغني اللبيب يبرز لنا كيف كان التعامل بغض النظر عن الأوليات العامة التي يزخر بها فهمنا للزمن في الفعل العربي: «... ولا ينتصب الفعل بعد حتى إلا إذا كان مستقبلاً، ثم إن كان استقباله بالنظر إلى زمن التكلم، فالنصب واجب: «وزلزل حتى يقول الرسول»، فإن قولهم إنما هو مستقبل بالنظر إلى الزلزال، لا بالنظر إلى زمن «قص ذلك علينا (...). وكذلك لا يرتفع الفعل بعد «حتى» إلا إذا كان حالاً، ثم إن كانت حالته بالنسبة إلى زمن التكلم فالرفع واجب، كقولك: سرت حتى أدخلها»، إذا قلت ذلك وأنت في حالة الدخول، وإن كانت حالته ليست حقيقية، بل كانت محكية، رفع وجاز نصبه إذا لم تقدر الحكاية نحو: «وزلزلوا حتى يقول الرسول... «قراءة نافع بالرفع بتقدير حتى حالتهم حينئذ أن الرسول والذين آمنوا معه يقولون كذا وكذا...»⁽³⁶⁾.

نلاحظ بجلاء خضوع الزمن للاعراب، والتدقيق الذي يتم البحث عنه بتوظيف عنصر الزمن لتصحيح عملية الاعراب. ولو أمكن للسانيات عربية ممكنة البحث في هذه الآراء ومتابعتها تحليلًا وتقصيًّا، لأمكن لنا الحديث عن نظرية لسانية للزمن في الجملة العربية.

3.5. هناك بعض المحاولات التي قام بها إبراهيم السامرائي في كتابه «الفعل زمانه وأبنيته»⁽³⁷⁾ لتجاوز الفهم التقليدي للزمن، غير أن بحثه ظل عند الحدود الأولية لمناقشة الفهم التقليدي للزمن، وذلك من خلال مناقشته رأي ابن يعيش الذي يلخص ذلك الفهم التقليدي للزمن قائلاً: «لما كانت الأفعال مساوقة للزمان، والزمان من مقومات الأفعال توجد عند وجوده وتنعدم عند عدمه انقسمت بأقسام الزمان. ولما كان الزمان ثلاثة: ماضي، وحاضر ومستقبل، وذلك بمعنى أن الأزمنة حركات الفلك فمنها حركة مضت ومنها حركة لم تأت ومنها حركة تفصل بين الماضية والآتية، كانت الأفعال كذلك: ماض ومستقبل وحاضر...»⁽³⁸⁾.

يلاحظ إبراهيم السامرائي زيف هذا الفهم، ويقوم باستقراء الأزمنة كما هي متفرقة في التفاسير وكتب النحو، فيستنتج «إن بناء (فعل) وبناء (يفعل) لا يمكن أن يدل على الزمن

بأنسامه وحدوده ودقائقه ، ومن هنا فإن الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيغة وإنما ينحصل الزمان من بناء الجملة فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل على تقرير الزمان في حدود واضحة» ص 24 . ومن استقراء طائفة من الاستعمالات لهذه الصيغ يستنتج أن صيغة «فعل» تستعمل أربعة عشر شكلاً زمنياً ، سواء استعملت منفردة أو بإحدى الأدوات (كان - قد - إذا . . .) وبذلك تصيح تدل على الماضي أو السري أو الاستقبال أو ما شابه هذا بحسب أنواع تلك المعينات . وأن صيغة «يفعل» تأخذ تسعة أشكال زمنية ، تكون خالصة فيها للماضي أو الحال أو الاستقبال بحسب أنواع المعينات أو الأدوات التي تتصل بها (لم - كان - السين - سوف - لن . . .) (ص 33) . وهكذا نلاحظ أن الزمن في الجملة العربية لا يمكن استخراجه من الصيغة ، ولكن من السياق .

4.5. إلى هذا ذهب تمام حسان في كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها»⁽³⁹⁾ . حيث يميز بين الزمن الصرفي وهو الذي يظهر من خلال الصيغة ، والذي لا يدل على الزمن ، والزمن النحوي الذي تتجلى لنا فيه زمنية الفعل من خلال السياق ، وبذلك تتساوى هذه الصيغ ، والذي يُزْمَنُها هو موقعها في السياق . وبعد تقسيمه الجملة العربية إلى خبرية وإنشائية ، ويبين ما يدخل في كل واحدة منهما من إثبات ونفي وتأكيد من جهة وطلب وشرط وإفصاح ، يشرع في دراسة الزمن في كل هاته الجمل من خلال جداول يبين فيها الزمن والجهة والصيغتين : فعل ويفعل . وبصدد الجملة الخبرية المثبتة في اللغة العربية يلاحظ : إن الاختلاف بين زمن وزمن هنا هو في الواقع اختلاف في الجهة لا في الماضي والحال والاستقبال . فهناك تسع جهات مختلفة للماضي ، وثلاث للحال وأربع للاستقبال وبذلك يكون زمن الجملة هنا يقع في ست عشرة صورة يدل «فعل» فيها على مضيه دائماً ويدل «يفعل» فيها على الحال أو الاستقبال دائماً وبحسب القرنية أو الضميمة» (ص 246) ويفعل الشيء نفسه ببقية أنواع الجمل . ويقدم أهم خلاصاته في سبع نقاط يبين من خلالها خصوصية الزمن في العربية ، والوجوه التي تعرفها الصيغ في ارتباطها بالجهات (الصفحة 256).

5.5. كيف يمكن الحديث عن تحليل زمن الخطاب ، في الوقت الذي لا يتوفر فيه تحليل لساني للزمن ؟ هذه هي المشكلة - الأساس التي ظلت تؤرقني وأنا أشتغل في هذا العنصر . كانت العودة إلى آراء النحويين العرب والمحدثين ضرورية للاستئناس والاستلهم⁽⁴⁰⁾ . وكانت مفيدة أيضاً ولو في الحد الذي يمكن فيه تدقيق زمن الفعل بغض النظر عن الصيغة التي جاء فيها ، من خلال السياق . وفي هذا النطاق ، أبرز كوني سأستفيد كثيراً من آراء تحليل تمام حسان للزمن النحوي . كما أنني في تحليل زمن الخطاب ، سأطلق من تصور فاينريش وجينيت في تحليلهما للزمن . فرغم ما بين مفاهيمهما من

اختلاف فإنها تتقارب في الجوهر . وعلى الأقل ، وهذا أساسي في الكشف عن التنوعات الزمنية التي يعرفها الخطاب وأنواعها كما تتجلى من خلال المفارقات مع جينيت ومنظورات القول مع فاينريش .

ولتحليل زمن الخطاب الروائي في الزيني بركات ، سأنتقل أولاً من تحليل زمن القصة وزمن الخطاب على مستوى عام وشمولي ، أي من خلال ما يسمى بالتحليل الكلي (Macro-Analyse) ، ثم سأتناول زمن الخطاب على مستوى ثانٍ وجزئي من خلال تحليل كل وحدة من الوحدات العشر التي قسمنا إليها خطاب الرواية في الزيني بركات ، وهو ما ينعت عادةً بالتحليل الجزئي (Micro-analyse) وإن كنت أعترف أن هذا التحليل الجزئي لا يمكننا أن نصل فيه إلى أقصى حد من الجزئية ، لأن ذلك سيخرجنا عن المراد ، وسيجعلنا أمام تحليل وحدة فقط ، ومن خلال عشرات الصفحات . وبعد هذا التحليل الجزئي ، سنحاول معاناة الفرق بين زمن الخطاب الروائي من خلال الزيني بركات وزمن الخطاب التاريخي من خلال بدائع الزهور لابن أبياس . ومن خلال التركيب سنحاول إبراز أهم خصائص زمن الخطاب الروائي .

تبقى ملاحظة أخيرة ، ونحن بصدد التقديم ، إننا نتجاوز الحدود التي يقف عندها تحليل زمن الخطاب من خلال السرديات البنيوية (Narratologie) كما رأينا مع جينيت وفاينريش ، ونعاقق الملاحظات التي سجلها بول ريكور عليهما معاً وعلى بنفست ، لكن ليس من الزاوية التي طرحها من خلالها ، إذ أننا سنطرحها من خلال ما نسميه بسوسيولوجية النص ، حيث سنتحدث عن «زمن النص» الذي سنحدد من خلاله العلاقة بين زمن الكاتب وزمن القراءة بوضعها في إطار تحليل النص بوضعه في إطار بنية سوسيو- لغوية شاملة . بهذا التصور ، نتجاوز الحدود التي تقف عندها لسانيات النص ، لكننا الآن سنظل عند حدود زمن الخطاب أي في إطار الحدود الناعمة لعلاقة الراوي بالمروى له في الخطاب الروائي كخطاب لساني . . .

هوامش

- (1) Paul Ricoeur: Temps et récit. édi. Seuil 1983. T. I. P:22.
- (2) J. Lyons: Linguistique générale. Larousse. 1970. P: 233 – 243.
- (3) لا ينس ، م ، م ، ص 234 .
- (4) يميز لا ينس بين يقفزون (they jump) وقفزوا (they jumped) ويرى أن صيغة الماضي (ed) تسجل الزمن الماضي لكن الجذر وحده (jump) لا يسجل ذلك . ويعزز رأيه بمختلف اللواحق أو السوابق التي يسجل بواسطتها (will...).
- (5) J. Lyons: Sémantique Linguistique. Larousse. 1980. P:298 – 310.
- (6) E. Benveniste: Problèmes de linguistique générale édi. Tel- Gallimard 1974. T. II. P: 73.
- (7) بنفست : م ، م ، ص 83 .
- (8) بنفست : م ، م ، ص 78 .
- (9) E. Benveniste: Problèmes de générale édi. Tel- Gallimard 1966. T. I. P: 238.
- (10) O. Ducrot/T. Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. édi. Seuil/ Point 1972. P:389.
- (11) J. Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique. Larousse. 1973. P: 483.
- (12) A. Robbe-Grillet: Pour un nouveau roman. édi. Gallimard. 1972. P: 155.
- (13) J. Ricardou: Problèmes du nouveau roman: Seuil. Tel Quel. 1967. P:161.
- (14) م ، بوتور : بحوث في الرواية الجديدة ، ت . فريد انطونيوس ، منشورات عويدات بيروت 1971 ، ص 102
- (15) الشكلايون الروس : نظرية المنهج الشكلي ، ت ، أ ، الخطيب ، الشركة المغربية للنشر / مؤسسة الأبحاث العربية 1982 ص 180 .
- (16) H. Weinrich: Le temps. édi. Seuil. Coll. Poétique. 1973.
- (17) T. Todorov: Les catégories du récit Littéraire in «Communication» n°8. 1966.
- (18) F. Von Rorsum- Guyon: Critique du roman édi. Gallimad. 1970.
- (19) G. Genette: Discours du récit. in Figure III. éd. Seuil/ Coll. Poétique. 1972.
- (20) دوكروتودوروف : م . م ص 398 تجدر الإشارة هنا أن المقال المستشهد به في الهامش (10) كتبه تودوروف أما هذا فيشتركان فيه .
- (21) T. Todorov: Poétique. édi. Seuil/ Points. 1973. P:52.
- (22) J. M-ADAM/ J. P. Goldenstèm: Linguistique et discours littéraire. Larouse. 1976. P: 302 – 313.
- (23) J. M. ADAM: Ce récit. Que sis-je? 1984. P: 39.
- (24) R. Bourneuf/ R. Quellet: L'univers du roman: Puf. 1981. P: 128 – 149.
- (25) G. Genette: Nouveaux discours du récit. édi. Seuil 1983. P: 15 – 27.
- (26) Sh. Rimmon-Kenan: Narrative fiction. Methuen. 1983. P: 43 – 58.

- (27) J. Pouillon: Temps et Roman. édi Gallimard. 1946.
- (28) p. Ricœur: Temps et récit. La configuration dans le récit de fiction T. II. édi Seuil. 1984. P: 92 – 149.
- (29) سيبويه : الكتاب ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت ط 2 ، 1972 ج 1 ، ص 9 .
- (30) H. M. Versteegh: La conception des «temps» du verbe chez les Grammairiens Arabes. «Analyses et theories» n° 3– 1981 P. 50.
- (31) ج د . السيوطي المزهر في عدم اللغة دار الفكر ج 1 ، ص 335 .
- (32) سيبويه : الكتاب ج 1 ، ص 102 .
- (33) ابن هاشم الأنصاري : مغنى اللبيب تحقيق مازن المبارك / محمد علي حمد الله دار الفكر بيروت ط 5 1979 ص 905 .
- (34) الفراء : معاني القرآن . عالم الكتب بيروت ط 2 – 1980 .
- (35) ابن جني : الخصائص تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى بيروت ، ط 2 ، ج 3 ، ص 330 .
- (36) ابن هشام : مغنى اللبيب ص 170 .
- (37) أ . السامرائي : الفعل زمانه وأبنيته : مطبعة العاني بغداد 1966 ص 15
- (38) أ . السامرائي م ، م ، ص 17 .
- (39) ت حسام : اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية للكتاب 1979 ، ص 241 .
- (40) بعد إنجاز هذا البحث تمكنت من الاطلاع على الدراسة التي قام بها مالك المطليبي حول الزمن واللغة فاستفدت منها بالأخص في مناقشة تمام حسّان : الهيئة المصرية للكتاب 1986 ص 39 وما يليها .

II - زمن القصة ، زمن الخطاب

1 - القصة - الخطاب - النص :

إن التمهيد النظري الذي صدرنا به هذه الدراسة سنستقل عنه ظاهرياً وجزئياً ، في تعاطينا وتحليل الزمن ، وإن كنا سنسترشد بجوانبه الأساسية في الكشف عن «الزمن في الرواية» . لقد رأينا من خلال هذا التمهيد عدة تقسيمات لزمن الخطاب الروائي . من هذه التقسيمات ما هو ثنائي ، ومنها ما هو ثلاثي . وإن كانت جميعاً تقف عند حدود معينة لا تتجاوزها ، وعندما تفعل ذلك تكتفي بتسجيل الانطباع أو إثارة الصعوبات المطروحة . بالنسبة لنا سننطلق في تقسيمات الزمن الروائي إلى ثلاثة أقسام : زمن القصة ، وزمن الخطاب ، وزمن النص .

يظهر لنا الأول في زمن المادة الحكائية . وكل مادة حكائية ذات بداية ونهاية . إنها تجري في زمن ، سواء كان هذا الزمن مسجلاً أو غير مسجل كرونولوجياً أو تاريخياً . ونقصد بزمن الخطاب تجليات تزمين زمن القصة وتمفصلاته ، وفق منظور خطابي متميز ، يفرضه النوع ، ودور الكاتب في عملية تخطيب الزمن ، أي إعطاء زمن القصة بعداً متميزاً وخاصاً . أما زمن النص فيبدو لنا في كونه مرتبطاً بزمن القراءة ، في علاقة ذلك بتزمين زمن الخطاب في النص ، أي بانتاجية النص في محيط سوسيو- لساني معين .

إن الفرضية التي ننطلق منها في هذا التقسيم الثلاثي العام ، تتجلى في كون زمن القصة صرفي . وزمن الخطاب نحوي ، وزمن النص دلالي . وفي الزمن الأخير تتجلى زمنية النص الأدبي (الروائي هنا) باعتباره التجسيد الأسمى لزمن القصة وزمن الخطاب في ترابطهما وتكاملهما . أو لنقل باعتباره تزمين القصة والخطاب في زمنية خاصة سكونية أو تحويلية ، انقطاعية أو استمرارية .

لنوضح هذا ، على مستوى بدئي ، من خلال الإشارة إلى أن زمن القصة يظهر لنا في الزيني بركات من خلال انتظام المادة الحكائية ضمن حدود إشارات زمنية - تاريخية ، تمثل سنة 912 هـ بدايتها و923 هـ نهايتها . هذا الزمن صرفي باعتبار قبوليته أن يتخذ أنحاء عديدة .

زمن الخطاب في الزيني بركات ، يعطيه زمناً آخر باشتغاله على مادته الزمنية (الصرفية) مقدماً من خلال ذلك زمناً يتبدى بـ 922هـ ليعود إلى 912 هـ وليستمر إلى غاية 923 هـ. من خلال هذه العملية يكتسب زمن الخطاب خصوصيته التي تكمن في تخطيه زمن القصة . ويمكن في خطاب آخر يشتغل على المادة نفسها أن يخطبها بشكل آخر . أي أنه يعطيها سياقاً نحوياً جديداً من خلال توظيف الزمن .

هذه الاشارات الزمنية - التاريخية التي نجدها في القصة ، نجد إلى جانبها إشارة أخرى زمنية - تاريخية . يذيل بها الخطاب الروائي بعد نهايته وهي (1970 - 1971 م) وفروق هذه الاشارة نجد إسم الكاتب (جمال الغيطاني) . إن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان ما هي علاقة الاشارات الزمنية - التاريخية التي نجدها في زمن القصة ، وزمن الخطاب ، وزمن النص ؟ وعندما نربط زمن النص ، بأزمة القراءة اللانهائية ، أو اللازمية (إذا صح هذا التعبير هنا) ما هي نوعية العلاقات التي يمكن تحديدها في هذا المجرى الزمني الممتد خلفاً وأماماً؟ أسئلة كثيرة يمكن طرحها بصدد هذه العلاقات ، وسنؤجل الاجابة عنها مجتمعة ، وإلى حين الانتهاء كل ما يمت إلى الزمن بصلة ، سواء في هذا الفصل الذي سنخصصه لبحث زمن القصة والخطاب ، أو عندما سنتحدث عن النص في الكتاب الثاني من هذه الدراسة .

إن هناك مؤشراً آخر ، يجعلنا نطرح من خلاله نوعية العلاقة بين زمن القصة من جهة وزمن الخطاب من جهة ثانية ، وزمن النص من جهة ثالثة ، ضمن هذا التقسيم الذي نطرح ، ويكمن في السؤال المركزي الذي تطرحه اللسانيات ولسانيات الخطاب بصدد علاقة أزمنة الفعل فيها بينها في الجملة أو في الخطاب ، وهو : ما هو الحاضر ؟ أو ما هو حاضر التكلم (كما يسميه ابن هشام)؟ لأن تحديد هذا الزمن (أو الدرجة الصفر) هو الذي يتيح لنا إمكانية تحديد اللاحاضر سواء قبلاً أو بعداً .

عندما ننطلق من كون «القصة» قد وقعت في الماضي (كأحداث تاريخية) ، يكون السؤال ماذا يفعل الخطاب في هذا الصدد؟ ، هل يحكي القصة كشيء تم في الماضي؟ أم أنه يسعى إلى ترهينها؟ وفي الحالتين معاً ، كيف يرسل الخطاب ذلك؟ أو كيف يعبر عنه زمنياً؟ وأخيراً ما هي دلالة ذلك على مستوى النص وزمنه؟ من خلال ربط علاقة القصة والخطاب ضمن النص؟ هذه هي الأسئلة الكبرى التي ننطلق منها . وسنحاول الاجابة عنها هنا ، في نطاق ما يسمح لنا به تحليل زمن القصة ، وزمن الخطاب .

2 - التفصيلات الزمنية الكبرى :

يمكننا تحديد حاضر القصة زمنياً على مستويين داخلي وخارجي . يتحدد هذا الحاضر

داخلياً من خلال راهنية انجاز الحدث الأول في القصة ، أو من خلال ما يسميه جينيت بالحكي الأول(*) وبذلك يتحدد ما هو قبل وما هو بعد في علاقته بهذا الحكي الأول . وضمن ذلك يمكن دراسة ترتيب الأحداث أو المفارقات الارجاعية أو الاستباقية التي تتم على مستوى الحكي . ويمكن تحديده على المستوى الخارجي في نقطة النهاية (نهاية الحدث) ، ويكون كل الحكي ماضياً ، ويأتي في حاضِر إنجاز الخطاب استجابة لما يستدعي الحكي . وغالباً ما يتم هذا في الخطابات الشفوية ، عندما يستدعي الحكي الذي تشكل بؤرته في نهايته ، ما يجري في سياق الكلام(**).

إن تحديد الحاضر ، هنا ، بمستوييه المُمكنين - كما نرى - يتم على مستوى التمفصلات الزمنية الكبرى للحكي . أي على مستوى ما يأخذه الزمن من علاقات بين القصة والخطاب على مستوى عام . لكن هذا المستوى العام يشترط تحليلاً خاصاً لكل المقاطع السردية التي يستوعبها الخطاب . ومن خلال ربط ما هو عام بما هو خاص ، يمكن استنتاج بنية الزمن في الخطاب الروائي .

نلاحظ أن تحديد الحاضر حسب المستوى الداخلي يتيح لنا إمكانية تحليل زمن الخطاب وأن تحديده خارجياً ، سيسعفنا عندما نبغي تحليله على صعيد النص .

تقدم لنا القصة في «الزني بركات» إشارات زمنية - تاريخية عديدة . تظهر هذه الاشارات الزمنية محددة من خلال :

1- السنوات

2- الشهور

3- الأيام وأجزاؤها (أول النهار . الليل . . .)

4- الفصول .

هذه الاشارات الزمنية بمختلف أنواعها تغطي مساحة كل الرواية . وتأتي متصدرة بعض الخطابات (مذكرات الرحالة الايطالي) ، ومذيلة بعضها (الرسائل) يمتد زمن القصة من 912هـ إلى 923هـ . أي 12 سنة . وضمن هذه الاثنتي عشرة سنة نجد ست سنوات هي المسجلة فقط زمنياً . وأن ست سنوات أخرى غير مسجلة .

في توزيع ما هو مسجل من هذه السنوات الست نلاحظ نوعاً من عدم التكافؤ . كما يمكننا أن نعين ذلك بوضوح من خلال هاته النقاط :

G. Genette: 1972 P: 90. (*)

(**) فصلنا الحديث عن هذا في دراسة لي غير مطبوعة حول «التقرير والحكي» في كلية ودمنة 1986 .

- (1) سنة 912 = تحتل تقريباً ، 82 صفحة .
- (2) سنة 922 = تحتل تقريباً ، 53 صفحة .
- (3) سنة 920 = تحتل تقريباً ، 6 صفحات .
- (4) سنة 923 = تحتل تقريباً ، 3 صفحات .
- (5) سنة 914 = تحتل تقريباً ، 2 صفحتين .
- (6) سنة 913 = تحتل تقريباً ، سطرين .

إن السنوات المسجلة في الرواية ، وحسب الترتيب هي : 912 - 913 - 914 وبعد هذه السنوات الثلاث المتتابعة يتم حذف سنوات ، تنتقل بعدها إلى 920 ، ليتم حذف سنة أخرى وننتقل إلى 922 و 923 هـ . وكما لاحظنا في توزيع السنوات المسجلة بحسب الصفحات يبرز لنا التفاوت الكبير بين هذه السنوات . يتبدى لنا هذا بجلاء على مستوى آخر ، فيما تتضمنه هذه السنوات من إشارات زمنية سفلى (الشهور - الأيام) :

1 - سنة 912 = تتضمن 3 شهور . وما هو مسجل فيها كأيام عدده : 5 أيام . يومان منها مسجلان 7 مرات ، إما متتابعة في أجزاء من اليوم (أول النهار - الفجر - المساء - الليل) ، أو غير متتابعة ، وترسل الأحداث متفاوتة لكنها من اليوم ذاته ، كما سنحلل في الوحدات .

- 2 - سنة 922 = مسجلة من خلال : 3 أشهر ويومين .
- 3 - سنة 920 = مسجلة من خلال : ١ شهر واحد .
- 4 - سنة 923 = غير مسجلة الشهر .
- 5 - سنة 914 = مسجلة من خلال 1 شهر واحد .
- 6 - سنة 913 = مسجلة من خلال 1 شهر واحد ، و 1 يوم واحد .

نعاين بجلاء التوزيع غير المتكافئ على مستوى الصفحات وعلى مستوى الاشارات الزمنية السفلى . ونلاحظ أن السنتين 912 - و 922 تحتلان القسم الأكبر على مستوى المدة ، حيث نجدهما قد قدما بكثير من التفصيل ، وبالأخص السنة الأولى 912 هـ ، سواء من حيث عدد الصفحات ، أو ما هو مسجل ضمنها كشهور (ثلاثة أشهر) أو أيام (خمسة أيام) وعندما نعاين كون يومي (10 شوال و 7 ذو القعدة) قد قدما بتفصيل يظهر بجلاء ، وخصوصاً عندما نقارن ذلك بسنة 913 هـ كسنة مسجلة ، المساحة التي تحتلها هذه السنة في فضاء القصة على مستوى الزمن .

إن أول ملاحظة يمكننا تسجيلها هنا هي أن لا شيء اعتباطي ، ولكل شيء دلالة لماذا يتم توسيع حقب ، وتقليص أخرى ، وحذف أخريات؟ . ولماذا تتوزع الحقب المسجلة زمنياً على 144 صفحة تقريباً؟ وتتوزع الحقب غير المسجلة على 103 صفحات؟ إن لذلك دلالة العميقة على المستوى الزمني ، ويمكننا أن نشير إلى بعضها من خلال ربط الوحدات السردية بالمواقع الزمنية التي تقابلها على مستوى الخطاب .

إن عدد الوحدات السردية التي نقسم إليها الخطاب عشرة ، وعدد المواقع الزمنية المسجلة كحقب ستة :

الوحدات :	المواقع :
1 - بداية الهزيمة هـ : 922 هـ
2 - الاعتقال
3 - التعيين
4 - الخطبة أ : 912 هـ
5 - الزيني حاكماً
6 - زكريا نائباً / الفوائس ب : 913 هـ
7 - الاعدام جـ : 914 هـ
8 - اللقاء د : 920 هـ
9 - الحرب / الهزيمة هـ : 922 هـ
10 - الزيني محتسباً جديداً و : 923 هـ

لقد سجلنا من خلال هذا الشكل الوحدات في خطيتها كما جاءت في الخطاب بواسطة أرقام ، وسجلنا المواقع الزمنية الكبرى من خلال حروف . وهكذا نلاحظ من خلال إعادة كتابة هذا الشكل كونه يأخذ هذه الخطية ، وذلك بربط كل حرف بما يقابله من رقم :

1 هـ - 2 أ - 3 أ - 4 أ - 5 أ - 6 أ - 6 ب - 7 جـ - 8 د - 9 هـ - 10 و .

نلاحظ من خلال هذا الشكل ، كون طابع التابع الزمني هو الشكل الزمني المهيمن . وهكذا يسجل الموقع الزمني الأول (أ) المكانة الأولى في هذا التابع . كما نلاحظ ثانياً ، أن الموقع (هـ) وهو الموقف الخامس في الترتيب التابعي للزمن يحتل موقعين أساسيين : في الأول يأتي على شكل استباق داخلي : نفتح الخطاب بمفارقة زمنية . ويحتل في الموقع الثاني ترتيبه الطبيعي . ثالثاً نلاحظ أن الحذف الذي تم بين الموقع (جـ) و (د) ، والذي يغطي خمس سنوات يأتي بعد وحدة «الاعدام» التي تقع في 914 هـ . (صفحة 122) . وأن وحدة اللقاء التي تقع بين الصفحة (123 و 186) ، لا يسجل فيها الموقع (د) إلا في الصفحة

169 وما بعدها إلى الصفحة 186 . أي أن ما هو غير مسجل كحذف يقع في 46 صفحة . وخلال هذه المدة (الحذف) ، تصبح العلاقة طبيعية بين الزيني بركات وزكريا بن راضي ، على اعتبار أن كل ما جرى ضمن الوحدات (2-3-4-5-6-7) هو علاقة صراع مباشر أو ضمني بين الشخصيتين الأساسيتين . ما تجدر الإشارة إليه هنا أن ما سجلناه كحذف ، لا نكاد نحس به إلا من خلال الإشارة الزمنية إلى الموقع (د) ضمن الوحدة نفسها . ويمكن قول الشيء نفسه بصدد الحذف الذي يلي الموقع (د) . إننا لا نحس بالحذف ، لأن الرواية عبارة عن مشاهد كبرى ، لذلك فإننا لا نكاد نحس بهذه الانتقالات . ولعل لتعددية الصيغ كما سنلاحظها في الفصل الثاني دخلا في ذلك . لأن تعددها ، وتنوعها ، يجعلنا أمام انتقال من خطاب إلى آخر ، أو لنقل من صيغة إلى أخرى بشكل مترابط ومتلاحم . وهذا ما يبدو بجلاء من خلال تقسيمنا الرواية إلى وحدات .

تكمن الملاحظة الأخيرة التي يمكن تقديمها في أن الموقعين (هـ/ أ) يحتلان مكانة خاصة فهما معاً يتكرران كمياً وكيفياً . فالموقع (هـ) نبتديء به لنتتهي إليه ، أي أنه يبدأ استباقاً داخلياً لينتهي إلى موقعه في الترتيب . ونسجل من خلال هذا ملاحظتين: الأولى ، تبرز لنا في كونه يتكرر كمياً وفي موقعين مختلفين زمنياً ودالياً . في الموقع الأول كاستباق داخلي يأخذ طابع الافتتاحية في الخطاب . وفي الموقع الثاني يصبح الوصول إلى ما يتم فيه على مستوى الأحداث «طبيعياً» . الملاحظة الثانية تتجلى لنا في كونه كيفياً يحمل دلالة الانفتاح على ، أو التمهيد لـ (الخاتمة = النهاية) الموقع الأخير (و) . إنه يأخذ موقع الافتتاحية المزدوج : من جهة ، هو افتتاح «بداية» الرواية ، وهو افتتاح لـ «نهايتها» من جهة ثانية .

ويمكن قول الشيء نفسه بصدد الموقع أ . فهو كمياً يسجل الرقم الأول من حيث التكرار . وهو كيفياً ، يستوعب مشاهد عديدة أساسية تسهم مجتمعة في تطوير حبكة الرواية ، وهو كنقطة بدء الحكيم بعيد زمنياً عن مراحل تفجر الأحداث ، لكنه هو الذي يحكمها ويضبطها ، وكل ما يلي من مواقع أو وحدات هو بذرة هذا الموقع - الأم الذي يعين فيه الزيني بركات نائباً للحسبة . ولو أردنا اختزال الرواية إلى موقعين أساسيين ووحدتين أساسيتين لقلنا إنهما :

1 - التعيين أ - 912 هـ

2 - الحرب / الهزيمة ب - 922 هـ .

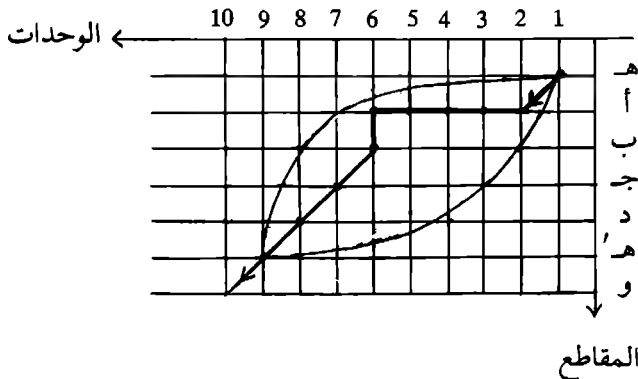
ويمكننا أن نضيف وحدة أخرى وموقعاً آخر هو ما نجده في تقسيمنا الرواية إلى وحدات ومواقع في (10 - و) ، والتي تصبح (3 - ج) ، فقط لنكون أوفياء لخطاب الرواية ، وإن كان هذا الوفاء يقدم لنا الصورة المكتملة للخطاب .

جواباً على السؤال الذي طرحناه عن لا اعتبارية التوزيع الزمني ، نخلص إلى أن الموقع (هـ-هـ) هو بؤرة الزمن . وهو المركز المحوري زمنياً على مستوى الخطاب . هل يمكننا اعتباره حاضر الخطاب ، وكل ما عداه هو اللاحاضر قبلاً أو بعداً؟ لنكتف الآن بتسجيل كونه هو «البؤرة» ، أو هو الموئل السردى المركزي كما يسميه جينيت (Dispatching narratif) (1972 - ص 87) .

3- تخطيط زمن القصة :

حاولنا في حديثنا عن التمهصلات الزمنية الكبرى الانطلاق من الاشارات الزمنية - التاريخية التي تزخر بها الرواية ، لمعينة توزيعها على مستوى الكم (الصفحات) ، وعلى مستوى علاقاتها فيما بينها . وإن لم نركز في تحليلنا على التيمات أو الحوافز التي تضبطها على مستوى القصة ، وإن استخلصنا في هذا النطاق البؤرة الزمنية من خلال تحليل هذا التوزيع ، وعلاقاته بشكل عام ، كما حاولنا الحديث عن نقطة جوهرية بهذا الصدد وهي لا اعتبارية هذه التمهصلات . فتسجيل سنوات بعينها بهذا الشكل أو ذاك ، وحذف سنوات أخرى واستعمال هذه المفارقة أو تلك لا يخلو من قصد . هذا القصد هو الذي أسميناه : تخطيط زمن القصة . ومن خلاله يأخذ زمنيته الخاصة في الخطاب . لذلك قلنا ، إن زمن القصة صرفي ، وزمن الخطاب نحوي . فلو أخذ كاتب آخر نفس الزمن القصصي (912 - 923) ، وأعطيناه الأحداث نفسها ، والشخصيات ذاتها ، ولم نطلعه على الخطاب الذي بين أيدينا ، لأشتغل عليه وفق تصوره الخاص ، ولخطَّبه بطريقة أخرى . وكثيرة ، بل ولا نهائية ، هذه الطرق .

في الخطاب الذي بين أيدينا ، وكما حاولنا توضيح ذلك من خلال مقابلة الوحدات بالمقاطع يمكن أن يأخذ زمن الخطاب هذا الشكل :



في المحور الأفقي وضعنا الوحدات السردية بالأرقام ، وفي المحور العمودي وضعنا المقاطع الزمنية مشاراً إليه بحروف ، كما وردت في خطية الخطاب ومجراه . ويمكننا مقابلة الوحدة بالمقطع بحسب النقط المؤشر إليها (مثلاً : (1- هـ) - (2- أ) . . . إلخ) .

نعين هنا بوضوح الترتيب التابعي المهيمن الذي يدولنا منذ الوحدة الثانية والمقطع الثاني إلى الوحدة العاشرة والموقع السابع . كما نلاحظ أن هذا الترتيب يأخذ شكلين : الشكل الأول تكراري ، حيث نجد مقطعاً واحداً يتضمن خمس وحدات . هذه الوحدات الخمس تتكرر في الترتيب التابعي ، وأن الوحدة السادسة مزدوجة إذ تتضمن مقطعين (أ- ب) . والشكل الثاني تصاعدي ، يتم فيه الترتيب التابعي عن طريق الحذف والتواتر . ويمكن أن نلاحظ هنا كون جينيت لم يول أية أهمية للترتيب ، والأنواع التي يمكن أن يعرفها ، واكتفى باللاحاح على المفارقات تفصيلاً وبحثاً . وبعض العناصر التي أشار إليها في فصل «المدة» (La DURée) ، كان من الممكن أن تطرح في إطار الترتيب ، (مثل الحذف) .

إلى جانب هذا الترتيب التابعي المهيمن نجد مفارقة : الاستباق (1 هـ) . هذا الاستباق نجده هو «مدخل» هذا الترتيب ومؤطره في آن . لذلك قلنا سابقاً إنه يلعب دور الافتتاحية . إنه استباق تكراري (Prolepse répétitive) . وهو الذي يحدده جينيت بكونه «يحيل مسبقاً على حدث سيحكي في حينه بتطويل» . لذلك يلعب الاستباق التكراري دور «الاعلان» (جينيت 1972 - ص111) . إن هذا الاعلان أو الافتتاحية كما يبدو من خلال هذا النوع من الاستباق ، هو مؤطر هذا الترتيب التابعي . إننا نبدأ به لنصل إليه . وبوصلنا إليه نكتمل الدائرة ، لكنها لا تغلق . وكثيرة هي الأعمال التي تبدأ باستباق تكراري أو تكميلي ، وتنتهي بالوصول إليه . إنها تفتح من جديد معطية بذلك لبؤرة الزمن دورها الجوهرية : الاعلان - الافتتاحية وهكذا . ولو وظفنا الاختزال الذي قمنا به سابقاً لابرز العلاقة بين التعيين والحرب - الهزيمة لأصبحنا أمام لحظتين إثنين متشابهتين (مكررتين) :

(1) 922 هـ (الحرب) - تعيين الزيني بركات خلفاً لعللي بن أبي الجود (912) .

(2) 922 هـ (الحرب - الهزيمة) - تعيين الزيني بركات خلفاً للزيني بركات (923) .

لذلك قلنا أن المقطع (هـ) هو لبؤرة الزمن ، وهو الذي ، بالتالي يوطر التابع ويغلق الدائرة ، ويفتحها .

أشرنا في بداية هذا التحليل إلى أن من المؤشرات الزمنية الصغرى المستعملة ضمن الإشارات الزمنية الكبرى (المقاطع) ، نجد الفصول ، وإلى الآن لم نشر إليها . نجد في الرواية ذكر فصلين إثنين : الشتاء والصيف . يستعملان موزعين في إطار مجرى الخطاب . ويقسمان قسمين رئيسيين :

1- الشتاء : ويمتد من تعيين الزيني بركات بن موسى إلى حين عودته من إحدى المهام خارج القاهرة . أي بحسب المقاطع من 912 هـ إلى 920 هـ ، بما معدله ثمانية أعوام . ويتسع لـ 168 صفحة .

2- الصيف : من بداية الحرب إلى الهزيمة ، واحتلال مصر من قبل العثمانيين ويشمل سنتين من 920 إلى 922 ولا يتسع إلا لـ 65 صفحة . يظهر لنا من هنا أيضاً كون التوزيع الزمني ليس اعتباطياً . ومن خلال نوعيات هذا التوزيع ، وهذه التمفصلات ، تبدو دائرية الخطاب وانفتاحه . فالتركيز على طول الشتاء ، وعلى سنوات التعيين له دلالة العميقة ، ونقول الشيء نفسه عن بؤرة الزمن ودلالاتها . وسنعود إلى هاته النقطة ، عندما نتحدث عن زمن النص في الكتاب الثاني .

إن تخطيب زمن القصة في الخطاب ، هو الذي يحقق زمنيته ، ويعطيه بعده الخاص والتميز . ويتأكد لنا هذا من خلال بقية عناصر التحليل (الصيغة - الرؤية) لتسهم مجتمعة في إبراز خاصيته الروائية ، وخصوصيته الخطابية .

ولنؤكد على ما استنتجناه من خلال التحليل الكلي ، نحاول الآن معاينة ذلك من خلال كل وحدة سردية على حدة ، من خلال تحليل جزئي (micro-analyse) وهذه الوحدات التي سنحللها هي :

- (1) بداية الهزيمة : «تضطرب أحوال الديار . . . ديكا واحد يصيح» . ص 9 - 16 .
- (2) الاعتقال : «أول النهار وفيه . . . شالوا علي بن أي أبي الجود» . ص 18 - 26 .
- (3) التعيين : «مرسوم شريف . . . ليرقب رد الفعل بينهم» . ص 27 - 51 .
- (4) الخطبة : «أخيراً ها هو مبروك . . . على صحة ما أقول» . ص 52 - 62 .
- (5) الزيني حاكماً : «يا أهالي مصر . . . له السلام» . ص 64 - 88 .
- (6) ذكرى نائباً - الفوانيس : «من الآن فصاعداً . . . ويرى ما يرى» ص 88 - 109 .
- (7) الإعدام : «يا أهالي مصر . . . والحق إنني فزعت» . ص 110 - 122 .
- (8) اللقاء : «أمر مولانا السلطان . . . أعده باغ بعناية» . ص 123 - 186 .
- (9) الحرب / الهزيمة : «فيما يبدو . . . آه أعطوني ، وهدموني حصوني» . ص 187 - 238 .
- (10) الزيني محتسباً جديداً : «في ترحالي الطويل . . . هواء شاحب» . ص 239 - 241 .

III - التمهصلات الزمنية الصغرى

حاولنا في حديثنا عن زمن القصة ، زمن الخطاب إبراز التمهصلات الزمنية الكبرى التي تتوزع إليها بنية الزمن في الخطاب . كما حاولنا ، من خلال ذلك توضيح كون هذا التوزيع ليس اعتباطياً ، إذ له دلالاته وأبعاده في تخطيط القصة روائياً . وانتهينا في التحليل إلى الكشف عن بؤرة الزمن التي تسهم في تعميق هذا التخطيط ، وطبعه بطابع خاص ، يمكن أن يتضح لنا أكثر بمقارنته بالخطاب التاريخي في تعامله والزمن .

قبل ذلك ، أرى من الضروري ، الانتقال إلى تحليل التمهصلات الزمنية الصغرى ، كما تبدو لنا من خلال كل وحدة سردية على حدة ، ومن خلال ربطها بالموقع السردى الذي تحتله في مجرى الخطاب ليتأتى لنا رصد التمهصلات الزمنية الكبرى من خلال تجلياتها وتبدلاتها التحتية ، كما يتم ذلك من خلال موقعتها في سياق تركيب الزمن أفقياً ، باعتبارنا إياها تجري في محور عمودي . إن الهدف من ذلك يكمن في محاولتنا معاينة مختلف ضوابط اشتغال التبدلات الزمنية والعلاقات التي تنظمها ، وتربط بينها ، في إطار بنية الخطاب ، ضمن مكون أساسي من مكونات الخطاب ، وهو الزمن .

للقيام بذلك ، سنعمل على تقسيم كل وحدة سردية من هذه الوحدات العشر إلى :

(أ) مقاطع سردية .

(ب) مواقع زمنية .

إن المقاطع السردية هي الوحدات السردية الصغرى ، وتستوعب بدورها مقاطوعات سردية أصغر أي أن للوحدة السردية قابلية للتقسيم المتعدد ، الذي يمكن أن ينتهي عند حدود الجملة . راعينا في تحديدنا المقطع السردى ، ما راعيناه في تقسيم الوحدة ، وهو نفس ما راعيناه في تقسيم المقطوعة بفارق بسيط ، وإن كان أساسياً ، ويكمن في كون هذا التقسيم هنا ، انطلقنا فيه من التركيز على البعد الزمني .

أما الموقع الزمني ، فقد احتفظنا له بالمصطلح ذاته الذي استعملناه في تحليل

التمفصلات الزمنية الكبرى . ونقصده به ، هنا ، التبدلات الزمنية التي تتم في إطار المقطع السردى . وهذه التبدلات هي التي ركزنا عليها في تقسيمنا المقطع السردى . وإذا كانت المواقع الزمنية في علاقتها بالوحدات مقطعة بحدود الاشارات الزمنية - التاريخية (السنوات التي يزخر بها الخطاب) ، فهي هنا ، محددة بالمؤشرات الزمنية التي نقسمها قسمين رئيسيين : أ - المعينات الزمنية (الآن - أمس - غداً - بعد غد . . .) ، ب - أزمنة الأحداث في اختلاف بعضها عن بعض ، إماً عبر الانتقال من حدث إلى آخر ، دون أية إشارة من جهة ، أو باستعمال المعينات الزمنية ، التي تصبح تلعب دور التمييز بين أزمنة وقوع هذه الأحداث أو تلك ، من جهة أخرى .

ومن خلال الربط بين المقطع والموقع ، سنعين مختلف التبدلات الزمنية ، وطرائق اشتغالها في مجرى الخطاب ، وصولاً إلى مراكمة جملة من المعطيات تسعفنا في النهاية للقيام بتركيب يمكننا من خلاله استخلاص زمن الخطاب الروائي في «الزمني بركات» ، وخصوصيته ، ليتأتى بعد ذلك إبرازها من خلال المقارنة مع الخطاب التاريخي .

الوحدة الأولى : 1. هـ . «بداية الهزيمة» :

تمتد هذه الوحدة من «تضطرب أحوال الديار . . . إلى . . . لم أسمع ديكاً واحداً يصبح» . (ص 9 إلى 16) . يتبدى الخطاب باستباق داخلي (تكراري) ، يقوم بدور الاعلان ، ومن خلالها يبدو لنا خطاب الرحالة الايطالي الذي سبق له أن زار القاهرة مراراً قبل هذا التاريخ (922 هـ) . غير أنه في هذه الزيارة ، يعاين ما لم يسبق له أن رآه : الخوف والاضطراب الذي يسود القاهرة هذه الأيام (رجب 922) .

يبدو لنا من خلال التمعن في هذه الوحدة زمنياً ، أن لحظة إنجاز الخطاب (حاضر الخطاب) تتم في ليلة من ليالي رجب ، بعد إقامته ثلاثة أيام في القاهرة . غير أن حاضراً الانجاز يعرف على مستوى الحدث الاستمرار ، إنه يتحدث عن ليلة واحدة . لكن ما جرى في هذه الليلة تكراري متشابه (Itératif) ، أي أن هذه الليلة تختزل عدة ليال . لذلك لا نجد على مستوى الإشارة الزمنية تسجيلاً لهذه الليلة زمنياً كما سنلاحظ في وحدات أخرى (مثلاً 10 شوال 912) ، والاكتفاء بتسجيل الشهر (رجب 922 هـ) .

إن الليلة التي أنجز فيها الخطاب التكراري المتشابه ، تختزل ما جرى عدة ليال في هذا الشهر . يبدو لنا هذا بجلاء من خلال المدخل : «تضطرب الديار المصرية هذه الأيام . . .» ص 9 . وهكذا فحاضر الانجاز حاضر تكراري . وانطلاقاً من هذا الحاضر يتم تأطير هذه الوحدة زمنياً .

نؤكد هذا الحاضر من خلال عدة مؤشرات هي :

ص 9: «الليلة تنتظر البيوت امراً...»
 «أطل والظلام يلف البيوت...»
 ص 16: «أرى القاهرة الآن رجلاً معصوب العينين»
 «أخاف انفتاق الظلام عن وجوه...»
 «شموع بيتي مطفأة...»
 «لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم»
 «ربما يقترب الفجر...»

إن كل هذه المؤشرات ذات دلالة قوية على لحظة إنجاز الخطاب (الليلة - الظلام - النجوم - اقتراب الفجر - الآن التي تتكرر أربع مرات) . وليست هذه الليلة إلا نموذجاً لما يقع من أحداث ترتبط بالخوف والتوجس والاضطراب الذي تعيش فيه القاهرة .

وتبعاً لتحديد هذا «الحاضر» يمكننا موقعة مختلفة التبدلات الزمنية التي تعرفها هذه الوحدة ، في علاقتها به . وهكذا يمكننا تقسيم هذه الوحدة إلى 13 مقطعاً سردياً و11 مقطعاً زمنياً ، على الشكل التالي :

(1) تضطرب أحوال الديار المصرية ... أخشى تراقص الضوء في أحداق العيون المتلصصة «ص 9. وفيه يتحدث الراوي / الشاهد عن ليلة إنجاز الخطاب ، وما يهيمن فيها من هلع وخوف .

(2) قبيل العصر مشيت من الحسينية ... كل منهم يقطع جبهته ، يحاول التذكر (ص 9: 17) . في هذا المقطع يبرز لنا الجولة التي قام بها نهاراً «قبيل العصر» ومعانيته تغير أحوال الناس ، وهو يبحث عن زملائه القدامى ، متنبهاً إلى المقهى التي جلس فيها ملاحظاً تساؤلات الناس عن اختفاء الزيني .

(3) حتى أنا قلت لنفسي ... وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه (ص 11) . يتذكر الراوي / الشاهد ، الزيني بركات ، عندما زار القاهرة سابقاً ، جلوسه إليه ، وذكر أفعاله التي يقوم بها (التفتيش على أسعار البضائع - تعقب أوكار الفساد ...) .

(4) «حدث أن أرسلت جارية رومية ... تبحشان عن الأمر العزيز المفقود» . (ص 11 - 12) . ذكر حادثة وقعت منذ سنوات حسم فيها الزيني ، وتعلق بإنقاذ الجارية من الشيخ العطار الذي تزوجها .

(5) «وسمعت ممن أثق به ... كما يقول عامة مصر» ص 12 - 13 .

في هذا المقطع يتم الذهاب إلى ما قبل الزواج ، والصورة التي كونها الشيخ العطار عن المرأة التي سيتزوجها ، والاقتصاد الذي قام به عدة أعوام ليجتمع لديه المبلغ الذي يؤهله للزواج .

(6) «اختلف الناس حول تصرف الزيني ... يرأسها رجل عتي معروف» ص 13 . يبرز

هنا تعليقات الناس ، واختلاف آرائهم حول موقف الزيني من الشيخ العطار الذي طلق منه الجارية وعاقبهُ

(7) «المهم سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة . . . وما سنذكره في حينه» ص 13 .
تعليق الراوي / الشاهد على الحادثة التي سمعها ، ومعانيته الشيخ العطار بعد مرور سنة على الحادثة وهو هائم في الشوارع .

(8) «أعود إلى السجال في دكان الشاي . . . خوف موغل في الأعماق» (ص 13 - 14) . يعود الراوي ، بعد انتهاء الحادثة التي حكاها ، إلى المقهى التي تحدث عنها في المقطع (2) ، ويرز لنا هنا أيضاً ، ومن خلال العرض غير المباشر آراء الناس عن اختفاء الزيني بركات .

(9) «في الطريق على مهل اليم . . . تضع منه المعالم والأشياء» (ص 14 - 15) . بوجود الراوي في المقهى يمر طابور من سجناء الفلاحين يقادون إلى الموت ، ويرى أن مثل هذا المشهد عاينه في طنجة ، وفي جزيرة بالمحيط الهندي .

(10) «ربما أموت بعد لحظة . . . مشيت حذراً» ص 15 .

يبين الراوي / الشاهد هنا انعكاس ما رآه على نفسه ، فيمشي محتاطاً في القاهرة مضطربة .

(11) «بألمس نزل الممالك . . . شهدت بعيني ما جرى ، ما حدث» ص 15 . يعود الراوي إلى الألمس ، ليتحدث عن هجوم الممالك على خان الخليلي «الذي كادوا يحرقونه عن آخره» .

(12) عند الغروب تابعت الطريق . . . أولد في كل يوم عدة مرات» (ص 15 - 16) .

في هذا المقطع ، يرجع بنا الراوي إلى الغروب الذي يسبق ليلة انجاز الخطاب ، ويرز لنا فيه ممارسة إدخال الناس بيوتهم بالقوة عند غروب الشمس .

(13) «أرى القاهرة الآن رجلاً . . . حتى الآن لم أسمع ديكاً واحداً يصيح» ص 16 .

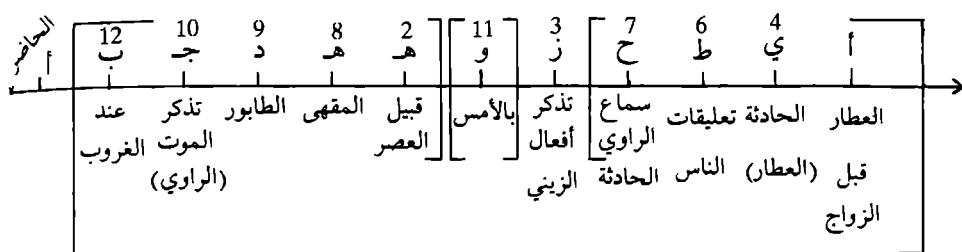
بهذا المقطع الأخير تكون العودة إلى حاضر انجاز الخطاب ، وتسجيل حالة القاهرة وأثارها على نفسه .

نلاحظ من خلال هذا التقسيم ، أن الحاضر هو مؤطر هذه الوحدة ، فبه نبدأ ، وبه ننتهي ، لذلك أعطينا المقطع (1) و (13) الموقع ، أ . وبما أن المقطع (12) يقع عند الغروب أي قبيل لحظة حاضر الانجاز ، فقد أعطينا الموقع «ب» . كما أن المقطع (2) والمقطع (8) يقعان فيما قبيل العصر (الشاعر - المقهى) لذلك أعطيناها الموقع «هـ» وأن المقطع (10) الذي يسجل فيه الراوي انعكاس ما رآه على نفسه أعطيناها الموقع «جـ» . ويليهِ الموقع «د»

الذي يوازيه المقطع (9) حيث يقاد الفلاحون إلى الموت . ويكون أول إرجاع يتجاوز اليوم الذي يسجله هو ما نجده في المقطع (11) حيث المماليك يهجمون على خان الخليلي أمس حاضر اليوم الذي ينجز في ليلته الخطاب ، والذي أعطينا الموقع «و» . وهكذا نظل نتابع مواقع هذه المقاطع ، انطلاقاً من علاقاتها جميعاً مع المقطع «أ» ، كما نلاحظ من خلال هذا الشكل :

1 أ - 2 هـ - 3 ز - 4 ي - 5 ك - 6 ط - 7 ح - 8 هـ - 9 د - 10 ج - 11 و - 12 ب - 13 أ .

ويمكننا إعادة كتابة هذا الشكل ، من خلال موقعة ليلة الانجاز ، على هذه الصورة :



نتضح لنا بجلاء من خلال هذا الشكل مختلف التبدلات الزمنية ، التي حاولنا موقعتها من خلال هذا الخط ، لنتبرز لنا المواقع في علاقتها ببعضها وبالمقطع الأول . ولقد ميزنا بعض هذه الحقب بمعقوفات توطرها بحسب ثلاثة أقسام : في الأول الذي يلي الحاضر مباشرة . نجد الماضي الممتد إلى الحاضر . أما القسم الثاني ، فمتعلق بماض قريب (أمس) ، والثالث يحكي عن ماض بعيد . غير أن هذه المواقع في الخطاب لا تسير وفق هذه الخطية (ب ، ج ، د ، هـ . . .) . لذلك فإننا عندما نعيد كتابتها وفق مجراها في الخطاب ، في علاقتها مع المقاطع السردية سنجدنا أمام هذا الشكل :

1 أ [(2هـ) 3 ز = [4 ي 5 ك 6 ط 7 ح] (8هـ) (9 د) (10 ج) [11 و] (12 ب)] 13 أ

نلاحظ من خلال هذا الشكل ، الذي حاولنا فيه ضبط العلاقات التركيبية بين هذه المقاطع بحسب الترابط والتضمين ، أن هناك ثلاثة معقوفات تأتي متضمنة في إطار 1 أ و 13 أ (الحاضر) . وهكذا نلاحظ أن المعقوف أ والذي يمتد من (2هـ) إلى (12ب) يتضمن المعقوفين «ب» و«ج» . لذلك فهو يمثل الماضي الممتد إلى الحاضر ، وإن «ب» يجسد الماضي القريب ، و«ج» الماضي البعيد . كما نلاحظ إلى جانب هذا مقطعاً لم نحدده لا بقوس ، ولا معقوف وهو (3ز) الذي نجده يفتح (=) ترابطياً على «ج» (الماضي البعيد) .

إن (3) يمثل الفعل الدائم «المتشابه التكراري» الذي تجسد لنا من خلاله أفعال الزيني بركات . وهو يقدم لنا كشيء تم في «الماضي» لابرز التفاوت الكبير الموجود بين الماضي والحاضر (الاضطراب) . وعندما نقر بكون الارجاعات الثلاثة (أ. ب. ج) يتضمنها الحاضر (حاضر إنجاز الخطاب) وذات طبيعة تكرارية ، فإننا نلاحظ أن هذا الحاضر هو وليد ذلك الماضي بأقسامه ، وهو امتداد له في آن ، رغم كون الراوي / الشاهد حاول أن يضع لنا الحاضر مبرزاً (En relief) من خلال الارجاعات (كمفارقات) التي تصبح تلعب دور الخلفية (Arrière Plan) .

إننا نتنقل من الحاضر إلى الماضي القريب (قبل العصر) ، لابرز واقع هذا الحاضر المضطرب ، من خلال إبراز أحوال الناس الذين ليسوا كما عهدهم الراوي / الشاهد سابقاً (الأحضان - الضيافة . . .) من خلال تساؤلهم عن اختفاء الزيني . ومن هذا الماضي القريب ، وعبر التذكر (زار الرحالة القاهرة عدة مرات) يتم استذكار الزيني بركات وأفعاله «الدائمة» . إن الحاضر نفي للتكرار : أفعال الناس تغيرت ، اختفاء أفعال الزيني باختفائه : «وجه القاهرة غريب عني» . ومن خلال تذكره الزيني بركات وعلاقته به يتم الارجاع البعيد (الحادثة) وملابساتها . وبعد كل هذا التضمن ، تتم العودة إلى الماضي القريب : «أعود إلى السجال . . .» ومن خلال طابور الفلاحين السجناء يتم الارجاع الخارجي (analepse exterieure) عن مشاهداته لمثل هذا في طنجة وإحدى جزر المحيط الهندي . وكل ذلك لابرز هذا الحاضر ، وصولاً إلى الغروب عندما يدخل غرفته ، وحيث يتم إعلان الطواريء ، ليخلص بعد ذلك إلى حاضر إنجاز الخطاب من خلال بعد رمزي يصف بواسطته القاهرة كرجل «معصوب العينين» .

في الانطلاق من الحاضر ، والعودة إليه ، ومن خلال تضمينه إياه مختلف أزمنة الماضي تقدم لنا الوحدة الأولى (أ هـ) باعتبارها استباقاً داخلياً ذا طبيعة تكرارية ، اعلانية . إنها بمثابة افتتاحية ، تختزل زمن القصة بكامله قسمين رئيسيين :

أ - الماضي : البعيد (912 هـ) والقريب (920) والممتد (922) .

ب - الحاضر : 922 - وما يليها .

- فالماضي تكراري : أفعال الناس إيجابية (؟) وكذلك أفعال الزيني (؟) . . .

- والحاضر غير تكراري : الاضطراب ، الخوف ، اختفاء الزيني . . . الحرب .

غير أن هذا الاستباق - الاعلان يقدم لنا الحاضر كمستوى أول (هو المبتدأ والنهاية) ، والماضي كمستوى ثان (خلفية) ، فالإلى أي حد يبدو لنا زمن القصة في الخطاب يأخذ هذه

الصيغة؟ هذا ما يمكننا الاجابة عنه بعد الانتهاء من تحليل الوحدات ، وبعد ذلك البحث عن دلالاته .

نسجل انطلاقةً من هذه التبدلات الزمنية أنها ليست اعتباطية ، إن لها دلالاتها التي يمكننا استخلاصها من خلال التحليل ، ويبقى أن نشير في هذا الاطار . أن توزيع أزمنة الأفعال في كل هذه المقاطع ليست اعتباطية أيضاً كما لاحظ ذلك هارلد فاينريش (1973 - 16) . ولاعطاء أمثلة لذلك ، سنفترض وانطلاقاً من تصور فاينريش إمكانية تقسيم الزمن إلى مجموعتين : الأولى خاصة بالعالم السردي ، والثانية بالعالم التقريري ، وإذا كان فاينريش تبعاً لنفسه قد رأى مجموعة من الأزمنة تختص بهذا العالم وأخرى بعالم آخر كما يتيح ذلك تقسيم الفعل الفرنسي زمنياً ، فإننا سننطلق في غياب دراسة لسانية متكاملة لزمن الفعل في العربية من تقسيم هاتين المجموعتين بحسب الصيغتين : فعل / يفعل . ونفترض أن «فعل» خاصة بالعالم السردي وأن «يفعل» خاصة بالعالم التقريري . ويمكننا ضبط زمن الفعل ليس صرفياً ، ولكن نحويّاً : أي إننا سنراعي السياق الزمني الذي تأخذه هذه الصيغة أو تلك . ومن خلال ذلك يمكننا تعيين «وضعية القول أو الخطاب» . (Attitude de locution) لاعطاء مثال على ذلك سنأخذ بهدف الاختبار المقاطع التالية :

1 أ- 13- 4 ي -

إن المقطعين «1أ» و«13» سنعطيهما حرف «أ» ، والمقطع «4ي» نعطيه حرف «ب» . يقع المقطع «أ» في الحاضر ، وفيه يسجل الرحالة مشاهداته (مذكراته) . والمذكورة خطاب «تقريرى» كما يصنفها فاينريش (1973 - ص 35) . أما المقطع «ب» فحكائي ، يتم من خلاله حكي قصة الشيخ العطار مع الجارية . إن الخطاب التقريرى يمكن أن يتضمن الحكائي . كما يمكن للخطاب الحكائي أن يستوعب خطابات تقريرية . ولا أدل على ذلك من هذا الخطاب الروائي الذي بين أيدينا «الزيني بركات» ، كما سنعاين ذلك بتفصيل عندما نحلل الصيغة (صيغة الخطاب) . إن هناك تداخلاً بين الخطابات ، ويمكننا تحديد طابع هذا الخطاب أو ذاك بنوعية الخطاب السائدة فيه وهي التي تحدد خطايته .

في المقطع «أ» يتحدث الرحالة عن حاضر القاهرة المضطرب . أما المقطع «ب» فيحكي قصة وقعت . إن الحاضر هو مؤطر المقطع «أ» . كما أن الماضي هو مؤطر المقطع الثاني . يجري المقطع الأول في 24 سطرًا ، والمقطع «ب» في 26 سطرًا . لنحاول الآن توزيع المقطعين حسب الصيغتين «فعل» و«يفعل» لنلاحظ إلى أي حد يمكن أن يسعفنا هذا التوزيع في تحديد نوعية «الحكائي» و«التقريرى» من خلال مراكمة الصيغتين ، ونحوية ما تشيران إليه زمنياً .

بعد طول بحث وتدقيق ، وإحصاء قمنا به مراراً تبينت لنا المعطيات التالية التي سنحاول تقديمها من خلال كل مقطع على حدة :

المقطع «أ» :	فعل = (11)	يفعل = (49)
- الماضي : 8 مرات	- الحاضر : 24 مرة .	
- الحاضر : 1 مرة .	- الماضي : 4 مرات .	
- المستقبل : 2 مرتان	- المستقبل : 15 مرة .	
	- الدائم : 6 مرات .	
المقطع «ب» :	فعل = (47)	يفعل = (37)
- الماضي : 41 مرة .	- الحاضر : 2 مرتان .	
- الدائم : 6 مرات .	- الماضي : 17 مرة .	
	- الدائم : 18 مرة .	

في تقسيم هذين المقطعين ، انطلقنا أولاً من رصد الأفعال حسب الصيغ (فعل يفعل) . فأتضح لنا أن المقطع التقريري يستوعب صيغة يفعل 49 مرة ، وفعل 11 مرة ، أي أن يفعل أكثر بكثير من فعل . وعلى عكس ذلك في المقطع «ب» حيث تحتل فعل 47 مرة . ويفعل 37 مرة . إن المقطع «أ» تقريرى ، والمقطع «ب» حكاى . ويظهر لنا هذا علاوة على التقسيم الصيغى من خلال تبدلات زمنية ، حيث نجد صيغة «يفعل» الدالة على الحاضر (حاضر الانجاز) تحتل المرتبة الأولى إحصائياً (24 مرة) . ونلاحظ الشيء نفسه بصدد صيغة «فعل» في المقطع الحكائى ، حيث تدل على الماضى التام (Accompli) 41 مرة . وهكذا يتضح لنا من خلال المقارنة بين المقطعين بجلاء الفرق الموجود بين التقريرى والحكاى ، من خلال عنصر الزمن .

إن الأشكال الزمنية ، في علاقتها بالصيغة ضبطناها من خلال السياق ، وذلك لكون أزمنة الأفعال فى العربية نحوية وسياقية ، ولا تتأتى من خلال الصيغة فقط كما نلاحظ فى الفرنسية مثلاً . ولو أتاحت لنا إمكانية قراءة المقطعين قراءة دقيقة لأمكننا تأكيد الافتراض الذى ننطلق منه للتمييز بين التقريرى والحكاى .

بعد صدور الترجمة الفرنسية لرواية الزينى بركات⁽¹⁾ أردنا من باب مقارنة ما حصلنا عليه من نتائج إحصائية باعتماد الصيغتين أساساً للتمييز وما تحتوانه نحويًا من أزمنة لوضع خطاطة ثنائية كما فعل فاينريش فأجريت العمل نفسه على النص مترجماً إلى الفرنسية انطلاقاً من المثالين السابقين فتبين ما يلي :

(1) Gamal Ghitany: Zayni Barakat. tra. par Jean-François Fourcade. Scuil 1985.

المقطع الأول (أ) :	التقرير (33)	الحكي (8)
= الحاضر (P.)	26 =	(2) = Imparfait
= الماضي المركب (P.C)	6 =	(1) = Plus que Parfait
= المستقبل (F.)	1 =	(5) = Conditionnel
المقطع الثاني (ب) التقرير :	(6)	الحكي (64)
= الحاضر	3 =	(38) = Imparfait
= الماضي المركب (P.C)	2 =	(5) = Passé Simple
= المستقبل	1 =	(21) = Plus que parfait

من خلال هذه المقارنة يظهر لنا بجلاء تماثل النتائج بين ما مارسناه في التحليل العربي بعد طول تفكير في كيفية تبين ما يتصل بعملية التمييز بين ما هو تقريرى وما هو حكائى وما نجده في الفرنسية في نطاق التفريق بين الأشكال الزمنية . في المقطع الأول نلاحظ أن ما يتعلق بالتقرير (33 مرة) يناظر ما رأيناه سابقاً في صيغة يفعل التقرير (49 مرة) مقابل تضاؤل أزمنة الحكي (8مرات) و(11 مرة) وكذا عندما نقارن مع المقطع الثاني (ب) ، إن التماثل لا يعني التساوي وذلك لطبيعة الاختلاف بين الأشكال الزمنية المحددة في الفرنسية وبين الطريق الذي سلكنا باعتماد الصيغة أساساً للتفريق بين التقرير والحكي ، ومعاينة الأشكال الزمنية (نحوياً ، ومن خلال السياق) لضبط زمن الفعل .

بقي لنا أن نشير الآن إلى أن الوحدة «1 هـ» تقريرية باعتبارها مذكرة يسجل من خلالها الراوي/الشاهد مشاهداته . لذلك فصيغة «يفعل» تكون هي المهيمنة في دلالتها السياقية على الحال ، أما هنا فإننا نعين من خلال قراءتها مجتمعة قراءة اصحائية ، أن يفعل «نجدّها أقل من «فعل» أو قريبة منها ، ومن حيث دلالتها الزمنية يغلب عليها الماضي ، كما رأينا في المقطع «ب» حيث صيغة «يفعل» الدالة على الماضي تمثل 17 مرة بمقارنتها مع الحاضر (مرتان) وذلك لسبب بسيط هو أن الخطاب التقريرى يتضمن الخطاب الحكائى ، وهذا عين ما لاحظنا في توزيعنا المقاطع بحسب علاقتها التركيبية .

إن «1 هـ» استباق . وبما أن هذا الاستباق تكرارى فإنه إعلان لكل ما سيأتى في الحكي ، لذلك رأينا أن التقريرى يهيمن فيه الحكائى ، وإلا انتفى موقعه كاستباق . وتبقى لنا أخيراً الملاحظة المتعلقة بالتكرارى وغير التكرارى أي علاقة الحاضر بالماضى . هل الحاضر نشاز في مقارنته بالماضى أم استمرار له ؟ وكيف تم هذا الحاضر (922)؟

الوحدة الثانية : (2.3.4.5.6. أ) : الاعتقال - التعيين - الخطبة الزيني حاكماً - زكريا نائباً :

إن الموقع الزمني «أ» (912 هـ) يحتل مكانة خاصة تكرريراً ، وسردياً . فتكرارياً نجده يمتد على (109) صفحة بمقارنته مع باقي المقاطع . وسردياً من حيث كونه يستوعب خمس وحدات أساسية . لذلك سنحاول تحليل هذه الوحدات الخمس مجتمعة في علاقتها بالموقع الزمني ، ليتأتى لنا ربطها بما سبقها (922) وما يليها (914) . .

تسهيلاً لعملية التحليل الجزئي ، ولتأتى لنا رصد أكثر التمفصلات الزمنية من خلال هذا الموقع أ ، والوحدات الخمس ، سنقسم هذه الوحدات في ترابطها مع الزمن إلى قسمين أساسيين مترابطين :

١- القسم الأول : يشمل الوحدات الثلاث الأولى : الاعتقال ، التعيين ، الخطبة .

٢ - القسم الثاني : ويشمل وحدتين : الزيني حاكماً - زكريا نائباً / الفوانيس .

يقع القسم الأول من الصفحة 17 إلى 62 ، زمنياً خلال فترة قصيرة جداً (حوالي يومين) من 8 شوال 912 هـ إلى 10 شوال 912 هـ . ويتم خلالها اعتقال المحتسب السابق علي بن أبي الجود ، وتعيين الزيني بركات بن موسى مكانه . ويمتد القسم الثاني من الصفحة 64 إلى 109 ، ويسجل فترة يمارس فيها الزيني بركات مهامه خلال فترة زمنية طويلة .

1) القسم الأول :

يضم وحدة الاعتقال - التعيين - الخطبة . وسنحاول الآن إلقاء نظرة على كل وحدة من هذه الوحدات ، ثم ننظر إليها مجتمعة .

2 أ : الاعتقال : تضم هذه الوحدة أربعة مقاطع سردية وموقعين زمنيين . ويحتمل كل مقطع من هذه الأربعة إمكانية تقسيمه إلى مقطوعات وسنقوم بذلك مع المقطع الرابع . وهذه المقاطع الأربعة هي :

1- طلوع النهار ، وفيه نعاين من خلال المشهد صورة المدينة أول النهار باكراً حينما تبدأ فيها الحياة بعد الليل . يبدو لنا أول النهار هادئاً .

2- يسجل لنا المقطع الثاني أفعال علي بن أبي الجود الدائمة . فهو ينام متأخراً ، بعد اطلاعه على التقارير التي يتوصل بها . ويبرز لنا كونه هذه الليلة ينام مطمئناً إلى أن يستيقظ على صياح وجلبة يحدثها المفتحمون الذين جاؤوا لاعتقاله .

3- نعود من جديد إلى أول النهار لكنه هذه المرة متقدم زمنياً عما رأيناه في المقطع

الأول - فالمدينة تزخر بالاضطراب والحركة التي يعلن من خلالها ، وعبر النداءات عن خبر اعتقال بن أبي الجود .

4 - في المقطع السردي الأخير ، ومن منظور سعيد الجهيني تبدو لنا آثار خبر الاعتقال على نفسه في النهار زمنياً ، وهو في الأثر ، وبعد ذلك في الشارع .

إن هذه المقاطع تأخذ زمنياً هذه المواقع : 1أ - 2ب - 3أ - 4أ . فحاضر الانجاز كما يبدو لنا من خلال هذه الوحدة هو النهار الذي اعتقل في ليلته علي بن أبي الجود . لذلك كانت «2ب» إرجاعاً قريباً يتضمنها الحاضر الذي أصبح فيه علي معتقلاً لذلك نجد أن المقطع الرابع المسجل في الحاضر يكشف لنا بوضوح عن آثار هذا الاعتقال على سعيد الجهيني والناس ، كما يبدو لنا هذا من خلال هذا المقطع الذي نقسمه إلى تسع مقطوعات :

1 - سعيد الجهيني في رواق الصعايدة يستمع إلى الجلبة التي تحدثها النداءات المتكررة عن الاعتقال .

2 - يتذكر سعيد الجهيني أفعال عليّ الجائرة ، دائماً ، وعن طريق الاستباق الداخلي يتصوره يركب حماراً بالمقلوب . وهذا الاعلان سنراه بتفصيل في تحليل وحدة «الاعدام» .

3 - من خلال الاستباق نفسه ، يتساءل سعيد الجهيني عما سيجري .

4 - من الاستباق يتم الارجاع من خلال تذكره عمرو بن العدوى الذي أعلن منذ 3 شهور عن رغبته في قتل علي بن الجود وزيارته لمولاه الشيخ أبي السعود الذي حذره من عمرو بن العدوى .

5 - سعيد الجهيني يأخذ حذره من عمرو ، ومن خلال الاستباق يتصور نفسه معتقلاً . وهذا الاستباق داخلي أيضاً لأن سعيداً سيعرف الاعتقال .

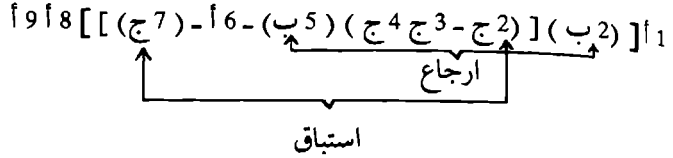
6 - بعد هذه المفارقات (ارجاع - استباق) يكون الرجوع إلى الحاضر للنكايه من علي بن أبي الجود المعتقل «الآن» (ص 23) .

7 - ومن خلال الاستباق من جديد يتساءل من جديد عَمَّنْ يَخْلُفُ عَلِيّاً .

8 - وفي الحاضر مرة أخرى ، يلاحظ سعيد عَمْرَأَ بن العدوى وهو يسجل تقاريره ليرفعها إلى كبير البصاصين .

9 - وعودة أخرى إلى نقطة البدء ، حيث يفرح سعيد بالنداءات التي تعلن نبأ الاعتقال ، وهو يود لو تكون معه حبيته سماح لتعيش معه هذه الفرصة . وينتهي المقطع بتسجيل ما يردده الأطفال في الشوارع عن هذا الاعتقال .

نلاحظ بجلاء من خلال هذا المقطع ، كيف أنه يبدأ بالحاضر وينتهي به . وضمن هذا الحاضر ، تأتي تبدلات زمنية عديدة من خلال مفارقات إرجاعية واستباقية . إن هذه الوحدة كالوحدة السابقة عبارة عن مشهد متسع يتم في الحاضر ويشمل أزمنة متعددة تحكي عن الماضي ، وتضمن ما يجري في المستقبل . تظهر لنا هذه التبدلات بجلاء من خلال هذا الشكل الذي نبرز فيه المقطع السردى الرابع مقسماً إلى مقطوعات سردية :



من خلال هذا الشكل نلاحظ أن :

- الحاضر : (الدرجة الصفر) يضم أربعة مقاطع .

- الاستباق : يضم أربعة مقاطع .

- الارجاع : يضم مقطعين .

فالحاضر باعتباره المؤطر يكشف عن واقع الحال (الاعتقال) . ورغم كون هذا الحاضر مفرحاً فالتساؤل عن المستقبل يظل يوازي ما يمثله هذا الحاضر ، انطلاقاً من العودة إلى الماضي (تذكر أفعال المحتسب السابق ، وأعمال عمرو بن العدوى البصاص ، الذي يرقب سعيداً) . لذلك تبدو لنا هذه الوحدة عكس السابقة تؤثر للمستقبل أكثر من الماضي ، لكن انطلاقاً من هذا الحاضر الذي هو وليد الماضي (عمرو بن العدوى - زكريا بن راضي) ، رغم تغير المحتسب .

إن ما رأيناه مبرزاً في الوحدة السابقة، وقادنا إلى التساؤل عن علاقة الحاضر (غير التكراري) بالماضي (التكراري) ، يجعلنا ومنذ الآن نلاحظ أن ذلك الحاضر (واقع الاضطراب سنة 922 هـ) هو غير تكراري ظاهرياً فقط . لذلك يبدو لنا الماضي في هذه الوحدة تكرارياً لكن بطريقة عكسية لما سجله الراوي / الشاهد . إن الذي يُبرِّز في هذه الوحدة هو الماضي ، ويكون التساؤل عن المستقبل تساؤلاً عن مدى تكرار الماضي فيما سيأتي . لذلك نجد السؤال الاستباقي الذي يطرحه سعيد الجهيني هو من سيخلف علياً بن أبي الجود ؟

3 أ : التعمين : رأينا أن الوحدة 2 أ تقع في لحظتين زمنيتين حاضراً الاعتقال وليلة الاعتقال لذلك نجد هذه الوحدة تليها في الترتيب سردياً وزمناً . وهي تقع بين 8 شوال 912 هـ ، ويوم الأربعاء 10 شوال 912 هـ . يمكننا تقسيم هذه الوحدة إلى هذه المقاطع :

1 - المرسوم السلطاني الذي يقرر تعيين الزيني بركات ، ويعلن عن اعتقال المحتسب السابق . ويؤرخ هذا المرسوم ب «8 شوال» . 1 أ.

2 - في هذه المقطع ، يتم زمنياً الانتقال إلى «أول الليل» الذي يلي قرار التعيين . ومن خلال زكريا بن راضي يقدم لنا التعيين . ويمكننا تقسيم هذا المقطع إلى خمس مقطوعات . لذلك سنعطي لهذا المقطع «2 ب» .

3 - يقدم لنا هذا المقطع متضمناً في المقطع الثاني ، ونجده مؤرخاً ب «10 شوال» . ويتعلق بطلب الزيني بركات من السلطان إعفاءه من هذه الوظيفة لصعوبتها . ويأتي هذا الطلب بصيغة «الخطاب المعروض» بلسان الزيني بركات . ولنا بصدد هذا المقطع ملاحظتان تتعلقان بموقعته زمنياً .

أ - إما أن نعتبر وقوعه في 9 شوال ، وهذا هو الصحيح على اعتبار أن الوحدة الرابعة تبين لنا وقوعه سابقاً كما سنلاحظ في تحليلنا إياها . وبناءً كذلك على أن المقطع الذي سيليه والذي سيتحدث فيه أتباع أبي السعود عن طلب الاعفاء هذا باعتباره سابقاً زمنياً .

ب - وإما نعتبر وقوعه في التاريخ نفسه ، لكن زكريا بن راضي الذي يؤكد في المقطع السابق أنه سيتكلف بالزيني وأخباره بنفسه . لذلك فهو يسجل ما وقع في 9 شوال يوم 10 شوال . وهذا مستبعد ، لأن ما يسجله زكريا عن الزيني يتم في المقطع السابق ، والذي يمثل هذا امتداداً له . وهو الأرجح ، ويحتمل أن يكون «10 شوال» خطأ مطبعياً أو من الكاتب . ويكون زكريا بن راضي قد بدأ بتسجيل أخبار الزيني في حينها . وتبعاً لهذا يأخذ هذا المقطع طابعه الترتيبي «3 ج» .

4 - يقع هذا المقطع الرابع ليلاً في كوم الجراح حيث يتحدث أتباع الشيخ أبي السعود وبينهم سعيد الجهيني عن الزيني بركات ، ورفضه الحسبة ، ومناشدتهم الشيخ ليتدخل ليقبل الزيني الحسبة (4 د) .

5 - أما المقطع الخامس فيقع في آخر يوم الأربعاء 10 شوال . في إحدى المقاهي يتحدث الرواد ، وعمر بن العدوى ينصت لخطبة الزيني . إن هذا المقطع استباق ، على اعتبار أن الخطبة لم تجر بعد . (5 ز) . ونلاحظ هنا حذفاً يمكن أن يملأ لاحقاً .

نلاحظ أن المقاطع 1 - 2 - 3 - 4 متتابعة زمنياً ، ويأتي المقطع الخامس مفارقاً . كاستباق داخلي . وداخل كل مقطع نجد مقطوعات متعددة ، سنركز على أهمها ، وهو المقطع «2 ب» .

قَسَّمْنَا هَذَا الْمَقْطَعِ إِلَى خَمْسِ مَقْطُوعَاتٍ :

(1) زيارة السجن (1 أ) .

(2) قصة شعبان (2 ج) .

(3) زكريا في مبنى الديوان يبحث في السجلات عمن هو الزيني بركات (3 أ) .

(4) أخبره البصاصون أن الزيني دفع 3 آلاف دينار لشراء الحسبة (4 ب) .

(5) تكليف زكريا نفسه بكتابة ما يتعلق بالزيني بركات (5 أ) .

إن نظام هذا المقطع يسير بهذا الشكل :

1 أ - [2 ج - 3 أ - 4 ب] 5 أ .

الحاضر هو الذي يؤطر هذا المقطع . ففيه ينزل زكريا (ليلاً) لزيارة السجن لتفقد مساجينه . ويضمن هذا الحاضر إرجاعاً بعيداً يمتد إلى الحاضر (قصة شعبان غلام السلطان الذي اختطفه أتباعه للحصول على بعض أسرار السلطان ، وينتهي هذا الإرجاع باغتيال شعبان في الحاضر . بعد هذا الإرجاع الممتد إلى الحاضر ، يكون الانتقال / الوصول إلى الحاضر من خلال بحث زكريا عمن هو الزيني بركات ، فلا يجد ما كتب عنه يتجاوز أربعة أسطر . ومن ثمة يكون الإرجاع القريب ، ما أخبره بصاصوه عن دفع الزيني بركات رشوة للحصول على وظيفة الحسبة . ومن هذا الماضي القريب ، يعود / ينتهي المقطع إلى الحاضر حيث يعزم زكريا على تدوين أخبار الزيني بنفسه .

ويمكننا معاناة الشيء نفسه بالنسبة للمقطعين الرابع والخامس . في الرابع نجد تبدلات زمنية عديدة يؤطرها الحاضر ، وتمتد من ماضي أبي السعود ، والتعريف بشخصيته المتميزة ، إلى الحديث عن أخبار الظلم المتفشي دائماً (في عهد علي بن أبي الجود) إلى حديث أتباعه عن الزيني ، وهم يأمرونه بالتدخل لاقتناع الزيني بالتراجع عن طلب الاعفاء «لن يقنعه إلا أنت» و«لم نسمع برجل مثله» . وينتهي المقطع وأبو السعود مصر على مقابلة الزيني . ونلاحظ الشيء نفسه في المقطع الأخير ، لكن مع خصوصية . إنه استباق . لكن ما يتعلق فيه بالحديث المستقبلي الأخبار عنه (الخطبة) ، لا يأتي إلي في بداية المقطع ، لكن مختلف التبدلات الزمنية التي تطرأ فيه على مستوى مقطوعاته نجدها إرجاعية وترتبط بقصة عمرو بن العدوى : الطالب الفقير الذي كان يقرأ القرآن في بيوت الأعيان مقابل بعض الدراهم ، والذي نجح جهاز البصاصين في استقطابه ، وادخله عالم البصاصة ، وتعنيفات مقدم البصاصين إياه بسبب تهاونه في القيام بعمله نلاحظ أن هذا الاستباق تجري أهم تبدلاته الزمنية عبر الإرجاع البعيد عن شخصية عمرو بن العدوى لكنه يتصل بالحاضر الاستباقي .

إن السؤال الاستباقي الذي استتجنه في الوحدة 2 أ (الاعتقال) والذي سجلناه من

خلال سعيد الجهيني وهو : من سيخلف علي بن أبي الجود : سيصبح في هذه الوحدة 13 (التعيين) هو : «من هو الزيني بركات؟» من خلال زكريا بن راضي . وسنعاين في تحليلنا للرؤية السردية والصيغة معاً لماذا يرسل الخطاب مراراً عديدة من خلال سعيد الجهيني وزكريا بن راضي .

هكذا نلاحظ أن طبيعة السؤالين في الاستباقي زمنياً ، تسجل ترتيباً (2 أ - 3 أ) عبر المفارقة (الاستباق) . في هذا الترتيب الذي يسجل زمنياً في الحاضر الذي نجده يوظف مختلف المفارقات : فبه تبديء الوحدة والمقطع والمقطوعة وبه تنتهي . وتمتد هذه المفارقات من الارجاع البعيد إلى القريب إلى الممتد في الحاضر . ونعاين كون مختلف هذه الارجاعات تحتل المستوى الثاني سواء كانت تكميلية (Complétives) : (ماضي الشيخ أبي السعد - ماضي عمرو بن العدوى - ماضي سعيد الجهيني - زكريا بن راضي ...) باعتبارها تضيء لنا هذه الشخصيات التي سنتعرف عليها أكثر في مجرى الخطاب ، أو كانت تكرارية : (répétitives) ، والتي تشمل مختلف الأفعال والأحداث المتكررة (البصاصة - ممارسة الظلم - الاعدامات ...) .

كما نعاين مختلف الاستباقات ذات الطبيعة التكرارية ، والتي تقوم بدور الاعلان (إعدام علي بن أبي الجود - اعتقال سعيد الجهيني - لقاء الزيني والشيخ أبي السعد - الخطبة) تتم بدورها مؤطرة ضمن الحاضر ، ومتبادلة وأحد الارجاعات ومترابطة وبعضها وإن كنا نلاحظ أن الاستباق يأتي في المستوى الأول ، وأن الارجاع يأتي في الخلفية (arrière plan) كما حاولنا توضيح ذلك من طبيعة السؤالين الاستباقيين : من يخلف علياً؟ فيكون الجواب : هو الزيني . فيطرح السؤال من جديد : من هو الزيني؟؟

4 أ . الخطبة : في سياق الترتيب ذاته الذي لاحظناه بمفارقاته وعلاقاتها نجد الوحدة الرابعة تلي السابقة ، وكسائر الوحدات التي حللناها إلى الآن ، نجد الحاضر هو الذي يوظفها زمنياً . يتم هذا الحاضر في «أول الليل : الأربعاء 10 شوال» حيث ينتظر زكريا بن راضي خادمه مبروك ليحمل له تقارير عن النهار الذي جرت فيه الخطبة . إن «الخطبة» كما يبدو لنا من خلال هذه الوحدة قد جرت يوم الأربعاء 10 شوال . في الاستباق الذي سجلناه في المقطع الخامس والذي يتعلق بحدث «الخطبة» نجده فقط «يعلن» عنها ، وأنها تمت ليكون الارجاع متعلقاً بشخصية عمرو بن العدوى .

إن «الخطبة» ، ترتيباً تأتي بعد «التعيين» . وإذا كان التعيين قد قدم لنا زمنياً في الحاضر . فإن (الاعتقال) و(الخطبة) قُدِّما لنا بعد وقوعهما . لذلك تبدو لنا هذه «الخطبة» كحدث تتم من خلال الارجاع القريب ، ويوظفها حاضر تسلم تقارير عنها . نلاحظ إمكانية تقسيم هذه الوحدة إلى أربعة مقاطع كالتالي :

1- أول الليل : الأربعاء 10 شوال ، وفيه يتسلم زكريا بن راضي لفافة أوراق (تقارير) تتعلق بيوم الخطبة وما جرى فيه (1 أ) .

2- تقارير عن يوم الخطبة يقرؤها زكريا بن راضي (2 ب) .

3- تفكير زكريا بن راضي في الكيد للزيني (3 أ) .

4- الرسائل (رسالتان) بعث بهما زكريا إلى الأمراء مُؤلِّباً إياهم ضد الزيني ، وإلى الزيني طالباً منه التعاون معهما . ومعاً مؤرختان بـ «10 شوال 912 هـ» (4 أ) .

نلاحظ أن حاصر هذه الوحدة هو ليلة 10 شوال 912 ، مباشرة بعد الخطبة . إن المقاطع الأربعة التي ضبطناها هنا تتم جميعاً في هذه الليلة ، باستثناء المقطع (2 ب) المتعلق بالارجاع القريب عن الخطبة : 1 أ - [2 ب] 3 أ - 4 أ .

تضمن هذا المقطع الارجاعي له أكثر من دلالة هنا . إذ أنه يأتي مرتبطاً بالأفعال التي سيقوم بها زكريا تجاه الزيني بركات . وسيكون تضمين الارجاع في هذا السياق يعطي أحداثاً متعددة سنجد في ما سيلي زمنياً يحمل أبعاداً كثيرة . وعندما نربط هذا الارجاع بالتبدلات الزمنية العديدة التي تتخلل المقاطع 1 أ - 3 أ - بالأخص يبدو لنا هذا جلياً . وسنحاول إعطاء فكرة عن هذين المقطعين كما يلي :

يضم المقطع الأول ثلاث مقطوعات :

(1) في الصباح : تسلم زكريا تقريراً عاجلاً مفاده أن الزيني انتقل فجراً إلى كوم الجراح صحبة غلام أزهرى ، وجلس يستمع إلى ما قاله الشيخ أبو السعود .

(2) إنه في بداية النهار كثر المنادون (أصحاب الزيني) الذين يعلنون عن الخطبة التي سيلقيها الزيني بركات في الأزهر .

(3) في أول النهار يغير زكريا زيه ويخرج صحبة أحد أعوانه لحضور الخطبة .

إن هذه المقطوعات الثلاث ارجاعية ، إذ تضمنها جميعاً جملة واحدة تسجل في الليلة (أول الليل 10 شوال) التي يتسلم فيها زكريا تقريراً عن يوم الخطبة :

«أخيراً ها هو مبروك ، يحمل لفافة أوراق ، طال ترقب زكريا لوصولها» (ص 52) .

(في الصباح - ومع أول مجيء الشمس (52) - أول النهار (53))

... ها هو زكريا الآن يفرد اللفافة التي أتاه بها مبروك . . . ص 54 .

إن جملة الحاضر تتضمن ارجاعاً يمتد من (الفجر) إلى أول النهار . وهذا الارجاع ، والارجاع الآخر المتعلق بالخطبة يغطيان معاً «حذفاً» (Ellipse) ضمناً تم القفز عليه ما بين

المقطع الرابع والخامس من الوحدة السابقة ، كما سبق أن أشرنا .

ويمكننا معاينة مثل هذا في التبدلات الزمنية التي يعرفها المقطع الثالث من خلال هذه الوحدة ، حيث نجد الحاضر هو الذي يؤطره أيضاً ، بدءاً ونهاية . وضمنه يتم ارجاعان أساسيان :

1 - قصة زواجه من وسيلة (آخر جارية تزوج بها) .

2 - ما حدث في زمن السلطان فرج بن برقوق .

فالارجاع الأول قريب وممتد في الحاضر . وهو تكراري ، لأننا ستتعرف على وسيلة . والثاني بعيد وخارجي . وإلى جانب هذين الارجاعين نجد استباقاً خارجياً ، ويتعلق برغبة ذكريا وهو يفكر في المداد الذي يختفي ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة ليكتب به إلى الأمراء : لكن «الزمن الذي يجيء يمثل هذا المداد لا زال نائياً» ص 57 . ونلاحظ أن هذا الاستباق الخارجي جاء مرتبطاً بذلك الارجاع الخارجي . وينتهي المقطع بكتابة الرسالتين (الحاضر) .

وصولاً إلى هاته النقطة من التحليل ، يمكننا الآن تسجيل بعض الملاحظات العامة ليتأتى لنا بعدها الانتقال إلى القسم الثاني ، والذي يستوعب الوحدتين (5 أ - 6 أ) ، كما يلي :

1 - إن كل هذا القسم يقع خلال يومين (8 شوال - 10 شوال) ، تتواتر أثناءهما أحداث مركزية (الاعتقال - التعيين - الخطبة) . وهي كأحداث تقع ترتيباً ، وإن لاحظنا أن الوحدة الأخيرة جاءت كاستباق خلال وحدة التعيين ، وفي حاضر انجازها جاءت كارجاع . وتأخذ هذه الخصوصية لأنها تقدم لنا جواباً مؤقتاً عما هو الزيني بركات .

2 - إن كل وحدة من هذه الوحدات تضم مقاطع عديدة تأخذ مواقع زمنية متعددة ، لكن الذي يؤطرها جميعاً هو حاضر الانجاز . وتلعب الارجاعات بمختلف أنواعها ، والاستباقات دوراً كبيراً في الكشف زمنياً عن أحداث القصة . ومن خلال علاقاتها التركيبية فيها بينها والحاضر ، سجلنا كون الارجاع يحتل الخلفية ، وإن الاستباق يأخذ المستوى الأول ، ولذلك دلالة البعيدة التي يمكن الكشف عنها من خلال متابعة التحليل .

3 - إن انطلاق كل وحدة ومقطع ، ومقطوعة يتم من خلال الحاضر الذي به تختتم أيضاً كل مقطوعة ومقطع ووحدة . وكل التبدلات الزمنية (المفارقات) تأتي متضمنة ضمن هذا الحاضر . وهكذا يمكننا التساؤل عن لماذا هذا الترهين ؟ ، ولماذا التضمن بهذه الصورة ؟ وما دلالاته ؟ .

2) القسم الثاني :

يضم هذا القسم الوجدتين الخامسة والسادسة اللتين تقعان ضمن الموقع الزمني الأول في الخطاب (أ) ، والذي بينا وقوعه في سنة 912 هـ . وإذا كنا قد لاحظنا في القسم الأول كثرة الاشارات الزمنية - التاريخية : تكرار ورود التواريخ المتعلقة باليومين - 8 - 10 شوال 912 ، فإننا هنا سنجد قلة هذه الاشارات كما سنلاحظ .

5أ. الزيني حاكماً : إن لهذه الوحدة خصوصية . فالزيني يصبح حاكماً منذ تعيينه في 8 شوال 912 هـ . لكننا سمينا هذه الوحدة هكذا في تقسيمنا الوحدات ، على اعتبار أنه خلال اليومين السابقين حديث العهد بتسلم وظيفته . لكنه وابتداء من هذه الوحدة وإلى آخر الخطاب يمارس الحكم . لذلك نجد هذه الوحدة لا تتبدى بإشارة زمنية - تاريخية ولا بأي مؤشر . بانتهاء القسم الأول وبداية القسم الثاني ، نجدنا أمام حذف غير مباشر (implicite) . يظهر لنا هذا الحذف غير المباشر بعدم تسجيل بداية هذه الوحدة زمنياً . ونضبطه من خلال بعض المؤشرات الزمنية التي تسعفنا في تحديد مدة هذا الحذف .

يمكننا تقسيم هذه الوحدة إلى ثلاثة مقاطع أساسية :

1- يتعلق بالحكي من خلال سعيد الجهيني ويمتد من الصفحة 65 إلى الصفحة 73 ، وهو غير مسجل زمنياً .

2- ويتعلق المقطع الثاني بالحكي من خلال زكريا بن راضي وهو مسجل زمنياً «صباح الثلاثاء 7 ذي القعدة 912 هـ» ويمتد من ص 76 إلى ص 85 .

3- أما المقطع الثالث فيمكننا الإشارة إليه في ارتباطه بالنداءات الأربعة الأولى وهو بدوره مسجل زمنياً بمساء الثلاثاء سابع ذي القعدة 912 هـ .

تبتدىء هذه الوحدة بنداء ويتوسط المقطعين الأول والثاني نداءً . وعلى اعتبار كون المقطعين الأول والثاني أساسيين ومركزيين يمكننا ضبط المدة التي تفصل بينهما زمنياً من خلال هذين المؤشرين الرئيسيين وفي علاقتهما بوحداث القسم الأول الثلاث ، وأساساً الوحدة الأولى (الاعتقال) التي تتم الاحالة عليها زمنياً :

أ - في المقطع الأول نجد هذا المؤشر : «سعيد خشي على الزيني ، خاصة وأن علياً بن أبي الجود الذي تسلمه منذ عشرين يوماً ، لم يعلن المنادي خبراً عن اكتشافه المال المخبأ...» . ص 72 .

ب - ويبدو لنا المؤشر الرئيسي الثاني من خلال المقطع الثاني : «... أمور كهذه يجهلها الزيني ، وإلا أين نتيجة تعذيبه لسلفه علي بن أبي الجود؟ تسلمه منادوه منذ شهر .

لم يعلن مُنَادُوهُ استخراج درهم واحد منه أو تقريره بأي ذنب» ص 83 .

من خلال المؤشرين يبدو لنا أن الحذف الضمني استغرق عشرين يوماً ، وأن المسافة التي تفصل بين المقطع الأول والثاني هي حوالي عشرة أيام . وعندما نعرف أن الوحدة الثانية تقع صباح 7 ذي القعدة وأن تسلم الزيني علي بن أبي الجود تم يوم 8 شوال تتضح لنا هذه المسافة بجلاء .

إن حكم الزيني بركات يقدم لنا من خلال منظوري سعيد الجهيني وزكريا بن راضي . لذلك فما يمكننا تسجيله هنا زمنياً ، هو اختلاف هذين المقطعين عن المقاطع السابقة التي حللنا . فهي لا تجري في ليلة واحدة يؤطرها الحاضر كما سبق أن رأينا . ورغم كون المقطع الثاني يشي بذلك ، فإن هذا لم يتحقق فيه بالدرجة نفسها كما اعتدنا . يبدو لنا وكأن المقطعين «تلخيصيان» . ويختلفان زمنياً عما سبق أن رأينا من مشاهد . قلنا «يبدو لنا» ، لأنهما مع ذلك «مشهديان» :

يُتَدَوَّن تلخيصاً لأن من خلالهما تبرز لنا أحداث عديدة تقدم لنا على شكل إشارات سريعة . لكن المشهد يتأكد لدينا بواسطة الطابع التكراري ، والتكراري المتشابه من خلال تكرار الأحداث وتكرار الإخبار عنها سواء من خلال هذه الشخصية (سعيد الجهيني) أو تلك (زكريا بن راضي) أوهما معاً . لابرز هذا سنحاول إعطاء صورة مكثفة عن المقطعين معاً ليتأتى لنا تأكيد هذا .

1- المقطع الأولي : يتبدى هذا المقطع بـ «طال به حب هذا البيت وأهله . . .» ص 85 . وهذا البيت هو بيت حبيته سماح . ومن خلال فعل «طال» يبدو لنا عنصر التكرار واضحاً . والتكرار المتشابه بالأخص . فما سيحدثنا عنه الراوي من خلال سعيد الجهيني في علاقته بسماح هنا ، هو حدث يتكرر ، ويقدم لنا صورة عنه من خلال هذا الحكي . ويتجلى لنا هذا بجلاء من خلال هذه الصيغة التي تدل على ذلك : « . . . لو بقي وتناول العشاء ، لكنه أكل مرتين في أسبوع واحد ، يجب ألا يثقل عليه (أي على أبي سماح) . ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين أمها . . .» ص 70 .

فسعيد الجهيني يتردد على بيت سماح مرتين في الأسبوع . وهذه المرة هي التي يتم حكيها ، وتنوب بذلك عن بقية المرات وهذا هو تعريف التكرار المتشابه . يتأكد لنا هذا من خلال ما سيشار إليه في الوحدة القادمة عن هذا التكرار المتشابه من خلال الارجاع التكرار من خلال هذه الصيغة الواضحة جداً : « . . . شعوره بوجودها (سماح) في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين . . .» (ص 96) .

إن هذا التكرار المتشابه هو الذي يؤطر المقطع (زيارة بيت سماح - تناول العشاء

عندها - الذهاب إلى دكان حمزة لتناول الحلبة بالسهم . ضمن هذا التكرار المتشابه تتم
المفارقات الزمنية التالية :

(1) ارجاعات بعيدة : نسخه الكتاب - ذهابه إلى بيت الأنس (منذ عام) (ص 65) .

(2) ارجاعات قريبة (داخلية) زيارته الزيني بركات وحديثه إليه . (ص 72) .

(3) استباقات غير متحققة : حلمه بالزواج من سماح . . . (ص 66) .

(4) استباقات متحققة : الاعتقال (70) .

إلى جانب هذه المفارقات ذات الطبيعة التكرارية والمتعلقة بشخصية سعيد الجهيني ،
و ذات الوظيفة التفسيرية لشخصية سعيد ، نجد مفارقات أخرى ذات طبيعة تكرارية :

- النداءات : التي يقوم بها أتباع الزيني .

- قصة الخياط والغلام والتي فصل فيها الزيني بنفسه (يذكرنا هذا بقصة الشيخ العطار
والجارية . . .) .

إن هذا التكرار والتكرار المتشابه هو الذي جعلنا نستبعد استعمال «التلخيص» هنا .
فما جرى يتكرر باستمرار ، ويأتي المشهد لابرز هذا التكرار المتشابه باستعمال التواتر .
ويكون دور المفارقات بمختلف أنواعها تفسيرياً :
- الكشف عن سيكولوجية الشخصية .

- إضاعة الأحداث المحكية ، بالارجاع التكراري أو الاستباق التكراري ذي الطبيعة
الاعلانية . لذلك يبدو لنا الخطاب لا يركز على السنوات - المفاتيح ، وحتى الاشارات
الزمنية (اليوم . . .) تتضمن الأحداث - الأسس . ومختلف التبدلات الزمنية لا تأتي لملء
حذف ، ولكن لابرز أن ما حذف غير أساسي ، كما يمكننا أن نعين بعض الاستثناءات .

2- المقطع الثاني : ما سجلناه بالنسبة للمقطع السابق ، يبدو لنا هنا بشكل أكثر
وضوحاً . وذلك لسبب بسيط هو أنه مسجل تاريخياً . لذلك فهو أقرب إلى المقاطع
السابقة ، وإن كان يختلف عنها إلى حد ما . يبدأ هذا المقطع بـ «يخلو إلى نفسه (زكريا)
تماماً إذ يتأمل طفلاً» ص 76 . إن «تماماً» تدل على التكرار المتشابه المطلق : كلما تأمل
طفلاً خلا إلى نفسه . لكن هذه الخلوة ذات الدلالات العميقة (الاختلاء في بيته الخاص
لـ : تعذيب المساجين - قراءة التقارير - التفكير فيما ينبغي القيام به) تقدم لنا هنا تكرار
متشابه . لكن هذا التكرار المتشابه تكراري إذا صح هذا الاستعمال .

رغم أن بين المقطع الأول والثاني مسافة زمنية (حذف عشرة أيام) ، فإننا لا نحس

بهذا الحذف الضمني ، لأن التكرار المتشابه يلغي هذا الاحساس . فهذه الخلوة نموذجية ، تشبه «الخلوة» التي اغتال فيها شعبان وأرسل الرسائل إلى الأمراء والزيني بركات كما سبق أن رأينا . إنها تكرار متشابه لأنها صورة عن «خلوات» أخرى غير محكية . وهي تكرار متشابه : تكراري لأنها تكرر «خلوة» سابقة .

يؤطر هذا التكرار المتشابه حاضراً :

- اللعب مع ابنه يس (- الحاضر ، كما يبدو لنا) - اغتيال الرومي الذي ضبط يرأسل العثمانيين منذ شهور (ارجاع خارجي) ص 76 - يعود يسأل عن ابنه يس (حاضراً) - «الآن ينزل زكريا السلم الطويل : تأمل العصافير - التألم (المعاناة) لأن الزيني لم يجبه عن الرسالة التي بعث بها إليه - في هذا اليوم : الثلاثاء : استدعاء إبراهيم بن السكر والليمون لينجز حكاية ويشيعها بين الناس يتندر فيها بالزيني بركات عن طريق «الحكاية» - يلعب مع ابنه يس - يطلب ابن كيه ليطلق شائعات عن الزيني - ارسال الحمام الزاجل إلى الأمراء ليوقع بينهم ... » .

نعين بجلاء أن التكرار المتشابه يؤطر الحاضر الذي يقوم فيه بعدة أشياء في اليوم وستظهر آثارها لاحقاً . وضمن هذا التكرار المتشابه التكراري المؤطر حاضراً تحصل عدة مفارقات بالوظيفة نفسها التفسيرية والمتعلقة بالأحداث وشخصية زكريا .

- ارجاعات خارجية : قصة نائب كبير البصاوين العثمانيين (97)

- ارجاعات داخلية : قصة اغتيال شعبان . (85) .

- استباقات خارجية : وثوق زكريا من تطور البصاصة في المستقبل .

- استباقات داخلية : الكيد للزيني - الأمراء .

أما مختلف النداءات فكرارية أو تكرارية متشابهة في الغالب وتخيرنا زمناً عن ممارسة الزيني الحكم ، وصوراً عن عدله الذي لا يقدم لنا غالباً من خلال الحكوي عن الزيني بركات نفسه (الشنق - إلغاء ضريبة الملح - ابطال نعي الموتى ...) . غير أن النداء المتعلق بالفوانيس وتعيين زكريا بن راضي ككاتب للزيني بركات فمفرد كحكي زمناً .

6 أ : الفوانيس / زكريا نائباً : تختلف هذه الوحدة عن السابقة من جهتين : فهي أولاً مرتبطة بسابقتها زمناً بدون حذف . وهي من جهة ثانية ذات إشارات زمنية - تاريخية أكثر من (5 أ) . فإذا كانت الوحدة السابقة تنتهي في يوم الثلاثاء 7 ذي القعدة ، فهذه تبتديء في ليلة الثلاثاء 7 ذي القعدة . وتبدو لنا الإشارات الزمنية كما يلي :

(1) ليلة الثلاثاء 7 ذي القعدة 912 هـ ، ويسجل من خلالها مقطعان : يعلن الأول من

خلال النداء (الخطاب المعروف) عن إحداث الفوانيس ، واستمرار زكريا بن راضي نائباً للمحتسب الجديد (الزيني بركات) . وخلال الليلة نفسها توصل زكريا برسالة من الزيني (1-أ) .

أما المقطع الثاني فيبدو لنا من خلال تقرير عمرو بن العدوى عن الليل ذاتها . 2 أ .

(2) الجمعة 10 ذي الحجة 912 هـ: من خلال النداء (الخطاب المعروف) ، يتم الاخبار عن طريق الاستباق ، عن الصراع بين الأميرين بشتاك وطغلق . وهذا الاستباق في علاقته بترتيب المقاطع الزمنية يتم هنا (يصبح متحققاً) ، بعد أن تم الاخبار عنه استباقياً في الوحدة السابقة (الرسائل التي بعث بها زكريا بواسطة الحمام الزاجل) . 3 ج .

(3) آخر ذي القعدة 912 : يأتي بعد الاستباق ويتعلق بإحدى خطب الجمعة التي يعلن فيها عن رفض الفوانيس . (4 ب) .

(4) أول محرم 913 هـ ، وفيه يعلن قاضي الحنفية عن رأيه المؤيد للفوانيس (5 د) . هكذا نلاحظ من خلال ترتيب هذه المواقع الزمنية التي تركز مختلف المقاطع المرتبطة بها على الفوانيس ، والحقبة المتباعدة بينها . لنسجل أولاً مسار هذه المواقع الترتيبي وإن كان متباعداً والمفارقة التي تأتي استباقاً هكذا:

1 أ - 2 أ - [3 ج] - 4 ب 5 د .

من خلال هذا الشكل يأخذ الحدث الأساسي الترتيب الطبيعي باستثناء الاستباق الذي يرصد ردود فعل الناس وقتها تجاهها - الاعلان عن رفض الفوانيس - الاعلان عن تأييدها .

على مستوى سرعة الخطاب أو مدته ، نلاحظ أنه من الاخبار عن إحداث الفوانيس إلى الإخبار عن تأييدها نجد حقبة زمنية طويلة نسبياً : 52 يوماً تمتد من 7 ذي القعدة 912 إلى 1 محرم 913 هـ . وخلال كل هاته الحقبة لا نجدنا لا أمام حذف مباشر ولا تلخيص . إن المشاهد من خلال رصدها الأحداث الأساسية ، ولو في حقبة متباعدة وما يتخللها من تكرارات ، لا تشعرننا بأي من الملابس أو التبدلات التي نجدها في المدة من حذف ووقف وتلخيص .

وبادخالنا مقاطع سردية أخرى غير مسجلة كالتي رصدنا ، نجد هذه الحقبة تمتد وتوسع إلى ما بعد فاتح محرم ، بمدة لا يمكننا ضبطها . وذلك بانتهاء هذه الوحدة بالاعلان الرسمي (المرسوم الشريف) عن ابطال الفوانيس ، وعزل قاضي الحنفية من وظيفته ، وتأييد الأمراء وقاضي القضاة لقرار الإبطال السلطاني . وخلال المقاطع المسجلة زمنياً ، وبعدها نجد عدة مقاطع سردية (ثلاثة رئيسية) وتتعلق جميعاً بمنظور سعيد الجيهني . وكلها تشبه

إلى حد بعيد المقاطع وما فيها من مقطوعات ، التي سبق تحليلها : يوطرها الحاضر :

1 - بعد الاعلان عن ليلة 7 ذي القعدة (الفوانيس) مباشرة (ص 96) .

2 - بعد الاعلان عن رفض الفوانيس (آخر ذي القعدة) (ص 101) .

3 - انتقاد سعيد الجهيني الزيني بركات لعدم اتخاذه موقفاً من برهان الدين محتكر الفول (ص 106) .

إن هذه المقاطع الثلاثة الرئيسية إذ تأتي من منظور سعيد الجهيني فهي تقدم لنا كمشاهد تعليقية على أحداث مسجلة زمنياً ، وهي أحداث مركزية . من خلال هذه المشاهد ، يتم التعرف على ردود أفعال الناس ، وبالأخص سعيد الجهيني على الحدث . لذلك تأتي مختلف التبدلات الزمنية التي تستوعبها هذه المقاطع ، من خلال المفارقات لتقوم بالدور التفسيري والايضاحي للأحداث ، تأكيداً للاستباقات السابقة (في وحدات سابقة) التي أصبحت متحققة في الحاضر وتأكيداً من خلال الارجاعات الداخلية والخارجية لما هو ممتد في الحاضر وتكرار لها مثل :

- ممارسات زكريا بن راضي القمعية (اعتقالات - اغتيلات - مضايقات) .

- تذكره حياته عندما كان صبياً في الريف ، والآلام التي يتعرض لها الفلاحون .

- زيارته المتكررة لأبي السعود ليشكو إليه شجونه وعذابات له لما يُعانيه يومياً من فضائح ، وما يعاني منه من البصامين وبالأخص عمرو بن العدوى .

كما أن بعض هذه الارجاعات تأتي في حينها (الحاضر) لتكشف لنا عن بعض الأحداث التي يسبق ذكرها في أوانها ، والتي نحس عندما لا تذكر - زمنياً - بأننا أمام حذف لكن هذا الحذف مؤجل يستدعي لضرورة الكشف عن بعض ما وقع في الماضي (Paralipse) : مثل حديثه عن لقائه مع الزيني بركات مراراً بعد المرة الأولى التي صحبه فيها إلى كوم الجارح عند الشيخ أبي السعود . ومن خلال هذا الارجاع نتعرف على جوانب هامة عن حياة الزيني بركات : (كان تاجراً = ارجاع خارجي) ، حبه للعدل واحداثه الفوانيس لتقليل هجومات الممالك وكيد الأمراء له لدى السلطان حتى أمر بإلغائها ، وما شابه هذا من الإرجاعات ذات الوظيفة الكشفية أو لنقل التفسيرية .

إن كل هذه المفارقات بمختلف أنواعها ، والتي يوطرها الحاضر ، تتضافر ومختلف التكرارات والتكرارات المتشابهة لتأكيد هذه المشاهد التي يوطرها حاضر تسجيل الحدث زمنياً ، ويؤكددها تعدد الصيغ التي ليس خطاب الراوي إلا صيغة تتضافر وغيرها للأخبار عن الاحداث . وعندما نعلم أن مختلف خطابات الراوي تتم من خلال منظور سعيد الجهيني أو

زكريا بن راضي كشخصيتين رئيسيتين ، يتضح لنا بجلاء لماذا تأخذ بنية الزمن في الخطاب هذا الطابع الذي يمكننا تشخيصه من خلال هذا التركيب العام الذي نذيل به تحليلنا للوحدات (2 - 3 - 4 - 5 - 6) من خلال القسمين الأول والثاني ، من خلال هذه الملاحظات :

حللنا إلى الآن ست وحدات حسب ثلاثة مواقع زمنية :

1 هـ (كاستباق تكراري داخلي) - (2 - 3 - 4 - 5 - 6) أو 6 ب كترتيب . ويمكننا الآن القيام بتركيب شامل يركز على ما هو بنيوي ومهيمن لأنه هو الذي يسعفنا في مراكمة ما يؤهلنا للاستخلاص النهائي بعد تحليل الوحدات الأربع المتبقية ومواقعها الأربعة :

1 - لنبدأ بتحديد العلاقة التركيبية بين هذه الوحدات الست ومواقعها الثلاثة . تقوم هذه العلاقة على الترابط والتضمين . يتأكد الترابط في الانتقال من الموقع الأول إلى الثاني . ورغم كون 1 هـ استباقياً ، فإن إنجازها في الحاضر (الليلة) ، وانفتاح هذه الليلة على اليوم التالي ، يجعل الترابط بارزاً في الوحدة التالية (2 أ) ، التي نفتحها على أول النهار ويكون الارجاع إلى ليلة الاعتقال مؤكداً لهذا الترابط (الاضطراب / الخوف . . .) . أما التضمين فيتجلى في كون الوحدة 6 أ تأتي متضمنة وامتداداً لحدث مركزي نجد أول حكيه في الوحدة السابقة 5 أ .

2 - على مستوى الترتيب (ordre) ، نجد تأطير الحدث في الحاضر . وتأتي مختلف المفارقات لاضاءة الأحداث وتفسيرها . ورغم هيمنة المفارقات الارجاعية فإننا نجد للاستباقات دوراً خاصاً في لعب دور الإعلان تجاوزاً للتكرار الذي يتجلى لنا من خلال التواتر .

3 - من حيث التواتر ، نجد الحكي المنفرد يتعلق بالأخص بالوحدات / الأسس باعتبارها أحداثاً : الاعتقال - التعيين - الخطبة - الفوانيس / زكريا نائباً . وغالباً ما يأتي على شكل مذكرة - نداء - تقرير . لذلك نجد التكرارات والتكرارات المتشابهة هي التي تهيمن ، إما من خلال بروز الحدث الواحد عدة مرات ومن منظورات متعددة (سعيد الجهنيني - زكريا بن راضي . . .) . أو من خلال الحكي عن أحداث متعددة مرة واحدة (تكرار متشابه) أو مرات متعددة لكن من منظور واحد .

4 - لهذا السبب ، نعين على مستوى سرعة الحكي ، هيمنة المشاهد التي قد تمتد أو تضيق بحسب المدة الزمنية التي تتناولها . لذلك يأخذ إيقاع السرد حركة خاصة متوازنة لكنها بطيئة على مستوى كلية الخطاب . ويبدو لنا هذا من عدم بروز الحذف وقلة الوقفات الوصفية أو التلخيصات ، التي لاتتجلى لنا أمام المشهد وهيمنته .

5 - تهيمن المشاهد ، انطلاقاً من كون الاشارات الزمنية المسجلة تأتي لترهين الحدث

في الحاضر ، من خلال النداء - التقرير - المذكرة - المرسوم السلطاني ، كخطابات تتميز عن خطاب الراوي . إن هيمنة المشاهد تكمن في تعدد الصيغ وتعدد الرؤيات والمنظورات السردية ، لذلك لا تبدو لنا مختلف مكونات سرعة الحكيم (الحذف - الوقف - التلخيص) إلا نادرة وغير ذات أهمية بمقارنتها مع المشهد . كما أن توزيع هذه الاشارات في ارتباط مع الوحدات - الحوافز تبين لنا سعة هذا المشهد أو ذاك ، وحسب أهميته في إضاءة الحدث أو تطويره .

6 - تقارب الحكائي والتقرير من حيث توزيع أزمدة الأفعال بسبب تعدد الصيغ الفعلية ، وكما رأينا في تحليل الوحدة الأولى ، فإننا أمام خطاب تقرير (المذكرة) ، لكنه يتضمن الحكائي الذي يصبح مهيمناً فيه ، وإن كان مؤطره . ولهذا السبب سميناه في تحليل صيغة الخطاب «الخطاب المسرود» . ويمكننا قول هذا بالنسبة إلى باقي الخطابات : فأزمدة العالم الحكائي (الماضي) تتوازي وأزمدة العالم التقريري (الحاضر) وإن كان الحاضر هو الذي يؤثر أزمدة العالم الحكائي : فالتقرير يتضمن الحكائي ، والحكائي يتضمن التقرير ، وفق نمط من العلاقات التركيبية في بعدها الترابطي والتضميني يسهم في اعطاء بعض الخصوصية لزم الخطاب الروائي كما يمكننا أن نلاحظ من خلال مواصلة التحليل .

إن الوحدات السردية التي سنحلل الآن ، تأخذ طابعاً ترتيبياً (التسلسل) (enchainement) في علاقتها بالمواقع الزمنية . وسنعمل الآن على معاينة كل وحدة على حدة ، ليتأتى لنا بعدها استخلاص الطابع الذي يتميز به زمن الخطاب في الزيني بركات .

الوحدة الثالثة : (7ج) : الاعدام :

نقسم هذه الوحدة إلى خمسة مقاطع سردية . ونجد المقطع الخامس يسجل زمنياً بـ «رجب 914 هـ» ، في الفترة التي زار فيها الرحالة الإيطالي القاهرة لأول مرة . كما نجد في المقطع الثاني مؤشراً زمنياً : «منذ عام تم الترسيم على علي بن أبي الجود...» ص 113 . وعندما نعرف أن هذا المؤشر تتضمنه الوثيقة التي يقرأها الفقهاء يوم الجمعة في الجوامع ، والتي أُعلن عنها النداء (المقطع الأول) ، وتنتهي الوثيقة بإخبار الناس بضرورة الخروج عصر اليوم ذاته لمعاينة «إعدام علي بن أبي الجود» . يتضح لنا كون المقطع الخامس مرتبطاً بالثاني زمنياً إذ يقعان معاً في يوم واحد . وعندما نربط هذا المؤشر بتلك الإشارة يتضح لنا في علاقة ذلك بالوحدة الثانية (اعتقال علي بن أبي الجود) ، والوحدة السادسة أن هناك اضطراباً زمنياً :

من شوال 912 هـ رجب 914 هـ = من تاريخ الاعتقال إلى الاعدام نجدنا بازاء عام

وعشرة أشهر ، وليس «منذ عام» كما جاء في المقطع الثاني ، وتبعاً لذلك فإن المسافة التي نجدتها بين الوحدة السادسة والتي تم «حذفها» هي عام وسبعة أشهر تقريباً . لكن هذه المدة الفاصلة سيغطي جزء أساسي منها - دلاليًا - من خلال المقطع الثالث الذي يأتي ضمن هذه الوحدة كارجاع ، كما يمكننا أن نلاحظ :

(1) المقطع الأول، يأتي عن طريق «الخطاب المعروف» (الدعاء) ليخبر أن فضيحة علي بانث هذه الليلة، واستباقاً: «سيقراً الفقهاء وثيقة في الجوامع» ص 110، 1 أ.

(2) يأتي المقطع الثاني على شكل «الخطاب المعروف» أيضاً من خلال الوثيقة التي أعلن عنها استباقاً ، وفيها يتم الأخبار ارجاعاً عن المدة التي أمسك فيها علي بن أبي الجود ، وما وجد عنده من ممتلكات وذخائر وأموال - . . . ومن خلال الأخبار عن الاعدام يبنىء بأن ذلك سيكون في تمام الساعة الرابعة وقت الضحى (2 ب) .

(3) من خلال تقرير مقدم بصاصي القاهرة ، يتم الاخبار عن بدايات الاعتقال ، ويستمر هذا الاخبار إلى مدة منتهية في الماضي البعيد . في هذا الارجاع الداخلي تبرز أشكال العذاب التي مورست على علي بن أبي الجود . ويتضمن هذا المقطع التبدلات الزمنية التالية :

أ - الوقف : وفيه تقف وتيرة السرد وسرعته : ليبدأ الوصف (وصف المكان المعتقل فيه علي - السجن . . .) دون أن تتقدم أحداث القصة .

ب - على مستوى التواتر ، نجد التكراري المتشابه ، من خلال حكي أحداث عديدة مرة واحدة : «بقي علي بن أبي الجود 93 يوماً لم ير خلالها إلا وجه عثمان . . .» ص 116 .

ج - الحذف : حذف فترات زمنية طويلة ، لكن التكراري المتشابه يلغي هذا الاحساس بالحذف ، وإن بدا لنا مباشراً من خلال الحكي ترتيباً بهذا الشكل الذي يظهر فيه الحذف :

اليوم الأول
اليوم الثاني
عصر اليوم التالي

اليوم الرابع
اليوم الخامس

اليوم السابع . . .

ويقف هذا المقطع نهائياً عند حدود معينة ، ليمارس التعليق الذي يظهر لنا من خلاله أن عملية الرصد ما تزال جارية (3 د) .

4) في المقطع الرابع الذي يصلنا عبر النداء ، نخبر عن طريقة الاعدام (4 ب) .

5) ومن خلال المذكرة ، يسجل الرحالة الايطالي طريقة الاعدام ، ويبدى تعجبه من غرابتها (5 ج) .

نلاحظ أن هذه الوحدة تعرف هذا الشكل :

1 أ - 2 ب - [3 د] - 4 ب - 5 ج .

فباستثناء الارجاع الوحيد (3 د) الذي يمتد زمنياً إلى الحكي الأول ، والذي نجد مداه (Amplitude) داخلياً ، وينتهي بعيداً في الماضي ، لا نعين إلا الترتيب ويكون دور هذا الارجاع الداخلي تغطية حقبة أساسية من مرحلة الاعتقال . وبمحاضر الخطاب 5 ج ، تنتهي كل الامتدادات الزمنية التي ظلت تحملها إلى غاية الاعدام . ونسجل هنا خصوصية «وحدة الاعتقال» ووحدة الاعدام في ارتباطهما ، إلى كون «الاعتقال» بعد أن تم أصبحنا نتعامل معه بشكل أساسي كإشارة زمنية من خلال :

- الاستباق : مع سعيد الجهيني (وبالأخص الاعدام) .

- الارجاع : من خلال زكريا بن راضي ، وسعيد الجهيني ، اللذين يرجعان إليه (الاعتقال كتاريخ) : منذ شهر ، منذ عشرين يوماً ، ومنذ عام ؟ (من خلال الوثيقة) .

إن وحدة الاعتقال - الاعدام تضمنت وحدات عديدة كشف عنها من خلال التكراري المتشابه والتكراري زمنياً سواء تعلق الأمر بأحداث تظال واقع الأحداث ، أو من منظور بعض الشخصيات المحورية (سعيد الجهيني) أو (زكريا بن راضي) . بانتهاء وحدة الاعدام تأتي وحدة «اللقاء» بين الزيني وبركات وزكريا بن راضي : أعدم المحتسب السابق ، عين محتسب جديد (الزيني) ، واستمر زكريا (نائباً له) ، ليحدث اللقاء . لذلك سنعين خصوصية هذه الوحدة في اتساعها زمنياً وسردياً .

الوحدة الرابعة : (8 د) = اللقاء :

كل الوحدات التي حللنا إلى الآن ، بما فيها الوحدة الأولى كانت تلعب دوراً خاصاً في ترتيب الاحداث ومراكمتها زمنياً بشكل تسلسلي ، وإن كنا نلاحظ ، من خلال البنية الزمنية التي رصدنا العديد من التبدلات والتنويعات . ذلك لأنها جميعاً كانت تقوم بدور التمهيد لما سنعينه في هذه الوحدة وما سيليهها . إن وحدة «اللقاء» زمنياً ، تقع ضمن الترتيب ذاته ، غير أنها تعطي حركة زمنية جديدة للأحداث وأبعادها . فمن التعين إلى اعدام

المحتسب السابق ، نجدنا أمام تقديم معطيات حكائية بطيئة من حيث إيقاعها الزمني . وعندما نقارن عدد المؤشرات الزمنية المقدمة لهذه الحقبة وما يرتبط بها من حيث عدد الصفحات لضبط سرعة الحكي نجدنا أمام عدد كبير من الصفحات بوضع حجم ما قدم خلالها زمنياً بمقارنة ذلك مع بقية الخطاب على مستوى الصفحات : ستان = حوالي مائة وعشرين صفحة . وخلال كل هاته الحقبة تبدأ تظهر لنا الشخصية المحورية «الزيني بركات» عكس ما ستبدو لنا فيما سيلي . وبالأخص مع وحدة «اللقاء» التي تبدأ تأخذ فيها وجهاً غير الوجه الذي رأينا إلى الآن .

تحد هذه الوحدة زمنياً سنة 914 من خلال إعدام علي بن أبي الجود (رجب 914) . وتتضمن إشارة زمنية تتعلق بالمقتطف الثالث من المذكرات عندما يزور الرحالة الايطالي القاهرة في (ذو القعدة 920) . ولا نعرف حدودها في نهايتها : أي أننا منذ آخر إشارة زمنية (رجب 914) إلى الإشارة الزمنية المسجلة ضمن هذه الوحدة ، نجدنا أمام مضي ست سنوات . على مستوى تطور الأحداث ، نسجل الأحداث الأساسية التالية :

1 - تعيين الزيني بركات .

2 - تعيين زكريا بن راضي نائباً له .

3 - إعدام المحتسب السابق .

ونسجل كذلك الأحداث الأساسية الفرعية التالية :

1 - انحياز سعيد الجهيني وعامة الناس إلى الزيني بركات .

2 - كراهية زكريا بن راضي للزيني بركات ومحاولته الكيد له .

وتأتي وحدة اللقاء لتعطي مساراً وبعداً جديدين للأحداث يمكننا الكشف عنهما من خلال رصد المستوى الزمني في الخطاب .

تمتد هذه الوحدة على مدى 63 صفحة ، ولا نجدها تتضمن إلا إشارة زمنية واحدة ، (ذو القعدة 920) . أما غير هذا فلا يمكننا العثور على مؤشرات زمنية إلا من خلال وضمن الحكي ، والذي يبدو التقرير فيه مهيماً .

ولطول الوحدة . يمكننا تقسيمها إلى 17 مقطعاً ، تتعدد مواقعها الزمنية وتتداخل ، وفي غياب إشارات زمنية واضحة ، يصعب علينا توقعاتها . لذلك يمكننا تقسيم هذه المقاطع إلى :

1 - النداء : ست نداءات ، تأتي جميعاً مرهنة . ومن خلال صيغة الحاضر تخبر عن

التكراري (فرض ضربية - إمساك من يرأسل العثمانيين - تسلم أحد الأمراء وسلبهم أموالهم) أو التكراري المتشابه (قيام الزيني بركات برحلات خارج القاهرة لجمع الأموال . . .) أو تخبر عن طريق الاستباق (زكريا سيؤم بالناس الصلاة) قرب عودة الزيني بركات - الزيني سيلقي خطبة في الجامع - بداية الحرب . . .) .

2- الرسالة : التي تركها الزيني بركات لزكريا ، وتتضمن مشروع تصور لما سيكون عليه عمل البصاصة من خلال الاستباق (ص 131) .

3- التقارير : المرفوعة عن سعيد الجهيني ، أو الشيخ ربحان (ص 147 . 154) .

4- المذكرة : مشاهدات الرحالة الايطالي في القاهرة سنة (920 هـ) .

5- الخطاب المسرود : من خلال سعيد الجهيني أو زكريا بن راضي أو كوم الجراح .

من خلال هذه المقاطع السردية (والعرضية) (Représentatif) تأخذ المواقع الزمنية تبدلات عديدة ، وما تتضمنه من ارجاعات أو استباقات أو ارجاعات استباقية أو استباقات ارجاعية . ويمكننا ملاحظة ذلك بالأخص في علاقة هذه المقاطع بعضها ببعض ، ترابطاً وتضميناً .

ولإعطاء صورة نموذجية عن هذه الوحدة ومواقعها الزمنية سنأخذ المقاطع السردية : 2- 4- 8- 10- 11- 13- 15 أمثلة لذلك . وهذه المقاطع تشترك في كونها ذات مقطوعات سردية متعددة من جهة ، ومن جهة ثانية تتداخل فيها المواقع الزمنية وأخيراً لها ارتباطات جوهرية بما مضى وسياقي .

يأتي المقطع الثاني بعد نداء ، وتليه الرسالة الاستباقية حول عمل البصاصة . ويأتي المقطع الثامن بدوره بعد نداء ويليه نداء آخر يتبعه المقطع العاشر والحادي عشر . ونقول الشيء نفسه بصدد المقطع الثالث عشر :

- المقطع 2 : في المقطع الثاني الذي نجده يرتبط بمنظور زكريا بن راضي نجد الحاضر هو الذي يؤطره مثل الوحدات الأولى . فبه يتديء وبه ينتهي . ومن خلال التكراري يبدو لنا أن هذه الليلة تم فيها لقاءه بالزيني . فيكون الارجاع التكراري : جلوسه إلى زوجته الأخيرة «وسيلة» ومنه إلى الارجاع الخارجي «حدث منذ 200 عام» يعود إلى الحاضر عندما يخبر بمجيء الزيني بركات . ومن خلال الارجاع التكراري نخبر عن الأسئلة «الغريبة» التي يطلب الزيني عادة الاجابة عليها . في اللقاء يسأله عن «أحوال علي بن أبي الجود» . ويخبره أنه يعرف أن زكريا يعرف ، كما أن الزيني يعرف قبر شعبان . يَمْرُضُ زكريا بسبب ذلك . ومن خلال الارجاع التكراري يجيء الزيني من جديد ليتترك عنده مشروع تطوير البصاصة

(استباق) ، ويطلب منه التعاون والتنسيق . من خلال هذه الارجاعات الداخلية ، يأتي الارجاع الخارجي عن عمل زكريا بن راضي قديماً (بصا ص 128) . وبعد كل هذا التضمن تكون العودة إلى الحاضر : بحث زكريا عن البصاص الداخلي الذي دسه عليه الزيني : ليكون الارجاع هنا استباقياً (ص 129) ، وستحقق هذا الاستباق في ص (165) باغتيال زكريا «وسيلة» .

نلاحظ هنا أن كل المفارقات التي يتضمنها الحاضر ذات وظيفة إضافية وتفسيرية لكنها تأتي جميعاً متداخلة ومتراصة كمشاهد تلخيصية إذا صح هذا الاستعمال ، تكشف لنا عن الأحداث ، كما تكشف لنا سيكولوجية زكريا بن راضي الشخصية .

يتم إثبات الرسالة التي تركها الزيني لزكريا والتي تتضمن تصويره الجديد للبصاصة والتي تأتي صيغتها بما ينبغي أن يكون (الاستباق) .

- المقطع 4 : يتحقق جزء أساسي من هذا الاستباق من خلال تقرير عمرو بن العدوى عن سعيد الجهيني . يهيمن في التقرير التكرار المتشابه :

«سعيد تَعَوَّدَ الجلوس في مقهى قريب . . . ص 135 .

«منذ ثلاثة أسابيع يمر يوماً على حمزة . . . ص 135 .

وهذا التكراري المتشابه نجده أيضاً في المقطع 6 الذي يجيء بعد النداء : «أعلم بتردد سعيد على بيته» (بيت سماح) . ومن خلال هيمنة هذا التكرار المتشابه ، نعاين تواتر أفعال سعيد وأفعال جهاز البصاصين ، وأقوال الناس الذين يتضررون من هذه الأيام (ص 138) . وإلى جانب هذا التكرار المتشابه نجد التكراري : تعنيفات مقدم البصاصين لتهاون عمرو بن العدوى ، إلى جانب الارجاع المتعلق بوالدة عمرو وماضيه .

المقطع 8 : في المقطع الثامن نجد من جديد التقرير الذي يبعث به زكريا إلى الزيني ، بواسطة الحمام الزاجل . ويتعلق التقرير برصد حياة وأفعال الشيخ ريجان أبي سماح الذي «يتردد» سعيد على بيته . في هذا التقرير نجد الارجاع الخارجي الذي يذهب إلى ماضي ريجان البعيد ، الأستاذ الذي درسه المنطق ، زواجه ، ولادة سماح ، وصول سعيد الجهيني إلى بيته أول مرة من الصعيد - العلاقة التي تربط سعيداً بسماح .

من خلال هذا المقطع ، نعاين الاستباق الذي تضمنته الرسالة (المقطع 3) وكيف أنه يصبح هنا ارجاعاً استباقياً ، من خلال تحقق مضمونها ، ويأتي اثبات الرسالة الاستباقية والتقرير الارجاعي بكامله (147 - 154) ، ليكشف لنا هذه العلاقة .

المقطع 10 : في المقطع العاشر الذي يوظف حاضراً انجاز الخطاب فيه الحدث ، عن

طريق الارجاع «التلخيصي» إذا صح هذا، تقدم لنا حياة الشيخ في كوم الجراح (ص 156)، ليكون الانتقال إلى الحاضر الذي تبرز لنا من خلاله عذابه .

كثرة المتابعات والملاحظات التي يمارسها ضده البصاصون ، وهذا تكراري كما سبق أن رأينا ذلك .

- زكريا بن راضي الآن أمام المصلين بجامع شيخون ، تقبل يده تبركاً 158 .

- من القلعة تسرح البطائق إلى ابن عثمان : وهذا تكراري أيضاً من خلال النداءات المتكررة التي تؤكد اعتقال الخونة .

- زواج سماح من أحد أبناء الأمراء (158) وحضور الزيني حفلة العرس . لم يلق هذا الحدث سابقاً ، لكن يأتي الآن بعد وقوعه كارجاع تكميلي .

- استمرار احتكار برهان الدين الفول . وهذا تكراري أيضاً . . .

من خلال هذه المقاطع الأربعة (2 - 4 - 8 - 10) نلاحظ كيف أنها جميعاً تحقق الترتيب، باستثناء العاشر الذي يهيمن فيه التكراري (أفعال سبق تسجيلها) في الوحدات السابقة ، وحدث واحد جديد ، يخبر عنه بواسطة الإرجاع : زواج سماح الذي يأتي في الترتيب بعد أغلب الأحداث الارجاعية على اعتبار أنه لم يخبر عنه في حينه .

المقطع 11 : ومن خلال زكريا بن راضي أيضاً ، يكون تحقيق الاستباق ببعث الرسائل إلى بصاصي العالم للاجتماع قصد تبادل الخبرة والاستفادة ، ليكون الارجاع التكميلي أيضاً عن رحلة الزيني بركات إلى القرى المصرية الذي أخبرنا عنه من خلال النداء عبر الاستباق (ص 142) . فيأتي الارجاع لاضاءة وتفسير أسباب الرحلة وما صاحبها من مناوشات أثارها الأمراء ضد الزيني بركات .

بعد هذا الارجاع التكميلي ، يأتي الارجاع الخارجي (عهد الناصر بن قلاوون) ، ومنه إلى الحاضر (عزم الأمراء على قتل الزيني . وبارتباط مع هذا الحاضر ، يتحقق الارجاع التكراري بما أسمىه سابقاً بالارجاع الاستباقي (ص 129) ، بقتل وسيلة التي دسَّها عليه الزيني منذ أسبوع قبل التعيين (ص 165) . ومن هذا الحاضر ، ينتقل إلى المقابلة بينه وبين الزيني بعد عودته من الرحلة ، وسؤاله عن سعيد الجهني ليكون الارجاع من جديد إلى الزواج ، وإلى التكراري (حزن سعيد بعد زواج سماح - خلوته في مقهى حمزة ، ادمانه الدخان والقهوة ، تردده على بيت سنية : «يروح هناك كل يوم ثلاثاء» (ص 166) كنتكراري متشابه .

ومن خلال الارجاع أيضاً يجبره عن الصلاة ، وكيف أصبحت يده قبلة للشفاه ، وهو الذي

رأيناه أيضاً من خلال النداء ، ويخبره كذلك عن عزم الأمراء على قتله . ليهي المقطع بالحاضر حيث يستدعي زكريا أبا الخير بن المرافع (وهو بصاص قديم) ليؤكد للزيني ، وهنا نجدنا أمام مفارقة مختلطة (Mixte) ، ذات طبيعة ارجاعية واستباقية .

المقطع 13 : يخبر النداء استباقاً عن خطبة الزيني ، فيأتي هذا المقطع (المذكورة) مسجلاً بإشارة زمنية - تاريخية (ذو القعدة 920 هـ) . ينطلق من الحاضر . ومن خلال «الوقف» يتم وصف المدينة . واجتماع الناس لحضور الخطبة . من خلال الخطبة نجد الارجاع (أسباب الرحلة) وخروج أبي الخير بن المرافع إلى السلطان مدعياً أن بإمكانه استخراج ستين ألف دينار من الزيني ، واعتقال السلطان إياه . وانتهاء الخطبة باجماع الناس على تأييد الزيني وزكريا ضد الأعداء (أبو الخير بن المرافع) .

المقطع 15 : وكما رأينا التكراري سابقاً بصدد سعيد الجهيني سواء من خلال التقرير (عمرو بن العدوى) أو من منظور سعيد ، سنجد المقطع الرابع عشر بدوره يفتح به كشكل زمني :

«قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى ، لكن صبراً . مهلاً» ص 179 .

«الحقيقة الوحيدة في الدنيا المقشرة(*) وما عداها باطل» . 180 .

كل وحدة «اللقاء» يختزلها سعيد الجهيني من خلال هذا التكرار المتشابه :

«زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا ، ما الذي بقي ليحرص عليه . زمن إمامه الزيني ، وشيخه زكريا ، سدننه البصاصون كاتم سره عمرو بن العدوى ص» 184 .

ومن خلال هذا التكراري المتشابه ، وضمنه يأتي الاستباق (الذي لا يتحقق) : الحلم بالأيام السعيدة ، والارجاع ، دور الزيني وزكريا في حرمانه من حبيبته سماح ، وما نطق به أحدهم في خطبة الزيني متهماً إياه بالكذب . إلى جانب التكرار (متابعة البصاصين إياه - الاخبار التي تدور حول الخونة الذين يرأسلون ابن عثمان) . وبعد هذا المقطع الخامس عشر ، هنا والآن تم اعتقال سعيد الجهيني : تحقق كل الاستباقات التكرارية التي كان يخمنها حول اعتقاله .

إن هذه السنوات الست تقدم بخصوصية متميزة على مستوى الزمن : فرغم كثرتها ، تقدم لنا من خلال إشارة زمنية واحدة (920 هـ) عكسما رأينا مع الوحدات السابقة التي تضمها المواقع الزمنية (أ - ب) مثلاً . وعلى مستوى الصفحات لا نجدتها تتضمن إلا 63 صفحة : صفحات قليلة بالمقارنة مثلاً مع الموقع (أ) . وتتجلى لنا خصوصيتها فيما يلي :

(*) المقشرة : مكان الإعدام .

1 - تتسع هذه الوحدة زمنياً ، لتشمل ست سنوات من زمن القصة . يرهن الإخبار عنها من خلال صيغة الخطاب المعروض الذي يوظفها (النداء) في الحاضر ، أو من خلال الاستباق . وتأتي مختلف المقاطع السردية الأخرى التي تتضمنها هذه الوحدة محكومة بهذا التأطير :

- الخطاب المسرود (من منظور زكريا - سعيد الجهيني) .

- الخطاب التقريري (تقارير البصاصين - المذكرة - الرسالة . . .) .

2 - تبعاً لهذا التأطير ، ولتعدد صيغ الخطاب ، نجد العلاقة الترابطية من خلال الترتيب هي السائدة ، وتأتي العلاقة التضمينية في مستوى ثانٍ . ومن خلال تعدد الصيغ ونوع العلاقة التركيبية المهيمنة ، نجدنا أمام مشاهد ، لكن ليس بالصورة التي سجلناها سابقاً . وذلك لسبب بسيط ، يكمن في كون إيقاع السرد بدأ في هذه الوحدة (وفي الوحدة التالية أيضاً) يعرف نوعاً من السرعة ، لذلك يمكننا أن نتحدث عن «مشاهد تلخيصية» .

3 - ما يحدد هذه المشاهد التلخيصية ، هو طبيعة هذه الخطابات (المقاطع) في علاقتها بالأحداث التي ترسلها أو ترصدها . فهي كمياً كثيرة ، من جهة ، ومن جهة ثانية تقع في مواقع عديدة ومتباعدة زمنياً ، أو متداخلة من خلال الاستطرادات التي تتم من خلال التذكر (الارجاع) أو الحلم أو الانتظار (الاستباق) في علاقة ذلك بالحدث المنطلق منه . إننا نجدنا أمام شبكة متوالدة من الأحداث تذهب من الماضي البعيد كارجاع خارجي إلى الاستباق الخارجي . وكل ذلك يأتي لتفسير الأحداث وآثارها على الشخصيات التي بدأت تتحول نفسياً وواقعياً .

4 - تظهر لنا هذا التبدلات الزمنية المتعددة من خلال كثرة الارجاعات البعيدة والمتعددة التي تثار فيما يتعلق بزكريا بن راضي (بصاصو الدول القديمة) ، والارجاعات القريبة ، من خلال علاقته بالزيني بركات والتي تنير بدورها ارجاعات خارجية (حياة زكريا) . ولهذه التبدلات دلالتها فيما يرتبط بزكريا بن راضي : فهو شخصية متقلبة ، ومزدوجة : يقدر الزيني ويكرهه . . . لذلك فكثرة تواتر هذه التكرارات المفارقة توضح لنا هذه الشخصية المحورية ، ونلاحظ الشيء نفسه بصدد سعيد الجهيني ، كشخصية محورية . فيما مضى من الوحدات كنا من خلال منظوره أمام هيمنة الاستباقات (الزواج من سماح - الثقة في الزيني - الاعتقال . . .) لكننا هنا في هذه الوحدة أمام طغيان التكراري والتكراري المتشابه زمنياً (الخيانة - تواطؤ الزيني وزكريا - هيمنة الظلم) إلى جانب الارجاع القريب (سماح التي تزوجت) . وهذا التكراري أيضاً هو الذي سيبدو لنا من خلال الرحالة (حب الناس الزيني - كراهية البعض له . . .) .

5- يبدو لنا كون المشاهد تلخيصية أيضاً من خلال كثرة الاستباقات التي طرحت في هذه الوحدة ، وتم تحققها ضمن الوحدة ذاتها ، عكس ما رأينا مع الاستباقات السابقة التي بدأ بعضها يتحقق هنا أيضاً : وكأنَّ هذه الوحدة زمنياً تقدم لنا انجاز مختلف الاستباقات ، وبدأت تؤثر لتحقيق أُخَرَيَات . ولعل لتأطير النداءات لهذه الوحدة دخلاً فيها وكذلك خصوصيتها الحكائية .

6- إلى جانب هذا نجد العديد من الأحداث تقدم لنا عن طريق الارجاع كإشارة ، ولكن تطويرها يأتي بعد إرجاع ثان إلى الحدث نفسه (زواج سماح - رحلة الزيني) وهو ما أسمينا «الارجاع الاستباقي» ، الذي يتضافر ومختلف التبدلات الزمنية لاعطاء هذه الخصوصية التي تتميز بها هذه الوحدة من خلال :

1- تراكم المفارقات بمختلف أنواعها البسيطة والمركبة لاضاءة أحداث وتفسير أخرى وتحقيق ما سبق أن رأيناه كاستباقات .

2- تراكم التكرار والتكرار المتشابه الذي يشي بكون كل هذه الحقبة يتكرر ما يجري فيها على مستوى الأحداث :

- رضى العامة عن الزيني بركات وما يأتيه من أعمال ، وبروز نجم زكريا بن راضي .

- استمرار عمل البصامين بشكل مكثف ودائم (على الناس - سعيد الجهيني) .

- ظهور علامات الخيانة الوطنية من خلال كثرة مراسلي العثمانيين في القاهرة .

إن هذا التراكم هو الذي يجعلنا نسمي الطابع المهيمن هنا على مستوى مدة الحكي بـ «المشهد التلخيصي» ، عكس المشهد الذي رأينا ، والذي نجد فيه فرصة تفصيل الحدث القصير في مدة أطول على مستوى الخطاب . وهذا الطابع هو الذي سنجد به نفس الصورة تقريباً في الوحدة التاسعة وصولاً إلى النهاية : اغلاق الدائرة ، عندما تتحقق كل الاستباقات الأخرى .

الوحدة الخامسة: 9 هـ، الحرب / الهزيمة:

تنتهي الوحدة الثامنة، باعتقال سعيد الجهيني، وبالإشارة الزمنية التي تقدمها لنا هذه الوحدة ذات شهر من سنة 920 هـ، لذلك سنجد الإشارة الزمنية - التاريخية التي تتكرر هنا، هي 922 هـ، وهي السنة نفسها التي افتتح بها الخطاب.

لقد جاءت هذه الوحدة سابقاً كإعلان - إفتاحية. ومن كل الوحدات التي رأينا، اتضح لنا كون الحاضر الذي سجل في (1 هـ) ليس غير تكراري، لأن كل اللحظات التي كان يرهن فيها خطاب القصة كان يبدو لنا الحاضر تكرارياً، وما تأطيره مختلف التبدلات الزمنية واشكال

مفارقاتها إلا خير دليل على ذلك : استيعاب التكراري ما هو غير تكراري ظاهرياً فقط .

يُمْكِنُنا تقسيم هذه الوحدة إلى ثمانية مقاطع ، يلعب فيها الترتيب دوراً أساسياً وإن كانت تتخلل المقطوعات السردية التي يستوعبها تبدلات زمنية عديدة ، لكن مختلف هذه التبدلات ، لا تقدم لنا في أغلب الحالات غير إضاءات ثانوية بالمقارنة مع سابقتها . لقد «استندت» هذه التبدلات دورها التفسيري ، وأصبح دورها الدلالي يحتل المكانة الأساس . هذه المقاطع الثمانية هي :

1 - مِنْ خلال الرحالة الإيطالي ، يتم إبراز واقع القاهرة المضطرب عندما زارها ، وفاته مشاهدة موكب السلطان وهو يخرج للحرب . 1 أ .

2- الرسالة التي أعدت لبصاصي العالم المجتمعين في القاهرة في جمادى الأولى 922 هـ وما لحق بها من ذيول . 2 ب .

3 - في كوم الجراح (ص 207) ، ومن خلال التكرار ، يجتمع في وقت معين أتباع الشيخ أبي السعود وفي هذا الاجتماع يتناهى إلى سماع الشيخ ما أتاه الزيني من شنيع الأفعال (رفع الأسعار - تعذيب الناس - ارتقاء المناصب) . ومن خلال التكرار المتشابه ، يخبره الدمراوي ، عن طريق الإرجاع ما قام به الزيني في منفلوط (نموذجاً) من تهريب وقمع للحصول على الأموال ، وهو يتحدث إليهم بإسم الشيخ أبي السعود . ومن خلال هذا الإرجاع ذي الطابع التكراري المتشابه نعرف كيف استخرج الزيني بركات الأموال التي وعد بها السلطان من القرى المصرية ، فيأمر أبو السعود باحضار الزيني بركات : 3 ج .

4- من خلال التقرير ، وفي الليلة نفسها التي حضر الزيني عند الشيخ أبي السعود ، يتم الاخبار عن الضرب الذي مورس على الزيني من لدن أتباع الشيخ ، الذي عَنَفَهُ وَوَبَّخَهُ ، بجراح الأقوال ، على كذبه وإِدِّعَاءاته . ومن خلال الاستباق ، يؤكد التقرير عزم الشيخ على إعدام الزيني بعد شهرين : 4 د .

5 - تقرير آخر ، يصل وفي نفس اليوم إلى زكريا ، لكنه من خلال الإرجاع إلى «يوم الأحد 25 رجب 922» يتحدث عن الحرب ، وهزيمة (موت) السلطان ، وخيانة الأمير خاير بك (5 هـ) .

6 - اكتشاف أمر عمرو بن العدوي في الأزهر وطرده ، فيستقدمه مقدم البصاصين ويتركه عنده حتى يبيت في أمره ، 6 و .

7 - سعيد الجهيني في المقهى ، ومن خلال حديث صاحبها إليه يتم الإرجاع إلى المدة التي قضاها الجهيني في المعتقل (ستان وأكثر: منذ 920 هـ) ويتم الإرجاع ، كذلك عبر التذكير ، إلى سماح ، وعدم تحقق تلك الاستباقات التي سبق أن رأيناها مع سعيد تجاه سماح . ومن خلاله أيضاً يتم إرجاع قصة «الشيخ العطار والجارية» على شكل استطراد

إرجاعي . وهذه القصة تَمَّ حَكْمُهَا كارجاع في الاستباق الأول : الإعلان مع الرحالة الإيطالي . وفي المقهى - حاضراً - يتم رَصْدُ واقع الاضطراب والغليان الذي تعرفه القاهرة - 7 ز⁽¹⁾ .

8 - ومن خلال زكريا بن راضي : يتم ما يمكن تسميته بالتلخيص التكراري : فهو زمنيا يتذكر عن طريق الارجاع كل ما سبق أن عرفناه : الفوانيس - وسيلة - شعبان . إبراهيم بن الليمون - ابن كيغه ، وهم جهاز البصاين عند الزيني . بل هو يعرف أيضاً كل ما سيأتي : «عكارة تشاؤم تأوي إلى روح زكريا هو الوحيد في مصر العالم بحقيقة ما سيحيي . لا يستريح إلى وقفة «جان بردي الغزالي «لجوار طومانباي . . .» .

لأن بردي الغزالي كَحَايِرُكْ ، والسلطان طومانباي لا قدرة له على مواصلة الحرب : (8 ط) . وتسجل من خلال النداءات التي يلقيها منادو العثمانيين عن الهزيمة .

ومن خلال سعيد الجهيني الذي يود مقدم البصاين ضمه إليه . ويأمره بالذهاب إلى الشيخ أبي السعود ليكسب ثقته . . . وهناك يرى كوم الجارج خراباً ، فيصبح : «آه اعطوني ، وهدموا حصوني» ص 238 .

لقد أصبحت القاهرة رجلاً معصوب العينين ، ولا ديك يصيح : تحقق الإستباق - الإعلان بالكامل .

بهذه الوحدة التي تنغلق الدائرة ، بتحقيق واكتمال الإستباق الذي نفتح به الخطاب نجدنا أمام هذا الشكل الذي يختزلها هكذا :

1 أ - 2 ب - 3 ج - 4 د - 5 هـ - 6 و - 7 ز - 8 ح .

حيث يبدو لنا من خلالها الترتيب التام الذي افتقدناه على طول الخطاب ، وهنا يتجلى بوضوح . فالأحداث تأخذ عن طريق التسلسل سبيلها نحو «النهاية» . فما قدم لنا في الوحدة السابقة كمشهد تلخيصي ، يلخص ست سنوات ، يبدو لنا هنا كتلخيص تكراري ؛ ويكون الترتيب هو مؤطره ، ليتم ضمن تقديم مفارقات زمنية إرجاعية في أغلبها مع زكريا بن راضي ، وتكرارية مع سعيد الجهيني على اعتبار خصوصيتهما . وكل الاستباقات التي تحققت تشي بانغلاق الدائرة . ونفس الشيء نلاحظه في الأحداث الجديدة المقدمة لنا في الحاضر (اعتقال الزيني) ، وقد سبق أن رأيناها من خلال الإستباق - الإفتاحية (اختفاء الزيني) التي تبرز بدورها ، كيف أن بالحرب / الهزيمة تكتمل مختلف الأحداث - زمنياً -

(1) في هذا المقطع نجد مقطوعة أساسية تسجل ما سبق إن رأيناه في الإستباق - الإعلان (1 هـ) من تساؤل عن سبب إختفاء الزيني ، وتوضح لنا لماذا قال سعيد : «إنه يستنفر الخلق . . . (ص 14 . ص 224)» ، لأن مقدم البصاين إستدعاه ، ليجلس في المقهى ويجب عن تساؤلات الناس هكذا . لكن يتضح لنا هنا ، وكما سبقت الإشارة من خلال التقرير (4) . إن الزيني معتقل عند أبي السعود .

وتمتلىء، بالسواد عكسما كانت عليه آنفاً بياضاً يدفعنا إلى المزيد من التوقع والتساؤل.
كما نلاحظ أنه من خلال هذه الوحدة تم الاصطفاف النهائي لشخصيات القصة وأحداثها:

- إنكشاف أمر الزيني، وتآمره مع زكريا وانكشاف أمر عمرو بن العدوي.
- وضوح الموقع الذي يحتله أبو السعود وسعيد الجهيني في معارضة كل ما هو قائم.
لذلك يبدو لنا كون التبدلات الزمنية داخل كل مقطع سردي يتعلق بعالم سعيد الجهيني
وزكريا بن راضي يختلف عن الآخر زمنياً، بهيمته التكراري مع سعيد والإرجاع والاستباق،
مع زكريا بن راضي: وما إرجاعات زكريا الخارجية مراراً إلى بصاصين مشهورين في
الماضي، والأعمال التي يقومون بها إلا خير دليل على ذلك. كما أن مختلف الاستباقات
المتعلقة بالبصاصة تكشف لنا البعد الدلالي - زمنياً للأحداث:

«ما نراه مستحيلاً اليوم. يدخل باب الممكن غداً. وغداً بالنسبة لنا دون حد...» ص
201.

من هنا يبدو لنا كون الزمن يصبح قضية وجودية أو فكرية يعيها ويؤمن بها زكريا بن
راضي؛ وهي ذات دلالة عميقة على ما أسميناه «انفتاح الدائرة» كما سنعين ذلك. ويمكن
قول الشيء نفسه بصدد منظور سعيد الجهيني (استباقاته حول الزواج - الأيام السعيدة لا
تتحقق). ونجد عنده منظوراً خاصاً للزمن دالاً على التكرار:

«زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا، ما الذي بقي ليحرص عليه...» 184. تأتي هذه
الوحدة زمنياً، في سياق الترتيب، وضمنها تتحقق مختلف الاستباقات وتستنفذ ذاتها كل
الإرجاعات: انغلاق الدائرة: الهزيمة، إذ لم تبق لها أية وظيفة.

الوحدة السادسة: 10 و - الزيني محتسباً جديداً -

من خلال «المذكرة» أيضاً يُنغلق الخطاب لكن هذا الانغلاق يأخذ منحى جديداً
فالحالة الإيطالي يزور القاهرة من جديد، وقد أصبحت شيئاً آخر:
«لم أر مدينة مكسورة كالآن...» ص 239.

تتضمن هذه الوحدة إشارة زمنية هي (923 هـ) أي بعد مرور وقت على الهزيمة،
ودخول العثمانيين إلى القاهرة، من الحاضر الذي يوطر الوحدة يتم إبراز واقع المدينة
المنهزمة، ومن خلال النداءات العثمانية المتكررة، يتم البحث عن مكان أبي السعود،
والسلطان طومانباي.

ومن خلال مقطوعة سردية ثانية، ينادى على الناس بالأمان، ويخبر عن ظهور الزيني

بركات. وبواسطة إرجاع وحيد يخبر عن جلوس الزيني بركات مراراً إلى الأمير خايربك (الخائن)، وعن غضب السلطان طومانباي على الزيني، يتضح لنا كون الأول تكميلياً، لأنه سابقاً لم نُخبر قط عن هذه العلاقة، وكون الثاني تكرارياً، لأنه عندما أخبر السلطان عن إعتقال أبي السعد الزيني، كان رأيه: ليفعل به ما يشاء وبعد هذا الإرجاع، تكون العودة إلى الحاضر ليبرز لنا من خلالها المنادي الذي يعلن تعيين الزيني بركات نائباً للحسبة من جديد، غير أن الناس كانوا غير آبهين:

(ابتعد النداء الخافت في هواء شاحب) ص 241.

يؤطر الحاضر هذه الوحدة. ومن خلال الترتيب، تأتي المفارقة الإرجاعية ببعديها التكميلي والتكراري لإضاءة مآثم استنفاده، لكن الجديد زمنياً، والذي تنتهي به الوحدة هو المقطع السردى والموقع الزمني الأخيران: إعلان الزيني مُحْتَسِباً جديداً (انفتاح الدائرة). على مستوى بنية الزمن، لا تختلف هذه الوحدة عن الوحدات السابقة في شيء إلا من حيث ترتيبها، وتسلسلها إلى النهاية. إنها مشهد يقدم لنا من خلاله واقع الحال (الهزيمة)، كما يبدو على سحنات الوجوه، وعلى المدينة بأكملها، ومن منظور الرحالة.

IV - خصوصية زمن الخطاب الروائي في «الزيني بركات»

بناء على ما سبق لنا تسجيله في تحليلنا «زمن الخطاب الروائي» من خلال الزيني بركات، على مستوى التمفصلات الزمنية الكبرى أو الصغرى، يمكننا أن نستخلص أهم خصوصيات زمن الخطاب الروائي، وبشكل مكثف، من خلال هذه النقاط:

1 - نربطنا بين ما رأيناه عن التمفصلات الزمنية الكبرى والصغرى انتهينا إلى أن توزيع الزمن ليس اعتباطاً، كما أن لمختلف التبدلات الزمنية دورها الأساسي في ضبط وتنظيم بنية الزمن في الخطاب الروائي، يتبدى لنا هذا بشكل جلي من خلال ما رأيناه بصدد إنفتاح الدائرة. يقوم هذا الانفتاح على أساس اشتغال متميز على زمن المادة الحكائية (القصة). ويمكننا إبرازهم تجسيدات هذا الاشتغال مما يلي:

أ - الترابط: إن جملة من العلاقات التركيبية التي تنتظم في نطاقها المقاطع السردية والمواقع الزمنية، يدخل جزء منها في ما أسميناه بالترابط. ونقصد بذلك نوعاً من العلاقة التركيبية بين وحدة وأخرى، رغم ما يميز كل واحدة عن الأخرى. وهذه العلاقة علاقة ربط، بحيث لا نحس أي فاصل بينهما. ويلعب هذا الترابط زمناً دوراً كبيراً في لحمه عناصر الخطاب. وخلال التحليل كنا نقف بين الفينة والأخرى على هذه العلاقة، وسنحاول الآن إعطاء مثال لذلك إنطلاقاً من علاقة الوحدة الأولى (1 هـ) والوحدة الثانية (2 أ) لتوضيحها.

تم 1 هـ في 922 كاستباق. لكننا في الإنتقال منها إلى الوحدة الثانية باعتبارها بداية الحكى الأصل، لا نحس بأي فاصل زمني (!) لأن العلاقة التركيبية بينهما تقوم على الترابط.

إن «1 هـ» يجري حاضر إنجازها في ليلة مضطربة تشكل امتداداً ليوم مضطرب. لكن الوحدة «2 ب» تبتدىء «في أول النهار»، مما يشي كون بداية هذا اليوم هي امتداد لليلة السابقة رغم تباین العلاقة بينهما ترتيباً، إذ الأولى مُقَارَقة. إضافة إلى هذا الرابط، نجد عُصراً آخر غير زمني، يلعب دوراً كبيراً في هذا الترابط، وهو عنصر «تيمي»: الاضطراب. في الوحدة الأولى تام المدينة على اضطراب تتجلى أسبابه في وضعية الحرب المعيشة،

واختفاء الزيني . وفي الثانية تستيقظ على اضطراب يكمن في اعتقال علي بن أبي الجود (المحتسب السابق)، ونجد لهذا العنصر التيمي دوراً كبيراً - دلاليًا - في ترابطه والعنصر الزمني الذي يعمق جانبه الدلالي . وكثيرة هي أنواع هذه العلاقة على مستوى الوحدة أو المقطع أو المقطوعة في علاقاتهم جميعاً بالمواقع الزمنية .

ب - التضمين: يبرز لنا هذا العنصر كشكل للعلاقة التركيبية بين الوحدات والمقاطع من خلال استيعاب وحدتين متباعدتين وحدة أو عدة وحدات كما نلاحظ في علاقة الوحدة (2أ) بالوحدة (7ج) . إنهما معاً تتضمنان خمس وحدات، تأتي جميعاً مترابطة زمنياً من خلال الترتيب (3أ - 4أ - 5أ - 6أ - 6ب) . ومن الوحدة 2أ (الاعتقال) إلى الوحدة 7ج تمر ستان تأتي متضمنة بين الموقعين أ وج . ويمكننا كتابة الترابط والتضمين بهذا الشكل :

1 هـ ← 2 أ ← 3 أ ← 4 أ ← 6 أ ← 6 ب [7 ج .

إن العلاقة بين 2 أ و 7 ج علاقة ترابطية تتضمن مجموعة علاقات ترابطية، نجد بعضها يقوم على أساس تجاوزي يحدد الترابط والتضمين معاً . وهو ما نجده أساساً في علاقة «6أ» ب «6ب» حيث نلاحظ وحدة واحدة تتوزع على موقعين زمنيين (912 - 913) مترابطين أ ← ب ، لكن يتضمن أحدهما «أ» والثاني «ب» هكذا :

... ← 6 أ ← [6 ب] ← [7 ج .

ج - الترابط التضميني: في هذا النوع لا نجد شكل العلاقة يأخذ الطابع الذي سجلناه في التضمين ونجده بالأخص في الوحدة الثامنة والتاسعة، إذ فيهما يتم الانتقال بواسطة الترابط: 7 ج ← (8 د ← 9 هـ)، بما أن الترتيب هو الذي يضمه . لكن حذف الإشارات الزمنية بين «ج» و «د» (ست سنوات) وبين «د» و «هـ» يجعلنا بالضرورة أمام فواصل زمنية كما رأينا في الانتقال من (1 هـ) إلى (2 أ) . لكن هذه الفواصل الزمنية، نستشعرها بسبب الطابع الذي يتحقق به الانتقال: الترابط التضميني . ونقصد به الترابط الذي يتحقق بواسطة التضمين الذي تصبح فيه العلاقة إزدواجية بين هذه الوحدات . ويكمن هذا النوع بالأخص في ظهور العديد من المفارقات تتم داخلهما معاً، على شكل إرجاعات تكميلية أو إستباقات داخلية تتحقق داخل الوحدة نفسها، أو في الوحدة التي تليها، عكسما رأينا سابقاً، حيث لا تتحقق الاستباقات غالباً إلا بتجاوز وحدة غيرها، ومواقع زمنية عديدة . ومن خلال تكرار الإرجاعات وتحقق العديد من الاستباقات يحصل الترابط التضميني الذي يجعلنا على مستوى المدة بازاء ما أسميناه «بالمشهد التلخيصي» الذي يبدأ إيقاع السرد يأخذ فيه نوعاً من السرعة، وبالأخص في الوحدة الثامنة . وعندما نرى تحقق الاستباق الذي ابتدأنا به الخطاب (1 هـ) يأخذ كل مداه في الوحدة التاسعة (9 هـ)، يبدو لنا هذا بجلاء كما يمكن توضيح ذلك

من خلال هذا الشكل الذي يستوعب كافة العلاقات :

1 هـ ← [2 أ ← 3 أ ← 4 أ ← 5 أ ← 6 أ ← [6 ب ← 7 ج ← [8 د ← [9 هـ 10 و .

من خلال هذا الشكل التقريبي يمكننا أن نعين إلى حد ما أشكال العلاقات التركيبية التي تنتظم بواسطتها مختلف العلاقات، تقريباً، على مستوى إرتباط الوحدات والمواقع، وهي الأشكال التي حاولنا الإشارة إليها جزئياً من خلال المقاطع والمقطوعات الدنيا والمواقع الزمنية، وهي تأخذ هذه الأشكال .

2 - إن العلاقات التركيبية بين الوحدات والمقاطع يشكل إحدى خصوصيات بنية الزمن في الخطاب الروائي في الزيني بركات والتي يمكن معاينة بعضها الآخر خلال ربطها بين مختلف أنواع العلاقة بين زمن القصة والخطاب ضمن الترتيب والمدة والتواتر، وذلك من خلال تقسيمنا بنية الزمن إلى ثلاث حركات رئيسية، نضبط من خلالها سرعة الحكوي (Vites-se du récit) تمييزاً لها عن إيقاعه :

أ - البطء : ونجده يمتد بالأخص من الوحدة الأولى إلى الوحدة السابعة فخلال سنتين تتحدد بين 912 هـ و 914 هـ، ونجدنا أمام سعة الصفحات، وكثرة المؤشرات الزمنية :

3 سنوات : مسجلة من خلال 5 أشهر و 6 أيام، ويومان منها مسجلان 7 مرات . ولقد سبقت الإشارة في تحليل التمهصلات الكبرى إلى أن سنة 912 هـ تحتل الرقم الأساسي . تقابل هذه السنوات الثلاث 84 صفحة . وهي كثيرة جداً بالقياس إلى صفحات الخطاب في علاقتها بالسنوات الأخر . إننا في الحركة البطيئة أمام «مشاهد» يؤطرها الحاضر ولمفارقاتها على مستوى الترتيب وظيفية الإعلان أو التفسير، وهما إلى حد بعيد تتناوبان، وإن كان الإرجاع هو المهيمن . كما أنها جميعاً يتضمنها الحاضر (حاضر الإنجاز) الذي يُحدده على مستوى التواتر، الحكوي المنفرد (الاعتقال - التعيين - الخطبة - الإعدام . . .) .

ب - السرعة : ونجدها بالأخص في الوحدة الثامنة (اللقاء) 8 د، التي لها خصوصيتها في مجرى الخطاب . فكل الأحداث التي تمت مراكمتها في المشاهد البطيئة، تبدأ هنا حركات تفاعلها وصراعها على مستوى تميز الشخصيات والأحداث في علاقاتها . فنحن هنا أمام ست سنوات، لا تسجل خلالها إلا سنة واحدة (920 هـ) وشهر واحد (ذو القعدة)، وما خلاف ذلك من المؤشرات يسجل ضمناً في المقاطع أو المقطوعات . وعندما نقارن هذه السنوات جميعها بما وسعته من صفحات نجدنا أمام 63 صفحة . وعندما نقارن عدد السنوات بالصفحات هنا بما رأيناه أعلاه يتضح لنا الفارق بينهما . يفترض تسجيل سنة واحدة وسط ست سنوات أننا أمام حذف كما يفترض تسجيل كل هذه السنوات في هذه الصفحات إننا

أمام «تلخيص». لكن واقع الخطاب لا يجعلنا نسلم بهذه التصنيفات، لأننا نظل دائماً بازاء «مشاهد» لكنها هنا «تلخيصية»، وذلك لسبب بسيط يكمن في كوننا تواترياً لسنا أمام هيمنة المفرد الحكائي، ولكننا أمام التكراري من خلال تعدد الصيغ. وهذا ما يجعلنا، على مستوى السرعة أمام تحديد التكرار لمختلف المفارقات التي تتوازي فيها الإرجاعات بوظيفتها التفسيرية، والإستباقات بوظيفتها الإعلانية غالباً، لكن أكثر هذه الإستباقات يصبح بعضها يتحقق ضمن الوحدة ذاتها. هذا علاوة على الطابع الإزدواجي الذي تصبح تأخذه هذه المفارقات أو بعضها والذي لم نعثر عليه سابقاً، مثل الإرجاع الإستباقي أو الإستباق الإرجاعي.

ج - التسريع: ويظهر لنا بالأخص في الوحدة التاسعة (الحرب / الهزيمة) 9 هـ، التي نجدها تسجل سنة 922 هـ من خلا شهرين (جمادى الأولى وشعبان) من خلال يوم واحد سُجِّلَ مرتين. وبسبب العلاقات التركيبية التي تحدثنا عنها بين الوحدات، نجد هذه الوحدة تغطي سنتين تقريباً تبتدىء بنهاية 920 وعلى مدى 51 صفحة. هنا أيضاً لا نجدنا حسب الافتراض أمام حذف أو تلخيص، ولكن أمام «مشاهد تلخيصية تكرارية»، حيث مختلف المفارقات تستنفذ كافة وظائفها إلا الجزئية على مستوى الاستباقات التي تطرح في هذه الوحدة أو السابقة عليها، إذ تتحقق هنا أو يبدو لنا تحققها في الوحدة الأخيرة. أو بعض الإرجاعات التكميلية التي سبقت رؤيتها في الوحدة الأولى كاستباق (لماذا قال سعيد الجهنيني إن الزيني اختفى لاستنفار الخلق)، أو بعض الإرجاعات الخارجية والمتعلقة غالباً بذكر بن راضي (ماضي البصاصة التي ظل يتمثل في هذه اللحظات المضطربة). باستنفاد كل التبدلات الزمنية المتصلة بالخطاب في علاقاتها بالأحداث دورها، يتخذ المشهد طابع التلخيص لكن التكراري بالأخص. وهذا هو الطابع الذي يُسرِّع وتيرة الزمن على مستوى السرد. وكما إبتدأ الخطاب بالمشهد ينتهي بالمشهد أيضاً في الوحدة الأخيرة (سنة واحدة 923 بدون أي مؤشر) في ثلاث صفحات، لذلك نجدنا أيضاً هنا أمام الطابع نفسه: إنتهى كل بياض، وأخذ الإيقاع كل وتيرته التسريعية نحو النهاية: التعيين الجديد (انفتاح الدائرة). وهكذا عندما سنحاول الربط بين ما قلناه عن العلاقات التركيبية والحركات الرئيسية تتضح لنا العناصر الأساسية التي تعطي لبنية زمن الخطاب الروائي خصوصية في الزيني بركات:

1/ الترابط - 2/ التضمين - 3/ الترابط التضميني.

1/ المشهد (البطء) - 2/ المشهد التلخيصي (السرعة) - 3/ المشهد التلخيصي

التكراري (التسريع).

3 - إن لتعدد الصيغ والروايات السردية دوراً كبيراً في هيمنة المشاهد، وبما إن خطاب الراوي ليس إلا واحداً من هذه الخطابات، وليس هو الذي يوظف الخطاب في كليته إلا

«نظرياً»، فإننا هنا لا نلمس ما اعتدنا عليه زمنياً في الخطابات الروائية من تلخيص ووقف وحذف وما شابه هذا من العناصر الزمنية، وعندما نجدها كالوقف مثلاً، فإننا نجده يتضمن بعض الخطابات وفي أجزاء منها فقط دون غيرها، بشكل لا يكاد يثير الاهتمام. فكل صيغة خطابية تناظر زمنياً في علاقتها التركيبية بالأخرى - ضمناً أي من خلال ما يمكن أن يلمسه المحلل، مستعيناً ببعض القرائن. أما من خلال ما يمكن رصده عبر كل وحدة وما تتضمنه من مقاطع ومقطوعات فلا يمكن إلا استنتاج كوننا أمام مشاهد تأخذ سياقات خاصة في مجرى الأحداث، وإيقاعات زمنية متميزة في ترتيب الوحدات في علاقتها بالمقاطع، أو من خلال العلاقة بين زمن القصة والخطاب.

ما يؤكد هذا هو ما نعانیه بجلاء على مستوى ما يسميه فاينريش «بوضعية القول»، حيث من خلال تعدد الصيغ (ووضعية القول ذات صلة جوهرية بصيغ الخطاب) نعاين في الخطاب الذي بين أيدينا تساوي الخطاب التقريري والخطاب الحكائي والمثال الذي قدما في الوحدة الأولى يوضح لنا ذلك بجلاء. فالخطاب التقريري يتضمن الحكائي، كما أن الحكائي يتضمن التقريري بحسب منظورات القول أو المفارقات الزمنية وأنواع تبدلاتها. هذا التساوي الذي نرصده على مستوى الصيغة كما سنلاحظ في الفصل الثاني بين الخطاب المسرود والخطاب المعروض يبين لنا بدوره إحدى خصوصية الزمن في الخطاب الروائي هنا. كما تتجلى في نوعية العلاقة بين الحاضر واللاحاضر، أو بتعبير آخر، في تقديم المادة الحكائية زمنياً كشيء مضى، أو ترهينها، من خلال اشتغال الخطاب على القصة زمنياً. في هذا الصدد يمكن أن نستعيد السؤال الأساس الذي طرحنا بصدد التمييز بين المستوى الأول (الإبراز)، والخلفية عندما انتهينا من تحليل الوحدة الأولى من خلال طرحنا السؤال عن علاقة الحاضر والتكراري وغير التكراري؟.

يمكننا الذهاب جواباً على هذا السؤال إلى إن الخلفية ظلت تتعلق باللاحاضر، لكن في صيغة أخرى أصبح يبدو لنا من خلالها الحاضر تكرارياً عكسما رأينا في الوحدة الأولى التي جاءت كاستباق، وكان ضرورياً، وإلا فقدت وظيفتها «الإعلانية». أن يكون اللاحاضر فيها تكرارياً لإبراز المسافة بين الحاضر (التقريرى) واللاحاضر (الحكائي). ويكون الحاضر غير تكراري (ما يجري الآن لم يسبق له مثيل)⁽¹⁾. لكن وبعد استنفاد كل التبدلات الزمنية دلالاتها بانتهاء الحكائي لا تبقى للمسافة بين التقريرى والحكائي أية مسافة، فكل شيء مستنفذ، ولم يبق مجال للبياض، بانتهاء مختلف المفارقات. لذلك يبدو لنا الحاضر (المبرز) تكرارياً، والماضي تكرارياً أيضاً، بل إن هذا الحاضر يكرر ما جاء في ذلك الماضي لكن بشكل أكثر حدة، كما يبدو لنا ذلك جلياً من خلال هذا التقسيم على مستوى أحداث

(1) أنظر تحليلنا للوحدة الأولى.

القصة بموازاة ما رأيناه بخصوص العلاقات التركيبية والحركات الرئيسية:

- (1) علي بن أبي الجود ← الزيني بركات ← الزيني بركات
- (2) زكريا بن راضي ← زكريا بن راضي ← زكريا بن راضي .
- (3) الغوري ← الغوري - طومانباي ← العثمانيون .

لا مسافة بين 1 و 3 أفقياً ولا عمودياً، فزكريا بن راضي (لنأخذه نموذجاً) كبير البصاصين أيام علي أكثر البصاصين مهارة. وهو الأهمر بالتقائه مع الزيني بركات الذي خُلِقَ كلاهما للآخر (تطبيق مخططات الزيني الخارقة)، وهو الأهمر جداً عندما سيحتك بكبير بصاصي العثمانيين الذي استطاع النفاذ إلى القاهرة في حين لم ينجح زكريا بن راضي في ذلك: إنفتاح الدائرة.

4 - يظهر لنا بجلاء ما قلناه عن التكراري في الحاضر واللاحاضر في دلالة الشتاء والصيف كمؤشرين زمنيين لا يخضعان للزمن الكروني :

فالشتاء طويل 8 سنوات 168 صفحة .
والصيف قصير 2 سستان 65 : صفحة .

ودلالة الشتاء في ارتباطها بالسواد (لباس السلطان شتاء) عميقة في ارتباطها بالقمع المسلط على الرقاب، مدة طويلة. لكن الصيف قصير (لباس البياض بمجيء الحى) دلالياً، لان شتاء أطول سيعقبه بدخول العثمانيين القاهرة كمحتلين .

5 - وتظهر لنا أخيراً خصوصية أخرى للزمن في الخطاب، وتضاف إلى ما أثرناه لإبراز إنفتاح الدائرة وتكمن في كون الزمن يأخذ بعداً تيمياً، وبالأخص من خلال الخطابات المسرودة المتعلقة بمنظور زكريا بن راضي كشخصية محورية .

يتجلى لنا هذا البعد التيمي للزمن فيما يتخلل الخطاب من تأملات تتعلق بالزمان. ولقد سبق أن سجلنا كون سعيد الجهيني يتحقق جزء أساسي من استباقاته ذات الطبيعة الإستشرافية (الحلم بالزواج من سماح - تغير الأوضاع بمجيء الزيني بركات بن موسى إلى الحكم . . .) لكن كل هذه الإستشرافات بما لها من دلالة ذاتية (تتعلق بسعيد)، وموضوعيته (تتصل بواقع الشعب الذي ينحاز إليه سعيد الجهيني)، لا تتحقق عملياً لكن الذي يتحقق منها يرتبط بواقع القمع فقط .

أما من منظور زكريا بن راضي، فالزمن تطوري :

- الماضي ← الحاضر ← المستقبل ← . . .

فالحاضر يأتي تطورياً لإستيعاب كل خبرات الماضي، لكنه يتجاوزها في آفاق

المستقبل الذي يعد بإمكانات تطويرية أهم. هذا التصور التطوري للزمن يمارس عملياً وواقعياً، ويكون المستقبلي هو رائد هذا الحاضر ومحدده في آن. ولقد أتينا من خلال التحليل على بعض النماذج التي تجسد هذا التصور. وما كثرة الإرجاعات الخارجية من منظور زكريا بن راضي والمتمحورة حول البصاصة إلا خير دليل على ذلك، كما أن إجتمع بصاصي العالم لتدارس الوضع البصاصي القائم، ومحاولة تطويره، إلا ليس رافداً من روافد هذا التصور المستقبلي للزمن.

«ما نراه مستحيلاً اليوم. يدخل باب الممكن غداً. وغداً وبالنسبة لنا دون حد» 201، إن هذا التصور يكشف لنا البعد الدلالي للزمن كتيمة في الخطاب الروائي. ويتضافر هذا العنصر مع غيره من العناصر، ليقدّم لنا بجلاء، خصوصية الزمن في الزيني بركات، ودلالات إنفتاح دائرة زمن الخطاب الروائي. وسنعود في الفصل الخاص بزمن النص إلى الحديث عن الدلالات التي تحملها التجربة الزمنية في الخطاب الروائي من خلال قراءة النص على ضوء باقي الجوانب التي سنقوم بتحليلها: الصيغة والرؤية السردية والصوت السردى.

٧ - الزمن بين الخطاب التاريخي والخطاب الروائي

حاولنا في تحليلنا زمن الخطاب الروائي في «الزيني بركات» ، الوقوف على خصوصيات زمن الخطاب الروائي ، كما تبدى لنا ذلك ، من خلال إبراز التمفصلات الزمنية الكبرى والصغرى . لكن هذه الخطوات لا يتأتى لنا السير عليها في تحليل زمن الخطاب التاريخي الكلاسيكي ، ولهذا فإننا سنقتطع مقطعاً تاريخياً ، ونحاول من خلاله إبراز عنصر الزمن بشكل عام يتيح لنا فقط إمكانية المقارنة ، كما أنه سيسعفنا عندما نروم تحليل النص الروائي في الزيني بركات ، في علاقته بالنص التاريخي الذي يستمد منه مادته الحكائية . لذلك فالنص الذي سنقارب هنا مأخوذ من كتاب محمد بن أياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور» . ويتعلق بإحدى الفترات التاريخية التي تجري فيها أحداث قصة خطاب الزيني بركات :

«ثم دخلت سنة اثنين وعشرين وتسعمائة المباركة فكان مستهل المحرم يوم الاثنين وكان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره (. . .) ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان في الميدان وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا إلى دورهم ثم في ذلك اليوم نزل الزيني بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباي والي القاهرة ، وأشهبوا المنادة في القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكسر الكلام وأن كل شيء على حكمه (. . .) وقد تقدّم القول بأن المماليك أثاروا فتنة كبيرة حتى حق منهم السلطان (. . .) وقد تقدم القول بما كان سبق ذلك . فلما أن طلع السلطان إلى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى في القاهرة بما تقدم ولم يفعل شيئاً مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، شقت عليهم هذه المنادة ، وأشيع بإثارة هذه الفتنة ثانياً ، وكثر القيل والقال بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بإبطال المشاهرة والمجامعة . فلما نودي بأن كل شيء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك . وفي يوم الثلاثاء ثاني الشهر جلس السلطان في الحوش وعرض أغاوات الطباقي ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : لا

تسمعوا للمماليك القراصنة كلاماً ، لأنهم يرمون بيني وبينكم ولا تشمتوا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا (. . .) . ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة ، وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل في ذلك اليوم ونادى بأن كل شيء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعفران في عمائمهم وشق في القاهرة ، تنكد المماليك الجلبان لذلك وقالوا لم يطلع بادينا من الاتفاق شيء وخلق جماعته بالزعفران جكاراً (نكاية) فينا والله ما نرجع حتى نقتله . وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان سلم لنا ابن موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شيء في الأسواق . وفي يوم الأحد سابعه توفي الشرفي يحيى ابن القاضي صلاح الدين بن الجيعان وكان شاباً حسن الشكل ضخم الجسد ومات وله من العمر نحو عشرين سنة . وكانت جنازته حافلة وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزيني بركات بن موسى . وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوق أرباب البضائع وضربهم ضرباً مبرحاً وأشهرهم في القاهرة وأشهر المنادة (. . .) وفي يوم السبت ثالث عشرة رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر . . . »⁽¹⁾ .

نلاحظ بجلاء من خلال هذا المقطع الذي اجتزأناه من الخطاب التاريخي الطابع الخاص والتميز الذي ينطبع به الخطاب التاريخي الكلاسيكي . يظهر لنا هذا الطابع من خلال النقط التالية :

1/ وجود إشارات زمنية كثيرة :

- سنة 922 هـ .

- الاثنين فاتح محرم : تهنئة السلطان بمقدم العام الجديد .

- الثلاثاء 12 محرم : مهاجمة السلطان المماليك الذين يكيدون للدولة .

- الأحد 7 محرم : وفاة بن القاضي صلاح الدين .

- السبت 13 محرم : توسيط السلطان خمسة أشخاص من المماليك .

إن الزمن الكرونولوجي هو المحدد والمؤطر . تتنظم هذا الزمن ماجريات سنة (حول) . ومع بداية كل سنة يتم تسلسل الأيام والشهور إلى أن تنتهي السنة ، لتبدأ سنة جديدة .

2/ في الانتقال من مؤشر زمني إلى آخر لا نجد الترابط بين الأحداث إلا عاماً جداً ، لأن ما يهم المؤرخ التقليدي هو تسجيل الحدث الأساسي ، ولا يبدو الربط إلا من خلال عناصر تكرارية للحدث ذاته أو لاستمراره . وغالباً ما يأتي هذا على شكل إرجاعات . والخطاب التاريخي التقليدي ، يطفح بهذه الاسترجاعات الداخلية في أغلبها ، والتي يتم

التصريح بها من خلال بعض هذه الصيغ : «وقد تقدم القول...» . هذا الرابط لا يتعلق بكل الأحداث ، ولكن بالأساسي منها . وما هو أساسي متمحور بالخصوص حول «السلطان» . نلاحظ هذا بجلاء من خلال كل موقع زمني جديد:

- يوم الاثنين جلس السلطان . . .
- وفي يوم الثلاثاء جلس السلطان . . .
- وفي يوم السبت رسم السلطان . . .

والى جانب السلطان نجد الشخصية المحورية الثانية التي تليه في التراتبية الاجتماعية .

قد يكون هناك حذف عدد من الأيام دون أية إشارة إلى ما جرى فيها . ولا يبدو لنا هذا الحذف إلا برصد المواقع الزمنية : الاثنين ← الثلاثاء ← (حذف خمسة أيام) الأحد ← السبت (حذف...) .

وهكذا نلاحظ غياب علاقة تركيبية بنوية داخل الخطاب التاريخي الكلاسيكي . فالحدث المسجل يسجل لذاته ، في شبه استقلال عن غيره . ويمكن الترابط بينها في :

- علاقة خارجية تتصل بالشخصيات التاريخية - المكان - الزمان التسلسلي . . .
- علاقة داخلية وتكمن في العديد من الإرجاعات التي تثبت أن بعض ما يجري الآن سبق الحديث عنه .

3/ إلى جانب كثرة الإشارات الزمنية التتابعية ، وما يتخللها من حذف ، ونوعية العلاقة بينها ، نجد خصوصية أخرى للخطاب التاريخي التقليدي وتكمن في كونه خطاباً حكاياً . يبدو لنا ذلك من خلال كون المؤرخ على مسافة من الأحداث التي يقدمها لنا كشيء «مضى» وانتهى . إنه في تقديري هو الخطاب الذي يمكننا أن نتلقاه بكامل الارتقاء كما يلاحظ ذلك فاينريش ، وإن كان يعمم هذا الحكم على كل خطاب حكاوي . لكن الرواية مثلاً كخطاب حكاوي قد لا نتلقاها دائماً بالشكل الارتقائي ، إذ نجد العديد من الخطابات الروائية لا تخلو من توتر (tension) كما نلاحظ في الخطاب الروائي الذي بين أيدينا .

إن الخطاب التاريخي التقليدي حكاوي إلى أبعد حد لأن صيغة الفعل الماضي بدلايتها النحوية في الماضي هي المهيمنة . فالمؤرخ يضعنا على مسافة من الماضي المحكي حتى وإن كان هو شاهداً الأحداث المحكية . لذلك فهو عكس كاتب المذكرات مثلاً . ، كما رأينا مع الرحالة الإيطالي :

مجموع الأفعال التي يضمها هذا المقطع هو 72 فعلاً . وعندما نقسمها بحسب الصيغة كما رأينا للتمييز بين التقريري والحكائي كما فعل فاينريش بالنسبة إلى الفعل الفرنسي ، نلاحظ farkاً أساسياً بين صيغة «فعل» و «يفعل» :

فعل = 59 مرة . يفعل 13 مرة .

عندما ننظر في صيغة «فعل» بهذه النسبة التي تشكل 81,09% نجدها خالصة للماضي ذي الطبيعة الحكائية: (دخلت - جلس - نزل . . .) وكلها أفعال تدل على حركة تقع في الماضي . وعندما تضاف إلى هذه الأفعال الخوالب الخاصة بالزمن (كان - بات - أصبح) يدل ذلك دلالة قوية على الماضي .

أما صيغة «يفعل» فيمكننا تقسيمها من خلال هذا المقطع قسمين رئيسيين :

1 - خالصة للماضي ، وذلك بدخول بعض الأدوات التي تجعلها خالصة للماضي : (لم يفعل شيئاً مما وقع عليه الإنفاق - لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شيء . . .) .

2 - تتم في الماضي ، لكنها تأخذ أشكالاً زمنية أخرى يظل الماضي هو الذي يؤطرها وينقلها إلى الماضي ، وتتخذ شكل المستقبل الذي تم في الماضي (futur antérieur) .

«أصبح فأمر بأن ينادي . . . لا تسمعوا للمماليك كلاماً . . .» أو الدائم الذي تم بدوره في الماضي «يرمون بيني وبينكم . . .» .

و غالباً ما نرى هذين الشكلين الأخيرين مرتبطين بأقوال الشخصيات ، ففيها تهيمن صيغة «يفعل» ، وتأخذ إما شكل المستقبل الإرجاعي أو الدائم :

وقال : «لا تسمعوا . . . يرمون . . . ولا تسمتوا . . .» .

قالوا : «لم يطلع . . . ما نرجع حتى نقتله . . . سلم لنا ابن موسى نقتله . . .» .

من خلال هذه الصورة ، تتضح لنا خصوصية زمن الخطاب التاريخي التقليدي ، في تعاطيه مع الأحداث . إنه تعاط حكائي . ويختزل هذا هيمنة الترتيب على مستوى العلاقة بين المادة التاريخية ، والخطاب التاريخي . رغم ما يعرف هذا الترتيب على المستوى ذاته من مفارقات . وضمن هذه المفارقات نجد بالأخص الإرجاعات الداخلية الإحالية التي تجعل «منظور القول» كما يسميه فاينريش يتسم بأهم خاصيات الخطاب الحكائي .

عندما نقارن بين زمن الخطاب التاريخي ، وزمن الخطاب الروائي نجدنا أمام مسافة كبيرة تفصل بينهما :

1 - الخطاب التاريخي الكلاسيكي حكائي ، والخطاب الروائي كما في الزيني بركات يزاوج بين التقرير والحكائي .

2- تهيمن في الخطاب التاريخي الكلاسيكي مفارقة الإرجاع . بينما في الزيني تأتي كل مفارقة في سياق زمني خاص لتقدم دلالة خاصة ومتميزة.

3- زمن الخطاب التاريخي الكلاسيكي تسلسلي يراعي المنطق الخارجي لتتابع الأحداث ولذلك يعطي وظيفة خاصة لهذا الخطاب تتجلى في تقديم العبرة ، والاستفادة من أخبار ما مضى . أما زمن الخطاب الروائي هنا ، فمفتوح على الزمان بشكل متميز يمكننا أن نرصد دلالاته في علاقته بزمن الكاتب والقارئ ضمن ما نسميه زمن النص ، بالإضافة إلى خصوصياته التي تتجلى من خلال نوعيات علاقة الخطاب بالقصة على مستوى الزمن

VI - الزمن في الخطاب الروائي العربي

بعد أن وقفنا على الزمن في خطاب الزيني بركات بتفصيل . نحاول الآن معاينة تجلي البعد الزمني في المتن الذي جعلناه مدار تحليلنا في هذا البحث بإجمال، لتتاح لنا إمكانية الوقوف بوجه عام ، على الكيفية التي اشتغل بها الخطاب الروائي العربي على الصعيد الزمني ، تفصيلاً وإجمالاً .

يتناول هذا المتن الخطابات الروائية التالية :

- 1 - أنت منذ اليوم : تيسير سبول ط 1 ، 1968 .
- 2 - عودة الطائر إلى البحر : حليم بركات ط 1 ، 1969 .
- 3 - الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل : ط 1 اميل حبيبي 1974 .
- 4 - الزمن الموحش : حيدر حيدر ط 1 ، 1973 .

إننا في هذا التحليل سوف لن نحيط إلا بالتمفصلات الزمنية الكبرى ، وبالطوابع المهمة التي تثير انتباهنا على الصعيد الزمني أكثر من غيرها . وذلك التزاماً بالخطة التي رسمنا على ضوء الهدف المحدد الذي يمكننا من الانتقال إلى النص للكشف عن بناء النص زمنياً على المستوى الدلالي . لذلك ، فإننا سنعاين زمن الخطاب من خلال كل رواية من الروايات الأربع على حدة ، وفي التركيب ، نعمل على استخلاص خصوصية الزمن في المتن - مع ربطه بالزمني بركات - الذي نتناول جملة وتفصيلاً .

1 - أنت منذ اليوم

على عكس الزيني بركات يتقدم إلينا خطاب «أنت منذ اليوم» خلواً من أي مؤشر زمني بمعناه العام ، أي تحديد السنوات والأشهر والأيام ، بالدقة الزمنية التي تمكننا من تحديد زمن القصة تحديداً دقيقاً ، إن المؤشر الزمني الوحيد المتصل بزمن القصة نجد في آخر الخطاب ، من خلال الإشارة إلى «10 حزيران» في الوحدة التاسعة التي ينتهي بها :

«في حزيران ، في العاشر من حزيران هبطت إلى نهر الأردن لأرى ما الذي حدث لبلادي...» ص 57 .

بهذا المؤشر يمكننا تعيين نهاية القصة ، غير أن بدايتها وإن لم تكن محددة بالسنوات ، يمكننا تحديدها بمرحلة من حياة «الشخصية المحورية» التي تدور القصة وأحداثها حولها : إنها شخصية «عربي» المزوجة الوظيفة في الخطاب ، إذ هي الراوي والبطل في آن معاً.

نفتح الخطاب الروائي على «مشهد» في القرية ، حيث الراوي - الطفل يقف بالنافذة ينظر أباه واقفاً بباب المطبخ ويديه العصا يتربص بالقطة ليقتلها . وبعد ذلك يرى الطفل القطة تنتفض وتنفض مزيداً من الدم من أنفها وتموت . وفي صحن الدار تتحلق الأسرة تنتظر المدفع وقت الغروب .

هذا المشهد يتصل بطفولة الراوي - الشخص ، وهو في القرية ما يزال يعيش تحت ظل والديه وزمناً في رمضان لكننا في المقطع السردى الموالي لهذا المشهد نجد عربي مع زميله صابر يتحدثان وهما في الجامعة عن الحفل الذي سيقمه الحزب . وبعد قرارهما عدم الذهاب إليه يتوجهان إلى أبي معروف لتناول الخمر ذات خريف . وفي المقطع السردى الثالث نجدنا أمام اليوم الموالي للمشهد الأول حيث يرى عربي الطفل رأس القطة مفصولاً عن جسدها وهو يخرج إلى المدرسة . ومنه إلى المقطع السردى الرابع لنجدنا أمام موقع زمني مختلف عن سابقه وامتداد لما رأيناه حول عربي ورفيقه صابر : فخطباء الحزب يحتفلون ويلعنون من خلال الخطب الرنانة أعداء الأمة ، بينما عربي وصابر يحسوان الخمر عند أبي معروف . وفي الحان يتحدث عربي لرفيقه عن طفولته وأماسي رمضان في القرية وعن قسوة الأب تجاهه وأمه ومصرع القطة . وعبر أحاديثهما التي تأتي عن طريق صيغة الخطاب المعروض غير المباشر ، وفق هذا التقطيع الزمني نتعرف على طفولة كل من عربي ورفيقه صابر ، ثم عن طريق صيغة المسرود :

«تحدث عن مصرع القطة ، وتحدث عن أماسي رمضان في القرية وعن أبيه النحيل ذي العينين كعيني صقر» ، سرد قصة الخناجر الست ، والحزام الجلدي العريض الذي يشبه عندما يضرب زوجاته . . . » ص 10 .

إن هذا المقطع يأتي ، كما نلاحظ من خلال الراوي (الناظم الخارجى) الذي يحكى بضمير الغائب ، وبواسطة التلخيص على صعيد المدة يقدم لنا هذا المقطع في الموقع الزمني الذي يجلس فيه عربي إلى صابر عند أبي معروف .

هدفنا من تقديم هذه الصورة محاولة تحديد بدء زمن القصة بربطه بمرحلة من مراحل حياة «الشخصية المحورية» : عربي . وهكذا يمكننا استخلاص أن الحكى الأول يتصل بشباب عربي . وهو في الجامعة وافتتاح الحكى زمنياً بمرحلة من الطفولة لم يأت إلا

«استرجاعاً» ضمن حاضِر القصة المُرَّهَن في الخطاب وهو جلوس عربي ، وصابر في بار أبي معروف. لكن هذا «الاسترجاع» (الذي نضعه دائماً - هنا - بين مزدوجين) يأخذ بعده الطبيعي في «الترتيب» ، باعتباره كحدث سابقاً زمنياً. إننا نتنقل من الماضي (لحظة من لحظات الطفولة) إلى الحاضر (عربي / صابر) لكننا عندما نتبين أن المشهد الأول سيعاد حكيه في جلسة صابر - عربي ، نُدْرِك أنه سابق زمنياً على صعيد القصة وترتيباً على صعيد الخطاب .

وهذا الطابع «المزدوج» لهذا الحكي (المشهد) ستكون له أهميتها القصوى في علاقات القصة بالخطاب على طول الرواية التي يسمها هذا الطابع .

يمكننا أن نستخلص الآن، أن «المشهد» الأول (جلسة رمضان) ليس هو الحكي الأول . وهذا الحكي يمكننا تحديده من خلال جلسة عربي وصابر ، وفي هذه الحال سنعتبر «المشهد الأول» استرجاعاً ، وأن قصة الخطاب تتصل بمرحلة شباب عربي وهو في الجامعة وتنتهي بـ 10 حزيران هذا من جهة .

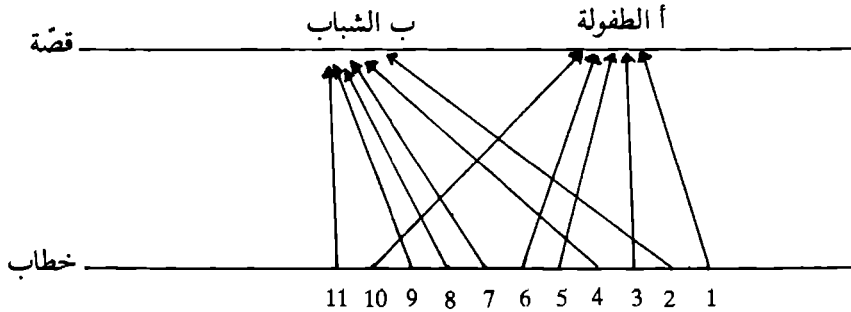
ومن جهة أخرى يمكننا أن «نستخلص» أن المشهد الأول هو الحكي الأول وأن التناوب الذي يحدث بين المرحلتين (الطفولة / الشباب) هو «لعِب» زمني له بلاغته الخاصة الدالة على «المطابقة» وأن «استرجاع» قصة القطة ليس مفارقة زمنية (استرجاع) ولكنه يدخل في نطاق «التواتر» ونُسَمِّيه «الحكي التكراري» (Répétitif). يظهر لنا هذا في كون المشهد الأول يحكي - زمنياً - من خلال «المشهد» (Scène) وسردياً بضمير المتكلم (الفاعل الداخلي) . أما عندما يتم استرجاعه في جلسة عربي / صابر ، فإنه زمنياً «تلخيص» (Sommaire) وسردياً بضمير الغائب (الناظم الخارجي) وفي هذه الحال سنعتبر زمن قصة الخطاب يمتد من الطفولة إلى مرحلة شباب عربي وانتهاء بـ 10 حزيران .

إنه ليس بحثاً - عبثاً - عن بدء زمن القصة ، إنه محاولة لإمساك بنية زمن الخطاب في «أنت منذ اليوم» الجوهرية ، والتي تبرز لنا هنا بشكل جلي . وهكذا نصل إلى أن زمن القصة يرتبط بـ «شباب» عربي وهو في الجامعة ، ويمتد إلى ما بعد تخرجه منها بسنوات قليلة وصولاً إلى 10 حزيران 1967 حيث ينتهي زمن القصة . وهذه الفترة التي تَسْعُ سنوات قليلة قبل الهزيمة لا يتم ملؤها بتسجيل أحداث كثيرة على صعيد الخطاب . إن ما هو مُرَّهَن في الخطاب بشكل أساسي (من حيث الكم) هو هذا الحاضر القريب من حياة عربي وهو في الجامعة ينتقل من غرفة إلى غرفة ومن بار إلى مِغْي . وضمن هذا الحاضر القريب ، يتم ترهين الماضي البعيد عن طريق «الاسترجاع» المتصل بطفولة الراوي - الشخص في القرية . ونظل نضع الاسترجاع بين قوسين ، لأن الترهين الثاني في تعالقه بالأول ، الذي يمكننا اعتباره ، «استرجاعاً خارجياً» ، يتم تسجيله داخل زمن الخطاب باعتباره يتواشج وزمن

القصة عن طريق التناوب ، وليس دائماً عن طريق التضمين الشيء الذي يشي بأننا أما «تكرار» لا «استرجاع» .

وهذه الخاصية التي يتميز بها خطاب رواية أنت منذ اليوم (وسنجدّها أحياناً كثيرة في الزمن الموحش) يجعلنا أمام تأكيد ازدواج الحكّي زمنياً على صعيد زمن القصة في الخطاب . فالماضي (الطفولة) مرهن في الخطاب كحاضر ، والحاضر يعيش في الحاضر (الشباب) بالماضي ، وهذا الازدواج هو هذا الذي جعلنا نعتبر من جهة (الطفولة) «مسترجعة» في نطاق الحاضر ، وضميناً عن طريق التذكّر ، ومن جهة أخرى «مكررة» في الحاضر عن طريق الحياة المعيشة .

ويتجلى هذا الازدواج على صعيد الصيغة والرؤية السردية كما أشرنا إلى ذلك أعلاه ويمكننا تقديم هذه الصورة انطلاقاً من الوحدة الأولى دليلاً على ذلك : يتم الحكّي (الخطاب) في الحاضر ، وعن تمفصل زمني مزدوج على صعيد القصة (الماضي = الطفولة) و(الحاضر = الشباب) . ومن خلال بعض المؤشرات غير المباشرة نجدنا أمام الخريف والصيف في الماضي والصيف في الحاضر . على صعيد القصة يتصل الماضي بأمسيات رمضان وعنف الأب والأخ المحارب . والحاضر يبدو من خلال الانتماء الحزبي وكراهيته لاجتماعاته وخطب أعضاء الحزب حول أعداء الأمة وعلاقته مع عائشة وصديقه صابر في الحان ، يتناوب الزمان معاً في الخطاب ومعاً يرهنان في الحاضر على هذا الشكل :



إنها بنية معقدة كما نلاحظ ، يتناوب فيها الماضي والحاضر من خلال ترهينهما معاً في الخطاب ، ومن خلال «التقطيع» الزمني يحدث ذلك الازدواج الذي يتداخل فيه الزمان ويتناوبان . وعندما نضيف إلى هذا التداخل «بنية الحلم» التي تتكرر على صعيد الخطاب ككل والتي ينتهي بها المقطع السردى الحادى عشر يظهر لنا إلى أي مدى يسهم هذا التداخل في إبراز العلاقات الزمنية التي تأخذها القصة بالخطاب على صعيد الشخصية

المحورية . إن هذا الماضي سيظل ثقيلاً وحاضراً في آن معاً.

وإذا كان التركيز كما سبق أن وضعنا على صعيد الكم يظل متصلاً بمرحلة الشباب حيث سيجري الحديث أكثر - على صعيد الخطاب - على حياة عربي الروتين: الجامعة ، الحزب ، الشارع ، البار ، المبنى . . . فإن التقطيع الزمني سيظل مهيمناً من خلال كثرة المشاهد المقدمة إلينا عن طريق التناوب والتداخل ، أحياناً مع التكرارات المتشابهة ، وأحياناً أخرى مع التلخيصات . وبإضافة «الاسترجاعات الخارجية» المرهنة في الحاضر (الأب - القصة) وكثرة تواترها ، نستخلص كيف أن للشخصية المحورية (عربي) زمنيها الخاصة (إرث الطفولة الثقيل) الذي لم يتم التخلص منه . وعندما يتم الانتقال إلى المدينة (الجامعة) يتداخل الزمن الماضي ، بالزمن الحاضر ، فيتضاعف الإحساس بوطأة الزمن : لا فرق بين الأب والحزب ، وبين الأخ المحارب والقيادة العسكرية ولا فرق بين الأم والباغية (معاً يعيشان القهر) ، لا فرق بين الزمن الماضي البعيد (التاريخ = الإمام / عثمان / السقيفة) والماضي القريب (النكبة) والمعيش (هزيمة 67) . بل إن الزمن الحالي أفضع من السابق وهو امتداد له : فالقطة التي قتلها أبوه (الطفولة) والتي نجد الحديث عنها في الوحدة الأولى تدهم في نهاية الرواية بعد حدوث الهزيمة :

«رأيت مرة في عرض الطريق قطعة مدهومة الدّم على أذنها وجانب من وجهها وهي تتحرك في دائرة لا يزيد قطرها عن متر ، وعيناها في نفس الوضع ، وتظل تدور ، لم أدر ماذا كانت ترى وماذا كانت تريد» ص 58 .

إن هذا الزمن بكافة أبعاده متداخل . فهذا الحاضر امتداد لذلك الماضي . غير أن ما طرأ الآن (الهزيمة) لم يسبق له أن طرأ :

«طاف رجل معظم بلاد العالم رأى كثيراً من الكوارث إلا أنه لَمْ يَرَ شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي» ص 59 .

يذكرنا هذا المقطع في دلالة الزمنية بما رأيناه في الزيني بركات مع الرحالة البندقي وما نراه في الوحدة التي ينتهي بها الخطاب :

«منذ ألف لم يكن عربي . مرت به كل مذلات التاريخ والأحداث واحداً تلو الآخر . معزولة تافهة مرت كلها» ص 59 .

لكن ما طرأ الآن يفوق كل المذلات التي عرفها الـ «عربي» في حياته . إن هذه الأشهر «حَرِيَّة» باسم «عصور الظلمة» ، بل هي أشد عصور الظلمة ظلاماً .

تداخل زمن القصة المزدوج بزمن الخطاب عبر التناوب والتقطيع الزمني يشي بأن لا

مَسَافَة زمنية بين الماضي والحاضر رغم التحولات الطارئة لكن الهزيمة تتويج للزمن العربي المظلم . . .

2- عودة الطائر إلى البحر

في رواية حليم بركات «عودة الطائر إلى البحر» نجدنا أمام مؤشرات زمنية عكس «أنت منذ اليوم» . وهذه المؤشرات الزمنية عكس الزيني بركات لا تمتد على مدى سنوات وأشهر ، إنها على صعيد القصة تمتد من :

5 حزيران 1967 ← 20 حزيران 1967

إن زمن القصة محدود في سنة واحدة (1967) و 16 يوماً من شهر حزيران . تتخلل زمن القصة هذا إشارات زمنية خارجية تأتي إما عن طريق الاسترجاع (1948 - 1925 .) أو عن طريق الاستباق (المستقبل) سواء تعلق الأمر برمزي (تذكره طفولته وهو ينظر إلى خارطة فلسطين) ، أو حلمه بالمستقبل أو بشخصيات أخرى (بامبلا . . .) زمن الخطاب لا يحافظ على خطية زمن القصة ، ويتقدم إلينا من خلال الأقسام التالية :

أ - 11 - 20 - حزيران : تحت عنوان العتبة وفيه نجد رمزي وصديقه بامبلا في الأردن يتقلان بين المستشفيات ويعاينان آثار الحرب .

ب - 5 - 10 - حزيران : تحت عنوان أمواج الأصوات والريح الجنوبية ، ويقدم لنا هذا القسم من خلال ستة أيام متوالية ومرتبة تسلسلياً .

ج - 11 - 20 - حزيران : تحت عنوان أيام عديدة من الغبار وفيه يتم استرجاع السنوات الأولى ونعاين من خلاله صفدي مع طلبة الكلية في الأردن يقفون على المخيمات ومساوىء الحرب .

نلاحظ من خلال هذا القسم أن زمن الخطاب في «عودة الطائر إلى البحر» نظير زمن خطاب الزيني بركات : إنه دائري منفتح يبدأ بلحظة من زمن القصة (انتهاء الحرب) عندما يصل رمزي لمعاينة النازحين والجرحى والحرّقيّ بالنابالم . فقدم لنا هذه الوحدة على أنها عشرة أيام (11- 20 حزيران) . ومن خلال ثماني صفحات فقط غير أن ما يحكي فيها لا يتجاوز يوماً واحداً ، واليوم الثاني لوصول صفدي إلى الأردن . وعبر هذا اليوم تظهر لنا صورة «الحرب / الهزيمة» . إن هذا القسم يقدم إلينا إذن كـ «استباق» .

في القسم الثاني نعود إلى الحكي الأول ، ومن خلال التسلسل يقدم لنا اليوم الأول من 5 حزيران ، ثم الثاني إلى السادس : أي بدءاً من يوم الاثنين 5 حزيران إلى يوم السبت 10 حزيران . نجدنا في هذا القسم أمام هيمنة «المشاهد» التي تأخذ طابعاً مزدوجاً ومتناوباً أي

أن الحكيم ينتقل بنا من فضاء إلى آخر ، وفي الزمن الواحد . هذان الفضاءان هما :

1 - فضاء بيروت ، وبالأخص الجامعة حيث يدرس رمزي ، وحياته خلال هذه المدة .

2 - فضاء فلسطين من خلال عدة مدن فلسطينية يقدم لنا عبرها عالم الحرب ، وما تقوم به عدة شخصيات «محورية» : صبري محمود - أهل أريحا - عزمي عبد القادر - خالد عبد الحليم - علي عبد الرحيم . . .

وضمن هذه المشاهد تأتي بعض التلخيصات أو الاسترجاعات لكنها قليلة جداً ، بالقياس إلى المشاهد التي ترهن فيها الأحداث في الحاضر . ومن خلال التسلسل يفكر رمزي في اليوم الرابع في بعثة طلاب علم الاجتماع لدراسة أسباب النزوح إلى الأردن . وفي اليوم الخامس يقوم بجمع التبرعات ، وعن طريق الاسترجاع يتذكر أيام دراسته بأمريكا وهو ينخرط في تظاهرة قام بها الزنوج . . .

وأخيراً ، نجدنا في القسم الثالث أمام الحدث الأول (انتهاء الحرب) وصفدي مع طلابه ينتقلون بين المخيمات يقفون على آثار الحرب والهزيمة . وبهذا تنغلق الدائرة فانهاء الحرب الذي ابتدأنا به نختم الرواية ، لكن هذا الانغلاق منفتح ، كما سبق أن رأينا مع «الزيني بركات» . فلعبة الشتاء والصفيف التي رأيناها في الزيني بركات ، حيث يصبح الخطاب مقسماً قسمين : شتاء طويل يعقبه صيف قصير ، وشتاء أكثر طولاً ، تتخذ في «عودة الطائفة» وجهاً آخر من خلال «لعبة» الزمن الذي تم توظيفها في الخطاب .

تظهر هذه اللعبة ، في تأطير الزمن ضمن «قصة الخلق» المستمدة من سفر التكوين ، وهكذا نفتح الوحدة الأولى على :

«العالم ماء ، والظلام يغمر كل شيء .

الشمس مطفأة والقمر لم يوجد بعد (. . .)

الأسطورة التوراتية تتكرر ، فالأرض

خربة وخالية . . . » ص 9 .

يأخذ العربي موقع «الرب» : «يقول ليكن نور . النور لا يكون (. . .)

لا سماء فوق العربي . . . » ص 9 .

إن هذه الوحدة وإن أتت على صعيد القصة كـ «استباق» ، فإنها تأخذ بعداً آخر ، كالذي رأينا مع «أنت منذ اليوم» ، فإن موقعها في الخطاب ومن خلال «المطلع» (الخلقي / التكويني) يعطيها موقع كونها سابقة على الأيام الستة التي ستلي . إنها «بمثابة» اليوم الصففر (العتبة) ، وما يساعدنا على اعتبارها كذلك أن الأيام التالية هي أيام الخلق الستة الموجودة كما في سفر التكوين ، لكن هذه الأيام الستة لم يخلق فيها العربي إلا «الهزيمة»

و«الظلام» ، ويأتي القسم الثالث الذي هو «تكرار» للقسم الأول لا ليكون «تكرارياً» ، ولكن امتداداً . إنه اليوم السابع : (اليوم الذي استراح فيه الرب) .

نفتح القسم الثالث بنفس ما افتتحنا به القسم الأول :

«في اليوم السابع لم يسترح ، ومن المؤسف أن يومه السابع ليس يوماً واحداً . لا يدري إلى أي حد يمتد في المستقبل ، يحس أنه أيام عدة (. . .) يومه السابع أشهر . ربما سنوات . كل ما خلقه العربي في الأيام الستة الأولى كان غباراً . . . » ص 147 .

وإذا كنا قد رأينا في بداية الوحدة الأولى «الظلام يغمر الأرض» فإننا في الوحدة الثالثة التي لا نعتبرها «تكرارية» إلا ظاهرياً نجدنا أمام «الظلام يعود ليغمر الأرض» . إنها الدائرة المفتحة : رمزي صفدي - كعربي في أنت منذ اليوم - المنفي عن وطنه والذي درس في أمريكا لا يمكنه إلا أن يرى الزمن الماضي ممتداً في الحاضر ، وظلام اليوم أشد من ظلام الأمس :

«في السابق (المقصود 1948) لم يكن بإمكانه أن يزور حيفا ويافا وعكا وصفد والناصرة والرملة واللد والآن (المقصود بعد حزيران 67) لا يمكنه بالإضافة إلى ذلك أن يزور القدس ورام الله وبيت لحم والخليل ونابلس وجنين وقلقيلية وطولكرم ، لا يصدق ، لا يصدق . ماذا يجري لبلاده؟» ص 148 .

3- الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل

إذا كانت القصة ترهن في الحاضر القريب ، من خلال وقوعها في الحاضر زمنياً (ما قبل 10 حزيران) في «أنت منذ اليوم» وما بين 5 حزيران و20 منه في «عودة الطائر إلى البحر» ، فإن زمن القصة في الوقائع الغريبة يتم استرجاعه بعد وقوعه . إن القصة سابقة ويتم ترهينها كشيء تم ومضى .

يبدأ زمن الخطاب بـ إعلان «اختفاء» سعيد المتشائل ، ويأتي زمن القصة لتفسير أسباب هذا الاختفاء . هكذا نفتح الخطاب على استباق : «سعيد اختفى مع الفضائيين» . إن هذا الاستباق هو نهاية القصة . وبعده يتم الانتقال إلى الماضي (بدء القصة) ، ويظل الخطاب متمحوراً حول حياة سعيد المتشائل ، وينتهي بإعلان اختفائه : إننا من تسجيل الاختفاء والرجوع إلى عالم ما قبل الاختفاء وصولاً إلى الاختفاء نجدنا أمام الشكل الدائري الذي سبق أن لمسناه في الزيني بركات وعودة الطائر إلى البحر :

أ - الاختفاء

ب - ما قبل الاختفاء .

ج - الاختفاء .

بعد المقطع الذي يسجل فيه اختفاء سعيد المتشائل ، نجدنا ننتقل إلى الوحدة الثانية (سعيد يعلن أن حياته في إسرائيل كانت بفضلة حمار!) الذي يتبدى بـ «لنبدأ من البداية . كانت حياتي كلها عجيبة . . .» ص 16 .

وليست هذه البداية إلا بداية ولادته الثانية سنة 1948 حين قامت الدولة الإسرائيلية ، وقتل أبوه ونجا بفضل حمار مات مكانه . وقبل استشهاد والده نصحه بالدخول إلى إسرائيل والاتصال بالخوجا سفسار شك الذي كان أبوه على اتصال به . وعندما ينجح في الدخول إلى إسرائيل في صيف 1948 يخبرنا سعيد أنه يحتفل بعيد ميلاده الرابع والعشرين .

إن زمن القصة يبدأ بسنة 1948 وينتهي ببضع سنوات بعد 1967 . ولما كان الخطاب مقسماً إلى ثلاثة كتب : يعاد - باقية - يعاد الثانية ، فيمكننا الحديث عن زمن الخطاب وفق تسلسل هذه الكتب بهدف معاينة كيفية تعالقه بزمن القصة وتحولاته .

1 - الكتاب الأول: (يعاد) ونجد زمن القصة فيه يتبدى كما قلنا باستباق نخبر فيه عن غياب سعيد واختفائه . وبعد ذلك يتم الانتقال إلى الحكي الأول صيف 1948 وسعيد يحاول الدخول إلى إسرائيل . وينتهي زمن القصة في هذا الكتاب بسنة 1951 ، كما أمكننا ضبط ذلك من خلال بعض المؤشرات .

إن زمن القصة هنا لا يتسع لأكثر من أربع سنوات ينجح فيها سعيد في الدخول إلى إسرائيل وعمره 24 سنة ويصبح زعيم اتحاد عمال فلسطين ، يسكن في بيت هجره العرب ويلقى رجل الفضاء . تَزُوْرُهُ «يعاد» حبيبته الأولى يوم 11 دجنبر 1948 مُحْتَجَّة على ما فعله بأبيها وأخيها لأنه قيل لها إن سعيد رأس الخيش هو الذي كشفهما فأنكر أن يكون سَعِيدُ الْخَيْشِ هذا أَوْ لَهُ به معرفة . تبقى عنده إلى الفجر ، فيطوق الجنود البيت ، يعتقلونها وهي تصيح بأنها «ستعود» . هذه الأحداث لا تقدم لنا بهذا الترتيب إذ أن الاسترجاعات الخارجية تلعب دوراً كبيراً في إضاءة جوانب من حياة سعيد قبل 1948 (طفولته - قصته مع يعاد والمدير . . .) بل وحول أسرته ، إلى وقت تفكيره في الدخول إلى إسرائيل عام 1948 ، وإلى جانب هذه الاسترجاعات نجد استباقات تتصل بحرب 1967 يتم استدعاؤها عندما سكن بيت أحد العرب : فتوصف البيوت وكؤوس القهوة التي ظل ينتظرها مدة عشرين عاماً . وهذان الاستباقان ، ولا سيما الثاني سيتم الحديث عنهما في حينه .

إن هذه المفارقات الزمنية جاءت عَنْ طريق التضمين ، وأحياناً التضمين الذي يمتد على صفحة أو صفحتين (ص 45 - 47) . وبعد انتهاء المفارقة يستعمل الراوي مثل هذه الإشارات : «لنعد ، يا محترم . . .» .

2 - الكتاب الثاني (باقية) يبدأ بتعليق الراوي بأنه لم يتمكن بالكتابة بسبب أمن إخوانه

الفضائيين . ويبدو لنا زمن القصة هنا يمتد من سنة 1951 إلى الهزيمة 1967. يبدأ هذا الكتاب بمجموعة من التداخلات الزمنية المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل الذي تم الحديث عنه أو دخوله ضمن زمن القصة : إذ نجد سنوات تتصل به أيلول 1972 (ميونيخ) 1970، ومحاكمات الفدائيين في 1972. كل هذه التداخلات الزمنية تأتي في سياق الحديث عن «الفضائيين» أصحاب سعيد المتشائل يتبدى زمن القصة في هذا الكتاب ذات ربيع يخرج فيه سعيد إلى صيد السمك ، فيتعرف على الطنظورية (باقية) . وعندما تقع انتخابات الكنيست سنة 1951 يفوز الشيوعيون في جسر الزرقاء فيبعث سعيد لمواجهة الشيوعيين وقبلون تزويجه من «باقية» بعد أن نهأه «المعلم» سابقاً عنها . تخبره باقية بسر الكنز الذي فيه ذهب جدتها والدةها قرب شاطئ الطنظورية . يولد لهما ولاء. وفي الرابعة من عمره يصحبانه إلى الشاطئ لتفقد الكنز . وعندما يصبح ولاء يافعاً في 1966 يذهب إلى الكنز فيجده سلاحاً . تلتحق به أمه ويختفيان في البحر . يحمل العسكر سعيداً إلى بيته . وفي السنة الموالية يسمع في المذياع عن كتيبة تحمل اسم «الطنظورية» . وكما رأينا في الوحدة السابقة نجد هذا الزمن لا يقدم بهذا الترتيب ، إذ تحدث مفارقات استرجاعية خارجية ، وأخرى استباقية خارجية تتصل به 1970 و 1972. لكن هذا الترتيب يظل هو المؤطر . إن زمن القصة هنا يتسع لـ 17 لسنة أي من 1951 إلى 1967.

الشخصيات ، لكن مع اختلاف (حوار سعيد مع يعاد الثانية قبل أن تخرج) وتنتهي هذه الوحدة بمسك الختام وبعدها يأتي تعليق المروي له . في مسك الختام يجد سعيد نفسه فوق خازوق يتحدث إلى صديقه القديم يعقوب وبعده الرجل الكبير . . . يسترجع يعاد الأولى وباقية ويعاد الثانية وأهم الأحداث الواردة في القصة ، ويأتي المقطع :

«ورأيت يعاد ترفع رأسها إلى السماء وتشير نحونا ، وتقول :
حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس». ص 205.

وينتقل المروي له في نهاية الخطاب إلى البحث عن سعيد المتشائل لأن رسائله كانت ترد إليه مدموغة في بريد عكا وفي مستشفى الأمراض العقلية وبعد التفتيش يجد أشخاصاً نظراء له في الاسم : سعدي نحاس الملقب أبو الثوم . ويقال أبو الثوم . . . ص 207 . ويظل المروي له راغباً في المساعدة للعثور على سعيد! وبعد إلغائه لقصة اختفائه مع الفضائيين ، ينغلق الخطاب بقول المروي له : «فكيف ستعثرون عليه ، يا سادة يا كرام ، دون أن تتعثروا به؟!» ص 208.

إنها بنية دائرية مفتوحة كما نلاحظ تبدأ بالإعلان عن اختفاء سعيد (وهو يذكرنا بدء اختفاء الزيني بركات) ، ويتم الجكي لإبراز دواعي اختفائه ، مع الإشارة منذ الوحدة الأولى إلى التجائه إلى دياميس عكا ، ولقائه بالفضائيين بين الفينة والأخرى . من يعاد الأولى إلى يعاد الثانية تنغلق الدائرة ، وتوحي يعاد الثانية باحتمال وجود يعاد ثالثة عليه أن ينتظرها! . . .

4- الزمن الموحش

يتقدم إلينا خطاب قصة «الزمن الموحش الروائي بصورة قرية مما سبق أن رأينا في «أنت منذ اليوم». فانهدام المؤشرات الزمنية التي تساعدنا على ضبط زمن القصة و«اللعب الزمني» الشديد التعقيد ، كل ذلك يعطي للزمن في «الزمن الموحش» خصوصيته وفرادته . إنه كتيمة مركزية تتضافر وتيمات أخرى، وكثنية لسردية تحتفظ بخصوصيتها، ولهذا الطابع يمكن اعتبار رواية الزمن الموحش «رواية زمن» فهي تفكير في الزمن وتشكيل زمني على مستوى الخطاب . نركز في تحليلنا على المستوى الثاني الذي يأخذ فيه «اللعب الزمني» على سعيد الخطاب مكانة هامة .

على غرار «أنت منذ اليوم» تتمحور قصة الخطاب على الراوي - الشخص (عبدالله شلبي) . فهو نظير «عربي» يهاجر من قريته إلى دمشق ، «هجير» في رواية سبول . . . وشلبي زميل حميم «راني»، الذي يستقطبه للحزب، وهو من قرية الراوي . إنه مثيل «صابر» . يبدأ زمن القصة في الزمن الموحش وشلبي في دمشق يشغل موظفاً : حياة روتينية دائرتها محدودة : البار/ جلسات مع المثقفين/ بيوت أصدقائه/ بيوت عشيقاته/ البيت الذي يسكنه :

«زمن قاس بيده سوط ، يسوقك من بوابة البيت إلى مستنقع الوظيفة ، ثم إلى الشوارع والأمكنة الأخرى». ص 64.

هذا هو الفضاء الذي يتحرك فيه الراوي - الشخص ، محدود وضيق . ومن خلال لقاءاته الدائمة مع زملائه الثابتين (راني - سامر - أمينة - منى) والذين يضطر إلى الذهاب إليهم في بعض اللحظات (وائل الأسدي - مسرور) ، يقدم لنا عالم القصة من خلال حياتهم وعلاقاتهم ببعضهم ، أفكارهم ورؤيتهم للأشياء . إننا لا نجدنا أمام قصة بالمعنى المتعارف عليه . إنها حياة شبلي في دمشق وهواجسه التي لا تنتهي ومعاناته مع «الزمن» الذي لم يُبقِ نعتاً إلا ونعته به وهو يحاور الشخصيات أو يتحدث إلى ذاته . إنه عالم «عربي» بمغامراته وكوابيسه وثقل الريف الذي يحمله معه .

ينتهي «زمن القصة» بالهزيمة ، هزيمة 67 وبها ينتهي الخطاب . إن زمن القصة هنا نظير أنت منذ اليوم يسجل حياة شبلي خلال سنوات قبيل الهزيمة فكيف قدم لنا الخطاب هذا الزمن؟

يبتدىء الخطاب بالإعلان عن «أناس» غير محددين :

«هاهو قادمون من الجبال والسهول زحفاً باتجاه المدن . في عيونهم غضب ، وعلى جباههم غبار ومجد متظر (. .) لواء فرحهم معقود وأنا حاديههم ، ومعنا مسرة وبنادق (. . .) زحفاً باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الأولى . . .

«الآن يبدو العالم صحواً أكثر عن أي وقت مضى صحو يشبه هدوء بحيرة غب أعصار . . .

إنني أتذكر الآن بهدوء تام كيف نفخت الريح في تلك الأدوية (. . .) ثم فجأة لم يبق غير الصدى النائح فوق البوابات التي عاودها صمتها القديم . . . «ص 9» .

إن هذا الصوت الذي نفتح به الخطاب - زمنياً - هو «صوت» ما بعد زمن القصة . إنه إعلان عن زمن لم يبدأ بعد . ومن خلال المقطع الذي أثبتنا تبدولنا المسافة الزمنية بين : الآن والأمس .

في الآن نجدنا أمام زمن آخر ، زمن الحركة الذي ينتظره المجد والفرح إنه زمن الصحو المغاير لزمن الأعصار السابق .

وفي الأمس نجدنا أمام «الزمن الموحش» زمن المدن الساقطة تحت ضربات الطلائع الأولى . إنه زمن البحيرة الأسنة الذي كانت تنفخ فيه الريح .

وفي هذه - الآن - يتم «التذكر» ، «استجراع» زمن الأمس بكل الإشارات «السلبية»

التي ألمحنا إليها. إن الآن هي زمن ما بعد الهزيمة الذي فيه يُرهَن الزمن الماضي. إن زمن الخطاب ترهين للزمن المحش في الآن. بذلك يتحقق البعد الأول الذي يجعل رواية «الزمن الموحد» رواية زمن: إنها استرجاع الزمن الماضي عن طريق الترهين في الحاضر و «محاكمة» هذا الزمن. أما البعد الثاني، فيمكننا تبينه في تخطيط الزمن من خلال ما أسميناه «اللعب الزمني».

بعد الإعلان السابق الذي أومأنا إليه، نجدنا أمام بدء الحكى الأول الذي يتم عن طريق إعلان ثان «اختفاء» مُنى ورحيلها: لقد رحلت مُنى ولم تبق إلا الذكرى. إن كل شيء سيقدم إلينا عن طريق التذكر. لكن هذا الماضي سيتم ترهينه في الحاضر وكأنه يعيشه من جديد، ولعل صيغاً زمنية من قبيل «كنا... الآن...» خير دليل على ذلك. يظل يطالعنا دائماً غياب منى ولكن ضمن ذلك ترهن حياة شلبي ومنى مراراً، ويتحدثان عن زملائه (سامر/ وائل/ راني...) الشيء الذي يشي بتداخل الماضي والحاضر، لإنهما زمن واحد.

يتجلى هذا في كون الخطاب، كما رأينا في «أنت منذ اليوم»، وإن بشكل مختلف تماماً يخرق المسافة الزمنية بين الواقعي (الحال) والمتذكر (الذاكرة): يرهنان ويتقابلان ويتضمن أحدهما الآن. فبعد ذلك الإعلان المقدم كاستباق نعود إلى المراحل الأولى التي تعرف فيها شلبي على منى، فتحكي له عن طفولتها وعن زوجها المقتول من لدن إخوته وبناتها ميسالينا. كما يحكي هو أيضاً طفولته في القرية. وعبر هذا الاسترجاع نتعرف على حادثة مجيء شلبي إلى دمشق. ويأخذ «تسلسل» الأحداث هذه الخطية. لكنه التسلسل الذي يختلف عن الذي نعرف، فإمكاننا من خلال قراءة جزئية تبينه وهو يستوعب بنيات زمنية مفارقة: الاسترجاعات الإستباقات الداخلية والخارجية. وعندما ترهن هذه المفارقات، يصبح من الصعب الإمساك بتطور الأحداث أو «تسلسلها» زمنياً.

وعندما نعرف أن الخطاب يقوم على أساس «المقاطع» السردية المستقلة عن بعضها البعض: كثرة اللوحات والمشاهد التي هي نتاج التقطيع السرد والزمني في آن تبدو لنا صعوبة ضبط ذلك التسلسل.

بعد قراءة الرواية عدة مرات، أمكننا الوقوف على التمهصلات الزمنية الكبرى، وفق تقسيم الفصول كما يقدمها لنا الخطاب على الشكل التالي:

الفصل الأول: (ص 9 - 91). يبدأ بالإعلانين المشار إليهما أعلاه. وضمنهما يكون الرجوع إلى الحكى الأول: قصته مع منى ذات صيف، ركوب الباص، وجلوسه مع راني في النادي الصيفي وعند شلبي رغبة في التعرف على المثقفين. يعاشر أمينة في بيتها، وتعرفه على سامر الذي يقدمه له راني تتكرر زيارته لأمينة، وجلساته الخمرية والنقاشية مع

سامر البدوي (الشاعر). ضمن هذه التمهيلات الكبرى، نجد إسترجاعات إلى الوراء (الحديث عن طفولته وأسرته - نظرتة كريفية إلى دمشق - طفولة منى - علاقته مع راني الذي استقطبه للحرب)، وإلى جانبها نجد إستباقات: ما تتوقعه دمشق - الحرب - آراء أبيه عما سيجري.

كل ذلك يقدم لنا من خلال مشاهد متقطعة يتداخل فيها الماضي بالحاضر، والمُعاش بالمتذكر - لكن هذه المشاهد تقدم إلينا على أنها تجري الآن.

الفصل الثاني: يأخذ هذا الفصل بعداً آخر، إذ يبدأ الراوي من محاولة الكشف عن عالمه وعالم شخصياته من الداخل. فيقدم لنا صورة عن سامر البدوي من منظوره، ثم بعد ذلك وائل الأسدي الضحية والجلاء الذي يلجأ إليه عندما يهاجر راني ليهيء رسالة الماجستير، وزمناً نجدنا هنا في فصل «الشتاء». يتركز الحديث على وائل الأسدي من خلال جلساته معه إلى جانب هدى شعراوي وناديا وخروجهما إلى الطبيعة. ويكون هذا هو الإطار العام، وضمنه تأتي الإسترجاعات (في الباص) والتكرارات المتعددة (زيارته بيت أمينة) وزيارته بيت مسرور وديانا، والتذكرات التي تأخذ أحياناً استذكار الطفولة أو الحلم بالأب أو قصته مع منى، يكتب إليه راني من بيروت ويجيبه شبلي ملخصاً الأحداث الطارئة والسابقة (علاقته بمنى - أمينة - وائل...). كل هذه الأشياء تأتي متداخلة ومتجاوزة ومرهنة كلها في الحاضر، ومتضمنة كذلك لما ينتظر في المستقبل.

الفصل الثالث والرابع والخامس: يرجع راني من بيروت يسأله عن أمينة ودمشق ومنى، فيقول له يان منى «سترحل». وإذا كنا قد رأينا في الفصل السابق محاولة لرسم صورة داخلية وخارجية عن الشخصيات، فهنا نجدنا أمام محاكمة وعيها، وعن طريق اللعبة الزمنية نفسها (التقطيع - التضمين - التداخل) يظهر لنا وعي كل الشخصيات واضحاً بجلاء، لا سيما وإن الزمن هنا يأخذ بعداً آخر: فصوت «ميناجيم بيغين» يصبح حاضراً، ومرهناً بجلاء بتحديثه وتهديداته، ووائل بسرعه الجنونية يصطدم بشجرة ويموت وراني يقول بضرورة «الخروج» من عصر الإنحطاط. إنه الخريف: صوت بيغن يهدد. يموت سامر، ويقتل مسرور ديانا، ويسقط عالم كبيت طيني يحلم به شبلي، ويتهدم البيت وسيادة الهدوء الجنائزي. تقع الهزيمة الكبرى لزمان موحش ومقفر، ولا يعود الراوي يتذكر بعدها شيئاً.

على صعيد هذه التمهيلات الكبرى نجدنا أمام صيف وشتاء وخريف أمام «بداية» و «نهاية» تتداخل الأزمنة ويحدث التوقع: خراب عالم بكامله، وتأتي الرواية لتعريه هذا الزمن في هذا المكان (دمشق) من الداخل. ومن خلاله تتعري الذات، تلعب الذاكرة دوراً مركزياً. لكن الحلم بالغد و «منى» الراحلة التي تظل هاجساً مركزياً من بداية

الخطاب إلى آخره يظل وارداً، إن هذا العالم لا يمكن ألا يرنى : يصدر الخطاب بـ «مراسيم دفن» ويذيل بملاحق ضمنها «مراثي إرميا». ما موقع الإعلان الأول الذي مهدنا به؟ يظل ذلك الصوت الذي يصعب التحقق منه! وينتهي الخطاب من خلال مذكرات منى بإنها تلد لكنها تلد الولد المشوه:

«... كتلة من اللحم والدم الممزق لا علاقة له بالأدميين. لقد ولدت الأرض المطعونة طفلاً عليل الجسد عليل النفس» (ص 310).

إن هذا المستقبل نتاج ليس الماضي القريب بل نتاج قرون عديدة، وما للعب الزمني الذي يكسر منطق الزمن المتسلسل إلا خير دليل على أن التداخل بين الذاكرة والمُعاش، بين الماضي بمختلف مراحلهِ والحاضر في مختلف تحقيقاتهِ والمستقبل والتضمين والترهين، إلا سمات تجسد هذا الزمن ويربطنا هذا التجلي الذي وقفنا على بعض عناصره فقط وبإجمال، بما رأيناه حيث أن «الزمن» يصبح موضوعاً للتفكير والتأمل يتأكد لنا كون «الزمن الموحش» هي فعلاً «رواية زمن». وهذا يستدعي قراءة خاصة لها على هذا المستوى.

5- خاتمة :

إن الروايات الأربع التي حاولنا معاينتها هنا زمنياً وبإجمال، تتقدم إلينا وفق الخصائص التالية :

1- إنها جميعاً تركز على حياة شخصية محورية من خلال مرحلة زمنية محددة: مرحلة الشباب بالأخص، وهذه المرحلة نجدها ممتدة لتغطي سنوات عديدة، باستثناء عودة الطائر التي تُشيد على سنة واحدة، ومن خلال التركيز على الحياة المحددة زمنياً، نجد ذلك يتم ضمن فضاء محدد: دمشق - فلسطين - بيروت - «هجير»، وفي إطار تفاعل الشخصية مع فضاءها الذي تتحرك فيه وعالمها الاجتماعي، تقدم لنا صورة زمنية عن عالم القصة في فترة زمنية محددة، تنتهي في الغالب بـ 1967.

2- لم يقدم لنا زمن الخطاب هذه الحياة الشخصية في محيطها الذي تعيش فيه عن طريق التسلسل. إن البناء الدائري هو المهيمن، يتجلى هذا من خلال اللعب الزمني الذي نسجله من خلال :

أ- كثرة المفارقات الزمنية التي تشوش ترتيب الأحداث وتسلسلها. هذه المفارقات نجدها تتحرك نحو الأمام (الاستباق) ونحو الخلف (الاسترجاع). تأتي هذه المفارقات إما داخلية أو خارجية.

ب - كثرة المشاهد والتقطيع الزمني : إلى جانب المفارقات كعنصر تكسيري للترتيب،

نجدنا أمام كثرة المشاهد وتداخلها وفيها ننتقل من زمن إلى آخر، ومن فضاء إلى غيره. وفي هذه الإنتقالات يتم تقطيع الزمن والسرد عن طريق:

- 1- التضمين: حيث نجد حدثاً يتضمن حدثاً آخرًا وهو مختلف عنه زمنياً وسردياً.
- 2- التناوب: يتناوب حدثان، لكن أحدهما يقع في الحاضر والآخر في الماضي.
- 3- التناطير: يكون فيه حدث معين يطرأ في الحاضر، لكنه يظل مستمراً وعن طريق التقطيع تتعدد المشاهد المختلفة زمنياً، لكن حدثاً مركزياً يظل يستوعبها جميعاً ويتداخل مع بعضها. وهذا البعد نجده غالباً في الزمن الموحش.

ج- كثرة التدايعات الحرة التي ندخل فيها بنية الحلم والخطابات المسرودة ذاتياً، والتي تأتي غالباً في صيغة الحكى التكراري الذي نجد الذاكرة تلعب فيه دوراً خاصاً، وهذا بدوره يسهم في تأكيد ما تقوم به المفارقات والمشاهد التقطيعية، حيث تتداخل الأزمنة المتخيلة أو المتذكّرة مع الأحداث المعاشة.

- 3- علاوة على ما رأيناه، أعلاه نجد مختلف أحداث القصة المقدمة إلينا والتي يمكننا إعادة ترتيبها بالإعتماد على المؤشرات الزمنية، كيف إنها ترهن في الحاضر (باستثناء الوقائع الغريبة). وهذا الترهين يجعل من الصعوبة بمكان تمييزها عن بعضها في غياب المؤشرات الزمنية. ويتجلى لنا هذا بشكل واضح في الزمن الموحش وأنت منذ اليوم.

4- إن البعد الزمني يأخذ في هذه الخطابات مكانة خاصة بسبب الطريقة التي قدم بها في الخطاب، إذ يظهر لنا بجلاء إن الخطاب الروائي يقدمه لنا وهو يقوم على أسس لا نراها في الخطابات التقليدية. وهذه الأسس التي تبرز لنا البعد الدائري الذي أشرنا إليه يدعونا إلى معاودة النظر في هذا البعد على الصعيد النصي بربطه بالدلالة وذلك من خلال معانيته على صعيد البناء.

هذا ما سنحاول القيام به بعد تسجيل خلاصات عامة حول مكون البعد الزمني من خلال ما استعرضناه في هذا الفصل.

خلاصة

انطلقنا من مقدمة نظرية حول الزمن، وبعد طرحنا لأهم القضايا والمشاكل التي يعرفها تحليل هذا المكون في اللغة العربية، انتقلنا إلى قراءة الزيني بركات زمنياً، من خلال وقوفنا على التمفصلات الزمنية الكبرى كما يقدمها لنا زمن الخطاب في علاقته بزمن القصة، ثم قمنا بتحليل وحدات الخطاب العشر محاولين الكشف عن كيفية إشتغال زمن الخطاب على زمن القصة، وطرائق تقديمه إياه، وبعد إجرائنا مقارنة بين زمن الخطاب الروائي في الزيني بركات وزمن الخطاب التاريخي من خلال مقطع لابن أبياس، أمكننا إبراز خصوصية زمن خطاب الرواية والانتقال إلى محاولة معاينة أهم تجليات زمن الخطاب من خلال أربع روايات ظهرت في الحقبة نفسها التي ظهرت فيها الزيني بركات.

فكان أن وقفنا على مجموعة من السمات والخصائص التي يتميز بها الخطاب الروائي الذي حللنا. ومن أهم هذه الخصائص أمكننا استخلاص ما يلي:

1- إن زمن الخطاب الروائي لا يقدم زمن القصة بنفس الترتيب الذي يحتويه الزمن الثاني. وحتى عندما يكون الترتيب مؤطراً، ففي داخله نجد هيمنة المفارقات الزمنية بمختلف أنواعها، سواء كانت إرجاعية أو إستباقية داخلية أو خارجية.

2- تبتدىء أغلب الروايات باستباق وهكذا نجد الزيني بركات تفتح على إعلان إختفاء الزيني بركات والوقائع باختفاء المتشائل، والزمن الموحش بإعلان رحيل «منى» وعودة الطائر بتسليق صفدي جبلاً في الأردن. بعد هذا الإستباق نجدنا أمام «الحكي الأول» الذي نعود فيه إلى قصة الزيني بركات وتولية الحسبة خلفاً للمحتسب المعتقل، وإلى دخول المتشائل الأرض المحتلة بعد ولادته الثانية في 1948 وحداثة قدوم شبلي إلى دمشق ووجود صفدي في جامعة بيروت في اليوم الأول لبدء الحرب، لكن الانتقال من الاستباق إلى الحكي الأول لم يتم بشكل عادي إلا في الوقائع حيث يفصل بينهما بـ «التوقف» «ولنبداً من البداية» أما في الروايات الأخرى فيتم بنوع من الارتباك نحس به كقراء:

- في الزيني بركات ينتهي الإستباق في الوحدة الأولى والفجر قريب. وفي الوحدة الثانية، نجدنا أمام «أول النهار» مع إعلان إعتقال المحتسب السابق ولا نتبين إنطلاقنا من

الإستباق إلى الحكى الأول إلا بعد مدة طويلة ونفس الشيء نستشعره في «الزمن الموحش» حيث حاولنا الوقوف على مشاكل تحديد الحكى الأول. وفي عودة الطائر لا نتبين الحكى الأول إلا من خلال المؤشرات الزمنية، على اعتبار أن الإستباق يؤطره «اليوم الصفر» تلوه الأيام الستة.

3- عندما يأخذ زمن القصة «ترتيبه» يصل إلى نقطة الإستباق الأول الذي فنحن به الخطاب، فيتجاوز. بتحقيق الإستباق تكتمل الدائرة، لكنها سرعان ما تفتح وهي تشي باستمرار الوضع السابق لكن بشكل أكثر تبداً مما كان عليه:

- في الزيني بركات: لا نتبين أسباب اختفاء الزيني بركات، إلا في الوحدة ما قبل الأخيرة (922هـ) إبان الحرب لكنه في الوحدة الأخيرة يظهر من جديد، لكنه يظهر محتسباً في دولة العثمانيين المحتلين (923).

- في الوقائع: تقدم ما بين الفينة والأخرى ضمن الترتيب إشارات إلى لقاء المتشائل للفضائيين، أو إنه لم يكتب سبب إمن الفضائيين، لكنه في الوحدة ما قبل الأخيرة يختفي وهو طائر في السماء مشكلاً غمامة. وفي الوحدة الأخيرة، يبحث المروي له عن الراوي. ويبقى الخطاب زمنياً مفتوحاً للتساؤل عمن هو هذا المختفي؟.

- في عودة الطائر: نجد صفدي مع زملائه في الأردن (في الوحدة الأخيرة) بهذا تكتمل الدائرة لكن نهاية الأيام الستة لا يعني إلا أن اليوم السابع، كما جاء على لسان الراوي، طويل جداً. وبذلك يحدث الانفتاح أيضاً.

- في الزمن الموحش: يسجل بين الفينة والأخرى حضور منى وإعلان أنها رحلت أو سترحل. وفي الملاحق يظهر من خلال مذكرات منى أنها ولدت (آدم)، الولد الذي كانت تتمنى، مشوهاً: مات والد الراوي متسمماً بالخمير، وعنه ورث شبلي حب الخمر والنساء. يموت سامر ووائل وديانا. بهذا تنتهي القصة (موت زمن موحش) لكن الابن - المستقبل يولد مشوهاً وميتاً.

4- إن إنفتاح الدائرة لا يعني التحول الإيجابي ولكن إستمرار الماضي انما بشكل أكثر سوءاً.

5- هيمنة المفارقات التي تتداخل فيها الأزمنة تتوازي وهيمنة المشاهد المتنقل فيها من فضاء إلى فضاء ومن زمن إلى آخر ومن حدث إلى شخصية تبرز بوضوح تكسير خطية زمن القصة وتقريب المسافة بين الأزمنة المعاشة والمتخيلة والكامنة في الذاكرة والمحتمة أيضاً (الإستباقات) إنه زمن واحد، وإن كان متعدد أشكالاً بتعدد مؤشرات الزمن (سنوات - شهور...)، وأزمنة حدوثة، ولكنه في وحدته يتشكل، وفي تشكله يزداد تعقيداً.

6 - لا يقدم لنا الزمن فقط كزمن لجريان أحداث وتقديمها، ولكنه يقدم أيضاً كتيمة مركزية أحياناً كما في الزمن الموحش أو كهاجس تختزل فيه كل هواجس الشخصية وهمومها (عربي - صفدي - زكريا بن راضي ...).

بمثل هذه السمات التي حاولنا تلخيصها باختزال يقدم إلينا زمن الخطاب وهو يشتغل على زمن القصة بشكل مختلف عما إعتدنا عليه في الروايات التقليدية زمن يصعب الإمساك به وتحديده بدقة، ولا سيما في الروايات التي تقل أو تنعدم فيها المؤشرات الزمنية (الزمن الموحش - أنت منذ اليوم - الوقائع الغريبة). إنه أخذ هنا مظهر محاولة الخروج على زمن الخطاب السائد، وخلخلة زمن القصة معطياً إياه بذلك نحوية خاصة، وفيها نستخلص خصوصية زمن الخطاب وجدته واختلافه في آن معاً.

فما هي دلالة هذا الزمن وما هي الأبعاد التي يرمي إليها الروائيون بناء على هذا الاشتغال الزمني؟ ذلك ما نلاحظه في بناء النص من خلال حديثنا عما نسميه بـ «زمن النص».

الفصل الثاني

صيغة الخطاب

- 1 - تمهيد نظري .
- 2 - تعدد الخطاب تعدد الصيغ .
- 3 - اشتغال صيغ الخطاب .
- 4 - خصوصية صيغة الخطاب في الزيني
بركات .
- 5 - الصيغة بين الخطاب التاريخي
والخطاب الروائي .
- 6 - صيغة الخطاب الروائي العربي .

I - تمهيد نظري:

1 - تقديم:

1.1. مع الشكلايين الروس والمواقف النظرية التي مارسها هنري جيمس وطورها أتباعه نظرياً، وبالأخص بيرسي لوبوك أمكن الحديث عن تجربة نقدية جديدة لعبت دوراً كبيراً في تطور النقد الروائي بشكل عام. وخطت الطريق أمام كل الممارسة النقدية المؤسسة على قواعد ومحاولات الشكلايين الروس والنقد الأنجلو-أمريكي منذ بدايات هذا القرن.

انطلقت المحاولات الأولى من قاعدتين أساسيتين: فمع جيمس وأتباعه كأن المنطلق هو كيف يمكن كتابة رواية جديدة ومغايرة لمعظم روايات القرن 19. ومع الشكلايين الروس كان المنطلق هو ضرورة تجاوز النقد السائد الذي يعتمد على الشطحات التأملية للناقد أكثر من اعتماده على مكونات نص الكاتب. ومن المنطلقين معاً راح هنري جيمس يدرس ثوابت رواية القرن 19 من أجل نقضها وتجاوزها نظرياً وإبداعياً. وانطلق الشكلايون الروس من إعادة طرح الأسئلة حول العمل الأدبي بوجه عام: ما هي الرواية؟ ما هو الشعر؟... وراحوا يبحثون انطلاقاً من هذه الأسئلة عن نظرية جديدة للأدب أقرب إلى العلم منها إلى التخمين عكسما كان سائداً.

2.1. فيما يتعلق بالحكي بشكل عام، ميز الشكلايون الروس أولاً بين الخطاب والقصة (Sujet / Fable). ويمكن اعتبار هذا التمييز مدخلاً لتجاوز النقد السابق. فالقصة تتعلق بالأحداث والأشخاص في فعلهم وتفاعلهم فيما بينهم مع الأحداث التي تجري. ويرتبط الخطاب بالطريقة التي بواسطتها يتم إيصال القصة أو التعبير عنها. وسيصبح هذا التمييز قاعدة يعتمد عليها كل النقد الذي سينبني على تراث الشكلايين الروس، والذي سيستفيد - بهدف التطور - من كل ما يتحقق في مجال اللسانيات.

وفما يتعلق بالراوي في علاقته بالسرد والشخصيات ميز هنري جيمس بين الراوي العالم بكل شيء والموجود في كل مكان والذي يعلو فوق الحدث بامتلاكه هيمنة السرد، وبين الراوي الذي ينبغي أن «يتنازل» عن سلطته السردية، ويترك للشخصيات فرصة الوجود

المستقل، ويعطيهم إمكانية التعبير عن ذواتهم، داعياً من خلال ذلك إلى «مسرحة» الحدث لا إلى سرده⁽¹⁾.

وتبعاً لهذين العاملين سيغدو التعامل مع الخطاب باعتبار قبوليته التحليل العلمي هو المدخل الرئيسي لنقد جديد يستفيد من معطيات اللسانيات، كما ستغدو مسألة حضور الراوي في الخطاب ودرجة ذلك من مكونات الخطاب الروائي التي أثارت العديد من الاهتمام بما يعرف بـ «وجهة النظر» أو «الرؤية السردية». ويصدد قبول الخطاب للتحليل العلمي سنلاحظ أن منطلق ذلك هو اللسانيات التي حققت تطوراً هائلاً بدءاً من أعمال دوسوسير الذي كان هاجسه تأسيس علم للغة. . .

إذا كانت اللسانيات ترى أن أعلى وحدة يمكنها التعامل معها هي الجملة، فإن الخطاب في هذا المنظور (باعتباره مجموعة من الجمل) جملة كبرى تعامل كما الجملة دراسة وتحليلاً. وتهتم بدراسة حقول معرفية عديدة تستمد مقوماتها وأدواتها ومفاهيمها مما يتحقق باستمرار في مجالات البحث اللساني. يبدو لنا ذلك بوضوح في كون مكونات الخطاب الروائي وعناصره الأساسية التي ينبنى عليها مثلها كممثل مكونات الجملة (الزمن - الجهة - الصيغة): (Temps / Aspect / Mode). وبحسب الاتجاهات اللسانية وتياراتها نجد اختلافات في التعاطي مع هذه المكونات، ومستبعاتها من مكونات صغرى لها أهميتها القصوى في التحليل. كما نجد اشكالاً استمولوجياً يطرح بصدد انتقال تلك الأدوات المستمدة من تحليل الجملة إلى مجال تحليل الخطاب، إذ أن هذا الانتقال يطرح معه مشاكل وقضايا عديدة ترتبط من جهة بمشاكل التحليل اللساني ذاته، وترتبط من جهة ثانية بخصوصية أشكال الخطاب وأنواعه، وبدايات تحليل الخطاب الذي رغم ما تراكم فيه من دراسات عديدة ما يزال في بدايات بداياته من جهة أخرى.

3.1. إن طرحنا لهذه المعطيات والمشاكل يستدعي منا التقصي وتحري الدقة في التناول والتعاطي مع مختلف هذه القضايا، الشيء الذي يفرض علينا أولاً متابعة تلك الآراء حول تلك المكونات مع الوقوف على مختلف مظاهرها وتجلياتها، ومساءلتها ومناقشتها ثانياً. ولعل «الصيغة» كمكون أو كمقولة من مقولات الخطاب أكثر استعصاء وإبهاماً. ونلاحظ من مختلف المصادر التي رجعنا إليها أو اعتمدناها، أو المعاجم المختصة التي استندنا إليها، إجماعاً على صعوبتها وتشعبها وتعقدها، وإجماعاً أيضاً على غناها وأهميتها. ولعل الأول مبني على الثاني. تكتب كبريات - أوركشيويني نقلاً عن تودوروف الذي يصرح بأن «مقولة الصيغة من الطبيعي جداً، أن تكون أكثر المقولات تعقيداً»⁽²⁾.

وتعود هذه التعقيدات إلى خصوصيتها كمقولة، وإلى تنازع اختصاصات عديدة حولها، وتوزعها بينها. من هذه الاختصاصات نجد: علم المنطق وعلوم اللسان

والسيميوطيقا... والبويطيقا... ويحاول كل اختصاص احتكارها وطبعها بطابعه العلمي الخاص. ويكفي للتدليل على ذلك معانيه ما يقوله كلود كوكي (وهو أحد الباحثين في السيميوطيقا الأدبية): «من العبث التفكير في كون الباحثين في اللسانيات أو في المنطق، يعرفون ما يعنون وهم يتحدثون عن مقولة الصيغة»⁽³⁾.

إن هذا التنازع وذاك التعقيد يفرضان علينا التمهّل والإمعان، لا سيما وأن هذه التربة لما تطأها أقدام الباحث العربي في السرديات أو في نقد الرواية لأسباب بنيوية موضوعية وذاتية تتعلق بوضعية البحث الأدبي عموماً في ثقافتنا.

4.2. بما أن همتنا في هذا الفصل هو دراسة صيغة الخطاب في رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني وللروايات الأربع الأخرى، فإننا سنعمد أولاً إلى بسط آراء اختصاصيين يرتبطان بالخطاب الحكائي، وسنحاول من خلال ذلك مناقشتها، وإبراز الحدود التي يقفان عندها من أجل استخلاص وتوضيح تصورنا للمفهوم. ثم سنعين ذلك بجلاء من خلال قراءة الخطاب الروائي الذي قسمناه إلى عشر وحدات كي يتسنى لنا تتبع مختلف الأشكال والتنوعات الصيغية في الخطاب مع ربطها بين الفينة والأخرى بباقي المكونات الأخرى التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً قصد الإمساك بمقومات الخطاب في تكاملها. وعندما سننتهي من تحليل رواية «الزيني بركات» على هذا المستوى، سنحاول القيام بمقارنة بين الخطاب الروائي والخطاب التاريخي على هذا الصعيد، لتتاح لنا بعد ذلك إمكانية مقارنة المتن الروائي العربي الذي نحله في هذا البحث، لكي نصل إلى تكوين فكرة متكاملة عن صيغة الخطاب الروائي العربي المحلل جزئياً وكلياً، ونقف عند خصائصها، وطرائق اشتغالها.

5.2. إن الاختصاصيين اللذين سنقف عندهما في رصد هذا المفهوم هما البويطيقا والسيميوطيقا الأدبية. فإذا كانت البويطيقا كما يقول تودوروف⁽⁴⁾ ترمي إلى تأسيس أدواتها لتحليل أدبية الخطاب الأدبي لا الأعمال الأدبية، باعتبارها نظرية الأدبية، فإنها تستفيد من اللسانيات كما تستفيد من البلاغة القديمة والبويطيقا الكلاسيكية. أما السيميوطيقا فكنظرية للعلامات سواء كانت لفظية أو غير لفظية، فإنها على مستوى الخطاب الأدبي ترى أن المعنى لا يكون إلا حيث الاختلاف، ومن ثمة فإن مقتضيات المعنى تفرض نظاماً مبنيًا من العلاقات والقواعد كما يعمل غريماس وأتباعه⁽⁵⁾. وتبعاً لذلك تميز بين مستويات الوصف التي ضمنها تكون عناصرها وقواعدها متلائمة مع بعضها من أجل الإمساك ليس فقط بنظام (Ordre) الدلالة، ولكن أيضاً من أجل الإحاطة باستعمال (Usage) دلالات النص المحلل. فهي هنا تعتمد بالأساس على السيميوطيقا أو السيمولوجيا، بالإضافة إلى اللسانيات والمنطق وفروع معرفية أخرى تطال العلامة أينما وجدت (طقوس دينية - سينما - رسوم متحركة...).

2 - الصيغة والسرديات :

1.2. يمكننا الذهاب إلى أن التحليل البنيوي للحكي استوى منذ أواسط الستينات، ومنذ ذلك الحين وهو يحقق تطورات هائلة في مجال البحث. ويمكن اعتبار العدد الثامن من «تواصلات» (Communications) سنة 1966 الخاص بالتحليل البنيوي للحكي المنطلق التأسيسي الذي ستستند عليه كل الدراسات التي ستلي في هذا المجال. في هذا العدد نجد دراسة تودوروف الهامة عن «مقولات الحكي» التي يتحدث فيها عن صيغ الحكي (Modes du récit)، رابطاً أياها بجهاته وزمنه⁽⁶⁾. ويوضح أنه إذا كانت الجهات (الرؤيات كما يسميها في «الأدب والدلالة» 1967 تتعلق بالطريقة التي عبرها يتم إدراك القصة من قبل الراوي، فإن صيغ الخطاب تتعلق بالطريقة التي يقدم لنا بها الراوي القصة أو يعرضها. وإلى هذه الصيغ نشير عندما نقول إن الكاتب يعرض (montrer) لنا الأشياء أو أن آخر يقولها (Dire). إن الصيغتين الأساسيتين تبعاً لهذا هما العرض (Représentation) والسرد (Narration). وأنها معاً ترتبطان بالقصة والخطاب. ويمكننا أن نفترض أن الصيغتين معاً كما نجدتهما في الخطاب الحكائي المعاصر تعودان في أصولهما إلى التاريخ والدراما. فالأول سرد خالص، والكاتب مجرد شاهد يقدم الأحداث، والشخصيات لا تتكلم، وتلك أهم أسس الخطاب التاريخي التقليدي. أما في الدراما فإن أحداث القصة ليست مسرودة، ولكنها تجري أمام الأعين مشخصة، وفيها تهيمن أقوال الشخصيات. وعلى قاعدة التحليل اللساني يوضح تودوروف أنه يمكننا الذهاب إلى التمييز بين أقوال الراوي (الأسلوب غير المباشر)، وأقوال الشخصيات (الأسلوب المباشر). وبهذا التمييز نفسر لماذا يتولد عندنا الانطباع بأننا إزاء أفعال مشاهدة (Actes) عندما تكون الصيغة المستعملة هي العرض، ويتلاشى هذا الانطباع في السرد.

وفي قراءته لرواية لاكلو «الوشائج الخطيرة» يوضح أن الصيغتين معاً توجدان فيها. وتبعاً لذلك فالرسائل المتعلقة بالمسارة (Confidences)، يكون فيها الإخبار عن أحداث، وصيغتها هي السرد، أما العرض فنجد في الرسائل المتعلقة بالعلاقات الغرامية. ويلاحظ تودوروف أن هذا التمييز الأولي ليس نهائياً، إذ لا بد من ربطه بتجلياته انطلاقاً من التمييز بين الذاتي والموضوعي في اللغة. فإذا كان كل قول هو في الوقت نفسه ملفوظاً وتلفظاً (énoncé / énonciation)، فإن الملفوظ يرتبط بذات الملفوظ ويبقى موضوعياً، بينما يرتبط التلفظ بذات التلفظ ويحتفظ بالمظهر الذاتي لأنه يعرض في كل حالة فعلاً (غرضاً) متتهياً من لدن الذات. وبناء على هذا فإن بعض أجزاء الخطاب لها وظيفة واحدة هي نقل هذه الذاتية (الضمائر / أسماء الإشارة / أزمان الفعل / بعض الأفعال...)، وبعض الأجزاء الأخرى ترتبط بحقيقة موضوعية. ويمكننا تبعاً لهذا أن نتحدث عن صيغة موضوعية وأخرى ذاتية،

والذي يتحكم في ذلك هو السياق.

ولتوضيح هذا نسوق المثال الذي يأخذه تودوروف من «التربية العاطفية»: «... ودلفوا إلى شارع كومارتان، عندما انفجر خلفهم فجأة صوت شبيه بقعقة قطعة ضخمة من الحرير تمزق (التشديد من الكاتب). كانت تلك مذبحة شارع الكابوسين.

- آه! إنهم يحطمون بعض البورجوازيين، قال فريدريك بهدوء: «لأن هناك حالات عندما يكون فيها المرء القليل القسوة بعيداً عن الآخرين، فإنه يرى هلاك الجنس البشري دون أن يخفق قلبه» (التشديد من الكاتب).

ويعلق تودوروف أن الجملتين معاً في صيغة العرض. والعرض فيهما معاً ينتهي إلينا عن طريق الأسلوب المباشر أولاً، وعن طريق المقارنة والتأمل ثانياً. وهذان الصنفان الأخيران من أقوال الراوي لكهما لا يدخلان في مجال السرد أو صيغته. إنهما لا يخبراننا عن حقيقة خارجة عن الخطاب، بل يأخذان معناً هماً من نفس أقوال الشخصيات، غير أنهما هنا يعلماننا عن صورة الراوي وليس عن صورة الشخصيات (ص 145).

وينتهي كلامه بعد ذلك موضحاً العلاقة الوطيدة بين الجهات (Aspects) والصيغ باعتبارهما يتعلقان بصورة الراوي، لذلك يخلط بينهما بعض الباحثين. ويشير إلى أن كلا من هنري جيمس وب. لوبوك ميزا بين أسلوبين متميزين للحكي: الأسلوب البانورامي (السرد) ويرتبط «بالرؤية من الخلف»، والأسلوب المشهدي (العرض) ويرتبط «بالرؤية مع»، وإن كان هذا الارتباط ليس ضرورياً.

وفي نفس العدد من «تواصلات» 66، يتحدث جيرار جينيت في «حدود الحكي»⁽⁷⁾ عن ثلاث ثنائيات هي: المحاكاة والحكي التام، السرد والوصف، وأخيراً القصة والخطاب. ومن خلالها يبين بدوره صيغتي الخطاب (السرد/ العرض)، وإن كان يستعمل ضمن السرد توازياً آخر مع الوصف باعتبار ارتباطه وعلاقته به. بل أنه وهو يثير قضايا حدود الوصف الداخلية يميز بين الحكي والعرض المشهدي (Représentation Scénique). (ص 158).

نلاحظ مما سبق أن تودوروف وجينيت يتحدثان عن (صيغ) وأن لوبوك يتحدث عن (أساليب). فهل هذه الفروقات الاستعمالية تمس المضمون أم إنها تبقى في حدود التنوع المفهومي؟

2.2. غالباً ما تثار حول بعض المفاهيم الأساسية عموماً نقاشات عديدة حول نشأتها وأول مستخدميها. ولم تخل مقولة الصيغة من هذه النقاشات التي يمكن تلخيصها على الشكل التالي:

1) هناك شبه إجماع من الذين تناولوها من الوجهة البوطيقية حول أولية توظيفها من لدن أرسطو وقبله أفلاطون وإن اختلفت طريقة أحدهما عن الآخر حسب فهم كل واحد منهما للأدب ك محاكاة.

2) في العصر الحديث يرجعها العديد من الباحثين (تودوروف/ جينيت/ وييلي وبيرونوف...) إلى النقد الأنجلو- أمريكي وبالأخص مع جيمس ولوبوك في كتابه «صناعة الرواية».

3) ترى الباحثة سوزان رينلجر أن مُدخلها إلى مجال النقد هما ويليك ووارين وليس جيمس أو لوبوك أو بيتش⁽⁸⁾.

4) بعدوتنا إلى وارين وويليك نجدهما يتحدثان في نظرية الأدب⁽⁹⁾ عن كون كلمة السرد حين تقرن التخيل يجب أن تتضمن التعارض مع التخيل الشامل القابل للتمثيل المسرحي إذ أن القصة يقدمها ممثلون صامتون أو يقصها راو. ويشيران إلى أن الدفاع عن الشكل المسرحي (العرض) احتج له «لودفيغ وفلووير وجيمس...» وقبلهم جميعاً ديكنز.

5) وعندما نبحث في كتابات الشكلانيين الروس، نجد ايخناوم في «حول نظرية النثر» يشير بدوره إلى «أوتولودفيغ» (1865/1813) الذي يميز حسب وظيفة الحكى بين شكلين للسرد: السرد بالمعنى الحرفي (الراوي) والسرد المشهدي (الحوار بين الشخصيات). ويعلق ايخناوم⁽¹⁰⁾؛ «وما دامت نظرية النثر تقتصر على شكل تركيب الأثر الأدبي، فإن الفرق يظهر كما لو كان بدون معنى، غير أنه يكتسي أهمية أساسية بمجرد ما نمس بعض المشاكل الأولى المرتبطة بنظرية النثر الأدبي». ويلح ايخناوم بعد ذلك، على أن النظرية جينية لذلك لم تدرس بعد العناصر المحددة لشكل سردي معين.

6) كتب زاكوسكين (موسكو والموسكوفيون) : (1852/1789): «عندما يتحدث الجميع، فإن السرد لا يكون في مكانه المناسب، فهذه العبارات الشارحة: قال أحدهم وقاطعت إحداهن... لا تؤدي إلّا إلى بلبلة أو تشتيت ذهن القارئ! ولهذا فلتسمحوا لي باللجوء إلى الشكل المسرحي العادي، فإنه أوضح وأبسط...»⁽¹¹⁾.

3.2. نلاحظ من خلال هذه النقطة أن الوعي بأهمية الصيغة والتمييز بينها وارد من خلال الدعوات إلى مسرحية الحدث لا قوله فقط كتجاوز للمفهوم الأدبي السائد منذ أرسطو، وإن زاكوسكين لا يشار إليه في هذا الصدد، كما نلاحظ أن الشكلانيين الروس طرحوا المشكل المتعلق بالصيغة وقدر ايخناوم صعوبة دراستها، ودعا إلى الاهتمام بها. كما أن النقد الأنجلو- الأمريكي والإبداع جعلها حجر الزاوية في تقديرهم، وعلى أساس ذلك تمت مواجهة صيغة السرد التي يهيمن فيها الراوي ورؤيته من الخلف، الشيء الذي يجعلنا

امام محاولة جديدة في النقد والإبداع تعطي مفهوم الصيغة أبعاداً جديدة تختلف عما كانت عليه سابقاً. ومع ذلك فإن استعمال المفهوم لم يكن من بدايات هذا القرن إلى أواسطه محدداً وموحداً لدى الباحثين ، وإن كان يُحال إلى نفس الظاهرة التي تنطلق منها.

فحتى عندما استعمل «تودوروف» مقولة الصيغة في مقولات الحكيم كما أشرنا، فهو نفسه يظل يبحث عن مفهوم آخر يستعمله في كتابه «الأدب والدلالة»⁽¹²⁾ (1967) كمقابل للصيغة وهو «سجلات القول» (Registre de la parole) . وهو يعيد هنا ما قاله في مقولات الحكيم، لكنه يستعمل مكان الصيغة السجل (السجلات). ويحتفظ تودوروف بنفس التعريف للجهة كما وظفه سابقاً (الرؤية هنا) والصيغة (السجل هنا). ويؤكد أن هناك سجلين أساسيين: العرض والسرد. ويربط استعمال المفهومين بالبويطيقا الكلاسيكية، ويحاول البحث عن مختلف سجلات القول (أو الكلام) في الرواية نفسها (الوشائج الخطيرة). ويستخلص من مناقشته للسرد والعرض المظهر الحرفي (Littérale) للقول الذي وإن كان يبدو لنا المظهر المرجعي في المقطع السردى، فإنه المهيمن، إذ أنه يبدو لنا في المقطع السردى إلى جانب المظهر المرجعي حاضراً كما يبدو لنا منفرداً في المقطع العرضي الذي لا يحيل على واقع خارجي عند (تأمله). هذا المظهر الحرفي للقول يبدو لنا حسب تودوروف من خلال ثلاثة أنواع للخطاب:

- الخطاب الإيحائي (Connotatif) ؛ الذي يستدعي سياقاً من الكلمات .
- الخطاب المنقول (Rapporté) ؛ نفهم من السياق أنه سبق أن لفظ به (الشواهد).
- الخطاب الشخصي (Personnel) ؛ الذي يتضمن المعينات (Shifters) ؛ مثل : (ضمير المتكلم، هنا، الآن . . .) وينتهي إلى العلاقة بين الرؤية والسجل المتعلقين معاً بصورة الراوي الشيء الذي جعل الباحثين يخلطون بينهما في أغلب الأحيان .

غير أن تودوروف سيعود سنة (1973) في كتابه (البويطيقا) إلى استعمال الصيغة⁽¹³⁾ . بانياً دراسته على ما حققه ج. جنيت من تطويع وإغناء لمقومات الخطاب الحكائي في كتابه «خطاب الحكيم». لذلك سنجد السرديين وبالأخص تودوروف وجنيت ومن يسير على نهجهما يقصي كثرة التردد في استعمال مفهوم الصيغة (Modes) ، وذلك انطلاقاً من مماثلة تحليل الخطاب لتحليل الجملة لسانياً. لذلك يمكن تسجيل كون توظيف هذا المفهوم يحتفظ بالاستعمال الجاري في التحليل اللساني الشيء الذي لا نجده يتم مثلاً مع مفهوم «Aspect» في بُعد اللساني إذ سنجد يعوض بمصطلحات أخرى جارية في السرديات ومستحدثت عن أسباب استعماله ذلك في الفصل الثالث الخاص بالرؤية السردية .

4.2. اهتم «وين بوث» بالتمييز بين السرد (Telling) والعرض (Showing) في كتابه

«بلاغة الرواية»، وجعل الفصل الأول من كتابه حول التمييز بينهما كما أنه أشار إليهما إشارات عديدة في كتابه الضخم. يتبدى أولاً بتسجيل أن الراوي أو الملاحظ أياً كان الضمير الذي يستعمله في إرسال القصة يحكي بالدرجة الأولى، أما عن طريق «المشهد» (Scene) ويمثل لذلك برواية «القتلة» لهنري جيمس، أو عن طريق «التلخيص» بالدرجة الأولى، ويقدم لذلك حكايات أديسون «المتفرج» التي نجدها مثلاً خالية من المشاهد، أو أنها تأتي مختلطة بالتلخيصات⁽¹⁴⁾.

يشير بوث إلى التمييز الذي أقامه أرسطو بين الأنواع الدرامية والأنواع السردية وينتقد تصويره للمحاكاة وعلاقة هذا التمييز الاختلافية بعض الشيء بالتمييز الجاري بين السرد والعرض، وما كان لهذا التمييز بينهما من أثر بالغ في الدراسة الأدبية، لكنه يبدي إعراضاً هاماً حول نوعية التعامل القائم معهما، من خلال تأكيده على أننا عندما نفكر في الاختلاف الجذري لأثر مشهد يقدمه «هوك فين» ومشهد آخر يقدمه «مونتريزور» لادغار آلان بو، فإننا يقول بوث: «ستبين أن نعت هذا المقطع أو ذاك بأنه مشهد لا يقدم لنا شيئاً ذا قيمة حول الأثر الأدبي الذي ينجم عن توظيف المشهد. لذلك نجده في بداية كتابه يحاول البحث في نوعيات هذه الآثار على المتلقى من خلال استعمال المشهد أو التلخيص، العرض أو السرد من خلال تحليل قصتين من «ديكاميرون» لبوكاشيو⁽¹⁵⁾.

ومن خلال إشارته إلى الفروقات التي نجدها مثلاً في «التلخيص» الجميل لـ 12 سنة تجري على صفحتين من «توم جونز»، وفي «العرض» (Showing) الصاخب لـ 10 دقائق فقط في حوار طويل جداً مع سارتر، ما يترك عاطفته حيال «الواقعية الزمنية» تملّي عليه «مشهداً» حيث ينبغي أن يكون التلخيص، يخلص إلى أن التقابل بين العرض والسرد، بين المشهد والتلخيص يظل ذا فائدة قليلة في التحليل ما دمنا لم نخصص نوع الراوي المسؤول عن هذا المشهد أو ذاك التلخيص (ص 98).

5.2. وانطلاقاً من استعمال مفهوم «الصيغة» كما حددناه مع السرديين ينطلق جيرار جنيت في كتابة «خطاب الحكّي»⁽¹⁶⁾ من تحديد ثلاث مكونات للخطاب الروائي وهي الزمن والصيغة ثم الصوت. وبصدد حديثه عن الصيغة يوضح كونها تنطبق على الخطاب شأنها في ذلك شأن الزمن. ولأن وظيفة الحكّي لا تكمن في إعطاء أمر أو تسجيل تَمَنُّ أو إعلان شرط... لأن دورها يكمن فقط في حكي قصة أو نقل أحداث حقيقية أو متخيلة، فإن الأساسي على مستوى الخطاب الحكائي ليست فقط تلك الاختلافات بين الأمر أو النهي أو التمني... ولكن في درجة التأكيد على اختلاف هذه الصيغ المعبر عنها عادة بـ «المتغيرات الصيغية» (Variations Modales). وهذه الوظيفة هي التي أشار إليها «ليترى» (Littre) في تعريفه اللساني لمقولة الصيغة التي يراها عبارة عن مختلف أشكال الفعل المستعملة لتأكيد الشيء

قوة وضعفاً، ومختلف وجهات النظر التي من خلالها نعتبر وجود الشيء أو الحدث» (ص. 183).

أنه يمكننا - يتابع جنيت - أن نحكي بهذه الدرجة أو تلك أو حسب وجهة النظر هذه أو تلك ما نريد حكيه. إن هذه القدرة وهذه الاختلافات الصيغية واستعمالاتها هي التي نقصد عندما نتحدث عن «الصيغة السردية» (Mode Narratif) أي تقديم السرد أو الإخبار السردى ودرجاته. وتبعاً لذلك:

(1) يمكن للحكي أن يقدم للقارئ درجة أقل أو أكثر من التفاصيل، وبطريقة مباشرة بهذا الشكل أو ذاك. وهكذا ففعل الحكي (récit) يمكن أن يظل على مسافة (Distance) ما مما يقدمه كحكي عن شيء يحكيه.

(2) يمكن للحكي أن يختار طريقة لضبط الإخبار (Information) الذي يرسله حسب إمكانات المعرفة لهذا الجزء أو ذاك من أجزاء القصة (شخصيات/ أحداث...). أي ما يسمى عادة بالرؤية أو وجهة النظر التي تبدو وكأنها تأخذ إزاء القصة هذا المنظور (Perspective) أو ذاك.

إن المسافة (Distance) والمنظور (Perspective) هما الموجهان الأساسيان لمثل هذا الضبط والتنظيم للإخبار السردى الذي يُسمّى الصيغة (Mode). ويتحدث ضمن المسافة عن حكي الأحداث وحكي الأقوال. وضمن المنظور بما يسميه بالتبثيرات (Focalisation) وتبدلاتها، وينتهي أخيراً إلى الحديث عن تعدد الصيغة (Polymodalité) عند مارسيل بروسست في «بحثاً عن الزمن المفقود».

وبما أن همنّا ليس عرض الفصل وإنما معرفة كيف قدّم جنيت مفهوم الصيغة فإننا سنحاول تقديم ذلك بتركيز شديد، ولعل الصورة التي قدمناها الآن عن الفصل تؤثر لذلك.

في حديثه عن المسافة (ص 184)، ينطلق الباحث من أن هذه القضية أثارها أفلاطون في الكتاب الثالث من الجمهورية عندما أقام تعارضاً بين صيغتين للحكي:

(1) الشاعر يتكلم باسمه ولا يوهمنّا أن نبحث عن متكلم آخر: الحكي التام (Récit pur) أو (Diégésis).

(2) يجهد الشاعر أن يشعرنا أنه ليس المتكلم إذ أنه يعطي الكلام للشخصيات (Mimésis). إن الحكي التام يمكن اعتباره على مسافة أبعد من المحاكاة، لأنه يقول الأقل على مستوى الإخبار، ولكن بطريقة وسيطية.

أما أرسطو فقد حَيّدَ هذه الثنائية، وجعل السرد والعرض مجرد تنويعين للمحاكاة.

وعلى هذا يبني جنيت تصوره بتأكيده على أن ما ذهب إليه أرسطو هو الذي سينهض في نظرية الرواية في أمريكا وإنجلترا في نهاية القرن 19 وبدايات القرن 20 مع جيمس وأتباعه تحت مفاهيم العرض (Montrer) والسرد (Raconter) ويشير إلى النقد الذي وجهه بوث (W.C. Booth) لهذا التقسيم الأرسطي للمحاكاة، ويوضح اتفاقه معه في كون استعمال العرض (Showing) كمحاكاة هو مجرد وهم. فعلى عكس العرض المسرحي لا يمكن لأي خطاب حكاثي أن يعرض (= يحاكي) القصة التي يحكيها إذ لا يمكن الحكي بطريقة تفصيلية تدقيقية و«حية». وتبعاً لذلك لا يمكن إعطاء «وهم» المحاكاة أي شأن صغر أو كبر، لأننا هنا لسنا إلا أمام المحاكاة السردية الوحيدة. ولهذا السبب فإن الحكي شفوياً كان أو كتابياً هو حدث لغوي، وإن اللغة تعني دون أن يكون همها أن تُحاكى. ويميز بعد ذلك بين خطاب الأحداث (السرد) وخطاب الأقوال (العرض) على النحو التالي كما نوضحه من خلال النقطتين:

1- في خطاب الأحداث (ص 186) يتحدث عن أفلاطون الذي يعيد كتابة مقطع سردي من هوميروس بالطريقة التي تتوارى فيها أقوال الشخصيات ويهيمن «هو» كضمير للراوي. يلاحظ جنيت أن هذا لا يلغي المحاكاة أو يؤكدها، لأن مسألة المحاكاة مفهومة بارتباطها بالعصور وتطور التاريخ. فما يفهم في عصر على أنه محاكاة لا يعتبر كذلك في حقبة أخرى. وهكذا فالتجسيد الراسيني (Racine) يفهمه جمهور عصره على أنه محاكاة، لكن القارئ المعاصر لا يرى فيه إلا الجانب «التعبيري». ولهذا فإن العناصر المحاكائية النصية المحضة تعود إلى هذين المعطين الضمنيين اللذين نجد حضورهما في ملاحظات أفلاطون وهما: كمية الإخبار السردية (حكاية مطورة أو مفصلة) من جهة وغياب أو قلة حضور المخبر (الراوي) من جهة ثانية. وتبعاً لذلك فإن كمية الإخبار ودرجة حضور الراوي تتجلى لنا من خلالهما المحاكاة (العرض) محددة في درجة عليا من الإخبار ودرجة دنيا من حضور الراوي (المخبر) وعلى عكس ذلك الحكي التام (Diégésis) تماماً.

وهذا التعريف يرتبط بوثوق بالتحديد الزمني، لأن كمية الإخبار القصوى ترتبط بسرعة سردية دنيا، كما أنه يرتبط بـ «الصوت» (Voix) أي درجة حضور الراوي.

2- على مستوى «حكي الأقوال» (ص 189) يؤكد جنيت أن هناك تمييزاً بين خطاب هوميروس وخطاب أفلاطون في إعادة كتابة مقطع هوميروس بدون أقوال الشخصيات: فخطاب هوميروس منقول (يحاكي أقوال الشخصيات) بينما خطاب أفلاطون مسرود (منظور إليه كبقية الأحداث). وباستعمال الأسلوب غير المباشر وإدخال عناصر وسيطية مع حذف الجمل يصبح هناك خطاب ثالث هو غير المباشر (Transposé). وعلى

أساس ذلك يميز بين ثلاثة أنواع من الخطاب هي :

1- الخطاب المسرود (Narrativisé) ؛ وهو طبعاً الأبعد مسافة ، فعندما يقول بطل القصة : «وأخبرت أُمي عن الزواج من البرتين» . فإن الأمر إذا كان يتعلق بأفكاره لا بأقواله فإن الملفوظ (énoncé) يمكنه أن يكون أكثر اختصاراً وأكثر قرباً من الحدث العام : «قررت الزواج من البرتين» ، ويمكن اعتباره حكي أفكار أو خطاباً داخلياً مسروداً .

2- خطاب الأسلوب غير المباشر (Transposé) ؛ عندما يقول البطل : «أقول لأُمي بأنني حتماً سأتزوج من البرتين» . فهذا الشكل هو أكثر محاكاة من الخطاب المسرود ، لأنه لا يمكن أن يعطي أي ضمان ، أو أي إحساس بالأمانة اللفظية لأقوال «الحقيقة» المفوه بها .

3- الخطاب المنقول (Rapporté) المباشر : وهو الشكل الأكثر محاكاة . رفضه أفلاطون لأن الراوي فيه يترك الكلام للشخصيات : «قلت لأُمي : يجب مطلقاً أن أتزوج من البرتين» . وهذا الأسلوب اعتبره أرسطو الشكل السردى «المختلط» الذي نجده في الملحمة وبعد ذلك في الرواية .

ثم يثير الانتباه إلى العلاقة بين الخطاب العرضي المباشر (Immédiat) والخطاب المنقول والخلط الذي يتم بينهما ، ذاهباً إلى أنه يمكننا التمييز بينهما ، وذلك عن طريق تسجيل مدى حضور أو غياب المدخل المنقول عن الراوي . فالخطاب المنقول يتكلم فيه الراوي بخطاب الشخصية ، أو أن الشخصية تتكلم فيه بصوت الراوي لذلك فإن الفعلين السردين يختلطان . وفي الخطاب العرضي المباشر يمحي الراوي تماماً وتعوضه الشخصية (ص 194) . وينتهي إلى أن مختلف هذه الأشكال المميزة تسعفنا النصوص على تلمسها منطلقاً في ذلك من رواية «بحثا عن الزمن المفقود» .

يتحدث بعد ذلك في المنظور عن الخلط السائد بين الصوت (Voix) والصيغة (Mode) أي بين من يرى؟ ومن يتكلم؟ ويحدد أنواع التبشير الثلاثة (الصفير/ الداخلي/ الخارجي) ، ثم يناقش التبدلات التي تطرأ عليها ويختم هذا الفصل بحديثه عن تعدد الصيغة (Polimodalité) في الممارسة السردية عند بروسست من خلال ربطه بين التبشير والصيغة فيؤكد كون تلك الممارسة تراوح بين الصيغ الثلاث للتبشير من إرادة الوعي عند البطل إلى إرادة الوعي عند الراوي لتستقر بين الفينة والأخرى على الشخصيات في اختلافها (ص 223) .

يلاحظ هنا ، أننا لم نتوسع في عرض وجهة نظره جيران جنيت حول المظهر الثاني الذي أسماه بـ «المنظور» ، ولم نتحدث بتفصيل عن ربطه بين المسافة والمنظور ضمن الصيغة وعلاقتها معاً بالصوت ، لإننا لا نسايره في هذا الربط أو ذاك التمييز . لذلك اقتصرنا في

عرضنا هنا على ما يتعلق بـ «المسافة» لأننا نعتبره على صلة أوثق بما نعتبره داخلياً وحده في نطاق ما نسميه بالصيغة. وسنوضح لماذا، جزئياً في هذا التقديم عندما نعرض فهمنا للصيغة وما يرتبط بها، وكملياً، عندما تنتقل إلى الفصل الثالث الذي نقصره على ما نسميه بـ «الرؤية السردية والصوت»، وما يصاحب هذه التمييزات من اختلاف لدى السريدين بصفة عامة.

6.2. من نفس المنطلق تقريباً ينطلق تودوروف (1973)⁽¹⁷⁾. فهو يوقع الصيغة في كون النص الحكائي يستدعي بالكلمات: 1 - عالم كلمات و 2 - عالم أحداث وخصائص غير لفظية. ويؤكد بدوره كون هذا التمييز أقامه أفلاطون بين المحاكاة (mimésis): (الحكي بالأقوال) والحكي التام (diégésis): الحكي بلا أقوال. ويبين أننا في الأولى نتحدث عن إدخال (Insertion) أقوال ملفوظ بها وأنها نتحدث في الثانية عن تعيين (désignation) أحداث غير لفظية بالكلمات. إن حكي الأحداث غير اللفظية لا يعرف إذن تنويعات صيغية، ولكن فقط تنويعات تاريخية، تنتج بهذا الشكل أو ذاك وحسب العصور وهم «الواقعية» على اعتبار إن الأشياء لا تحمل بأي شكل أسماءها التي تعنيها بذاتها. أما حكي الأقوال فيعرف أشكالاً عديدة، لأن الأقوال يمكن أن «تدخل» بشكل أو أكثر دقة. ويحيل إلى الدرجات الثلاث التي يميز فيها جنيت هذا «الإدخال» كما أشرنا إليها أعلاه. وينهي حديثه عن الصيغة من خلال تركيزه على درجة الدقة التي يستدعي بها الخطاب مرجعه والتي نجدها ثلاث درجات: درجة قصوى (الأسلوب المباشر)، درجة دنيا (في غير الأقوال) وأخيراً درجة وسيطة (في الأشكال الأخرى).

7.2. في سنة 1971 تنشر راييموند ديبري - جينيت دراسة «حول الصيغة السردية في الحكايات الثلاث» لفلوبير⁽¹⁸⁾. تنطلق الكاتبة من كون الصيغة من أهم القضايا المطروحة وأكثرها غنى باعتبارها التنويعات الصيغية التي عبرها يمكن أن يتحرك فيها وبواسطتها الخطاب: التقديم السري. وتشير في هامش إلى إرتباط الصيغة بالجهة عند تودوروف على أساس كون الصيغة هي صيغة إدراك وصيغة عرض القصة بواسطة الراوي. وتؤكد على الدور الذي لعبه لوبوك وجان روسي والتأملات العملية لهنري جيمس في هذا الصدد. وفي دراستها للحكايات الثلاث تبين أنه لا يمكن إستنفاد ما استعمله فلوبيير من مشاهد وتلخيصات ووصف ورؤية على ما بينها جميعاً من علاقات وطيدة. وتلج على كون الراوي يقيم، ومن هنا يقيّمنا معه، على «مسافة» تقل أو تبعد من الأحداث أو الأقوال التي يُقدمها. ورغم كونها تؤكد على ترابط تلك العناصر فإننا نجدها تميز بين التلخيص (Sommaire/ résumé) والمشهد (Scène)، وترى انهما الصيغتان الأساسيتان في مجال الحكي؛ وأن هناك درجات لا منتهية بين التلخيص وبين المشهد المباشر أو الدرامي. وتعطي نموذجاً لكل من التلخيص والمشهد:

- تلخيص: «انخرط في مجموعة من المغامرين مرّت، عرف الجوع والعطش، عرف أنواع الحمى والأوبئة».

- مشهد: - هيرودياس، صاح به: «أقتله».

- «توقف» قال لوطيطراك.

صار جامداً مكانه هو الآخر أيضاً. ثم تراجعاً، وسار كل في سُلّم مخالف، إلى الوراء، دون أن يبعد أحدهما عن الآخر» (ص 41).

وتشدد رايموند - ديري جنيت على قوة العلاقة بين المشهد والتلخيص إلى الدرجة التي يصعب فيها أحياناً التمييز بينهما في مقطع سرديّ ما . وباعتبار جدلية العلاقة بينهما ترى أنه يمكننا أن نجد التلخيص الأقصى في داخل المشهد الدرامي، إذ كلما اتسع المشهد وامتد استدعى التلخيص الاخباري. إننا نعتبر نكتب «جنيت» التلخيص كاقصاا للمشهد، والمشهد كتمديد للتلخيص (ص 42):

«مسه أحد ما، التفت، كان هيرودياس قبالتة»، إنه النموذج التاريخي الذي نجده في مثل هذه الصيغة والذي شاع في القرن الثامن عشر (فولتير / مونتيسكيو. . .) والذي سار عليه فلوير في الحكايات الثلاث وفي إبداعه الروائي كله. وإذا كان لوبوك يتحدث عن «رؤية مشهدية» (Vision scénique)، فإن فلوير يتحدث عن «نوع درامي». وبذلك فالمشهد الروائي مثله كمثل المسرحي إذ من خصائصه الدقة وكل شيء فيه يتم بواسطة الكلمات وتري أيضاً أنه لا يمكن عزل دراسة الصيغة السردية عن الزمن لأنه غالباً ما لا يتاح لنا التمييز بين المشهد والتلخيص إلا بالتمييز بين زمن السرد وزمن المسرود وتعطي نماذج من الحكايات الثلاث «يحذف» فيها فلوير سنوات وأحياناً أخرى يركز الحدث في أربع وعشرين ساعة. . . وبذلك فالحدث أو القصة بكاملها يمكن أن تصبح مشهداً واحداً.

8.2. من أهم الدراسات التي اطلعت عليها، والتي تقدم قراءة دقيقة لمشروع جيار جنيت السردى، قراءة الباحثة ميك بال (M. Bal) في مقالها حول «السرد والتبئير»⁽¹⁹⁾. وسيهما بالدرجة الأولى ما يتعلق هنا بـ «الصيغة». في مقدمة هذه الدراسة تنطلق «بال» من إبراز خصوصية مشروع جنيت من خلال كتابه «خطاب الحكى» في إقامة نظرية متكاملة وجديدة للسرد. وبعد تأكيدها على أصالة وعمق المشروع النظري وريادته ثني كثيراً على الفصل الأول الخاص بالزمن وتكشف عن خصوصية تقسيماته وعمقه وطليعيته وانسجامه. وتنتقل بعد ذلك إلى الفصلين الأخيرين فتبين قيمتهما العلمية والإجرائية في إقامة سرديات متكاملة، مشددة من خلال ذلك على خصوصية التمييز الذي أقامه الباحث بين المنظور

perspective ضمن الصيغة (mode) والصوت السردي (voix). وتبين انها بدورها كانت ضحية هذا الخلط في دراسة سابقة لها.

توضح في البداية إننا في «الصيغة» مع جنيت لأنجدنا فقط أمام «المنظور» أو «وجهة النظر»، ولكننا أيضاً أمام «المسافة» المتصلة بالتميز بين ما عرف قديماً بالسرد والعرض. ولقد وصل جنيت إلى ذلك بناء على نسخة النموذج اللساني حول المقولات اللفظية إنطلاقاً من تعريف ليتري (Litttré) إياها، كما سبق أن سجلنا ذلك (أنظر 2 - 5 من هذا التقديم).

نلاحظ من خلال تعريف ليتري للصيغة بعدين:

- 1/ مختلف أشكال الفعل المستعملة لتأكيد الشيء قوة وضعفاً.
- 2/ مختلف وجهات النظر التي من خلالها نعتبر وجود الشيء أو الحدث. يجعل جنيت البعد الأول موازياً عنده لما يسميه «المسافة» والثاني مقابلاً للمنظور الذي يبحث من خلاله عن التبثيرات.

في قراءة «ميك بال» للمسافة تلاحظ بدءاً أن فصل (الصيغة) ببعديه (المسافة/ المنظور)، مقسم قسمين غير متجانسين، إذ القسم الأول (المنظور) يتعلق «بمن يرى؟»، أما المسافة فنجدها خاصة بالتميز بين المحاكاة (mimésis) والحكي التام (diégésis). وفي المسافة لا نجد حضوراً للصوت السردى (instance). وترى أن عدم التجانس هذا كامن في إتخاذ تعريف ليتري للصيغة (mode) ذريعة. فإذا كان «ليتري» يحمل البعد الأول، وهو يتحدث عن تأكيد الشيء قوة وضعفاً، درجة التأكيد ونوعيته، فإن جنيت وهو يميز بين المحاكاة والحكي التام يستعمل معياراً كمياً لتحديد «كيفيات التأكيد». لذلك نعاين تستخلص الباحثة انزلاقاً في تحديده من درجة الكم إلى الكيفية. وتنتهي إلى إعتبار حديثه عن الصيغة من خلال «المسافة»، زائداً (superflu)، ومن خلال «التبثيرات» ناقصاً (manque).

فيما يتصل بـ «حكي الأحداث» ضمن «المسافة» وهي التي تهمنا هنا، كما سبق التأكيد على ذلك، توضح أن المعيار الذي يقوم عليه التصنيف الذي يجريه بين حكي الأقوال والأحداث هو كمية الإخبار وقلة كمية المخبر informateur وآثاره. وليصبح هذا المعيار إجرائياً لا بد من البحث في المقصود بالإخبار والمخبر، وإذا كان الإخبار عند جنيت يتصل بالموضوع المسرود، فإن أقصى الإخبار هو الموضوع المسرود بأكثر التفاصيل الممكنة. لذلك ستغدو كل التفاصيل «الزائدة» ذات وظيفة محددة هي «إبراز» الواقع، وبذلك ترتبط التفاصيل بـ «إيحاءات المحاكاة» (ص 186).

لكن الحكي كلما تم عن طريق الحكي التام كلما قلت التفاصيل هكذا:

- المحاكاة: الوصف (كثرة التفاصيل).

- الحكيم التام: الأحداث (قلة التفاصيل).

أما فيما يتصل بحكي الأقوال ضمن المسافة أيضاً، فإننا سنجدنا أمام محاكاة مطلقة عكس حكي الأحداث. وهذه المحاكاة المطلقة لا تبدو إلا في نمط واحد من ثلاثة أنماط أقامها جنيت في نمذجته إياها:

(1) في الخطاب المعروض (المباشر): حيث يتم الاستشهاد الحرفي بالأقوال والأفكار، نجدنا أمام محاكاة خالصة.

(2) في الخطاب المسرود (narrativisé)، نجدنا أمام خطاب الراوي، وهو أكثر حكيًا وسردية. لذلك لا يمكننا تمييزه، تقول «بال» عن حكي الأحداث.

(3) في الخطاب غير المباشر: نجدنا أمام حالة وسيطية بين السابقين. فالنمط الأول كما تخلص «ميك بال» في مناقشتها لجنيت هو وحده الذي يمكن إدخاله ضمن ما يسميه جنيت بـ «حكي الأقوال»، لذلك تعتبره الباحثة في الأصل «ميتاسردي» إنه «ميتا حكي» (méréci). أما النمطان الأخيران فأحرى أن يدخلوا معاً ضمن «حكي الأحداث» لا حكي الأقوال. وبسبب الصلة الوطيدة بين كمية «المخبر» والصوت، إن مكانها هو «الصوت» لا «الصيغة». لكن بإزالة النمطين الثاني والثالث وكمية المخبر ماذا سيبقى ضمن المسافة؟! كمية الأخبار فقط أو «حكي الأحداث» لذلك تستنتج الباحثة أن حديثه عن «المسافة» كان زائداً جداً ومتضخماً، ونقيض ذلك ستعانيه عندما تتحدث عن «المنظور».

9.2. من الذين تناولوا الصيغة أيضاً نجد ويللي وبورنوف في كتابهما «عالم الرواية» (1981)⁽³⁰⁾. يتناولان في الفصل الخاص بـ «القصة والسرد» التمييز بين القصة والخطاب أولاً وتحت عنوان «مشهد أم تلخيص؟» (ص 57) مسألة الصيغة ثانياً. ليعطي الكاتب الحياة للشخصيات يعمد إلى المزوجة بين «صيغتي» المحاكاة الشعرية التي يرجعناها إلى أرسطو الذي يميز بين صيغة مباشرة: تجري فيها الأحداث أمامنا من خلال المتكلمين. وصيغة سردية يتكفل بها الراوي، ويؤكد أن دورهما على كون هذا التمييز عمقه جيمس ولوبوك من خلال حديثهما عن حكي مشهدي وتلخيص (résumé / scène). ويضيفان إليهما الوصف للحصول على سلم العمليات السردية التي يمتلكها الروائي. ثم يُقدّم لنا نموذج من رواية (مدام بوفاري) لفلوير للتمييز بين المشهد والتلخيص، ليخلصا بعد ذلك إلى تداخل الصيغتين وتربطهما إلى الدرجة التي لا يمكن أن يكون فيها الانتقال أحياناً من صيغة إلى أخرى ملحوظاً. وفي إطار العلاقة بين التلخيص (الحكي البانورامي) والمشهد يبينان كما فعلت ديبري جنيت احتياج أحدهما للآخر. ففي الأول يركز الكاتب على الجانب الإخباري

ويقوم الفواصل بين مختلف الحالات (الرجوع إلى الماضي، ماضي الشخصيات والأحداث...)، وفيه يقف الكاتب مراراً ملقياً نظرة على الأشخاص... ويترك بذور المشاهد تنمو ببطء، بينما المشهد يعطي للأحداث الموصوفة طابعاً خاصاً ومنفرداً، عرضياً وقاراً باللمحة التي يتفاهم فيها البعد الدرامي. ويقدمان بعد ذلك نماذج للتداخل بين المشهد والتلخيص كصيغتين من خلال بعض الأعمال الروائية.

10.2. ويعود جيرار جنيت في كتابه «خطاب الحكيم الجديد»⁽²¹⁾ (نوفمبر 1983) إلى معاودة المفهوم نفسه مراجعاً ومُنقِحاً، وراداً على كل الذين تعرضوا لكتابه السابق «خطاب الحكيم» (1972) بالنقد والتحليل. يرى أن اختيار مفهوم «الصيغة» بسبب كونه يشتمل على كل القضايا المرتبطة بمختلف طرائق تنظيم الإخبار السردية كان طبيعياً ومناسباً رغم الطابع المجازي الذي يحتفظ به إلى جانب الزمن والصوت. لكن وبعد الممارسة الطويلة (أزيد من عقد) ظهرت سلبية، لأنه كما يقول جنيت، عندما طرحت عليه مسألة السرد والعرض الدرامي التي يمكن تعيينها بشكل آخر، باعتبار الصيغتين الأساسيتين لـ «التقديم» أو «التمثيل» (العرض) *représentation* اللفظي في مجال الحكيم بدا ذلك واضحاً. ويحتاج على استعمال هذا المفهوم (*représentation*) الذي يرى أنه رغم نجاحه فإنه يحمل الكثير من الإبهام. ويؤكد أنه سيستعمل مكانه «الإخبار» (*information*)، لأن الحكيم مثله مثل الأدب هو فعل من أفعال الكلام «acte»، وبالتالي فهو لا يقدم القصة أو يعرضها، لكنه يخبر عنها ويحكىها، أي أنه يدل عليها بواسطة اللغة، ثم يوضح كون التمييز بين المحاكاة والحكي التام لا يخلو من اضطراب إلا إذا فهمنا المحاكاة كأقوال الشخصيات (حوار)، الشيء الذي يجعلنا هنا بإزاء نصين في الحكيم: نص الراوي (حكي الأحداث) ونص الشخصيات (حكي الأقوال). ويؤكد بعد ذلك كونه يحتفظ باستعمال المسافة والمنظور أي كم من الإخبار السردية؟ وعبر أية قناة يتم إرسال ذلك.

واحتجاجه على «العرض» يعود إلى كون التمييز بين حكي (*raconter*) وعرض / قدم (*montrer*) غير دقيق لأن الفعل الأخير لا يمكنه بشكل طبيعي أن يدل على أقوال الشخصيات. وفي حديثه عن حكي الأحداث يبين الفرق بين المشهد والتلخيص على اعتبار كون حكي الأحداث يتم حسب درجات تحقيق بعض الطرائق المحركة لوهم المحاكاة مثل التفاصيل العديدة والزائدة... إن الحكي التفصيلي يقول ج. جنيت ذو طابع «مشهدي» لأنه يعطي للقارئ حضوراً أكبر لوهم المحاكاة، على عكس «التلخيص» السريع والبعيد، ويرد على بعض منتقديه بخصوص وظيفة تلك التفاصيل الزائدة والعديدة.

وفي حكي الأقوال يبين أن ما يتعلق بهذه النقطة سيسميه صيغ إعادة إنتاج (*reproduction*) الخطاب وفكر الشخصيات في مجال الحكيم الأدبي المكتوب. إن إعادة

الإنتاج تعني هنا الإشارة إلى الطابع المتخيل للنموذج اللفظي حسب الأنواع الأدبية، ولا يمكن لأي راوٍ كيفما كان نوعه أن يعيد نفس القول. وهذا الحصر لا يتعلق إلا بالخطاب المنقول (rapporté). أما الخطابان الآخران المسرود وغير المباشر فإنهما لا يتقيدان بنفس الحرفية (المحاكاةية) في حكي الأقوال.

ويوضّح جنيت بعد ذلك كون هذه التقسيمات التي قام بها حول الخطابات الثلاثة قد انتقدت بعض مظاهرها «دوريت كون» في كتابها «الشفافية الداخلية». وبعد أن يعترض على بعض ملاحظاتها التي تركز على تصويرها المبني على المكانة الخاصة التي توليها لتقديم الحياة النفسية. وإتفاقه معها في بعض الانتقادات التي توجهها إليه يقدم التقنيات الثلاث التي تستعملها للكشف عن «تقديم» الحياة النفسية كما تراها وهي :

- (1) السيكو- سردي : تحليل أفكار الشخصيات التي يتكلف بها الراوي مباشرة.
- (2) المونولوج المنقول (rapporté) : وهو تلك الإسهادات الحرفية للأفكار كما هي ملفوظ بها في الخطاب الداخلي، وليس «المونولوج الداخلي» هنا إلا متغيراً وتنويعاً أكثر إستقلالية وذاتية.

- (3) المونولوج المسرود : الذي يقوم به الراوي تحت شكل الخطاب المباشر مقيداً كان أو حراً.

يلاحظ جنيت إن عملهما متكامل وأن الأول عندها هو الخطاب المسرود، وأن الثاني عنده هو الخطاب المنقول وأخيراً هو الخطاب غير المباشر. ثم يوجه بعد ذلك ملاحظات حول تقسيم دوليزيل Dolezel بين نص الراوي ونص الشخصية ليبين أن هذا لا يتم عنده إلا على صعيد الصيغة، والضروري أن يتم ذلك أيضاً على صعيد الموضوع. ثم يقدم لنا شكلاً يضم الموضوع (أحداث / أقوال) في خط عمودي والصيغة (خطاب الراوي / الشخصية) في خط أفقي ليرز أنواع الخطابات كما سبقنا أن أشرنا إليها.

ويبين بعد ذلك عدم أسفه على استعماله للمسافة والمنظور، ويبين رأيه في الانتقادات الموجهة إليه في هذا الصدد، والتي يدافع فيها عن آرائه في «خطاب الحكي»، موضحاً إياها تجاوزاً لأي سوء فهم أو تقدير.

- 11.2. في بعض الكتابات الأنجلو- ساكسونية التي اعتمادناها، لا نجدها توظف نفس المفهوم «الصيغة» لما يتعلق بما يحمله من قضايا تتصل بما سبق عرضه. فـ «ليتش وشورت» في كتابهما «الأسلوب في الرواية»، نجدهما يتحدثان عن «الكلام» (speech) وفي الفصل العاشر يقصران الحديث عما يسميان «تقديم الكلام والفكر»⁽²²⁾.

ويحيل هذا الفصل إلى الخامس والتاسع اللذين عولج فيهما كلام الشخصية في

الرواية، مع مقارنة كلاهما بالحديث اليومي وكيف يؤوله القارئ. ينطلق الباحثان أولاً من إبراز أن للكاتب عدة «صيغ» (modes) لتقديم كلام الشخصية، وإلى جانب الكلام المباشر الذي تحدثنا عنه سابقاً، نجد الكلام غير المباشر.

إن «تقديم الكلام» يشمل إذن الكلام المباشر، والكلام غير المباشر. وَبَعْدَ أن يعطيا مثلاً يتحول فيه الكلام من مباشر إلى غير مباشر، يرصدان التغيرات التي طرأت على الثاني مثل علامات الإستهزاء، وتحول الضمائر والزمن والمعنيات. . . وفي محاولة لرصد مختلف أوجه استعمال الكلام يبرزان كون الروائي أمامه أشكال أخرى غير السابقتين وهي :

- 1 - شكل أكثر مباشرة من الكلام المباشر.
- 2 - شكل غير مباشر أكثر من الكلام غير المباشر.
- 3 - شكل وسيط. (ص 321).

وكل هذه الأشكال تستعمل مجتمعة بهذا الشكل أو ذاك في الخطاب الروائي. وهكذا نجدنا في الشكل الأول أمام ما يسميانه «الكلام المباشر الحر» (Free direct speech) وهو أكثر مباشرة من الكلام المباشر لأننا في هذا الأخير نجدنا أمام خاصيتين يتصف بهما، وهما حضور الراوي وكلام الشخصية. غير أننا في الكلام المباشر الحر أمام كلام الشخصية بدون وسيط. وهذا الشكل قد يترك لدى القارئ إبهاماً لأنه لا يعرف من المتكلم. أما الشكل الثاني «غير المباشر أكثر»، فإنه يستعمل لتلخيص مقاطع غير مهمة في الحوار. وهكذا فالجملة: قال: «سأرجع هنا لرؤيتك مرة أخرى غداً» تصبح في الشكل الثاني: وعدها بالرجوع، حيث نرى الحدث أو الفعل يتم من زاوية الراوي (ص 324). لذلك نجد هـما يسميان هذا الشكل بـ (narrative report of speech act). أما الشكل الأخير فهو وسيط بين الكلام المباشر والكلام غير المباشر. وأسمياه بالكلام غير المباشر الحر (Free indirect speech). ولهذا الكلام خصوصيته في الرواية لتمييزه بحضور ضمير الغائب العائد على الراوي والزمن الماضي. ومن آثاره المعارضة لأن هذا الشكل يتم من خلال صوت الراوي مربوطاً بما تقوله الشخصيات، لذلك فالقارئ يتلقى أقوالها على مسافة (ص 334).

وفي إطار ربط أشكال تقديم الكلام بالراوي ودرجة حضوره (الصوت)، نجد الباحثين يقيمان خطاطة ذات ثلاثة مستويات :

(1) المستوى الأول: مراقبة الراوي الكلية، وضمن هذا المستوى نجد فقط شكل «سرد الحدث».

(2) المستوى الثاني: مراقبة جزئية من قبل الراوي. ويستوعب ثلاثة أشكال هي :
الكلام غير المباشر والكلام المباشر الحر والكلام المباشر.

3) المستوى الثالث: حيث لا نجد أية مراقبة، وهو خاص بـ «الكلام المباشر الحر». من خلال هذه المستويات جميعها نعاين بجلاء تقاطب صيغة الخطاب المسرود حيث مراقبة الراوي لكلية وصيغة الخطاب المعروض حيث لا وجود للراوي. وتبقى الأشكال الأخرى وسيطة بين القطبين المتقابلين.

وفيما يتصل بتقديم الفكر (ص 336)، نجدهما يسيران على النمط نفسه الذي سارا عليه في ما يتصل بتقديم الكلام، غير أنهما كانا يضعان الفكر محل الكلام مثل «الفكر المباشر، الحر...».

12.2. من الدراسات التي تسير على نهج ما سبق لنا أن رأينا عند ليتش وشورت من عدم تسمية المفهوم الذي نتحدث عنه بالصيغة، وإن كانت تعطيه كامل دلالاته، ما نجده عند الباحثة ريمون - كينان في كتابها «التخييل الحكائي»⁽²³⁾. تتخصص الباحثة الفصل الثامن من كتابها لما تضعه ضمن «السرد» تحت عنوان «تمثيل الكلام». وباعتبارها تسير على نهج جيرار جنيت في تصويره البويطقي، تنطلق بدءاً من عرض تاريخي موجز عن علاقة الحكائي التام بالمحاكاة (diegesis / mimesis)، من خلال بسط وجهة نظر كل من أفلاطون وأرسطو، لتنتقل بعد ذلك إلى موقف النقد الأنجلو - أمريكي الذي ستظهر عنده الثنائية تحت أسماء التلخيص والمشهد أو السرد والعرض (telling / showing)، كما سبق لنا عرض ذلك أعلاه.

وبعد تحليلها لموقف جيرار جنيت (1972) من العرض (showing)، ووهم المحاكاة التي يحملها في التصورات السابقة التي إنتقدها Booth بدوره، تخلص إلى إن التمييز سوف لن يصبح بين العرض والسرد، ولكن بين درجات مختلفة وأنواع من السرد أو القول (telling). وعلى غرار باقي الباحثين الذين تعرضنا لوجهات نظرهم ستقوم بدورها بالبحث في ما تسميه «أنماط تقديم الكلام» (ص 109) من خلال هذه التقسيمات:

1 - التلخيص الحكائي (diegesis summary)، وهو فعل الكلام الذي يقدم بدون أي تدقيق أو تخصيص لما قيل أو كيف قيل.

2 - التلخيص الأقل حكاية: وهو التلخيص الذي يقدم لنا حدثاً كلامياً لكن بدون مؤشرات الكلام.

3 - الخطاب غير المباشر: وهو الخطاب الذي يتضمن مضمون حدث كلامي لكنه يقدمه بأسلوب مغاير للأسلوب الأصل الذي أنجز به الكلام.

4 - الخطاب غير المباشر ذو الطبيعة المحاكائية: وهو يختلف عن السابق في كونه

يخلق لدينا وهم الحفاظ على مظاهر اسلوب الكلام الأصل، لكنه يقدم ذلك بشكل غير مباشر.

5 - الخطاب غير المباشر الحر: وهو يقع بين الخطابين المباشر وغير المباشر.

6 - الخطاب المباشر: وهو الخطاب الذي يخلق لدينا وهم المحاكاة أكثر من غيره لانه يتضمن «الاستشهاد» وعلاماته، سواء كان ذلك لحوار أو كلام ذاتي.

7 - الخطاب المباشر الحر: وترى هذا الخطاب يتميز بكونه الشكل النمطي لضمير المتكلم في المونولوج الداخلي (ص 110).

بعد هذه التصنيفات التي كانت تقدم لنا لكل منها نموذجاً من رواية، افردت نقطة خاصة وهامة لتحليل الخطاب غير المباشر الحر. تبين في البداية المكانة التي يحظى بها هذا الخطاب لدى اللسانيين والسرديين باعتباره تركباً لَصَوْتَيْنِ مترابطين. ثم تقيم مقارنات بين الخطابات الثلاثة الأساسية (المباشر/ غير المباشر/ غير المباشر الحر).

من خلال رصدها لمختلف التحولات التي تطرأ في انتقالنا من خطاب إلى آخر كما سبق ان رأينا ذلك مع ليتش وشورت. ومن هذه التحولات ما يتصل بالزمن أو الضمير أو المعينات أو الاستفهام... ثم بعد إنجازها لهذا التحليل تبحث في ما أسمته بـ «الوظائف»، وهي نظير ما رأيناه عند ليتش وشورت تحت عنوان «تقديم الفكر».

13.2. من خلال عرضنا لهذا المفهوم «الصيغة» في البوطيقا رأينا تعدد الاصطلاحات التي يأخذها. فهو مرة: الأسلوب أو الصيغة أو أنماط الكلام أو الخطاب، لكن في كل هذه الاصطلاحات كان القاسم مشتركاً إذ نجده كامناً في الانطلاق من التقسيم الأصلي بين الدرامي والسرد في البوطيقا الكلاسيكية أو السرد والعرض في الأدبيات الأنجلو-أمريكية مع النقد الجديد. لكننا سنلاحظ عندما ننتقل إلى طرائق استعمال السيميوطيقيين لهذا المفهوم سنجد الاختلاف ليس فقط على مستوى دال المفهوم ولكن مدلوله أيضاً. وبما اننا سنسير في تحليلنا للصيغة انطلاقاً من وجهة السرديين، فإن عرضنا لوجهة السيميوطيقيين سيكون مركزاً جداً، لأن هدفنا المركزي هو إبراز ان التشابه بين المفهومين (mode) لا يعني دائماً الاتفاق أو الاشتراك المعنوي بينهما، وإن كنا نرى بإمكان التعامل معهما واستغلالهما معاً في تحليل غير منشد إلى الأرضية التي تنطلق منها في التحليل.

3 / «الصيغة» والسيميوطيقا:

1.3 إلى الآن ونحن نتحدث عن الصيغة كنا نضعها كمقابل لـ (mode) في الفرنسية. ساعدتنا المصادر التي تنطلق من البوطيقا على معاينة هذا المفهوم كما حاولنا عرضه مع بعض الاختلافات في طرائق فهمه واستعماله. غير أننا عندما ننتقل إلى المعاجم

المختصة في اللسانيات (24) أو السيميوطيقا (25) للبحث في المادة نفسها، فإننا نعين أولاً استعمال مفهوم آخر مرادف له هو (modalité)، التي تعني في المنطق «الموجه».

2.3. ينطلق المعجم اللساني من أن هذا المفهوم مقولة نحوية، وباعتباره كذلك، فإنه يرتبط بصفة عامة بالفعل مترجماً نمط التواصل القائم بين المتكلم (الباث) ومخاطبه (المتقبل)، من جهة أولى ومن جهة ثانية، يترجم حالة الذات المتكلمة حيال ملفوظاتها الخاصة. وتبعاً لذلك يغدو المفهوم (mode) محدداً لوضعية الجملة من حيث التقرير المثبت أو المنفي، أو من حيث الأمر أو الاستفهام... (26). وعندما سطرنا على كلمة «محدد» لوضعية الجملة، فإننا نرى فيها المعنى الذي يأخذه المفهوم وهو «الموجه» لا مفهوم الصيغة بالمعنى الذي رأيناه مثلاً مع ليتري Littré من خلال تحديد جيران جنيت إياه. وهذا المعنى هو الذي سيسير عليه السيميوطيقيون الذين ينطلقون من المنطق في تحديد هذا المفهوم.

3.3. يقول غريماس في «السيميوطيقا» (27) معرفاً الموجه (mode / modalité)، باعتباره «ما يغير محمول ملفوظ ما، حسب التحديد القديم». ويميز بناءً على ذلك بين الملفوظ الموجهي والملفوظ الوصفي (ملفوظ الفعل faire) و (ملفوظ الحالة état). ويبين أهمية القيم الموجهية وهي القدرة - الإرادة - الوجوب - المعرفة القادرة على إبراز موجه الوجوب والفعل باعتبار تلك القيم مقولات منطقية.

وفي توضيح المعجم اللساني لهذه المقولات المنطقية (ص 320) يؤكد على كونها تعني مختلف الطرائق التي يبرز من خلالها محمول الجملة كحقيقة أو جواز (أو ضرورة)، احتمال (أو امكان). إن موجه الجواز نقيض موجه الضرورة كما أن موجه الاحتمال مقابل الامكان. وكلها جميعاً تتم بواسطة أفعال جهات مساعدة. فموجه الحقيقة يترجم بغياب الفعل المساعد وبحضور الزمن. ويميز بعد ذلك بين الجهة والموجه الذي يتكلف فيه أولاً يتكلف المتكلم بملفوظه الذي يمكن أن يتضمن موجهاً منطقياً. ففي الجملتين:

1 - يجب أن ينطلق القطار في الخامسة .

2 - على القطار أن ينطلق في الخامسة .

نلاحظ أنهما معاً تدلان على الاحتمال، غير أن الأولى تكلف بها المتكلم، والثانية تكلف بها بدرجة أقل. وفي تحليل المعجم للموجهات أو معينات الموجه (modalisateurs) ص 319، يوضح أن المقصود بذلك الوسائل التي بواسطتها يجلي المتكلم الطريقة التي برز بها ملفوظه الخاص (ربما - لا شك - في اعتقادي...). وتشير هذه المعينات أن الملفوظ لا يتكلف به كاملاً من لدن المتكلم. أما «التوجيه» (modalisation) (ص 320)، فهو الطابع الذي

يعطيه المتكلم ملفوظه . وتسعنا هذه المفاهيم مثل (المسافة - الوضوح - الشفافية - التوتر) في فهمه جيداً .

ففي المسافة تتضح لدينا العلاقة بين الذات والعالم بواسطة الملفوظ . والمسافة قسمان : مسافة قصوى ، تعتبر الذات فيها ملفوظها كجزء مندمج في العالم بشكل مختلف عنها . وفي المسافة الدنيا نجد معطى أو حادث الملفوظ الذي يتكفل به المتكلم كلية . بينما ينظر في مفهوم الشفافية (transparence) مقابل العتامة . فالشفافية تعني مدى حضور أو أمحاء ذات التلفظ : (فالمخاطب التربوي والكتاب المدرسي تتجلى فيهما شفافية قصوى) . بينما نلاحظ العتامة في الشعر الغنائي (عتامة قصوى) . وفي التوتر تسجل العلاقات بين المتكلم والمخاطب في النص . ففي الفعلين المساعدین (être/ avoir) نجد توتراً أدنى بينما مع الموجهات نجد التوتر الأقصى .

4.3. هذه هي جملة المفاهيم التي سنجدها تتكرر بين الفينة والأخرى في الدراسات التي تعاطت مع هذا المفهوم الذي يوضحه دوكرو (o. Ducrot) بربطه بالزمن . ويرى أن هاتين المقولتين مجالهما هو اللسانيات منطلقاً من كون علماء اللسانيات والمنطق كثيراً ما ألحوا على ضرورة التمييز بين :

1 - المضمون التمثيلي (dictum) .

2 - الوضعية التي تتخذها ذات المتكلم إزاء هذا المضمون (modus-modalité) . وهكذا فالملفوظات التالية : «سيأتي بير/ «ليأت بير !» من الممكن أن يأتي بير /» يجب على بير أن يأتي «... . توضيح لنا أن مضمونها (dictum) واحد، لكن الذي يتغير هو تلك الوضعية (modus) . إننا نجد الصيغة النحوية في الأولى والثانية، والافتراض في الثالثة ، بينما نجد الفعل الموجه المساعد في الجملة الأخيرة⁽²⁸⁾ .

5.3. نلاحظ من خلال هذه التعريفات التي نجدها في المعاجم المختصة اختلافات في تناول ، واعتراضاً أيضاً بصعوبة تدقيق المفهوم لخصوصيته وتنازع الاختصاصات حوله والتي يطبعه كل منها بطابع خاص .

وكما رأينا في الصيغة من وجهة نظر الباحثين في البويطيقا إذ نجد استعمال مفهوم الصيغة (mode) أول مرة مع تودوروف (1966) ، فإننا سنعاين استعمال (modalité) أول مرة مع غريماس في «علم الدلالة البنيوي (1966) ، وإن رأى العديد ومنهم (كوكي) أن البداية الحقيقية لهذا المفهوم ستم سنة 1970 في كتاب غريماس «حول المعنى» . وفي الكتابين معاً ، وحتى في الفصل الخاص في كتابه (حول المعنى . 1982) الذي يعيد فيه نشر المقالة التي شارك فيها في ملف مجلة (Languages) الخاص بالصيغة ، نجده تطغى عليه صيغة

التجريد وعدم الانطلاق من النصوص . وهكذا ففي كتابه «حول المعنى» يوقع حديثه عنها في إطار حديثه عن «عناصر لنحو سردي» ، على المستوى السطحي مقارناً بين الملفوظات الموجهية والوصفية رابطاً حديثه عنها بالعامل . غير أننا نلاحظ كونه لا يعطي الأمثلة إلا من خلال الجمل ، أو من خلال بعض الرموز الرياضية الاختزالية . . . (29) . وفي سنة 1972 يصدر جان كلود كوكي في كتابه السيميوطيقا الأدبية دراسة مطولة وهامة يعنونها بـ «التحليل التحويلي للخطاب» ، يتناول فيها بالدراسة التطبيقية ، «المدينة» لبُول كُلوديل . في مستهل الدراسة يوضح أنه يهدف إلى بنائها انطلاقاً من مناهج التحليل اللساني للخطاب : أي الكشف عن العلاقات المنطقية التي توحد الموضوعات اللسانية بعضها ببعض ، على اعتبار كون هذه الموضوعات مبنية لا معطاة سلفاً ، وإن ترابطها ينتظم في إطار النظام أو النسق (ordre) .

وفي دراسة «المدينة» ينطلق من كون خطاب كلوديل تهيمن فيه مثل هذه الأفعال : عرف / قدر/ أراد ، التي تستحق عناية من الباحث . وبربطه هذه الموجهات بالعوامل أو بطبقات العاملين يبحث في دلالات المعرفة والقدرة والإرادة كما تتجلى في الخطاب (30) .

ونلاحظ أن سنة 76 هي السنة التي ستكثر فيها الدراسات حول «modalités» وفق هذا الاتجاه . ويبدو لنا ذلك أولاً من خلال الدراسات الخاصة حوله والتي يضمها العدد 43 من «Languages» التي نجد من بينها دراسة :

- غريماس : «من أجل نظرية للموجهات» ، وهي كما قلنا ذات طابع تجريدي محض وفيها يحاول غريماس تأسيس نظرية متكاملة لها .

- جان كلود كوكي : «موجهات الخطاب» وفيها ينطلق من الدور الأساسي الذي لعبه المنطق الوظيفي في إقامة الجهاز النظري المتكامل لهذا المفهوم . وفيها يربط أيضاً بين الموجهات والعوامل ، الذات والموضوع .

- هـ. رونكستروف : «من أجل موجه لسردي رابع» ، ويوضح فيها كون الباحثين ركزوا في تحليلهم عادة على ثلاث موجهات : عرف/ قدر/ أراد . لكنهم أهملوا «وجب» وهو يرى أن السبب في ذلك يكمن في كون السيميوطيقا السردية ارتبطت بالعلامة المكتشفة في الحكاية الروسية :

(1) علاقة الاختبار الفارز : موجه/ pouvoir / : استقبال المساعد .

(2) العلامة الرئيسية : تحويل الموضوع / vouloir / : الحصول على الموضوع بعد البحث .

(3) العلامة المشرفة : الموضوع / savoir / : معرفة البطل .

ويتساءل لماذا لا يمكننا إضافة موجه آخر هو «الوجوب» ، لتتاح لنا إمكانية إقامة تصور متكامل يراعى في القدرة (المعرفة/ والقدرة) وفي التحفيز (الارادة والوجوب) لتكتمل لدينا صفات الموجّهات الداخلية والخارجية .

يمكن اعتبار هذا العدد قد لعب دوراً كبيراً في بلورة مفهوم الموجّهات كما يفهمها الباحثون في السيميوطيقا الأدبية والسردية بوجه خاص . وإن كان الطابع السائد فيه هو الجانب النظري⁽³¹⁾ .

6.3. وفي السنة نفسها يصدر كتاب «مينكينو» حول تحليل الخطاب . وفي حديثه عن «الملفوظ» يدرج الموجّهات . وفيه يتحدث عنها ، وعن موجّهات الالفاظ والملفوظ والمرسلة مستنداً على شارل بالي «Bally» وهاليداي «Halliday» . وينقل عن دوبروا كما رأينا في المعجم اللساني مفاهيم المسافة التوجيه والشفافية والتوتر آتياً بين الفينة والأخرى ببعض الأمثلة⁽³²⁾ .

إن كل هذه الدراسات باستثناء دراسة «كوكي» عن «المدينة» تشترك في كونها تعالج المفهوم من زاوية نظرية ، وحتى الأمثلة التي تقدمها شبه مسكوكة وثابتة . وسنلاحظ أن مجموعة «انتروفرين» التي تمارس التحليل السيميوطيقي على الخطاب الانجيلي تنطلق بدورها من نفس المنطلق ، وإن كانت تحاول بين الفينة والأخرى الاتيان ببعض النماذج⁽³³⁾ .

إن مفهوم الموجه في السيميوطيقا الأدبية ينطلق من مقولات منطقية تجريدية، ويحاول على ضوئها تحليل كيف يشغل الخطاب من العلاقات التي يتأطر فيها الالفاظ والملفوظ والتلفظ . ومن خلال تحليل الخطاب الحكائي يتم التركيز على جانب العامل (actant) ، والدور الذي يقوم به في الخطاب من أجل البحث عن دلالات ذلك . وإذا كانت الأبحاث في البويطيقا بانطلاقها من الصيغ كما نجدها في البويطيقا الكلاسيكية (أفلاطون/ أرسطو) تعالج الصيغة من زاوية أخرى مختلفة تركز فيها على الطرائق التي بواسطتها يتم إرسال الخطاب ، فإن الباحثين في السيميوطيقا بانطلاقهم من المنطق بالأساس يختزلون الموجّهات في أفعال العامل ، ومن خلال ذلك يبحثون عن دلالاتها .

وسنلاحظ اختزالاً مقبولاً ، وإن كان يتأسس على قاعدة سيميوطيقية ، يمارسه فلاديمير كيريزينسكي بصدد تحليله لرواية «كومبروفيش» (كوسموس) ، إذ ينطلق من الصيغة كما يحددها جنيت ويربطها بالاطار السيميوطيقي التزميني الذي ينطلق منه ، بما يستفيدة من أعمال غريماس وكوكي ، وبناء على تمييز جنيت بين الصيغة والصوت ، وانطلاقاً من معانيته تكرار الموجهين : الإرادة والقدرة ، والمعرفة والوجود ، وتداخلهما فيما بينهما يحلل

وظائف الراوي وبحث في صيغه، مُدُلًّا ، من خلال بحثه عن الدلالة ، على أسباب تفكك الخطاب الروائي في كوسموس⁽³⁴⁾ .

وهذه هي الدراسة التي أشرت إليها عندما قلت بأن هناك امكانيات الحديث عن «الصيغة» كما تستعمل في السرديات والسيميوطيقا السردية . ولما لذلك من أهمية في تناول الخطاب الروائي على هذا الصعيد لكن ذلك يمكن أن يتم من وجه نظر سيميوطيقية ، وهذا ما قام به كريزنسكي في تحليله المشار إليه ، أما نحن فإننا نشتغل في مجال آخر مختلف .

4- صيغة الخطاب الروائي :

1.4. لاحظنا من خلال عرضنا للآراء التي تنطلق من البويطيقا ، كيف أنها جميعاً ترجع أصول التمييز بين الصيغ السردية إلى التقسيم التقليدي بين المحاكاة (Mimesis) والحكي التام (Diegesis) ، وإلى تقسيم النقد الجديد الأنجلو- أمريكي الحكي إلى عرض (Showing) وسرد (telling) . وإذا كان المنحى الأول يأخذ مع البويطيقا الكلاسيكية منحى فلسفياً يستند إلى فهم خاص للوجود يجد في «المحاكاة» بعض الأسس التي يفسر بها قضايا الوجود وبالأخص مع أفلاطون . وإلى جانب هذا المنحى الفلسفي المحدد ، نجد منحى آخر نظرياً يكمن في نظرية الأنواع كما نجدها مع البويطيقا الكلاسيكية وبالأخص مع أرسطو من خلال ذلك التمييز ، فإننا في المنحى الثاني مع النقد الأنجلو- أمريكي نجد لهذا التمييز بعداً جمالياً . وهذا البعد الجمالي الذي كان هنري جيمس له داعية ، وفيه رائداً ، له خاصيته الموقفية لكونه يحمل تصوراً جديداً للعمل الروائي كيف ينبغي أن يكون عكسما هو سائد في نموذج الرواية الواقعية في القرن التاسع عشر .

2.4. تبعاً لهذه التحديدات أجدني ، نظرياً وعملياً ، أُلغِي المنحى الفلسفي الكامن في فهم المحاكاة ، وأرى في المنحيين الجمالي والمتصل بنظرية الأنواع الأدبية جوانب مركزية يمكن الانطلاق منها في تحديد دقيق لصيغ السرد .

ما كان لي أن أثير هذه النقطة لو لَمْ أعاين بعد طول إمعان أن «وهم المحاكاة» تم الوعي به نظرياً منذ بوث ودعاه جينيت ومن سار في فلكه . لكن عملياً ظل هذا البعد مهيماً لدى جينيت وغيره ، ويظهر لنا ذلك في أن الحديث كلما كان بصدد الخطاب المباشر (جينيت/ كينان . . .) كلما تم استدعاء المحاكاة وتم ربط هذا الخطاب بها . كما أننا نعاين ذلك بوضوح كلما تحدث جينيت عن «حكي الأحداث» وتحدث عن المشهد الذي تكثر فيه التفاصيل الزائلة التي تحيل إلى الواقع و«وهم المحاكاة» . ويظهر لنا ذلك ثالثاً في نوعيات التصنيفات التي تمت للخطابات حيث نجد أن أساس ذلك يكمن في درجة حضور الحدث أو القول . وهذا كاف لإبراز الارتهان إلى التمييز الكلاسيكي بين المحاكاة والحكي التام ،

رغم الوعي الذي لمسناه عند بوث وجنيت .

3.4. في تحديدي للصيغة أجدني أنطلق من تحديد تودوروف لإياها ، حيث يراها تتعلق بـ «الطريقة التي بواسطتها يقدم لنا الراوي القصة»⁽³⁵⁾ . وهذا التحديد يتوازى مع باقي المكونات الأخرى في تحديده إياها (الزمن - الرؤية والصوت) . وانطلاقاً من هذا التحديد أجدني لا أشاطر جنيت ما يدخله ضمنها من مسافة ومنظور . فالمنظور (التبثيرات) يمكن أن يناقش في مستوى آخر إلى جانب الصوت بسبب العلاقات الوطيدة بينهما . إننا في ما أسميه بـ «الرؤية» نحاول الاجابة عن السؤال «من أين يتكلم المتكلم؟» وفي «الصوت» نجيب عن السؤال «من يتكلم هنا؟» . لذلك نرى أنهما مستويان متضافران ، ونرى أيضاً بضرورة الفصل بينهما وبين الصيغة التي نبحت فيها عن «خطابات المتكلم؟» وعلى مستوى ترتيب هذه المكونات ، أرى عكس تودوروف أن تأتي بعد الزمن بالصيغة وأخيراً بالرؤية والصوت ، لسبب بسيط يكمن في أننا في الصيغة نراكم الخطابات الموجودة في الحكى ليتأتى لنا بعد ذلك الجواب عن أسئلة الرؤية والصوت .

في هذا الاطار أجدني التقي مع الانتقادات التي وجهتها ميك بال إلى جنيت ، وأرى فعلاً أن ما يحمله تعريف ليتري هو الذي قاد جنيت إلى الربط بين المسافة والمنظور ، رغم ما بينهما من «مسافات» ! لكنني لا أذهب إلى أن «المسافة» زائدة في تصنيف جنيت إلا لسبب كونها تنطلق من الفهم الكلاسيكي للمحاكاة . ولو استبعد جنيت هذا الفهم لقدم لنا تصنيفاً غير الذي قدم ضمن «المسافة» بين حكى الأقوال وحكى الاحداث . وإذا اعتبرت ميك بال الخطاب المباشر (المعروض) كميثاً - حكى (métarécit) ، فذلك لكونها بدورها تنطلق من التمييز بين الحكى التام والمحاكاة . ولو انطلقت هي أيضاً من غير هذا التمييز لرأت أن هذا الميثاحكى يأخذ أبعاداً غير التي تظهر علاقته بـ «الحكى» (diegesis) باعتباره معروضاً (mimésis) . إن هذا الميثاحكى سنجده ضمن «الحكى» ذاته ، عندما تتجاوز التمييز (سرد/ عرض) . وهذا ما يعطي لمشروعنا الذي نحدد فيه الصيغ السردية في جانب وأبعادها النصية أي ما نسميه «المتعاليات النصية» في جانب آخر (المستوى الدلالي) ، مبرره ومصادقته انطلاقاً من اعتبار ميك بال الخطاب المعروض «ميثاحكى» ، وهو فعلاً كذلك كما سنبين في الفصل الثاني من الكتاب الثاني الذي نبحت فيه عن أبعاد الصيغ النصية .

5.4. انطلاقاً من تعريف تودوروف الذي نطلق منه لا نميز في الخطاب الروائي بين حكى الأقوال وحكى الأحداث كما يفعل أغلب السرديين على اعتبار الأول خاصاً بالشخصيات والثاني بالراوي . إن التمييز في هذا النطاق واضحة فيه آثار التمييز الأرسطي بين الدراما (نص الشخصيات) والتاريخ (نص الراوي) ، أو الملحمة (نص الراوي ونص الشخصيات) . وبما أن الصيغتين الكبيرين (السرد / العرض) موجودتان في أي خطاب

حكائي بمختلف الأشكال الممكن تصورهما . فإن تحديدنا للصيغة ينطلق من معايينة كيفية اشتغال هاتين الصيغتين داخل الخطاب الروائي ، ومن خلالهما كيف تقدم القصة ، بدون تمييز بين الراوي والشخصيات ، بل حتى بدون تعيين - إذا أمكن ذلك - من هو المتكلم . ولهذا السبب أيضاً نرى بضرورة اعتبار «المنظور» غير مرتبط بالصيغة ولكن بالصوت بحسب اصطلاحات جنيت ، وأيضاً نرى بضرورة تأخير الحديث عن الرؤية السردية والصوت .

ماذا سيقدم لنا هذا الاقتراح وما الذي يباين بينه وبين التمييزات السائدة بين حكي الأحداث وحكي الأقوال ، ونص الراوي ونص الشخصيات . . . ؟؟ .

سيتيح لنا هذا الاقتراح أولاً التمييز بين الخطابات المستعملة في الخطاب الروائي من خلال الخطاب ككل ، وليس من خلال «حكي الأقوال فقط» ، وبذلك سندخل فيه أيضاً ما يسمى بـ «حكي الأحداث» . ولهذا السبب عندما ترى «ميك بال» أنَّ الخطاب المعروف هو وحده الذي يمكن قبوله في تصنيف جنيت لأنماط «حكي الأقوال» ، أما النمطان الآخران فيمكن ادراجهما في «حكي الأحداث» كانت مصيبة في ذلك .

وهكذا نلاحظ أن كل التصنيفات التي ميزت بين الصيغ أو الخطابات أو الأساليب أو أنماط الكلام كانت تركز في ذلك على «حكي الأقوال أو «كلام الشخصيات» . . . في حين ظل «خطاب الراوي» ثابتاً .

وتبعاً لاقتراحنا سنبحث في علاقات الخطابات أياً كان مرسلها (شخصية أو راوياً) وفي نوعيتها ، وبحسب طبيعتها المتجلية في الخطاب نقيم التصنيف ونقوم بقراءته . ويقوم اقتراحنا هذا على أساس مركزي نجده فيما يمكن أن نسميه بـ «تبادل الأدوار الحكائية» انطلاقاً من أن التمييز بين الراوي والشخصيات تمييز كلي ، ولا يتجلى دائماً بنفس الصرامة ، وذلك لأن «تبادل الأدوار الحكائية» قاعدة كلية بدورها ونقصد بها تعرض علاقات السرد والعرض بين الراوي والشخصيات للعديد من التبدلات يمكننا حصرها مبدئياً من خلال هذه القاعدة :

1 - الراوي - الشخصية .

2 - الشخصيات - الرواة .

وعديدة هي الروايات التي نجد فيها الراوي شخصية يتحدث مع باقي الشخصيات ، وعديدة هي النصوص التي نجد فيها الشخصيات يمارسون السرد . فهل نعتبر الراوي وهو يتحدث مع الشخصيات شخصية ، وندخل خطابه ضمن «حكي الأقوال» أم «حكي الأحداث» ؟ ، ونفس الشيء يمكننا أن نطرحه بصدد الشخصيات .

قدّ يعترض معترض ويقول: حتى في حال كون الراوي شخصية فهناك الراوي المضمن أو الذات للثانية للكاتب . فلماذا لا نميز خطابه باعتباره خصوصيته في علاقته بخطاب الشخصيات ، ولعل هذا هو المنطلق الذي يمارسه الذين يميزون بين «حكي الأقوال» و«حكي الأحداث» . إننا نرد على هذا الاعتراض ، وذلك باعتبار صيغة هذا الراوي ستكون موجودة ضمن صيغ أخرى ضمن الخطاب ، وسوف لن يغير هذا شيئاً من الأمر في اقتراحنا . لكن الذي سيتغير باقتراحنا هو اعتبار حكي الأحداث (نص الراوي) خاصاً بكميات الأخبار ، ومنفصلاً عن «حكي الأقوال» (الأكثر محاكاة) ! .

سيتيح لنا هذا الاقتراح ثانياً ، من خلال محاولة إقامة تصنيف لصيغ الخطاب ادخال الصيغتين الكبيرتين معاً ، والبحث في طرائق اشتغالهما جنباً إلى جنب ، مع البحث في علاقاتهما داخل الخطاب الروائي . وهذا سيتيح لنا إقامة نمذجة دقيقة على مستويين :

1 - صيغ الخطاب الروائي الواحد .

2 - الخطابات الروائية انطلاقاً من الصيغة .

وهذا المستوى الثاني هو الذي يمكننا مقارنته بما اسميناه «البعد الجمالي» في الممارسة الروائية مع النقد الأنجلو-أمريكي . أي إننا باتخاذ الصيغة منطلقاً يمكننا إقامة تيبولوجيا للرواية بحسب نوعية اشتغالها في الخطاب الروائي ، على غرار ما رأينا مع فاينريش في اتخاذه الزمن وفق تصوره منطلقاً للتمييز بين الخطابات (التقرير/ الحكي) . وهذا الهدف ينبغي أن يتوخاه السرد في كل مكون من المكونات التي يشغل عليها لإقامة نظرية متكاملة لكل واحد من تلك المكونات : (الصيغة - الرؤية السردية والصوت) .

6.4. انطلاقاً من هذا التحديد، وانطلاقاً أيضاً من انجازات السرديين في رصد مختلف الصيغ الخطابية التي أقاموها كما قلت انطلاقاً من حكي الأقوال (الشخصيات) ، سأعتبر الصيغة أنماطاً خطابية يتم بواسطتها تقديم القصة . وهذه الأنماط هي الصيغ في مختلف تجلياتها . ومن خلال تحليلنا وقراءتنا لنصوص حكاية ورواية عديدة أمكننا الانتهاء إلى أن الصيغ التي تقدم لنا من خلالها القصة نوعان أساسيان : هما السرد والعرض . سنسمي هذين النوعين : الصيغتان الكبّيرتان وعلى مستوى التجلي الخطابي نجد الصيغتين الكبيرتين تتضمن كل واحدة منهما صيغاً صغرى بسيطة أو مركبة . وهذه الصيغ الصغرى هي التي يمكننا الوصول إليها عندما نقوم بالتحليل الجزئي للخطاب .

وتبعاً للتحديد السابق الذي ننطلق منه نعين أن المادة الحكائية (القصة) تقدم لنا من خلال :

1 - السرد .

2 - العرض .

وهذا السرد يمكن أن يقوم به الراوي أو إحدَى الشخصيات ، وقل الشيء نفسه عن العرض . وهاتان الصيغتان معاً يمكن أن توجهها باعتبارهما خطابين إلى متلق مباشر أو غير مباشر . وعنصر التلقي نجده مغيباً في كل الكتابات السردية التي ننطلق منها حول الصيغة ، على اعتبار أن متلقي السرد أو المروي له (narrataire) يتم الحديث عنه غالباً في إطار الرؤية أو الصوت . وبحسب نوعية العلاقة التي يقيمها المتكلم مع خطابه ، ونوعية المتلقي يمكننا من الحديث عن نوعية الصيغة . إنهما المعياران الأساسيان اللذان نستعمل لتحديد الصيغة . والجدول أسفله يوضح لنا ذلك من خلال ترتيب هذه الأنماط :

(2) صيغة الخطاب المسرود : إنه الخطاب الذي يرسله المتكلم وهو على مسافة مما يقوله . ويتحدث إلى مروي له سواء كان هذا المتلقي مباشراً (شخصية) أو إلى المروي له في الخطاب الروائي بكامله . وهذه الصيغة هي التي تقابل في الآراء التي تعرضنا لها الصيغة نفسها . هذا مع اعتبار أن المتلقي عندما يكون مباشراً ، فإنه يكون على مسافة مما يُروى له . لذلك يمكن اعتباره غير مباشر . لكن عندما لا تكون هناك مسافة ، فإن صيغة الخطاب المسرود ، تكون صيغة فرعية لصيغ أصل .

(2) صيغة المسرود الذاتي : وتظهر لنا في الخطاب الذي يتحدث فيه المتكلم الآن عن ذاته وإليها عن أشياء تمت في الماضي ، أي أن هناك مسافة بينه وبين ما يتحدث عنه . وهي التي تقابل عند جنيت (transposé) . ويمكن أن ندخل فيها التذكر ، وما يتصل بالاسترجاعات الماضية .

(3) صيغة الخطاب المعروف : وهي التي نجد فيها المتكلم يتكلم مباشرة إلى متلق مباشر ، ويتبادلان الكلام بينهما دون تدخل الراوي وهو الذي يسميه جنيت : immédiat ويرى أنه تنويع على الخطاب (rapporté) .

(4) صيغة المعروف غير المباشر : وهو أقل مباشرة من المعروف المباشر ، لأننا نجد فيه مصاحبات الخطاب المعروف (para-discours) التي تظهر لنا من خلال تدخلات الراوي قبل العرض أو خلاله أو بعده . وفيه نجد المتكلم يتحدث إلى آخر ، والراوي من خلال تدخلاته يؤثر للمتلقي غير المباشر .

(5) صيغة المعروف الذاتي : وهي نظير صيغة الخطاب المسرود الذاتي ، إلا أن هناك فروقات بينهما تتم على صعيد الزمن . فإذا كنا في المسرود الذاتي أمام متكلم يحاور ذاته عن أشياء تمت في الماضي ، فإننا هنا نجده يتحدث إلى ذاته عن فعل يعيشه وقت انجاز الكلام .

لكن هناك نمطاً آخر من الخطاب نجده وسيطاً بين المسرود والمعرض وهو الذي يمكننا تسميته بالمنقول . لأن المتكلم لا يقوم فقط بإخبار متلقيه بشيء عن طريق السرد أو العرض ، ولكنه أيضاً ينقل كلام غيره سرداً أو عرضاً . ومن خلال هذا النمط نصبح أمام متكلم ثانٍ ينقل عن متكلم أول . وفي هذا النمط نجدنا أمام نمطين :

6) صيغة المنقول المباشر : وفيه نجدنا أمام معرض مباشر ، لكن يقوم بنقله متكلم غير المتكلم الأصل ، وهو ينقله كما هو . وقد يقوم بنقله إلى متلق مباشر (مخاطب) أو غير مباشر .

7) المنقول غير المباشر : ومثله مثل المنقول المباشر مع فارق وهو كون الناقل هنا لا يحتفظ بالكلام الأصل ، ولكنه يقدمه بشكل الخطاب المسرود .

وهكذا نلاحظ أننا في صيغة الخطاب المسرود والمعرض نجد المتلقي مباشراً في العرض وغير مباشر في السرد . وقد نجد خطاباً مسروداً لكن متلقيه مباشر ، كأن تحكي شخصية معينة في الرواية عن طريق السرد لشخصية مباشرة ومعينة في القصة ، فكيف نفسر هذا التناقض ؟

نقول ببساطة أن موقع هذا «الخطاب المسرود» في الخطاب الأصل هو كونه معرضاً لا مسروداً ، وإن كانت صيغته سردية على اعتبار أن هناك مراقي في علاقات الصيغ فيما بينها يجب احترامها وقت التحليل . فهل صيغة هذا الخطاب تدخل ضمن الصيغ الكبرى أم الصغرى؟ كما سنوضح . وباعتباره معرضاً فإن متلقيه بالضرورة سيكون مباشراً ، وإن كانت صيغته سردية لما بين الصيغ من علاقات متبادلة .

أما المعرض الذاتي والمسرود الذاتي ، فإننا نجد متلقيهما المباشر هو الذات المتكلم إليها ، لكن التمييز بينهما بواسطة الزمن له علاقة وطيدة بنوعية العلاقة التي تقيمها الذات مع مخاطبها في إطار الموقع السردية الذي توجد فيه .

أما المعرض غير المباشر والمنقول المباشر وغير المباشر فإننا نجد المتلقي فيها جميعاً مباشراً وغير مباشر . يكون مباشراً عندما يكون المتلقي حاضراً في المعرض غير المباشر والمنقول المباشر كشخص يتلقى من خلال المتكلم أو الناقل ، ويكون الاحتفاظ بكلام المتكلم في المعرض غير المباشر أو المتكلم الأول في المنقول المباشر ، ونفس الشيء يمكن أن يكون عندما لا يحتفظ بكلام المتكلم الأول . وفي الوقت نفسه نجد متلقياً ثانياً غير مباشر في هذه الصيغ الثلاث ويظهر لنا من خلال وجود الراوي في المعرض غير المباشر أو الناقل في صيغتي الخطاب المنقول .

نجدنا أمام أنواع الصيغ التالية مرتبة حسب نوعية المتلقي :

1 - المسرود ← غير مباشر .

المعروض ← مباشر .

2 - المسرود الذاتي ←
المعروض الذاتي ← الذات .

3 - المعروض غير المباشر ←
المنقول المباشر ← مباشر + غير مباشر .
المنقول غير المباشر ←

وهذه الأنواع جميعاً يمكننا تقسيمها قسمين بسيطة ومركبة :

أ - بسيطة : وتضم النوع الأول والثاني .

ب - مركبة : وتضم النوع الثالث فقط .

فماذا عن تقسيمنا الصيغ إلى كبرى وصغرى؟ هنا يمكننا ، لو شئنا إنجاز تحليل متكامل للخطاب كما في حالة قراءتنا للزيني بركات ، تقسيم الخطاب إلى وحدات . ومن خلال هذه الوحدات يمكننا معاينة نوع الصيغة الكبرى المهيمنة من خلال نوعية الخطاب المرسل . وخلال هذه الصيغة الكبرى يمكننا النزول عمودياً في مراقبي التبدلات الصيغية الصغرى وهي التي تضم الأنواع والقسمين المتحدث عنهما أعلاه كما تشتغل عمودياً . ومن خلال بحثنا في هذه التبدلات الصيغية الصغرى فإننا سنضبطها بواسطة ما يمكن تسميته بـ «المعينات الصيغية» وهي التي تتجلى لنا بشكل مباشر في علامات العرض أو تأطيرات الراوي أو تعليقاته ، في البياضات ، والنقط وما شابه ذلك من المعينات .

ومن خلال بحثنا في صيغ الخطاب أفقياً على صعيد الصيغتين الكبيرتين وعمودياً من خلال التبدلات الصيغية ، يمكننا الوصول إلى الجواب عن كيفية اشتغال الصيغ وتواترها الكمي والكيفي ، أي نكون قد أجبنا عن «الطريقة التي بواسطتها تم تقديم القصة في الخطاب» ، وتحديد هذه الطريقة بشكل دقيق على صعيد الخطاب الروائي قيد التحليل . وسيمكننا هذا من الاجابة عن بعض الأسئلة التي انطلقنا منها ، وقلنا أنها تتصل بإبراز «نوعية» الخطاب و«جماليته» . وعندما يتأتى لنا التعامل مع خطابات أخرى ستمكن من الوصول إلى ما يساعدنا على إقامة «نمذجة» أو «تبولوجيا» للرواية باستغلال هذا المكون ، وذلك من خلال محاولتنا الاجابة عن لماذا تهيمن هذه الصيغة أو تلك ؟ في حقبة ما من الحقب؟ أو عند روائي معين؟ أو في تجربة روائية معينة؟ وإذا كان المكون الواحد ليس كافياً

لإنجاز عمل كهذا ، فهو على الأقل يمكننا من أداة مهمة قابلة للتضافر مع أدوات أخرى لها الأهمية نفسها .

وبعد انتهائنا من تحليل صيغة الخطاب الروائي العربي من خلال الزيني بركات كمتن مركزي وباقي الروايات الأخرى ونحاول الاجابة عن الأسئلة التي طرحنا بعضها الآن ، سنطرح أسئلة أخرى تجعلنا نجيب عنها في الفصل الثاني من الكتاب الثاني الذي يحمل عنوان «التفاعل النصي» لما له من صلة وطيدة بهذا الفصل .

هوامش مقدمة الفصل الثاني :

- (1) R. Bourneuf et R. Quellet: L'univers du roman puf. 1981 P:60.
- (2) C. Kerbrat-Orecchioni: L'énonciation: de la subjectivité dans le language. Armand Colin. 1980. P:118.
- (3) J. Claude Coquet: Les modalités du discours: in «languages» n°43. 1976. P:64.
- (4) T. Todorov: Poétique. Seuil / Points. 1973. P:19.
- (5) Groupes d'Entrevernes: Analyses Sémiotiques des textes. presses- universitaires. 1979. P:9)
- (6) T. Todorov: Les catégories du récit littéraire in «Communications» n°8 1966 P:143.
- (7) G. Genette: Frontières du récit. in «Communications» n° 8. 1966 P. 152.
- (8) G. Genette: Nouveau Discours du récit. Seuil. 1983. P:30.
- (9) روليك/ أوارين : نظرية الأدب ت. محي الدين صبحي المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . دمشق 1972 ، ص 280 .
- (10) ب . ايخناوم : حول نظرية النثر : في نصوص الشكلايين الروس . ت . إبراهيم الخطيب مؤسسة الأبحاث العربية/ سميح 1982 - ص 107 .
- (11) نفس المرجع ص 110 - 111 .
- (12) T. Todorov: Littérature et signification. édi. Larousse. 1967. P:83.
- (13) تودوروف 1973 م . م ص 50 .
- (14) W. C. Booth: The rhetoric of fiction. The University of Chicaco press. 2^{ed} edition. 1983. P: 154 - 155.
- (15) W. C. Booth: Distance et point de vue. in poétique du récit. Seuil / points. 1977. P: 97 - 98.
- (16) G. Genette: Discours du récit in Figures III Seuil. 1972. P: 183.
- (17) تودوروف 1973 ، م ، م ص 50 .
- (18) R. Debray-Genette: Du mode narratif dans les «Trois contes» in Littérature: n°2 / 1971. P:39.
- (19) M. Bal: focalisation et narration. poétique n°29/ 1977 P:105.

- (20) بورنوف ويللي . 1981 م ، م ، ص 57 .
- (21) جنيت 1983 م ، م ، ص 28 .
- G. N. Lecch/ M. H. Short: Style in fiction. Long-man. 3d-edition. 1984. P:318. (22)
- Sh. Rimmon-Kenan: Narrative fiction. Methuen. London 1983 P:107. (23)
- J. Dubois et autres: Dictionnaire de Linguistique. Larousse. 1973. P:321/320. (24)
- Greimas / Courtès: Sémiotique: Dictionnaire Raisoné de la théorie de langage. Hachette. 1979. (25)
P:230.
- (26) دويوا 1973 ، م ، م 320 .
- (27) غريماس 1979 م ، م ، 230 .
- O. Ducrot / T. Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Seuil/ Points. (28)
1972. P:389.
- A. Greimas: Du sens Seuil. 1970. P: 166. (29)
- J. C. Coquet: Sémiotique littéraire édi. J. P. Delarge. 1972. P:151. (30)
- I. Darrault: Languages n° 43 – 1976. P.43. (31)
- D. Maingueneau: Initiation aux méthodes de l'analyse du discours Hachette université. 1976. (32)
P:110.
- (33) جماعة انتروفيرون 1979 ، م ، م ، ص 30 .
- W. Krynski: Carrefours de signes: essais sur le roman moderne. édi. Mouton. 1981. P: 276. (34)
- (35) تودوروف 1966 ، م ، م ، ص 149 .

II - تعدد الخطابات ، تعدد الصيغ

يمتاز الخطاب الروائي في الزيني بركات بخصوصية صيغته الخطابية . تتجلى هذه الخصوصية في كونه لا ينتظم ضمن التأطير السائد الرواية أولصيغتها . فحكي الأحداث كما يسمى ذلك تودوروف وجنيت ، وحكي الأقوال يتداخلان ويتقاطعان . إلى الدرجة التي لا يمكن فيها الحديث كما يفعل بعض الباحثين عادة (جنيت) من أجل الاختزال النظري المؤسس طبعاً من نصوص معينة ، الحدث عن نص الراوي ونص الشخصيات ، وبتقسيم آخر بين السرد والعرض .

فالخطاب الروائي في الزيني بركات يضم مجموعة من الخطابات وليس خطاب الراوي فيها إلا واحداً منها . وهذا يجعلنا منذ البدء أمام رفض الانصباع للتمييز بين «نص» الراوي ونص الشخصيات ، فذلك ما تسعفنا به بعض الخطابات الروائية العربية والغربية . أما الزيني بركات فهنا بالضبط تكمن خصوصيتها الصيغية ، أي تعدد خطاباتها . والخطابات التي تحتويها الزيني بركات لا تؤطرها إلا الأحداث ونفس المجال الفضائي الذي تتحرك فيه . لذلك قلنا إن حكي الأحداث وحكي الأقوال يتداخلان ويتقاطعان . ورغم وجود الراوي (الذات الثانية للكاتب ، كما يسميه و. بوث (1961) ، فإن موقعه في السرد وتأطير الحدث يتوازي وبعض الخطابات التي تقوم وإياه بنفس الوظيفة . إننا لا نجد في الزيني بركات الراوي بمعناه التقليدي فخطابه يحتل الموقع الذي تحتله بعض بقية الخطابات ، وإن كنا نحفظ له - في التحليل - بخصوصية الراوي بالمعنى الآنف الذكر .

إن الخطابات التي نرصدها في الزيني هي :

(1) خطاب الراوي .

(2) التقرير .

(3) المذكرة .

(4) الرسالة .

(5) النداء .

(6) الخطبة .

(7) المرسوم السلطاني / فتاوي القضاة .

فإذا كان خطاب الراوي والتقرير (الذي يعده جهاز البصاين) يسهمان في تأطير الأحداث وتقديمها ، فإن المذكرة (خطاب الرحالة الايطالي الذي يسجل فيه مشاهداته أثناء زيارته القاهرة) بدورها تسهم في ذلك ، لكن بدرجة أقل على مستوى الحضور (الرحلة ليس مقيماً في القاهرة) أو على مستوى الإخبار (لا يعرض إلا مشاهداته أو ما ينقله من أخبار من كتاب ابن إياس) . لذلك يبقى دورها يكمن في كونها تضيء لنا بعض الأحداث أو الشخصيات التي سبق أن طرحت أو بينت لنا من خلال خطاب الراوي أو التقرير .

وتسهم الرسالة (تكتبها إحدى الشخصيات المحورية في الخطاب الروائي) بدورها في إضاءة الحدث أو تقديمه مما تضمنه أحياناً من قرارات ملزمة التنفيذ . وهي بهذا تسهم أيضاً في تأطير الحدث . ويشارك النداء والمرسوم السلطاني في تقديم الحدث من خلال الاقرار أو الالغاء . بينما تلعب الخطبة التي يقوم بها الخطيب في المسجد أو الزيني بركات دوراً في إضاءة الحدث ، والاسهام في تقديمه .

إن تعدد الخطابات في الزيني بركات يطرح علينا رصد مواصفات كل خطاب على حدة من أجل إبراز صيغته أو صيغته في مستوى أول ، قصد معاينة تجلياته الصيغية . وفي مستوى ثان ، ربط تلك الخطابات في إطار الخطاب الروائي ككل بهدف تعيين صيغته . وهنا لا بد من التأكيد على ما سبق أن أشرنا إليه حول تعدد الخطابات ، إذ نجد في داخل كل منها وبالأخص خطابات (الراوي / التقرير / المذكرة / الرسالة) ما نجده مشتركاً بين من رصدوا الصيغة في تحليل الخطاب الروائي : أي ما يسمونه «نص الراوي» و«نص الشخصيات» الشيء الذي يجعلنا نؤكد ومنذ الآن أننا بإزاء تعدد الخطابات ، وتعدد الصيغ . ذلك ما سنحاول معاينته من خلال ضبطنا لأنواع هذه الخطابات وتميزها بعضها عن بعض وتداخلها وتقاطعها فيما بينها .

لا يمكن لأي خطاب حكاثي كيفما كان نوعه أن يحتفظ بخاصية صيغية محضة، تجعله يستقل عن غيره من الخطابات . إننا نلامس هنا ما يمكن تسميته بتداخل الخطابات وكيفية هذا التداخل هي التي يمكننا دراستها من خلال الصيغة ، كما أن أنماط هذا التداخل من خلال هيمنة صيغة إحدى تلك الخطابات كخاصية ثابتة وبنوية هي التي يمكن من خلالها دراسة الأنواع الأدبية وتعيينها . وإذا كان أرسطو يرى في الملحمة هيمنة صيغة السرد «المختلط» الذي يجمع بين السرد والحوار ، فإن الرواية كشكل حكاثي يتطور باستمرار ويتميز بالخاصية الصيغية «المختلطة» بدرجات متفاوتة هيمن فيها السرد مثلاً في القرن

التاسع عشر وقبله ، وبدأ يسود فيها العرض الدرامي مع هنري جيمس بشكل كبير ، وبدأت تتأثر منذ بدايات هذا القرن بصيغ (لم تدرس بما فيه الكفاية) تهيمن في خطابات أدبية أخرى تختلف عن الرواية (الشعر - السينما - التشكيل . . .) وتستقي منها بعض انجازاتها . وهذا يجعلنا بالضرورة أمام إشكال تعيين صيغ الخطاب الروائي من خلال هذا التداخل ، ومدى إفادته في إغناء الخطاب الروائي الذي يستقطب وباستمرار الاهتمام الدراسي والنظري أكثر من غيره من الفنون والأنواع الأدبية .

ولعل البحث في نمذجة صيغ الخطاب الروائي يتيح لنا إمكانية الامساك بمكونات وخصائص هذا الخطاب البنيوية من خلال ترابطه وتداخله مع بقية الخطابات الأخرى . كما أن الانطلاق من خطاب روائي «نموذج» كالزيني بركات يتيح لنا هذه الامكانية .

في نطاق تأطير صيغة الخطاب الروائي في الزيني بركات بشكل عام على أن نعود إليها من خلال المتابعة المتأنية والمتقصية سجلنا :

(1) تعدد الخطابات .

(2) تعدد الصيغ .

إن هذا التعدد لا يتعلق فقط كما أوضحنا سابقاً بحكي الأقوال ولكن أيضاً بحكي الأحداث لأننا نسجل الترابط بينهما على أساس خصوصية الخطاب الروائي في الزيني بركات وهنا نعين التداخل بين خطابات الراوي والتقرير والمذكرة والرسالة . فكلها تشمل من الصيغ السرد والعرض غير المباشر أو المنقول رغم كون مرسلها يختلفون . فلكل خطاب خصوصيته ومرسله الخاص ومتلقيه . لكن هناك ترابطاً بينها جميعاً ، كما نجد ترابطاً آخر بين النداء والمرسوم والرسالة (في إحدى المستويات التي سنبينها) على مستوى الصيغة ، إذ تأتي على صيغة العرض (بالشكل الذي وضحه في التقديم النظري) ، ونفس الشيء يمكن قوله عن الخطبة والفتاوي . ونجد إلى جانب ذلك ترابطاً عاماً بين كل هذه الخطابات على مستوى الخطاب الروائي . لكن هناك تقاطعات بين هذه الخطابات سواء على مستوى الصيغة أو على مستوى تبدلاتها التي تأخذها في مجرى الخطاب في تداخلها وترابطها . وهكذا نجد الرسالة مثلاً التي أكدنا ترابطها على مستوى الصيغة العرضية مع النداء والمرسوم كيف أنها تتحول إلى صيغة خطابية أخرى تنقلها من العرض إلى السرد . ونفس الشيء يمكن قوله عن التقرير الذي يتحول من صيغة السرد إلى النقل ، وهكذا دواليك بالنسبة لبقية الخطابات الأخرى في تبدلاتها وتمظهراتها . . .

انطلاقاً من التصور الذي سجلناه أعلاه يمكننا على المستوى العام الحديث عن صيغة اطلاقية (يبين التحليل خصوصياتها وتبدلاتها) أو صيغ نخزل فيها كل تلك الخطابات بناء

على طبيعتها الصيغية التي تهيمن فيها . ويمكن لهذه الأنماط الصيغية أن تكون شاملة لمختلف الخطابات الروائية وإن - وهذا طبيعي - اتخذت تجليات متعددة بحسب الفروقات بين تلك الخطابات وبحسب هيمنة بعض الأنماط الصيغية عليها .

إن هذه الخطابات هي :

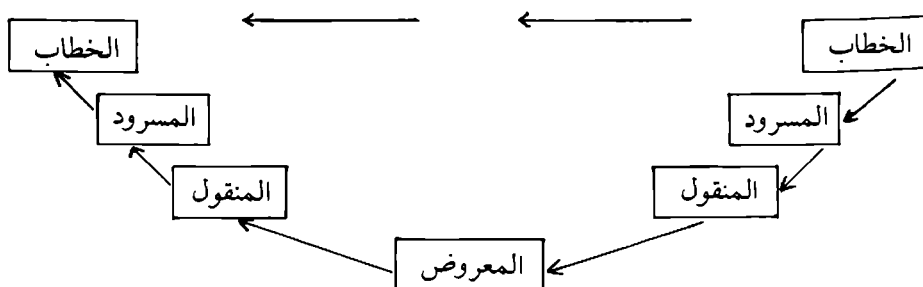
1 - الخطاب المسرود : الذي نجده مهيمناً في خطابات الراوي ، والتقرير والمذكرة والرسالة . ويتسع لمختلف الصيغ (السرد / العرض) لكن الصيغة التي تهيمن هي صيغة الخطاب المسرود .

2 - الخطاب المعروض : وهو الذي تعرض فيه أقوال الشخصيات ، أو تعرض فيه خطابات أخرى . تتوازي والخطاب المسرود في مجال الحكيم . وهذا الخطاب هو الذي يبدو لنا من خلال النداء والمرسوم السلطاني . ويمكننا الحديث عن الخطاب المعروض المباشر .

3 - الخطاب المنقول : وهو الخطاب المسرود الذي يهيمن فيه «نقل» الخطاب المعروض أو المسرود بشكل يجعله بين السرد والعرض . وهذا هو الذي اعتبره جنيت الأكثر محاكاة . لكنه في الواقع ليس إلا النقطة التي يلتقي فيها السرد والعرض بدون وهم المحاكاة .

إن هذه الخطابات سنجدتها كما سبق أن وضحنا تتقاطع وتتداخل على مستوى الخطاب الروائي في الزيني ، وذلك ما يمكننا الوقوف عليه من خلال تحليل الصيغة في الخطاب من خلال تتبعنا لمجرأه .

ويمكننا أن ننهي تلك الصورة عن الصيغة في الزيني بركات من خلال هذه الخطاطة العامة التي توضح لنا نوعاً من التوازي والتداخل بين صيغ الخطابات المستعملة في الخطاب :



- خطاطة عامة عن صيغة الخطاب في الزيني بركات

لتدقيق قراءتنا لهذه الصيغ في تداخلها وتقاطعها سنلجأ إلى تقسيم الرواية إلى عشر وحدات كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . وسنقف عند كل وحدة من هذه الوحدات لمعاينة تجلياتها وتنوعاتها الصيغية مع ربط ذلك بالقصة وأحداثها وأشخاصها .

وفي تحليلنا لكل وحدة على حدة . نجدنا نتنقل من التحليل الأفقي الذي حاولنا الإشارة إليه هنا في هذا المدخل ، إلى التحليل العمودي .

في التحليل الأول رصدنا الصيغ الكبرى (سرد - عرض - نقل) ، من خلال علاقات الخطابات (خطاب الراوي - الرسالة - التقرير...) بعضها ببعض وتجاورها خطياً على مستوى مجرى الخطاب . ومن خلال هذا التحليل وقفنا عند الترابط الحاصل بين هذه الخطابات كما بينا في الشكل السابق . وسنعود في نهاية التحليل إلى معاينة هذه الصيغ الكبرى واستنتاج ما يمكن استنتاجه بصدها . أما في التحليل العمودي فإننا نتنقل إلى الصيغة الكبرى لنعاين ما تتضمنه من صيغ صغرى بسيطة أو مركبة مؤطرة ضمن الصيغة الأصل التي نضبطها من خلال كل وحدة على حدة . وفي هذا الانتقال إلى الصيغ الصغرى نحاول رصد تجاوراتها ، وعلاقاتها بعضها ببعض وطرائق اشتغالها لنتمكن في النهاية من تسجيل أهم الخلاصات حول صيغ الخطاب في الزيني بركات أفقياً وعمودياً .

III - اشتغال صيغ الخطاب في الزيني بركات

I - بدايات الهزيمة :

1.1. نفتح الخطاب الروائي في الزيني بركات على هذه الوحدة التي يتكفل بها الراوي / الشاهد (الرحالة الايطالي) ، ومصر في حالة اضطراب أنها سنة 922 هـ وما تتميز به أحوال مصر وهي في حالة حرب ، بل وهي على أبواب الهزيمة وبدء الخطاب بهذا الزمن كما سبق أن وضحنا في الفصل السابق، يكشف عن الدلالة التي يحتويها الخطاب الروائي ويرمي إليها . كما أن بدء الخطاب بـ «المذكرة» التي يسجل فيها الرحالة الايطالي مشاهداته، له أكثر من دلالة في مجرى الخطاب ، لأنه كما سبق أن ألمحنا كيف أننا نفتح الرواية على الراوي / الشاهد ، ونغلقها به أيضاً ، وفي علاقة ذلك بالزمن بينا الترابط بين الدلالة التي يحتويها الخطاب من خلال جميع مكوناته والوسائل التي يوظفها لذلك.

إن خطاب «المذكرة» هو الخطاب المسرود الذي يتكفل به الراوي / الشاهد والذي من خلال مشاهداته يسرد ما يقع أمامه من أحداث ووقائع . إن زمن الخطاب المسرود هو حاضر السرد كما أن الضمير المهيمن هو ضمير المتكلم . غير أن الزمن يمكن أن يمتد إلى الماضي (البعيد / القريب) . كما أن ضمير الغائب يمكن أن يستعمل إلى جانب المتكلم أو من خلاله . إن الخطاب المسرود يرسله هنا الضمير المتكلم والصيغة التي تهيمن فيه هي السرد .

2.1. بعد زيارات سابقة ، يزور الرحالة الإيطالي القاهرة فيجدها كما تركها في فترات سابقة: طابع الانتظار والذعر يهيمن في كل مكان . يصلنا هذا الطابع في الخطاب المسرود الذي يرسله الراوي / الشاهد، أولاً من خلال الخطاب المسرود الذاتي الأقرب إلى المونولوج وهو ما يقابله عند دوريت كون (1978) . «السيكو- سردى» . في هذا الخطاب تبدو لنا الأحداث كما تنطبع في ذات الراوي / الشاهد . لكن هذا الانطباع يقدم لنا صورة عن الحدث أكثر مما يقدم لنا صورة عن الراوي لا سيما عندما يتعمق لدينا الانطباع نفسه من خلال التنويعات الصيغية الأخرى التي يستعملها الخطاب المسرود والتي سنعود إليها .

إن معينات هذا الخطاب المسرود الذاتي تبدو لنا في هذه الأفعال ذات الصلة المباشرة بصورة الراوي / الشاهد النفسية :

- أرى وجه المدينة مريضاً يوشك على البكاء .

- أطل والظلام يلف البيوت .

- أصغي إلى وقع حوافر تصطدم بحجارة الطريق . . .

- أطل من مشربية البيت محاذراً أن يراني أحد . . .

- أخاف افتتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب . . . ص 9 .

وإلى جانب هذه الأفعال نجد صيغة المعروض الذاتي (المونولوج الذاتي المباشر) بما فيه من توتر وتوقع وتوجس :

- « . . . إذ يجدوني افرنجياً ، يدفعون بي إلى الموت بلا محاكمة ، لا استجواب ، لا سؤال من أنا ، من أين جئت؟ لن تتاح الفرصة لأخبرهم ، لأقنعهم . . . » ص 9 .

إن تلك المعينات وصيغة المونولوج الداخلي المباشر بالاضافة إلى «التذكر» : «تذكر زملائه القدامى في القاهرة وعلاقته بهم ، وجلوسه في ضيافتهم ، وغياب كل هذا في القاهرة اليوم المضطربة ، يؤكد لنا صيغة الخطاب المسرود الذاتي الذي يسود فيه السرد والمونولوج الذي من خلاله يتم تذكر الماضي ونقله من خلال الوصف (وصف بين الضيافة : النوافذ/ الحديقة/ الأزهار/ النافورة . . . ص10) . وكل ذلك علاوة على كونه يقدم لنا صورة الراوي النفسية ، فإنه يكشف عن صورة الأحداث في العمق . ويبدو لنا ذلك في الانتقال من هذه الصيغة إلى صيغة الخطاب المسرود / المنقول .

3.1. عندما قلنا عن الراوي (الرحالة) إنه شاهد ، فذلك لسببين : أولاً من أجل تمييزه عن الراوي (مؤطر الخطاب ككل) وثانياً لأن هذا هو موقعه في الحكى فهو لا يسرد إلا مشاهداته حين الحدث (عندما يكون في القاهرة) . لذلك رأينا سابقاً أن الخطاب المسرود الذاتي هو الذي نفتح به خطابه ولذلك طبيعته . فعندما نفتح هذا الخطاب به نلامس بجلاء صورة القاهرة كما تنعكس في ذات الراوي / الشاهد التي تبدو لنا منقبضة ومتوجسة خوفاً ، لذلك سنجد الصيغة التي ستلي السابقة هي الخطاب المسرود المنقول ، التي تنقلنا من السرد الذاتي إلى الموضوعي : أي إلى صيغة المسرود المنقول التي يمكننا تقسيمها قسمين رئيسيين في هذا الخطاب المسرود الذي يلقيه الراوي / الشاهد :

- سمعت من العامة . . . (ص 10) ثلاث سنوات تغير الإنسان حقاً (ص 11) .

- حدث إن أرسلت جارية (ص 11) وما سنذكره في حينه» (ص 13) .

في الخطاب المسرود / المنقول ينتقل الراوي / الشاهد إلى السرد الذي ينقل (هذا ما يقابل به جيرار جنيت la représentation المحاكاة) آراء الناس عن وضعية الاضطراب الذي تموج به القاهرة وعينات هذا القسم الأول نجدها تتم من خلال :

- سمعت من العامة .

- كل إنسان يقول ما يحلو له .

- قال البعض . . . قال أحد الحضور، قال آخر . .

- حتى أنا قلت لنفسي . . . (ص 10 / ص 11) .

كل هذه المعينات تبين لنا صيغة الخطاب المسرود / المنقول . إذ من خلالها تظهر لنا هذه الصيغة ممثلة في صيغة السرد المهيمنة التي تنظم ضمنها أقوال الشخصيات المسرودة ومن خلال هذه الصيغة تقدم لنا كمية من الأخبار تتعلق بشخصية الزيني بركات الغائب وظروف الحرب . . . وبالمكان (المقهى / الرواد . . .) . ويأتي نقل الأقوال المسرودة ليدعم هذه الكمية يعمق صورة الأحداث ، كما رأيناها من خلال صورة الراوي في الصيغة السابقة .

يتداخل ما أسميناه القسم الأول (الوحدة الثانية) في هذا الخطاب مع القسم الثاني (الوحدة الثالثة) في كونهما معاً يدخلان في إطار الخطاب المسرود / المنقول من جهة ، ومن جهة ثانية لأن الخطاب المسرود الذاتي في الوجدتين معاً يربط بينهما من خلال هذين المَعْنَيْنِ :

- حتى أنا قلت لنفسي

- رأيت الزيني (ص 11) .

إذ في هذه الصيغة يبدو لنا الراوي / الشاهد بدوره ينقل لنا أقواله المسرودة ذاتياً حول ما يقع : « حتى أنا قلت لنفسي ، فعلاً لم أر الزيني خلال الأيام التي قضيتها هنا ، الزيني يراه أهل القاهرة يومياً ، ولو مرة واحدة ، تدق الطبلخانة أمامه ، يمشي الساعة في ركابه . . . » (ص 11) .

لينقلنا أيضاً من خلال التذكر من المسرود الذاتي إلى الماضي ليقدم لنا من خلال التلخيص (résumé) صورة الزيني بركات ، لقاء به ، أفعال الزيني . . . وكلها تضيء لنا شخصية الزيني كما أن الخطاب المسرود الذاتي كما رأينا في (1 - 2) يعطينا صورة عن القاهرة من خلال الذات .

لكن هذه الصيغة تربطنا من جديد بصيغة الخطاب المسرود - المنقول وتضعنا في الوحدة الثالثة (القسم الثاني الرئيسي) أمام حدث وقع في الماضي يأتي في سياق إضاعة شخصية الزيني بركات .

إن الخطاب المسرود / المنقول هنا أيضاً يتكفل به الراوي / الشاهد . ومن خلاله ينقلنا إلى «قصة الجارية والعطار» . إن تضمين هذه القصة معين أساسي يؤكد لنا هذا الانتقال من صيغة إلى أخرى :

«حدث أن ارسلت جارية رومية بيضاء . . . وظل على حاله حتى كان من أمره ما كان ، وما سنذكره في حينه» (ص 11 / 13) .

إن صيغة الخطاب المسرود الذي يأخذ هنا طابع المنقول غير المباشر تأخذ مختلف التنبؤات الصيغية الممكنة ، وإن كانت صيغة الخطاب المسرود هي المؤطرة ، ففي هذا الخطاب نجد المنقول (أقوال الشخصيات المسرودة) كما نجد ضمنه تداخل المشهد والتلخيص باقتصاد شديد يتواءم وموقع هذه القصة المتضمنة من السياق السردى . ولعل الصيغة (المنقول غير المباشر) لعبت دوراً كبيراً في ذلك .

1.4.1. ثم يعود الراوي / الشاهد من جديد إلى صيغة الخطاب المسرود / المنقول بعد انتهاء القصة المتضمنة من خلال عودته إلى مجرى السرد الذي انتقل إليه منذ ذهابه إلى المقهى مستعملاً الصيغة نفسها : المنقول غير المباشر :

«أعود إلى السجال في دكان الشاي ، تساءلوا فعلاً عن السر في اختفاء الزيني؟؟ . . . خوف موغل في الأعماق» (ص 13) .

في هذه الوحدة يقدم لنا الراوي / الشاهد أيضاً صورة عن القاهرة الاضطراب ، غير أن الخطاب المسرود المنقول هنا في هذه الوحدة يتخذ صيغتين أساسيتين يظل يستوعبهما الخطاب المسرود ، وهما : الخطاب المعروض المباشر ، والخطاب المعروض غير المباشر .

2.4.1. إذا كان الراوي / الشاهد قد «نقل» لنا قصة متضمنة عن طريق السرد وبما أنه صاغها بلغته السردية ، أسميناها (المنقول غير المباشر) . فإننا سنجد في الخطاب المعروض «ينقل/يعرض» لنا خطاباً دينياً يتداخل وخطابه المسرود إلى الدرجة التي يلغى فيها السرد ويصبح الخطاب الديني المنقول إلى خطاب الراوي / الشاهد المسرود خطاباً معروضاً له طابع صيغي مستقل تقريباً عن خطاب الراوي وهذه الصيغة هي التي نسميها بـ «المنقول المباشر» الذي ينقل فيه الكلام كما هو . إن ما قلناه في (1.3) عن تداخل الخطابات يبدو لنا هنا بجلاء . وإذا كان هذا التداخل يدرس عادة في ما يسمى بالتناص (كما سنلاحظ)، فإننا

نرى أن تداخل الخطابات هو مستوى من التناص وليس التناص ذاته. وذلك ما يمكننا توضيحه في «المتعاليات النصية»:

«... ألم يذكر أحد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية أن أوان الرياح التي نهب قبل القيامة ستكس كل شيء ، ريح يرسلها الله عز وجل ، يمانية ألين من الحرير وأطيب من نفحة المسك فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من الايمان بوجود الخالق أو الحق أو العدل ، تبعد الأب عن بنيه ، والأخ عن أخيه ، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دنيا أو ديانة ، وهم أشرف خلق الله ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ، تبكي الرجال في المسجد وصار كل منهم يعانق صاحبه...» ص 13 (التشديد من عندي) .

واضح من خلال هذا المقطع الذي جئنا به التداخل بين الخطاب المسرود / المنقول والخطاب المعروض . وطابع الانتقال من الأول إلى الثاني أو تضمين «الخطاب الديني» كما رأينا سابقاً في «تضمين» قصة الجارية والعطار له أكثر من دلالة في نقل صورة واقع القاهرة . إن الخطاب «المنقول المباشر» يعمق لدينا صورتها الكائنة بالصورة التي يحملها المضمون الديني عن صورة آخر الدنيا كما هي متصورة في الوعي الديني . وتجلي لنا تلك الصورة أيضاً من خلال صيغة ثانية متضمنة في صيغة الخطاب المسرود / المنقول وهي صيغة المعروض غير المباشر .

3.4.1. بعد الخطاب المنقول المباشر يعود الخطاب المسرود من جديد ليؤطر الخطاب المعروض غير المباشر الذي يتوارى فيه السرد ، ويظل الراوي / الشاهد يدلل على وجوده من خلال معينات العرض غير المباشر :

- «قال الطالب الأزهري .

- سكت... قال الحضور...

- تساءل أحدهم .

- قال سعيد .

- صمتوا... خوف موغل في الأعماق» (ص 14) .

إن العرض غير المباشر الذي تركت فيه الأقوال للشخصيات من خلال معينات العرض غير المباشر يأتي لتعميق تلك الصورة الأنفة حول الاضطراب وآثارها في النفوس ، وذلك عن طريق كون الراوي يتوارى خلف الخطابات المعروضة ، ويقوم بدوره من خلال تسجيل مصاحبات هذه الخطابات (Para-discours) إذا صحت هذه التسمية ، وما تحمله من دلالات تتصل بمضامين الخطابات المعروضة (صمت، سكت، تساءل...) .

5.1. يعود الخطاب المسرود من جديد مع الراوي / الشاهد من :

- «في الطريق على مهل... ولم تعرف التفاصيل» ص 14 / 15 .

ومن خلال التلخيص يقدم لنا الراوي / الشاهد صورة طابور الفلاحين المرتبطين من أعناقهم بالسلاسل الحديدية وهم يساقون إلى الموت . وضمن هذا الخطاب ينتقل إلى الخطاب المسرود الذاتي الذي يتداخل وصيغة الخطاب السابقة لأن هاجس الموت الذي استشره بسبب مرور الطابور جعله يتذكر الصعاب التي يمر منها الرحالة والمشاكل والمصاعب التي تنتظره هنا وهناك . وكل معينات هذا الخطاب المسرود الذاتي هي الأفعال المرتبطة بذاتية الراوي / الشاهد:

- ربما أموت بعد لحظة .

- أجهل هذا .

- أرى الرجال الماضين إلى الموت، أذكر خروجي، «أذكر من سبقوني» . . . ص 15 ومنه ينتقل من جديد إلى الخطاب المسرود عن أحوال القاهرة (امساك خائن يرأس العثمانيين / اعدام الوالي كرتباي / وصول رسول من الشام يخبر عن هزيمة جيش السلطان قرب حلب . . .).

6.1. ومن الخطاب المسرود ينتقل الراوي / الشاهد من جديد إلى الخطاب المسرود الذاتي الذي نلاحظ من خلاله كما رأينا سابقاً صورة الراوي من خلال معاناته ومشاهداته لكل هذه الاضطرابات والأحداث كما تنطبع في ذاته . مقارناً بين أحداث القاهرة وما عاينه في حيدر آباد بالهند عندما داهمها الوباء. إن صورة الراوي كما تبدو لنا في الخطاب المسرود الذاتي تقدم لنا بدورها صورة أكثر عمقاً عن الموضوع (موضوع السرد) من خلال هذه الصيغة :

«أرى القاهرة الآن رجلاً معصوب العينين ، مطروحاً فوق ظهره ، ينتظر قدراً خفياً أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت ، تتقارب رؤوسهم الآن ، يتهايمسون الآن ، يتهايمسون بما سمعوه من أخبار ، النداءات مجهولة ، الوقت يمضي ولا يمضي ، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لا رقب مواضع النجوم ربما يقترب الفجر ، غير أننا الآن لم أسمع يكا واحداً يصيح» . ص 16 .

7.1. واضح من خلال هذا التحليل أن الخطاب المسرود الذي يلقيه الراوي / الشاهد عرف تنويعات عديدة ومتداخلة ، وأن معينات تلك التنويعات تختلف باختلاف الصيغة المنتقل إليها . كما أن الانتقال من صيغة إلى أخرى ليس بهدف جمالي محض أي تكسير وتيرة السرد وتفكيكها بادخال تناوبات أو تضمينات صيغية على الصيغة الأصل . بل إلى جانب ذلك نجد أن تلك التبدلات تسهم وبشكل كبير جداً في تطوير وتعميق صورة الأحداث المتناولة بشكل لا يخلو من مسافة تؤثر يخلقها ذلك التبدل ، ويعطي الصيغة دلالات عميقة

في مجرى الخطاب كما سنلاحظ ذلك في الوحدات التالية.

ومن أجل التلخيص نلاحظ أن صيغة الخطاب المسرود في «المذكرة» التي يسجل فيها الراوي / الشاهد (مشاهداته) عرفت التلوينات التالية :

1- الخطاب المسرود الذاتي (+ المعروض الذاتي) .

2- الخطاب المسرود/ المنقول :

أ - المسرود/ المنقول

ب - المسرود الذاتي

ج - المنقول غير المباشر

3- الخطاب المنقول المباشر .

4- الخطاب المعروض غير المباشر .

5- الخطاب المسرود

6- الخطاب المسرود الذاتي .

إن الخطاب المسرود هنا كما نلاحظ هو الذي يؤثر كل التبدلات الصيغية التي لا نجد أياً منها يخرج عن الصيغة الأصل . كما أن تلك التبدلات أغنت الخطاب بتعدد الصيغة الذي يتيح إمكانية استغلال مختلف الصيغ الممكنة لتقديم الحكى أو إضاءته والتعبير عنه (حكىه) بشكل متلائم ومتكامل . كما أننا نلاحظ ، وبسبب كون الخطاب المسرود هنا ، هو خطاب الرحالة الايطالي كيف أنه يتبدىء بالخطاب المسرود الذاتي وينتهي به ، ولذلك خصوصيته فيما يتصل بنوعية هذا الخطاب (المذكرة) وإلى جانب هذه الصيغة المتصلة بذاتية المتكلم نجد صيغ المنقول المباشر وغير المباشر والمعرض غير المباشر في تداخلها كيف أنها تسهم في تدقيق نوعية هذا الخطاب . فهو لا يسجل (يرهن من خلال الخطاب) إلا ما يتصل بذاته في علاقتها بالمحيط الحدثي الذي يتحرك فيه وما يزخر به هذا المحيط أو «العالم المحكى» من أقوال مسموعة، يقوم بنقلها مباشرة أو غير مباشرة ، أو يقوم بعرضها بشكل غير مباشر ، إذ أن ذاتيته في انجاز الخطاب مركزية . ولذلك أخيراً نعين أن صيغة المسرود حول ما يشاهده ، كيف أنها تأتي قليلة جداً بالقياس إلى باقي الصيغ . وحينما تأتي من خلال حديثه عن طابور الفلاحين المساقين إلى الموت ، يتجلى لنا كون هذه الصيغة تأتي محملة بالوصف ، وبعدها مباشرة تأتي صيغة المسرود الذاتي التي عبرها يبرز لنا أثر «المشهد» في ذاتية المتكلم (الراوي / الشاهد) .

إننا في تحليلنا لهذه الوحدة (بدايات الهزيمة) من خلال الصيغة الكبرى (السرد) لم نقف إلا على حدود صغرى من درجة أولى (عمودياً) ، ولو أمكننا انجاز التحليل على مستوى

درجة ثانية لا أستغرق منا التحليل كل هذا الفصل⁽¹⁾ .

II - الاعتقال :

1.2 . إذا كانت الوحدة (I) تقع في بناء الخطاب الروائي زمنياً في 922هـ ومصر على أبواب الهزيمة . فإن هذه الوحدة (الاعتقال) تعود بنا إلى بدء زمن القصة في الخطاب وهو (912 هـ) الذي يتم فيه اعتقال المحتسب علي بن أبي الجود والذي سيعوضه الزيني بركات بن موسى (كما سنرى ذلك في التعيين) الذي ستجري أحداث القصة في هذا الخطاب الروائي الذي يحمل عنوانه أسمه ، في أيام توليه الحسبة إلى حدود الهزيمة (923 هـ) ، والتي سيستمر بعدها محتسباً .

إن الراوي (ضمير الغائب) هو الذي يتكلف هنا بارسال الخطاب المسرود الذي يهيمن في هذه الوحدة . ومن خلال صيغة السرد يُقدّم لنا حالة الفجر الذي سيتم فيه اعتقال علي بن أبي الجود ، إذ فيه ستخرج مجموعة من الممالك مقتحمة هذا اليوم الجديد .

فمن خلال التلخيص المشهدي إذا صح هذا المفهوم يصور لنا الراوي هذا الفجر الذي خرج فيه السقاؤون لجلب الماء إذا بمجموعة من الممالك تخرج على خيولها التي تثير حوافرها دوامات ترابية صغيرة . . . ومن خلال هذا التلخيص يوطر اليوم الكامل وما سيجري فيه .

2.2 . وبصدد علي بن أبي الجود ينقلنا الراوي من خلال الخطاب المسرود أيضاً إلى بيته ليقدم لنا من خلال المزوجة بين السرد والوصف صورة علي بن أبي الجود وحياته الخاصة (زوجاته/ ممارساته اليومية . . .) ، ويقف من خلال الوصف على إحدى مميزات علي بن أبي الجود كمحتسب مستعملاً العمامة نموذجاً دقيقاً لهذا الوصف الذي من خلاله يرسم لنا شخصيته بوضوح :

« . . . عباءة زركش سوداء حفت بالقصب والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشاش لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمي الألوف ، سمح لعلّي بن أبي الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحني بها أمام السلطان ، يجالس الأعيان : يشق بها في المواكب . ومعروف « لم تخلق العمام الكبار لأي إنسان ، لا يجرؤ أي شخص على لبسها في حضرة من له المقام ورفعة الشأن (التشديد من عندي) ، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد، يوقظ النيمة ، يحرك الدسيسة . . . » الصفحة 19 .

إن وصف العمامة بهذا الشكل لا يأتي اعتباطاً . إن العمامة هنا تصبح عنصراً محورياً

(1) حاولنا في دراسة حول «صيغ الروائي وأبعادها النصية» تحليل صيغة المنقول غير المباشر (الجارية والطار) بشكل أكثر تفصيلاً ضمن صيغة المسرود (1987) .

في شخصية علي بن أبي الجود . بل هي كل وجوده : فهي التي توقظ النيمة ، وتحرك الدسيسة . العمامة / الرَّمز لها أكثر من دلالة . فالجملة التي شددنا عليها لا تدخل في مجال الوصف ، بل هي قول مأثور «ومعروف . . .» . وادخال هذا القول يعمق كل دلالات العمامة كرمز . لذلك فاختزال شخصية بن أبي الجود في العمامة يؤكد السياق السردى الذي يأتي فيه وهو «الاعتقال» . لكن الخطاب المسرود يدل أن يسرد لنا وبطريقة مباشرة ومفصلة لماذا يعتقل بن أبي الجود : نجده يقتصد في السرد ، ويصف . ومن خلال الترابط بين الوصف والسرد تتعمق لدينا صورة المحتسب المعتقل وأفعاله .

3.2. وإذا كان علي ابن أبي الجود لم يخبر عن نبأ اعتقاله من لدن كبير بصاصي السلطنة زكريا بن راضي فإنه الليلة بات مطمئناً عند زوجته الثالثة «سالمة» . إن حدث الاعتقال يتم بدوره من خلال الخطاب المسرود ولكن الصيغة المهيمنة هي السرد ، يتخذ السرد إيقاعاً سريعاً ومتواتراً من خلال الجملة القصيرة وتوالي الأفعال :

«سالمة أيقظتها حركة غير معهودة، إقدام تسرع، أبواب تفتح، صيحات بعض الحريم الخافتة ، الأصوات تصل إلى هنا متسلخة غير واضحة . . . أمطار تلمس أرضاً جافة، قارب يتأرجح حوافر تعدو، تعدو ماذا يجري بالضبط . . . أواني تسقط ، يصرخ طفل ، تسقط كتلة خشب ، تتسابق دقات قلبها ، تصغي ، وقع أمر ، ما هو؟؟؟» .

إن إيقاع السرد السريع يبرز لنا توافم الحدث والسرد من حيث الإيقاع . وهنا يمكننا الحديث عن الصورة السردية التي تتلاحق فيها الأفعال والجملة القصيرة بسرعة محدثة توتراً حاداً لا ينتهي إلا بانتهاء الحدث (الاعتقال) .

4.2. ويتابع الخطاب المسرود من خلال الراوي ليمتد إلى الشارع لـ «ينقل» لنا سر أثار الاعتقال في النفوس (الأسواق/ نوافذ البيوت/ الزغاريد، التصفيقات/ الفرح . . .) وبنفس الصيغ التي رأيناها أعلاه ، تتواتر الأفعال والجملة القصيرة محدثة نوعاً من الحيوية ، في إيقاع السرد الشيء الذي يجعلنا نتحدث عن التلخيص المشهدي الذي يتداخل فيه المشهد والتلخيص في إطار الخطاب المسرود.

5.2. ومن الشارع ينقلنا الخطاب المسرود إلى رواق الصعايدة في الأزهر ليقدم لنا أثار الاعتقال في نفوس الطلبة مركزاً على «سعيد الجهيني» . إن الراوي هنا في صيغة الخطاب المسرود يسرد من منظور سعيد الجهيني . لذلك فالرؤية السردية هنا تأخذ طابعاً ذاتياً ، داخلياً . إننا لو أعدنا كتابة المقطع السردى التي يرسله الراوي من خلال سعيد الجهيني بالضمير المتكلم لأمكننا الحصول على خطاب مسرود ذاتي . غير أن الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد الجهيني) يتخذ هذا الطابع الذاتي أيضاً : فاعتقال علي بن أبي

الجود منظور إليه هنا من زاوية سعيد الجهيني ، لذلك سنسمي هذه الصيغة هنا : الخطاب المسرود المنقول . فهو ينقل خطاب سعيد الجهيني لكن بالضمير الغائب .

سعيد فرح ومشرح لهذا الاعتقال يبدو لنا هذا من خلال الخطاب المسرود المنقول : نقل تصورات سعيد عن بن أبي الجود قبيل اعتقاله (الاعتداد بالنفس / الظلم . . .) وبعده (العذاب / الاحتقار . . .) ويتضح لنا هذا الخطاب المسرود المنقول بشكل أكثر وضوحاً من خلال تذكره ما قاله الطالب عمرو بن العدوى (المشتغل مع زكريا بن راضي) عن علي بن أبي الجود ، وما يقال بين الناس حول زكريا ، وطرق تعذيبه الناس ، وما إلى ذلك مما يجول في خواطر سعيد حول العيون التي تترصده وما يزعجه عمرو بن العدوى من قتل بن أبي الجود . ومن خلال الخطاب المعروض (حديث أبو السعود / سعيد) نتعرف على موقف الشيخ أبو السعود مما يقوله عمرو بن العدوى ويأمره بالحد .

6.2. ودائماً من خلال الخطاب المسرود (الراوي) تضاء لنا شخصيات عديدة علي بن أبي الجود / زكريا بن راضي / عمرو بن العدوى / سعيد الجهيني . وكل ذلك يتم من خلال رؤية سعيد الجهيني المسرودة من قبل الراوي .

ومن خلال ذلك تتكشف لنا العلاقات بين الشخصيات واعتقال ابن أبي الجود وأسبابه المباشرة . لكن السؤال سي طرح حول من يخلف علي بن أبي الجود في نظارة الحسبة . وحول من يخلف علياً؟ يأتي الخطاب المعروض لأضاءة التساؤلات المطروحة وانتظار من يمكن أن يحل محله . وهذا الخطاب المعروض يأتي بطريقة اطلاقية تعبر عن الرأي العام ، لأننا من جهة لا نعرف من يتكلم ، ومن جهة أخرى يستعمل الخطاب المعروض ضمير الجماعة المتكلم . وكأن الراوي يعرض علينا القول المشترك بين كل الناس :

«- من إذن؟؟» . . .

- ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط .

- عد أغنامك يا جحا . . قلت لك . . يا جحا عدّ أغنامك» ص 24 .

7.2. ثم يعود الخطاب المسرود من جديد بنفس الطريقة التي رأيناها (5.1) يسرد من خلاله منظور سعيد لواقع القمع المهيمن (عمرو بن العدوى / زكريا / بن أبي الجود . . .) والفرح الذي يحس به من جراء الاعتقال . ثم تنتهي هذه الوحدة بالخطاب المعروض الذي يعرض لنا فيه الراوي ما قاله الأطفال حول الحديث :

احزن . احزن . . يا حسود

شالوا علي بن أبي الجود . ص 27 .

رأينا أن هذه الوحدة مثلها مثل الأولى تدخل ضمن صيغة الخطاب المسرود، وإذا

كانت الأولى قد أرسلها الراوي / الشاهد، فإن الثانية أرسلها الراوي . إن الأولى ترصد حالة المدينة وهي مضطربة . بينما الثانية تتعلق باعتقال شخصية له وزنها وخصوصيتها في حياة الناس ، لذلك نلاحظ بجلاء كيف أن صيغة الخطاب المسرود هي الصيغة الأساس . فالراوي يقدم لنا حدثاً مركزياً (الاعتقال) . ومن خلال تقديمه إياه، يبين لنا آثاره على شخصيات القصة . لهذا السبب نجد هيمنة صيغة السرد ، وحينما تأتي صيغ أخرى مثل صيغة الخطاب المنقول غير المباشر (عن موقف سعيد الجهيني) ، فذلك يسهم بجلاء في تقديم صورة دقيقة عن هذه الشخصية المركزية في القصة : إن الراوي هنا يتكلم بأفكار سعيد الجهيني ، لكنه يقدمها لنا مسرودة . ويمكن قول الشيء نفسه عن صيغ أخرى مثل صيغة المعروض غير المباشر ، أو المعروض التي من خلالها تقدم لنا آراء الناس وموقفهم المتشكك أو المتردد من نبأ الاعتقال . وكل هذه الصيغ كما لاحظنا تأتي مركزة ومتداخلة مع الصيغة الأساس (السرد) التي تقدم لنا أخباراً كثيرة عن عالم المحتسب المعتقل ومحيطه ، وموقف الناس منه . إن الخطاب المسرود يهيمن على باقي الصيغ لأن سياق الحكى يفترض ذلك لأسباب عديدة :

- 1- إن الوحدة الثانية (الاعتقال) هي الوحدة الأولى على صعيد القصة .
 - 2- إن السرد يستجيب كثيراً لموقع هذه الوحدة من القصة عن طريق تقديم الأخبار الكافية عن الأسباب والطريقة التي بواسطتها تم الاعتقال ، وموقف الناس من ذلك .
 - 3- تقديم بعض الشخصيات المحورية من خلال صور عنها ، على اعتبار دورها الأساسي في القصة .
- أما باقي الصيغ فتأتي عملياً وهي متداخلة وقليلة لخدمة الصيغة الأساس ، عكسما رأينا مع الوحدة السابقة ذات الخطاب المتميز (المذكورة) من خلال الراوي - الشاهد .

III - التعيين :

- 1.3. يصلنا التعيين أولاً من خلال الخطاب المعروض (المرسوم الشريف ص 27/28) . وخاصة هذا الخطاب هو استهلاله بعرض مقطوعات من الخطاب الديني حسب الحاجة . ثم هيمنة ضمير المتكلم للجماعة العائد على السلطة . وينقسم هذا الخطاب إلى ثلاثة أقسام : 1- الاعلان عن كشف علي بن أبي الجود . 2- قرار تعيين بركات بن موسى نائباً للحسبة بعد تفكير وتدبير . 3- توصية الزيني بالعدل . ويتمتع هذا الخطاب بكل خاصيات المراسيم السلطانية القديمة على مستوى لغته أو أسلوبه .

2.3. بعد صيغة الخطاب المعروض التي من خلالها يتم تعيين الزيني بركات محتسباً مكان علي بن أبي الجود ، نلتقي بالخطاب المسرود الذي يتكلف به الراوي الذي يسرد لنا

منظور زكريا بن راضي لهذا القرار. وكما سبق أن رأينا فالخطاب المسرود (من خلال سعيد الجهيني) يسهم في إضاءة الحدث أو الشخصية . في هذا الخطاب المسرود يتابع الراوي شخصية زكريا بن راضي : فمنذ صدور القرار وهودائم القلق ، لماذا يخفي عليه هذا الأمر . ينزل مع مبروك (خادمه) إلى سجنه ، ويقتل الغلام شعبان خشية أن ينفضح أمره على اعتبار كون شعبان ، كان غلامَ السلطان المُقرب ، وأراد زكريا معرفة نوعية العلاقة التي تربطه بالسلطان فاعتقله . . . إن السرد يأخذ هنا وتيرة واحدة ، وحتى الوصف عندما يتخلله فإنه لا يأخذ حيزاً في مجرى الحكيم . ومن خلال السرد تتوضح لدينا أحداث عديدة وطرائق خاصة للتعذيب ترتبط بالفترة التاريخية المتناولة في قصة الخطاب الروائي .

3.3. لكن السرد سيخرج عن تلك الوتيرة بانتقاله إلى الحديث عن زكريا بن راضي وهو يخلد إلى الطابق العلوي صحبة مبروك . إن إيقاع السرد سيصبح سريعاً : توالي الأفعال ، قصر الجمل (ص 33) . إن زكريا بن راضي يريد البحث في الملفات الموجودة عنده عن الزيني بركات . وإيقاع السرد هنا يكشف عن هذا الترابط بين السرد وحالة زكريا النفسية :

«زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب ، تقلقل الأمور . تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاف الزمان ، انهيار القوائم ، تحليل الأسباب ، قبل بداية العمل يتكئ إلى حشية ليئة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام أحمر ملون بأسود ، يغمض عينيه . ما معنى الذي جرى؟!» ص 33 .

نلاحظ من خلال هذا المقطع كيف أن الخطاب المسرود من منظور زكريا بن راضي كيف أنه ينتهي بصيغة المنقول المباشر: «يغمض عينيه ، ما الذي جرى؟!». وبدءاً من هذه الصيغة التي تتضمن سؤال زكريا بن راضي نجدنا ننتقل من الخطاب المسرود إلى صيغة أخرى. إن صيغة المنقول المباشر عندما تنتهي بها الصيغة السابقة يأتي «معين» صيغي يؤذن بالانتقال الصيغي .

4.3. ثم ينتقل الخطاب المسرود من السرد من خلال زكريا إلى الخطاب المسرود الذاتي الذي يتداخل والمعروض الذاتي اللذين يتحدث فيهما زكريا إلى نفسه لكن بصيغتين متبدلتين زمنياً :

- «أجيء إلى هنا (كل طبقة / فئة مخصصة لها ملفاتها . . .)» .

- «لم يحدث قط أعد شيء كهذا في تاريخ بصاص . . .

- «سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به ، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت» ص 34 .

وَيَسْتَمِرُّ هذا الخطاب المسرود الذاتي وزكريا يقلب في أوراقه بحثاً عما هو مكتوب من الزيني بركات ويأسف في النهاية عندما يجد أن ما دونه شهاب الحلبي ناظر الديوان بصدد الزيني لا يتجاوز أربعة سطور . (بركات بن موسى ، له مقدرة على الاطلاع على النجوم ، أمه إسمه عنقا) . ص 35 . ويتعجب زكريا كيف أن أي شخص من سفلة الخلق لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة ، بينما الزيني لا تعرف عنه إلا تلك الكلمات؟! . ثم يقرر أن يتكفل هو برصد حركات الزيني .

5.3. بعد الخطاب المسرود الذاتي : نتقل من جديد إلى الخطاب المعروف ، من خلال خطاب الزيني بركات في جَمْعٍ شمل الأمراء يطلب فيه من السلطان أن يعفيه من وظيفة الحسبة (ص 37) .

6.3. الخطاب المسرود الذي يقوم به الراوي ينقلنا من زكريا بن راضي إلى كوم الجارح حيث الشيخ أبو السعود وبمعيته سعيد الجهيني . ومن خلال الخطاب المسرود والخطاب المنقول غير المباشر المستعمل هنا نعرف موقف الشيخ ومريديه من الزيني الذي رغم كونهم لا يعرفون عنه شيئاً يتعاطفون معه فقط لأنه يطلب الإعفاء من الحسبة . ونجد بخصوص «كوم الجارح» هيمنة صيغة الخطاب غير المباشر التي يتكفل بها الراوي . فمن خلال هاته الصيغة يمكنه التعريف بالشخصيات الجديدة: أبو السعود ومريده وموقفهم المضاد لموقف زكريا بن راضي وأتباعه.

وضمن الحديث عن كوم الجارح ينقلنا الراوي من خلال الخطاب المنقول غير المباشر أيضاً إلى الشارع لمعرفة وتقديم الآراء حول رفض الزيني للتعيين من خلال سرد ما يقال : أي نقله مسروداً بشكل غير مباشر :

- «أما الناس في الجودية وحارة الروم الجوانية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفيّاً تاماً» .

- «وقيل في بولاق، والحمامات العامة، خاصة حمامات النساء ، إنه وقف أمام السلطان كزينة الرجال ، وأشجع ما يكون عليه الفرسان . . .» ص 40 .

7.3. وعبر العرض غير المباشر نتعرف على موقف مريدي كوم الجارح من الزيني وطلبهم الله أن يولي عليهم أختيارهم . «لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت . . أنت يا مولانا والبركة فيك . . يميل الشيخ أبو السعود هامساً . .

«اللهم وَلِّ علينا خيارنا ولا تُؤَلِّ علينا الأشرار» ص 43 .

إن التعيين كوحدة أساسية نجده يلقي إلينا من خلال :

- الخطاب المعروف (المرسوم الشريف) .

- الخطاب المسرود (الراوي ← زكريا من راضي) :

- الخطاب المسرود الذاتي .

- الخطاب المعروض : (الزيني) .

- الخطاب المسرود (الراوي ← كوم الجارح) :

- الخطاب المنقول غير المباشر .

- الخطاب المعروض غير المباشر .

وكل هذه التبدلات الصيغية التي تراوح بين زكريا بن راضي وكوم الجارح بما فيها من تداخل المسرود الذاتي والمسرود المنقول والمعرض غير المباشر تقدم لنا بالإضافة إلى صور عن الأحداث والشخصيات من خلال رؤيات سردية عديدة صيغاً متعددة كما سبق لنا أن رأينا في الوجدتين السالفتين، تمكنا من تتبع الحكي بواسطة تلوينات صيغية تسهم من خلال تعددها في مراكمة الأحداث وتقديم صور الشخصيات بإيقاعات سردية سريعة أو بطيئة تتواءم والأجواء النفسية المعبر عنها ، هذا ونلاحظ أن صيغة الوصف لا تأتي غالباً إلا في شكل إشارات مقتضبة تمس بعض الأماكن أو بعض ملامح الشخصيات من خلال رصد بعض النعوت أو ما شابه ذلك .

IV - الخطبة :

1.4 . عندما قسمنا الخطاب الروائي إلى وحدات قلنا إنَّ التعيين يمتد من المرسوم

الشريف إلى ص 51 ، وإن الوحدة الرابعة تمتد من ص 54 إلى 62 لكننا نلاحظ أن هناك مقطعاً سردياً يقع بين الوجدتين ويمتد من الصفحة 44 إلى 51 .

إن لهذا المقطع السردى خصوصية جعلتنا نختار في الحاقه بهذه الوحدة أم السابقة .

فباستثناء الإشارة الوحيدة التي يفتتح بها المقطع :

«عندما سمعت بذهاب الزيني بركات إلى جامع الأزهر ، ليخطب في الخلق . . .»

الذي يخبرنا بأن الزيني سيخطب ، لا نكاد نجد إلا الخطاب المسرود المتعلق بعمر وبن العدوى (الطالب الأزهري البصاص) ، لذلك جعلنا هذا المقطع يدخل ضمن هذه الوحدة ، (أنظر تحليلنا لهذا المقطع في الفصل السابق حول الزمن) .

2.4 . في مجلس يضم مجموعة من الناس (لا تتكرر بعض الأسماء في الخطاب

الروائي) بواسطة الضمير المتكلم يتحدث أحدهم عن رؤيته الزيني بركات يخطب في الخلق . ومن خلال العرض غير المباشر يستفسر عن الزيني بركات ، ويسهم عمرو بن العدوى في الحوار .

وعن طريق الخطاب المسرود (الراوي) نخبر عن المجلس والأحداث التي تدور فيه حول الزيني بركات وما يقال عن لقائه بالشيخ أبي السعود . ومن خلال تركيز الراوي على عمرو بن العدوى يبين لنا الدور الذي يقوم به في مراقبة الحركات والسكنات، وعَبَّرَ الخطاب المسرود الذاتي يبين لنا أيضاً خوفه من مراقب يرقبه وينقل عنه مدى قيامه بواجبه ، ونعرف من خلال هذه الصيغة ما تعرض له سابقاً عندما لم ينتبه إلى شاردة من نقد ولوم مقدم البصاصين الذي «يعرض» لنا قوله في مقطع سردي طويل يأتي من خلال الخطاب المسرود الذاتي :

«... يزعق مقدم البصاصين ، يستدعيه يقابله بنفسه «أنتم تعرفون ما ألقاه بسبب غفلكم . السلطان ينزعج انزعاجاً شديداً ، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة قد مرت على واحد من رجاله ، الستم عيونه ، الستم آذانه؟؟؟» . ص 46 .

«اقرأوا التواريخ يا ناس ، أنتم عيون العدل ، أنتم العدل نفسه ، كيف تهملون ، كيف تدعون أمراً يفوتكم . . كيف؟؟؟» . ص 47 .

إن الخطاب المعروض هنا متضمن في الخطاب المسرود الذاتي فهو الذي يوظفه ويتداخل وإياه ، وفيه يتحدث مقدم البصاصين عن المهنة ودورها في حفظ الأمن ، «ناقلاً» في خطابه المعروض شواهد من التاريخ المصري ودور محتسب سابق جعفر بن عبد الجواد الخطير والذي حفظ سلطان قايتباي مدة 30 سنة . . . إن الخطاب المعروض يتضمن بدوره صيغة الخطاب المسرود ، ويؤكد هذا ما قلناه عن تداخل الخطابات والصيغ .

3.4. ثم يعود الخطاب المسرود من جديد (الراوي ← عمرو بن العدوى) لينقل لنا من خلال المنقول ما يجري في المجلس . ومن خلال صيغة الخطاب المسرود الذاتي معاناة عمرو بن العدوى (تذكره أمه/ حديث مقدم البصاصين إليه/ خشيته من أن لا يقوم بواجبه ، ومن خلاله يتم «عرض» مقطع جديد من مقدم البصاصين موجه إلى عمرو بن العدوى حول المهنة والوظيفة منذ أن شغلوه معهم كَعَيْنٍ على ما يجري في الأزهر ورواق الصعايدة .

4.4. في هذا المقطع السردى تبدأ الوحدة الرابعة (الاعتقال) . ومن خلال الراوي نجد صيغة الخطاب المسرود (زكريا بن راضي). زكريا بن راضي ينتظر وصول مبروك ليحمل إليه التقارير. ولهذا الخطاب خصوصية على مستوى التركيب الزمني، ولقد سبق لنا إبراز هذه الخصوصية على مستوى الزمن.

إن صيغة الخطاب المسرود هنا يمكن تقسيمها إلى جملة واحدة تتضمن جملاً عديدة . وهذه الجملة هي التي توظف الخطاب المسرود . إن الجملة الأصل (الأولى) هي التي نفتح بها الخطاب المسرود:

«أخيراً ها هو مبروك ، يحمل لفافة أوراق ، طال ترقب زكريا لصولها .

(. . .) ص 52 (السطر الأول) وتمة الجملة نجدها في ص 54 .

(السطر الثامن) : «ها هو زكريا الآن يفرد اللفافة التي أتاها بها مبروك . . تقارير مقدم بصاصي القاهرة ، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وارصاد طوال اليوم» ص 54 .

إن بين المقطع الأول من الجملة (52) والثاني (54) نجد قرينتين زمنية (أخيراً/ الآن) وإشارية (ها هو مبروك)/ ها هو زكريا) : في المقطع الأول زكريا ينتظر وصول الأوراق وفي الثاني يفتحها ليقراً ما وصله عن «الخطبة» من تقارير .

وبين المقطعين نلاحظ من خلال الخطاب المسرود ما قام به زكريا بن راضي وما قرأه من تقارير في يوم قبل أن يخرج منادو الزيني يعلنون عن الخطبة التي سيلقيها الزيني بركات في الناس . إن الخطاب المسرود يشمل زمنياً يومين :

1- اليوم الأول : قبل الخطبة ونعرفه من خلال الخطاب المسرود : (في الصباح ، سلمه مبروك تقريراً عاجلاً ، أعده مقدم بصاصين القاهرة يحوي حركة الزيني بركات . . .) ص 52 .

. . . انتقال الزيني إلى أبي السعود في كوم الجارج ، خروج مناديه إلى الأسواق يخبرون عن خطبته . وفي آخر هذا اليوم يأمر البصاصين بالعمل الجاد خلال اليوم الثاني .

2- اليوم الثاني : يقرأ زكريا بن راضي تقارير الأمس (الزيني / كوم الجارج . . .) وفي أول النهار يخرج زكريا متخفياً ليحضر بدوره الخطبة . وفي آخر هذا اليوم يصل إليه مبروك حاملاً اللفافة التي تحمل تقارير عن يوم الخطبة .

إن هذا الخطاب المسرود إلى جانب كونه يضيء لنا جوانب من ممارسة زكريا بن راضي وأتباعه ، يوضح بصورة أعمق شخصيته وبالأخص من خلال صيغة الخطاب المسرود الذاتي : «كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله؟؟ ثم إن الزيني لم يحتسب بعد ، كيف يعطي لنفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب ، بلا وسيط هكذا يبدأ أيامه باخلال الأمور ، يعبث بالنظام» ص 52 .

أو من خلال الوصف ، وصف تهيئه للخروج متخفياً في لباس الدراويش عندما دخل قاعة الثياب البديلة :

«غرفة طويلة ، ضيقة ، تحوي كل ما يخطر على بال من ثياب . عمامة سلطانية وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الألوف . . . » ص 53 .

إن الخطاب المسرود بمختلف هذه التلوينات الصيغية يعمق لدينا صورة الأخبار عن شخصية زكريا بن راضي ، إلى الدرجة التي تصل حد الشفافية ، ولعل الخطاب المسرود الذاتي كفيل بتعميق تلك الصورة لكن من الداخل .

5.4. بعد الخطاب المسرود يأتي الخطاب المعروض (من خلال تقرير مقدم البصامين الذي هو تركيب لمختلف التقارير المتوصل بها بصدد يوم الخطبة) . يفتح الخطاب المعروض بالوصف (المنبر/ جنبات المسجد الغاص بالناس/ تصايح الناس :

«لكن الزيني رفع يده اليمنى ، مفرودة الأصابع (يده عادية ، أصابعه خمس) . . .» ص 54 واضحة هنا الدلالة العميقة لهذا الوصف الذي لا يترك أدق التفاصيل ! ، ثم بعد ذلك ينتقل إلى صيغة الخطاب المنقول من خلال هذا المعين الصيغي : «قال ما معناه . . .» ص 45 ، ويلخص أقوال الزيني في نقط ، وخلال «النقل» يصف الناس وردود الأفعال ، ويشدد على بعض النقط التي لها فرادتها من منظور البصامين وجهازهم . ويختتم الخطاب المعروض بنقطة أخيرة تتعلق بلزوم سعيد الجهيني إياه ، وصياح امرأة في ركاب الزيني بعد انتهاء الخطبة .

6.4. ومن خلال الخطاب المسرود (الراوي - زكريا) يتم رصد ردود أفعال زكريا تجاه «الخطبة» . ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي يبدو لنا زكريا مغتاضاً من الزيني ، ويفكر في وسائل تجعله البصامص الأمهر الذي يستطيع النفاذ إلى الزيني ومعرفة دقائق حياته . ثم يكتب رسائل يُوجِّهها إلى الأمراء لاثارتهم ضد الزيني وأخرى إلى الزيني بركات طالباً التعرف عليه والاقتراب منه .

7.4. يظهر لنا الخطاب المعروض من خلال رسالتين : الأولى إلى الزيني (ص 59) يوضح فيها ضرورة تعاون بصاصيهما وأن لا ينفرد الزيني لوحده بكل شيء إذ أنه لا يستطيع ذلك ولزكريا جهاز كامل ، ويبين له أهمية التعاون ورسالة أخرى إلى الأمراء يختصر فيها من خلال نقط المخاطر التي تحيط بهم بسبب الزيني .

إن الخطاب المعروض الأول يختلف عن الثاني إذ الأول تهيمن فيه روح كسب العطف بينما الثاني على العكس ، لذلك جاءت صيغة الأول تحليلية والثانية اختزالية . فالتحليل يهدف الكسب وبالتالي فإن كمية الأخبار قليلة ، أمّا في الاختزال سنجد كمية الأخبار كثيرة (من خلال العديد من النقط) بهدف استعداد الأمراء وتأليبهم ضد الزيني .

٧ - الزيني حاكماً :

1.5. نفتح هذه الوحدة على الخطاب المعروض (النداء) ونغلقها بواسطته أيضاً . وفيها يصبح الزيني بركات بالفعل يمارس مهامه . لقد رأينا في «الخطبة» ، ومن خلال الخطاب

المسرود الذاتي كيف يتساءل زكريا بن راضي عن إقدام الزيني على الخطبة في الناس وهو لم يتسلم بعد مقاليد الحسبة . لذلك فمن خلال الخطاب المعروف الذي يقوم به المنادي في شوارع القاهرة يتم الاعلان رسمياً عن بدء ممارسة الزيني لمهامه . ومن خصائص هذا الخطاب المعروف : الإشارة المقتضبة والتقرير وهيمنة صيغة الأمر ، إن صيغة الخطاب المعروف هنا إخبارية إقرارية ، ومن خلاله نتعرف على تسلم الزيني المحتسب المعتقل ، وإنه سيقضي في كل القضايا والمشاكل .

2.5. بعد الخطاب المعروف يأتي الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد الجهيني) ليسرد لنا من منظور سعيد الجهيني ممارسة الزيني للحكم . إن الخطاب المسرود هنا تتوازي وتتداخل فيه عبر التناوب والتضمين صيغ الخطاب التالية :

1 - الخطاب المسرود الذاتي : من خلاله تضاءلنا بجلاء جوانب جديدة عن شخصية سعيد الجهيني (حبه سماح بنت الشيخ ريحان/ موقفه الايجابي من ممارسات الزيني/ عداوته المطلقة لزكريا بن راضي وعيونه التي تتواجد في كل مكان).

2 - الخطاب المنقول : يبدو لنا من خلال الأحاديث التي تجري بين سعيد الجهيني والشيخ ريحان حول عدل الزيني ، والتي ينقل لنا من خلالها أيضاً ما يمارسه الممالك من اعتداء على المواطنين وموقف الزيني الايجابي من ممارساتهم . كما يبدو لنا هذا من خلال نقل الخطابات المعروضة (النداءات العديدة التي يقوم بها أتباع الزيني مشهرين ببعض الممارسات المَشِينَة ، وأيضاً من خلال نقل أقوال بعض الناس حول عدل الزيني . . . ويبدو لنا أيضاً هذا في تضمين قصة «ترزي الخياط والغلام» التي تأتينا في صيغة الخطاب المنقول المسرود . وهذه القصة تشبه قصة «الطار والجارية» تماماً وحتى طريقة تضمينها في مجرى الخطاب . موقف الزيني من الخياط الذي «مال» على الغلام حيث أمر باشهاره على حمار وسجنه .

3 - الخطاب المعروف غير المباشر : في حوارات سعيد الجهيني مع الزيني أو مع شخصيات أخر . إن كل هاته الصيغ تتأطر ضمن الخطاب المسرود (الراوي) وبالأخص المسرود الذاتي (الراوي ← سعيد الجهيني) . هذا بالإضافة إلى صيغ كالوصف الذي نجده يتكرر بين الفينة والأخرى . وبالإجمال . ، إن هذا الخطاب غني من حيث كمية الأخبار وسرعة إيقاع سردها مع الدقة في نقل الأفكار والأحاسيس . وذلك ما تسهم فيه كل هذه الصيغ وبالأخص عندما تتداخل أو تتناوب ويتضمن بعضها بعضاً .

وفي علاقة ذلك بالأحداث والشخصيات ، نتقدم شيئاً ، فشيئاً في ملامسة شخصية الزيني بركات وسعيد الجهيني وزكريا بن راضي كشخصيات رئيسية وريحان كشخصية

نموذجية للنزق والتظاهر . وبخصوص الأحداث ومنذ اعتقال ابن أبي الجود نتقدم في متابعة الأحداث التي تسير بطيئة، لكن الفضاء الذي تجري فيه الأحداث يمتد أمامنا ويتسع . ولعل تعدد الرؤيات التي تنقل لنا من خلالها الأحداث ، وتعدد الصيغ الذي يتداخل فيه السرد والعرض والنقل والوصف إماماً من خلال المشاهد أو التلخيصات ، كفيلاً بذلك .

3.5. مرة أخرى نلتقي مع الخطاب المعروض الذي يتبدى غالباً بالنداء . ونجده هذه المرة يتضمن قليلاً صيغة السرد المكثف :

- خروج السلطان/ لِعَبْهُ الكرة / تمتعه بالصحة .

- استمرار القطيعة بين الأمير طشتمر والأمير خايربك .

- ضبط الزيني بعض التجار الذين يغشون في الميزان أو البضائع وتغريمه إياهم (ص 74 / 75) .

إن الخطاب المعروض يأتي هنا للإخبار عن ممارسات الزيني الحاكم وهو بذلك يقدم لنا المزيد من إضاءة الأحداث أكثر مما يسهم في تطورها . عكس بعض النداءات الأخرى كالتى سنقف عندها لاحقاً .

4.5. ومن خلال الخطاب المسرود (الراوي ← زكريا بن راضي) نعاين كل خصائص هذه الصيغ والتي سبقت لنا رؤيتها مراراً . ففيها يتداخل المسرود الذاتي . . . بالمنقول بالمعروض غير المباشر . وتقوم بسبب تداخلها وتناوبها بنفس الوظيفة المركبة في مجرى السرد :

- اضاءة الشخصيات والأحداث وفضاء الخطاب : تقديم القصة .

- الاسهام في بَيِّنَةِ الخطاب وتركيبه تركيباً محكماً : تعدد طرائق التقديم .

يدو لنا ذلك بجلاء في كون هذا الخطاب يبدأ بالحديث عن زكريا في بيته يلهو مع طفله «ياسين» . وزكريا هنا يدو لنا أباً يهتم بابنه وينشغل بصحته ، لكنه سرعان ما ينزل مع مبروك إلى سجنه ليصبح إنساناً آخر يمارس تعذيب التاجر الرومي الذي ضبطوه يرأسل العثمانيين :

- «أصعب الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن ، يس» .

ص 76 .

- «أمسك زكريا بسيخ رفيع طويل كالابرة محمى ببطء . على مهل راح يدفعه في بطن الرومي ، حول سرتة ، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق ، خرج نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء ، عبر الفناء إلى جناح حريمه ، طلع السلم المؤدي إلى غرفة زينب ، سأل :

هل نام أومات . . . نعم، قال: أريد رؤيته . . . » ص 37 .

إن الخطاب المسرود هنا يتخذ رؤية موضوعية من خلالها يقدم شخصية زكريا المزدوجة (الأب / الجلال) . كما أن تعليق الراوي في العرض غير المباشر «نعم، قال» يؤكد لنا بجلاء هذه الأزواجية، وفي علاقته بزوجته يبين لنا ما يعتوره من أحاسيس بخصوص الرومي والتقارير التي ينبغي رفعها إلى السلطان وإضافة إلى هذه الصورة التي تقدم لنا عن زكريا ، نجد جانباً آخر منها يتصل بحبه للطبيعة والطيور التي يتغزل فيها من خلال الخطاب المعروض الذاتي الذي يظهر لنا من خلاله انتظار زكريا لجواب الزيني الذي لم يصله بعد وما ينوي القيام به من معرفة المزيد عن الزيني (المرأة التي صرخت في وجهه في الخطبة . . .) ، ومن خلال الخطاب غير المنقول نتعرف على ما يقال عن الزيني وما توصل إليه من خلال التقارير وكذلك في حديثه مع شهاب الحلبي الذي يخضع لأوامره .

5.5. ومن خلال الخطاب المنقول أيضاً نتعرف على زكريا بن راضي الذي بعث في طلب «ابن كيفة» الشاعر الذي يغني في المقاهي من أجل أن ينظم قصيدة سردية يشنع فيه بالزيني كانسان لا أصل له ولا فصل يبلغ أعلى المراتب ويريد أن يهيمن على كل شيء بمفرده ، وتلقي هذه القصيدة التي تضم هذه القصة في كل المقاهي والأماكن العامة . ويتضمن الخطاب هنا صيغ العرض غير المباشر والوصف علاوة على السرد (ص 81) .

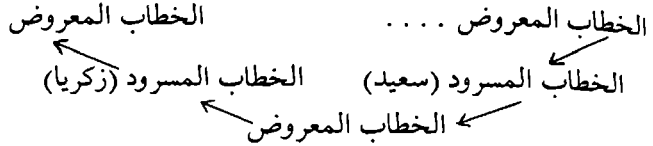
6.5. وفي إطار نفس التداخل بين الصيغ يعود الخطاب المسرود الذاتي ليسجل لنا علاقة زكريا من جديد بزوجته وولده ومحبوسه ، والآمال التي يريد تحقيقها في مهنته ككبير بصاصي السلطنة من أجل توسيع وتطوير البصاصة لتحقيق معرفة - في اللحظة الواحدة - ما يفعل كل الناس في كل مكان ، وما يقولون . . . ويرسل في إحضار الحمام الزاجل الذي استحدثه زكريا نفسه من أجل بعث رسائل إلى الأميرين بشتاك وطغلق للايقاع بينهما ، إذ الايقاع بين طشتمر وخايربك وحده لا يكفي .

إن شخصية زكريا تضاء لنا بشكل متزايد كما أن فضاء الأحداث يمتد وتظهر لنا من خلاله سلطة زكريا على الشارع والمقهى . . . فالاشاعات والنوادر وكل وسائل الكيد تخرج من بيته . كما أن الخطاب المسرود بمختلف التنويعات التي يعرفها باعتباره جاء بعد الخطاب المعروض (النداء) يؤكد ما سبق أن لمسناه علاوة على كونه يقوي تماسك أجزاء الخطاب ومكوناته في مجال الحكوي .

7.5. ثم يأتي الخطاب المعروض (النداء) من جديد من خلال أربعة نداءات بنفس الخصائص التي سبق أن رأيناها ، تخبر عن ممارسات الزيني وإقامته الحق على بعض المحتكرين . وعن الأوامر التي ينبغي اتباعها والمتعلقة بعدم الخروج الممالك ملثمين ليلاً

وبإبطال استعمال دق الطارات في نعي الموتى «ومن ضببت تدق طاراً على مَيّت / تشهر بغير معاودة. . ص 88» ، وبفتح الزيني بركات باباً خاصاً لاستقبال المظلومين

إن هذه الوحدة المرتبطة بـ «الزيني حاكماً» يتوضح لنا من خلالها : عدل الزيني / انحياز سعيد الجهيني إلى الزيني / موقف زكريا من الزيني لذلك فإن صيغ الخطاب المتعددة في هذا السياق تؤكد لنا ذلك .



إنه نفس مجرى الصيغ في تناوبها كما سبق لنا أن رأيناه ، وهو نفسه الذي سنلاحظه في الوحدات اللاحقة . وضروري في هذا السياق أن نسجل أن الأحداث المركزية في القصة لا تأتي في الأغلب إلا من خلال صيغة الخطاب المعروض (النداء) . أما الصيغ الأخرى ، وبالأخص المسرودة من منظور بعض الشخصيات فتأتي لاضاءة وتوسيع الأحداث ، أو إبراز آثارها على عالم القصة . وهذه العلاقة تبين لنا أن «الفعل» يأتي من خلال «العرض» ومن خلال «السرد» يأتي «رد الفعل» . ونستنتج من خلال هذه العلاقة أن التبدلات الصيغية ليست اعتباطية ، كما أن تواتر بعض التبدلات له دلالاته وأبعاده التي يمكننا من استخلاص بعض القواعد من جهة ، ومن جهة أخرى تساعدنا على مواصلة التحليل بناء على هذه المعطيات عندما تنتقل إلى مكون آخر ، وبالأخص الرؤية السردية كما سنحاول استثمار ذلك في حينه .

VI - زكريا نائباً / الفوانيس

1.6. في هذه الوحدة يحصل تطور على مستوى الأحداث فالخطاب (المعروض) الرسالة التي وجهها زكريا إلى الزيني وإلى الأمراء ستعطي بعض نتائجها . كما أن الزيني الحاكم (نائب الحسبة) يصبح يقوم بمهامه ، ويبتكر وسائل جديدة في ممارسته الحكم . ومن خلال الخطاب المعروض (النداءات) يتم الإخبار عن إحداث الفوانيس وتعيين زكريا بن راضي نائباً للمحتسب كما كان في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب «الشهاب» ص 89 .

إن الخطاب المعروض له نفس الخصائص (الأمر / النهي / التحذير . . .) وتقديم الإخبار هو خاصيته المحورية لا سيما في مثل المقاطع التي يستعمل فيها الحكيم .

2.6. الخطاب المعروض أيضاً من خلال التقرير الذي أعده عمرو بن العدوي وفيه

يصف «مادار وما جرى بين العامة والناس، ليلة الثلاثاء سابع ذي القعدة» ص (90). والخطاب المعروف هنا مسرود يتضمن مختلف خصائص الخطاب المسرود (تضمنه الخطاب المنقول والمعروض المباشر وغير المباشر...)، ومن خلال هذا التداخل بين الصيغ يبين لنا ردود أفعال الناس (الشوارع / الأزهر / المقاهي...) بالكثير من التفاصيل والتدقيقات. فهو أولاً يركز على ردود الأفعال حيال النداءات الأولى (قبل الفوانيس) والتي كانت إيجابية، ويبرز لنا من خلال الخطاب المنقول غير المباشر آراء الناس وأحياناً من خلال الخطاب المعروف غير المباشر. لكن الخطاب الذي يستوعب كل هذه التبدلات الصيغية هو الخطاب المعروف ذو الطابع السردى وإن كان الخطاب المنقول يهيمن بدوره ضمنه. ونلاحظ هذا بجلاء من خلال حديثه عن آراء الناس بصدد الفوانيس من خلال صيغة المعروف غير المباشر:

- قال عبد الحميد (رئيس طائفة السقائين ...) قال هذه بدعة ما يصح نشرها في أمة الإسلام.

- «وقال أحد المجاورين (...) يريد الزيني إدخال بدعة جديدة تنسب إليه.

- «قال آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس، كثر الحديث عن تعليق المصابيح، قال آخرون (...)»

- قال اليهود ماد منا لن ندفع درهماً لا بأس. وقال بعض المشايخ (...) (ص 92) نلاحظ هنا مزج آراء الناس وأقوالهم بخطاب التقرير الذي يوطرها ويعلق عليها من المنظور الذي يتبغيه جهاز البصامين، وحتى من خلال تركيزه على بعض الشخصيات (سعيد الجهيني) يبدو لنا الخطاب المعروف (التقرير) وخصوصيته كخطاب مسرود: فهو يصف ويعلق ويشدد من خلال بعض الإشارات على خصوصية ما يقوم بعرضه: وعن سعيد الجهيني الذي ثار لتعيين زكريا نائباً والذي لم يهتم بالفوانيس عكس بقية الناس، ينقل كلامه أولاً، لكنه في نقطة رابعة من نقل كلامه يقول:

«قال بالحرف الواحد الجملة التالية:

«بدأت الأمور تضطرب»

«هذا فال سيء»

«اللحم نجناً واسترنا» ص 93.

في الانتقال من المنقول غير المباشر عن سعيد الجهيني إلى صيغة المعروف عرض كلام سعيد الجهيني بـ «الحرف»، نجدنا أمام تعيين موقف سعيد الجهيني من خلال «كلامه» والتطورات التي يؤول إليها. وعندما نعرف أن سعيد الجهيني شخصية مركزية تبين أهمية هذا الانتقال من صيغة إلى أخرى، وعدم الاكتفاء بصده بصيغة واحدة.

وفي نفس السياق يتابع الخطاب المعروض (التقرير) عرض الآراء والانطباعات والأقوال:

«الحق يا متعوس، وإلا علقوا لك فانوس» ص 94.

3.6. بعد هذا الخطاب المعروض يأتي خطاب معروض آخر (النداء) يخبر عن ملاقة السلطان رسلاً من الحبشة والبنادقة، كما يخبر عن القطيعة «المفاجئة» التي تمت بين الأميرين بشتاك وطفلق.

4.6. الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد الجهيني) يبرز لنا آثار النداءات في (سعيد الجهيني) الأزهر (الطالب منصور لا يهتم ما يجري / عمرو بن العدوي يرقب الحركات / سعيد الجهيني متألم لما يجري لأن الخطاب المسرود يقدم لنا صورة عامة على آثار الحدث الذي أتى بصيغة العرض على الشخصيات دون تمييز، ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي (سعيد الجهيني) يتساءل عن لماذا قيل الزيني أن يكون زكريا نائباً له وهو المعهود بمكره وشره، ومن خلال الخطاب المنقول والمعرض غير المباشر نخبر عن رأي طلبة الأزهر، لكن الخطاب المسرود الذاتي (سعيد) هو المهيمن.

5.6. في خطاب معروض يتكلف به الراوي يقدم لنا من خلاله خطابات معروضة يقوم هو بتأطيرها:

- خطبة الجمعة .
- فتوى قاضي قضاة مصر .
- قاضي الحنفية .
- قاضي القضاة .
- خايربك / توصون / طغلق / قنبك / طشتمر / كافة الأمراء .
- قاضي القضاة عبد البر .

إن خطبة الجمعة هي التي تتميز عن بقية الخطابات بسبب طولها من جهة ومن جهة ثانية بسبب ما تزخر به من تفاصيل وصيغ عديدة موظفة بهدف الإقناع (إقناع الناس برفض الفوائس). يبرز هذا في التنويعات الصيغية التي عرفتها (المنقول) والتي تبرز لنا من خلال (الأمر - النهي - الاستفهام - الاستشهاد). أما الخطابات الأخرى فجاءت عبارة عن جمل مقتضبة يسجل فيها الموقف؛ رفض الفوائس، باستثناء قاضي الحنفية «الذي يقول رأياً مخالفاً...» ص 100.

6.6. يعود الراوي من جديد، ومن خلال الخطاب المسرود، ينقلنا إلى رواق الصعايدة، ليقدم لنا من خلاله وتنويعاته (المنقول - المعروض غير المباشر) آراء طلبة

الأزهر، بصدد حدث الفوانيس، وبالأخص من منظور سعيد.

7.6. من صيغة الخطاب المعروض غير المباشر نتقل إلى الخطاب المعروض من خلال تأطير الراوي لخطابات الناس وأقوالهم:

«هتف الخلق في الجوامع والطرقا»:

لعن الله الفوانيس

لعن الله الفوانيس» ص 102.

8.6. من خلال الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد) يظهر لنا ذهاب الجهيني لمقابلة بركات. ومن خلال العرض غير المباشر بين الجهيني والنوبي (الحارس)، يعرف سعيد خروج الزيني، ويخبر عن الصراع الدائر بين طشتمر وخايربك، وما ألحق ذلك من أضرار. ذهب الزيني لتفقداهما. وهدف زيارة الجهيني هو إخبار الزيني عن برهان الدين محتكر الفول.

9.6. مرسوم سلطانين (خطاب معروض): يلغي أحدهما الفوانيس ويخبر الثاني عن عزل قاضي الحنفية. ويذيل المرسوم بأقوال الأمراء وهم يدعمون القرار السلطاني حول عزل القاضي، وكذلك بقول قاضي قضاة مصر الذي يؤكد القرار نفسه. ويتميز المرسوم معاً بالإختزال والإيجاز، ولهما وظيفتهما كخطاب معروض يأتي في إطار إشتغال الصيغ ليحمل سلطة الخطاب الأعلى.

10.6. يعود الخطاب المسرود من جديد بعد حسم القضية الحدث (الفوانيس) (الراوي ← سعيد) مفتتحاً بالمعروض غير المباشر الذي يتحدث فيه سعيد الجهيني إلى الشيخ أبي السعود، يخبره فيه عن برهان الدين محتكر الفول وزيارته الزيني مراراً، لكن هذا الأخير لم يفصل في قضيته، ولم يتخذ الموقف اللازم. وبعد ذلك، ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي، نتعرف على آلام الجهيني، وما يقاسيه بسبب الظلم السائد، وخوفه على نفسه من العيون التي تترصده، إننا هنا أيضاً نعاين نفس التعدد الصيغي، وإن كانت الهيمنة كما لاحظنا في هذه الوحدة للخطاب المعروض للأسباب التي حاولنا إبرازها في الوحدة السابقة وبالطابع نفسه في علاقته بباقي الصيغ.

VII - الإعداد

1.7. نفتح هذه الوحدة أيضاً على صيغة الخطاب المعروض مع النداء الذي يعلن عن بيان فضيحة علي بن أبي الجود وانكشاف ما كان مستوراً من ممتلكاته. وأن هناك (وثيقة) سيقروها الفقهاء في الجوامع مع يبينون فيها «كيف امتص الظالم / دماء المسلمين / فحق عليه عقاب مبين» ص 110.

2.7. مع صيغة الخطاب المعروض نلتقي مع الوثيقة / الخطبة التي قرئت في المساجد حول علي بن أبي الجود وممارساته. تُفَتِّحُ «الخطبة» بالبسملة وعبر ضمير «نحن» نخبر عن القرار السلطاني الذي قضى منذ عام باعتقاله وتسليمه إلى الزيني بركات. ومن خلال صيغة السرد يتم الإعلان عن أفعاله وممتلكاته التي كان يخفيها مع تعداد هذه الممتلكات بالتسمية والعدد. ويفسر سبب طول الاعتقال بكون علي بن أبي الجود لم يتعرض للتعذيب الذي يتخذ منه الجهاز الحاكم موقفاً:

«ومنذ البداية أضمرنا الصبر حتى النهاية، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان أن يحرق عضو في جسمه، أو ينعل كالفرس وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا علي بن أبي الجود، وكشف أمره. . . » 113.

ثم يعلن عن كون أمواله ستنقل إلى خزانة السلطان وأنه سيعرض غداً للإعلام ويدعو كافة الناس إلى المشاركة في إعدامه. وتنتهي الخطبة بدعوة الناس إلى الإبلاغ عن كل من يكتنز المال الذي امتصه من دماء المسلمين لأخذ الحق.

3.7. في نفس الوحدة نلتقي ثالثاً مع الخطاب المعروض من خلال التقرير الذي أعده مقدم بصاصي القاهرة مرفوعاً إلى زكريا بن راضي بصدد وقائع تعذيب علي بن أبي الجود (عكس ما رأينا في المقطع الذي رأيناه أعلاه والذي يعلن فيه عن عدم تعرض علي بن أبي الجود للتعذيب).

وكبقية التقارير التي سبق لنا أن صادفناها في تحليلنا نجد له خاصيات يتميز بها: الدقة في المتابعة، التفاصيل، الثقة في نقل الأخبار. ويمتاز إلى جانب ذلك بطابعه السري. وبما أنه موجه إلى زكريا بن راضي فإن لغته لا تخلو من طابع الدقة والإحالة إلى مراجع مشتركة تعود في جوهرها إلى توصيات زكريا وأوامره. إن صيغة الخطاب المعروض هنا تنطلق من التأكيد على الصعوبات التي لاقاها أشداء البصاصين (التابعين لزكريا وجهازه) للنفوذ إلى سجن الزيني بركات الذي لا يوجد في بيته لأنه ضيق لا يتسع لذلك. ومن خلال الوصف الدقيق يتم تعيين موقع السجن، عدد الزنازن (طولها/ عرضها) مواصفاتها. . . وصف السجن (شاب مليح / كثير الابتسام. . .)، وصف علي بن أبي الجود خلال فترة الاعتقال الأولى (93 يوماً) لم يتعرض فيها لضرب أو تعذيب. . .

وبعد الوصف تأتي صيغة الخطاب المعروض غير المباشر (الزيني / علي) نتعرف على استنطاق الزيني لعلي ورفض علي الإقرار. وبعد الخطاب المعروض غير المباشر يأتي الوصف من جديد والذي يتداخل فيه السرد لإبراز وقائع التعذيب العجيب والخطير من خلال تقسيمها حسب الأيام (سبعة أيام). وتنتهي وقائع تعذيب كل يوم بعرض أقوال الزديني:

- «أين أموال المسلمين؟»
- أموال المسلمين يا علي» ص 118 .
- «ألم يقر بعد؟» ص 119 .

وينتهي التقرير بـ «تعليق» يبين من خلاله كون علي لم يقر بشيء ويتساءل التقرير من أين عرف الزيني تلك الأموال الطائلة، ويتعجب التقرير من كون علي بن أبي الجود أصبح مُعاقاً تماماً من آثار لتعذيب إلا التغيير الوحيد الذي طرأ عليه هو أنه أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم .

إن الخطاب المعروض (من خلال التقرير) يمزج الوصف بالسرد بالعرض غير المباشر وهو قليل جداً، ولا يستعمل إلا في لحظات سردية خاصة يكون فيها لحضوره أبعاد ودلالات (عقب التعذيب مثلاً . . .) هذا بالإضافة إلى بعض الخصائص التي سبق أن أشرنا إليه .

4.7. ونلتقي مرة أخرى مع الخطاب المعروض (النداء) الذي يعرض من خلال: «النداء/ الأمر» أمر السلطان بإعدام علي بن الجود وطريقة هذا الإعدام (الضرب بالكف طول الطريق وهو يرقص وكلما كف عن الرقص كالنساء اضربوه . . .) وزمنه .

5.7. بعد صيغة الخطاب المعروض (النداء) يأتي خطاب معروض آخر (المذكرة) من خلال الرحالة الإيطالي الذي يزور القاهرة لأول مرة، ويصادف في هذه الأثناء وقائع إعدام علي بن أبي الجود، وكما رأينا في الوحدة الأولى فالخطاب المعروض من خلال المذكرة يتضمن مختلف صيغ الخطاب المسرود، لذلك فإننا سنجد السرد يهيمن فيه بشكل كبير .

يبتدىء الخطاب المعروض هنا بخروج الرحالة فيا سكونتي إلى الشارع ليبدأ الوصف (الزحام/ النساء/ الرجال/ الأطفال/ الحرس . . .) ويتخلله السرد البطيء الإيقاع: إنها الرؤية البانورامية كما يسميها برسي لوبوك. ويتداخل السرد والوصف في رصد وقائع الإعدام من خلال الخطاب المسرود الذاتي الذي تنعكس فيه صورة الراوي/ الشاهد (الرحالة) ومن خلالها يبدو لنا الحدث المرصود (الإعدام). إن الطريقة التي تمّ بها الإعدام لم يسبق أن عاينها الرحالة رغم طول تجواله. كما أننا نعاين من خلال هذا الخطاب كمية من الإخبارات المتصلة من منظوره كأجنبي يبيع بعض الوظائف (كالحسبة التي يقول لا مثيل لها في بلادهم) أو مثل تعجبه من إعلان المنادي من خلال الخطاب المنقول الذي يسرده علينا في خطابه والذي مفاده أن من يريد الاعتراض على ولاية الزيني للقاهرة «فعليه إبداء رأيه بعد صلاة الجمعة في أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) والحقيقة لم أصدق ما أخبرني به علي (مترجمه) . . .» .

ومن خلال الوصف أيضاً يبين لنا صورة علي بن أبي الجود والحالة التي يوجد عليها

وقت الإعدام، ومن خلال تداخله والسرد الذي يتخذ إيقاعاً سريعاً يتأكد لنا ومن جديد ما سبق أن سجلناه عن هذا التداخل بين السرد والوصف، والترابط بين دلالات الوصف في مجرى السرد ودلالة إيقاع السرد ودلالة المعبر عنه:

«... كحلت عيناه كالنساء، تناثرت بقع صفراء على وجنتيه، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الأبواب له زر طويل، يهتز كلما مال الرجل وانثنى... ابتعدت العربة، ذابت في الزحام الكثيف ابتلعت لعباي وجه الرجل، الشائه المذعور، جسمه، يسد الفراغ، والحق أنني فزعت...» ص 122.

6.7. إن هذه الوحدة تنضاف إلى الوحدات الأخرى في بناء الخطاب الروائي غير أن خصوصيتها تكمن كما سبق أن رأينا في كونها غير مؤطرة من قبل راوٍ تقليدي يؤشر للحدث ويعمل على تقديمه من رؤى متعددة أو ما شابه هذا من الإمكانيات، لكننا نعاين بجلاء كونها تشمل عدة خطابات معروضة:

1- النداء.

2- التقرير.

3- النداء.

4- المذكرة.

ومن خلال تتابع هذه الخطابات وتسلسلها وتأطيرها: نداء - تقرير - نداء مذكورة نلاحظ كيف أن ذلك قدم لنا صورة جديدة عن الحدث وعميقة. ومن خلال ذلك التأطير نلمس توازناً بين صيغ الخطاب المتعددة: عرض / سرد / وصف من خلال ما تشمله هذه الخطابات المعروضة من تبدلات صيغية متضمنة فيها

VIII - اللقاء

1.8. رأينا من خلال تطور مجرى الخطاب في علاقته بالقصة، كيف أنه منذ تم تعيين الزيني بركات محتسباً لم يرض عنه زكريا بن راضي، وكتب رسالة إلى الزيني يعرض عليه التعاون معه، كما لاحظنا أيضاً أن العامة تهتف باسم الزيني الذي سيسانده سعيد الجهيني والشيخ أبو السعود ومريدوه. ومنذ أن تم تعيين زكريا بن راضي نائباً للمحتسب رأينا وقع ذلك على سعيد الجهيني الذي بدأ يشك في حسن نية/ عدل الزيني سيما منذ عاين منه عدم الاهتمام ببرهان الدين محتكر الفول رغم كونه حريصاً على إبراز الحق أمام الملاء (!؟). . . لذلك فإن الوحدة الثامنة (اللقاء) سيتم خلالها التعاون والعمل المشترك بين الزيني بركات وزكريا بن راضي. وستستمر الوحدة إلى حين الإعلان عن الحرب مع العثمانيين. ويمكن اعتبارها الوحدة الأساس التي سوف تتلاحق فيها الأحداث وتتعمق لدينا من خلالها صورة

مصر التي ستصل إلى الهزيمة والخضوع للاحتلال.

2.8. تبتدىء هذه الوحدة بالخطاب المعروف (النداء) الذي يخبر فيه عن تسلم الزيني بركات الأمير كرتباي وإلى القاهرة القديم قصد إظهار ما نهبه من أموال.

3.8. الخطاب المسرود (الراوي ← زكريا بن راضي) ويتضمن الخطاب المسرود كما سبق أن رأينا ذلك مختلف الصيغ. فهو الذي يوطرها ويضمنها. يبدأ الراوي بالسرد عن زكريا بن راضي، ومن خلال الخطاب المعروف غير المباشر تضاء لنا شخصية زكريا باستمرار من خلال حديثه إلى زوجته الأخيرة «وسيلة» ومداعبته إياها. وضمن هذا الخطاب (غير المباشر) تأتي صيغة الخطاب المنقول من خلال السرد عن الماضي: بصاصو السلطان ناصر بن قلاوون/ تحريم الخمر... لأنها كانت السبب في إفشاء أحد البصاصين أسرار الدولة. وينضاف إلى هذا من خلال التداخل الوصف (جلسة زكريا بن راضي / وسيلة) ليأتي الخطاب المعروف غير المباشر لإيقاف هذه الصيغ بمجيء رسول الزيني بركات إلى زكريا يأمره بزيارة.

وبعد ذلك تأتي صيغة الخطاب المسرود الذاتي: ليتحدث زكريا إلى نفسه عن صلته بالزيني منذ توليه الحسبة، ونوعية هذه الصلات: تقارير يرفعها زكريا إلى الزيني يجب فيها عن أسئلة «تافهة» في منظور زكريا: أصناف الطعام التي يفضلها قاضي القضاة؟ كم مملوك له ستة أصابع؟⁽¹⁾...

«زكريا قابل هذا باستغراب، تدارك رأيه بسرعة، ليستعبد السخرية والاستهزاء، مثل الزيني لا يطلبها إلا لأموال جسام، عندما التقى به أول مرة في بركة الرطل، أدرك نيته، كل منا خلق ليخلق الآخر» 125.

واضح من خلال هذا الاستشهاد المقصود بالخطاب المسرود الذاتي، فالراوي يسرد لكن من المنظور الذاتي لزكريا بن راضي، وتكفي إعادة كتابة المقطع بضمير المتكلم العائد على زكريا ليظهر لنا ذلك. وبانتهاء هذا المقطع تبدأ صيغة الخطاب المسرود:

«نزل السلم بسرعة» ص 125.

ليستأنف الخطاب المسرود الذاتي من جديد: «عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته، سيتحدث إليه بهدوء، بل سيوحي إليه أنه خُمن نية الزيني في استدعائه...» ص 125.

وهكذا دواليك: تداخل المسرود والمسرود الذاتي، وفي ذلك تقديم للحدث، وإضاءة لصور الشخصيات الجوانية. ويأتي بعد ذلك الخطاب المعروف غير المباشر (بين الزيني بركات وزكريا بن راضي).

«دخل الزيني مباشرة في غرضه قال: بدون لف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط. أين أخفى علي بن الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى، باختصار كعناوين البطائق «لا أعرف»...»

قال الزيني بركات بن موسى «أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان» ص 126.

اللقاء من خلال هذا الخطاب المعروض غير المباشر يكشف لنا كون الصيغ التي جاءت قبله (المسرود/ المسرود الذاتي/ المعروض غير المباشر...) إنما تمهّد له. فلم يحدث أي لقاء قبل هذا في الرواية. لذلك فالعرض غير المباشر من خلال المشهد يبرز لنا الموقف الدرامي الهائل: التقاء شخصيتين محوريتين/ صراع معرفتين: تعرف أموال أبي الجود، أعرف قبر شعبان الشيء الذي يجعلنا نسأل كيف يعرف الزيني قبر شعبان؟ وزكريا من خلال كل ما تقدم يبدو لنا شخصية فريدة! وكيف لم يتمكن الزيني من معرفة أموال علي وهو الذي اعتقله زمناً طويلاً؟ ولماذا الإعلان عن اكتشاف أمواله؟

إن أية صيغة من الصيغ لا يمكنها أن تقوم مقام هذه الصيغة في تصعيد الحدث كما أن «المعرفة» من خلال الشخصيتين تبين لنا بجلاء صورة الشخصيتين. وبعد العرض غير المباشر نعود من جديد إلى الخطاب المسرود الذاتي الذي يجعل زكريا لا يفكر فيما إذا كان الزيني قد استخرج أموال علي بن أبي الجود أم لا، ولكن لا يفكر في كيف أمكن للزيني أن يعرف قبر شعبان؟ وصيغة الخطاب المسرود الذاتي تبين لنا بوضوح أن الزيني استخرج الأموال لكن ما يهمه هو أن يبرز لزكريا معرفته.

إن الخطاب المعروض غير المباشر وتعلق نتائجه بزكريا لذلك سيتلوه الخطاب المسرود الذاتي معه، لكن لا نتائج له في إنتاج خطاب جديد يتعلق بالزيني، وينتهي الخطاب المعروض بين الزيني وزكريا لتعاقدتهما على التعاون فيما بينهما، ويترك له أوراقاً فيها تصويره للعمل المشترك ليبيد فيها زكريا بآرائه.

بعد الخطاب المعروض غير المباشر يأتي الخطاب المسرود الذاتي حيث يجلس زكريا إلى نفسه يحدثها ويتابع حدث قتل شعبان متفكراً فيمن يمكن أن يكون قد بلغ الزيني بادئاً الشك بالأقرب إليه مبروك متقللاً إلى كل من يحيط به.

4.8. بعد الخطاب المسرود يأتي الخطاب المعروض (الرسالة التي تركها الزيني عند زكريا وقت اللقاء الأول) الذي يمضيه متولي حسبة الديار المصرية ووالي القاهرة الزيني بركات بن موسى.

يبدأ الخطاب المعروض بإدخال خطاب معروض من «النص القرآني» ومن خلال

الضمير المتكلم يقدم إليه تصوره لعمل البصاصة وما ينبغي أن يكون عليه هذا العمل طارحاً مقترحاته العملية من أجل التطور:

- توزيع الناس إلى طبقات لكل طبقة بصاصوها.
- حصر المواليد وتسجيلهم.
- استعمال بطاقات صغيرة للجلد يحملها كل مواطن فيها اسمه وعمله مع رقم هو نفسه الرقم الموجود في الملف المتعلق به.
- آمراً في النهاية تجنب الحكايات التي تشنع بالزيني والتي يتحمل فيها زكريا المسؤولية.

إن الخطاب المعروض هذا خال من السرد لأنه لا يريد الإخبار عن أحداث وقعت ولكن يخبر عن أشياء ينبغي أن تكون، لذلك فالصيغ التي تهيمن فيه هي: الإثبات / الأمر / النهي. وكلها صيغ نجدها في الخطابات غير السردية التي ترمي إلى الإخبار عن طريق التحليل بهيمنة صيغة معينة ترمي إلى الإقناع. لذلك فالإنطلاق من عمل مشترك (البصاصة) وإبراز طرق جديدة غير معهودة بالصيغ المشار إليها أعلاه: الإثبات / الأمر / النهي كفيل بتحقيق غاية الخطاب. وبالنسبة لقارئ هذا الخطاب المعروض يبين لنا المزيد عن صورة الشخصيات وبالأخص الزيني بركات هذا، والطرق التي استعملت لمراقبة الخلق وكيفية ذلك في مجرى الخطاب الروائي وآثارها.

5.8. الخطاب المسرود (الراوي - عمرو بن العدوي) يجلي لنا ممارسة عمرو بن العدوي كطالب أزهري مكلف بمراقبة سعيد الجهيني. ومن خلال صيغة الخطاب المعروض غير المباشر تبرز لنا أقوال بعض الشخصيات في المقهى التي يرصدها عمرو بن العدوي، ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي تتجلى لنا هموم عمرو بن العدوي (فقرة / طفولته الشقية / أمه) ومن خلاله أيضاً يبدو لنا خوفه وتردده من ممارسة عمله كبصاص، أو من خلال تذكره قول مقدم البصاصين حين قابله أول مرة:

«البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين، يسمع ويرى، يحفظ وينقل حتى في ساعات نومه» ص 139.

إن كل هذه الصيغ في تداخلها تبين لنا صورة عمرو بن العدوي الطالب الأزهري الذي لا يهتم وهو يقوم بواجبه في مراقبة سعيد الجهيني المكلف به إلا أن يكون نموذج البصاص الذي تحدث له عنه مقدم البصاصين. كما تبين لنا من خلال العرض غير المباشر آراء الناس في الفترة التي يسود فيها جهاز البصاصين ومختلف مظاهر القمع والظلم (أحاديث الشيوخ الثلاثة الذين يصغي إليهم عمرو بن العدوي ص 138/139)، هذا بالإضافة إلى

التنويرات التي يقدمها لنا عن المدينة وفضاء الخطاب الروائي بشكل عام .

6.8. بُعد الخطاب المسرود يأتي الخطاب المعروض (النداء) يعرض أسماء الأمراء الذين أمسكهم أو يعتزم إمساكهم الزيني بركات لأخذ أموالهم، كما يعرض الضريبة التي فرضت على بيوت الخطأ ومنع من هم دون العشرين من ارتيادها، ويخبر عن خروج الزيني إلى دمياط والد قهلية وأن عبد العظيم الصيرفي سينوب عنه .

7.8. ومن خلال صيغة الخطاب المعروض (عمرو بن العدوي) الذي يقدم إلى مقدم البصاين تقريراً يستعمل فيه صيغة السرد للإخبار عن أعمال سعيد الجهيني الذي خرج في يوم نزهة تصحبه امرأتان ولحق بهم شيخ اسمه ربحان البيروني يتردد الجهيني على بيته وأنه يحب ابنته «سماح» التي انفرد بها مرتين وتحادثا . في صيغة السرد في هذا الخطاب المعروض يعلق عمرو بن العدوي بين الفينة والأخرى على الحدث المسرود بمصوغات الإثبات واليقين والعلم .

- «لم يكن بمفرده، إنما تصحبه امرأتان . . .»

- «أعلم بتردد سعيد على بيته . . .»

- «وأنا أقطع الشك باليقين، والتردد بالثبات . . .»

- «وعرفت من أصحابي المجاورين . . .» ص 143 .

8.8. ثلاث خطابات معروضة من خلال النداء (خمس نداءات) . إن الخطاب المعروض هنا صيغ بصيغة الخطاب المنقول . فهو لا يعرض أقوالاً كما رأينا في نداءات سابقة، لكنه «ينقل» أقوال وأوامر عبد العظيم الصيرفي :

«يا أهالي مصر (أو القاهرة)

يعلن (أمر) عبد العظيم الصيرفي

أن (ب) . . .» ص 144/145/146 .

إن الخطاب المنقول هنا يبين لنا أعمال الصيرفي الذي ناب عن الزيني بركات والتي يمكن تلخيصها على الشكل التالي :

- أن الأسعار ستظل كما هي حتى يعود الزيني

- شق بائع البيض / قطع ألسنة ثلاثة شبان يشيعون البلبله /

تسليم ثلاثة مغاربة يتصلون بالعثمانيين / أن يبلغ كل من ضبط أو يعرف أحداً يتصل بالعثمانيين المسؤولين . . .

ويأتي الخطاب المعروض هنا في سياق الحديث عن الأحداث وإضاءتها منذ

تسلم الزيني بركات مهمته ككاتب للحسبة ووال القاهرة، وأن غياب الزيني عن القاهرة لا يعني أن هناك تغييراً ما في ممارسة السلطة: إن الزيني بركات ليس شيئاً بدون الجهاز ككل. والنداء كخاصية خطابية مرتبطة بالزيني الذي يعرض المنادون أقواله وأوامره مستمر كخطاب رغم غياب الزيني مع فارق بسيط هو أن الخطاب المعروض جاء بصيغة الخطاب المنقول..

9.8. الإشارة السابقة التي رأيناها قبل اللقاء المباشر بين الزيني وزكريا (3.8) توضح لنا نوع الصلة بينهما: أسئلة بسيطة يطرحها الزيني، ويجب عنها زكريا بن راضي من خلال التقرير المفصل:

بعد النداء (المعروض) يأتي خطاب معروض آخر (التقرير) يوجهه زكريا بن راضي إلى الزيني بركات جواباً على سؤاله: «من هو الشيخ ريحان البيروني؟».

إن الخطاب المعروض هنا يأتي بصيغة الخطاب المسرود ويتعلق بسيرة حياة الشيخ ريحان. وفي حديثنا عن التبدلات الصغية نسجل كون مختلف الخطابات التي رأيناها إلى الآن تتعلق بطريقة غير مباشرة بسيرة حياة إحدى الشخصيات: إذ أنها حسب اختلافها تبين لنا بدرجة متفاوتة صوراً عن حَيَوَاتِ الشخصيات وَطَبَائِعِهَا الذاتية إلى جانب عَلاَقَتِهَا بالأحداث. وبما أنه سبق لنا أن رأينا خطابات معروضة في هذه الوحدة ما اتفق عليه الزيني وزكريا وبالأخص من خلال الرسالة التي تركها الزيني لزكريا يبين له فيها خطة العمل، فإن الخطاب المعروض ذا الصيغة السردية يأتي لتأكيد:

- ارتباط العلاقة بين الزيني وزكريا.

- القدرة على المعرفة: فإذا كان مشروع الزيني يرمي إلى تأسيس «المعرفة» العميقة والجذرية لكل شيء. فإن مختلف التقارير السابقة التي رأيناها إلى الآن تدل على وجود معرفة وقدرة، لكن صيغة هذا الخطاب تبين لنا أن القدرة على المعرفة تتجاوز الحدود. ويبدو لنا ذلك بجلاء من خلال الخطاب الذي يسرد حياة الشيخ ريحان. فهو من خلال التفاصيل العديدة يعود إلى حياته الأولى أيام كان طالباً والوظائف التي شغلها مع الإشارة بين الفينة والأخرى إلى بعض السنوات للضبط، ورصد مظاهر من سلوكه وطباعه. ومن خلال الخطاب المعروض غير المباشر (الحديث مع سنية ابنة الخبيزة/ أو مع المعلم محمود بن سلامة نتبين جانباً من حياة الشيخ ريحان/ التظاهر وحب البروز. وفي نهاية التقرير يشار إلى سعيد الجهيني وعلاقته بسماع بنت الشيخ ريحان. ويؤكد الخطاب أخيراً أن البحث ما يزال مستمراً للوصول إلى أدق التفاصيل...

إن الخطاب المعروض هنا تهيمن فيه صيغة الخطاب المسرود التي تتضمن صيغة

الخطاب المعروض غير المباشر (مشهد ريحان في دار الخطأ مثلاً). وإلى جانب ذلك نجد الخطاب المنقول:

«... بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم في حدائق بولاق ثبت عشقه (سعيد) لها (سماح)» ص 154.

إن هذا الخطاب المنقول اتخذ صيغة المنقول لأننا سبق أن تعرفنا عليه من خلال الخطاب المعروض (عمرو بن العدوي) حَوْل سعيد الجهيني (ص 143).

10.8. ومن خلال الخطاب المعروض (النداء) يتم الإخبار عن طريق الخطاب المنقول عن قرب وصول الزيني بركات، ومن صيغة الأمر والتحذير يؤمر الناس بالخروج لمقابلته ومن تخلف يقع عليه العقاب الشديد.

11.8. في «كوم الجارح» المكان الذي يتواجد فيه الشيخ أبو السعود ومريدوه نخبر من خلال الخطاب المسرود الذاتي عن حالة سعيد الجهيني. يبدأ الخطاب المسرود الذاتي بصيغة تقترب من صيغة الخطاب الشعري بما فيها من خروج أو انزياح عن لغة التواصل. فالجملة مكثفة ومتعددة الإيحاءات والدلالات وغير محددة المجرى الشيء الذي يجعل صيغة الخطاب في أوله أقرب إلى الخطاب الصوفي الذي هيمن فيه التداعي غير أن هذا الخطاب في تدرجه إلى نقطة النهاية يتخذ صيغة الخطاب المسرود والذاتي منه بالأخص: سعيد الجهيني الذي يعذبه ما يعانيه من ظلم وما يعيشه من خوف.

- زكريا بن راضي تقبل يده ويؤم بالناس الصلاة.

- برهان الدين محتكر الفول الوحيد في مصر لا أحد يحاسبه.

- عيون زكريا تترصده وتسخر منه ذاكرة أمامه وهو في الطريق اسم «سماح».

- سماح يتم تزويجها، والزيني «يمددة حافلة العشاء الفرح...» ص 158.

إن صيغة الخطاب هنا تتخذ طابعين متداخلين في إطار صيغة الخطاب المسرود الذاتي. فهناك من جهة صيغة الخطاب الشعري في بعده الصوفي، وصيغة السرد التي تهيمن في نهاية الخطاب ومن خلالها نتعرف على شبكة من الأحداث تضيء لنا ممارسات زكريا بن راضي والزيني من منظور سعيد الجهيني الذي سيصبح محوراً رئيسياً في الخطاب الروائي بدل الزيني - نسبياً - الذي منذ لقائه بزكريا بن راضي تأخذ شخصيته في التبلور والوضوح عكسما كان في البداية: لا أصل له وحتى التقرير (المعرفة) لا يعرف عنه شيئاً.

12.8. ونلتقي من جديد مع الخطاب المسرود (الراوي ← زكريا بن راضي). ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي الذي يتداخل وصيغة الخطاب المعروض غير المباشر نتعرف أكثر على ما طرَحَ في بداية هذه الوحدة (لقاء الزيني / زكريا).

من خلال الخطاب المسرود يبرز الراوي تطوّر العلاقة بين الزيني وزكريا. إن زكريا يرسل رسائل إلى كبار بصاصي العديد من الدول باستثناء العثمانيين بهدف الاجتماع لتبادل الخبرات والتجارب. ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي يتبيّن أن صاحب الفكرة هو الزيني بركات:

«عندما سمع زكريا أفكار الزيني تساءل، من أين له هذه الخواطر؟»¹⁶¹. وفي إطار نفس الصيغة ومن خلال زكريا نتعرف على أحداث جديدة لم يسبق عرضها أو سردها في الخطاب: تعهّد الزيني بجمع 30 ألف دينار من دمياط والمنصورة مع أن دخلهما المعتاد هو 10 آلاف دينار سنوياً.

ومن صيغة «المعرفة» من منظور زكريا بن راضي الذي يريد «التعرف» على كيفية حصوله على هذا المبلغ (إرسال البصاصين وراءه). ومن خلال صيغة الخطاب المسرود ندرك نفسية زكريا العدوانية تجاه الزيني: تأليب الأمراء ضده إلى درجة ذهابهم عند السلطان الغوري للكيد له. ومن خلال العرض غير المباشر (الزيني / زكريا)، وقبل خروج الزيني إلى دمياط نتعرف على تساؤلات زكريا عن الكيفية التي يحصل بها الزيني على كل هذا المال. ورغم تحرّش زكريا بالزيني فهو يحترمه ويقدره. ومن خلال هذا المصوّر: «زكريا يقدر الناس حق قدرها مهما بلغ كرهه لبعضهم» ص 162 نتقل إلى صيغة الخطاب المسرود الذاتي من منظور زكريا بن راضي التي نخبر من خلالها عن قوّة كبير بصاصي العثمانيين الذي استطاع النفاذ إلى مصر ويستقطب العديد من الأمراء: (خايربك) وغيره من المقربين من السلطان الشيء الذي لم يستطعه زكريا.

ومن خلال هذا الخطاب نتعرف على قوّة العثمانيين، وعلى الفساد الذي يهيمن في مصر والخيانة التي تشيع فيها. إن كل وحدة تقدّم لنا معطيات جديدة، كما أن تبدلات الصيغ وتنوعها يتيح لنا إمكانية إدراك الأحداث والشخصيات بدرجة أكثر عمقاً سيّما عندما يكون هذا التبدل وذاك التنوع مؤسّساً على منطق يحكم التوازن بينها ويعطي لكل صيغة مكانها في تبين صيغ الخطاب وترباطها. وهذا ما نلمس بجلاء هنا. فبعد تسلسل وترباط العديد من الأحداث التي تصلنا عبر رواة متعددين وخطابات متعددة، تأتي صيغة الخطاب المسرود بمختلف التنويعات التي تتمّ ضمنه لتقديم كمية من الإخبار تُسهّم في تطور الأحداث القادمة، وإضاءة بعضها الذي سبق أن ألقى إلينا في إحدى الخطابات وصيغها (كالخروج مثلاً من القاهرة إلى دمياط جاءنا عن طريق صيغة الخطاب المعروف (النداء)، لكن إضاءته وتعليقه يأتيان في صيغة الخطاب المسرود الذاتي بهدف تقديمه إلينا من جهة، ومن جهة ثانية إبرازه من منظور زكريا بن راضي، الشيء الذي يجعلنا أمام خطابات متقاطعة ومتداخلة وكلها من سياق الحكّي تسهم في تقديم وإضاءة الأحداث والشخصيات في فعلها وتفاعلها.

من خلال نفس الخطاب المسرود الذاتي وبعد الحديث عن كبير بَصَاصي العثمانيين ، وخيانة العديد من الأمراء الذين لا يملك عنهم زكريا أدلة ثابتة يقتنع بها السلطان ، يعود زكريا من جديد إلى الزيني بركات الذي استطاع النفاذ إلى بيته ويُدسُّ عليه «وسيلة» التي يقتلها زكريا بن راضي بعد أن يعذبها ، ويندم على قتله إياها قبل أن يعرف منها بالضبط كيف ومتى دسّها عليه الزيني وبمن تتصل وهي في البيت :

«قال مقدم القاهرة ، جماعة الزيني هذه إمّا محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ إليها قط ، أو غير موجودة بالمرّة .» ص 165 .

إن التداخل هنا بين الصيغ واضح إلى الدرجة التي يصعب فيها أحياناً التمييز بين صيغة المسرود والمسرود الذاتي والمنقول . كما أن سرعة الانتقال بين الصيغ تطرح ذلك ، إنها جميعاً متضمنة في صيغة الخطاب المسرود الذي يؤطرها ويؤشر عليها ، لذلك سنجد هو الذي يميّز بين هذه الصيغ .

13.8 . وتأتي صيغة العرض غير المباشر (الزيني / زكريا) بعد ذلك لتأكيد ما سبق أن لاحظناه منذ اللقاء . ويأتي هذا الخطاب مباشرة بعد المسرود الذاتي : حديث زكريا عن وسيلة التي دسّها عليها الزيني . ومن خلال العرض غير المباشر يسأل الزيني عن سعيد الجهيني وحالته . فيخبره عمّا آل إليه منذ زواج سماح ، ويأمره بأن يطلقوا عليه العيون . . (ص 156) . وبعد ذلك يسأله عن منصور (طالب أزهرى) . . .

«... ضحك الزيني «عال.. عال.. وأخبار الصلاة؟» ابتسم زكريا «ييدي قبة للشفا..» تزايد ضحك الزيني ، اسمع يا زكريا.. لا بدّ أن تحتل مكانة في قلوبهم أكثر...» ص 166 .

يتضح لنا من خلال الخطاب غير المباشر بدء الفرز بين الشخصيات التي ساهمت كل الخطابات بمختلف صيغها في إضاءتها :

«الزيني وزكريا من جهة / وسعيد الجهيني من جهة أخرى»

وينتهي العرض غير المباشر بإخبار زكريا الزيني بتآمر الأمراء على قتله ، ويرسل من خلال صيغة الخطاب المسرود في استدعاء «أبو الخير المرافع» البصّاص القديم بهدف الكيد للزيني بركات .

14.8 من خلال الخطاب المعروض (النداء) يتمّ الإخبار عن الخطبة التي سيلقيها الزيني بركات في الجامع الأزهر .

15.8 . الخطبة التي يلقيها الزيني بركات ستلقى علينا من خلال الخطاب المنقول

الذي يتضمن الخطاب المسرود الذي يتكلف به الرحالة الايطالي (الراوي / الشاهد) الذي يزور القاهرة من جديد (920 هـ) . يبدأ الخطاب المسرود بالوصف وصف المدينة التي تغلي ، وموكب الزيني بركات إلى المسجد . وصف المسجد واكتظاظه بالناس . وبين الفينة والأخرى «يعرض» أقوال الناس أو «ينقل» تلك الأقوال حول الزيني بركات معلقاً عليها بين الحين والحين . ثم ينقل بعد ذلك خطبة الزيني . وفي الخطاب المنقول (ذو الطابع السردى طبعاً) ، يمزج الراوي / الشاهد بين السرد والوصف والتعليق . ومن خلاله نخبر عن الأعمال التي قام بها الزيني بركات في رحلته خارج القاهرة . لقد استخرج الأموال التي وعد بها السلطان وزيادة . كما يعلن عن تدخله لدى السلطان قَصْدَ تراجعه عن بعض الضرائب التي كان يريد فرضها ، وهنا يأتي العرض : «حماك الله . . حماك الله» . ويخبر عمّا ادعاه أبو الخير المرافع من أنه سيستخرج من الزيني بركات 60 ألف دينار ، فيسجنه السلطان وبوبخه . وينوّه أخيراً بنائبه زكريا بن راضي :

«أبقى الله زكريا . . لعن الله أبو الخير . .» ص 173

إن الخطاب المسرود يتضمن الخطاب المنقول الذي يتضمن الخطاب المعروض غير المباشر ، وبالأخص في بعض المقاطع التي لا ينقلها الراوي / الشاهد ولكن يعرضها :

«اعذروني إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتي .

أنتم إخوتي . . يا إخوتي . .

هل سرقت واحداً منكم؟؟

(تألفت الحناجر . . تسدّ الفراغ . .)

حاشا لله . .

هل أتيت فاحشة؟

لا . .

هل ظلمت واحداً منكم؟؟ . . .» 174 .

يتقدم أحدهم ، فيقول الزيني هذا سقاء ضربه رجالي لأنه خالف الأصول التي وضعها المحتسب للسقائين ومع ذلك سأرد لك حقك . . .» إن التداخل بين الصيغ هنا واضح ، وتبديل الصيغ مؤشر دلالي يعمّق دلالات الأحداث وصور الشخصيات» ويستمرّ الخطاب المسرود الذي يعرضه الراوي / الشاهد . ووسط السرد والعرض غير المباشر والمنقول والتعليق يصرخ أحدهم : «كذاب . .» . ويصف الراوي / الشاهد ردّ فعل الزيني الذي لم يشاهد مثله قط . ومن خلال الخطاب المسرود ينتهي هذا الخطاب ، بعد أن يبيّن لنا من خلال السرد صوراً عن أفعال زكريا والزيني وردود أفعال الناس ، وإعجابه هو بالزيني .

16.8. من خلال الخطاب المعروض (النداء) يتمّ الإخبار عن تبديل السلطان ثيابه بدخول الصيف ، وشنق أبي الخير المرافع ، وبداية الحرب مع العثمانيين . ويتلوه خطاب معروض آخر (النداء) يعيّن من خلاله الزيني في وظائف جديدة ، ومن خلال صيغة الأمر يخبر الناس عن ضرورة إبلاغهم زكريا بن راضي بكل كلام يتمّ في السلطان .

17.8. بعد هذه الخطابات المعروضة يأتي الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد الجهيني) الذي يتضمن كما سبق أن رأينا ذلك الخطاب المسرود الذاتي الذي من خلال منظور الجهيني يقدّم لنا خطاب الزيني المنقول في الخطاب المسرود (الرحالة) بهدف إبراز رؤية سعيد الجهيني لهذه الخطبة وموقفه منها :

«الزيني يتحدث من فوق المنبى ، ابن سيّد الناس يتاجر في الفول كما يهوى . الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا . . . » ص 183 .

إن هذا الخطاب يبيّن لنا صورة عن سعيد الجهيني ، وإذ يعرض علينا من خلال منظوره خطبة الزيني التي سبق أن نقلها الراوي / الشاهد ، فبهدف إضاعة شخصية سعيد من جهة ، وتعميق الفرز بين الشخصيات الذي بدأ يتضح لنا منذ بداية هذه الوحدة . إن التناقض بين الزيني وزكريا ثانوي . وبينهما معاً في علاقتهما بالجهيني تناقض رئيسي . إن الجهيني هو الذي قال : «كذاب» وقت الخطبة . وبالإضافة إلى هذا وعلى مستوى الأحداث تتضح لنا صورة واقع الفضاء الحكائي (الفساد المهيمن / الخيانة / القمع . . .) وغير ذلك من المظاهر التي بدت لنا في كل الوحدات .

ومن خلال الخطاب المعروض غير المباشر (منصور / الجهيني) تقدم لنا صورة متشائمة عند الجهيني بصدد ما يجري :

«زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا ، ما الذي بقي ليحرص عليه ، زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا، سدنتي البصاصون ، كاتم شيء عمرو بن العدوي . . . » ص 184 .

وتتعمق لدينا صورة الجهيني من خلال الخطاب المسرود الذاتي وهو يتذكر «سماح» التي سرقوها منه ، وأبؤها الذي يتظاهر الآن بمعرفته الشخصيات السامية في البلاط .

18.8. ونلتقي بعد ذلك من خلال الخطاب المسرود أيضاً ، (الراوي ← مقدم البصاصين) نتعرف من خلاله على اعتقال سعيد الجهيني بعد أن قرأ كثيراً عن صمته . ويتصف الخطاب هنا بلغة مكثفة يتضاعف فيها السرد ، ومن خلال صيغة الخطاب المسرود الذاتي نتعرف على مصير الجهيني .

19.8. وتختتم هذه الوحدة بصيغة الخطاب المسرود الذاتي (كوم الجارج / أبو

السعود/ سعيد) . يذكرنا هذا الخطاب بـ (10,8) حيث نجد صيغة الخطاب الشعري ذي الطابع الصوفي ، يبدأ بـ : «جذع دومة قديم عتيد يحاط بسياج من حديد ، مدينة وثنية ترجم ناسكاً ، بغداد الإسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور ، الحسين بن منصور الحلاج ، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال . . . » 186 .

ومن خلال التداعي والاستدعاء (شخصيات صوفية/ أمكنة/ تداخل الزمان . .) ، وامتزاج ذلك بالسرد الذي يؤطره يتمّ الإخبار عن حالة سعيد الجهنيني من منظور الشيخ أبي السعود .

إن هذه الوحدة أطول وحدة رأيناها ، وهي تشمل كافة الصيغ . وخطاباتها المتعددة بتداخل صيغها لعبت دوراً كبيراً في إضاءة الأحداث والشخصيات ، وتعميق صورها . كما أن نوع التداخل والتوازن بين الصيغ جعل الترابط يبدو وثيقاً إلى الدرجة التي يبني أحد على الآخر رغم التباين الظاهر بينها ، دون أن يؤثر ذلك مجرى الحكيم أو بناء الخطاب .

IX - الحرب / الهزيمة :

1.9 . سبق لنا أن رأينا من خلال إحدى الخطابات المعروضة (النداء) في الوحدة السابقة إشارة إلى أول دم يسيل بين العثمانيين وجيش مصر . كما سبق أن رأينا في أحد المقاطع السردية حديث طلبة الأزهر عن الحرب وسخرية ابن عثمان من الرسل . وتبدأ عملياً هذه الوحدة بالخطاب المعروض من خلال المذكرة (الرحالة الايطالي في زيارته الثالثة للقاهرة سنة 922 هـ) . إن الخطاب المعروض هنا «ينقل / يعرض» خطاباً تاريخياً . فهو يبتدئ الحديث وبالضمير المتكلم دائماً عن الأحداث التي تعيشها مصر مؤخراً ، وينقل ما قيل عن خروج السلطان في موكب مهيب إلى الحرب :

«وللأمانة فإنني أنقل (التشديد مني) عن صديقي الشيخ محمد أحمد إياس⁽¹⁾ (. . .) أتمنى لو أتيت لي فسحة وقت أعرف به أهل وطني ، وحضر ابن إياس - برغم كبير سنّه - خروج السلطان ودون ما رآه ، وسمح لي بنقل (التشديد مني) ما كتب ، يقول صاحبي ، ابن إياس . . . (. . .) » ص 187 .

إن الراوي / الشاهد «ينقل» خطاباً آخر . وبما أن صيغة المنقول كما حاولنا تحديد ذلك هي سرد المعروض من وجهة نظر الراوي ، فإننا هنا نستعمل «يعرض» لأنها أدل على إدخال الخطاب الجديد (المعروض) في خطاب الراوي / الشاهد الذي يظل هو الإطار ويصبح الثاني (المعروض) متضمناً فيه . إن الخطاب المعروض (ابن إياس) خطاب

مسرود ، وبالضمير الغائب يسرد لنا الراوي / المؤرخ الحدث : خروج السلطان / وصف الموكب / نقل أقوال الناس (سردها) ، ويعدّد العديد من الأعمال التي قام بها السلطان من تعيين وما شابه هذا . إن صيغتي السرد والنقل هما الموجودتان ، الشيء الذي يعطي لهذا الخطاب خصوصيته التي سنعاينها في نهاية التحليل من خلال المقارنة بين الخطاب الروائي والخطاب التاريخي .

2.9. بعد هذا الخطاب المعروض يأتي خطاب آخر معروض لا علاقة لي بالحدث الذي نرصده في هذه الوحدة (الحرب / الهزيمة) . ولكنه من ثمرات حدث سابق رأيناه من خلال خطاب معروض (الرسالة التي وجهها الزيني لذكربا) يوضح فيه الزيني ضرورة اجتماع كبار البصّاصين في العالم من أجل الاستفادة وتبادل المعرفة :

يمهّد لهذا الخطاب المعروض / الرسالة التي يتلوها زكريا بن راضي في أشغال البصّاصين بتقديم يوضّح فيه مناسبة الرسالة وظروفها ، والأهداف التي ترمي إليها ، ويذيل بتاريخ 922 هـ بالقاهرة .

ثم بعد ذلك تعرض علينا الرسالة مقدم لها أيضاً بمجموعة من الأقوال المعروضة من النصّ القرآني ، وأقوال من الأحاديث النبوية ولعمرو بن العاص . ينقسم الخطاب إلى نقط :

- مهمّة البصّاص .
- كيف يكون البصّاص محبوباً من الناس؟
- كيف نصل إلى معرفة الحقيقة الأولية؟ (التعذيب وأشكاله . . .) .
- كيفية تطويع الظروف؟؟
- رجاء (ملتمس) .

إن هذا الخطاب من حيث بناؤه يتميز بخصوصية الخطاب التحليلي ، فهو يطرح المشكل ويناقشه ، ويقدم بصدده مقترحات عملية ثم يحدّد النتيجة ، وهكذا دواليك . إلى أن ينتهي إلى «الرجاء» المتعلق بالآفاق التي ينبغي تحقيقها في مهنة البصاصة . كما أنه على مستوى الزمن ينطلق من الحاضر ويعود إلى الماضي مستشرفاً المستقبل . ثم إنه يستعمل صيغة الخطاب المنقول الذي يتحدّد هنا في «الشواهد» التي يدلّل بها على صحّة ما يقول من خلال مناقشته بعض الآراء ، والأقوال . . . وينتهي الخطاب بعد ذلك بتوقيع «كبير بصّاصي الديار المصرية» . زكريا بن راضي .

ويذيل الخطاب المعروض بأربعة ذبول فيها مطالب لا يشار إلى نصوصها ، ولكن فقط إلى عناوينها وهذا مثال لها :

ذيل أول: «مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه (التشديد في الخطاب) .

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة

922هـ / 1517 م (ص 203)

هذه صورة للمطالب الأربعة وهي تعطينا صورة عن الأشغال والمطالب التي تقدّم بها كبار البصاصين .

3.9. ومن خلال الخطاب المسرود (الراوي ← كوم الجارح) بمختلف الصيغ التي يتضمنها يضاء لنا بين الشيخ «أبو السعود» الذي يقصده المريدون من كل مكان . ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي تضاء لنا شخصية الشيخ وعالمه الزهدي وحبّه في الدين وعزوفه عن الدنيا المملوءة منكراً وفساداً ، ومن خلاله أيضاً نفهم أنه ليس بعيداً عما يجري في بر مصر : كل ما قام الزيني بركات من أفعال شنيعة ، ارتقاؤه المناصب بدون مبرر معقول . . ومن خلال صيغة العرض غير المباشر يخبر عن مجيء رجل إسمه الدمراوي الذي يسأله من أين أتى؟ فيخبره أنه من منفلوط . ويبدأ السرد الذي يتضمن الخطاب المعروف غير المباشر . ومن خلاله يضاء لنا ونخبر بالرحلة التي قام بها الزيني إلى منفلوط لجمع الأموال التي كلّف نفسه بها تجاه السلطان ، والأفعال التي قام بها لاستجلاب تلك الأموال الطائلة والتي جعلت ذكرها نفسه يتعجب من كيفية حصوله عليها : الترغيب والترهيب والتهديد . . .

ومن خلال صيغة الخطاب المسرود الذاتي يتبيّن لنا موقف الشيخ أبو السعود من الزيني بركات كما رأينا سابقاً مع سعيد الجهيني ، ويدعو أحد مريديه لِيَسْتَدْعِيَ الزيني بركات إلى كوم الجارح .

4.9. ويتابع الحدث (وصول الزيني بركات إلى كوم الجارح) من خلال التقرير (العاجل والهام) الذي يرفع إلى زكريا بن راضي . من خلال الخطاب المعروف الذي يتضمن صيغة الخطاب المسرود الذي يتضمن من الصيغ العرض غير المباشر ، نتعرف على ما جرى للزيني من قبل الشيخ أبي السعود الذي ضربه بالنعال ، وأمر رجاله بحبسه حتى تستخرج منه الأموال التي سلبها الناس، وبعث إلى الأمير طومامباي في أمره، والذي لم يتدخل وقال: «ليفعل أبو السعود ما يبدو له» . (ص 211).

ويتهي الخطاب بـ: «بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فجّ ، وخاصّة كوم

الجارج. وَنَمَّا إلى علمنا، أن دراويش الشيخ ومريديه، وكافة أرباب الطرق الصوفية، والفقراء في بَرِّ مصر سيعلمون الخبر ويهيجون الخلق». ص 212.

5.9. ومن خلال الخطاب المعروض أيضاً (التقرير ← نائب زكريا المختص بأحوال بن عثمان)، الذي يتخذ صيغة الخطاب المسرود (ضمير غائب ← الحدث) يتمّ الإخبار من خلال السرد عن مجريات الحرب وبواسطة التفاصيل يصف الحرب وانهزام وهرب الأمير خاير بك نائب حلب، فكسّر الميسرة بعد أن تكسرت الميمنة بقتل نائب الشام. وبذلك كانت الهزيمة: «ولمّا تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه في الحال فالج... وخرجت روحه، ومات من شدة قهره. وقيل فقعت مرارته». وينتهي إلى احتلال حلب والشام ويسأل الله أن يقيهم الشر. ص 214.

إن العديد من الإشارات التي وردت سابقاً في الوحدة السابقة حول خيانة «خاير بك» تبدو لنا هنا بجلاء... ونلاحظ من خلال ذلك كما سبق أن أشرنا إلى ذلك مراراً تكامل هذه الخطابات وترباطها.

6.9. لو سألنا قارئاً متمعناً، بعد هذه الخطابات التي رأيناها إلى الآن في هذه الوحدة والأحداث التي ترصدها.

- 1- المذكرة ← الخطاب المعروض ← الرحالة ← خروج السلطان إلى الحرب.
- 2 الرسالة ← الخطاب المعروض ← زكريا ← تدارس وضعية البصاصة.
- 3- الخطاب المسرود ← الراوي (أبو السعود) ← اعتقال الزيني.
- 4- التقرير ← الخطاب المعروض ← مقدّم البصّاصين ← اعتقال الزيني.
- 5- التقرير ← الخطاب المعروض ← نائب زكريا ← خيانة خاير بك.
- احتلال حلب.

- موت الغوري (السلطان)

ما هو الخطاب الذي سيأتي؟ لأكد لنا إنه الخطاب المسرود. فبعد وحدة «اللقاء» تسير الأحداث الآن إلى نهايتها، لذلك فالعديد من الأشياء التي قدّمت لنا في الوحدات الأولى تظهر لنا ثمارها بشكل جليّ. إن الخطاب المسرود (الراوي ← عمرو بن العدوي) يتخذ صيغة الخطاب المسرود الذاتي التي يتضح لنا من خلالها موقف وحالة عمرو بن العدوي عندما أرسلوا إليه يطلبونه (جهاز البصّاصين). ومن خلال العرض غير المباشر (عمرو/ مقدّم البصّاصين) يتمّ استنطاقه وتعريضه للإهانة لأنه لم يقم بعمله كبصّاص كما ينبغي أن يكون ويتمّ إبقاؤه عند مقدّم البصّاصين حتى ينظر في أمره.

7.9. ومن خلال الخطاب المسرود أيضاً (الراوي ← سعيد الجهيني) الذي تهيمن فيه صيغة الخطاب المسرود الذاتي تتعرف على حالة الجهيني منذ خروجه من المعتقل وآلامه الداخلية (تذكر سماح) ، موقفه من الحرب ومن الذين يهتفون للسلطان ليقتلوه بالقبول (تذكر الموقف من تعيين الزيني بركات) . ومن خلال منظوره نعاين بجلاء حالة الاستنفار للحرب (خروج 50 ألف من العربان/ الدعاء/ استنفار أبي السعود ومريديه الناس للإسهام في الحرب) ، لكنه وحده غير المتفعل بما يجري . هكذا يريدونه . . . :
«لوجهه بالدعاء ربّما تضايقوا» ص 222 .

ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي الذي يتخلله العرض غير المباشر ، تتم الصورة التي عليها مصر وهي في حالة الحرب وبالأخصّ بعد موت السلطان :
«كلما اقترب من إنسان يلقي الدمع هاطلاً من عينيه» 223 إلّا هو الذي يستدعيه بين الفينة والأخرى مقدم البصاصين للتحقيق معه .

1.8.9. بعد عمرو بن العدوى وسعيد الجهيني ، ومن خلال الخطاب المسرود ثالثاً (الراوي ← زكريا) يتمّ عرض موقف ورؤية زكريا بن راضي الأحداث ومن خلال الخطاب المسرود الذاتي نتعرف إلى زكريا بن راضي وتكتمل لنا صورته وموقفه من الأحداث . فهو وحده الذي يعرف ما يجري وما سيقع :

«يرثي لطومانباي ، يعرف أي وضع صعب يلاقه . عكارة تشاؤم تأوي إلى روح زكريا . هو الوحيد في مصر العالم بحقيقة ما سيحيي . لا يستريح إلى وقفة جان بردى الغزالي بجوار طومانباي . وعنده أدلة وشواهد . . . » ص 225 .

ونفهم هنا أيضاً موقفه من اعتقال الزيني بركات الذي ساءه ، ولكن في الوقت نفسه ما يزال يكن له العداء (تذكر وسيلة) وبصّاصي الزيني .

2.8.9. وخلال الخطاب المسرود الذاتي يأتي الخطاب المعروض (النداء) ، ومن صيغة الدعاء ، يدعو إلى الجهاد، الجهاد، الجهاد .

3.8.9. ويستمرّ بعد ذلك الخطاب المسرود الذاتي من خلال زكريا بن راضي الذي يتذكر الزيني بركات وحاجته الآن إليه وهو في الحالة ، وَتَمَاسُ شعوره بحاجته إليه ، برغبته في هلاكه (التفكير في كتابة رسالة إلى الشيخ أبي السعود يفضحه) . حيرة هائلة يعيشها زكريا بن راضي ، وعندها يعلم بأن الشيخ يريد قتل الزيني يكتب إلى طومانباي للتدخل من أجل إنقاذ «الأسرار» التي ستضيع بموته . ويرتاح زكريا عندما يعلم بعدم قتله :
-«يعلم زكريا تماماً أن الزيني بفضل الشنق على إنقاذ زكريا له» . ص 228 .

- «من يدري؟ ربّما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينفذه إلاّ الزيني» ص 228 .

- «نوابه يرسلون إليه التقارير باستمرار ، حتى من البلاد التي اجتاحتها ابن عثمان ، بعض نوابه راح شهيداً لم يتصوّر أنه سيرى الخراب هكذا بين الخلق . . . » ص 228 / 229 .

من خلال هذا الخطاب المسرود وصيغته المهيمنة «المسرود الذاتي» نتعرف بجلاء على شخصية زكريا بن راضي حيال تطوّر الأحداث ، والحالة النفسية التي يتخطب ، كما نلاحظ أيضاً أن الهزيمة مسّت كل شيء . إن كل القوّة والمعرفة التي لمسانها في مختلف الوحدات وبمختلف الصيغ تتحول الآن إلى ضعف وإلى جهل :

- «لم يتصور (التشديد مني) أنه سيرى الخراب . . .

- «المآذن حروف تجمدت في الهواء . . . » ص 228 / 229 .

9.9. ومن خلال الخطاب المعروض (خمسة نداءات) الذي يليه/ يعرضه منادو العثمانيين هذه المرة ، نتعرف على الهزيمة التي ألحقت بمصر والاحتلال الذي تخضع له . وبصينغ الأمر والترغيب والترهيب يتم الإخبار أن من خبأ مملوكاً يشنق ، ومن دلّ على مكان طومانباي له ألف دينار ، وكذلك سيجازى من دلّ على مكان الشيخ أبي السعود أو على الذين يثيرون الفتنة ، ويأمر أخيراً بعدم الخروج أو ارتداء اللثام والذي يضبط يشنق .

10.9. وأخيراً ومن خلال الخطاب المسرود (الراوي ← سعيد الجهيني) نتعرف على حالته وسبب استدعائه مقدم البصاصين . يتم ذلك من خلال صيغتي الخطاب المسرود الذاتي والخطاب المعروض (مقدّم البصاصين) اللذين يتناوبان حتى آخر هذا الخطاب . فمن خلال الخطاب المسرود الذاتي نتبيّن الآلام التي يعانيها الجهيني والهزيمة في عقر مصر . ومن خلال تذكاراته في السجن تقدّم صورة عن حالة المعتقلين وما يتعرضون له من عذاب ، ويتذكر اللحظات السابقة التي عاشها قبل الاعتقال ، ومولاه الشيخ أبو السعود الذي يستنفر الخلق في الأرياف والذي يتمنى لو يلقاه ليثبه لواعجه وآلامه .

ومن خلال الخطاب المعروض الذي يرسله مقدّم البصّاصين نتعرف على سخريته ومحاولته استجلاب الجهيني ليكون معهم بصّاصاً ، ويأمره إن شاء الالتحاق بأبي السعود شريطة أن يرفع تقارير عن أعماله وينتهي هذا المقطع بالعرض المباشر الذي يليه سعيد الجهيني :

«آه ، أعطوني ، وهذّموا حصوني . . . » ص 238

بهذا العرض المباشر البالغ الدلالة بتلخيصه وخلوّه من التفاصيل يتمّ الإعلان المطلق والنهائي عن الهزيمة ، ومن خلال سعيد الجهيني بالأخصّ .

X - الزيني محتسباً جديداً:

1.10. وكما فتحنا الخطاب الروائي على الخطاب المعروض (المذكرة ← الرحالة) ، ينتهي بالخطاب المعروض (المذكرة ← الرحالة) سنة 923 هـ . يبدأ الخطاب المعروض الذي تهيم فيه صيغة السرد بالوصف : وصف حالة المدينة وما تعيشه من اضطراب وفوضى ، وما يعيشه العثمانيون في المدينة من فساد بلا شفقة أو رحمة :

«في حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة ، مقلوعة النهرين ، تَلَفْتُ حولي . . . عاط طفل لم أدر ابن من هو؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة . رأيت بشراً انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية ، إدخال شيخ محمى في الضلوع ، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة ، لسان أحدهم مدلى . . . » ص 239 .

إنه من خلال الوصف يبين لنا صورة المدينة ، كما يبين لنا أن صورة الهزيمة رآها في وجه صديقه ابن إياس قبل دخول العثمانيين بيوم . ومن خلال صيغة الخطاب المنقول ، يبين لنا ما يقال عن الزيني بركات من أقوال متضاربة ، وعن الشيخ أبو السعود «القدیس» وما ينقل عنه من خوارق يتعجب لها الراوي / الشاهد . ومن خلال صيغة الخطاب المنقول أيضاً ينقل نداءات الأمان التي يعلن عنها العثمانيون ، وبعد خروجه يؤكد لنا رؤيته بيت الشيخ ريحان (أبو سماعة) المحروق .

3.10. وبخصوص الزيني بركات يبين لنا من خلال صيغة الخطاب المنقول ما يقوله الناس . فبعضهم يقول إنه يحارب إلى جانب الشيخ أبو السعود ، وآخرون يكذبون ويقولون إنه عند الأمير خاير بك . وأن الأمير طومانباي عزله من كافة وظائفه وهو غاضب منه .

3.10. ومن خلال العرض - أخيراً - يصف لنا، بعد أن سمع المنادي الذي يدق طبلاً، موكباً يضم «ثلاثة جياد سوداء يمتطي كلاً منها فارس يحمل في يده ميزاناً وصنجاً وعلماً رسم عليه شعار المحتسب : سيفاً مسلولاً ، وخلفهم جواد أبيض ركبه «الزيني بركات بن موسى» ووراءه ركب شخص بدين لم أعرفه . . . » ص 240 . وبعد أن يصف الطريق الخالي من الناس والدكاكين المغلقة يشير إلى بعض المارة الذين لم يتوقفوا :

«حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثاماً حول وجهه . . . » ص 241 . ثم بعد ذلك وبصيغة الخطاب المعروض غير المباشر :

«صاح المنادي : يأمر خاير بك بتعيين الزيني بركات بن موسى محتسباً للقاهرة ، وكل من له شكوى له أو مظلمة عليه بالتوجه إليه» ص 241 .

ومن خلال صيغة المنقول يتبين لنا كون بعض النداءات توضّح العملة العثمانية الجديدة ويختم الخطاب بـ :

«تابعت الركب الصغير المتجه ناحية باب الفتوح ، عند المنحنى اختفى ؛ وابتعد النداء الخافت في هواء شاحب» ص 241.

IV - خصوصية صيغة الخطاب

في «الزيني بركات»

I - عود على بدء :

1.1. رأينا من خلال تحليلنا صيغة الخطاب الروائي في «الزيني بركات» خصوصيتها وتميزها. وكنا قد أشرنا في مدخل هذه الدراسة ومن خلال الخطاطة العامة التي رسمناها (3.3)، إلى طبيعة هذا التميز الذي يكمن في انتظام الصيغ وفق نمط من العلاقات الترابطية والتكاملية في ما بينها بصدد تنظيم وضبط الإخبار في مجال عملية الحكيم. وسنحاول الآن القيام بتركيب عام من خلال استنادنا إلى المعطيات التي حاولنا مراكمتها واستنتاجها من خلال التحليل.

ونشير في هذا السياق إلى أن الخطوات التي تبعتها في هذا التحليل تتلخص فيما يلي :

أ - رصد الصيغة من خلال طبيعة الخطابات التي يستوعبها الخطاب الروائي. ومعاينة نوعية الصيغة المهيمنة التي انطلاقاً منها أعطينا صفة أو اسم الصيغة. كل ذلك رأيناه بناء على كون الخطاب الذي يتكلف «الراوي» بإرساله هو الخطاب المؤطر بأحد المعاني. ذلك لأننا كما سبق أن ألمحنا إلى ذلك، وكما سنلاحظه في هذه النقطة، ليس خطاب الراوي إلا نوعاً من هذه الخطابات. وحاولنا من خلال ذلك تقسيم هذه الخطابات بحسب هيمنة الصيغة إلى خطاب مسرود أو منقول أو معروض.

ب - بعد هذا التقسيم العام لصيغ الخطاب بحسب هيمنة الصيغة في كل من هذه الخطابات التي يستوعبها الخطاب الروائي، حاولنا تقسيم هذا الخطاب الروائي إلى وحدات وفي كل الوحدات عملنا على معاينة صيغة الخطاب كما تتجلى لنا من خلال نوعية الخطاب الموجود فيها أولاً وفي مستوى أولي، ثم انتقلنا إلى تتبع مختلف الصيغ التي تضمها صيغة الخطاب الذي نجده في تلك الوحدة. ومن خلال هيمنة صيغة ما من الصيغ في داخل الخطاب دققنا اسم الصيغة الموجودة فيه، في مستوى آخر.

2.1. بناء على هذا سنعمل الآن على إبراز تكرار هذه الخطابات التي يضمها الخطاب

الروائي، بهدف معاينة ذلك على مستوى الصيغة ليسهل علينا استنتاج صيغة الخطاب الروائي في الزيني بركات. وهذه الخطابات كما سبق أن سجلناها هي:

1	خطاب الراوي	21مرة
2	النداء	28 مرة
3	لمرسوم / الفتوى	31 مرة
4	التقرير	8مرات
5	المذكرة	5 مرات
6	الرسالة	4مرات
7	الخطبة	2 مرتان
	الخطاب	81 التكرار

إن الخطابات السبعة التي يضمها الخطاب الروائي في الزيني بركات، يبلغ مجموع تكرارها الكمي واحداً وثمانين مرة. وأساس هذا الإحصاء يعود إلى تبدلات الخطابات فيما بينها وتناوبها في خطية الحكيم، لذلك قلنا «التكرار الكمي»: فقد يأخذ خطاب الراوي حيزاً كبيراً مثلاً في وحدة ما من الوحدات ويأتي بعده التقرير مثلاً ليأخذ حيزاً أقل وهكذا دواليك.

1.2. وإذا نظرنا إلى خطاب الراوي كواحد من بقية الخطابات التي يمكن اعتبارها جميعاً معروضة بالمقارنة مع خطاب الراوي، انطلاقاً من التمييز بين الراوي والشخصيات، فإننا سنلاحظ انقسام هذه الخطابات جميعاً على مستوى الصيغة قسمين رئيسيين:

أ- خطاب الراوي + التقرير + المذكرة + الرسالة + الخطبة: والصيغة التي تهيمن في هذا القسم الرئيسي الأول هي صيغة الخطاب المسرود.

ب - النداء + المرسوم + الفتوى: وتهيمن فيها صيغة الخطاب المعروض.

إن الخطاب المسرود يبدو لنا من خلال خطاب الراوي في هيمنة صيغة السرد، وكذلك في بقية الخطابات الأخرى. وصيغة المسرود تستدعي راوياً ومروياً له كما نلاحظ:

الراوي	المروي له	الخطاب المسرود
1 - الراوي 2 - كاتب التقرير	المروي له (في الخطاب) المتوصل به (زكريا/ الزيني) + المروي له (الخطاب)	خطاب الراوي التقرير
3 - الرحالة الإيطالي	القارئ الأجنبي + المروي له	المذكرة
4 - المرسل	المرسل إليه + المروي له	الرسالة
5 - الخطيب	المخطوب عليه + المروي له	الخطبة

إن كل هذه الخطابات يظهر لنا فيها بجلاء وجود الراوي (مرسل الخطاب المسرود) ووجود مروي له Narrataire (يتقبل الخطاب المسرود). صحيح نجد اختلافات بين هذه الخطابات على مستوى كمية الإخبار ونوعيته في مجرى الخطاب، وكذا الرؤية السردية التي من خلالها يتم إرسال الخطاب، لكننا مع ذلك نجد صيغة الخطاب المسرود في هذه الخطابات هي المهيمنة. الملاحظة التي يمكن تسجيلها بخصوص هذه الخطابات تبدو لنا متعلقة بـ «الخطبة» إذ غالباً ما تأتي منقولة في الخطاب المسرود أو معروضة ضمن الخطاب، لكنها بدورها تتضمن عناصر سردية مهيمنة. ونفس الاعتبار يمكن تقدره بخصوص بقية الخطابات في علاقتها التقابلية بـ خطاب الراوي، فكلها معروضة إذا اعتبرناها متميزة عن الخطاب المسرود (الراوي):

أ	{	8 ————— التقرير
		5 ————— المذكرة
		4 ————— الرسالة
		2 ————— الخطبة

ب خطاب الراوي ————— 21 مرة.

يبين لنا هذا التقسيم التوازي الحاصل بين «خطاب الراوي» و«خطاب الشخصيات»، إذا اعتبرنا خطاب الراوي صيغته هي السرد (الخطاب المسرود)، وخطاب الشخصيات - نظرياً - هو الخطاب المعروض باعتبار كونه صيغة عرض في علاقته بالخطاب المسرود. لكن الشيء الذي جعلنا نرفض هذه التسمية: خطاب الراوي / خطاب الشخصيات هو الصيغة نفسها. فصيغة خطاب الراوي مسرودة، وكذلك صيغة خطاب الشخصيات (عمرو بن

العدوي / مقدم البصاصين / الرحالة / الزيني / زكريا / الخطيب (الإمام / الزيني).
مسرودة.

إن التمييز بين «نص الراوي» و«نص الشخصيات» كما سبق أن رأينا في التقديم النظري هو وليد الانطلاق من «البوطيقا الكلاسيكية» مع أفلاطون وأرسطو، كما أن تمييزها بين الصيغ جاء انطلاقاً من محاولتها تأسيس نظرية للأنواع الأدبية، لذلك كان التفريق بين الراوي / الشخصيات والسرد والعرض أساساً للتمييز بين الدراما والملحمة. وحمل التمييز بين الراوي والشخصيات هذه الحملات التي ليست خاطئة. لكن أن نذهب إلى اعتبار ذلك هو المنطلق الوحيد، فإن ذلك يمكنه أن يسقطنا في مغبة الاختزال.

إن خطاب الراوي لا يمكن أن يكون أبداً سردياً، ولم لا يكون معروضاً مثلاً في الحالة التي يكون فيها الراوي / الشخص واحدًا من الشخصيات!!... وتبعاً لذلك ماذا يمكننا اعتبار الراوي في الخطاب السرداتي وصيغة خطابه هل هي معروضة باعتبار الراوي شخصية رئيسية تلقي خطابها؟ وعلى أساس هذا يمكننا التمييز بين الخطاب السرداتي والروائي بالإضافة إلى عناصر أخرى، أم نعتبرها مسرودة؟؟ إن هذا التداخل وإمكانات التمييز ضمنه هو الذي جعلنا نستبعد هذا التمييز بين الصيغ انطلاقاً من الراوي والشخصيات، وحاولنا معاينة ذلك من خلال الخطاب سواء أرسله الراوي أو إحدى الشخصيات مع التركيز على الصيغة المهيمنة.

2.2. انطلاقاً من هذا التحديد اعتبرنا الخطاب المسرود يضم إلى جانب خطاب الراوي خطابات الشخصيات على أساس كون صيغة السرد هي التي توطر وتستوعب من خلال التبدلات بقية الصيغ، وعلى هذا الأساس رأينا أن الخطاب المسرود يستدعي راوياً ومروياً له مباشراً وآخر متضمناً هو المروي له في الخطاب إلى جانب عناصر أخرى سنلاحظها أسفله.

1.3. أما الخطاب الذي حددناه بـ «المعروض» فقد حصرناه في:

- النداء.

- المرسوم / الفتوى.

إن هذه الخطابات لها طابع إقراي / إخباري محض: وتستعين بالصيغ التي نجدها في الأحاديث اليومية ذات الطبيعة «التواصلية» بما توظفه من صيغ الأمر والاستفهام والطلب وما شابه هذا من الصيغ. لذلك فإن هذه الخطابات خلو من صيغة السرد وإن كانت تستعملها أحياناً (النداء الذي استعمل صيغة السرد المنقول الوحيد هو النداءات التي عرضت في غيبة الزيني بركات عندما تولى عبد العظيم الصيرفي نيابة الزيني) وكذلك بعض النداءات.

لذلك فإننا نلاحظ أن الخطاب المعروض تهيمن فيه صيغة العرض أو القول، وإن السرد يتوارى وراء العرض. ونفس الشيء نلاحظه بجلاء من خلال المرسوم السلطان والفتوى.

وحتى الخطاب المعروض يلقي على متقبل للخطاب:

- النداء.
- المرسوم.
- الفتوى.

وهذه من الخصائص البنيوية في الخطاب (باث ← متقبل)، لكننا هنا لا يمكننا أن نتحدث عن راو أو مروى له. فصيغة الخطاب هنا ليست سردية حتى يمكننا أن نتحدث عن الراوي والمروى له.

2.3. تبعاً لهذا التحليل نعين بجلاء أن الصيغتين الرئيسيتين في الخطاب الروائي الذي بين أيدينا هما:

أ - الخطاب المسرود ويضم:

- خطاب الراوي.
- التقرير.
- المذكرة.
- الرسالة.
- الخطبة.

ب - الخطاب المعروض ويضم:

- النداء.
- المرسوم.
- الفتوى.

إن الخطاب الروائي في الزيني بركات يضم الخطابين معاً أي: الصيغتان اللتان نجدهما في كل خطاب روائي. لكن خصوصية الخطاب الروائي هنا تكمن في كونه يستعمل الصيغتين معاً وبنفس المقدار تقريباً من حيث الكم:

صيغة الخطاب	التكرار
أ/ المسرود	40 مرة
ب/ المعروض	41 مرة

نلاحظ بجلاء من خلال هذا الشكل ما سبق لنا أن قلنا بصدد تعدد الخطابات وتعدد الصيغة في الخطاب الروائي في الزيني بركات. وهذا التحول يكمن بالأساس في توازن الصيغتين (السرد والعرض) على المستوى الكمي، وكذلك على المستوى الكيفي من خلال اشتغالهما في الخطاب كما سنلاحظ هذا في النقطة التالية.

II - أشكال اشتغال صيغ الخطاب:

1.2. أشرنا مراراً في معرض حديثنا إلى تداخل الصيغ وتقاطعها، ونحاول الآن رصد كيفية هذا التداخل وذلك التقاطع من خلال ضبط أشكال اشتغال هذه الصيغ في مجرى الحكيم في علاقة ذلك بالقصة بأحداثها وشخصياتها. . .

إن أشكال الاشتغال هذه ترتبط - كيفياً - بترابط أشكال الحكيم التي نرصدها هنا على مستوى الصيغة. وهذه الأشكال هي:

- أ - التابع.
- ب - التضمين.
- ج - التناوب.

هذه الأشكال الثلاثة تؤكد لنا ما قلناه عن تعدد الخطابات التي ليس خطاب الراوي إلا واحداً منها. لذلك نعين بجلاء أن هذه الخطابات بصيغها التي حاولنا رصدها، بتقسيمنا تلك الخطابات بحسب الصيغة التي تهيمن فيها تشتغل وفق:

2.2. أ - التابع: وذلك يظهر لنا من خلال تسلسل هذه الخطابات وتتابعها في مجرى الحكيم بشكل عام. فنحن نفتح الخطاب الروائي على المذكرة (كخطاب مسرود)، ويتبعه بعد ذلك خطاب الراوي (خطاب مسرود) ويليهما المرسوم (خطاب معروض) وبعد هذا الراوي (خطاب مسرود). . .

- خطاب مسرود ← خطاب مسرود ← خطاب معروض ← خطاب مسرود ←
نلاحظ من خلال هذا الشكل تتابع الصيغ وتسلسلها في مجرى الحكيم. وإذا لاحظنا على المستوى الكمي توازناً من حيث التراكم. فإننا نلاحظ توازناً أيضاً على المستوى الكيفي من

خلال ترابط هذه الصيغ من حيث التتابع أو تجاور هذه الصيغ بإحالة بعضها على بعض وعلى سبيل المثال:

الرسالة التي وجهها الزيني بركات لذكرياً بن راضي حول عمل البصاصة، وكيف ينبغي أن يكون (خطاب مسرود) يحيل عليها خطاب مسرود آخر الرسالة التي يقرأها ذكرياً بن راضي في اجتماع كبار بصاصي العالم (2.9. II).

والأمثلة كثيرة التي تدل على أن هذا التتابع يؤكد «استقلال» الخطاب ومرسله وترابطه مع بقية الخطابات الشيء الذي يؤكد ما ذهبنا إليه حول خطاب الراوي باعتباره خطاباً كبقية الخطابات.

3.2. ب - التضمين: إذا كان التتابع على مستوى صيغ الخطاب هو الذي يؤثر خطيته وتطور أحداثه، فإننا سنلاحظ التضمين شكلاً من أشكال اشتغال صيغ الخطاب في تداخلها وتقاطعها في علاقة ذلك بالحكي. والمثال الذي سقناه حول علاقة رسالة الزيني ورسالة ذكرياً، يبين لنا هذا التضمين: تضمين حدث ما في صيغة معينة في صيغة أخرى. ونجد هذا يتكرر مراراً في الخطاب بسبب غياب خطاب الراوي الذي يمكن أن يؤثر الأحداث. لذلك نلاحظ أن التتابع الصيغي في مجرى الخطاب يستتبعه تضمين الصيغ بعضها أحداث بعض دون يتم ذلك بشكل مباشر كما نلاحظ في الخطابات التي تهيمن فيها سلطة الراوي.

4.2. ج - التناوب: وكما رأينا مع التضمين، سنلاحظ أن بعض الأحداث تلقى إلينا بصيغة الخطاب المسرود، ثم تلقى إلينا وعن طريق التناوب بين الصيغ بصيغة أخرى. ولإعطاء مثال على ذلك، سنلاحظ أن وحدة «الفوانيس / ذكرياً نائباً» تلقى إلينا عن طريق: والنداء ← التقرير ← الراوي ← الخطبة ← الراوي ← المرسوم ← الراوي.

وبتعبير آخر حسب الصيغة:

- الخطاب المعروض ← المسرود ← المسرود ← المسرود ← المسرود ← المسرود ← المعروض ← المسرود.

نلاحظ من خلال هذا الشكل تناوب الصيغ حول الحدث الواحد. وكل هذه الأشكال التي نلاحظ من خلالها اشتغال هذه الصيغ من حيث تداخلها وتقاطعها. وبعودتنا إلى الخطاطة العامة التي رسمنا فيها تتابع هذه الصيغ مدخلين ضمنها صيغة الخطاب المنقول كخطاب يأتي بين المسرود والمعرض يتبين أن اشتغال الصيغ يأخذ مدى أفقياً وعمودياً يتم من خلاله تداخل الصيغ وتقاطعها في مجرى الخطاب. ومن خلال هذا الاشتغال في علاقة ذلك بالأحداث يبرز لنا المستوى الكيفي الذي ندلل من خلاله على تعدد الصيغ. وهذا التعدد يمكننا أن نلمسه أيضاً على صعيد التبدلات الصيغية في مستوى خاص.

III - التبدلات الصيغية :

1.3. رأينا في أشكال اشتغال الصيغ على المستوى العام ومن خلال علاقات الصيغ فيما بينها المستوى الكيفي للتوازن بين الصيغ مما يحقق تعدد الصيغ، وسنلاحظ الآن نفس المسألة وفي مستوى خاص. إنَّ التبدلات الصيغية جزء من اشتغال الصيغ. غير أن الاشتغال رأيناه على المستوى العام لضبط علاقات الصيغ الكبرى كما يمكن أن نسميها. وأن التبدلات الصيغية تتعلق بالصيغ الصغرى إذا صح هذا التعبير :

1 - صيغ كبرى :

- أ - صيغة الخطاب المسرود : وهي صيغة الخطاب الذي «يهيمن» فيه السرد.
- ب - صيغة الخطاب المعروض : وهي صيغة الخطاب الذي «يهيمن» في العرض.

2 - صيغ صغرى : وهي مجموع الصيغ التي تتضمنها صيغة كبرى :

أ - الخطاب المسرود ويمكن أن يتضمن :

- 1 - المسرود الذاتي .
- 2 - الخطاب المنقول المباشر وغير المباشر .
- 3 - الخطاب المعروض غير المباشر .
- 4 - الخطاب المسرود .

ب - الخطاب المعروض ويمكن أن يتضمن :

- 1 - الخطاب المنقول المباشر .
- 2 - الخطاب المعروض المباشر وغير المباشر .
- 3 - الخطاب المعروض الذاتي .

2.3. إنَّ الصيغ الصغرى نجدها متضمنة في الصيغة الكبرى وتسعفنا بدورها في تعيين المستوى الكيفي لتعدد الصيغ بسبب التبدلات الصيغية داخل صيغة معينة يتكشف لنا من خلالها اشتغال الصيغ فيما بينها، مُحَقِّقَةً ذلك التعدد الذي نضبط من خلاله نوعية صيغة الخطاب الروائي في كليته.

إن هذه التبدلات على مستوى خاص تشتغل بدورها وفق تلك الأشكال المشار إليها في النقطة السابقة ويمكن أن نسوق المثال التالي للتدليل على ذلك، في صيغة الخطاب المسرود الذي نجده في الوحدة الأولى التي (يرسلها) الراوي / الشاهد (الرحالة) يعرف هذه التبدلات :

الخطاب المسرود:

- 1 - الخطاب المسرود الذاتي ← (الرحالة).
- 2 - الخطاب المسرود المنقول:
 - * - المنقول (سرد الأقوال) ← الناس.
 - المنقول (تضمنين قصة الجارية والقطار).
 - المسرود الذاتي ← الرحالة.
 - المسرود ← القاهرة.
- 3 - الخطاب المعروض ← (تضمنين الخطاب الديني).
- 4 - الخطاب المعروض غير المباشر ← أقوال الناس.
- 5 - الخطاب المسرود ← (القاهرة).
- 6 - الخطاب الذاتي ← (الرحالة).

وقلنا بصدد التعليق على صيغة الخطاب المسرود هنا ما يلي: «إن الخطاب المسرود هنا كما نلاحظ هو الذي يوظف كل التبدلات الصيغية التي لا نجد أيًا منها يخرج عن الصيغة الأصل (الكبرى). كما أن تلك التبدلات أغنت الخطاب بتعدد الصيغ الذي يتيح إمكانية استغلال مختلف الصيغ الممكنة لتقديم الحكيم أو إضاءته والتعبير عنه (حكيمه) بشكل متلاءم ومتكامل»⁽¹⁾.

يتضح لنا من خلال هذا النموذج الدال كيف أن التبدلات الصيغية ضمن صيغة ما كيف أنها تشتغل وفق ما رأيناه في الصيغ الكبرى وحسب أشكال التابع (توالي الصيغ وتسلسلها ضمن الصيغة الكبرى) وتضمنين إحداها (بواسطة صيغة الخطاب المنقول تم سرد قصة الجارية والقطار المسرود، وتضمنين الخطاب المعروض (إدخال الخطاب الديني). كما نجد إلى جانب ذلك تناوب الصيغ ضمن الصيغة الأصل حول نفس الحدث (صورة القاهرة).

3.3. ويربطنا بين الصيغ الصغرى والكبرى في مستوى أعم (على اعتبار الأولى خاصة والثانية عامة) نعاين وبجلاء ومن خلال اشتغال الصيغ من حيث ترابطها وتقاطعها كيف يتحقق الجانب الكيفي المتوازن بين الصيغ في الخطاب الروائي: إذا أنها جميعاً وفق نظام متكامل من العلاقات تسهم في تقديم الخطاب الروائي. وعندما نعود إلى الجانب الكمي الذي رأينا من خلاله توازن تراكم التكرار بين الصيغتين الكبيرتين (السرد/ العرض) ونربطه

(1) - 1 = (1 - 7) من هذا البحث.

بالبجانب الكيفي الذي رأينا من خلاله تداخل الصيغ وتكاملها من حيث اشتغالها المترابط في مجرى الخطاب، يمكننا أن نطمئن الآن إلى خصوصية الخطاب الروائي في الزيني بركات وأن نؤكد أخيراً على تلك الخصوصية من خلال مفهوم التعدد الصيغي أو تعدد الصيغة (Poly modalité).

٧ - صيغة الخطاب بين

الخطاب التاريخي والخطاب الروائي

1.1. بعد أن حددنا خصوصية صيغة الخطاب الروائي في الزيني بركات ، سنحاول الآن - وبسرعة - معاينة صيغة الخطاب التاريخي من خلال «كتاب تاريخ مصر المشهور ببداية الزهور في وقائع الدهور» للمؤرخ محمد بن أحمد إياس وذلك لسببين منهجيين :

(1) إن الخطاب الروائي في الزيني بركات يتناول فترة من الفترات التي يؤرخ لها ابن إياس في كتابه . كما أن الخطاب الروائي هنا يوظف العديد من الصفات التي تتميز بها الكتابة التاريخية التي يستنسخها ويعيدها الشيء الذي جعل العديد من الباحثين يتحدثون عن كون الزيني بركات رواية «تاريخية» .

(2) إن بحثنا في صيغة الخطاب التاريخي سيساعدنا - عندما نعود في إطار تحليلنا لنص الرواية والتناص - في الكشف عن خصوصية الخطاب أو النص الروائي في الزيني بركات ، وضبط علاقته بغيره من النصوص وضمناها النص التاريخي .

2.1. انطلاقاً من هذا المنظور سنحاول اقتطاع مقطع صغير من الخطاب التاريخي لابن إياس من أجل معاينة الصيغة المهيمنة فيه كي نتاح إمكانية المقارنة بين صيغة الخطاب التاريخية والخطاب الروائي :

«ولما كان مستهل الشهر يوم الإثنين جلس السلطان في الميدان وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا إلى دورهم ثم في ذلك اليوم نزل الزيني بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباي والي القاهرة وأشهرها المندادة في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكسر الكلام وأن كل شيء على حكمه يعني في أمر المشاهدة والمجامعة التي قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزى ولا يغطي وجهه في الأسواق ومن فعل ذلك شق من غير معاودة وأن لا أحد من الناس يحتمي على المحتسب . وقد تقدم القول بأن الممالك أثاروا فتنة كبيرة حتى منهم السلطان (. . .) وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك . فلما أن طلع السلطان إلى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى في القاهرة بما تقدم ذكره

ولم يفعل شيئاً مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المنادة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانياً وكثر القال والقليل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بأبطال المشاهدة والمجاعة . فلما نودي بأن كل شيء على حكمه نزل الناس جمرة بسبب ذلك . وفي يوم الثلاثاء ثاني الشهر جلس السلطان في الحوش وعرض اغاوات الطباقي ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم الكلام قال : لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاماً لأنهم يرمون بيني وبينكم ولا تشمتوا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا (. . .) ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة ، وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل في ذلك ونادى بأن كل شيء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعران في عمائمهم وشق في القاهرة تنكد المماليك الجلبان لذلك وقالوا لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شيء وخلق جماعته بالزعران جكارة(*) فينا والله ما نرجع حتى نقتله . وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان سلم لنا أبا موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شيء في الأسواق (. . .) وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزيني بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوق أرباب البضائع وضربهم ضرباً مبرحاً وأشهرهم في القاهرة ، وأشهر المنادة في ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع وكل ذلك خوفاً من المماليك الجلبان⁽¹⁾ .

1.2. وبما أن هدفنا ليس هو تحليل الخطاب التاريخي ، فإننا سنكتفي بتسجيل بعض الملاحظات على هذا الخطاب التي تضيء لنا هذه المقارنة بين الصيغتين :

(1) إن الخطاب التاريخي هنا يوظفه الزمن كتاريخ . إن كل مقطع تاريخي يستهل بالتاريخ لليوم الذي تسجل أحداثه :

- ولما كان مستهل الشهر يوم الإثنين - . . .

- في ذلك اليوم

- وفي يوم الثلاثاء ثاني الشهر . . .

- وفي يوم الأحد سابعه توفي الشرفي يحيى ابن القاضي

- وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزيني بركات . . .

وكل هذه الأحداث التي يسجل فيها التواريخ حسب اليوم / الشهر يوظفها التاريخ

(*) جكارة : نكابة .

(1) بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن إياس ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة 1312 هـ الجزء الثالث ، ص (4 - 5) .

حسب السنة : «ثم دخلت سنة إثنين وعشرين وتسعمائة المباركة (922هـ) فكان مستهل المحرم يوم الإثنين ، وكان يومئذ . . . » ص 2 / الجزء III .

إن الأحداث هنا لا يحكمها منطق خاص كالذي نجده في الخطاب الروائي ، بل إن الزمن التاريخي هو الذي يحددها لذلك قد نجد بعض الأحداث «الثانوية» في يوم من الأيام (موت شخصية لا تتكرر في الخطاب التاريخي ولم يسبق أن ذكرت . . .) . وهذا ما يميز الخطاب التاريخي عن الروائي . فالذي يهم الأول هو الأحداث التي ينبغي «تسجيلها» أو «نقلها» . أما في الخطاب الروائي فإن الحدث يرتبط بغيره وفق منطق خاص .

(2) نلاحظ من خلال المقطع الذي أتينا به هيمنة ضمير الغائب . فالمؤرخ هو الذي يسجل الحدث وينقله ، ولا نجد أي تنوع على الضمائر كما يحدث في أي خطاب روائي حتى وإن كان الراوي فيه عارفاً بكل شيء (onnscient) وموجوداً في كل مكان (onniprésent) .

(3) كما نلاحظ أيضاً على مستوى الصيغة هيمنة خطاب المؤرخ وصيغته التي بما تتضمنه من حكي يتَوَازَى والنقل . إن الخطاب المسرود بخصوصيته التاريخية (التسجيلية) يتجاور والخطاب المنقول الذي ينقل الخطاب المعروض بواسطة السرد . وهذه الخاصية الصيغية تجعله يتميز عن الخطاب الروائي وبالأخص الخطاب الذي بين أيدينا . فإذا كنا لاحظنا من خلال تحليلنا إياه خصوصيته التي تكمن في تعددية صيغته كميّاً وكيفياً . فإننا نعاين هنا بجلاء كون الخطاب المسرود التسجيلي هو الذي يؤثر الخطاب المنقول ويستوعبه بدون تبدلات صيغية كما عملنا على تحليلها . كما نلاحظ أيضاً غياب الخطاب المعروض .

2.2. إن التشديدات التي أشرنا إليها في نقل المقطع توضح لنا بجلاء صيغة الخطاب التاريخي : فالخطاب المسرود (التسجيلي) هو المؤطر والمهيمن وهو الذي لم نشدد عليه . وضمنه يأتي الخطاب المنقول .

«واشبهوا المنادة في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وإن لا أحد من الناس يكثر الكلام . . . » .

إن الخطاب المنقول هنا يستعمل المُعَيَّنَات التالية : الإشارة إلى ضمير (المجهول) و«أن والفعل» والعطف بينما نجد الخطاب الروائي في الزيني بركات يستعمل الخطاب المعروض :

«يا أهالي مصر

نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر . . . »

«يأمر مولانا السلطان . . .

. . .

بدفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر
وسائر أنواع الخضار

. . .

ومن يضبط حارساً أو مملوكاً
من القرانصة أو الجلبان
يتقاضى ضريبة على حمولة خيار أو خضار
عندي أي باب من أبواب القاهرة
يشنق بلا معاودة

. . .

يأمر مولانا السلطان

. . .

ألا يمشي مملوكاً ملثماً بعد المغرب في الطرقات
وألا يدخل مملوك بسلحه الحارات
بعد العشاء» ص 86 - 87 . . .

وذلك أن الخطاب المعروض يتم التنويع الصيغي كما سبق أن رأينا ذلك لكن ضمن
صيغة الخطاب المعروض .

إن الخطاب المنقول يبدو لنا بجلاء في المقطع الذي أتينا به : «وكثر القيل والقال بين
الناس» . فلما نودي «ونادى بأن كل شيء على حكمه» . والخطاب المنقول
يأتي دائماً بصيغة السرد . بينما نجد هذه الصيغة تأخذ في الزيني بركات هذه الصيغ :

1 - الخطاب المعروض (النداء) .

2 - الخطاب المعروض غير المباشر : إذ تتحول «وكثر القيل والقال بين الناس» إلى
خطاب معروض مباشر أو غير مباشر إما ضمن التقرير أو الرسالة أو ما شابه هذا من الخطابات
المسرودة بحسب تلك التبدلات الصيغية التي أشرنا إليها والتي تسهم في تأكيد تعدد الصيغة
في الخطاب الروائي .

3.2. من بين الصيغ التي شددنا عليه في الخطاب المستشهد به نجد صيغة الخطاب
المعروض غير المباشر :

- «وبخهم بالكلام وقال : لا تسمعوا للمماليك القرانصة» .

- «وقالوا : لم يطلع باديانا من الاتفاق شيء» .

- قالوا للسلطان : سلم لنا ابن موسى» .

وصيغة الخطاب المعروض حينما نقارنها ببقية الصيغ من حيث الكم سنجدتها تحتل المرتبة الأخيرة . وهنا لا يمكننا أن نتحدث عن تبدلات صيغية إذ أنها جميعاً مستوعبة ضمن الخطاب المسرود/ المنقول ، هذا علاوة على كونها قليلة من حيث الكم ، ويظل يؤثرها المؤرخ ، عكسما رأينا في الخطاب الروائي الذي بين أيدينا .

إن المقارنة التي قمنا بها على هذا المستوى الصيغي بين الخطابين توضح لنا بجلاء تميز الخطاب الروائي عن الخطاب التاريخي سواء على مستوى الزمن أو الرؤية أو الصيغة ، كما يمكن اختزال ذلك من خلال هذا الشكل :

مكونات الخطاب	الزمن	الرؤية	الصيغة
الخطاب التاريخي	تسلسلي	أحادية (هيمنة الراوي / المؤرخ)	الحادية (هيمنة المسرود)
الخطاب الروائي	دائري	متعددة (تعدد الرؤيات)	متعددة (تعدد الصيغ)

4.2. نلاحظ بجلاء ومن خلال هذا الشكل تمايز الخطابين . هذا التمايز الذي يؤكد لنا ما قلناه عن خصوصية الخطاب الروائي في الزيني بركات سواء على مستوى الزمن أو الرؤية السردية أو الصيغة . وهذا التميز هو الذي يجعلنا لا نقبل بالقول عن الزيني بركات بأنها رواية تاريخية . فالقصة المتناولة في الخطاب يمكن أن تكون متخيلة أو حقيقية أو تاريخية ، وانطلاقاً من تحديد وتحليل مكونات الخطاب يمكن التمييز بين التاريخي والروائي والمسرحي والشعري . . . إذا ما تناولوا نفس القصة .

5.2. بقيت لنا إشارة أخيرة في هذا الصدد وتتعلق بترباط هذه المكونات الزمن والرؤية السردية والصيغة وتكاملها في إطار طبع الخطاب الروائي بطابع خاص . فالزمن الدائري يوضح لنا بجلاء على المستوى الدلالي ما سبق أن أشرنا إليه ، من دلالات في علاقتها بالأحداث ، وما تدل عليه من تطور البنية الدالة الجوهرية (القمع) زمنياً . وأن ما حدث في الماضي تطور لما وقع في الماضي البعيد كما أن ما يجري في الحاضر امتداد للماضي إلا أنه أكثر شراسة وحدة .

كما نلمس من خلال ترابط الرؤية والصيغة وتعددتهما عن كون التعدد هنا على المستوى الدلالي يأخذ طابعاً «أحادياً» إذا صح هذا التعبير . فإذا كان تعدد الرؤيات يبرز لنا بجلاء صورة الأحداث والشخصيات من منظورات متعددة يتجلى لنا من خلالها عالم الخطاب الروائي ، ونلاحظ من خلاله أيضاً انفعال وتفاعل الشخصيات فيما بينها والأحداث سلباً وإيجاباً ، وإذا كان تعدد الصيغ يجلى لنا توازن طرائق إرسال الخطاب بين السرد والعرض ومن خلاله يتم النفاذ إلى أعماق البنية الدالة في الخطاب من خلال تنوير صور الشخصيات الذاتية والنفسية وعلاقتها بالأحداث سلباً وإيجاباً ، إذا كان هذا التعدد (الرؤية/ الصيغة) بهذا الشكل فإنه يبين لنا بجلاء طابع التمايز بين عالم الحاكم والمحكوم (القامع والمقموع). وفي هذا العالم ينعدم الحوار ، وتسود سلطة القرار الفوقي . لذلك فإن صيغة الخطاب المعروض هي صيغة صوت الحاكم (القامع) فهو الذي يتكلم ، وهو الذي يقرر . بينما طرف ذلك العالم الثاني (الشعب فهو لا يتكلم) .

الخطاب المعروض (صوت السلطة) يبدو لنا من خلال :

1 - النداء .

2 - المرسوم

3 - الفتوى .

ومجموع هذه الصيغ يوازي مجموع صيغة الخطاب المسرود . والخطاب المسرود ذاته الذي يبدو لنا من خلال :

1 - الرسالة .

2 - التقرير .

3 - الخطبة .

4 - المذكرة

5 - خطاب الراوي .

يظهر لنا بجلاء كون الرسالة/ التقرير/ الخطبة هي أيضاً بدورها أصوات السلطة : فالرسالة تقرر ما يجب فعله وهي هنا تلتقي والخطاب المعروض (النداء/ المرسوم/ الفتوى) . والتقرير يخبر عما يجري (وسط الناس) من أجل رفعه للسلطة لاتخاذ التدابير ، كما تأتي الخطبة لاقناع الناس وإفهامهم .

وتبقى لصيغة المذكرة وخطاب الراوي خصوصية إضاءة عالم الخطاب لكن ليس بنفس الهدف الذي نلاحظه بالأخص مع التقرير (صوت السلطة) . إن التعددية الرؤيوية والصيغية في الخطاب تأكيد لهيمنة السلطة واشتدادها وتعدد قدراتها وإمكاناتها ، وضمن هذا

العالم الروائي ، يبدو الشعب صموتاً ومنفعلاً بالسلب مع الأحداث : (هكذا يريدون سعيد الجهيني) . وعندما نربط هذا التعدد مع دائرية الخطاب المفتوح : يبدأ مع الرحالة في 922 هـ ومن خلال الخطاب المسرود يبدو لنا «صمت» القاهرة وهلعها . ونختم الخطاب مع الرحالة في 923 ، ومن خلال صيغة الخطاب المسرود أيضاً يظهر لنا «صمت» القاهرة وهلعها مع الهزيمة والأمثال :

- ينتهي الخطاب المسرود في الوحدة الأولى بـ :

«ربما يقترب الفجر غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكاً واحداً يصيح» . ص 16 .

- ينتهي الخطاب المسرود في الوحدة العاشرة بـ :

«الطريق خال ، الخراب الخفي ساع في الفراغ . . . وابتعد النداء الخافت في هواء شاحب» 241 .

وعندما نربط هذا التعدد (الرؤية - الصيغة) مع دائرة الخطاب المنفتح تتأكد لدينا بوضوح خصوصية الخطاب الروائي في الزيني بركات وتمييزه في رصد الهزيمة والقمع كمعطيين متلازمين يسودان بنية المجتمع العربي .

VI - صيغ خطاب الرواية العربي

من أهم ما استخلصنا من خصائص حول الصيغة في الزيني نجد تعدد الصيغ كسِمَة طاغية ترجع من جهة إلى تعدد الخطابات ، وإلى توازيها كذلك من حيث الكم (التراكم) والكيف (تواتر الاشتغال) من جهة ثانية . نلاحظ السمة نفسها في الخطاب الروائي العربي الذي نحلل لكنها تقدم إلينا ليس من خلال تعدد الخطابات ، ولكن من خلال الخطاب الواحد الذي من داخله يبرز لنا تعدد الصيغ . وسنحاول هنا الوقوف عند كل خطاب على حدة كما عملنا سابقاً في فصل الزمن ، ومن خلال التركيب نحاول تشخيص أهم المميزات المسجلة على صعيد المتن بصفة عامة .

1 - أنت منذ اليوم :

برزت لنا في حديثنا عن الزمن ، رواية أنت منذ اليوم «رواية مشاهد» متداخلة زمنياً . نجد الطابع نفسه بارزاً على صعيد صيغ الخطاب أيضاً . إذ يأتي كل مشهد بصيغة مختلفة عن سابقتها وباختلاف المشهد عن لاحقه زمنياً نجده يختلف عنه سردياً . وهذا هو الذي يعطي للمشهد طابعه الخصوصي في تكامله واستقلاله عن غيره . ولما كانت الوحدة الأولى نموذجية ، فيمكننا تقديم صورة موجزة عنها ، إذ بواسطتها تبرز لنا صورة تناوب الصيغ ، ونوعية اشتغالها بوجه عام على مستوى الخطاب ككل حتى وإن كنا نجد طوابع أخرى عن صيغ خطاب (أنت منذ اليوم) لا تقدمها لنا هذه الوحدة . على أن نعود إلى إجمال بقية الصورة التي لا تقدمها لنا الوحدة الأولى .

تبدأ الوحدة الأولى بمشهد يأتي بصيغة الخطاب المسرود عن الأب وهو يتربص بالقطة ليقتلها ومن خلال الوصف تقدم صورة عن الأب والأم وهما محلقتان حول مائدة الإفطار ينتظران الأذان . ينقلنا المشهد ثانياً إلى جلسة عربي وصابر في «بار أبي معروف» من خلال صيغة المعروض غير المباشر الذي تحضر فيه أقوال الشخصيات إلى جانب تأطيرات الراوي . في المشهد الثالث نجدنا نستعيد الخطاب المسرود من جديد مع عربي الطفل وهو يخرج صباح اليوم التالي للذهاب إلى المدرسة ويرى رأس القطة مفصولاً عن جسدها . يبدأ

المشهد الرابع بالخطاب المسرود أيضاً ، لكنه المسرود الذي يأتي في صيغة المنقول غير المباشر إذ عبره ، يتم نقل كلام عربي إلى صابر ، لكن بطريقة غير مباشرة ما دام النقل يأتي من حيث «المدة بواسطة التلخيص» . (تحدث عربي عن مصرع القطة) . . . و«سرد قصة الخناجر الستة . . .» ص 10 ، وهذه الصيغة هي التي جعلتنا في حديثنا عن الزمن نتساءل عما كان الحديث عن الطفولة مُضمّناً في الحال أو موازياً له .

من صيغة المنقول غير المباشر نعود إلى العرض غير المباشر من خلال حديث صابر وعربي ، عن شعراء الحزب وعن الأمّهات . . . وعن الرسالة التي بعث بها أخو عربي المحارب وبكاء أمه ، وما يتذكره من كلمات الرسالة التي يقوم بنقلها .

في المشاهد اللاحقة نجد هذا التناوب بين المسرود والمعرض غير المباشر وما يتضمنانه معاً من صيغ فرعية مثل :

- المنقول غير المباشر : كلام الأخ عندما عاد من الحرب .

- حكي الأب قصة زواجه من أم عربي .

- المنقول المباشر : ما قرأه عربي في كتاب الدين وفي كتب التاريخ ، وأسميناه المباشر لأنه يقوم فيه بنقل الكلام كما هو من الكتاب المعين .

من خلال تناوب المشاهد نجدنا نتقل من المسرود إلى المعرض غير المباشر كصيغة مقابلة إلى ما يتضمّنه معاً من صيغ منقولة مباشرة أو غير مباشرة ويظل الخطاب المسرود إما هو المؤطر . لأنه يلعب دور تقديم الفضاء والشخصيات في زمان أو فضاء محددين ، ثم يكون بعد ذلك الانتقال إلى صيغة الخطاب المعرض أو المعرض غير المباشر ، حيث تعرض أقوال شخصيات أو الراوي ، ثم إلى صيغة المسرود أو المعرض الذاتيين .

بعد رصد مختلف الصيغ التي يقدمها لنا الخطاب أمكننا الوصول إلى المعطيات التالية :

1 - المسرود (22 مرة)	المعرض (24 مرة)	المنقول (10 مرات)
- مسرود : 51	- عرض غير مباشر : 11 مرة	- منقول مباشر 7 مرات
- مسرود ذاتي : 7	- عرض مباشر 10 مرات	- منقول غير مباشر 3 مرات
	- معرض ذاتي 3 مرات	

إن مرد تكافؤ الصيغتين الكبيرين : السرد والعرض كما نلاحظ يثوب بالدرجة الأولى إلى عامل جوهري في الخطاب أمكننا الوقوف عنده بسبب كثرة تواتره على طول الخطاب وهو تعالق الفعل (الحدث) برد الفعل (القول) . فالحديث (السرد) يأتي دائماً خارج إرادة

الشخصيات ومتعالياً عليها كما رأينا في الزيني بركات (النداء) ويأتي القول (العرض) أي ما يقوله عربي وزملاؤه رد فعل على الحدث سواء كان الحدث هو الانقلاب أو الحرب

وعندما يكون الحديث بسيطاً يتعلق بحياة عربي اليومية الروتينية نجدنا أمام الصورة نفسها . يكون البدء بصيغة الخطاب المسرود عن أفعال عربي ، ثم يتم الانتقال معه إلى الخارج وهو في الشارع يقصد زميلاً أو في الجامعة أو المبنى أو البار . في هذه الفضاءات التي يتجاوز فيها عربي عتبة تهيمن فيها صيغ الخطاب المعروض بمختلف تجلياتها الصغرى: ينقل لافتات الانتخابات المتعلقة يتحدث عن الجنس في جلسات الخمر والانقلاب والسياسة والحزب، وهو في دائرة المباحث يستجوب عن الطالب الشعبي . . . وحتى حينما يكون وحيداً فهناك صوت المذيع الذي يعرض أخباراً عن الانقلاب أو الحرب ، وفي الانتقال من صيغة كبرى إلى أخرى ، وما يتفرع عنهما نجد صيغة أخرى متميزة تتعلق بالمسرود الذاتي أو المعروض الذاتي اللتين نجدهما كلما خلا عربي إلى نفسه أو استيقظ من كابوس مرعب .

2- الزمن الموحش :

إن صورة الصيغة التي تقدمها لنا أنت منذ اليوم ، هي الصورة نفسها التي نجدها في «الزمن الموحش» ، مع فارق بسيط هو أنها في الزمن الموحش موسعة جداً ومكبرة ، فعالم القصة شبه موحد : الحياة اليومية لموظف بسيط ومثقف ، يعيش حياة روتينية ومملة : خمر وجنس ونقاش . تبتديء مختلف الوحدات والمقاطع السردية بتأملات عن الزمن والفضاء (دمشق) وغالباً ما تأتي بصيغة الخطاب المعروض الذاتي كما حددناه في التقديم النظري ، أي أنه يجري زمنياً في الحال ، وضمّنهُ لانجدنا أمام حدث يسرد ذاتياً ، ولكن أمام أفكار تقريرية يصدر بها الحدث أو القول .

ونحن نقرأ الزمن الموحش ، أو نتقدم في قراءتها يراودنا ، بين الفنية والأخرى ، إحساس أننا أمام رواية أفكار وأقوال . تتوارى الأحداث المسرودة وتكرر : الانتقال من بار إلى بيت أمينة ومنه إلى الشارع ثم إلى جلسة في بار مع راني أو مجموعة أصدقاء ، ثم إلى بيت مسرور فضاء محدود كما سبقت الإشارة . وجلسات متواترة نبدأ بصيغة الخطاب المعروض الذاتي ومنه ننتقل إلى المسرود فالمعروض غير المباشر والمسرود الذاتي حيث يتم التذكر واسترجاع الماضي ثم المعروض غير المباشر وهكذا دواليك . . .

إن التقطيع السردى الذي نلمسه في الزمن يتأكد لنا هنا أيضاً على صعيد الصيغ ، فداخل أي مقطع سرد تمارس مختلف أنواع الصيغ ، البسيطة فيها والمركبة ، وهي تستغل بنوع من الانسياب والتوالد ، إلى الدرجة التي تصبح فيها أمام شبكة معقدة من التداخلات

والتضمينات بينها جميعاً ، يصعب معها ، إلا عندما نبغي التدقيق الوقوف على ما هو مؤطر منها وما هو مضمن ، ويمكننا في هذا الاطار إعطاء مثال على هذه الصورة من خلال المقطع الذي يمتد من ص 15 إلى ص 21 :

«دمشق لا أروع ولا أحزن . . . ويظل على جراحها» .

هذا المقطع نجده امتداداً لما سبق أن افتتحت به الرواية . وفيه يتم تسجيل بداية تعرف شبلي على مسرور وزوجته وعلى منى ، وهما في الباص .

نبتديء بصيغة المعارض الذاتي التي تقدم لنا فكرة عن دمشق كما يراها الراوي : «لا أروع ولا أحزن» ، وهي مثل بينيلوب تتوقع شيئاً . بهذه الصيغة يتم تأطير المقطع الثاني الذي يحمل رقم «2» ، تنتقل من هذه الصيغة إلى المسرود الذاتي الذي تتجلى لنا من خلاله حادثة عهد الراوي بدمشق حيث هو الغريب الوحيد الذي يعبر الشوارع . وضمن هذا المسرود الذاتي نتبين «حالة» الراوي الذاتية في هذا الفضاء الذي يأتي إليه . . .

يتم إيقاف المسرود الذاتي بالضغط على زر جرس بيت مسرور ، ومن خلال صيغة الخطاب المعارض غير المباشر نتعرف على مسرور وديانا وشبلي عبر الحوار الذي يجري بينهم حول الأدب والثورة والمجتمع والمرأة . وتنتهي هذه الصيغة بأخذ الراوي الكلام معلقاً على الشخصيتين (مسرور وديانا) ومع صيغة الخطاب المسرود يبين الراوي حادثة زواج مسرود من ديانا ، وحادثة قدومهما إلى دمشق مثله ، منذ أن «تحولت دمشق إلى محطة للمهاجرين من حيفا وانطاكية» ص 18 .

نلاحظ من خلال هذا المقطع أننا نتنقل من الشارع إلى البيت على مستوى الحدث ، لكننا على مستوى طريقة تقديمه نجدنا نتنقل من :

1 - المعارض الذاتي ، إلى

2 - المسرود الذاتي ، إلى

3 - المعارض غير المباشر ، إلى

4 - المسرود .

وعلى مستوى كميات الإخبار (نحن هنا أمام أربع صفحات) لا نجد أكثر من تسجيل الخبر الأساس وهو حادثة الزواج والقدوم إلى دمشق . لكن «كمية» الأفكار المتصلة بالذوات الثلاثة (الراوي ، مسرور ، ديانا) نجدها كثيرة جداً حيث نتعرف على وجهات نظرهم حول الأدب والثورة والمجتمع والمرأة ودمشق .

في المقطع الثالث الذي يليه هذا المقطع نتنقل إلى مشهد آخر ، ومن خلال المسرود

الذاتي يتم تحديد الزمن (الصيف) وآثاره على البدن في دمشق وحياء الراوي الروتينية ، وجسد المرأة الذي يخفف عنه وطأة هذا الجحيم ، بعد هذه الصيغة تنتقل إلى المعروض غير المباشر مع الراوي ومُنَى وهما في الباص يتحدثان عن الحب والشرف والجنس في الشرق. . . يتم إيقاف هذه الصيغة وتضمن شبكة من الصيغ التي يكون الانتقال إليها بواسطة المسرود عندما يجتاز الباص مكاناً للراوي فيه ذكريات (ص 19) وضمن هذا المسرود نجدنا تنتقل من المسرود الذاتي (الماضي المتذكر) ثم المسرود (الغرفة التي يجلس فيها إلى منى) ثم المسرود الذاتي من جديد الحدث عن الزمن) ، وبعده الخطاب المعروض غير المباشر وهو يتحدث إلى منى عن الجنس عندما زار دمشق في بداية عهده بها ، ومن المعروض غير المباشر تنتقل إلى المعروض والمعرض غير المباشر من خلال حديث شبلي إلى منى وكل واحد منهما يحاول اقتحام الآخر .

بانتهاه هذا «التضمين» الصيغي نعود إلى المسرود الذي يخبرنا عن نزولهما من الباص (ص 21) ومن خلال حديث الراوي ومنى عن الفتاتين الأجنبيتين والحب في بلاد الغرب ينتهي هذا المقطع . . .

نلاحظ بجلاء كيف أن الانتقال من صيغة إلى أخرى يتم عن طريق التناوب والتضمين ، وتظل صيغ الخطاب المسرود أو المعروض الذاتيين هي المؤطرة ومنها يتم الانتقال إلى العرض المباشر لاضاءة جوانب من أفكار الشخصيات وضمنها الراوي ، ويكون الخطاب المسرود مقتصرأ على الربط بين الصيغ أو التأطير ويأتي تناوب الصيغ أو تضمينها بعضها لتقديم كمية معينة من الاخبار والأفكار المتداخلة زمنياً ، والمتباعدة أحياناً أخرى حتى على صعيد الحدث .

إن التقطيع السردى وكثرة المشاهد ساهما بشكل كبير جداً في جعل الحديث عن الصيغ لا يتم بالصورة التي رأيناها مثلاً في الزيني بركات حيث إمكانية التمييز بين الصيغ الكبرى والصيغ الفرعية ، وأشكال استغلالهما واضحاً ولملموساً . في الزمن الموحش نجد التبدلات الصيغية تتم بشكل غير منظم ، وغير ثابت ، وعند ما تكون المقاطع الصيغية متوازية أيضاً حتى من حيث الكم ، وقصيرة دائماً نسبياً ، تتضح أمام الصورة التي مهدنا بها حيث يبرز التداخل كبيراً بين السرد ، دون أن يهيمن أحدهما على الآخر ، ولولا هيمنة صيغ الخطاب المسرود الذاتي لأمكننا تسجيل كون صيغ الخطاب المعروض أكثر من صيغ الخطاب المسرود في الزمن الموحش ، ولأمكننا أيضاً الذهاب إلى أن الرواية رواية أقوال بامتياز . لكن الذي يعدل من هذا الحكم توازن الصيغتين الكبيرين على مستوى عام من خلال كون الخطاب المسرود الذاتي والمعرض الذاتي يتناوبان في تأطير صيغ الخطاب المعروض غير المباشر . وعندما نتبين أن بعض الخطابات المعروضة بشكل غير مباشر

تتضمن سرداً ، وإن بشكل قليل بالمقارنة مع ما تتضمن هذه الصيغ من أفكار ونقاشات في جلسات الشراب أو الجنس (مع أمينة . . .) يبرز لنا بجلاء كون التوازن بين الصيغ يسهم بدوره في تعدد الصيغ التي تقدم لنا من خلالها أحداث القصة ، دون هيمنة بعضها على الآخر .

3- عودة الطائر إلى البحر :

إذا كانت «أنت منذ اليوم» و«الزمن الموحش» تقدمان عن طريق المشاهد الشذرية والمتداخلة زمنياً وصيغياً ، فإن عودة الطائر والوقائع تقدمان إلينا بشكل مختلف تماماً ، وإن كان الخاصة الجوهريّة كامنة فيهما أيضاً . إن تقديم المادة الحكائيّة بشكل يمكننا من ضبط التسلسل بشكل أسهل من الزمن الموحش يشي بوجود تعالقات كبيرة بين المقاطع السردية . وهذا التعالق يكشف بجلاء عن تميز المقاطع عن بعضها من حيث الصيغ إذ يسهل علينا - رغم التداخل - ضبط الصيغ الكبرى والصغرى دون بذل الجهد الذي نبذله في الزمن الموحش .

هكذا نلاحظ أن صيغة الخطاب المسرود تظل أبداً هي المؤطرة إذ بها يبتدئ المقطع السردى ، وغالباً ما ينتهي بها وضمن الصيغة الكبرى (السرد) تتبادل الصيغ الفرعية وتتناوب ويتضمن بعضها البعض وتوزع بشكل متوازن أيضاً ، ولكن في إطار الصيغة الأصل : الخطاب المسرود .

للتمثيل على هذه الصورة العامة جداً نقدم نموذجاً لذلك من اليوم الأول الذي يبتدئ به القسم الثاني ، ولما كان هذا المقطع طويلاً ، فإننا سنكتفي بالقسم الذي يبتدئ من الصفحة 19 إلى الصفحة 23 - كما أننا سوف لن نقف إلا على التبدلات الصيغية الكبرى والتي سنجد كل واحد منها يتضمن صيغاً فرعية لكنها جزئية جداً .

تبتدئ هذه الوحدة بصيغة الخطاب المسرود حول صفدي وهو يتوجه إلى الكلية مضطرباً متجهماً الوجه ومنه يكون الانتقال إلى المعروض من خلال الحديث عن الإنسان وخلق الرموز . يعود الخطاب المسرود من جديد وضمنه يقدم المعروض غير المباشر من خلال حديث صفدي مع طلبته ، ثم إلى المعروض عندما توجه صفدي إلى مكتب صديقه نادر . يؤطر الراوي هذه الصيغة ، وعندما ينتهي العرض المباشر يعلق الراوي ، وعن طريق الخطاب المسرود يتم تسجيل خروج صفدي ونادر إلى باحة الجامعة حيث الطلاب يغنون أناشيداً ثورية . يتم تقديم ذلك من خلال المنقول غير المباشر ، يفاجأ صفدي باميلا ، ومن خلال العرض نتعرف على كون زوجها قد غادر بيروت .

وبعد هذا العرض الذي يتلوه العرض غير المباشر بين صفدي وباميلا عن شعارات الطلبة . تنتقل إلى مشهد آخر من داخل الأرض المحتلة . في هذا المشهد نجدنا أمام

طاب المسرود الذي يتكلف به الراوي وهو يتحدث عن جماهير أريحا وعزمي في القدس لد عبد الحليم واستعداداتهم للحرب ، وضمن الخطاب المسرود نجد صيغة فرعية كثيرة من المنقول والمعروض بنوعيهما . بعد هذا الخطاب المسرود المؤطر تنتقل إلى الخطاب مروض من خلال مقطع غنائي (ص 26) ومنه إلى خطاب معروض آخر ، لكنه مسرود وفيه كي أم رزق قصة الضيع والعروس بلغتها الخاصة .

نعود إلى المشهد الأول المتعلق بصفدي ، ومن خلال المعروض الذاتي نتعرف على ناته وأحاسيسه تجاه ما يجري . ومنه إلى المعروض غير المباشر حيث يتحدث صفدي بـ تلميذه باسم عن الحرب والنصر ، يظل الراوي من خلال المسرود هو الذي يؤطر نطاب وصيغه دائماً . وعندما يتراجع الراوي تأتي صيغة الخطاب المعروض من خلال ذبايع الذي يعلن أن القاهرة أسقطت طائرين إسرائيليتين . يتعالق الخطاب المعروض هنا مسرود الذاتي الذي يرى فيه صفدي بلاده هولندياً طائراً . ومن المسرود الذاتي تنتقل إلى نقول المباشر في طبيعته السردية حيث تسرد قصة «الهولندي الطائر» ومنه أيضاً نعود إلى سرود الذاتي الذي أصبح هو المؤطر مع صفدي وهو يفكر في مآل بلاده لنتنقل إلى عروض بنوعيه : المباشر وغير المباشر حيث يتحدث صفدي إلى الطالبة سهام وبعد ذلك زميله كميل . تتوالى الخطابات المعروضة من خلال صوت المذبايع وأغنية الهولندي نائع وآراء توينبي حول التحدي والاستجابة ثم بعد ذلك إلى المسرود الذي من خلال نلخيص» يقدم صورة عن الحرب .

نعين بجلاء من خلال هذا المثال ، كيف أن صيغة الخطاب المسرود هي الصيغة وطرة . تقوم بدور التقديم وتأتي بقية الصيغ في مختلف تجلياتها متضمنة في نطاق صيغة الأصل ، وعن طريق التناوب نجدنا أيضاً تنتقل من صيغة إلى أخرى ضمن التأطير به الذي تتكلف به صيغة الخطاب المسرود . كما أننا نعين كون الانتقال يتم بالتدرج من غة إلى أخرى بحسب علاقتها ببعضها وقربها منها بنويماً : تنتقل من المسرود إلى عروض غير المباشر ومنه إلى المعروض . . . ولما كان الخطاب يقوم على أساس التقطيع شهدي ، نجد التبدلات الصيغية تختلف على المستوى الأفقي بتبدل موضوع الصيغة ، لما يكون التركيز على بيروت ، وصفدي وزملائه وطلبته في الكلية نجد تبدلات الصيغة ودياً يتسارع ، ويكون الانتقال من صيغة إلى أخرى بشكل متواتر ، إلى الدرجة التي تصبح ا صيغة الخطاب المسرود تكتفي فقط بدور التأطير : وهكذا نجدنا هنا تنتقل من المسرود المسرود الذاتي إلى المعروض غير المباشر ، فالمسرود الذاتي من جديد ، وذلك لسبب ط - سناقشه في حديثنا عن الرؤية السردية - يعود إلى كون موضوع الصيغة متمحوراً ل صفدي . أما عندما يكون الانتقال إلى الحديث عن الأرض المحتلة وتقديم ما تعرفه

من أجواء ، نجدنا هنا أيضاً أمام تبدلات صيغية متواترة بتبدل المشاهد : الانتقال من أريحا إلى القدس . . . لكن هذه التبدلات تظل دائماً من خلال المسرود أو المنقول غير المباشر ، وذلك لهيمنة السرد الذي تقدم لنا من خلاله صورة عن مجريات الأحداث وكمياتها في الأرض المحتلة .

بالإضافة إلى هذه الصيغ التي تشتغل وفق صيغة المسرود التي تتضاءل متيحة المجال لظهور صيغ كثيرة فرعية ، تبرز بين الفينة والأخرى صيغ الخطاب المعروض التي تظهر لنا من خلال مقاطع طويلة نسبياً من الأغاني أو أحاديث المذيع أو بعض الحكايات التي تُقدّم لنا عن طريق العرض مثل قصة الضبع والعروس وقصة الهولندي الطائر وآراء لتوينبي عن التاريخ وما شابه ذلك . وهذه الصيغة نجدها بدورها تأتي في إطار التنوع الصيغي ، وتصبح مادتها مولدة لصيغ جديدة تتصل غالباً بالمسرود الذاتي (صفدي) أي أنها تغدو بمشابة صيغة - إطار .

إن تقديم القصة من خلال كثرة المشاهد وتداخلها ، لعب دوراً كبيراً في أن تكون صيغة المسرود تقوم أساساً بدور التآطير وتأتي بقية الصيغ وبالأخص المسرود الذاتي والمعروض غير المباشر لتقديم رؤيات الشخصيات وأفعالها بخصوص ما يجري من أحداث وأفعال . هذه الأحداث التي تأخذ في أغلب الأحيان كما رأينا في الزيني بركات وأنت منذ اليوم والزمن الموحش ، طابع رد الفعل على ما يجري من أحداث متعالية ، لا يبقى على الشخصيات إلا أن تتكلم عنها ، وهذا الطابع يتجلى لنا بالخصوص من خلال تعدد الصيغ كما لمسناه من خلال المثال الذي يعطينا صورة واضحة عن عالم الخطاب .

4- الوقائع الغريبة :

ما قلناه عند «عودة الطائر» ينحسب بشكل كبير على «الوقائع الغريبة» فهما متشابهتان معاً بمقارنتهما بـ «أنت منذ اليوم» و«الزمن الموحش» ، إلا أن الوقائع الغريبة ذات طبيعة مزدوجة على مستوى الصيغة ، تبرز هذه الطبيعة في كون :

1- مادة الحكى في الخطاب معروضة على اعتبار أنها رسائل يقوم سعيد المتشائل ببعثها إلى «الكاتب» الذي يأخذ موقع المروي له في الخطاب .

2- هذا الخطاب المعروض ذو طبيعة سردية ، أي أن مرسله راو يتوجه بخطابه المسرود هذا إلى مروي له .

إن هذه الطبيعة المزدوجة لخطاب رواية الوقائع الغريبة جعل منها بالقوة وبالفعل معاً «رواية صيغة» إذا صح هذا النعت . ونقصد بذلك أنها من حيث طبيعتها البنيوية يختلط فيها

لسرد بالعرض كصيغتين كبيرين تتداخلان وتتناوبان . يظهر لنا هذا بجلاء في كون كاتب لرسالة (المتشائل) يمزج بين :

- السرد : عندما يكون بصدد حكى قصته .

- والعرض : عندما يتحدث عن الملابس التي تحيط بهذا الحكى (عدم الكتابة لأسباب أمنية - فتح الهوامش - ممارسة التعليقات . . .) .

وهذا التلازم البنيوي بين السرد والعرض ، جعل من كاتب الرسائل يسرد وهو يعرض ويعرض وهو يسرد ، يتم ذلك بشكل متداخل . توقف صيغة كبرى مثل السرد لتأتي صيغة معروضة ضمنها ، فإذا هي مسرودة بدورها ونفس الشيء يمكن قوله عن صيغة كبرى أخرى مثل العرض . يزخر الخطاب بهذا التلازم ، وسنقدم لذلك من خلال المثال التالى :

نفتح الكتاب الثانى (باقية) على صيغة خطاب معروض يبين فيه سعيد المتشائل اضطرابه إلى الامساك عن الكتابة بسبب الأمن فيكون الانتقال من ثمة إلى الخطاب المسرود عن عكا تاريخياً من خلال رحلة ابن جبير ومشاهداته فيها ، وينتهي هذا الخطاب الذي يأتي ضمن المعروض باستباق عن باقية التي سيضيّعها وإبنها ، ونلاحظ الشيء نفسه حول هذا التلازم في المقطع الذي يحمل عنوان «الشبه الفريد بين كنفديد وسعيد (ص 94 ، 99) . حيث يبرز التداخل جلياً بين المعروض والمسرود .

علاوة على هذه الطبيعة البنيوية على مستوى الصيغة المزدوجة في الوقائع الغربية نجد على المستوى العمودي ، عندما نقوم بدراسة مقطعية للصيغ نفس الصورة التي رأيناها مع «عودة الطائر» حيث تبدو صيغة الخطاب المسرود مؤطرة وضمنها يتم الانتقال من صيغة إلى أخرى تبعاً لنوعية الانتقال من زمن آخر ، ومن حديث إلى غيره عن طريق الاستطراد أو المطابقة . ففي معرض صيغة الخطاب المعروض الذي قَدَّمْنَا مثلاً ، يرى الراوي ضوئاً جهة البحر «يغضن» ، فيتم الانتقال زمنياً وسَرْدِيّاً إلى الطفولة فنجدنا أمام صيغة جديدة : الخطاب المسرود ، حيث يسرد قصة معلم العربية الذي «تغضن» عينه اليسرى ، وما كانت تثير فيه من ضحك يُجَازِئُ عليه بالضرب . ومن الخطاب المسرود تنتقل إلى المعروض من جديد من خلال تقديم بيتين شعريين لامرء القيس يعاقبه المعلم بكتابتهم ، وكثيرة هي الأمثلة لهذا النوع من الانتقال الذي نجده يتم عن طريق الاستطراد كما أوضحنا مثل حديثه عن صناعة النبيذ عند الفرادة (ص 103، 104) .

إن هذا الانتقال من صيغة إلى أخرى جعل خطاب الرواية يَزَخُرُ بالخطابات المعروضة المستمدة من خطابات عديدة شعرية أو نثرية قديمة أو معاصرة . وهكذا يمكننا أن نلاحظ أن الصيغ التي تهيم في الوقائع الغربية هي الخطاب المسرود والمعرض غير المباشر ، ولكنّها

جميعاً مع ما تتضمن من صيغ جزئية وفرعية تشتغل بنفس النمط الذي رأيناه في الزيني بركات عمودياً وكذا في عودة الطائر إلى البحر.

5- تركيب :

رغم كون الخطابات التي بين أيدينا تختلف عن الزيني بركات من حيث تعدد الخطابات ، فإنها تشترك وإياها في الخاصية العامة : وهي تعدد الصيغ ، ولعل مرد ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة الخطاب الروائي في حد ذاته ، فهو خطاب جديد ليس همه المركزي هو تقديم كمية هامة من الأخبار عن طرق السرد . إن الهاجس الذي تحكم في الخطاب لا يتعلق بالأحداث التي يجب تقديمها ، ولكن كان يقوده السؤال كيف تقدم هذه الأحداث؟ وكل خطاب أجاب عنه بشكل مختلف نسبياً عن الآخر رغم التشابه الوارد بينها جميعاً ، وأمكنا من خلال التحليل الوقوف على طريقتين مختلفتين :

1- التقطيع الصيغي : نجد هذه الطريقة بالدرجة الأولى في الزمن الموحش وأنت منذ اليوم ، ويتجلى هذا التقطيع في كون الخطاب يقوم على تقطيع الخطاب إلى شذرات سردية يصعب لحملها إلا في إطار كلية الخطاب ، أو من خلال القراءة المتأنية التي تضع كل تقطيع خطابي في إطار الكل . نلمس هذا التقطيع على مستوى الزمن كما نلمسه على صعيد السرد ، وسنلاحظه على مستوى التبشير . وكل مقطع صيغي نجده يدخل في علاقة مع سابقه ولاحقه ، لكنه مختلف عنه صيغياً .

وهذا ما جعلنا نلاحظ كل الصيغ كبرى أو صغرى ، بسيطة أو مركبة توظف في مجرى الخطاب . صحيح نلمس هيمنة بعض الصيغ على غيرها ، لكن وقوفنا على الاشتغال الصيغي أفقياً وعمودياً يبين لنا بالملاموس تواتر هذه الصيغ وتناوبها في مجرى الحكى ، بشكل يشي بتوازنها الكمي والكيفي . وبإجرائنا لاحصائيات تتعلق بهذا الجانب تبين لنا ذلك بجلاء .

ولما كانت المادة الحكائية تقوم على التكرار في هذين الخطابين أمكنا الانتهاء إلى أن المقاطع السردية الكبرى تبديء عادة بالخطاب المسرود (أنت منذ اليوم) أو بالخطاب المسرود الذاتي أو المعروف الذاتي (الزمن الموحش) ويتلو ذلك عادة الخطاب المعروف غير المباشر . يتبدى المقطع بوجود «الشخصية» المحورية منفردة في البيت ، والشارع ثم تنتقل إلى فضاء مليء بالناس وفيه شخصية محورية فيكون الخطاب المعروف غير المباشر . وضمنه يأتي المسرود الذاتي عادة أو بقية الصيغ . كما أن لكون الأحداث متعالية دوراً في طبع الصيغة بهذه الخاصية التي تجعلها تشتغل وفق علاقة «الفعل» (السرد) بـ «رد الفعل» (العرض) . وهذا أيضاً من العوامل التي ساهمت في تعدد الصيغ .

2 - التلوين الصيغي: ونقصد به الانتقال من صيغة إلى أخرى ضمن صيغة أصل . يتم هذا التلوين في «عودة الطائر» عن طريق الانتقال من مشهد إلى آخر ، ومن فضاء إلى آخر (بيروت/ الأرض المحتلة) . وفي فضاء بيروت من صفدي منفرداً إلى صفدي ضمن جماعة . وفي الأرض المحتلة ، من أريحا إلى القدس ، وغيرهما ، هذا التلوين يتضاعف بادخال صبغ الخطاب المعروض في مقاطع طويلة نسبياً على لسان بعد الشخصيات (غناء - حكي - شعر . . .) ، ويتجسد هذا التلوين في الوقائع الغريبة بنيوياً بسبب طبيعة الخطاب المزدوج صيغياً ، وحيث يتم داخل هذه الصيغة أو تلك الانتقال عن طريق الاستطراد إلى صيغة أخرى .

من خلال الطريقتين معاً نجد تكافؤ الصيغ، بحيث لا نستشعر ونحن نقرأ هذه الخطابات أن صيغة ما (سرد/ عرض) تهيمن على الأخرى في مجرى الخطاب، فهي تأتي متوازنة ومتكافئة إلى الدرجة التي نجد فيها الصفحة الواحدة يكاد يتساوى فيها السواد والبياض على صعيد الكتابة، وهذا البعد له دلالة الصيغية العميقة، إذ أن السرد يملأ الصفحة سواداً. وعكس ذلك العرض حيث مقاطع الحوار قصيرة، ويكون الرجوع فيها إلى السطر كثيراً، الشيء الذي يؤدي إلى ظهور البياض.

خلاصة :

إن تعدد الصيغ طابع مشترك بين الخطابات المتناولة جميعاً ، وكل خطاب يمارسه بشكل مختلف عن الآخر ، ومن التعدد الخطابي إلى التلوين الصيغي مروراً بالتقطيع الصيغي نجدنا أمام تصور مشترك في تقديم مادة الحكي . ليس الهدف المركزي هو تقديم القصة سواء كانت مادتها مستقاة من التاريخ أو الواقع أو التخيل . ولكن الأهم هو كيف تقدم؟ هذا السؤال هو سؤال الصيغة . وأمام الروائي صيغتان أساسيتان لكي لا نقول طريقتين ، لكن كيفية اشتغال الصيغ وطرائق تبدلاتها وانتقالاتها هي التي تحدد نوعية الصيغة المستعملة والطريقة الموظفة في الارسال .

عَوَدْنَا الرواية التقليدية على هيمنة الصيغة السردية أو على أَحَادِيثِهَا من خلال تحرك السرد من مكان إلى آخر ، ومن شخصية إلى أخرى . وتقدم الأحداث والأقوال دائماً من خلال السرد أو إحدى تفرعاته (المنقول غير المباشر) . ومن خلال هيمنة صيغة السرد في الخطاب الروائي التقليدي يصبح لزماً على القارئ أو الباحث أن يتحدث عن السرد ممزوجاً دائماً بالوصف إنه رديفه أو توأمه الذي لا يغادره . لهذا السبب كان القارئ مثلاً في روايات القرن التاسع عشر يصادف الصفحات الطوال ، ذات الطبيعة الوصفية فيقفز عليها مستعجلاً الوصول إلى الحدث . ووقف السرديون طويلاً يبحثون في الوصف في مختلف طبائعه وأشكاله ووظائفه . لكننا في المتن الذي نحلل نجد السرد يخلق له رديفاً آخر إنه

العرض يتناوب ويتقاطع وإياه يتداخلان ويتضمن أحدهما الآخر ، إلى الدرجة التي لا نحس فيها بروتين صيغة معينة . وعندما نعاين هذه الظاهرة في المتن بكامله ، وفي كل خطاب على حدة يبرز لنا بجلاء أن الكاتب يعي جيداً عمله وهو ينجزه عن قصد وسبق إصرار . وهذا ما جعل التعدد الصيغي سمة جوهرية في الخطاب الروائي .

وإذ نعتبر التعدد مشتركاً وجوهرياً في المتن ، فإننا نعلن ذلك من زاويتين :

1 - الأولى بنيوية : توصلنا فيها إلى ضبط هذا التعدد كسمة جوهرية من خلال وصف وتَحليل الخطاب سواء على مستوى جزئي أو كلي عمودياً أو أفقياً .

2 - الثانية وظيفية : ومن خلالها ، وبناء على الأولى ، نسجل أنها تحقق خروجاً على السائد سردياً على مستوى الخطاب التقليدي الأحادي الخطاب والأحادي الصيغة . وفي هذه الزاوية يمكننا تذكر درسي أفلاطون عن المحاكاة والحكي التام وانحيازه إلى جانب الثاني ، ودرس هنري جيمس ، وهو يلج على ضرورة الأولى . إنه موقف جمالي وله بعده الوظيفي أو الدلالي الذي يمكننا مناقشته في مستوى آخر ، من خلال تمييز الخطاب الروائي الذي بين أيدينا عبر مزاجية السرد والعرض مُحققاً بذلك خروجاً وخرقاً لاشتغال الصيغ في الخطاب الروائي .

وبربطنا ما رأيناه الآن حول خصوصية الصيغة في المتن ، وما رأيناه حول الزمن تتكشف أمام الناظر أهمية الصيغة كمكون خطابي يساعدنا ليس فقط على تجسيد خصوصية الخطاب الروائي وبنياته ولكن أيضاً وهذا مهم ، يمكننا من تدقيق تصورنا حول الأنواع الأدبية وحول تاريخ الأدب ، لو أننا نقوم برصد تحولاتها ، وتطورها زمنياً ونوعياً (من النوع) نظير العمل الذي قام به هارالد فاينريش حول الزمن كمكون مركزي وقام سرديون آخرون بمثله حول الرؤية السردية أو «وجهة النظر» وبالأخص أوسينكسي . لكن حول الصيغة لا نجد عملاً من هذا القبيل اللهم إلا إذا اعتبرنا عمل «أريك أو يرباخ» في عمله الهام حول «المحاكاة» متصلاً بالصيغة في إحدى تجلياتها الأسلوبية في دراسته حول تطور الأدب في علاقته بالواقع .

إن أهمية الصيغة تكمن علاوة على ما ذكرنا على كونها مكوناً مركزياً تتميز به الرواية عن غيرها من الخطابات ، ولقد اعتمدت منذ البوطيقا الكلاسيكية كأساس للتمييز بين الخطابات الأدبية وغيرهما ، لكن الدراسة الأدبية العربية لم تولها أي اهتمام بالقياس إلى باقي المكونات .

يظل حديثنا عن الصيغة ناقصاً ما لم نكملة بـ «المتكلم» أو المرسل الذي قدم الصيغة ، وذلك ما سنحاول الآن معانيته من خلال حديثنا عن الراوي أو الصوت السردى أو بكلمة من خلال تحليلنا لما نسميه بالرؤية السردية في الخطاب الروائي .

الفصل الثالث

الرؤية السردية في الخطاب الروائي

- 1 - تقديم نظري .
- 2 - تمفصلات الرؤية السردية الكبرى .
- 3 - تمفصلات الرؤية السردية الصغرى
- 4 - خصوصية الرؤية السردية في الزيني
بركات .
- 5 - الرؤية السردية بين الخطاب
التاريخي والخطاب الروائي .
- 6 - الرؤية السردية في خطاب الرواية
العربي .

I - تقديم نظري

1 - تمهيد :

1.1. في عرضنا للآراء والتصورات الذي مهدنا بها الفصلين الأول والثاني حول الزمن والصيغة في الخطاب الروائي ، عانينا بشكل رئيسي من قلة هذه التصورات وندرتهما . لكننا فيما يتعلق بما نسميه بـ «الرؤية السردية» ، كانت معاناتنا أشد . إننا لم نجد أنفسنا أمام شُح الدراسات أو قلتها سواء على الصعيد النظري أو التطبيقي . رأينا على العكس من ذلك كثرة الأبحاث والنظريات والاتجاهات . ومن بدايات هذا القرن إلى يومنا هذا تتزايد الدراسات وتتغذى بالجديد تنقيحاً وإضافات كمياً ونوعياً في فرنسا وانجلترا وأمريكا والاتحاد السوفياتي . . .

إن مصدر الصعوبة يعود بالأساس إلى كيفية التعامل مع هذا المكون الخطابي . وليس من اليسير تذليلها واتخاذ موقف محدد منها . غير أننا عملنا جاهدين على تجاوز ما يطرحه هذا المفهوم المركزي في الخطاب الروائي من مشاكل بعد طول تفكير وامعان نظر . وسنحاول في هذا التقديم النظري التعرض لما عرفه هذا العنصر من تطور منذ بدايات هذا القرن إلى يومنا هذا . وخلال له سنركز ما أمكن على أهم التصورات وأكثرها غنى وتقدماً على صعيد التحليل السردى . وبعده نقدم ما انتهينا إلى تكوينه من تصور لفتح لنا بعد ذلك إمكانية الانتقال إلى تحليل الخطاب الروائي العربي ، على غرار ما سرنا عليه في الفصلين السالفين .

2.1. من دواعي كثرة الدراسات حول هذا العنصر ، وتضارب الآراء في التعامل معه ارتباطه بوثوق بأحد أهم مكونات الخطاب السردى . وهو الراوي وعلاقته بالعمل السردى بوجه عام ، وذلك على اعتبار أن الحكى يستقطب دائماً عنصرين أساسيين بدونهما لا يمكننا أن نتحدث عنه . هذان العنصران هما : القارئ بالحكي ومتلقيه ، وبمعنى آخر الراوي والمروي له . ويتم العلاقة بينهما حول ما يُروى (القصة) . إنهما معاً عنصران خطايان ! فلا غرو إذن أن نجد العديد من الباحثين الذين يودون تقديم نظرية للسرد ينطلقون من هذا

المكون ، ويجعلونه مدار أبحاثهم ودراستهم ، ما دام يتصل بأهم مكونات الخطاب السردى . وأكثرها تدليلاً على خصوصيته بالمقارنة مع باقي الأنواع الأدبية .

3.1. عرف هذا المكون بتسميات عديدة منذ أن تم توظيفه . بل إنه اتخذ مراراً بعد لفظ محوري وأصبحت له مجموعة لفظية تدور في فلكه كلما تم التعامل معه . وهذه الخاصية لم تتح لأي من المصطلحات المركزية التي استعملت في تحليل الخطاب السردى ، واختيار هذا الاسم أو ذاك كان في أحيان كثيرة محملاً بدلالات أو أبعاد يعطيها إياه هذا الباحث أو ذاك ، وفق تصوره الخاص ونظريته التي ينطلق منها . من هذه التسميات التي عرف بها : وجهة النظر - الرؤية - البؤرة - حصر المجال - المنظور - التأثير . ولعل مفهوم «وجهة النظر» هو الأكثر ذيوياً وبالأخص في الكتابات الأنجلو - أمريكية . إن «وجهة النظر» في مختلف التعريفات التي تتبعناها ، تركز في معظمها ، رغم بعض الفروقات البسيطة ، على الراوي الذي من خلاله تتحدد «رؤيت»هُ إلى العالم الذي يرويه بأشخاصه وأحداثه ، وعلى الكيفية التي من خلاله أيضاً - في علاقته بالمروي له - تبلغ أحداث القصة إلى الملتقى أو «يراه» . لهذا السبب نستعمل «الرؤية» ونضيف «السردية» لحصر دلالتها في إطار تحليل الخطاب ، وسنبين عند عرض تصورنا لماذا نختار هذا المصطلح دون غيره من المصطلحات المستعملة ، وبأي هدف .

4.1. تبين لنا من خلال رصد تطور هذا المفهوم تاريخياً في الكتابات النقدية مروره بمرحلتين أساسيتين في تقديرنا . الأولى بدأت مع النقد الأنجلو - أمريكي منذ بدايات هذا القرن ، واستمرت إلى أواخر الستينات . وخلالها احتل مركز الصدارة في تحليل الخطاب الروائى ، كما تبلور - نظرياً - منذ خلال الأبحاث والدراسات التي وظفته ، وتبدأ المرحلة الثانية مع بدايات السبعينات مع التطور الذي توج بظهور «السرديات» كاختصاص متكامل . وخلالها سيتخذ موقعه المتميز ضمن هذا الاختصاص وفق الاجراءات العلمية التي تم الانتهاء إليها .

إن هناك تداخلاً وترابطاً بين المرحلتين ، على اعتبار أن ظهور «السرديات» تم انطلاقاً من تطوير المشاريع السردية السابقة وإغناء لها بناء على ما تمت مراكماته في مجال تحليل الخطاب السردى والنظريات اللسانية بوجه عام . بل إننا سنعاين كون بعض المنطلقات العلمية التي انبنت عليها السرديات في تحليلها لهذا المكون تمت بهذا الشكل أو ذاك في الأدبيات السابقة على ظهورها كاختصاص ، كما سنبين من خلال هذا العرض .

2- الرؤية السردية في النقد الروائى الجديد :

1.2. يكاد يتفق معظم النقاد والباحثين على أن هذا المفهوم هو وليد استحدثه النقد

الأنجلو- أمريكي في بدايات هذا القرن مع الروائي هنري جيمس . وعمقه أتباعه ، وبالخصوص بيرسي لوبوك في كتابه «صناعة الرواية» ، الواضع الأساسي لأحجار زاوية الرؤية .

انطلق هنري جيمس من ملاحظاته حول الراوي الذي ينظر إلى عالمه الحكائي من عل ، معيماً عليه لعبه دور محرك الدمي ، داعياً إلى ضرورة «مسرحة» الحدث وعرضه لا إلى قوله وسرده ، بمعنى أن على القصة أن تحكي ذاتها لا أن يحكيها المؤلف . . لكن هذا الاتفاق حول دور جيمس في استحداث هذا المفهوم يخرج عنه صاحباً كتاب «عالم الرواية» بذاتها أبعد من ذلك ، معتبرين جيمس غير مستحدث شيئاً⁽¹⁾ . ويؤكد أن كون هذا التمييز قد سبق أرسطو إلى استعماله ، كما سبق فلوير إلى توظيفه . فأرسطو ينحاز إلى هوميروس وهو يكيل الثناء للقصة الهوميروسية التي لا يتدخل الراوي والشاعر في أحداثها إلا نادراً ، وتاركاً العرض للأشخاص . أما فلوير ، فإن جيمس ، استوحى منه هذا المفهوم بعد اطلاعه على مراسلاته التي يتحدث في إحداها عن الراوي وعن الراوي الذي يجب أن يكون في عمله كلاله في عملية الخلق : فهو لا مرئي وعظيم القدرة ، وغش به دون أن نراه .

إن إشارات صاحبي كتاب «عالم الرواية» إلى أرسطو وفلوير لها أكثر من دلالة . وأهمها أن العديد من العناصر الحكائية موجودة في أي حكي لكن الزيادة تمكن في إبراز أهميتها وتجلية خصوصيتها ليصبح الانتباه وارداً في أي عمل تحليلي . وهذا ما وقع فعلاً مع هذا العنصر الذي كان لجيمس وبعده لوبوك الدور الكبير في تشخيص أهميته وإضاءة خصوصيته لكل من سيأتي بعدهما من الباحثين والمحللين

2.2. على هدى جيمس يميز لوبوك بين العرض (Showing) والسرد (Telling) ، مؤكداً أن في العرض يتحقق حكي القصة نفسها بنفسها ، وأن في السرد راوياً عالمياً بكل شيء⁽²⁾ . ومن خلال قراءته لرواية «مدام بوفاري» لفلوير يبرز أننا نجد فيها أنفسنا أمام تقديمين للأحداث . الأول : تقديم مشهدي ذو بعد درامي ، والثاني : بانورامي ذو طبيعة تصويرية . في التقديم البانورامي نفترض وجود الراوي العالم بكل شيء ، أما في المشهدي فإن الراوي يبدو وكأنه غائب عن الأحداث التي تجري أمام المتلقي .

لكن لوبوك لا يقف عند حدود الوصف ، بل يتجاوز إلى الحكم من المنظور الذي مارسه جيمس ، وذلك بانحيازه إلى جانب الراوي «الممسرح» والمدمج في القصة . وعندما يرى الحدث من خلال ذهن الشخص «الممسرح» ، بالضمير الغائب ، فإن القاريء في هذه الحال ، يجد نفسه واقعاً في داخل القصة ، ونرى الأحداث من خلال هذا الذهن في الوقت ذاته الذي تجري فيه هذه الأحداث . وميزة هذا الشكل حسب لوبوك ، تكمن في أن كل

شيء هنا معروض أو ممسرح سواء كان ذلك الحدث أو الشخصية أو ذهنها . إن كل شيء يغدو موضوعياً ، عكس ما نجد في التقديم البانورامي⁽³⁾ .

من هذا التمييز العام ، في إطار علاقة الراوي بالقصة ، يمكن استنتاج وجهات النظر كما يحددها لوبوك وإن بشكل غير منظم كما يمكن أن نلاحظ على الشكل التالي :

1- في التقديم البانورامي نجد الراوي مطلق المعرفة يتجاوز موضوعه ويلخصه للقارئ.

2- في التقديم المشهدي كما في الدرامي نجد الراوي غائب ، والأحداث تقدم مباشرة للمتلقي .

3- في اللوحات ، تتركز الأحداث إما على ذهن الراوي أو على إحدى الشخصيات .

إننا هنا أمام أربعة أشكال سردية كما يلخصها لنا ليتنفلت بوضوح من خلال :

1- التجاوز البانورامي حيث هيمنة الراوي .

2- الذهن المعروض حينما يتركز التقديم على شخصية محورية .

3- الدراما الخالصة : حيث غياب الراوي .

4- الراوي الممسرح الذي يتم التقديم من خلاله وهو شخصية محورية⁽⁴⁾ .

إن لوبوك حاول استيعاب مختلف وجهات النظر التي تقدم لنا من خلالها أحداث القصة ، وكما لاحظنا فأنحيازها إلى تصور جيمس بارز سواء على مستوى تحديد وجهات النظر أو الحكم عليها .

3.2. بعد ثلاثين سنة على ظهور «صناعة الرواية» يأتي فريدمان مستوعباً وملخصاً للآراء السابقة حول «الرؤية» ومنظماً تصوره الذي يقيمه بدوره على أساس التمييز بين العرض والسرد ، بناء على درجة موضوعية إرسال القصة . وإذا كنا نتبين بصعوبة تصنيف لوبوك ، فإن فريدمان يقدم لنا تصنيفاً لوجهات النظر أكثر تنظيماً ووضوحاً . يضم هذا التصنيف هذه الأشكال :

1- المعرفة المطلقة للراوي - المرسل : وهنا نجدنا أمام وجهة نظر المؤلف غير المحدودة وغير المراقبة ، وهو يتدخل سواء اتصلت تدخلاته بالقصة وأحداثها أو لم تتصل .

2- المعرفة المحايدة : وهذه الوجهة تختلف نسبياً عن الأولى . فالراوي هنا يتكلم بضمير الغائب ولا يتدخل ضمناً ، ولكن الأحداث لا تقدم لنا إلا كما يراها هو لا كما تراها الشخصيات .

3- الأنا الشاهد : نجد هذه الوجهة في روايات ضمير المتكلم حيث الراوي مختلف عن الشخص وتصل الأحداث إلى المتلقي هنا عبر الراوي لكنه يراها أيضاً من محيط متنوع .

4- الأنا المشارك : تختلف هذه الوجهة عن سابقتها لأن الراوي المتكلم هنا شخصية محورية .

5- المعرفة المتعددة : هنا نجدنا أمام أكثر من راوٍ . والقصة تقدم لنا كما تحياها الشخصيات .

6- المعرفة الأحادية : عكس الوجهة الخامسة نجد هنا حضوراً للراوي لكنه يركز على شخصية مركزية وثابتة نرى القصة من خلالها .

7- النمط الدرامي : هنا لا تقدم إلا أفعال الشخصيات وأقوالها ، أما أفكارها وعواطفها فيمكن تلمسها من خلال تلك الأقوال والأفعال .

هذه هي الأشكال السردية كما يعرضها ليتفقت⁽⁵⁾ بخصوص تصنيف فريدمان لوجهات النظر ، لكن رومس كيون تضيف شكلاً ثامناً .

8- الكاميرا: وتتميز هذه الوجهة بنقل شريحة عن حياة الشخصيات دون اختيار أو تنظيم⁽⁶⁾ .

ما يتميز به تصور فريدمان لوجهة نظره هو التنظيم من جهة ، والشمول من جهة ثانية . إنه حاول تقديم مختلف الرؤيات ، رغم أننا نعاين بجلاء أن بين العديد من الأشكال السردية المقدمة فروقات بسيطة جداً . وهذا ما أضفى على تصنيفه كثرة الأشكال .

4.2. إذا كان تصنيف فريدمان لوجهات النظر طويلاً ومفصلاً أكثر من اللازم ، فإن باحثاً فرنسياً حاول اختزال ما أسماه بـ «الرؤيات» اختزالاً دقيقاً ، إذ جعلها لا تتجاوز ثلاث رؤيات . وكان لتصنيفه أثره الأكبر في العديد من التصنيفات اللاحقة كما كان له دور هام في إعطاء هذا المكون السردى أبعاداً جديدة اعتنى بها هذا المفهوم ، وجعله أكثر قبولاً لاحتلال موقعه المركزي ضمن تحليل الخطاب الروائي . هذا الباحث هو جان بويون . ولقيمة كتابه وتصوره ، ستعرض لوجهة نظره حول الرؤية بنوع من التفصيل الذي لا يُخلُ بما نتوخى .

1.4.2. إن كتاب جان بويون «الزمن والرؤية»⁽⁷⁾ يعتبر بحق من أهم الدراسات التي تناولت الرؤية السردية بنوع من الانسجام والتكامل . ولا يكاد يخلو كتاب أو مقال لباحث أو مشتغل بالتحليل الروائي من الإشارة إليه أو الاستفادة منه عن طريق مباشرة ، أو مع إدخال

بعض التعديلات على بعض مصطلحاته .

انطلق بويون في حديثه عن الرواية والرؤيات من علم النفس ؛ ومن تأكيده على الترابط الوثيق بين الرواية وعلم النفس استنتج ثلاث رؤيات هي :

1 - الرؤية مع . 2 - الرؤية من الخلف . 3 - الرؤية من الخارج . إننا هنا لا نجدنا هنا - كما رأينا مع لوبوك وفريدمان - أمام الحديث عن نوعية الراوي أو أسلوب التقديم . إننا أمام مصطلح محدد «الرؤية» وأنواعاً معينة «مع - من الخلف - من الخارج» ، فكيف تم تحديد هذه الرؤيات وأنواعها؟

2.4.2. في الفصل الأول من الكتاب الذي يعنونه بـ «الرواية وعلم النفس» يتحدث بويون عن العلاقات القوية التي تربط بينهما . فإذا كان العالم النفساني يعرفنا بأنفسنا ، فإن الروائي يعرفنا بالآخرين . يتجلى هذا الآخر في الرواية حين يبدو لي بطلاً ، وأبدوأنا (كقاريء) ذاتاً . «عندما يكون البطل يحكي عن نفسه ، تكون الذات تحلل نفسها» (ص 45) . ومن خلال هذه الصلة تبدو العلاقة بين الرواية وعلم النفس .

وبعد أن يعطي للخيال دوراً أساسياً ، وينحي عنه الدلالة العامة المعطاة له ، وهو يلج على استعماله المستقل في تعزيز إدراكنا للأشياء ، ينتهي إلى أن للخيال وظيفة هامة ، تكمن في كونه يجعل ما يمثله لنا هذا الخيال حاضراً ، باعتباره أساساً أي «رؤية» (ص 49) . يؤكد بويون على ذلك ، انطلاقاً من «السيرة الذاتية» التي يتجسد فيها الشكل الأكثر ملائمة للربط بين علم النفس والرؤية ، فهي أكثر ملائمة لأنها تتقدم إلينا كفهم للذات في الشكل الروائي ، وهي غير ملائمة في الوقت نفسه لأن الخيال لا يتدخل في فهم هذه الذات .

3.4.2 بناء على ذلك ، يميز بين شكلين للسيرة :

أ - الذكريات (souvenirs): التي يعمل الكاتب جاهداً على أن تكون «مع» ما هو عليه .

ب - التذكارات (mémoires): التي يعمل الكاتب جاهداً على أن يعيد رؤيتها ، ليحكم عليها ليحققها ، ويجادلها ، وهذا يفترض أنه ينشطر عن ذاته ، وينظر إليها «من الخلف» .

وبعد هذا التمييز يؤكد كون «المذكرات» journal تشبه «التذكارات» في طريقة حكيها المتسلسلة مع مراعاة الجانب المنطقي للقصة ، من جهة ، وتشبه «الذكريات» في جهلها نهاية بعض الأشياء ، بما أن ما يُحكى اختير لقيمتة الدالة أكثر من أهميته في توالي الأحداث . لذلك تبدو المذكرات في رأي الباحث أقرب إلى التذكارات منها إلى الذكريات ، الشيء الذي يجعل كاتب المذكرات ، وهو في الحاضر ، يحكم على الذات ،

وهو منشطر عنها ، ناظراً إليها «من الخلف» .

يستنتج ، بناء على ذلك ، أننا نرى هنا حالتين أساسيتين تجاه الذات :

أ - «مع» : avec .

ب - «من الخلف» : par derrière .

وأن المذكرات التي تمثل جهداً لامتلاك الذات في الحاضر ، تظل رؤيتها «من

الخلف» ص 64 .

نعين إلى الآن كيف تم الكشف عن الرؤيتين «مع» و«من الخلف» من خلال الانطلاق من السيرة الذاتية كنوع سردي ، ومن علم النفس كمجال معرفي . فكيف يتم الكشف عن الرؤية الثالثة من الخارج» في علاقتها بالسالفتين؟

4.4.2. في الفصل الثاني من الكتاب ، ينطلق الباحث من «الرؤية مع» ، ويحددها بقوله ، إننا هنا نختار شخصية محورية ، ويمكننا وصفها من الداخل ، بتمكننا من الدخول بسرعة إلى سلوكها وكأننا نمسك بها . إن الرؤية هنا تصبح عندنا هي نفس رؤية الشخصية المركزية ، وفي الواقع تغدو هاته الشخصية «مركزية» ليس لأنها ترى في المركز ، ولكن فقط لأننا من خلالها نرى الشخصيات الأخرى ، و«مع» هنا نعيش الأحداث المروية . وفي علاقة هذا بـ«الخيال» يتساءل : أي نوع من الخيال يفترض هذا؟

يجيب ، بأنه الخيال الذي يدفعنا إلى «مع» من يجب أن نكون . وبما أنه لا يمكننا أن نكون - في الحقيقة - إلا مع نفسي ، فإنه في وصفي لذاتي فقط يمكنني أن أكون واثقاً من أنني لن أتعدى حدودي ، وعبر التحليل الذي أقوم به ، أوجد في ذاتي ما أتخيلني سأجده (ص 74 - 75) . لذلك فالفهم الذي يفترضه هذا النوع من الروايات عند القارئ هو الفهم العاطفي قبل كل شيء : إنني «مع» ما أفهمه «هكذا» ، إن الرؤية هنا ليست «رؤية لـ» (vision de) ، ولكنها «رؤية انطلاقاً من...» (vision à partir de) .

أما في الرؤية الثانية «من الخلف» فالكاتب (بويون لا يتحدث عن الراوي) ينفصل عن شخصيته ، ليس من أجل رؤيتها «من الخارج» ، رؤية حركاتها ، والاستماع إلى أقوالها ، ولكن من أجل أن نعتبر رؤيته موضوعية ومباشرة لحياة شخصياته النفسية . والراوي في هذه الرؤية ليس خلف شخصياته ولكنه فوقهم ، كإله دائم الحضور ، ويسير بمشيئته قصة حياتهم . وإذا كان هذا عيباً ، فإن ستانداً وبلزاك لا يقعان في هذا ، لأن تَدْخُلَهُمَا النفسي يجعلنا نحس وكأن ذلك جُزءٌ من حياة الشخصيات الداخلية . ونجد الشيء نفسه عند دوستوفسكي الذي يضع شخصياته إزاء بعضهم البعض . والفهم الذي تتيحه لنا هذه الرؤية

يتم من خلال وصف سلوك الشخصيات ، لكن هذا الوصف لا يؤدي بنا إلى الفهم النفسي للشخصيات ، بل العكس هو الذي يفترضه ، أو أكثر من ذلك بلغيه (ص 102) .

أما الرؤية الثالثة والأخيرة فهي «الرؤية من الخارج» (vision du dehors) . والخارج هنا ليس إلا السلوك كما هو ملحوظ مادياً ، وهو أيضاً ، المنظور الفيزيقي للشخصية ، والفضاء الخارجي الذي تتحرك فيه ثالثاً .

هذه العناصر الثلاثة يتداخل فيها الخارجي بالداخلي . وفيها يكون الخارجي متجلباً للداخلي ، على اعتبار كل شيء له دلالاته في إطار هذه العلاقة . ويستنتج بويون بناء على ذلك ، أن هذه الرؤية تضم الجانب الواقعي والموضوعي للحقيقة النفسية ، لأن كل شيء فيها موصوف مادياً وموضوعياً . ومن خلالها ، يكون فهم القاريء موضوعياً ، لأن الخارج يتيح لنا معرفة النفسي والداخلي الذي هو الواقعي الوحيد ، ويعتبر تبعاً لهذه الرؤية «دوس باسوس» روائي «السلوكية» .

مع بويون كما لاحظنا من خلال هذا العرض نعين بجلاء تميزاً وتعمقاً في تحليل الرؤيات من المنظور الذي ينطلق منه الباحث ، كما نلاحظ انسجاماً كلياً بين مقدماته السيكلوجية وتصنيفاته وطرائق الكشف عنها . ولعل هذا ما أغرى العديد من الباحثين بالسير على منواله في تبني التصنيف الثلاثي وتوزيعه للرؤيات ، وإن كانوا يفرغونها من أبعادها السيكلوجية المحملة بها⁽⁸⁾ .

5.2. في سنة 1955 سعى شتانزل إلى إقامة نموذج سردية انطلاقاً من حديثه عن المنظور والصوت . وكان الهدف المركزي تحديد أشكال بناء الخطاب الروائي ، من خلال محاولته البحث عن قوانين كلية . إن عمله يختلف اختلافاً كبيراً عن غيره من النقاد ، وكان الأولى تأجيل الحديث عنه إلى النقطة التالية التي خصصناها للسرديات ، لكن دفعنا إلى إدراجه هنا ، هو كون مشروعه الذي طرحه في أواسط الخمسينات سيعدله ويغييه في الستينات وأواخر السبعينات ، كما بين ذلك ليتفلس وبول ريكور .

انطلق شتانزل من الدور الذي يتكلف به الراوي في إرسال القصة من خلال هيمنة أحد الشكلين الأساسيين : السرد أو العرض ، أو ما أسماه بـ «الطبيعة الوسيطة» التي من خلالها يتواصل الراوي مع المروي له . هذا الوسيط يعطيه مصطلح «المقام السردى» ، ويوضح أننا أمام ثلاثة مقامات سردية :

أ - الوسيط الأول يتجلى من خلال الراوي الذي يفرض منظوره من عل . يسمى شتانزل هذا الشكل الأول بـ «الراوي الناظم» (auktoriale) .

ب - الوسيط الثاني يبرز من خلال ما يسميه هنري جيمس بالراصد (reflecteur) وهو

شخص يفكر ويحس ويدرك ، لكنه لا يتكلم مثل الراوي ، إنه واحد من الشخصيات ، لكن القارئ يرى الشخصيات الأخرى من خلال عيونه . إننا أمام الراوي الفاعل (personale) .

ج- في الوسيط الأخير يتوحد الراوي بواحد من الشخصيات ، ويتكلم بضمير المتكلم ، وهو واحد من شخصيات القصة : الراوي المتكلم (ich)⁽⁹⁾ .

من خلال هذا النموذج الذي يقيمه شتاتزل يتضح لنا بجلاء طموح الباحثين منذ أواخر الأربعينات وأواسط الخمسينات إلى طرح تصورات أكثر تجريداً وعميقاً . لكن هذا الطموح سوف لن يتبلور إلا لاحقاً في قراءات تسعى لتجاوز العوائق البنيوية التي تحول دون إنجاز تصور أكثر انسجاماً ووضوحاً .

6.2. في أوائل الستينات تظهر دراسة هامة حول النقد الروائي من وجهة بلاغية ، قام بها وين بوث . ومن بين أهم النقاط التي ركز عليها في دراسته حول «بلاغة الرواية» وجهة النظر والمسافة ، أو كما أسماها «أنماط السرد»⁽¹⁰⁾ .

حاول بوث تجاوز عمل بيرسي لوبوك وفريدمان ، من خلال نقده لبعض الأسس النظرية التي تنظر إلى القصة من خلال الضمير الذي تُروى به (متكلم / غائب) . وانطلاقاً من هذا التمييز لتحديد نوعية الرؤية أو وجهة النظر . ومن خلال أمثلة من الروايات يكشف أن الضمير ليس معياراً دقيقاً لتحديد الرؤية . ففي رواية «السفراء» الهنري جيمس نجدنا أمام ضمير الغائب ، لكن الرواية أقرب ما تكون إلى رواية ضمير المتكلم لأن «ستريذر» يَسْرُدُ في أماكن كثيرة من الرواية قصته هو .

يُمَيِّز بوث بعغ ذلك بين نوعين من الرواة : المشاركون في القصة المحكية كشخصيات من جهة ، وغير المشاركين من جهة ثانية . وعلى أساس هذا التمييز يوضح نوعية الرواة انطلاقاً من علاقتهم الترابطية مع القصة على هذا الشكل :

1- الكاتب الضمني (الذات الثانية للكاتب) ، ويتواجد في أية رواية كيفما كان نوعها حتى وإن كانت سيرة ذاتية . وحتى لو كان هناك راو آخر مشارك . إنه الكاتب الضمني المخفي في الكواليس ، وهو ليس الكاتب الإنسان ، أو كما يقول بارت إنه من ورق وليس من لحم ودم .

2- الراوي غير المعروض (غير الممسرّج) : وهو الراوي الذي يشبه علينا ، والكاتب الضمني إذا لم يبد لنا أن الرواية تعتمد ذلك الكاتب ، لأنه من الضروري أن تكون هناك وساطة بيننا كقراءة وأحداث القصة .

3- الراوي المعروض (الممسرّج) : وهو كل شخصية مهما بدت متخفية ، وتتداول

الحكي ، وتعرض نفسها ، بمجرد ما إن تحدث بالضمير المتكلم المفرد أو الجمع أو باسم الكاتب . وضمن هذا النوع سنجد أنواعاً من الرواة :

أ - الراصد (كما يسميه جيمس) : وهو المرأة التي تعمل على عكس الأحداث بوضوح ، ويستعمل لتقريب بعض الأشياء إلى القارئ ليعرفها بجلاء .

ب - الراوي الملاحظ (أو الشاهد) : الذي سيرد عن طريق المشهد أو التخليص .

ج - الراوي المشارك : الذي يفعل ويفعل في مجريات الأحداث كشخصية من الشخصيات .

ثم ينتهي بعد ذلك إلى تبين درجة الوعي من حيث حضوره أو عدمه عند الراوي الملاحظ أو المشارك ، ودرجة الثقة سلباً أو إيجاباً ، وإلى التمييز بينها على المستوى وإلى إقامة «حوار ضمني» داخل أي عمل روائي بين الكاتب والراوي والأشخاص والقارئ ، مؤكداً على أن أي عنصر من هذه العناصر يمكنه أن يتجاوب مع أي منها ، كما يمكنه أن يتناقض وبالمطلق مع أي عنصر حول أي نمط من القيم أو الأحكام الأخلاقية أو الثقافية أو الجمالية أو حتى الفيزيقية ، أي ما يسميه بصفة عامة بـ «المسافة» .

إن أهم خاصية نجدها في تصنيف بوث هي الدقة في التمييز لديه بين صور تجليات الراوي ، ولعل أهم إضافة للحقل السردى تتمثل في استعماله لمصطلح «الكاتب الضمني» تمييزاً له عن الراوي . غير أن البعد البلاغي الذي يحدد تصوره حال بينه وبين البحث عن قوانين عامة . وهو نفسه يصرح باستحالة ذلك . إن بوث ظل مشدوداً إلى الكشف عن طريقة التواصل بين الكاتب والقارئ وما يرمي إليه الأول من نقل قِيَمِهِ إلى الثاني بهدف التأثير عليه . ولهذا السبب تحدثنا في هذه النقطة «الرؤية السردية» عنه من وجهة نقدية ، وعلينا الآن أن نبحث في كيفية تعامل السرديين مع هذا المكون المركزي في الخطاب الروائي .

3 - الرؤية السردية والسرديات :

1.3. على غرار ما رأينا مع شتانزل عمل السرديون على طرح مفهوم الرؤية السردية من زاوية تختلف بهذه الدرجة أو تلك عن الطروحات السابقة . ومنذ أوائل السبعينات أمكننا الحديث عن نزوع علمي في تحليل الخطاب السردى . وأول باحث يواجهنا في هذا النطاق ستيفان تودوروف الذي حاول موقعة هذا المفهوم كمقولة سردية ضمن مقولتين أخريين جعلهما مدار تحليل الخطاب السردى بوجه عام ، والخطاب الروائي بوجه خاص .

في سنة 1966 قام تودوروف بالتمييز بين الحكى كقصة وخطاب . ومن خلال موازاته بين الجملة والخطاب على صعيد التحليل أبرز إمكان تحليل الخطاب السردى من جهة

الزمن والصيغة والجهة كمقولات للحكي انطلاقاً من استيحاء اللسانيات .

اعتبر تودوروف جهات الحكي (aspects) في معناها الأصلي الدال على الرؤية أو النظر، هي الطريقة التي بواسطتها تدرك القصة عن طريق الراوي، وذلك في علاقته بالمتلقي واعتبر أن قراءة عمل حكائي لا تجعلنا مباشرة أمام إدراك أحداثه وقصته إلا من خلال الراوي، وتبعاً لذلك فجهات الحكي تعكس العلاقة بين الهو (في القصة) والأنا (في الخطاب)، أو بمعنى آخر علاقة الشخصية والراوي .

يستعيد تودوروف تصنيف بويون للرؤيات مع إدخال تعديلات طفيفة ويحافظ على تقسيمها الثلاثي هكذا :

1- الراوي > الشخصية (الرؤية من الخلف) : حيث يعرف الراوي أكثر من الشخصيات .

2- الراوي = الشخصية (الرؤية مع) : وهذه الرؤية سائدة نظير الأولى وتتعلق بكون الراوي يعرف ما تعرف الشخصيات .

3- الراوي < الشخصية (الرؤية من الخارج) : معرفة الراوي هنا تتضاءل ، وهو يقدم الشخصية كما يراها ويسمعها دون الوصول إلى عمقها الداخلي ، وهذه الرؤية ضئيلة بالقياس إلى الأولى والثانية .

إن هذه الرؤيات الثلاث ليست إلا الإطار الأكثر ، تعميماً ، وإلا فيمكن التمييز ضمن كل منها بين أنواع فرعية ، كما أنها يمكن أن تتداخل أو تتعدد حول الحدث الواحد⁽¹¹⁾ .

2.3 وفي كتابه «الأدب والدلالة»⁽¹²⁾ يسترجع تودوروف الخطاطة السالفة نفسها ، لكنه لا يسميها هذه المرة بـ «جهات الحكي» ولكن «رؤياته» . ويقسمها إلى ثلاث رؤيات ، كما رأينا ، ويرددها بالحديث عن «سجلات الكلام» التي كان قد أسماها سابقاً بـ «صبيغ الخطاب» .

ما يمكن استنتاجه في عمل تودوروف هو أن مفهوم «الرؤية» بدأ يأخذ كامل أبعاده في تحليل الخطاب الروائي ، وهو بدوره يشدد على هذا العنصر ويبين أهميته في التحليل وقيمه الإبداعية منذ «لاكلو» في القرن الثامن عشر إلى الوقت الراهن ، وسيعمل لاحقاً على تطوير تصويره لهذه الرؤيات .

3.3 مع أوسبنسكي الباحث السوفييتي تطرح «وجهة النظر» بطرق جديدة وطموح كبير منذ بداية السبعينات ، وبخلاف تودوروف الذي يعتبر الجهات أو الرؤيات مقولة من مقولات الحكي ، نجد أوسبنسكي يرى أن «وجهة النظر» تتصل اتصالاً وثيقاً «بتوليف» العمل الفني

بصفة عامة . ولما كان هدفه صياغة مشروع نظري مرتبط بنمذجة الممكنات التوليفية ، من خلال ما يسميه «بويطيقا التوليف» ، فإنه انطلق من أجل ذلك من «وجهة النظر» ، ما دامت تتيح للفنان فرصة توظيف وجهات النظر وتنويعها داخل العمل الذي يتجسد ، على مستوى بنائه ، من خلالها⁽¹³⁾.

إنه معنى أكثر شمولية من المعنى السابق الذي رأيناه مثلاً عند تودوروف . وهذا المعنى هو الذي رأيناه تقريباً مع شتانزل وهو ينطلق من «المقامات السردية» ، ومع لينتفلت وهو ينطلق بدوره من «وجهة النظر» . ولما كانت «وجهة النظر» حسب أوسبنسكي تتعلق بالمواقع التي يحتلها المؤلف ، والتي انطلاقةً منها ينتج خطابه السردى ، فإنه يسعى في مشروعه النظري إلى معاناة هذه المواقع من خلال أربعة مستويات :

1 - المستوى الايديولوجي . (ideologique) .

2 - المستوى التعبيري . (Phrasiologique) .

3 - المستوى المكاني - الزماني . (spatio-temporéle) .

4 - المستوى السيكولوجي . (psychologique) .

وعلى أساس هذه المستويات يقيم ثنائية أساسية تتعلق بوجهة النظر الداخلية أو الخارجية . وبحسب استعمالات جاب لينتفلت ، فهو يوظفها أحياناً للإشارة إلى الموقع السردى لمركز التوجيه داخل أو خارج الفعل الروائي ، وأحياناً أخرى لتعيين عمق المنظور السردى المتجلي في الإدراك الداخلى أو الخارجى للفواعل⁽¹⁴⁾.

يمكننا أن نلاحظ من خلال هذه المستويات أنها تأخذ معنى مقولات الحكيم عند تودوروف ، وأن ما يرتبط منها بوجهة النظر أو الرؤية نجده بالضبط في المستوى الأخير (السيكولوجي) .

على صعيد المستوى الايديولوجي يتم التركيز على التقويم «الايديولوجي» ، من خلال «مواقع» مجردة تقع خارج الكتاب ، أو حسب رؤية شخصية موجودة في العمل المحلل . في الحالة الأولى نجدنا أمام وجهة نظر ايديولوجية خارجية حيث الراوى خارج القصة . أما في الحالة الثانية فالوجهة داخلية لأن الراوى شخصية مشاركة . إن التمييز هنا يتم على أساس التقابل بين داخل العالم الروائي وخارجه .

في المستوى التعبيري ، يبحث أوسبنسكي عن تحولات وجهة النظر ، والانتقال من وجهة نظر إلى أخرى كما يبحث في العلاقات التي يقيمها الراوى مع خطاب الشخصيات

ويحددها في وجهتي نظر ، في الأولى يأخذ الراوي وضع الملاحظ الموضوعي فينقل خطاب شخصياته بكل جزئياته حتى الصوتية منها . في هذا الوضع نحن أمام وجهة نظر خارجية . وفي الثانية يأخذ وضع المقرر الذي يتبنى وجهة نظر داخلية لأن الراوي هنا لا يركز على جزئيات الخطاب ولكنه يتدخل فيه عن طريق التفسير والتوضيح .

أما المستوى المكاني - الزماني فيعاني فيه موقع الراوي مكانياً وزمانياً من القصة وشخصياتها ، ويحدده بدوره بناء على تقسيمه إلى داخلي وخارجي . لكنه فيما يتصل بالمستوى السيكلولوجي ، وهو الذي يهتما بشكل أخص فيحدده من خلال أربعة أنماط سردية تقوم على أساس مقولتين سرديتين :

أ - وجهة نظر ثابتة أو متحولة .

ب - وجهة نظر داخلية أو خارجية .

في وجهة النظر الثابتة نجدنا حيال شكلين سرديين . في الأول كل الأحداث تقدم بشكل موضوعي ، لذلك فنحن هنا أمام وجهة نظر ثابتة وبتقديم ثابت خارجي ، وفي الشكل السردى الثاني يقدم كل حدث باستمرار من وجهة النظر نفسها بواسطة شكل إدراك الشخصية الوحيدة . لذلك فإن وصف الحالات الداخلية لا يمكن أن يكون إلا في تعالقه بهذه الشخصية . بينما الشخصيات الأخرى فلا ترى إلا من الخارج . إن سلوك الشخصية أ توصف من خلال إدراكه شخصية ب . إن الشخصية ب ، ذات إدراك خارجي في علاقتها بالشخصية أ وذات إدراك داخلي في علاقتها بنفسها .

وفي وجهة النظر المتحولة نجد الشكلين الثالث والرابع . يظهر الثالث عندما تتابع وجهات النظر ويقدم كل مشهد من وجهة نظر معينة ، لكن مختلف المشاهد تقدم من منظور أبطال مختلفين . ويقدم مثلاً لذلك من خلال الشخصية أ . من وجهة نظر الشخصية ب ، وبعد ذلك الشخصية ب من وجهة نظر الشخصية أ . لكن عندما يتم ذلك في آن واحد ، فإننا هنا نلامس الشكل الرابع والأخير حيث يمكن تصور مشهد واحد يقدم من خلال وجهات عديدة وفي آن واحد ، أو عندما يقدم ذلك من خلال الراوي الذي يؤهله موقعه للنفاذ إلى أفكار شخصياته وعواطفها .

من خلال هذا المستوى السيكلولوجي نجدنا أمام أربعة أشكال سردية كما لخصها ليتفلت :

1 - وجهة نظر ثابتة + إدراك خارجي .

2 - وجهة نظر ثابتة + استبطان شخصية + استظهار الشخصيات أخرى .

3- وجهة نظر متحولة متتابعة + استبطان شخصية متحولة + استظهار باقي الشخصيات .

4- وجهة نظر متحولة آنية + إدراك آني لشخصيات عديدة .

نعين من خلال هذا العرض كون أوسبنسكي حاول تقديم وجهة نظر متكاملة حول «وجهة النظر»، لكن أهم ملاحظة يمكن استنتاجها ما انتبه إليه لينتقلت وهو كون أوسبنسكي اهتم أكثر بالتحليل العملي لوجهات النظر أكثر من اهتمامه بإقامة نظرية نموذجية، وإذا كان هذا طموح لينتقلت، فإن أوسبنسكي قدم فعلاً مشروعاً قابلاً لأن يغتنى ويطور كما حاول ذلك لينتقلت نفسه انطلاقاً من الباحث نفسه .

4.3. مع «خطاب الحكيم» لجيرار جنيت نجدنا فعلاً أمام تقديم عملي لنظرية متكاملة للسرد . فهو ينطلق من قراءة كل التصورات السابقة، ومن خلال نقده إياها، يقدم مشروعاً منسجماً مع ما سبق أن رأينا بعض مقدماته في طرح تودوروف حول تحليل الخطاب السري باستيحاء التصور اللساني البنيوي فيما يتصل بـ «وجهة النظر» أو «الرؤية»، يلاحظ جنيت بدءاً طابع الخلط والابهام الذي هيمن في أعمال كل الباحثين السابقين بين ما يسميه الصيغة والصوت، أي بين من يرى؟ ومن يتكلم؟⁽¹⁵⁾ .

1.4.3. يكشف جنيت عن هذا الخلط في تصنيف كلينت بروكس وروبرت وارين اللذين لا تظهر عندهما «وجهة النظر» التي يسميانها «بؤرة السرد» إلا في خط عمودي حيث تكون إما محللة من الداخل أو مشاهدة من الخارج، والتي يخلطانها مع «الصوت» (هوية الراوي) في خط أفقي حيث يكون الراوي حاضراً كشخص في الحدث أو غائباً عنه، دون أن يضعاً أي فرق فعلي بين نقط التقاطع بين وجهة النظر الداخلية عند البطل الذي يحكي القصة في حالة الراوي الحاضر والعارف، والذي يحكي القصة كراو غائب، وبين وجهة النظر الخارجية حيث الراوي الشاهد يحكي قصة البطل في حالة الراوي الحاضر، والكاتب الذي يحكي القصة من الخارج في حالة الراوي الغائب .

ويوضح الشيء نفسه (الخلط) لدى شتانزل من خلال الروايات التي استشهد بها أن المقام السري الفعلي والمتكلم لا علاقة لهما بوجهة النظر باعتبار بطلي النموذجين المتقدمين يحتلان نفس موقع الرؤية . لكن الفرق بينهما يكمن في أن أحدهما راو حاضر، والآخر غائب عن القصة .

وفي إطار الكشف عن نفس الخلط يبرز تعقيد تصنيف فريدمان الثماني الأغاط فيعيد تلخيصها ليعتدئ الخلط واضحاً من خلال :

1- نمطان للسرد تتجلى منهما «المعرفة بكل شيء» بتدخل الراوي أم عدمه .

2- نمطان للسرد بضمير المتكلم : الأنا الشاهد والأنا المشارك .

3- نمطان للسرد بالمعرفة الكلية المتعددة أو الأحادية .

4- نمطان للسرد الموضوعي التام حيث الصيغة العرضية والتصويرية من جهة ، والتسجيل البسيط والتام بدون اختيار أو تنظيم من جهة ثانية .

يستنتج جنيت بعد هذا أن النمطين الثالث والرابع لا يختلفان عن بقية الأنماط إلا بكونهما مصاغين بالضمير المتكلم ، كما أن النمطين الأول والثاني (تدخل الكاتب أو عدمهما)، يرتبط فعلهما بالصوت لا بوجهة النظر . ثم ينتقل إلى «وين بوث» الذي ينطلق من التأكيد على قضايا الصوت في تمييزه بين الكاتب والكاتب الضمني والراوي «الممسر» وغيره متسائلاً إلى أي حد نجا بدوره من هذا الخلط ، منتقلاً إلى «برتيل رويبرجو» الذي يستعيد تصنيف «شتانتزل» مضيفاً إليه مقاماً سردياً رابعاً : الحكي ذو الأسلوب الموضوعي .

من هذا الكشف الذي قام به جنيت يستخلص أهمية مراعاة معطيات الصيغة والصوت عندما نحاول إقامة نمذجة للمقامات السردية ، لكن أن نخلط بينهما تحت إسم «وجهة النظر» فهذا شيء لا يمكن قبوله ، ويقدم نموذجاً مستساغاً قيمياً أقدم عليه «بويون» وهو يتحدث عن «الرؤيات» أو «تودوروف» عن الجهات أولاً والرؤيات بعد ذلك حيث تم تجنب هذا الخلط .

2.4.3. بناء على عمل بويون وتودوروف يقدم جنيت تصويره ، وذلك بعد استبعاد مفاهيم مثل «الرؤية» و«وجهة النظر» وتعويضها بـ «التبشير» الذي هو أكثر تجريداً ، وأبعد إحياء للجانب البصري الذي تتضمنه باقي المصطلحات . ويقيم بدوره تقسيماً ثلاثياً للتبشير :

1- التبشير الصفر أو اللاتبشير : الذي نجده في الحكي التقليدي .

2- التبشير الداخلي : سواء كان ثابتاً أو متحولاً أو متعدداً .

3- التبشير الخارجي : الذي لا يمكن فيه التعرف على دواخل الشخصية .

نلاحظ بجملاء كون جنيت يحافظ على نفس التقسيم الثلاثي ، لكنه يعمق هذا التقسيم وهو يجلي التبشيرات في علاقتها بعضها ببعض والتحويلات التي تعرفها داخل العمل الروائي . كما أنه من خلال حديثه عما يسميه بالخروقات المنعزلة يجلي ما يتصل بالإخبارات الزائدة أو الناقصة ثم يحلل كل منهما من خلال ربطه بالتبشيرات في علاقتها بالقاريء .

3.4.3. يوقع جيران جنيت حديثه عن التبشير ضمن المكون السردى الثاني «الصيغة» الذي يقسمه كما سبق أن رأينا في الفصل الثاني إلى «مسافة» و«منظور» ، بينما يدرس الفصل الثالث ما يسميه بـ «الصوت» . وفي تسجيلنا لهذه النقطة نود توضيح نقطتين هامتين. تتجلى الأولى في كون جنيت يختلف عن تودوروف الذي يعتبر «الرؤيات» مكوناً مستقلاً ، بينما يعطيها جنيت دوراً ثانياً إلى جانب المسافة ، وتبرز النقطة الثانية في كون تمييزه هذا تعرض للانتقاد ، كما أننا في تصورنا للرؤية السردية سنعتبرها مُكوّناً مختلفاً عن الصيغ كما حددناها ، وتتضمن الصوت على خلاف تصوره كما سنوضح .

5.3. في الطبعة الثانية لكتاب «البوطيقا» لتودوروف يعدل المفهوم ويطوره انطلاقاً من تصور جنيت ، لكن تودوروف يظل محتفظاً بصفة الرؤية مكوناً مختلفاً عن الصيغة ولا يدخل في إطارها ، وإن تحدث عنها في صلتها بـ «الصوت السردى» كما سنتبع ذلك في تحليلنا .

غير أن أهم إضافة يمكن تسجيلها في هذا النطاق انطلاقاً من «المعرفة» الذاتية أو الموضوعية التي نصبح نملكها من خلال الأحداث المقدمة .

إن هذه المعرفة أو هذا الإدراك يتعلقان معاً بالمدرّك والمدرّك كما يتقدمان لنا من خلال الإخبار وإن المدرّك يرتبط بالمعرفة الموضوعية والمدرّك بالذاتية . وهما معاً من خلال هذه المعرفة يتصلان بكمية الإخبار التي يدركها المتلقي ، إن الجانب الكمي يرتفع إلى ما يسميه بـ «اتجاه» عمل البناء نحو القاريء . أما الجانب الكيفي (كيفية الإخبار التي يتلقاها القاريء) فيسميه بـ «علم» أو معرفة القاريء . وهذا الجانب الثاني يميز ضمنه بين ما يسميه الاتساع أو زاوية الرؤية وما يسميه «بعمقها» وزاوية الرؤية يمكن تقسيمها قسمين: زاوية خارجية تتجلى في وصف الأحداث وتقديمها دون تعليق أو تأويل وداخلية يتم فيها تقديم أفكار الشخصية ودواخلها ، أما العمق فيتعلق بدرجة النفاذ إلى أعماق الشخصية وحتى لا شعورها الذي لا تدركه هي نفسها . وبعد أن يحلل مقطعاً من التربية العاطفية لفلوير يتحدث عن فروع الرؤيات من حيث الأحاديث والتعدد والثبات والتحول⁽¹⁶⁾ .

6.3. من القراءات الهامة لمشروع جنيت النظري بصفة عامة وحول «التبشير» خاصة ، نجد محاولة ميك بال التي سعت إلى إقامة نموذج جديد لنظرية التبشيريات ، من خلال قراءة ونقد مشروع جنيت⁽¹⁷⁾ . تنطلق الباحثة من التأكيد على ما بنى عليه جنيت تصوره السردى وهو يميز بين الصوت والصيغة ، معترفة بأنها كانت ضحية هذا الخلط على غرار الباحثين الذين انتقدتهم جنيت . معتبرة هذا الخلط والكشف عنه يميز بين عنصرين : ما قبل جنيت وما بعده ! وتبري بعد ذلك لتوضيح وجهة نظرها حول هذا التمييز انطلاقاً مما مارسه جنيت

تحت عنواني الصوت والصيغة .

سبق لنا في تقديم الفصل الثاني الخاص بالصيغة أن أوردنا جزءاً من انتقاد «ميك بال» لتصور جنيت وتقسيماته (8.2) ، وسنحاول الآن التركيز فقط على ما يرتبط بما أسماه جنيت بـ «التبثير» تحت عنوان «المنظور» .

1.6.3. تسجل «بال» أولاً أن جنيت رغم كونه يقدم «التبثير» بديلاً عن باقي المصطلحات الموظفة ، فإنه لا يقدم لنا أي تعريف له . لكن المصطلحات المستعملة مثل وجهة النظر - حصر المجال - الرؤية ، ليست مترادفة وتضيف جنيت دليل على ذلك . نعين ذلك - تقول بال - في أن النوع الأول (التبثير الصفر) والثاني (التبثير الداخلي) يأخذان معنى «حصر المجال» عند جورج بلان . إذ فيهما معاً نجد معرفة الراوي إما كلية أو مقتصرة على بعض الشخصيات ، وتبعاً لذلك فهناك في الحالتين شخصية «انطلاقاً منها» يقدم الحكوي ، هذه الشخصية نسميها المُبَار . أما النوع الثالث (التبثير الخارجي) فيتميز عن الثاني ، لأن الأمر لا يتعلق بحصر المجال ، ولكن بقلب الوظيفة ، هناك شخصيات مbare أيضاً ، لكن من الخارج . تخلص «بال» من وراء ذلك إلى استنتاج أن النوعين الأول والثاني يتصلان بالترهين السردى «من يرى؟» : ففي الأول يرى الراوي أكثر من الشخصيات . وفي الثاني يرى «مع» الشخصيات ، أما العلاقة بين الثاني والثالث فليست من الطبيعة نفسها . إذ في الثاني نجد الشخص المبار يرى ، لكننا في الثالث نجده يرى ، إن التمييز لم ينطلق من الترهينات التي ترى فقط ، ولكن أيضاً من «موضوعات» الرؤية ، ولو أن جنيت تضيف «بال» ميز بين «التبثير على» (focalisation sur) و«التبثير بواسطة» (focalisation par) لتجاوز المشاكل التبثيرية التي أثبتت بين علاقة «باسبارتو» و«فيلياس فوغ» (ص 113) .

2.6.3. وتلاحظ أيضاً أن جنيت في تمييزه يقول مثلاً : «الراوي يقول أكثر مما تعرف الشخصية...» ، في هذا التعبير يترابط القول والمعرفة أي الصيغة والصوت ، ومعنى ذلك أن تمييز جنيت بينهما يغدو أقل جذرية مما يبدو ، وبعد أن يستدرك أهمية هذا التمييز تلح على أن يتم ذلك لكن شريطة أن يعاضده تمييزاً آخر بين الذات والموضوع .

بإدخالها لهذين العنصرين تعيد «بال» النظر في الترهينات السردية التي كانت تتصل سابقاً بالترهين السردى الذي يبدو من خلال الراوي وتبدأ بتعيين أنواع الشخصيات في الخطاب السردى . وتبين بعد ذلك أن الشخصية في الخطاب تصبح قابلة لأن نأولها ونحكم عليها من خلال القراءة ، أي أنها تصبح «مقروءة» و«مرثية» للقاريء . إن القاريء «يرى» الشخصية بواسطة ترهين آخر يراها ، ومن خلال رؤيته إياها يريها للقاريء . تسمى «بال» هذا الترهين بـ «المُبَثَّر» الذي نجيب عنه من خلال سؤالنا «من يرى؟» . وهذا السؤال

المتعلق بـ «الصيغة» هو الذي يجب تحليله أولاً قبل الانتقال إلى الشخصية المرئية ، ولما كان صعباً تحديد «من يرى» بدون اعتبار الشيء الذي بواسطته تصلنا هذه الرؤية أي السرد ، كان علينا قبل ذلك معرفة «من يتكلم؟» ، وهذا سؤال «الصوت» : أي الترهين السردى في طور العمل وهو يقوده المؤلف «من يكتب؟» .

3.6.3. إن النظرية السردية اغتنت كثيراً بالتمييز بين هذه الترهينات ، إذ لم يبق الانتقال مباشراً من «المؤلف» إلى «الشخصية» وجنيت ترى «بال» لعب دوراً كبيراً في هذا . وتقدم لنا بعد ذلك هذه الترهينات كما تراها من خلال انطلاقها من ثنائية الذات والموضوع على النحو التالي :

1- ذات السرد : الراوي .

2- موضوع السرد : المسرود (المروي) .

3- ذات التبشير : المبشر .

4- موضوع التبشير : المبأر .

وهي ترى أنه عن طريق هذه الترهينات الأربعة يمكن تجاوز بعض المشاكل التي وقف تصور جنيت عن تجاوزها وحلها . وتحدث بعد ذلك عن كل ترهين على حدة .

تربط بال بين المبشر والمبأر محافظة على تقسيم جنيت التبشيري وذلك عن طريق إقامتها علاقة بين الراوي والمبشر وتعرضهما معاً للتحويل من سرد إلى آخر ومن تبشير إلى غيره ، وبهذا تحل «بال» مشاكل التمايز بين التبشرين الخارجى والداخلى ، كما أنها تقارب بين الصيغة والصوت من منظور جديد يراعى التمييز الذي أقامه جنيت ، وفي الوقت ذاته تبتعد عن التصور السابق الذي مَارَسَ الخلط بينهما .

7.3. عن طريق استفادته من نقد «بال» لجنيت ، ومن استلهامه لكل الآراء السابقة حول وجهة النظر، وعلى غرار العمل الذي قام به أوسبنسكي ، قدم لينتفلت من «وجهة النظر» «نموذجاً» نظرياً متكاملأ حول تحليل الخطاب السردى ، في هذا النموذج سعى لينتفلت في كتابه «محاولة لنمذجة سردية : وجه النظر»⁽¹⁸⁾ إلى تقديم تصور متكامل ومختلف عن التصورات التي استعرض أهمها وأغلبها حول الرؤية السردية وناقشها .

من خلال تمثله لعمل شتانزل عن «المقامات السردية» ونظرية أوسبنسكي حول «بويطيقا التوليف» ، ونظرية جنيت السردية والانتقادات التي وجهت إليها مَيَزَ لينتفلت بين شكلين سرديين هما براني الحكى (hétérodiégitique) وجوانيه (homo diégitique) . ومن خلال كل شكل سردي ميز بواسطة «مركز التوجيه» بين ما أسماه بـ «الأنماط السردية» التي

رأيناها مع شتانزل تحمل اسم الوسائط أو «المقامات» السردية، هذه الأنماط السردية هي النظامي (auktoriale) والفعلية (personale) والمحايدة (neutre).

بحث ليتنفلت هذه الأنماط السردية على صعيد كل شكل سردي من خلال مستويات أربعة هي : المستوى الإدراكي - النفسي والمستوى الزمني والمستوى المكاني والمستوى اللفظي . نلاحظ بجلاء كون هذه المستويات تضارع مستويات أوسبنسكي وإن كانت مختلفة عنها⁽¹⁹⁾ . وكما رأينا عندما تحدثنا عن الرؤية السردية عند أوسبنسكي ، نرى عند ليتنفلت ما يتعلق بـ «الرؤية السردية» يرتبط مباشرة عند الأخير بـ «المستوى الإدراكي النفسي» ، كما نجده عند أوسبنسكي مرتبطاً بالمستوى السيكولوجي .

يدرج ليتنفلت في هذا المستوى ما يسميه بالمنظور وعمقه ثم أخيراً الصيغة . ويحلل هذا المستوى من خلال كل نمط سردي في كل شكل سردي ، ويستعيد ليتنفلت النقد الذي وجهته بال حول ذات التبشير وموضوعه في إطار التمييز بين التبشيرات لا ليميز كما فعلت بين المبث والمبأر . ولكن ليكشف أن جنيت وغيره من الباحثين لم يميزوا بين المنظور السردى وعمقه . إننا فيما يتصل بالذات المدركة نتحدث عن المنظور ، لكننا في الرؤية من الخارج مع بويون وفي التبشير الخارجي مع جينت لا نتحدث عن الذات المدركة ، ولكن عن «الموضوع المدركة» الذي سمته بال «المبأر» . ويراها ليتنفلت يتصل «بعمق المنظور» ، هذا العمق الذي يصنفه ليتنفلت إلى إدراك خارجي أو داخلي محدود أو غير محدود . وهذا العمق شأنه في ذلك المنظور يختلف باختلاف الأنماط السردية الخمسة .

وهكذا ففي الشكل السردى الأول براني الحكى نجدنا أمام :

- 1 - منظور الراوى (الناظم) وإدراكا خارجي وداخلي غير محدودين (العمق) .
- 2 - منظور الراوى - الفاعل وإدراكا داخلي وخارجي محدودان .
- 3 - تبشير الكاميرا ، وإدراك خارجي محدود . أما الإدراك الداخلي فمستحيل على مستوى العمق .

وفي الشكل السردى الثانى جوانى الحكى نحن أمام :

- 1 - منظور سردي للراوى - الشخص (الناظم) وإدراك خارجي وداخلي موسعان للراوى - للشخص .
- 2 - المنظور السردى للشخص - الفاعل ، وإدراك خارجي وداخلي محدودان على مستوى العمق .

8.3 . مع «بيير فيتو» نستعيد أطروحات جينت حول التبشير والتطوير الذى مارسه ميك

بال، من خلال محاولته قراءة تصور بال والذهاب به بعيداً في دراسته التي أسماها «لعب التبشير»⁽²⁰⁾

انطلق أولاً من إعادة طرح المشكل مع جنيت والتعديلات التي أدخلتها بال وهي تسجيل عدم تجانس تصنيف جنيت، ذاهبة إلى التمييز بين ذات التبشير وموضوعه، وفي موضوع التبشير تميز بين «المبار المدرك» وهو المبار من الخارج (ما يوازيه عند جنيت التبشير الخارجي)، «والمبار غير المدرك» الذي يمكن أن يُدرك فقط من الداخل. وفي هذه الحال، نجدنا مع تصور ميك بال أمام موضوعين للتبشير خارجي وداخلي.

أما التبشير بواسطة الذات، فيتجلى في التبشير الداخلي انطلاقاً من «وجهة نظر» شخصية ما. وسيقابله التبشير الصفر أو اللاتبشير حيث لا يقدم أي تحديد للمنظور. وفي هذه الحالة يمكن الذهاب إلى أن سلطة التبشير يقوم بها ويعوضها الترهين السردى الذي يظهر فيه أثر الراوي أو «وجهة نظره».

يسجل «فيتو» أيضاً من خلال وصوله إلى هذه النقطة أن «بال» تخلط بين ما يتصل بالصيغة (التبشير) والصوت (السرد)، ما دامت تقوم بربط وظيفتين متميزتين هما وظيفة الراوي ووظيفة المبرر. وليتجاوز فيتو هذا الخلط يذهب إلى أن التبشير الذات يمكن أن يكون موجهاً (délégué) أو غير موجه بواسطة الترهين السردى نحو شخصية ما.

وهكذا يقدم لنا «فيتو» تصنيفاً يضم أربعة مفاهيم مزدوجة.

2.1. تبشير ذاتي (غير موجه) وتبشير ذاتي (موجه).

4.3. تبشير موضوعي داخلي وتبشير موضوعي خارجي.

ولما كان هذا التصنيف لا يضم كل العلاقات بينهما فهو يضمهما إلى بعضهما البعض من خلال هاتين القاعدتين المركزيتين:

1 - كل مبشر غير موجه يطابقه المبار الداخلي والخارجي معاً.

2 - كل مبشر موجه لا يطابقه إلا المبار الخارجي.

ولخص «فيتو» بعد ذلك هاتين القاعدتين في هذا الشكل:

المبار	المبشر
← مبار داخلي	مبشر (غير موجه)
← مبار خارجي	مبشر (موجه)

بإدخال مصطلح (اللاتوجيه) يرى «فيتو» يحل العديد من المشاكل من بينها إستعمال

الراوي العارف بكل شيء ويحل أيضاً الخلط الذي وقعت فيه «بال»، إن المبثر اللاموجه لا يرى فارضاً «حصر مجال» خاص به أو «وجهة نظره» مسبقاً سواء كان هذا كميّاً أو كيفيّاً، كما أنه في علاقته بالمبأر يعطيه هذا (اللاتوجيه) إمتياز الراوي - المبثر، فينتقل من خارج شخصياته إلى داخلها، إنه ليس إلا شاهداً، يصف من الخارج، ويقدم لنا أقوال الشخصيات بشكل مباشر أو غير مباشر.

يقوم «فيتو» بعد ذلك بإعطاء صورة نهائية عن «نموذجه» وهو يتحرك في إطار «لعبة التبثير» من خلال ضبطه لمختلف أنواع التحولات التي يمكن أن يعرفها التبثير على النحو التالي:

«يمكن للمبثر اللاموجه أن يتطابق مع المبأر الخارجي على «س»، ويتطابق مع مبأر داخلي على «س» الذي يمكن أن يأخذ شكل المبثر الموجه إنطلاقاً من «س» إلى المبأر الخارجي على «ص». (ص 362).

ويحاول التدليل على ذلك بدءاً من تحليل ما يمكن أن نسميه «مثال التبثير» الذي جاء به جنيت حول علاقة باسبارتو بفيلياس فوغ، وناقشته بال أيضاً ليتنقل بعد ذلك إلى أمثلة أخرى.

9.3. من الأرضية نفسها تثير شلوميت ريمون كينان قضية التبثير في الفصل السادس من كتابها «المتخيل السردى»، من خلال مقدمة هامة تعونها بعنوان دال جداً: «التبثير و/ أو نقيض السرد»⁽²¹⁾.

تنطلق شلوميت بدورها من المصطلح وتبين اقتناعها بـ «التبثير» وإن كانت تختلف مع جنيت في تحديدها إياه. وتثير أيضاً «الفتح» الجنيتي (نسبة إلى جنيت) حول التمييز بين الصيغة والصوت. ونظير ما ذهبت إليه «بال»، تلح على أهميته، وإن كانت ترى أيضاً بأن الترهينين (من يرى ومن يتكلم) من الممكن أن يقوم بهما شخص واحد، يكون في آن راوياً ومبثراً. وتفسر كون الخلط الذي مورس سابقاً يعود إلى إزدواج الوظيفتين في العمل السردى. وتدعو أخيراً إلى أهمية التمييز بينهما للضرورة المنهجية، وحين نقوم بالربط بينهما يجب التدقيق في ذلك (ص 72).

تتفق شلوميت مع النقد الذي وجهته بال لجنيت وتميز بين المبثر (ذات التبثير) والمبأر (موضوع التبثير). وانطلاقاً من هذا التمييز تقيم ما تسميه بـ «أنماط التبثير» من خلال معيارين أساسيين هما: الموقع المرتبط بالقصة ودرجة الحضور.

حول النقطة الأولى تسجل أن التبثير يمكن أن يكون داخلياً أو خارجياً بالنسبة للقصة. في التبثير الخارجي نجدنا أمام الراوي - المبثر الذي تكون المسافة وبينه وبين الشخصية

بعيدة. أما التبثير الداخلي فيتم من داخل الأحداث المقدمة من خلال الشخص - المبثر.

وبما أن التبثير في علاقته بالمبثر يكون داخلياً أو خارجياً بالنسبة للقصة، فإن المبثّر يمكن أن ينظر إليه من الخارج أو من الداخل. يدرك المبثّر من الخارج عندما يكون الإقتصار على سلوكه وأفعاله، وعكس ذلك في المبثّر الداخلي عندما يقدم لنا من خلال أحاسيسه وأفكاره.

وحول درجة الحضور تبين أن التبثير يمكن أن يثبت من خلال السرد، وأن يتناوب التبثير مبثّران مهيمنان، كما أنه يجب التمييز بين التبثير الثابت أو المتغير والمتعدد.

لكن شلوميت لا تقف عند حد الحديث عن التبثير كما رأينا مع جنيت أو بال أو فيتو، ولكنها تعطي للتبثير أبعاداً غير البعد الذي يكون الوقوف عنده عادة، وتسمّي هذه الأبعاد بـ «أوجه التبثير»، وهذه الأوجه هي: الإدراكي والسيكولوجي.

10.3. يستعيد جيرار جنيت سنة 1983 تصويره السردى الذي أقامه سنة 1972 في كتابه خطاب الحكى، معدلاً ومنقحاً على ضوء الإنتقادات الكثيرة التي وجهت إليه ومناقشاً إياها في كتابه «خطاب الحكى الجديد» (22).

فيما يتعلق بـ «التبثيرات»، عاد الباحث إلى أهم القضايا المرتبطة بالتمييز بين الصيغة والصوت ومناقشة بال له حول تصنيفه غير المتجانس. حول هذه النقطة ألح جنيت على أنه ليس هناك شخص مبثّر وآخر مبثّر. والمبثّر لا يمكن أن يطبق إلا على الحكى ذاته. أما المبثّر فإن كان يطبق على أحد، فإنه لن يكون إلا على من يثر الحكى: أي الراوى، وإذا تجاوزنا مجال التخيل قلنا الكاتب نفسه باعتباره هو الذى يعطى هذه السلطة أو لا يعطيها للراوى (ص 48).

ويحدد بعد ذلك التبثير بأنه «حصر المجال» بمعنى اختيار الإخبار السردى في علاقته بما يسمى في التقليد السردى بـ «المعرفة المطلقة» الغامضة ومصدر هذا الاختيار يتم من خلال ما يسميه «المركز» المعين موقعه (foyer situé). وهكذا ففي التبثير الداخلى يلتقي هذا المركز مع شخصية تصبح «ذات» التخيل لكل الإدراكات بما فيها هذه الذات نفسها كموضوع للإدراك (ص 50).

أما التبثير الخارجى فهو الذى يقع فيه المركز فى نقطة ما من العالم المحكى. وهذه النقطة يختارها الراوى، وهى خارج أى شخصية. ومن خلالها يستحيل النفاذ إلى أعماق الشخصية.

وحول العلاقة بين الصيغة والصوت، يبين أن هذا الفصل تعرض للإنتقاد أكثر من

غيره، مثله في ذلك مثل التبثيرات التي أسالت مَدَاداً زائداً. وإذا كانت «نظرية التبثير» تعميماً لما عرف بـ «وجهة النظر»، فإن المستويات السردية «ليست إلا تنظيماً لقولة تقليدية حول «التضمن». وفي المستويات السردية حدد جنيت علاقات الحكّي بعضه ببعض المتعلق بهذه الضمائر أو العلاقات: خارج الحكّي (extradiégétique) وبرانايه (hetérodiegétique)، وداخل الحكّي (interdiégétique) وجَوَائِيه (homodiégétique)، رد على بعض الإنتقادات الموجه إليه حول علاقات الحكّي الأول والثاني وحول «الميتاحكي» (ص 57).

وبصدد كثرة الآراء والنماذج المطروحة بخصوص علاقات الصوت بالصيغة وفق التصور الجديد الذي دشن مع جنيت يثير كون هذه العلاقة هي التي صاغها شتانزل من خلال ما أسماه «المقامات السردية» التي طرحها منذ 1955، وظل السرديون الفرنسيون غير مهتمين بها كما لاحظت ذلك دروين كون وهي تقارن بين شتانزل التركيبي وجنيت التحليلي. يقارن جنيت بين المقامات السردية عند شتانزل بتصوّر حول الصيغة والصوت من خلال الشكل التالي :

1 - المقام النظامي : براني الحكّي غير المبّار.

2 - المقام الفعلي : براني الحكّي ذو التبثير الداخلي .

3 - المقام المتكلم : جَوَائِي الحكّي .

ويلاحظ جنيت أن شتانزل بعد 1955 سيعدل خطاطته لهذه لعدم كفايتها، لكن هذه المرة وفق ثلاث مقولات أساسية وهي الضمير السردية (متكلم / غائب)، والصيغة (وهي تعني تقريباً عنده حسب دُوريت كون «المسافة» عند جنيت) والمنظور (وهو المنظور أو التبثير عند جنيت). لكنه يلخص إلى أن أهمية شتانزل الفعلية تكمن في ممارسته التحليل، وليس في تجريداته أو مقولاته التي يريدّها كلية.

وبعد أن يعرج على عمل لينفلت ويكشف عن خطاطتيه حول البراني من جهة والجواني من أخرى، وكيف أنّهما منفصلتان عن بعضهما البعض (ص 82)، مُبرِّزاً يقوم بالربط بين مقولتين هما الضمير السردية الذي تتحدّد من خلاله علاقة الراوي بالقصة، والمستوى الذي يقع فيه (خارج الحكّي أو داخله)، وذلك بهدف ضبط «الممكنات السردية» من خطاطة واحدة على الشكل التالي :

داخل الحكي			خارج الحكي			المستوى العلاقة
الخارجي	الداخلي	الصفري	الخارجي	الداخلي	الصفري	التبثير
×	الطامح العاشق		القتلة	صورة الفنان	توم جونس	براني الحكي
×	قانون ليسكو	×	الغريب؟	الجوع	جيل بلاس	جواني الحكي

حاول جنيت هنا كما نلاحظ أن يربط بين العلاقة والمستوى، وذلك بإدخال «التبثير» أيضاً وفق تصنيفه الثلاثي. لكن الملاحظ أيضاً هو صعوبة ملء بعض الخانات، وذلك بصعوبة إنجاز ذلك على الشكل المطلوب، وهنا طبعاً لا يعني إستحالة ملئها. لكن ما ينتهي إليه جنيت بعد ذلك هو صعوبة إنجاز الخطاطة النهائية والمطلقة لأن الأساسي حسب وجهة نظره ليس هو أنواع العلاقات الرابطة بين المستويات والعلاقات في أي جزء منها، ولكنه مبدأ الربط ذاته، لأنه لا يمكننا أن نحدد مسبقاً أن اختيار هذا الصوت يؤدي إلى إختيار هذه الصيغة أو العكس. وللقيام بمثل هذا العمل ينبغي التريث الشديد، وإلا كنا ضحايا العجلة والتسرع.

11.3. في مقالة «لساندر بيريزوزي» تحت عنوان «السرديات وقضية الكاتب»⁽²³⁾. يتم التذكير بكل المشاكل التي أثارها «التبثير» باعتباره أهم مفهوم مركزي تقوم عليه السرديات، ويركز بالدرجة الأولى على آراء جنيت وميك بال. لكن الأطروحة التي يدافع عنها البحث هي ضرورة حضور «الكاتب» في التحليل كـ «ترهين كتابي».

إن الكاتب هو مصدر كل تبثير كيفما كان نوعه، وإنه هو الذي يوظف كلاً من الراوي والمبثّر لغايات ومحددة وخاصة. ومن خلال مناقشته لآراء جنيت وبال حول التبثير أو الصوت السردى ينتهي إلى أن بين التبثير الداخلي والخارجي (في مثال تناقشه بال)، لا نجدنا نتقل من مستوى إلى آخر ولكننا نمر بشكل تدريجي من طريقة لـ «رؤية الكاتب» إلى طريقة أخرى. (ص 514). ثم يناقش بعد ذلك بال في انتقاده لجنيت الذي يرى أن تصنيفه منسجم، على اعتبار أنه لا يمكن أن يكون تبثير «على»، دون أن يكون «بواسطة»، ليخلص إلى إن قضية الراوي في علاقته بالكاتب على السرديات أن توليها الإهتمام اللازم. إن السرديات في تركيزها على البحث عند الإيهام (illusion) الأدبي، دون بحثها عن وضع الذات - الكاتب التي هي وراء هذا الإيهام تظل حبيسة دائرة سحرية. وبدون تطور السرديات في هذا الإتجاه فإنها ستظل بعيدة عن تحليل مختلف عناصر أو ترهينات الخطاب السردى.

12.3. لاحظنا من خلال عرضنا لمختلف الآراء حول «وجهة النظر» أو «الرؤية» أو «التبشير»، ما كنا قد أشرنا إليه في مستهل هذه المقدمة. فهناك تعدد في المقاربات وفي النماذج. كما أننا رأينا، أنه كلما ابتعدنا زمنياً، عن البدايات، كلما تعرض المفهوم للتحوّل. والتغير والغنى والتعقيد والوضوح. لكنه الوضوح المفتوح على استيعاب النص غير المكتوب بعد، وعلى النص الذي لم يعتبر وظل مغيباً. وهذا ما يؤدي إلى تأكيد قولة جنيت بأن كل نهاية بداية. فكلما انتهينا معنى ذلك أننا لم نبدأ بعد. وهذا ما جعل السرديات تطرح الآن من القضايا أكثر من التي ساهمت في إنضاجها وبلورتها كي لا نقول في حلها... وهذا طبيعي في مجرى تطورها كمجال حديث العهد، بالإضافة إلى كونها تشغل على «موضوع» شديد الخصوبة والتحول والتعقيد (الخطاب السردى).

وإذا كان هذا حال القضايا التي أثرت ونوقشت في الغرب، وما تعرفه من تعدد وتضارب في الإطار النظري الذي نتحدث عنه، فأجدر أن لا نتحدث عن شيء يتصل بمثل هذه القضايا في الدراسات الغربية ضمن الإطار نفسه. وشخصياً لا أعرف وأتمنى أن يكون هذا عن جهل، وليس بناء على واقع - من يشتغل - عربياً في هذا الإطار، ويطرح نظير هذه المشاكل والقضايا، ويساهم، إلى هذا الحد أو ذاك، في بلورتها وتطويرها وإغنائها من خلال تحليل المتن السردى وبنفس الهواجس النظرية والعلمية التي لمسناها في عرضنا لمختلف وجهات النظر عند مختلف السرديين.

إن لي شقيقاً - إذا كان لا بد منه - في ما أقدمت عليه في الفصلين السابقين وفيما سيلي، لأنني أتحدث فوق أرضيتين مختلفتين تكويناً وطبيعة: النظريات السردية الغربية المتعددة والمتناقضة، والرواية العربية. فكيف يمكن تحديد «الرؤية السردية» من وجهة نظرنا، متموقفين من كثرة الآراء والنماذج، ومستفيدين مما أنجز، متخذين لنا تصوراً نطلق منه في تحليل المتن السردى الذي ندرس في هذا البحث، وقادراً على أن يتطور ويتبلور ليصبح نموذجاً نظرياً له كفايته العلمية والعملية. إنه طموح أكبر من ندعي قدرتنا على الاضطلاع به، لكننا نحاول.

4. محاولة لتحديد «الرؤية السردية» في الخطاب الروائي:

1.4. لاحظنا مع أسبنسكي (1970) وشتانزل (1975/55) ولتفلت (1981) أنهم ينطلقون من «وجهة النظر» كمقولة مركزية تستوعب مختلف المقولات أو المستويات أو المكونات. وانطلاقاً من مركزيتها تم تقديم النموذج السردى، الذي لا تمثل فيه «وجهة النظر» بمعناها الضيق إلا جانباً في مستوى (المستوى السيكلوجي). ولاحظنا أيضاً مع تودوروف (1966 - 1973) أن الجهة أو الرؤية مقولة أساسية ضمن باقي مقولات الحكى الثلاث (الزمن - الصيغة). ومع جنيت (1972 - 1983) نجده بدوره يقيم تقسيماً ثلاثياً لمقولات الحكى وهي:

الزمن - الصيغة - الصوت . لكنه يقسم الصيغة إلى جانبين مركزيين هما المسافة والمنظور. وضمن المنظور يتحدث عما يتصل في التقليد السردى منذ لوبوك بوجهة النظر والرؤية، وإن كان يسميه «التبشير» .

بالنسبة لي أموقع «الرؤية السردية» إلى جانب باقي المقولتين الأخريين كما سبق أن حللتهما وهما: الزمن والصيغة. وفي الفصل المتعلق بـ «الصيغة»، بينت أنني سأقتصر على ما أسماه جنيت بـ «المسافة» . وأن ما يتصل بالمنظور سأدخله في إطار المقولة الثالثة: الرؤية السردية.

إنني في تحديدي لهذه المقولات أشاطر تودوروف تقسيمه. وذلك لسبب بسيط هو أنني أرى أن هناك علاقة وثيقة جداً بين «المنظور» و«الصوت» . . هذه العلاقة هي التي انتهت السرديات إلى تأكيدها وهي تعي - الآن - درس جنيت التمييزي بين الترهينين: من يرى؟ ومن يتكلم؟ ولما كان التمييز ذا طبيعة منهجية وإجرائية، فإن عزل المنظور عن الصيغة كما مارست ذلك في تحليلي يؤكد هذا الطرح الذي يلح عليه، وإن لأغراض أخرى بول ريكور (1984) وهو ير أن العلاقة بين «وجهة النظر» أو «التبشير» وطيدة بالصوت السردى⁽²⁴⁾.

في الصيغة تحدثنا عن طريقة تقديم القصة - دون أن نركز بشكل أساسي على الراوي أو على موقعه الذي يحتله في إرسالها. كان همتنا في هذه النقطة إبراز تلك الطريقة من خلال الوقوف على الخطابات المستعملة بغض النظر عن المرسل سواء كان راوياً أو شخصية. لذلك نحينا التمييز الشائع بين «حكي الأقوال» و«حكي الأحداث» ضمن حكي الشخصيات أو خطاباتها. وحاولنا الانطلاق من التمييز بين «السرد (أو العرض)»، ومن خلالهما أقمنا نمذجة للخطابات الممكنة سواء اتصلت بالراوي أو الشخصيات انطلاقاً من قاعدة «تبادل الأدوار الحكائية أو السردية». وسيفيدنا هذا الطرح كثيراً للبحث في أبعاد الصيغ الخطاب (المتعاليات والنصية). كان الفصل كما مارسناه ذا طبيعة منهجية ونظرية معاً.

أما في الرؤية السردية، وبعد أن ميزنا الصيغ، فيمكن أن نتحدث عن «المتكلم» سواء كان راوياً أو شخصية. فنحدده كصوت سردي (من يتكلم) وكموقع من خلاله يتم «الكلام» أو «الرؤية» أو هُما معاً، وذلك بطبيعة الحال بوعي التمييز بينها كما مارس ذلك جنيت نفسه سنة 1983، وكما بيانه هنا في (10.3). لذلك فإننا حين نستعمل «الرؤية السردية» كمقولة مركزية، نحملها بما يتصل بوضع الراوي وموقعه في إرسال القصة. وذلك من خلال ربط ما يتعلق بـ «الضمير السردى» و «المستوى السردى» كما حددهما جنيت⁽²⁵⁾، من جهة، وما يتعلق بما أسماه في الصيغة بـ «التبشير» من جهة كما لجأ إلى ذلك هو أيضاً في خطاب الحكي الجديد سنة 1983. وإذا استعمل «الرؤية»، فإنني أضمنها كل الأبعاد، التي ليس «البعد البصري» الذي حاول

جنيت تجنبه إلا واحداً منها. ولعل فعل «رأى» في اللغة العربية محمل بكل هذه الأبعاد التي سنحاول توسيعها في حديثنا عن «النص» في الكتاب الثاني حول «انفتاح النص الروائي».

2.4. وكتحصيل، أجدني هنا أؤكدُ بدون مواربة أنني أنطلق من الربط بين الرؤية والصوت، كما أنني أنطلق من ترابط السرد والتبثير، مع إدراك الفروقات البسيطة بينهما. وفي هذا الإطار أستنتج مع جنيت في رده على «بال» وهي تفرق بين المبثر والمبار، أن كل ما يقدم في الحكوي أو من خلال السرد فهو مبار. لذلك فإنني في تصنيفي للتبثيرات أو الرؤيات عموماً سأجتنب ما أسماه ب «التبثير الصفر» أو «اللاتبثير»، إذ أنني أرى أن هذا المصطلح لا يعمي «عدم وجود التبثير»، ولكنه يعني «نوع» أو «درجة» حضوره بالقياس إلى التبثير الداخلي أو الخارجي.

3.4. انطلاقاً من هذين المفترضين اللذين أنطلق منهما، أحاول الآن تقديم تصور للرؤية السردية أستفيد فيه بالدرجة الأولى من جنيت (1983)، ومن تمييز «بال» وشلوميت، بين المبثر والمبار، وإن كنت أقف مع جنيت في ردّه على الأولى. لكنني أرى أن هذين الترهينين سيساعداننا كثيراً على تلمس العديد من الجزئيات والتفاصيل وتجسيدها أكثر من خلالها، في بعض مصطلحاته كما أستفيد من لينتفلت.

وتبعاً لذلك أجدني أولاً أنطلق من التمييز - على غرار كل السرديين - بين ما أسماه لينتفلت ب «الشكل السردى»، الذي نرصد فيه العلاقة بين الراوي والقصة، حيث نجدنا أمام شكلين أساسيين:

1 - في الأول: الراوي غير مشارك في القصة وهو «ما أسميه «براني الحكوي» الذي سماه جنيت (hétérodiégétique).

2 - في الثاني: الراوي مشارك في القصة التي يحكي وهو ما نضعه تحت إسم «جواني الحكوي» مقابل (homodiégétique). نستعمل البراني والجواني بدون الحمولة التي أعطاها إياهما عثمان أمين في فلسفته الذاتية.

وفي الشكلين السرديين نكون نرصد العلاقة العامة بين الراوي والقصة، ولما كان هذان الشكلان عامين جداً، فإننا سنسمي «الصوت السردى» التجليات المتحققة من خلال التحولات أو التغيرات السردية داخل القصة أي ما أسميناه جنيت ب «المستوى السردى»، حيث يختلف حكوي عن آخر من مستوى علاقة بعضهما ببعض. فيما أسميناه، «الصوت» نجدنا نسجل مختلف الرواة في علاقتهم بالقصة من حيث المستوى، والتي قسمها جنيت إلى داخل الحكوي (intradiégétique) وخارج الحكوي (extradiégétique) ولما كنا نحدد «وضع الراوي» في آن بواسطة المستوى السردى خارج الحكوي / داخله بالقصة (براني الحكوي /

فيمكننا تجسيد ذلك من مختلف العلاقات بينهما⁽²⁶⁾ من خلال قولة جنيت هذه التي يلحقها بجدول يبين مختلف العلاقات بينهما كمستوى وعلاقة، فإننا نذهب - من جهتنا - إلى تحديد الممكنات السردية المتجلية من خلالهما على صعيد الرواة من خلال تعيين أربعة أصوات في علاقتها بالشكلين السريدين على النحو التالي:

1- الشكل السريدي: البراني الحكوي يضم الصوتين:

أ - خارج الحكوي، وهو الذي يحكي قصة غير مشارك فيها، ومن الخارج. وسنسميه على غرار لينتفلت، بالناظم الخارجي.

ب - داخل الحكوي، وهو الذي يحكي قصة غير مشارك فيها، ولكن من خلال شخصية تظل بينهما مسافة. وسنسميه بالناظم الداخلي.

2- الشكل السريدي: الجواني الحكوي ويضم الصوتين:

أ - داخل الحكوي: وفيه تمارس الحكوي الشخصيات وسنسميه الفاعل الداخلي، تمييزاً عن الفاعل الذاتي (autodiégétique).

ب - الحكوي الذاتي: وفيه تمارس الحكوي شخصية مركزية وهو الفاعل الذاتي، ويرى جنيت أنه تنوع على الجواني الحكوي.

انطلاقاً من هذه «الأصوات» السردية يمكننا أن نجلي من خلالها أو من علاقاتها أو تداخلاتها «أصواتاً» فرعية أخرى. ويمكننا تلخيص علاقة الشكل بالصوت من خلال هذا الشكل:

1- براني الحكوي }
الناظم الخارجي .
الناظم الداخلي .

2- جواني الحكوي }
الفاعل الداخلي .
الفاعل الذاتي .

4.4. وفي بحثنا عن الرؤية السردية سنستعمل مفهوم التبثير بمعنى «حصر المجال» من خلال إشتغال «الصوت السريدي» كراو ومبثر في آن أي كذات للتبثير. هذه الذات (المبثر) تكون إما داخلية أو خارجية، كما حددنا أعلاه، ونفس الشيء يكون (المبأر) موضوع التبثير (سواء كان شخصية، أو حدثاً أو مكاناً...). ومن خلال نوعية العلاقة التي يقيمها المبثر مع المبأر يمكن أن نتحدث عن «المنظور السريدي» مكان التبثير الذي نحيله إلى نوعية الشكل، و «عمق المنظور» الذي نحيله إلى نوعية «الصوت» وهكذا ففي:

- 1- الناظم الخارجي : يكون المبثر برانياً ويُقدّم المَبَّار من الخارج . لذلك يكون المنظور برانياً وعمقه خارجياً.
 - 2- الناظم الداخلي : يكون المبثر برانياً، ويقدم المَبَّار من الداخل بذلك يكون المنظور برانياً وعمقه داخلياً.
 - 3- الفاعل الداخلي، يكون المبثر جوانياً، ويقدم المَبَّار من الذات لذلك يكون المنظور جوانياً وعمقه داخلياً.
- ومن خلال العلاقة بين المبثر والمَبَّار (المنظور أو التبشير وعمقه) يمكننا تحديد ما «نسميه الرؤية السردية».

وهكذا سنصبح أمام الرؤيات السردية التالية :

- 1- رؤية برانية خارجية : وهي تقابل عند جنيت التبشير الصفر.
 - 2- رؤية برانية داخلية : وهي تقابل عند جنيت التبشير الخارجي .
 - 3- 4- رؤية جوانية داخلية ورؤية جوانية ذاتية : وهما تقابلان عند جنيت التبشير الداخلي .
- بقي توضيح المقصود بنعت العمق بالداخلي أو الخارجي أو الذاتي . إن عمق المنظور كما حدده لينتقلت يتصل بدرجة الإدراك هل هو خارجي أو داخلي محدود أو غير محدود . لكي أرى أن نعتة إياه بالداخلي أو الخارجي كاف للتدليل على نوعيته ، وإلا فصفة الرؤية ستصبح طويلة جداً . ولذا وجب التنبيه . وفي التحليل يجب التركيز على صفة هذا العمق بدقة .
- ولو أردت إعادة كتابة هذا التصور مستعيراً خطأ طة جنيت (1983) التي أثبتناها في (10.3) مع تعويض المستوى بالشكل والعلاقة بالصوت سنجدنا أمام الشكل التالي :

الشكل الصوت		برّاني الحكي		جوّاني الحكي	
الرؤية السردية	برّانية خارجية	برّانية داخلية	جوّانية داخلية	جوّانية ذاتية	
خارج الحكي	ناظم خارجي				
داخل الحكي		ناظم داخلي	فاعل داخلي		
ذاتي الحكي				فاعل ذاتي	

نلاحظ أن نقط التقاطب تقع بين الناظم الخارجي والفاعل الذاتي، وأن الناظم الداخلي والفاعل الداخلي يقعان في نفس المستوى: وفي إطار التدخلات يمكن أن نملاء الخطاطة، ونوعية النصوص هي التي تمدنا بذلك. إن أي تصور نظري قابل للتعديل والتطوير والإغناء. لذلك لا يمكنني الذهاب بعيداً في تحليل هذه الخطاطة أو مناقشتها بمقارنتها أو إبراز إختلافها أو اتفاقها مع غيرها لأن ذلك يخرج بنا عما نحن بصدده. وستتاح لنا فرصة ذلك خارج هذا البحث. وأن لنا الأوان لإختبارها ومعاينة مدى كفايتها وشموليتها من خلال المتن الذي نشغل عليه.

قبل ذلك، لا بد من التذكير إننا نقوم بتحليل جزئي وآخر كلي. في الأول نقوم برصد وحدات نص الزيني بركات. وفي الثاني نقارب المتن المدروس هنا بوجه عام. لذلك سيكون علينا فيما يتصل بالتحليل الأول، الوقوف عند مختلف الرؤيات السردية في خطية الخطاب لرصد تحولاتها وطرائق إشتغالها، ولذا لا بد من توضيحها مثل:

- المؤشرات السردية التي نقصد بها الأدوات التي تنتقل بها من رؤية إلى أخرى، أو تجعلنا تنتقل من رؤية إلى غيرها.

- التبدلات السردية: ونقصد بها الرؤيات في حال إشتغالها وتجاوزها وعلاقتها بعضها ببعض، على غرار ما رأينا عندما تحدثنا عن المؤشرات والتبدلات الصيفية والزمنية.

ولقد وقفنا هنا عند حدود ما يتصل بـ «وضع الراوي» وسنعالج ما يرتبط بعلاقاته بالكاآب في الباب الثاني المتعلق بالنص، كما سبق أن أكدنا على ذلك في تقديم هذا البحث في إطار توسيع السرديات مثلما أصبح ذلك مطروحاً اليوم بإلحاح.

هوامش التقديم النظري:

(1) Bourneuf/ Ouellet: L'univers du roman. édi puf. 1981. P:83.

(2) بيرسي لوبوك: صنة الرواية. ترجمة. عبد الستار جواد. دار الرشيد بغداد 1981.

(3) F. V. Rossum-Guyon: Point de vue ou perspective narrative. Poétique 1970 n°4. P:480.

(4) J. Lintvelt: Essai de typologie narrative. édi. José Corti. 1981. P:123.

(5) ليتفلت: م، م، ص 130.

(6) روسم - غيون، م، م، ص 481.

(7) Jean Pouillon: Temps et roman. édi. Gallimard. 1946.

- (8) سعيد يقطين : « مفهوم الرؤية السردية في الخطاب » ، آفاق ، ع 1 ، 1984 .
- P. Ricoeur: Temps et récit. Tome II. Seuil P:137. (9)
- W. Booth: Distance et points de vue in Poétique de récit. Seuil/ Points. 1977. P:85. (10)
- Types of narration. in The rhetoric of fiction. 2d edi. the university of Chicago press. 1983. P:149.
- T. Todorov: Les catégories du récit littéraire. in Communication n°8 1966. P:147 – 148. (11)
- T. Todorov: Littérature et signification. édi. Larousse. 1967. P:79 – 80. (12)
- (13) بول ريكور : م ، م ، ص 140 .
- (14) ج ، لينتفلت : م ، م ، ص 176 – 168 .
- G. Genette: Discours du récit in Figures, III. Seuil/ Coll. Poétique. 1972. P. 206. (15)
- T. Todorov: Poétique. Points. 1973. P:56 – 64. (16)
- Mieke Bal: Narration et Focalisation. in Poétique n°29. 1977. P:107. (17)
- (18) ج . لينتفلت : م . م . 1981 . ص 140 .
- (19) سعيد يقطين : الأنماط السردية عند جاب لينتفلت ، أنوال الثقافي ع ، 1987 حيث قدمت قراءة نقدية لتصور لينتفلت السردية .
- P. Vitoux: Le jeu de la focalisation Poétique. N° 51. sep. 1982. P. 359. (20)
- Sh. Rimmon-Kenan: Narrative fiction. Contemporary Poetics. edi. Methuen. London. 1983. P. (21)
- 71 – 85.
- G. Genette: Nouveaux discours du récit. Seuil/ Coll. Poétique. 1983. P: 43 – 89. (22)
- Sandro. Briosi: La narratologie et la question de l'auteur. Poétique n/068. 1986. P: 507 – 519. (23)
- (24) بول ريكور ، م ، م ، 1984 ، ص 131 – 149 .
- (25) جنيت ، م ، م ، 172 ، ص 238 و 1983 ، ص : 81 .
- (26) جنيت ، م ، م ، 1972 ، ص 255 .

II - تمفصلات الرؤية السردية الكبرى

1 - عندما تحدثنا عن الصيغ في الفصل الثاني، ميزنا بين السرد والعرض كصيغتين كبيرين، وذلك لتلافي التقسيم الشائع بين «حكي الأحداث» و«حكي الأقوال» ويمكننا الآن استعادته، بعد أن زالت مستلزمات تنحيته في تحليلنا السابق. وذلك بهدف تحديد ما يتصل بـ «خطاب الراوي» و«خطاب الشخصيات» من خلال التمييز بين شكلي السرد وأصواته الأربعة ليتأتى لنا تحليل الرؤية السردية في الزيني بركات انطلاقاً من ذلك.

نقوم بهذا العمل على مرحلتين، في الأولى نلقي نظرةً إجمالية عما نسميه بـ «تمفصلات الرؤية السردية الكبرى» في الزيني بركات. في المرحلة الثانية نقوم بتحليل كل وحدة على حدة.

2 - كما لاحظنا في الفصل الثاني، تقدم إلينا القصة في الزيني بركات من خلال صيغتين مركبتين. فهناك من جهة صيغة الخطاب المسرود، ومن جهة ثانية صيغة الخطاب المعروض، وهما معاً متوازنتان تكرارياً، سواء على صعيد الكم أو الكيف.

إن الصيغتين الكبيرتين تستوعبان خطابات كثيرة هي من باب التذكير: 1 - خطاب الراوي 2 - النداء. 3 - المرسوم. / الفتوى. 4 - التقرير. 5 - المذكرة. 6 - الرسالة. 7 - الخطبة. ومن خلال تقسيمنا لهذه الخطابات لاحظنا أننا، عندما ننظر إليها من زاوية التمييز بين «خطاب الشخصيات»، و«خطاب الراوي»، أمام:

1/ خطاب الراوي.

2/ خطاب الشخصيات الذي يضم التقرير والمذكرة والرسالة والخطبة. وكذلك عندما ننظر إليها من حيث هيمنة الخطاب المسرود. وفي إطار التقسيم الأخير نحن أمام خطاب معروض يضم النداء والرسوم والفتوى، كمقابل للخطاب المسرود السابق الذكر.

1.3 من خلال اشتغال الصيغ الكبرى وتداخلاتها كما حاولنا بسطه الآن بإيجاز نجدنا أمام شكلين سرديين:

1.1.3: الشكل الأول - براني الحكي: وهو الشكل الذي قلنا في تحديدنا إياه، يكون

فيه الراوي «برانياً» عند القصة وشخصياتها. والمقصود بذلك أن الراوي لا يكون شخصية في القصة. ويضم خطاب الزيني بركات ضمن هذا الشكل السردى صوتين أساسيين هُما:

1 - الناظم الخارجي: وهو يحكي قصة هو «براني» عنها من جهة، ومن الخارج أيضاً. ويظهر لنا هذا الناظم في بدايات الحكى كمؤطر للحدث، أو مقدم للفضاء العام الذي ستجري فيه القصة. وكثيراً ما يتحول هذا الناظم الخارجي إلى ناظم داخلي. ذلك ان دوره كمؤطر ومقدم أو منظم كثيراً ما يتوارى بسبب تعدد الأصوات التي يزخر بها خطاب الزيني بركات.

2 - الناظم الداخلي: إنه نظير الخارجي من حيث كونه ناظماً أي برانياً عن القصة التي هو غير مشارك فيها. لكنه لا يكتفي بتقديم القصة من الخارج إنه ينفذ إليها من طريقين:

1/ في الأولى يقدم لنا الحدث كما ينطبع في دواخله، أي انه يدخل في علاقة حميمة مع القصة، فتصبح الأحداث تقدم لنا من خلال منظوره الخاص.

2/ في الثانية يركز على شخصية محورية، فيرصدها خارجياً أو داخلياً، فيتماهى وياها. ولولا المسافة الموجودة بينه وبينها باستعماله «ضمير الغائب» قلنا إن الشخصية هي التي تتكلم. لكن الترهين السردى ينجز من خلاله. والترهين التبثيري يكون من خلال الشخصية.

تظهر لنا هذه الطريقتان في الناظم الداخلي كصوت سردي من خلال ما كنا قد سميناه «الراوي» أو «خطاب الراوي» عندما تحدثنا عن الصيغ. وهذا «الراوي» يشغل وظيفتين سرديتين، أي انه ينتقل من الناظم الخارجي إلى الناظم الداخلي عندما يركز على شخصية محورية مثل زكريا بن راضي أو سعيد الجهيني أو الزيني، أو على فضاء محدد هو «كوم الجارح» مثلاً. وتبرز الطريقة الثانية مع ما رأيناه تحت اسم خطاب المذكرة الذي يتكلف بإنجازه الرحالة الإيطالي. والذي كنا قد أسميناه «الراوي / الشاهد». فهو براني عن القصة، لكنه لا يسجل في خطابه إلا ما يتصل به. ولما كان - غالباً - لا يحضر إلى القاهرة إلا وقت الهلع والخوف، فإنه يزواج في سرده بين وظيفة الصوتين: الناظم الخارجي، عندما يكتفي فقط بالوصف الخارجي، ويتحول بدوره إلى ناظم داخلي عندما يسجل آثار التحولات والأحداث على نفسه. إنه يضم صوتين يتم عن طريق تناوبهما وتداخلهما الانتقال من واحد إلى آخر، من الخارجي إلى الداخلي، مع ملاحظة هيمنة الداخلي، على اعتبار أن خطابات أو ترهينات سردية أخرى تتكلف - وبشكل متداخل - بما يمكن أن يقوم به الناظم الخارجي: تقديم الحدث وتأطيره.

2.1.3. الشكل الثاني: جواني الحكى: وفيه يكون الراوي مشاركاً في القصة كواحد من

الشخصيات . لكن علاقته بها تختلف باختلاف موقعه الذي يحتله في السرد . لذلك ميزنا ضمن هذا الشكل بين الصوتين المتقاطعين : الداخلي والذاتي . في الأول الذي هو نظير الناظم الداخلي ، مع اختلاف على مستوى الشكل ، نجدنا أمام مجموعة من الشخصيات تمارس الحكيم لكن موضوع حكيها لا يرتبط بذاتها وإنما بذات مختلفة عنها تصبح موضوعاً لها .

ويمكن إدراج ضمن هذا الصوت السردى «الفاعل الداخلى» ما كنا قد رأيناه في الصيغ تحت إسم خطاب التقرير والرسالة والخطبة ، بشكل أساسى كخطابات مسرودة ، والفتوى والنداء والمرسوم بشكل آخر كخطابات معروضة من حيث طبيعتها المركزية .

في التقرير والرسالة كخطابين مسرودين يمكننا أن نجلى على سبيل المثال صورة هذا الصوت السردى «الفاعل الداخلى» . فيهما معاً ، تتكلف بالسرد شخصية مشاركة (زكريا بن راضى - عمرو بن العدوي - الزينى بركات . . .) تقوم برفع «تقرير» أو كتابة رسالة إلى شخصية أخرى موجودة في القصة ، ويتعلقان معاً بشخصية مركزية (سعيد الجهيني - الزينى بركات - زكريا بن راضى . . .) أي أن كلاً من المبرر والمبار يكونان داخليين ، وتكون العلاقة بينهما داخلية .

أما الفاعل الذاتى ضمن الشكل الجوانى الحكيم ، فيظهر لنا بجلاء عندما تكون ذات المبرر هي موضوعه في آن معاً ، تمييزاً له عن الفاعل الداخلى ، في إطار الشكل نفسه . ويرز لنا بشكل قليل بالقياس إلى باقى الأصوات بالخصوص مع زكريا بن راضى عندما يخلو إلى ذاته أو عمرو بن العدوي أو سعيد الجهيني أو الزينى بركات . . .

3.1.3. نلاحظ أن الزينى بركات تستنفذ كل الخطاطة التى وضعنا سواء على مستوى الشكلىين السرديين أو على مستوى الأصوات السردية الأربعة . لكن هذا الإستنفاد الذى يتم على صعيد كلى يتقلص بشكل أساسى عندما تمارس تحليلاً عمودياً للوحدات بكاملها . إن ذلك سيبرز لنا تمظهرات أخرى سوف لن تصبح معها الخطاطة إلا إطاراً عاماً وتجريدياً .

إن الشكلىين والأصوات لا يمارسون بنفس البساطة التى تظهر لنا هنا على هذا الصعيد . إن اشتغالها وطرائق تبدلها سيضعنا بالضرورة أمام خطابات أخرى أكثر تداخلاً وتفرعاً واستيعاباً في إطار اللعب التثيرى . ويمكننا التذليل على ذلك من خلال ما أشرنا إليه عندما تحدثنا عن البرانى الحكيم عندما قلنا إن الناظم الخارجى يتحول إلى ناظم داخلى ، كما إنه قد يزوج بين الصوتين معاً (التبثيرين) في مقطع سردي واحد . ويمكن أن نضيف وسنمثل لذلك من خلال تحليل الوحدات ، أننا من خلال الفاعل الداخلى نتحول إلى الذاتى ، ومن خلال الناظم الداخلى كذلك نتحول إلى الفاعل الذاتى رغم المسافة الشاسعة بينهما .

هذا اللعب سيكون مدار تحليلنا اللاحق، ومن خلاله يمكننا أن نطعم تلك الخطاطة أو نبرز احتمالات ما يمكن أن تستوعبه من بنيات فرعية، ما دامت لا تركز إلا على ما هو عام وذو طبيعة تجريدية.

2.3. بحسب طبيعة الشكليات والأصوات المسجلة، يمكننا تحديد أنواع المنظورات السردية وعمقها أي الرؤيات السردية. وهكذا سنجدنا أمام مختلف الرؤيات التي استوعبتها خطاطتنا، وفي إطار التبدلات السردية، سنقف على رؤيات سردية فرعية تبعاً للعلاقات التي تقام بين الشكليات والأصوات، وما يمكن تشخيصه من خلالهما من منظورات وأعماق كما أوأنا إلى ذلك أعلاه بصدد الحديث عن الشكليات والأصوات. ولم يبق لنا الآن إلا معاناة هذه التجليات على صعيد جزئي ربطاً لما سبق أن اعتمدناه كمنطلق للتحليل لما يمكن أن يقدمه لنا هذا التحليل من تفاصيل وجزئيات.

III - تمفصلات الرؤية السردية الصغرى

I / بدايات الهزيمة :

1.1 مع الشكل السردى البرانى الحكى يفتح الحكى . فالرحالة الإيطالى ليس شخصية فى القصة . زار القاهرة مراراً ، وفى كل زيارته يسجل ملاحظاته ومشاهداته . لكنه فى هذه الزيارة التى نفتح الخطاب على ما سجله بخصوصها ، نجدنا أمام الناظم الداخلى الذى يحكى من خلال منظوره الخاص ، وهو مُنفعل بالحدث متأثر بما آلت إليه أحوال القاهرة وهى على أبواب الهزيمة . إنها قاهرة 922 هـ : حيث الزينى بركات مختف . واختفاؤه يثير الكثير من التساؤلات ، كما إنه يشجع على الفوضى والاضطراب . فالمماليك يجوسون فى البلاد فساداً . يبتزون ويغتصبون ويقتلون من يقف أمام طريقهم . لذلك يبدو الناظم متأثراً بالحدث ، فلا أمان ولا اطمئنان :

- «وجه القاهرة غريب عني . ليس ما عرفته فى رحلاتي السابقة» .

- «أطل من مشربية البيت محاذراً أن يراني أحد . . .» ص 9 .

إن الناظم الداخلى فى هذه الوحدة يبدو الراوى والمبشر الذى يسرد من خلال منظوره ما يتصل بالمبار (المدينة) . وسنلاحظ من خلال هذه الوحدة خطياً التبدلات التى تطرأ على مواقع المبشر فى علاقته بالمبار من خلال الصورة العامة التى سجلناها هنا .

2.1 . يبدأ الناظم - المبشر بتسجيل واقع حال المدينة (المبار) معدداً مظاهرها التى آلت إليها ، وما تعرفه من تغير واضطراب . وهو فى سرده وتبثيره معاً لا يبدو لنا متفجعاً ينظر من الخارج . إن حاضِر المدينة يعانى منه هو أيضاً . لذلك فهو يقوم بوظيفته من منظور سردي داخلى ، ويعمق غير محدد لأن موضوع سرده وتبثيره واسع وشامل . وهو يسعى لإعطاء صورة أشمل وغير محدودة عنه ، كما تنعكس على ذاته . لقد سبق له أن زار القاهرة قبل هذا التاريخ وتعلم لغة أهل البلد وربط معهم صلات وثيقة وحميمة . إن ما تعانى منه المدينة جزء من معاناة الآن . وما يعمق هذا الطابع الداخلى هو رغم كونه برانياً عن القصة وغير مشارك فيها فإنه - الآن - وبسبب تواجده فيها وفى هذه الظروف العصبية يغدو وكأنه «جواني»

الحكي . إنه يعاني ما تعانيه الشخصيات في عالم القصة من خوف وهلع . إنه - لو صُحَّ التعبير - شخصية «برانية» عن القصة . ولهذا السبب عندما نعتناه بـ «الناظم الداخلي» كنا ننظر في طبيعته كضمير سردي معاً وصوت ومبثراً أخيراً . ولما كانت هذه العلاقة التي يقيمها مع المبدأ علاقة داخلية، باعتباره يقدمه لنا من الداخل صحت لدينا هذه التسمية .

3.1. ينتقل الناظم الداخلي من تبثير الحاضر إلى الماضي عن طريق الذاكرة . ومن خلال تكلفه بالوظيفتين معاً السرد والتبثير «يطابق» بين المبدأ نفسه لكن في لحظتين زمنييتين وبنفس المنظور الذي سجلناه أعلاه (1 - 2) وعبر هذا الانتقال الزمني تبرز لنا صورة الناظم الداخلي في علاقته بموضوع تبثيره . إن معرفته بالناس قديمة . وموضوعه هذا ليس غريباً عنه . كما أن هذه المطابقة الزمنية تكشف لنا باللمس الطابع الداخلي للرؤية السردية في هذا المقطع ، رغم كون المبتثّر هنا خارجياً . لقد تم التبدل الزمني ، لكن الصيغة ظلت سردية في عموميتها . وبذلك ظل الناظم الداخلي مبتثراً في الوقت نفسه .

4.1 - في الانتقال من حاضر المبدأ إلى ماضيه يتم الكشف عن المسافة الفاصلة بينهما . ففي الماضي نجد حياة الطمأنينة والدعة . أما الآن فلا نجد إلا الاضطراب والفوضى . لكن الناظم الداخلي ينقلنا من موضوع التبثير العام إلى آخر أكثر خصوصية . وبواسطة المؤثر الصيغي الذي يتوازى والمؤثر السردى هنا ينقلنا من المدينة كفضاء عام إلى المقهى كموضوع خاص للتبثير . وفي هذا الانتقال من الخطاب المسرود إلى المنقول نجدنا نتقل من الناظم الداخلي إلى الناظم الخارجي .

مع الناظم الخارجي يفصل السرد عن التبثير ، إذ يصبح خطاب الشخصيات في صيغة المعروف غير المباشر مبتثراً ومبثراً في آن معاً . وفي هذه الحال يصبح للناظم الخارجي فقط دور تنظيم الحكي عبر تدخلاته التي يشي من خلالها إلى حضوره كراو فقط ، يسجل صفاتها الشخصية الخارجية وهي تتكلم وتتساءل عن غياب الزيني بركات في هذا الوقت العصيب . لذلك نستنتج هنا أننا في هذا الانتقال نجدنا نتقل من رؤية سردية برانية داخلية إلى أخرى خارجية :

«في المقهى عدل رجل وضع عمامته ، سأل :

- هل رأى أحدكم الزيني منذ أول أمس . . . » ص 10

5.1 - من الرؤية السردية الخارجية نتقل إلى الداخلية من جديد عندما يتداخل الناظم الداخلي والمبثّر ويكون الموضوع المبدأ هو الزيني بركات نفسه . وكما رأينا في (1 - 2) فالعلاقة بين المبتثّر والمبدأ هنا داخلية ، لأن الناظم الداخلي سبق له أن رأى الزيني بركات وتكلم إليه ، وهو هنا كباقي الناس يتساءل بدوره عن أسباب غيابه الآن . ومن خلال تبثيره إياه

نجده ينتقل من الرؤية الداخلية إلى الخارجية من خلال وصفه إياه خارجياً، لكنه الخارجي الذي تظهر لنا من خلاله ذاتية المبشر الذي يحاول النفاذ إلى دواخله ليستبطن سر القوة التي يتمتع بها لدى العامة. لذلك نؤطر هذه الرؤية ضمن الداخلية، وإن كانت تتضمن إشارات خارجية إلى موضوع التبشير:

«لم أر مثل بريق عينيه، لمعانهما خلال الحديث تضيقان، حدقتي قط في سواد ليلي. عيناه خلقتا لتنفاذاً في ضباب البلاد الشمالية... لا يرى الوجه واللامح. إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر» ص 13.

نعين من خلال هذا المقطع المستشهد به هنا أن العلاقة بين المبشر والمبأر ليست خارجية. فهو يركز في تبشيره إياه على عينيه. ومن خلالهما ينظر إليه من الداخل، ويقدمه إلينا من الداخل أيضاً. «فهو أي الزيني بركات» ينفذ إلى قاع الجمجمة... من منظور الناظم المبشر.

6.1. في إتخاذ الزيني بركات موضوعاً للتبشير ينقلنا الناظم الداخلي - أيضاً - إلى الماضي وهو من خلال ذلك يجلي لنا صورة الزيني بركات كمبأر عبر المطابقة بين وضعين للمدينة في حال حضوره (الماضي) وغيابه حالياً، ولذلك دلالة البعيدة على مستوى الحكيم كما سنحاول تبين ذلك عند نهاية تحليل هذه الوحدة.

تأكد لدينا تجليته هذه الصورة للمبأر (الزيني بركات) عندما ينقلنا الناظم الداخلي من خلال السرد إلى زمن مضى وصيغة أخرى. إن الزمن هو الماضي والصيغة هي المسرود المنقول، والمبأر هو الزيني بركات في قصة الجارية والعطار (ص 11 - 12 - 13).

إن الناظم هنا يقوم بدوره الناقل لهذه القصة. إنه بمعنى آخر «يبشر» هذه القصة في خطابه الذي ينتجه، ومن خلال ذلك فهو هنا يقوم بدور الناظم - الناقل لذلك فهو خارجي عنها كمبشر، باعتباره روائياً (ناظماً) من درجة ثانية. إنه «ينقل» ما يسمع:

«حدث إن أرسلت جارية رومية بيضاء... قيل إنها لم تتجاوز الخامسة عشر... زعموا... وسمعت ممن أثق به...» ص 11 - 12.

فالناظم الخارجي من خلال صيغة الخطاب المنقول «يبشر» قصة الجارية والعطار ومن خلالها، ومن خلال السياق الذي أوردتها فيه يبشر الزيني بركات. لأن الزيني بركات هو الذي فصل في هذه القصة بنفسه، واستطاع النفاذ إلى بيت العطار ليعرف قصته مع الجارية ويطلقها منه في النهاية. إننا هنا نجدنا أمام تبشير مزدوج:

1 - في الأول المبشر (غير محدد) والمبأر هو العطار (الموضوع المركزي للتبشير). والعلاقة بينهما خارجية.

2- في الثاني المبثر (الناظم الداخلي) والمبأر هو «القصة» بكاملها، ومن خلالها «الزيني بركات» الموضوع المركزي للتبثير. في التبثير الأول نجد الراوي الأصل غير محدد، لكننا في التبثير الثاني نجد الراوي هو الناظم الداخلي (الناقل). وهو في «نقله» للقصة يسعى لتبثير الزيني بركات. لذلك نجدنا في هذا التبثير المزدوج وضمنه ننتقل من الرؤية السردية الخارجية إلى الرؤية السردية الداخلية، لأن الناظم الداخلي «يسلب» القصة (المبارة) موضوعيتها بتوجيه موضوعها المبأر نحو الزيني بركات موضوع التبثير في السياق.

إن الزيني بركات كموضوع للتبثير هنا وقبل ذلك في (1 - 5) يقدم لنا من منظور الناظم الداخلي المبثر (الرحالة الإيطالي). لذلك قلنا إن الرؤية السردية هنا داخلية، وعمقها منظورها غير محدود لأن صورة المبأر تقدم لنا من زوايا متعددة مختلفة زمنياً وسردياً.

7.1. وبواسطة مؤشرات سردية جديدة ننتقل إلى رؤية سردية جديدة، يَظُلُّ فيها المبأر دائماً هو الزيني بركات المختفي، لكن المبثر هذه المرة ليس الناظم الداخلي الذي يتكلف بالسرد فقط:

«... أعود إلى السجبال في دكان الشاي، تساءلوا فعلاً عن السر في اختفاء الزيني؟...» ص 13.

في المشهد نجد الناظم يتحول إلى خارجي والمبثر هو الشخصيات (سعيد الجهيني - رواد المقهى) والمبأر هو الزيني بركات. ومن خلال سرد الراوي (الناظم الخارجي) الذي يتقلص إلى تسجيل بعض المؤشرات السردية والصيغية التي تدلل على وجوده بينما تحدث الشخصيات عن الزيني بركات. إننا من خلال هذا التمايز بين الناظم الخارجي (الراوي) والمبثر (الشخصيات من خلال العرض غير المباشر) نجدنا أمام رؤية سردية خارجية. إذ يكتفي الناظم بتأطير العرض وتنظيمه والتعليق عليه من الخارج. ومن خلال المشهد تبدى لنا حالة الجزع المهيمن والخوف التي يقوم الناظم الخارجي بتقديمها موضوعياً وخارجياً.

8.1. وهو في المقهى الموقع الفضائي الذي من خلاله يسجل رؤيته السردية الخارجية عن روادها، ينتقل بنا الناظم الخارجي إلى فضاء الشارع الذي ينظر إليه. وبذلك ينتقل بنا من موضوع التبثير (الزيني بركات من خلال الرواد) إلى موضوع آخر (طابور السجناء) من خلال المؤشر السردى:

«في الطريق، على مهل اليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية، يبدو وإنهم متجهون إلى سجن من السجون...» ص 14.

بتغير موضوع التبثير يصبح الناظم الخارجي مبثراً أيضاً. إنه يسجل كما رأينا في المقطع السابق مشاهداته وهو في المقهى. إن الناظم الخارجي المبثر يقدم لنا رؤيته السردية

خارجية وهو بواسطة الوصف يعطي صورة خارجية عن الطابور. لكن هذه الرؤية سرعان ما تتبدل لنصبح أمام الناظم الداخلي كمبثر يتماهى مع موضوعه المَبَار. إنه ينفذ إلى أعماق الطابور ليحاول سبر أحاسيسهم وهم يساقون إلى الموت. وهو في ذلك لا يمارس تأملاً سيكولوجياً، بل إنه من خلالهم يستبطن أعماقه الداخلية. إن الموت يترصده في كل مكان وفي كل لحظة باعتباره رحالة دائم التجوال:

«ربما أموت بعد لحظة... هذا ما يطبع الوجوه بنفس ما رأيته... أذكر خروجي من بلد إلى بلد، رحلي الدائم. أذكر من سبقوني، رجال خرجوا من البندقية مبتدئين رحلة ربما امتدت 30 عاماً. ربما مات الإنسان في بلد تبعد آلاف الفراسخ، مشيت وفي نفسي خوف...» ص 15.

إن الناظم الداخلي هنا، ومن خلال هذا الإستبطان الذي أثاره فيه موضوع تثيره يقدم لنا الطابور من الداخل، وكذلك ذاته. وبذلك نجدنا نتقل من الرؤية السردية الخارجية التي ابتدأ بها في الطابور إلى أخرى داخلية تتحدد من زاويتين: خاصة تنتج عن منظر طابور السجناء، وعامة يثيرها واقع المدينة ككل. وهذا طبيعي لأن هذا المَبَار الخاص (الطابور) يأتي في سياق مَبَار عام (المدينة).

9.1. ومن هذا المَبَار الخاص (الطابور)، يكون الانتقال إلى المَبَار العام (المدينة) الذي افتتحنا به هذه الوحدة. إن الناظم الداخلي وهو يغادر المقهى يتوجه إلى غرفته وهو خائف على نفسه. ومن خلال تراوج الناظم والمبثر يتمم الصورة الشاملة عن القاهرة الحزينة وما تموج فيه من اضطرابات، وما يشيع من أخبار، مراوحاً بين الحاضر والماضي، مقارناً بين القاهرة - الآن - وحيدر آباد في الهند التي يتذكرها عندما «فاجأها وباء عفى وافنى وأهلك، بقيت محاصراً بطاعون جلف سنة كاملة». ص 16.

أما القاهرة فيراها: «الآن رجلاً معصوب العينين، مطروحاً فوق ظهره، ينتظر قدراً خفياً».

وبالرؤية السردية البرانية الداخلية تنتهي هذه الوحدة حول القاهرة وهي على أبواب الهزيمة. إنها سنة 922 هـ التي تقدم لنا هنا كاستباق بالنسبة لزمن الحكي الأول. ولما كان الناظم (الرحالة الإيطالي) قد زار القاهرة، فإنه في هذه الوحدة يغدو وكأنه شخصية «برانية» عن القصة، لذلك كانت رؤيته كما رأينا.

10.1. يمكننا أن نستنتج من خلال ما رأيناه بصدد خطاب الرحالة الإيطالي من حيث الرؤية السردية كما سبق تحديدها وتحليلها هنا ما يلي:

1 - إن الشكل السردى براني على إعتبار الراوي ليس مشاركاً في القصة كشخصية.

2- يبرز هذا الشكل من خلال صوتين سرديين يتناوبان في مجرى الوحدة :

أ - الناظم الخارجي : وهو متقلص جداً بالقياس إلى الصوت الآخر . ونُعَيْنُهُ بشكل أكثر وضوحاً عندما ينفصل الناظم عن المبرر ، ويصبح الناظم الخارجي متكلفاً فقط بتوجيه السرد ونقل أقوال الشخصيات في المقهى ، بينما يكون المبرر هو الشخصيات وهي تتحدث عن المبرر . إن الناظم يقوم بوظيفته هنا من الخارج إذ ينقل إلينا إنطباع الأحداث على الشخصيات . ويظهر لنا هذا الصوت أيضاً ، في وصف الزيني بركات أو طابور السجناء .

ب - الناظم الداخلي : وهو الصوت السردى الأكثر هيمنة . وفيه يتلاحم الناظم والمبرر . فيمارس السرد والتبثير معاً . إن يسرد ويثر ما يتصل بالعالم الخارجى من الداخل . ولما كان هذا الصوت هو الأساس في هذه الوحدة نعين أن عمق تبثيره كان بلا حدود ، لسبب بسيط هو أنه يتخذ موضوعاً لتبثيره :

1 - المدينة كفضاء واسع وممتد سواء في الماضي أو الحاضر .

2 - الزيني بركات الغائب حالياً ، الحاضر في الماضي .

3 - الشارع : (طابور السجناء ، كجزء من فضاء المدينة) .

وفي تقديم المبرر من الداخل يبدو لنا أنه كمبرر ينظر إليه من الداخل . ولهذا السبب ذهبنا في نقطة من التحليل إلى استنتاج أنه «شخصية برانية» . وهذا ما يفسر نعتنا للرؤية السردية في هذه الوحدة بأنها «برانية داخلية» ، لأن الناظم الداخلى برّاني عن القصة ، لكنه يقدمها وكأنه شخصية من داخلها .

وفي إطار التبدل السردى عاينا أن مؤشرات هذا التبدل هي المؤشرات الصيغية ، إذ كلما تم الانتقال من صيغة خطابية إلى أخرى يتبدل الصوت السردى والتبثير . وهكذا لاحظنا أن الرؤية البرانية الداخلية هي المؤطرة والمهيمنة . فيها نبتدىء وبها ننتهي . ومن خلالها تقدم لنا صورة المدينة (موضوع التبثير) كما تنطبع في ذاتية الصوت السردى . وعندما تستوعب هذه الرؤية البرانية الخارجية ، فإنها تسهم إلى جانبها في تقديم صورة عن المدينة بشكل موضوعي من لدن الناظم . وفي هذه الصورة الموضوعية أو الخارجية تتبدى لنا ذاتية الشخصيات في رؤيتها للمدينة وهي تتحدث عن غياب الزيني بركات . غير أن الرؤية الداخلية للشخصيات تقدم لنا بشكل موضوعي من لدن الناظم الخارجى . ولما كنا في الرؤية السردية البرانية الداخلية أمام مبرر عام هو المدينة في البداية ، فإن هذا المبرر يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الشخصية المركزية (الزيني بركات) التي بغايتها آلت المدينة إلى ما آلت إليه أو هكذا يظهر لنا . ومن خلال الرؤية السردية البرانية الخارجية نجد المبرر خاصاً دائماً إنه المقهى وروادها والشارع (من خلال الطابور) . إن المقهى والشارع يقدمان صورة

أكثر جزئية عن المبدأ العام (المدينة)، ومنهما تكون العودة إلى المدينة من جديد.

في الانتقال من رؤية إلى أخرى نجد التناوب بين الداخلية والخارجية، باستثناء ما رأيناه مع «قصة الجارية والعطار» ذات التبثير المزدوج. تظل صورة المبدأ (المدينة/ الزيني بركات) تقدم لنا من منظور سردي داخلي. وتبعاً لذلك تغدو الصورة عميقة لما نصبح ندركه «سردياً» كمتلقين عن المدينة، الشيء سيجعلنا نتساءل عن لماذا هذا المآل الذي أسهمت «المطابقة» بين صورتها في الماضي والحاضر، و«المقارنة» بينها وبين حيدر آباد ذات سنة عجفاء في تعميقه، وإشراكنا في إدراكه من منظور أو رؤية الناظم الداخلي الداخلية.

وعندما نربط بين ما عايناه في الزمن والصيغة وهنا بخصوص هذه الوحدة وما عرفته من تبدلات وتغييرات في تقديم صورة المدينة وهي على أبواب الهزيمة يتأكد لدينا ذلك بجلاء.

II - الإعتقال

1.2. رأينا في الوحدة الأولى الناظم الداخلي (الرحالة) كيف يقدم لنا أحوال القاهرة وهي على عتبة الهزيمة، مركزاً في حكيه على المدينة والزيني بركات المخفي وحديث العامة (سعيد الجهيني) في ترابط هذه العناصر وتداخلها من خلال رؤية الناظم داخلياً وخارجياً. ولما كانت هذه الوحدة زمنياً استباقاً فإنها بذلك تعطي صورة عامة عن المناخ العام الحالي الذي ستؤول إليه أحداث القصة في تطورها. وبذلك ستكون العودة هنا إلى بدء الحكي 912 هـ انتقالاً إلى نقطة البدء التي أدت إلى التطور الحاصل في الوحدة الأولى.

في هذه الوحدة يتم اعتقال علي بن أبي الجود المحتسب الذي سيعوضه الزيني بركات. وفيها على عكس الوحدة الأولى نجدنا أمام الناظم الخارجي الذي يحكي بضمير الغائب. فهو غير محدد السمات وغير واضح الملامح. وهو الذي كنا قد أسميناه في الفصلين الأولى والثاني بـ «الراوي» تمييزاً له عن باقي من يتكلف بالحكي ضمن الخطاب المسرود.

يبدأ الناظم الخارجي الذي يتداخل والمبثّر بتقديم صورة المدينة أول النهار وهي تستيقظ على ما لم تكن تتوقع من الخارج، فيؤطر الزمن الذي سيجري فيه الحدث من خلال وصف بداية النهار كما يتجلى في حركات السقائين، وبعض خيول الممالك وهي تجتاز الطرقات. من خلال الرؤية البرانية الخارجية يتم تأطير فضاء الأحداث (المدينة)، إذ كل شيء يقدم من الخارج، وينظر إليه من الخارج.

2.2. في المقطع السردى الثاني نجدنا نتقل من الناظم الخارجي كصوت سردي إلى الناظم الداخلي الذي يتخذ له موضوعاً للتبثير شخصية المحتسب علي بن أبي الجود. ومن خلال

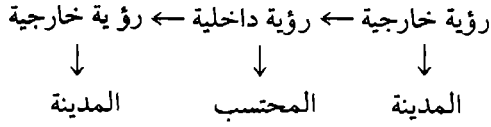
هذه الشخصية لا يكتفي الناظم بوصفه من الخارج، وإن كان يلجأ إلى ذلك أحياناً (وصف العمامة ص 19). بل إننا نجده يزوج باعتباره ناظماً داخلياً بين السرد والتبشير. ولما كان المبدأ شخصية مركزية فإنه يقدمه لنا من الداخل، فتتعرف من خلال رؤيته السردية البرانية الداخلية على هذه الشخصية من كافة جوانبها. وإن كان الجانب الكمي من الإخبار كثير جداً. ومن خلال الانتقال السريع من رؤية إلى أخرى، وتقديمه إياه من الداخل والخارج ندرك معه هذه الشخصية المتميزة في سلوكها وأفعالها، ما يملكه من نساء وجوار وغلمان... وما يجعلنا ندرك هذه الشخصية من الداخل والخارج معاً هو لجوء الناظم إلى التبدل الزمني إذ يبث لنا بن أبي الجود في الماضي وفي الحاضر، وفي الليلة التي سيعقبها هذا اليوم الذي فتحنا به هذه الوحدة، إلى اللحظة التي سيتم فيها الاعتقال. لذلك يدولنا أن الفعل المركزي (الاعتقال)، لم يأت تسجيله إلا بعد أن تكونت لدينا الصورة كاملة حول «موضوع الاعتقال».

3.2. لكن صورة «موضوع الاعتقال» (المبدأ) ستعمق لدينا أكثر، بالانتقال إلى الرؤية السردية الثالثة هنا في هذا الترتيب، والتي سنجدها تأخذ طابعاً خارجياً. يعود السبب في ذلك إلى تغيير المبدأ، إذ لم يبق هو علي بن أبي الجود (كمركز للتبشير)، ولكنه سيصبح الشارع والمدينة بكاملها مع طلوع النهار. لقد سرى الخبر في كل المدينة. ومن الناظم الداخلي نجدنا مجدداً ننتقل إلى الناظم الخارجي وهو يسجل آثار الاعتقال على ناس المدينة:

«من بوابة الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية، خرج مناد غليظ الصوت، يعرفه الناس، في اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيته القريب من قصر الأمير... النساء يصحن مناديات بعضهن، بائعة بليلة تزقق في حارة الميضة...» ص 20.

في هذه الرؤية السردية الخارجية يقدم لنا الناظم الخارجي صورة المدينة خارجياً وهي تتلقى وتتناقل خبر الاعتقال، وما كان له من فعل طيب في النفوس. ويمكن في هذا الإطار الإشارة إلى أن المؤشرات السردية التي يتم بواسطتها الانتقال من رؤية إلى أخرى تظهر لنا بجلاء من خلال ثلاث نجومات تفصل بين رؤية ورؤية.

هكذا نجدنا ننتقل من الناظم الخارجي في بداية الوحدة إلى الناظم الداخلي وهو يركز على المحتسب المعتقل في المقطع الثاني، إلى الناظم الخارجي من جديد في المقطع السردى الثالث. ويأخذ هذا الانتقال على صعيد التبشير الترتيب نفسه إذ ننتقل من المدينة المبارة في بداية النهار وهي هادئة إلى المدينة وهي متحركة بعد تلقي خبر الاعتقال الذي بُث في المقطع الثاني:



إن الرؤيات السردية تتناوب كما نلاحظ، ولما كان الناظم والمبثر واحداً فإن ما يتغير هو السرد والتبشير، إذ نجدنا نتقل عن طريق التناوب من ناظم خارجي إلى داخلي إلى خارجي. وصورة هذا التبدل السردى لها أكثر من دلالة سنحاول الوقوف عندها بعد الانتهاء من تحليل هذه الوحدة.

4.2. رأينا من خلال الرؤية السردية الخارجية الأولى والثالثة كيف أنها ممتدة وموضوعية بشموليتها واتساع منظورها وعمقه إلى الحدث، إلا أنها ستضيق تدريجياً بالانتقال عبر مؤشر بارز هنا أيضاً (العنوان: سعيد الجهيني) في رواق الصعايدة في الأزهر يتحقق الانتقال من العام إلى الخاص. ويتجلى لنا هذا في بروز الناظم الداخلي محل الخارجي. إن الناظم الداخلي يتخذ «سعيد الجهيني» باعتباره شخصية مركزية عيناً نرى من خلالها آثار الحدث (الاعتقال) على طلبة الأزهر. وبانفصال الناظم عن المبثر، يصبح المبثّر (الجامع والطلبة) منظوراً من زاوية المبثّر، لكن الناظم الداخلي يظل يسرد بضمير الغائب. ولو أعدنا كتابة المقطع هنا بالضمير المتكلم كما طرح ذلك بارث (1966) (وشلوميت) 1983 لتبين لنا فعلاً تميز الناظم عن المبثّر:

- الناظم: «من داخل رواق الصعايدة... يصغي سعيد الجهيني إلى ضجة الخلق... تتدافع الأصوات إليه...» ص 20.

ولو كتبنا هذا المقطع بضمير المتكلم لأصبحنا فعلاً امام التمايز الذي نركز عليه هنا، وانطلاقاً منه نتحدث عن «الناظم الداخلي»:

- المبثّر: «من داخل رواق الصعايدة... أصغيت إلى ضجة الخلق... تدافعت الأصوات إلي...».

إن الناظم الداخلي هنا يسرد كما جلينا من ذلك من منظور سعيد الجهيني. ولما كان الجهيني شخصية مركزية، فإن المبثّر سيقدم لنا من الداخل، وليس من الخارج، لذلك نقول هنا أيضاً إن الرؤية السردية برانية (الناظم) داخلية (المبثّر). (أنظر تحليلنا لهذا المقطع في الفصل الخاص بالصيغة). ولما كان هذا المقطع سيستمر إلى نهاية هذه الوحدة، أو قبلها بقليل، فإن منظور سعيد الجهيني سيظل داخلياً حول كل ما يقدم من موضوعات للتبشير، وإن كان مركزها هو حدث الاعتقال. إذ عبر الجهيني كمبثّر تبدو لنا شخصيات أخرى مركزية (زكريا بن راضي - عمرو بن العدوي...) وفضاء الأزهر وطلبته. ومن خلاله أيضاً تتسم

الرؤية السردية علاوة على الجانب الداخلي الذي سجلناه، ببعد آخر ذاتي كالذي نلمسه في خطاطتنا وإن كنا سجلناه فقط في الشكل السردى الجوانى فى اتصاله بما أسميناه بـ «الفاعل الذاتى» كصوت سردي .

يتجلى لنا كون الرؤية السردية هنا تأخذ بعداً ذاتياً، لأن المبرر (سعيد الجهيني) لا يقدم لنا منظوره من الداخل فقط، ولكن من خلال تمرّكه على ذاته أيضاً، إذ يصبح المبرر مبرّراً في الوقت ذاته. ولولا المظهر البراني الذي سجلناه من خلال الشكل السردى، لكننا من خلال «إعادة الكتابة» (Re — écriture) في العمق أمام فاعل ذاتي لا ناظم داخلي. وهذا التنوع السردى الذي يصل إلى هذا المدى يبرز لنا بجلاء درجة التماهى التي تصل إليها علاقة الناظم بالمبرر، عندما لا يكفي المبرر فقط بالنظر إلى موضوعه من الداخل، ويقدمه إلينا من الداخل، ولكن يتخذ ذاته موضوعاً لمنظوره. وسنلاحظ هذه الظاهرة السردية كلما كان الناظم الداخلى وراء شخصية مركزية كسعيد الجهيني، وبالأخص فى اللحظات التي يخلد فيها إلى ذاته :

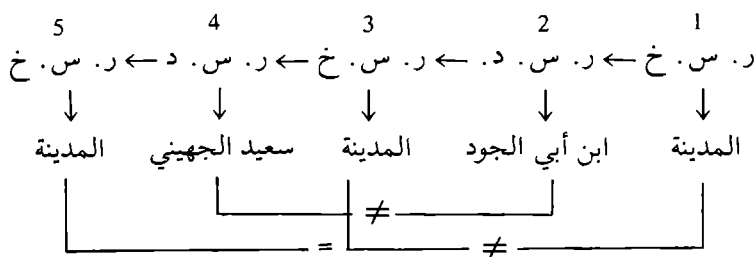
«تعلو الأسئلة وتنزل كعصا نفرزان، حلقات غليظة فى سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب، تسل النخاع، تجفف ماء الحياة يود لو يزق من فوق مثذنة الأشرف قايّتباي بالأزهر. . . . سعيد لا يود أن يمضي بين الناس إلا زاعقاً، راجفاً من أمور تأتي . . .» ص 23.

إننا من خلال المبرر سعيد الجهيني ننتقل من رواق الصعايدة إلى كوم الجارح حيث شيخه أبو السعود ومريدوه . ومن خلاله أيضاً تقدم شخصيات جديدة وعوالم من القصة، وآثار الاعتقال على النفوس، وهم يلاقونه بفرح وتوقع من سيخلفه ولا سيما وأن صنائعه زكريا ابن راضى وجهازه المسلط على الرقاب لم يمس . عندما تقدم كل هذه «المعلومات» والجزئيات من خلال منظور سعيد الجهيني الداخلى، نعاين بجلاء كون الناظم وهو يجعل سعيداً مبرراً يدخلنا إلى عالمه الصوتي من خلاله . إذ عبر الجهيني كشخصية مركزية لها موقعها فى القصة نطل على جزء هام من عالمها كما يبار من منظور الجهيني . واللجوء إلى هذه التقنية فى التبدل السردى مهيمن فى الخطاب، وذلك عبر ممارسة تعدد التبثير وتحوله . صحيح يظل الشكل السردى ثابتاً، لكن تعدد الأصوات وتحولها حول المبرر الواحد أو المركزى يجعل المتلقى يدرك جوانب مركزية من القصة لكن من خلال رؤى متعددة، تنتقل من الخارجى إلى الداخلى ومنه إلى الخارجى من جديد . فى ذلك تكسير لعمودية السرد والتبثير ما دام المبرر واحداً (الاعتقال) وإلى جانبه كشف عن جوانب جديدة حول الشخصيات التي ستلعب دوراً هاماً فى القصة . وعبر هذا التناوب السردى والصوتى تقدم لنا إخبارات تثير المزيد من التوقع والانتظار لما سيحدث لاحقاً .

وتنتهي هذه الوحدة باستعادة الناظم الخارجي لوظيفته الأولى كناظم (راو) ومبشر في آن، وهو يقدم لنا صورة الأطفال في المدينة وهم يصرخون معبرين عن فرحتهم باعتقال «موضوع التبشير»: علي بن أبي الجود، من خلال رؤية خارجية:

«من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين، صبغوا وجوههم بأحمر وأخضر، يرقصون، يغنون...» ص 26.

هكذا نلاحظ أننا في هذه الوحدة نجدنا نتقل من رؤية سردية إلى أخرى على الشكل التالي:



إن التبدلات السردية هنا تقوم على أساس «المطابقة» بين المتناقضات. وذلك لأن الرؤية السردية الخارجية هي المهيمنة والمؤطرة. فالمدينة في (1) تقدم لنا في أول النهار هادئة مع خروج السقائين لجلب الماء، وفي (3) وقد طلع النهار تظهر علامات التساؤل وتناقل الخبر بين الناس. بينما في (5) التي هي امتداد لـ (3) لذلك وضعنا علامة (=) يسجل الفرع البادي حتى على الأطفال الذي خرجوا إلى الشوارع معبرين عن فرحتهم بالاعتقال.

بينما في الرؤية السردية الداخلية نجدنا أمام «تقابل» بين شخصيتين مركبتين (القامع والمقموع)، ومن خلالهما نجد التقابل بين عالمين متقابلين:

- 1 - عالم السلطة (التي يمثلها المحتسب المعتقل).
- 2 - عالم الشعب (الذي يمثله سعيد الجهيني).

وسنجد هذا التقابل بين العالمين مسيطراً في الرواية بكاملها ومن خلالها الرؤية السردية نفسها، وباعتقال المحتسب بن أبي الجود سيصبح التقابل بين الجهيني وزكريا بن راضي، ومن خلال الصوت السردية نفسه: البراني الحكيم.

III - التعيين

- 1.3. بعد اعتقال علي بن أبي الجود تأتي وحدة «التعيين»: تعيين الزيني بركات بن موسى خلفاً للمحتسب المعتقل. ولما كان «الاعتقال» قدم لنا من خلال الرؤية السردية

البرانية داخلياً وخارجياً، ولذلك بسبب أهمية هذه الوحدة، فإن وحدة «التعيين» لا تقل عنها أهمية في مجرى الخطاب. فالمنصب له خطورته وخصوصيته على مجتمع أحداث القصة. لذلك فأول سمة تتميز بها هذه الوحدة على مستوى الرؤية السردية هو أنها ستصبح متحولة ومتعددة أيضاً. إذ سننتقل فيها من شكل ومن صوت إلى آخر مع ما يستتبع ذلك من تعدد المنظورات السردية وعمقها.

2.3. نفتح هذه الوحدة بالمرسوم السلطاني الذي يأخذ شكل صيغة الخطاب المعروف. إننا هنا أمام الشكل السردى الجوانى الحكى الذى يظهر لنا من خلال الفاعل الداخلى كصوت سردي. يقوم الفاعل الداخلى الذى يستعمل ضمير المتكلم الجمعى بدور المبرر من الداخل للزنى بركات الذى عين نائباً للحسبة بعد طول تفكير وتدبير، وأنه أوصى بالعدل. وفي الآن نفسه يذكر بابتن أبى الجود المعتقل. إننا هنا أمام رؤية سردية جوانية داخلية.

3.3. يقع الانتقال بعد ذلك من الشكل السردى الجوانى إلى البرانى مع الراوى الناظم الذى يأخذ بعداً داخلياً بتركيزه على «زكريا بن راضى» كشخصية مركزية فى القصة. وفى هذه الحال، كما سبق أن رأينا ذلك فى الوحدة السابقة مع سعيد الجهينى، يحدث انقسام بين الناظم والمبرر، إذ يتكلف الأول بالسرد ومن خلال المبرر يقدم المبرر. إن موضوع التبرير هنا يتمحور بشكل مركزى حول «التعيين». وتظهر لنا العلاقة بين الناظم والمبرر حول المبرر تأخذ أشكالاً عديدة إذ تذهب من الناظم الخارجى عندما يتصل الناظم بالمبرر ويكون الموضوع هو زكريا بن راضى وينفصلان، عندما نذهب إلى الناظم الداخلى عندما يكون المبرر هو الزنى بركات من منظور زكريا، إلى «الناظم الذاتى» الذى يصبح فيه المبرر مبرراً فى الآن ذاته.

فى اتخاذ زكريا بن راضى مبرراً يبدو لنا من منظوره الداخلى موضوع «التعيين». فهو نائب البصاصين فى مصر، وعلى بن أبى الجود هو الذى عينه فى هذا المنصب الخطير الذى أتاح له إمكانية التعرف على دقائق الأمور وخبايا الشعب. فجهاز البصاصين واسع وممتد ومنغرس فى كل الأوساط يحمل إليه تفاصيل الأخبار. لكن تعيين الزنى بركات لم يكن متوقفاً. ومعرفته عن الزنى بركات ناقصة جداً. فمن هو الزنى بركات؟

ومن خلال تعدد الرؤيات كما أومأنا إلى ذلك أعلاه تضاءلنا جوانب من حياة زكريا بن راضى خارجياً، وداخلياً، ومن خلاله أيضاً تقدم لنا صور عميقة وممتدة عن فضاء عالم القصة ومحيطها. عندما يسمع الخبر المقلق: «التعيين» يغدو دائماً الحيرة والتوجس، ومن خلال الناظم الخارجى توصف لنا أعماله وهو يقوم بقتل غلامه شعبان الذى اعتقله زكريا من القصر ليتعرف على أسرارته وعلاقته بالسلطان. ثم يقع الانتقال إلى الناظم الداخلى كصوت

سردى نتقدم لنا الأشياء كما يراها ويدركها زكريا بن راضي كمبثر للأشياء والموضوعات :
ذهابه إلى بيت خلوته ليطلع على الملفات المعدة حول كل شيء . ليكون الانتقال بعد ذلك
إلى «الناظم الذاتي» كما سبق أن لاحظنا ذلك مع سعيد الجهيني الذي يصبح فيه زكريا مبثراً
ومبأراً في آن . وهذا ما رأيناه في الصيغة تحت اسم «المسرود الذاتي» :

«يقول زكريا متبهاً، هذا القسم في الديوان فخرة للسلطان . . . لم يحدث قط أن أعد
شيء كهذا في تاريخ أي بصاص مصري أو افرنجي ، وبإذن الله العظيم سيحيى يوم يصبح
لكل إنسان قسم خاص به . . . » ص 34 .

ومن الناظم الذاتي يتم الانتقال إلى الناظم الخارجي الذي يقدم لنا زكريا بن راضي
مبأراً وهو يقلب الأوراق، ويعاين ما كتب حول أخس الناس من صفحات كثيرة . ومن خلال
هذه الرؤية الخارجية نكون فكرة عن عالم زكريا وحياة الناس في القصة كما هي مدونة في
ملفات البصاص . ومن خلال رؤية سردية داخلية نعاين موقف زكريا من الزيني بركات الذي
لا يجد عنه إلا كلمات قليلة لا تروي غلة ، فيتعجب زكريا من ذلك ، ويقرر أنه سيتكلف
بذلك بنفسه .

3.3. من الناظم تنتقل إلى الفاعل أي من الشكل السردى البرانى إلى الجوانى ومن
خلال الخطاب المعروف، نجد الصفحة الأولى التى كتبها زكريا باعتباره هنا «راوياً» (فاعلاً
داخلياً) ومبثراً داخلياً لموضوع تبثيره «الزيني بركات» الذى يقدم فى جمع من الأمراء
والعلماء طلب اعفائه من الوظيفة . لذلك تبدو لنا هذه الرؤية هنا جوانية داخلية .

4.3. من جديد يستعيد الناظم دوره كراو، وينقلنا إلى مكان آخر هو «كوم الجارح»
حيث الشيخ أبو السعود ومريدوه من الصوفية وضمنهم سعيد الجهيني . ومن خلال الخطاب
المسرود الذى يتكلف به الناظم الخارجى نكون فكرة عن الموضوع المبأر كوم الجارح
وجماعة الشيخ، لينفصل بعد ذلك الناظم عن المبثّر، ويصبح المبأر «التعيين والزيني
بركات» يقدم لنا من منظور الشيخ وسعيد الجهيني، حيث نغدو ندرك موقف الجماعة المضاد
لزكريا بن راضي والمؤيد للزيني بركات. إننا مع الناظم الداخلى نصبح نرى بمنظور الشيخ
ومريديه إلى الحدث الأساس هنا .

4.4. بعد التعرّف على موقف الجماعة من التعيين تنتقل من رؤية سردية داخلية إلى
الخارجية حيث الناظم الخارجى يقدم لنا من خلال الشارع منظور الناس لخبر التعيين
وتأييدهم للزيني بركات .

5.4. إنَّ خبر «التعيين» أساسى فى مجرى الخطاب، لأنه يقرر من سيقوم بالمهمة

الخطيرة في المجتمع بعد اعتقال المحتسب السابق، يبدو لنا هذا على صعيد الرؤية السردية من خلال:

- أ - التعدد: الانتقال من رؤية برانية إلى أخرى جوانية.
- ب - التحول: حيث يتم الانتقال ضمن البراني أو الجواني من الخارجي إلى الداخلي إلى الذاتي.

ومن خلال تضافر هذا التعدد والتحول نصبح ندرك أثر هذا التعيين بجلاء من منظورات عديدة، وتبدأ تتبلور أمامنا صور الشخصيات خارجياً وداخلياً، كما يبدأ تطور الأحداث يأخذ مداه عن طريق قُرْز مواقف الشخصيات الذي نجده منقسماً إلى قسمين:

- 1 - المعارض للتعين: زكريا بن راضي.
 - 2 - كوم الجارح حيث الشيخ أبو السعود وسعيد الجهيني وعامة الشعب مع التعين.
- إن موضوع «التعين» (التبئير) هو الزيني بركات كشخصية مركزية لكننا في هذه الوحدة لا ندركه إلا من خلال إدراك الشخصيات له وموقفهم منه.

IV - الخطبة

1.4. إذا كان «التعين» المنظور إليه من زوايا متعددة ومتحولة، تمتد من الأزهر إلى الشارع إلى كوم الجارح إلى بيت زكريا بن راضي يشكل وظيفة أساسية فإن «الخطبة» كفعل قام به الزيني بركات، لا تحتل في مجرى الخطاب إلا وظيفة ثانوية. ولكن مع ذلك، وبسبب خصوصيتها في إضاءة جوانب ظلت غير مكشوفة حول الزيني بركات، ستحتل مكانة هامة على صعيد الرؤية السردية.

2.4. من خلال الفاعل الداخلي (عمرو بن العدوي) يتم تأطر الفضاء الخارجي الذي ستجري فيه الخطبة، وهو في مجلس يضم مجموعة من الناس، وموضوع التبئير هو الزيني بركات وخطبته. يبدو المبرر المركزي هو عمرو بن العدوي التابع لجهاز زكريا بن راضي. وهو هنا يتكلم أحياناً بالسرد كواحد من الشخصيات، وأحياناً أخرى يتكلم من خلال العرض كباقى الشخصيات، لكن الموضوع يظل واحداً. لذلك يمكننا أن نتحدث هنا، أيضاً عن الناظم الداخلي الذي يتخذ من عمرو بن العدوي مبرراً: يقدم لنا منظور عمرو بن العدوي للخطبة والخطيب (الزيني بركات). لكن في إطار علاقته مع باقي الشخصيات يبدو لنا منظورهم الداخلي للحدث وما يتضمنه من مواقف تجاه الزيني بركات. إنه منظور داخلي، لأننا من خلاله نتعرف على الزيني بركات كما تكونت صورته في دواخل شخصيات عالم القصة.

3.4. رأينا الناظم الداخلي يسجل منظورات عمرو بن العدوي وباقي الشخصيات الداخلية للحدث (الخطبة) ومنه ننتقل إلى الناظم الذاتي الذي يتزوج فيه المبشر والمبار، ومن خلال هذه الرؤية السردية الذاتية نكون صورة عن عمرو بن العدوي الذاتية. فهو يخشى أن يكون مراقباً وستبلغ ممارساته إلى زكريا بن راضي أو مقدم البصاصين الذي يُوبَّخه على أعماله (ص 47).

4.4. من الفاعل الداخلي إلى الناظم الذاتي ندرك الحدث من خلال الرؤية السردية الداخلية للحدث من منظور الناس، وعمرو بن العدوي. ومن هذه الرؤية يتم الانتقال إلى الناظم الداخلي مع زكريا بن راضي كمبشر، ويظل موضوع التبشير المركزي دائماً هو الزيني بركات وخطبته.

وكما رأينا سابقاً مع سعيد الجهيني وزكريا بن راضي إلى الآن بالأخص يقدم لنا منظور زكريا بن راضي من الداخل حول موضوع التبشير. أي أن زكريا بن راضي يكون مبشراً. وفي حال انفصال الناظم عن المبشر تأخذ العلاقة بينهما هذه الأبعاد:

1 - الناظم الداخلي : المبشر ← المبار ← رؤية سردية داخلية .

↙ ↘ ↙

الراوي زكريا الزيني .

2 - الناظم الخارجي : المبشر ← المبار ← رؤية سردية خارجية

↓ ↓ ↓

الراوي الراوي زكريا

3 - الناظم الذاتي : المبشر ← المبار ← رؤية سردية ذاتية .

↓ ↓ ↓

الراوي زكريا زكريا

إن الرؤية السردية هنا دائماً برّانية. وفي تحولها من الداخلية إلى الخارجية إلى الذاتية نكون ندرك الشخصية من كافة جوانبها أي وهي ترى وترى ذاتها، لكن ذلك يتم من خلال الشكل السردى البراني .

وهذه الصورة كما قلنا ثابتة كلما تم التركيز على زكريا أو سعيد أو الزيني أو عمرو بن العدوي من هذه الزاوية كلما وجدنا هذا التحول .

مع الشكل الأول يتلقى زكريا بن راضي باعتباره مبشراً التقارير التي توصل بها عن

الخطبة ومن خلالها يبدو منظوره الداخلي للزيني بركات. وفي الشكل الثاني وقد أصبح مبرأً من لدن الناظم الخارجي تظهر لنا ممارساته: تقنعه بلباس شيخ صوفي وخروجه لمشاهدة الحدث بنفسه: تجمعهم الناس، إلقاء الزيني، الخطبة. ومع الشكل الثالث تبرز لنا صورته الداخلية عن نفسه وهو يتأثر بالموضوع: «كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا كيف لا يراجع نص ما يقوله؟ ثم أن الزيني بركات لم يحتسب بعد؟...» ص 52.

من خلال هذه الأشكال الثلاثة يتبدى لنا إدراك صورة زكريا من كل الجوانب، أي من خلال كل الرؤيات السردية ضمن الشكل الأول. ولعل السبب في هذا يكمن في كون الرواية ليست رواية أحداث كما نجد في غيرها. فالحدث المركزي من خلال صيغة الخطاب المعروض (المرسوم - النداء...) يأتي بشكل مكثف ومركز: «نأمر بتعيين الزيني بركات» أو اعتقل علي بن أبي الجود. «ويصبح السرد بكامله من خلال جوانب الرؤية السردية (من منظور وعمق) ذا أهداف محددة هو تقديم كل «وجهات النظر» أو كل «التبئيرات» أو كل «الرؤيات السردية» لهذا الحدث. وفي هذا الإطار يتضافر الداخلي والخارجي والذاتي، البراني والجواني... وبذلك، نصبح ندرك كل الرؤيات السردية لشخصيات القصة وآثارها عليها.

5.4. حول خطبة الزيني بركات تقدمت إلينا رؤيات داخلية من خلال عمرو بن العدوي والناس، وداخلية وخارجية وذاتية من خلال زكريا بن راضي أي أننا إلى الآن ندرك رؤيات بعض الشخصيات عن الخطبة التي رأيناها بصفة عامة داخلية، لكننا لا ندرك شيئاً عن الخطبة خارجياً؟ نتساءل كمتلقين! وأخرى أن يقدم لنا هذه الرؤية السردية الخارجية الناظم الخارجي كما هو معتاد، وكما سجلنا ذلك في خطاطتنا؟!

حول السؤال الأول، سنجدنا الآن فعلاً أمام رؤية سردية خارجية تقدم لنا «الحدث» (الخطبة) خارجياً. لكن الذي سيقوم بها ليس الناظم الخارجي ولكن الفاعل. ولما كان نعت الفاعل مكتسباً من جهة كون الراوي مشاركاً في القصة (عكس الناظم). فإنه سيقدم لنا الحدث ليس من داخله، ولكن من الخارج. إنه إذن الفاعل الخارجي، وهو كما رأينا في خطاطتنا الوجه الثاني أو المقابل لـ «الناظم الداخلي».

إن الفاعل الخارجي كصوت سردي يقوم بوظيفتين مزدوجتين فهو في آن معاً راو ومبشر، ويظهر لنا هذا في خطاب التقرير الذي أعده مقدم بصاصي القاهرة بناء على التقارير المرفوعة إليه، وهو الذي قرأه زكريا بن راضي. وأهم خاصيات التقرير هو الدقة والموضوعية، ولما كان كذلك فلا يمكنه أن يركز إلا على ما يرى من الخارج.

إن الفاعل الخارجي وهو يقوم بدور المبشر أيضاً يقدم لنا رؤية سردية جوانية خارجية

لا محدودة من حيث العمق، لأن منظوره السردى مركز على الموضوع المبرّ «الخطيب»، لكنه يظل يمتد ويتسع ليشمل الفضاء الذي يحيط بالمبار المركزي (الزيني بركات) من كل الجوانب. لذلك فهو يصف الزيني بركات والجمهور الذي حَجَّ لمشاهدة الزيني والاستماع للخطبة، وكل جنبات المسجد الغاصة بالناس:

«لكن الزيني رفع يده اليميني، مفرودة الأصابع (يده عادية، أصابعه خمس) . . . سرى صوته بين الناس هادئاً، قال ما معناه . . .» ص: 54.

«بعد خروجه من الأزهر، وشق طريقه راكباً بغلة عالية بسرج متواضع وكنبوش عادي (أثار هذا رضاء الناس عنه، قالوا، أنظروا، كيف يكون العدل والحكام!) . . . ص: 55.

6.4. نعين أن هناك تكاملاً بين الرؤيات في تقديم «الخطبة». فإذا كان الرؤيات السردية الأولى داخلية من خلال الشخصيات: عمرو بن العدوي، الناس، زكريا بن راضي، فإن الرؤية السردية التي جليناها من خلال تقرير مقدم البصاصين ذات بعد جواني لكن خارجي ممتد وشامل. وبتضافر الشكلين تكتمل لدينا الصورة خارجياً وداخلياً حول الزيني بركات وخطبته.

7.4. مع الناظم الداخلي، وأيضاً من خلال منظور زكريا بن راضي، تقدم لنا آثار الخطبة على ذاتية زكريا بن راضي بعد أن شاهد بنفسه الحدث، وأُطْلِعَ على تقرير المقدم. وهكذا نجدنا أمام الصورة السابقة التي سجلناها من خلال أشكالها، حيث يتم الانتقال من رؤية إلى أخرى من خلال زكريا بن راضي كمبثر مرة ومبار أخرى، ونذكر من خلال تعدد الرؤيات هذا حوله موقفه متكامل من الحدث ومن الزيني بركات، إن صورة زكريا أصبحت مكتملة من مختلف جوانبها.

8.4. وتنتهي هذه الوحدة بخطابين اثنين (رسالتان) يقوم فيهما معاً زكريا بن راضي بدور الفاعل الداخلي. في الرسالة الأولى التي يوجهها للزيني بركات (ص: 59 / 60)* والثانية إلى الأمراء (ص: 61 / 62). يحاول الفاعل الداخلي في الأولى كسب عطف الزيني داعياً إياه إلى التعاون معه، وفيه يثر قوته وخصوصية جهازه الذي لا يمكن للزيني أن يستغني عنه، وفي الثانية يثر الزيني بركات ليبرز واضحاً أمام الأمراء. ومن خلال هذا التأثير الداخلي يؤلبهم عليه، ويبين خطورته عليهم، ومن خلال الخطابين نجدنا أمام رؤية سردية جوانية داخلية.

V - الزيني حاكماً

1.5. سجلنا على مستوى مضمون السرد إلى الآن تعيين الزيني بركات نائباً للحسبة محل بن أبي الجود المعتقل. كما رأينا من خلال اشتغال الرؤيات السردية وتبدلاتها كيف

أنها متعددة ومتحولة واستتجنا من خلال ذلك تمييز موقفين اثنين من الزيني بركات كموضوع للسرد والتبشير معاً، سواء في هذا الشكل أو ذاك. الموقف الأول وهو موقف سعيد الجهيني وعامة الناس المؤيد لتعيين الزيني بركات والموقف الثاني ضد التعيين ويبرز من خلال زكريا بن راضي وجهاز البصّاصين .

من خلال التعيين والخطبة كما قدما من خلال مختلف الرؤيات السردية يبدو لنا الزيني بركات موضوعاً. لكنه في هذه الوحدة يستلم مهامه رسمياً كمحتسب، وستبرز أفعاله التي ستظل بدورها موضوعاً للسرد والتبشير معاً.

عن طريق «النداء» الذي تقوم به شخصية من القصة، نجدنا أمام الفاعل الخارجي الذي يخبرنا موضوعياً من خلال العرض بتسلم الزيني بركات علي بن أبي الجود وأنه سيمارس وظيفته كمحتسب. إن الحدث هنا كما نلاحظ يقدم لنا من خلال صوت سردي (الفاعل الخارجي)، من داخل القصة لذلك نقول هنا أيضاً إن الرؤية السردية الجوانية خارجية، على اعتبار الحدث (مزاولة الحكم) يبار خارجياً أي يتم الإعلان عنه، لأننا هنا أمام صيغة العرض .

2.5. بعد تقديم الحدث من خلال الرؤية الجوانية الخارجية، ومن خلال صوت سردي جواني، تنتقل مع الناظم الداخلي إلى سعيد الجهيني أولاً كـ «مبشر»، وبعد ذلك إلى زكريا بن راضي كـ «مبشر» مناقض. إن هذين المبشرين (سعيد/ زكريا) إذ يقدم لنا من خلالهما المنظور السردى الداخلي لموضوع التبشير، ذلك لانهما اختزال للموقفين المتعارضين اللذين بدأ تبلوران على سعيد شخصيات القصة.

مع الناظم الداخلي كراو وسعيد الجهيني كمبشر نجدنا أمام الرؤية السردية الداخلية حيث يقدم لنا من منظور المبشر موقفه من الزيني بركات وتعاطفه معه، وتذكر ذهابه وإياه عند أبي السعود في كوم الجارج. وخشيته عليه من زكريا بن راضي وعيونه. ومن هذه الرؤية السردية الداخلية تنتقل مع الناظم الذاتي حيث يصبح الجهيني مبشراً ومباراً. ومن رؤية سردية برانية ذاتية نتعرف على معاناة سعيد وآلامه، وما يتعرض إليه من عيون زكريا، وعلاقته العاطفية مع سماح. ومع الناظم الخارجي أخيراً تنتقل إلى الرؤية البرانية الخارجية حيث يكون الوقوف على علاقة الجهيني بأبي سماح وحديثهما عن الزيني بركات ورضا الناس عنه، وقصة عدل الزيني بركات من خلال حسمه الصارم ضد الخياط (صاحب الغلام) رغم تدخل الأكابر في هذه القصة لصالح الخياط.

إن هذه الرؤيات المقدمة هنا من قبل الراوي (الناظم) تأتي متداخلة ومتناوبة، كما سبق أن غائنا ذلك كلما أرسل الخطاب من جهة هذا الشكل السردى. وسنلاحظ الشيء

نفسه عند الحديث عند زكريا بن راضي كمبثر في هذه الوحدة.

3.5. يعود الفاعل الخارجي من جديد كما رأينا في هذه الوحدة (1.5). ومن خلال «النداء» كصيغة عرضية تقوم فقط بدور الإخبار، يتم الإعلان من غش أحد العطارين واحتكاره، وتغريم الزيني بركات إياه، واستحواذه على سلعته وتوزيعها على العطارين كي لا يبقى احتكار. نلاحظ هنا أن «مزاولة الحكم» كموضوع للتبشير لا تُقدّم لنا من خلال الناظم، إذ هذا ما نجده عادة، ولكن من خلال الفاعل الخارجي، كي تكون الرؤية السردية من خلال ما تتضمنه من أصوات سردية ومنظورات الشخصيات راصدة للحدث «رائية» إليه من وجهة نظرها السردية.

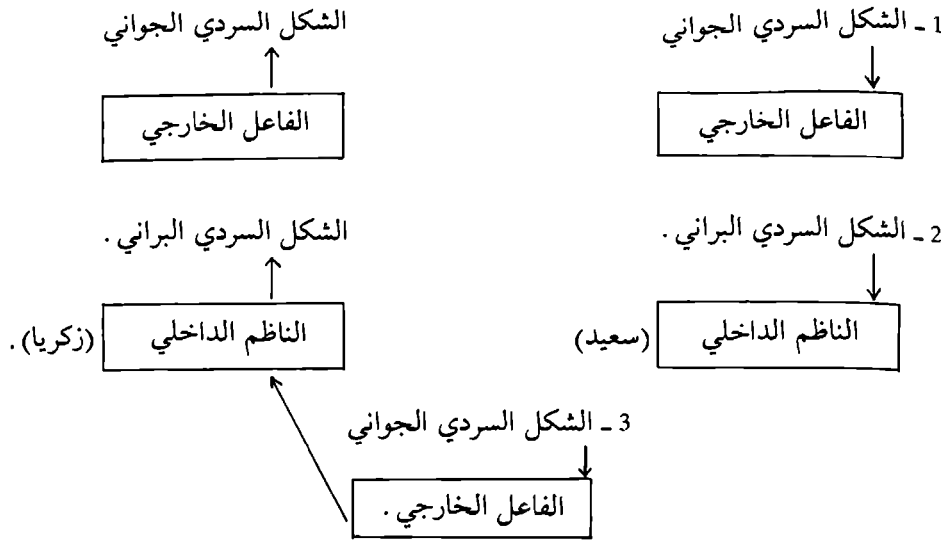
4.5. الناظم الداخلي أيضاً يعود مرة أخرى، لكن هذه المرة ليقدم لنا منظور زكريا بن راضي. إنه الصوت النقيض لصوت سعيد الجهيني. والحالات الثلاث التي رصدنا كلماتها كان الناظم يستعمل ضمير الغائب من خلال تركيزه على شخصية مركزية، هي نفسها التي نجد هنا أيضاً مع زكريا بن راضي، وتجلى هذه الحالات فيما يلي:

يأمر زكريا بن راضي أولاً من خلال الناظم الخارجي عندما يقدم لنا إحدى صوره التي يتمتع بها في حياته وهو على رأس جهاز البصاين حين يقدم على قتل أحد معتقله في داره بسيخ محمى: «زكريا يختنف بدخان اللحم المحترق» خرج. . . عبر إلقاء. . . ص: 77.

أو حين يقدمه لنا أيضاً من الخارج وهو يغازل طيوره ويداعب ابنه. ومن خلال هذه الرؤية السردية البرانية الذاتية عندما يخلو زكريا إلى نفسه وهو يفكر في رسائله وموقف الزيني بركات. وعندما يكون زكريا مبثراً، نجد الناظم الداخلي يسرد من خلال منظور زكريا ما آل إليه موقفه من الزيني من حقد متزايد وهم عظيمين.

5.5. وأخيراً، ومن خلال الفاعل الخارجي (النداء) تقدم مجموعة من الأخبار عن ممارسات الزيني كمحتسب ضد المحتكرين والمرتشين، وبعض العادات والتقاليد التي أمر الزيني بإبطالها مثل دق الطارات في نعي الموت، ومنع الممالك من الخروج ليلاً ملثمين.

نلاحظ أن هذه الوحدة تسير وفق إيقاع متواز على مستوى رؤيتها السردية. فالزيني بركات يزاوّل الآن الحكم. لذلك تقدم لنا ممارسته من خلال الشكل السردى الجوانى عن طريق صيغة الخطاب المعروض. أما آثار ممارساته فتبدو من خلال الشكل السردى البرانى بصيغة الخطاب المسرود. وضمن الشكلين تتناوب الرؤيات على الشكل التالى:



إن الشكل السردى الجوانى مع الفاعل الخارجى يوطر الوحدة ويتوسطها وينتهي بها. ومن خلال تقدم رؤية سردية جوانية خارجية تسجل من خلالها أفعال الزينى بركات. ويأتى الشكل السردى البرانى ضمن الشكل الجوانى، ويتركز من خلال الناظم الداخلى على شخصيتين محوريتين (سعيد/زكريا)، اللذين من منظورهما يقدم المبدأ المركزى (الزينى بركات)، ومن خلالهما أيضاً تقدم لنا رؤيات سردية أخرى تتصل بهما في رؤيتهما لذاتيهما، وفي إنعكاس الأحداث عليها كما يقدمان لنا من خلال رؤية برانية خارجية.

وهذا التوازي في بناء هذه الوحدة يلعب دوراً كبيراً في مقابلة منظورين سرديين حول حدث واحد، كما أنه من خلال تعدد الرؤيات وتحولها بصددتهما تضاء لنا جوانب جديدة من حياتهما وعلاقتهما التي تمتد خارج ذاتيهما.

إن الناظم حين يقدم لنا الحدث من منظور سعيد أو زكريا، لا يكتفى بسرد الأحداث من خلال رؤية سردية خارجية كما اعتدنا ذلك في الرواية التقليدية، وكما سبق أن بينا ذلك من خلال التحليل، بل إنه يخفي وراءهما، ولا يبقى دالاً على وجوده غير إستعمال ضمير الغائب. وبذلك يصبح الحدث بارزاً ومكشوفاً من خلال رؤية الشخصين في تمييزهما وتباعدهما بعضهما عن بعض. وعندما نربط هذا بما رأيناه على مستوى الصيغ وتبدلاتها من مسرود إلى منقول إلى مسرود ذاتي، تكون الشخصيتان تتحركان أمامنا بحرية في فضائهما الخاص ووفق منظورهما المتميز. فتتظّر كل شخصية نفسها من خلال الآخر، وفي تضاد معه في آن حول الموضوع المبدأ الذي إلى الآن رأيناه متركزاً على الزينى بركات.

VI - الفوانيس / زكريا نائباً

1.6 تتداخل الوحدات هنا وتتقاطعان في الآن نفسه. فالأولى لحظية، والثانية تظل مستمرة حتى آخر القصة. بشأن الوحدات السابقة: الإعتقال - التعيين - الزيني حاكماً، تأتي هذه الوحدة عن طريق النداء (الفاعل الخارجي) الذي يلقي الحدث كخبر، أي أنه يكتفي، كما سبق أن رأينا، بتبشير الحدث موضوعياً. لذلك نسمي الرؤية السردية هنا جَوَانِيَّة خارجية. وعلى غرار الوحدات السابقة تأتي الرؤية السردية اللاحقة لتبشير ردود الأفعال حول الحدث المَبَّار مركزياً. وفي سياق تطور أحداث القصة تأخذ هذه الوحدة المزدوجة الحدث مكانة خاصة على مستوى الرؤية السردية. إنها تأخذ نفس الطابع الذي رأيناه في وحدة «الخطية» من حيث كونها متعددة الرؤيات ومتحولتها، وكذلك عمق منظوراتها، كما سنبين. وتأتي هذه الخاصية من كون الزيني بركات يمارس الآن الحكم، وفي إطار ذلك «يستحدث» الفوانيس لإضاءة المدينة ليلاً. وفي الوقت نفسه يعين زكريا بن راضي نائباً للزيني بركات. هذان الحدثان المركزيان يباران كما نَرَى عن طريق الفاعل الخارجي من خلال النداء، وإلى جانبهما يخبر عن عدل الزيني بركات وهو يلغي بعض الضرائب، ويخصص باباً للشكاوي، ويبطل النعي بالطار.

2.6. من الفاعل الخارجي الذي يثير الحدث المركزي تنتقل إلى الفاعل الخارجي (التقرير) الذي يقوم - عن طريق الرصد الموضوعي - بتسجيل كل ما يراه صاحب التقرير بأمانة وموضوعية. إن الفاعل الخارجي مثل الناظم الخارجي راو ومبشر في آن. وفي هذا الإطار نجدنا أمام رؤية جَوَانِيَّة خارجية.

يؤكد الفاعل الخارجي أولاً أن هناك «إجماعاً» لا مثيل له حول كثرة النداءات، واطمئنان الناس بعد النداءات الأولى الخاصة بعدل الزيني بركات. ويسرد بعد ذلك ومن منظور النساء للحدث وهن يتساءلن عن معنى منع إستعمال الطارات في النعي، وإجماعهن على أنها بدعة. إن الفاعل الخارجي يتحول بين الفينة والأخرى إلى فاعل داخلي، ويكتفي فقط بالسرد في حين يبار الحدث من خلال المبشر الذي يركز عليه، وبذلك تصبح الرؤية جَوَانِيَّة داخلية، ولكن ضمن الرؤية الجَوَانِيَّة الخارجية. وبذلك تتعدد المنظورات.

إلى جانب منظور النساء حول منع الطار، نجد منظور ثلاثة رجال يشككون في صحة ما يقال عن فتح باب للشكاوي. وبخصوص الفوانيس يستنتج التقرير وجود معارضين ومؤيدين، وهؤلاء المؤيدون بدورهم يتحفظون.

ينقلنا الفاعل الداخلي إلى الأزهر كموضوع للتبشير، وعن طريق المزاوجة بين منظوره الخارجي ومنظور سعيد الجهيني الذي يصُحِّح هو المبشر، نجدنا تنتقل من رؤية خارجية إلى

الداخلية. في الخارجية نجدنا أمام الفاعل الخارجي وهو يقف على ما كان يفعله الجهيني مياراً:

«أثناء دخولي جامع الأزهر عند الفجر، رأيت طالب العلم الأزهري سعيد الجهيني (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة، كان يكثر من هز قبضته، على وجهه غيظ، وعدم رضا وكمد وحقد دفين. وكلهم مصغون إليه...» ص: 93.

واضح من خلال فعل (رأيت)، أو «على وجهه» كون الفعل الخارجي يقدم رؤية جوانية خارجية عن أفعال سعيد الجهيني الميار. لكن سرعان ما تنتقل إلى الرؤية السردية الجوانية الداخلية، عندما نصبح بإزاء الفاعل الداخلي الذي يكتفي بإعادة سرد ما قاله سعيد الجهيني المبر للحدث. فالحدث في ما ستقدم مثلاً عنه يتكلم فيه الجهيني وفي كلامه هذا يثير النداءين وتعيين زكريا خصوصاً. ويبقى دور الفاعل الداخلي هنا ضئيلاً جداً إذ يُقدّم بصيغة الخطاب المنقول. لذلك عندما نقول هنا إننا أمام رؤية سردية جوانية داخلية يتأكد هذا القول بجلاء:

«وروعت إذ وجدته يشير إلى أمر لم يتردد على ألسنة الناس أبداً، لم أسمع من مخلوق» سعيد الجهيني يعلق علي ما جاء في النداء الخاص بالفوانيس بإقرار شهاب الأعظم زكريا بن راضي نائباً للمحتسب، تركّز كلامه في الآتي:

1 - وقوع قهر على الزيني بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائباً للحسبة.

2 - إنه عليم بالزيني بركات ومتأكد من عدم رضاه عن القرار.

3 - كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما في الأمر، وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه...» ص: 93.

ومن الرؤية السردية الجوانية الداخلية من منظور سعيد الجهيني تنتقل مرة أخرى إلى الفاعل الداخلي وهو يسجل آراء الناس ومنظوراتهم الداخلية من موقعه كـ «فاعل خارجي» كما سبقت الإشارة، في المقهى والمساجد وهم يتندرون بما قاله الشعراء:

«الحق يا متعوس وإلا علقوا لك فانوس» ص: 94.

إن الفاعل الخارجي (كاتب التقرير) كصوت سردي هو مؤطر هذه الوحدة إلى هذه النقطة، لكنه يتحول إلى الداخلي. وفي تحوله هذا تتعدد المنظورات السردية من الداخلي إلى الخارجي، وذلك بتعدد المثيرين: النساء - الشارع - المقهى - المسجد - سعيد الجهيني (الأزهر). وفي هذا التحول والتعدد نجد الميار واحداً: «مضمون النداءات». ومن خلال

تعدد وتحول الرؤيات السردية يمكننا على سعيد مضمون الحكي إستنتاج المواقف التالية :

- 1 - الرضى : العدل (بالاجماع) ما عدا ثلاثة يتشككون .
 - 2 - الرضى : الفوائس (بالاجماع) والمؤيدون متحفظون .
 - 3 - موقف خاص : لسعيد الجهيني ويتجلى في رفض إقرار زكريا نائباً للزيني بركات .
- من خلال الفاعل الخارجي الذي أطر كل هذه الأصوات والمنظورات المتعددة والمتحولة نجد الرؤيات السردية هنا ممتدة وموسعة ، وذات إدراك خارجي ولا محدود .

3.6. ومن الفاعل الخارجي (التقرير) تنتقل إلى الفاعل الخارجي (النداء) الذي يثير مجموعة من الأخبار المتعلقة بفضاء السلطة : «مَلَأَ السُّلْطَانُ لِرْسُلٍ مِنَ الْحَبْشَةِ وَالْبِنَادِقَةِ . وما إنتهى إليها الأميران بشتاك وطلغق من خصومه أدت إلى القطيعة بينها .

4.6. من الفاعل الخارجي تنتقل إلى الناظم الداخلي الذي يقدم لنا من خلال «سعيد الجهيني» المبشر رؤيته الداخلية للحدث المركزي المبأر من لدنه وهو تعيين زكريا نائباً . ومن خلال الحالات الثلاث السابق تسجيلها تنتقل إلى الرؤية السردية البرانية الخارجية وهو يصف لنا خارجياً ما يعانيه الجهيني ومن خلال البرانية الذاتية ما يموج في دواخله من أحاسيس وهواجس حول حبيبته «سماح» ، ورغبته في رؤية مولاه الشيخ أبي السعود :

«حتى الآن لم يحسم أمر الفوائس ، فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوائس .
أهو مع تعليق الفوائس أم ضده؟» ص : 97 .

وفي الرؤية الداخلية يثر لنا زكريا من منظور سعيد الجهيني داخلياً ، وبرز موقفه المعادي له ولممارسته ، ويبدأ يطرح الأسئلة حول علاقة الزيني بركات بزكريا بن راضي .

5.6. ومن خلال عنوان صغير يحمل إسم «قسم خاص» : به «نتف» مما قيل بشأن واقعة الفوائس» ص : 98 ، يبدو لنا أن الفاعل الخارجي (التقرير) هو الذي يتكلف به . وباستثناء بعض الإشارات الدالة على وجود هذا الفاعل كراومثل بعض التدخلات التمهيدية أو الختامية ، فإننا لا نجدنا إلا أمام خطابات معروضة مبارة داخلياً ، وتبقى تلك التدخلات ذات طبيعة خارجية .

يأبر العرض أولاً من خلال المساجد (نتف من خطب الجمعة) حيث الخطيب يلقي خطبته على جمهور المصلين ، فيكون ذم الفوائس باعتبارها بدعة . فيجهر الناس بالبكاء ، ويستجيون قائلين : «اللهم أهدم الفوائس ، اللهم اسحق الفوائس» . ص : 99 .

6.6. كما تبار «فتاوي القضاة» التي تختلف فيها التعابير ، ويتحقق المضمون نفسه :

رفض الفوائيس باستثناء قاضي الحنفية الذي قدّم رأياً مؤيداً لها.

7.6. وتبأراً أخيراً من خلال «الفاعل الخارجي» أقوال الناس: «هتف الخلق في الجوامع والطرقات: لعن الله الفوائيس/ لعن الله الفوائيس» ص: 102

8.6. يعود الناظم الداخلي من جديد ليقدم لنا منظور سعيد الجهيني، ويعرض أحاسيسه الداخلية، وزيارته للزيني بركات قصد الحديث، وإخباره بما جرى حول الفوائيس، وليستفسره حول زكريا وعلاقته به، وحول برهان الدين المقرب إلى الأمراء والسلطان والذي يحتكر الفول دون أن يجد حسيباً أرقبياً. يطول انتظار دخوله على الزيني، وأخيراً لا يلقاه. ومن خلال الرؤية السردية البرانية الذاتية تقدم لنا رؤيته حيال «سماح» و «زكريا» ومجدداً حول «الزيني».

9.6. يبار مرسومان سلطانيان من خلال الفاعل الخارجي عن طريق الإخبار كما رأينا في النداء. ومعاً يقضيان بإقالة قاضي الحنفية الذي أيد الفوائيس، وإبطال عادة الفوائيس. وأثار هذين المرسومين على قاضي القضاة والأمراء والكبراء الذين يبار تأييدهم «المكتوب» للقرار السلطاني حول الفوائيس.

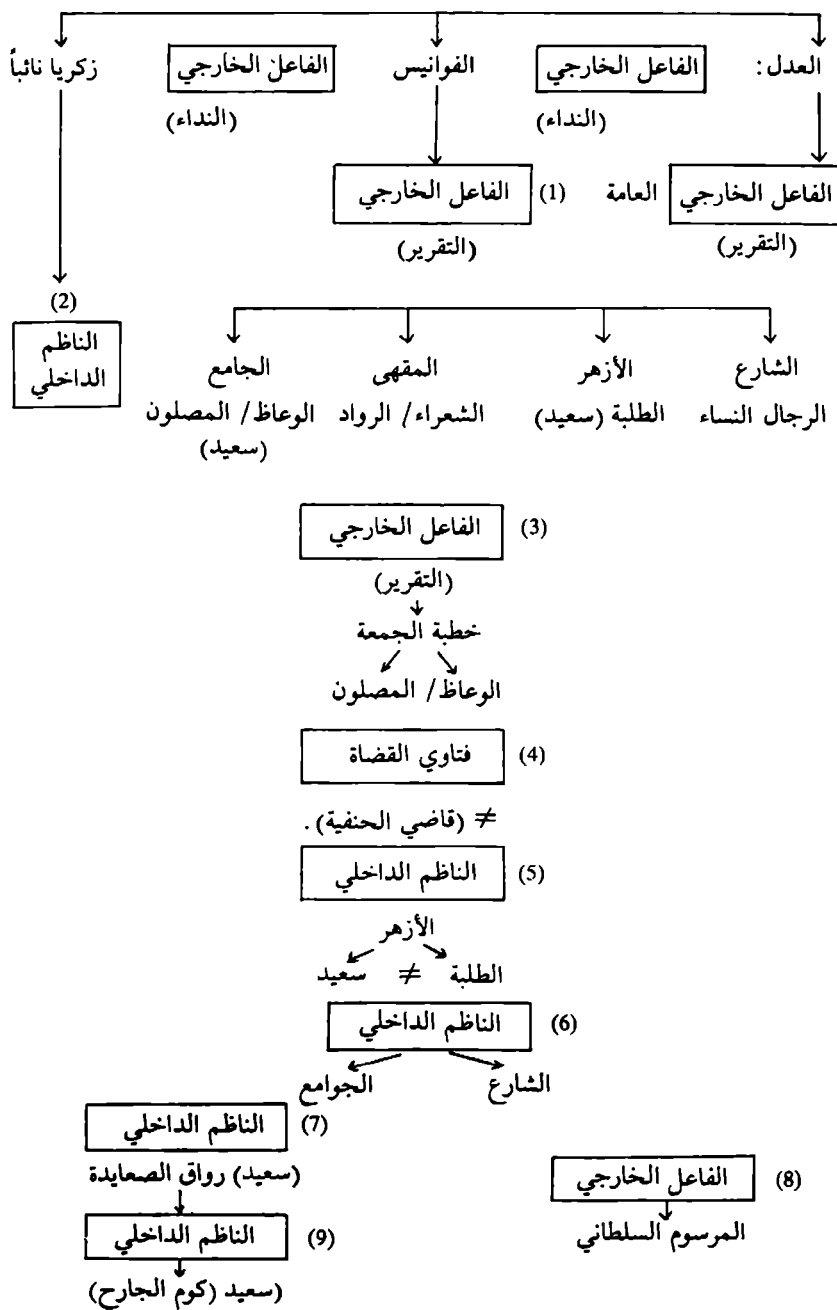
10.6. وأخيراً ومن خلال الناظم الداخلي، يثر سعيد الجهيني الحدث المركزي وما يلتحق به. ومن خلال صيغ العرض غير المباشر والعرض المباشر يبار سعيد الجهيني والشيخ أبو السعود خارجياً من خلال الناظم الخارجي: وهما يتحاوران حول الحدث الجديد «إلغاء الفوائيس» ومن خلال الرؤية السردية البرانية الداخلية «يلخص» سعيد الجهيني بالضمير المتكلم كل هواجسه لمولاه الشيخ أبي السعود، ويركز بالأساس في تبثيره الداخلي على «برهان الدين محتكر الفول» الذي لم تمسه «حسبة» الزيني، وحالته الشخصية التي يعاني منها، ومُتَبَاعَاتِهِ العديدة من قبل عمرو بن العدوي (عين زكريا على سعيد):

«مولاي أعذرني لأنني وضعت أثقالها كلها عندك. . لكن ما حيلتي والزمان يلجمني ويكسر فكي، ويخرس البوح في صدري». ص: 108.

11.6. إن هذه الوحدة «المزدوجة» إذا صح التعبير تشكّل منعطفاً كبيراً في مجال صيرورة الحكيم. ونقصد بذلك بداية احتدام وتطور الحدث بالشكل الذي يعطي القصة بعداً تصاعدياً وفرياً على مستوى الأحداث والشخصيات. حدث الفوائيس المبأر ليس بسيطاً في عالم القصة: إنه أول اختبار لتجربة حكم الزيني. كما أن تعيين زكريا بن راضي المبأر هنا أيضاً ليس قليل الأهمية. لكن حدث الفوائيس كان المبأر المركزي، بينما التعيين كان موضوع التبثير الثانوي. ولأ جرم أن تعدد الروايات وتحولها له أكثر من دلالة حول الفوائيس، بالمقارنة مع تعيين زكريا الذي نجدنا بصده أمام رؤية أحادية وثابتة. وهذا

الشكل حول الوحدة بكاملها يبين لنا ذلك.

الوحدة VI: الفوانيس / زكريا نائباً



نعاين بجلاء خصوصية هذه الوحدة . من حيث أولاً كثرة أصواتها ومنظوراتها . فهي تذهب من الشكل السردى البرانى إلى الجوانى . ومن الأصوات السردية الخارجىة إلى الداخلىة إلى الذاتىة ، ومن المنظورات أيضاً وكذا عمقها نجده لا محدوداً وشاملاً . إن الرؤىات التى ضبطناها فى خطاطاتنا كروىيات عامة وأصيلة ، إلى أخرى فرعىة ، تتم فيها الرؤىة الذاتىة من المنظور البرانى ، والجوانىة من الخارجى والعكس . لأننا لمسنا من خلال تداخلات الرواة بالمبشرين ما يدعو إلى ذلك . وإذا كانت الرؤىة السردىة حول «حدث الفوانيس» متعددة ومتحولة . فإن حدث تعيين زكريا ظل أحادياً إذ نعاين ذلك دائماً من منظور سعيد الجهينى وثابتاً على المستوى العام بالمقارنة مع حدث الفوانيس ، وإن كان بدوره متعدد ومتحولاً على مستوى خاص بسبب وجود الحالات السردىة الثلاث التى من خلالها يقدم لنا سعيد الجهينى ، إذ أن رؤىته تذهب من الذاتى إلى الداخلى ، وأحياناً ترصد رؤىته من الخارج من قبل الناظم الخارجى .

وفى إطار العلاقة بين هذه الرؤىات من خلال الشكلين السرديين من حيث اشتغالهما نجد الحدث الأول يقدم لنا بشكل أساسى من خلال «الفاعل» باعتباره مشاركاً ، والحدث الثانى يُقدّم من خلال «الناظم» . ولما كان الفاعل جوانياً فطابع الرؤىة سيكون جوانياً ، والعكس مع الثانىة . لكن التداخل بين الشكلين يلغى هذه الصورة ويقدم التمايز بين الرؤىتين فى تباعهما . إلى جانب هذا التمايز ، نجد الحدث الواحد منظوراً إليه من لدن أشخاص متعددين من جهة ، ومن جهة أخرى تعدد رؤىته من قبل الأشخاص أنفسهم ، فالمبار المركزى يصبح بمثابة الموضوع من خلال ذواته الكثيرة . ويصبح المبار الثانوى ذات الموضوع من خلال رؤىة سعيد للجهينى وهو يرصد كافة الرؤىات من خلال تركيزها على الثانوى (الفوانيس) وإهمالها الأساسى (التعيين) الذى يجليه ويبرزه . وهكذا نستخلص إلى جانب التعدد والتحول على صعيد الرؤىة السردىة التناقض . فالرؤىات السردىة تتناقض حول الحدث . وسمة التناقض هاته تبرز لنا - من خلال هذه الوحدة المزدوجة - خصوصية السردىة فى الزينى بركات .

VII - الإعدام

1.7 كانت الوحدة الثانىة فى الخطاب ، وهى الحكى الأول ، هى «اعتقال» على ابن أبى الجود المحتسب الذى سيعوضه الزينى بركات ، وعندما بدأ الزينى يمارس وظيفته علمنا عن طريق النداء (الفاعل الخارجى) أن الزينى تسلم المحتسب المعتقل ليستخرج منه الأموال التى نهبها . وبعد سنتين من تاريخ تسلمه إياه ، يتم الكشف عن الأموال ، ويقدم ابن أبى الجود للإعدام .

2.7. عن طريق الفاعل الخارجي (المنادي) يتم الإخبار عن فضائح علي بن أبي الجود، وقرار إعدامه غداً. ويدعو النداء الناس إلى المساهمة في هذا الفعل، إن حدث «الإعدام» يقدم شأنه شأن أهم الأحداث عن طريق النداء.

3.7. من الفاعل الخارجي (المنادي) تنتقل إلى الفاعل الخارجي (الخطباء في الجمعة) الذين يثيرون من خلال الخطبة ما ورد في الوثيقة السلطانية التي تكشف ممارساته، وما جناه علي بن أبي الجود من أموال وذخائر خلال توليه الحسبة، وتدعو الناس إلى الخروج للتفرج على إعدامه. إن الخطابين (النداء - الخطبة) متكاملان، أي يكمل بعضهما بعضاً من خلال تبثير الحدث، ولذلك، ومن خلال الصوت السردى المقدم نجدنا أمام الفاعل الخارجي الذي يقدم أخباراً، ومن خلال تبثيره إياها - موضوعياً - وخارجياً يصبح الحدث أمامنا مبرراً من الخارج. فالرؤية السردية هنا جوانية خارجية.

4.7. إذا كان النداء والخطبة الموجهان إلى الناس يقدمان لنا ما سيقع لابن أبي الجود، وما سيلقيه من عذاب، فإننا وعن طريق الفاعل الخارجي أيضاً (التقرير) سيتم الكشف عما لقيه علي ابن أبي الجود من تعذيب خلال مدة الإعتقال. إن الفاعل الخارجي لا يكتفي فقط بوصف ما عاناه ابن أبي الجود، ولكنه من خلال تبثيره إياه يقدمه لنا من الداخل. هذا الداخل الذي لا يمكن أن ينفذ إليه البصاضون. وليس الداخل هنا متصلاً ببيكولوجيا المبرأ، ولكن بما كان يتعرض له «سرياً»، ولما ليست لأي أحد إمكانية الاطلاع عليه. فإن الداخلي هنا يأخذ معنى الباطني. لذلك فإننا هنا من خلال الفاعل الخارجي تنتقل إلى الداخلي الذي يثير لنا الموضوع من «الداخل» غير المكشوف، وهنا سنجدنا أمام رؤية جوانية داخلية.

مع هذا الفاعل الذي يأخذ هذين الصوتين (الخارجي والداخلي) يتم الكشف عن وقائع التعذيب وطرقه التي تستعصي على الإدراك لينتهي بعد ذكره بالتفاصيل إلى:

«هذا ما وصلنا من وقائع تعذيب علي ابن أبي الجود. لكن الثابت فعلاً - وهذا مُتَجَرِّبٌ - عدم إقراره بمكان المال...» ص: 119.

5.7. إذا كان الإعلان عن وقائع التعذيب يأتي عن طريق الفاعل الداخلي، فإن الفاعل الخارجي يعود من جديد. ومن خلال النداء يدعو الناس إلى الخروج لمشاهدة الإعدام:

«أمرنا مولانا السلطان / بإعدام علي بن أبي الجود / ضرباً بالأكف / سيقص على طوال الطريق / كما ترقص النساء / اضربوه / اضربوه / كلما كَفَّ». ص 120.

6.7. عن طريق الفاعل قدم الاخبار عن الحدث، وعن وقائع التعذيب، لكننا عن طريق الناظم سنعاين / ندرك آثار الإعدام من خلال الرحالة الإيطالي الذي يزور القاهرة لأول مرة. إنه غير مشارك في القصة. لكنه وقت الإعدام سيحضر، وسيمارس السرد. إنه ناظم. ولما كان هذا الناظم يزواج بين المشاهدة والوصف فهو ناظم خارجي، لكنه عندما يقدم لنا المبدأ من داخله، فإنه يغدو ناظماً داخلياً. نعاين هذين الشكلين معاً من منظور الرحالة الإيطالي لمشهد الإعدام.

من المنظور الخارجي يقدم حدث «الإعدام» باستعمال ضمير المتكلم. يبدأ بوصف موكب الزيني بركات وتبشيره إياه من الخارج، وازدحام الناس وصياح المنادين بضرب علي كلما امتنع عند الرقص، معلقاً على هذه الطريقة في الإعدام.

«والحق هذا أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به» ص: 121

ناقلًا عن مترجمه ما يقول المنادون عن «تعيين» الزيني بركات والياً للقاهرة إلى جانب منصبه كمحتسب. وأن الزيني لم يقبل هذا إلا حرصاً على راحة الخلق. لكن الناظم الخارجي يتحول إلى ناظم داخلي عندما يتطور مشهد الإعدام ويطول ضرب علي بن أبي الجود، بانتقاله من المنظور الخارجي المنذهل بهذا المنظر الذي لم ير مثله قط إلى منظوره من الداخل إلى الحدث. ينفعل بهذه الطريقة في الإعدام ويعبر عن أحاسيسه الداخلية ورؤيته للحدث.

«ابتلعت لُعابي، وجه الرجل الشائه المذعور، جسمه يسد الفراغ، والحق أنني فزعت» ص: 122.

إن رؤية الناظم تنتقل من الخارج إلى الداخل تدريجياً وتظهر مسحة انفعاله بالحدث وتأثره به بدرجة تقل كثيراً عما رأيناه في الوحدة الأولى (بدايات الهزيمة)، حيث لم تختلف رؤيته الداخلية عن باقي الرؤيات - غير المعروضة - لواقع القاهرة وهي تعاني من الخوف والهلع.

من الفاعل إلى الناظم نجدنا نتقل كما سجلنا ذلك مراراً من الحدث المبدأ من داخل القصة إلى إدراكه من خلال رؤيات الشخصيات، مع الوقوف على آثاره عليها داخلياً. إن الحدث يقدم «جوانياً» لكن من خلال رؤية خارجية، ويدرك «برانياً» لكن من خلال رؤية داخلية. وسنعاين في نهاية التحليل خصوصية هذه المعادلة.

VIII - اللقاء

1.8. إلى حدود تعيين «زكريا نائباً» للزيني بركات، كان التباعد جلياً بين الزيني وزكريا، وأكثر جلاء بين سعيد الجهيني وزكريا. في حين كان التقارب واضحاً بين سعيد

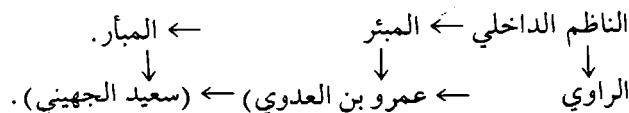
والزيني، ومع الوحدة السادسة بدأ هذا «التفاعل» يأخذ منحى آخر من خلال منظور سعيد الجهيني تجاه الزيني. وسيكون «اللقاء» بين زكريا والزيني حلقة جديدة في مسار تطور أحداث القصة.

2.8. إذا كانت الأحداث المركزية، كما شاهدنا، تبأر عادة من خلال الفاعل، ويكون للناظم دور رصد ردود الأفعال حول موضوع التبشير. فإن حدث اللقاء لا يبار مثل الأحداث السابقة إذا لا يمكن للمرسوم السلطاني أو النداء أن يعلننا عن «اللقاء» بين الزيني وزكريا لذلك فنحن نتعرف على الحدث من خلال الناظم الداخلي الذي يسرد من منظور زكريا بن راضي الداخلي للقاء الذي جرى بينه وبين الزيني، وهو في حالة شك واضطراب. فالمبار «اللقاء» يقدم لنا من خلال المبرر زكريا بن راضي، لذلك يقدم من الداخل. يجيء رسول من الزيني إلى زكريا طالباً منه مصاحبته إلى الزيني. ومن خلال اللقاء يعلن الزيني لزكريا أنه يعرف قبر «شعبان»، غلام السلطان، ويسأله أن يريه مكنم أحوال علي بن أبي الجود (?).

إن اللقاء تم بينهما حول قضية محددة، لكن أبعاده ستستمر إلى نهاية القصة. يقدم اللقاء كما قلنا من خلال منظور زكريا بن راضي الداخلي. ومن خلال الناظم الذاتي، ودائماً من «ذاتية» زكريا، وعبر المسرود الذاتي (بضمير الغائب)، يتساءل زكريا الحائر عن كيفية نفوذ الزيني إلى معرفة قصة القتل. يحاول زكريا العودة إلى الماضي باحثاً عن عين الزيني عليه وهو في بيته.

3.8. بعد اللقاء المباشر بين الزيني وزكريا الذي أدركناه من خلال منظور زكريا بن راضي عبر الناظم، يأتي الفاعل الداخلي من خلال الخطاب المبار (الرسالة) التي يبعث بها الزيني بركات إلى زكريا بن راضي بصيغة ضمير المتكلم. وفيها يبشر الفاعل الداخلي (الزيني) من الداخل العمل المشترك لـ «إقامة العدل» في البلاد، وذلك بتقسيم مصر حسب الفئات الاجتماعية وتخصيص طبقات من البصاصين حسب تلك الفئات. وضرورة حصر المواليد وضبطها لوضع كشف لمن سيأتي، مع إلزام كل فرد بحمل بطاقة جلدية كهوية. ونصح في نهايتها زكريا بإلغاء الحكايات والنكات التشنيعية ضده.

4.8. في الوقت الذي يجري فيه «اللقاء» بين الزيني وزكريا، يكون «عمرو بن العدوي» كمبرر من خلال الناظم الداخلي، يراقب حركات سعيد الجهيني، ويستفسر عنه في حال غيابه عن الأزهر. يجلس مختبئاً ليبرر سعيداً من الخارج ما دام مكلفاً بمراقبة أفعاله وتصرفاته. وهنا نجدنا أمام رؤية مزدوجة:



فمع الناظم الداخلي يتم تبثير عمرو بن العدوي . ما دامت التبثير يتركز على عمرو بن العدوي باعتباره شخصية مركزية . لذلك فنحن هنا أمام رؤية برانية داخلية . وعندما يبتث عمرو بن العدوي سعيد الجهيني من منظور خارجي نكون أمام رؤية «جوانية» خارجية . لكن هذا الجواني تم من خلال الناظم ، لذلك نصبح أمام رؤية برانية - جوانية خارجية . وهذا ما يفسر كونها مزدوجة .

إن وحدة اللقاء أطول الوحدات من حيث الزمن إذ أنها تستغرق ست سنوات ، أي منذ إعدام علي بن أبي الجود إلى عودة الزيني من إحدى المهام كمحتسب خارج القاهرة . وخلال هاته المدة ، يمكن أن نستشف تواطؤ الزيني وذكريا في إطار «العمل المشترك» رغم تَجَافِيهِمَا الظاهري .

5.8 . من خلال «الفاعل الخارجي» يبار النداء مخبراً عن سفر الزيني بركات إلى دمياط والمنصورة ، ويعلن نيابة عبد العظيم الصيرفي عن الزيني في مهامه خلال غيابه .

6.8 . ما رأيناه في (4.8) تحت اسم الرؤية السردية المزدوجة ، يقوم الفاعل الخارجي بدور الراوي والمبثّر معاً من منظور خارجي (عمرو بن العدوي) من خلال التقرير المرفوع إلى مقدم البصاصين ، وفيه يتم تبثير تحركات سعيد الجهيني وتردده وعلى بيت الشيخ ربحان ، وانفراده بسماع مرتين في حدائق بولاق . نعاين بجلاء أن موضوع التبثير ستركز على سعيد الجهيني ، وهذا التبثير كان سابقاً يركز على الزيني بركات بالدرجة الأولى وأفعاله .

7.8 . خمس نداءات من خلال الفاعل الخارجي كصوت سردي يتم الاخبار عن بقاء الأسعار كما خلفها الزيني ، والعقوبات الصارمة التي تعرض لها زائد في الأسعار ، مع قطع السنة ثلاثة شبان يثيرون البلبلة بنشر الأخبار الزائفة ، وتسليم ثلاثة مغاربة يراسلون ابن عثمان ، وعن الصلاة التي سيؤمها زكريا بن راضي .

8.8 . ومن خلال الفاعل الداخلي (زكريا بن راضي) . تَبَارَّ رسالة يوجهها إلى الزيني بركات وهو خارج القاهرة ، يخبرها فيها عن حياة الشيخ ربحان والوظائف التي شغلها ، وبعض الصفات التي يمتاز بها ، ثم قصة سعيد الجهيني ، منذ مجيئه من قريته «جهينة» وإقامته في بيت الشيخ ربحان ، وارتباطه الشديد بابنته سمح ، وجهل ربحان للعلاقة العاطفية التي تجمع بينهما ، ويخبره باستمرار متابعة سعيد الجهيني .

نعاين من خلال تطور المقاطع السردية في هذه الوحدة هيمنة الفواعل ، وباستثناء الناظم الذي يقدم منظور زكريا للزيني ، ومنظور عمرو بن العدوي لسعيد الجهيني ، نجد أغلب الفواعل خارجية المنظور ، أي أن رؤيتها جوانية خارجية ، وتتركز في أغلبها على سعيد الجهيني الذي غدا موضوع التبثير بامتياز ، إلى جانب موضوعات أخرى تتصل ببعض

الممارسات اليومية التي يعلن عنها من خلال النداءات. إننا بغياب الزيني عند القاهرة تتغير الرؤيات السردية من جهة علاقتها بالمبار وتغدو أكثر أحادية وثباتاً.

9.8. يتبدى لنا هذا أيضاً مع الفاعل الخارجي (النداء) الذي يخبر عن قرب مجيء الزيني بركات من خارج القاهرة ودعوة الناس لملاقاته، وتعرض كل متأخر للعقاب.

10.8. إن الأحداث إلى هذا المقطع السردى تكاد تعرف نوعاً من الرتابة والثبات. وكأن «حسم» الصراع بين زكريا والزيني هو ترتيب للأوضاع، وإحكام قبضة اليد على الرقاب. ولعل إختزال زمن الخطاب لهذه السنوات الست يكتسب أكثر من دلالة على مستوى هذه الوحدة «اللقاء» التي تمثل في تقديرنا محور الرواية، ورأس هرم معمار الخطاب، والذي سيأتي بعده الانحدار نزولاً إلى أسفل الهرم.

يبدو ذلك على مستويين:

أ - على مستوى الحدث: إذ أنه بدأ يعرف نوعاً من السكون عكس ما رأيناه سابقاً. وبدل سفر الزيني على هدوء الأوضاع واستقرارها نسبياً، باستثناء بعض الأحداث البسيطة التي لا أثر لها على مجرى القصة... كما أن إقامة زكريا الصلاة بالناس دليل آخر على هذا السكون، وذلك بـ «تغير» موقف الناس حياله، حيث بدأ يتسم بنوع من الرضى.

ب - على مستوى الرؤية السردية: بدأت الأحداث تعرض من خلال كثرة النداءات (سبعة) والتقارير (اثنان) والرسائل (اثنتان)، وجميعاً تتم من خلال الفاعل الخارجي أو الداخلي، كما أن موضوع الرؤية (أو التبيين) تغير بشكل جوهري، وأصبح شبه ثابت حول «سعيد الجهيني» الذي ظل موقفه معارضاً لكل ما هو سائد. لكن سرعان ما سيحدث التحول - على هذا الصدد - بقرب عودة الزيني بركات من رحلته خارج القاهرة.

11.8. يتجلى لنا هذا التحول أولاً من خلال الناظم الداخلي الذي يسرد من خلال منظور سعيد الجهيني الداخلي ما آلت إليه الأمور. ومن خلال الحالات الثلاث المتصلة بالتبدل السردى كما سبق تسجيلها مراراً كلما كنا بإزاء هذا الناظم، نجدنا أولاً مع كوم الجراح حيث الشيخ أبو السعود ومريدوه يمارسون العبادة والتأمل في مناخ صوفي روحي. كل هذا يبار خارجياً من لدن الناظم الخارجي. ومن خلاله تُقدّم لنا رؤية سردية برانية خارجية عن هذا الفضاء الذي يلجأ إليه سعيد الجهيني، كفضاء مناقض للشارع أو رواق الصعايدة في الأزهر. في هذا الفضاء يبار سعيد الجهيني من الداخل، فنصبح أمام عذاباته وهمومه الكبيرة عارضاً رؤيته الداخلية للقاء بين الزيني وزكريا الذي توج بتزويج حبيبته «سماح» من أحد الأكابر، وحضور العرس عليه القوم وأمرأؤهم، وحتى الزيني بركات نفسه

بارك هذا الزواج، وهياً له حفلة عشاء، بل وحتى محتكر الفول برهان الدين. ومن الرؤية السردية البرانية الداخلية من خلال تبثير سعيد الجهيني الداخلي للأحداث التي نتعرف عليها أول مرة، ما دامت تخص سعيداً (زواج حبيبته)، تنتقل إلى الرؤية البرانية الذاتية التي يتم فيها تبثير ذات المبثّر (الجهيني):

«وليلة زواج سماح طاق سعيد، طير لم يكتمل ذبحه. كل هؤلاء الأكابر جاؤوا إلى العرس...» ص 158.

إذا كان «اللقاء» بين زكريا والزيني لم يشر أحداً، ولم يبارأ إلا من منظور الجهيني. فهو وحده الذي يجرجر وعيه الشقي: زواج سماح (تاج اللقاء)، وزكريا تقبل يده بعد إمامته الصلاة، والباطائق تسرح إلى ابن عثمان (الخيانة). كل هذا يقدم من منظور سعيد الجهيني، الصوت المنفرد. إن زواج سماح في فترة اللقاء يأخذ بعداً رمزياً، يمكننا أن نعود إليه في التحليل!.

12.8. من منظور زكريا بن راضي، وبنفس الرؤيات التي رأيناها مع الجهيني، نلتقي من جديد مع الناظم الداخلي الذي من خلال تبثيره على زكريا، يقدم لنا منظور للتطور الذي تعرفه الأحداث، في الرؤية السردية البرانية الخارجية يقدم لنا زكريا من الخارج: يقوم بإرسال الرسائل التي أعدها بإيعاز من الزيني بركات إلى كافة بصاصي العالم للاجتماع في القاهرة قصد تبادل الخبرات والتجارب، ومن خلال تبثيره من الداخل، يسترجع مع زكريا باعتباره مبثراً هدف الزيني من السفر خارج القاهرة: تعهده للسلطان بجمع 30 ألف دينار من دمياط. ليكون الانتقال إلى الذاتي، ليرز لنا حيرة زكريا عن الكيفية التي سيمارسها الزيني لاستخراج هذا المبلغ الضخم ورغبته في الانتقام منه، ويكون الرجوع أخيراً إلى الرؤية البرانية الخارجية حيث يتم رصد أفعال زكريا، وهو يقوم بتسريح العيون في أثر الزيني لمراقبته، وفي الوقت نفسه كتابة رسائل إلى الأمراء يوغر صدورهم عليه ليقتلوه.

مع الناظم الداخلي، وهويثراً كلاً من سعيد وزكريا نعاين اننا أمام الرؤيات التي اعتدنا تسجيلها، لكننا هنا يمكن أن نستخلص تناقض رؤية سعيد وزكريا للموضوع المبار.

13.8. نلتقي مجدداً مع الناظم الداخلي الذي يسرد من منظور زكريا عودة الزيني، ولقاءه المباشر به. يباران معاً خارجياً من خلال حديثهما عن الأزهر، والأمور التي تحدث فيه:

«مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حق السلطان، بل يتعرشون بسمعة زكريا والزيني...» (ص 166).

وعن سعيد وعن رغبة الزيني في معرفة أشياء كثيرة عنه بعد زواج سماح ، وإدماحه الدخان والجلوس في المقهى :

«مال الزيني ، واسند ذقنه إلى يده ، أكثر من إطلاق رجالك في أثره ، بحيث لا يكون الهدف رصد حركته ، وإنما إشعاره أن هناك من يرصدها...» .

هز زكريا رأسه «فعلنا ما هو أكثر . . أمرت رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوت عال ، كاد يجن . . .» ضحك الزيني « . . عال . . عال . . وأخبار الصلاة؟» ابتسم زكريا ، «يدي قبلة الشفاء» . «يزيد ضحك الزيني» ص : 166 .

من خلال الناظم الخارجي يبار زكريا والزيني ، ومن خلالهما يبار سعيد الجهيني ، ويتحول موضوع التبئير من الزيني إلى الجهيني ، يتبين لنا بجلاء التطور الذي حصل على مستوى الأحداث ، وكيف تم التعبير عنه على مستوى الرؤية ، فالناظم الخارجي يرصد العلاقة بين الزيني وزكريا ، ونصية الأول الأخير بأن يصبح محبوباً عند الناس ، وذلك بخلق «مشاهد» مختلفة في الأسواق ، يكون هو الفاصل فيها وفق الحكم الذي يرتضي العوام ، وذلك عن طريق الانتصار للمظلوم ضد الظالم . ويخبره زكريا بأن الأمراء يحتالون عليه ليقتلوه ، وينصحه بأخذ الحذر ، فتتمتن العلاقة بينهما ، لكن زكريا ، ومن خلال الناظم الداخلي الذي يبث زكريا من الداخل بين لنا نوايا زكريا المبيتة ضد الزيني ، وإصراره على الكيد له ، فيرسل في طلب أبي الخير المنافع المشهور بشره وخبثه ليدبر مكيده للزيني .

بعد رتابة الحدث وثبات الرؤية كما سبق أن كشفنا ، بدأ الحدث يعرف نوعاً من التطور . وحتى الرؤية بدأت تأخذ طريقاً آخر . فبعد تقديم رؤية سعيد الجهيني الداخلية والذاتية للقاء وانعكاساته عليه أولاً ، وتقديم رؤية زكريا بن راضي ، والزيني بركات ، الخارجية والداخلية حيال الجهيني ستأخذ الرؤية بعداً آخر ، ولا سيما منذ أن عاد الزيني بركات ، وإقدامه على إلقاء خطبة يخبر عنها الفاعل الخارجي من خلال النداء .

14.8 . الناظم الخارجي (الرحالة الإيطالي) يسرد مشاهداته للقاهرة في الوقت الذي يلقي فيه الزيني بركات خطبته ، يبدأ أولاً بتأطير من الخارج ، ومن خلال رؤية برانية خارجية وأخرى داخلية تقدم لنا صورة كاملة عن خطبة الزيني ومحيطها الخارجي الذي تلقى فيه .

يصف الناظم الخارجي المدينة وجليانها الذي لم يعهده في فترات سابقة ، وموكب الزيني وإيقاعه المنتظم ، وثناء الناس على الزيني وعدله . ومن خلال الرؤية السردية البرانية الداخلية ، يقوم الناظم الداخلي بتبشير كلام عجوز وردود أفعال مستمعيه . قال العجوز المبأر : «أنا أعرف عنه ما يُقشعر الأبدان... لكن الحضور نظروا إليه ، سكتوا لحظة» (ص 170) .

ويعلق الناظم الخارجي :

«تسابقوا في الثناء على ابن موسى ، كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوماً .
ينفون استماعهم إلى العجوز . أي أمر محير هذا؟ الناس تحب شخصاً بعينه ، كل
لسان يحمد سيرته ، يشني عليه . في الوقت نفسه يسري شيء خفي» . (ص 171) .

ويستمر الناظم من خلال الرؤيتين عبر تداخلهما في سرد وتبشير الخطبة . يعرض
كلام الزيني الذي وضع فيه الغاية من أسفاره ، وجمعه زيادة على الأموال التي تعهد بها
للسلطان دون أن يشكو أو يتذمر أحد . وما كان السلطان قد عزم عليه من فرض ضرائب
جديدة لولا شفاعته الزيني فيهلل الناس : «حماك الله . . حماك الله» . ثم يعرض الزيني
بركات ما قام به الشرير أبو الخير المنافع الذي تعهد للسلطان باستخراج 60 ألف دينار
فكان جزاؤه السجن . ويشير الزيني إلى نائبه زكريا منوهاً بجلال أعماله ، فيهدف
الناس : «أبقى الله زكريا/ لعن الله أبو الخير» .

ودائماً ومن خلال الرؤية البرانية الخارجية يرصد الناظم ردود أفعال الناس الإيجابية
على ما يقوله الزيني ، إلى أن يصرخ صوت من أقصى المسجد «كذاب» . يصف الناظم
الخارجي الضباط رد فعل الزيني بركات ويعجب به ، وبعد الصمت الذي ساد ، يتابع الزيني
الخطبة وسط الهتاف والدعاء .

نعائين من خلال سرد الناظم وتبشيره للخطبة أن هناك مجموعة من الأحداث التي سبق
أن رأيناها سابقاً «سفر الزيني - استدعاء زكريا أبي الخير» كيف أنه يجاب عنه هنا من خلال
الخطبة ، كما أن اللقاء يصل ذروته هنا . لكن حدث كيفية استخراج الأموال الهائلة لا تُقدّم
لنا هنا إلا خارجياً من خلال الناظم الخارجي .

15.8 . من الناظم الخارجي (الرحالة الإيطالي) تنتقل إلى الناظم الداخلي من خلال
سعيد الجهيني ، ومن خلال الرؤية السردية البرانية الداخلية من منظور سعيد الجهيني
الداخلي يتم تقديم رؤيته لخطبة الزيني بركات ، تتداخل الأصوات المختلطة في رأسه وقت
الخطبة ، وصخب العرس عندما زوجوا سماح حبيبته ، فيبدي تأفقه من :

«زمان إمامه الزيني وشيخه زكريا . . ما الذي بقي ليحرص عليه ، زمن إمامه الزيني ،
وشيخه زكريا ، وسدنته البصاصون ، وكاتم سره عمرو بن العدوي . . .» (ص 184) .

ف «ينظر» باعتبار المبرر الداخلي زكريا الذي تقبل يده ، والناس يدعون له وابن سيد
الناس ما يزال يحتكر الفول ، يتذكر المرأة التي صرخت في وجه الزيني «يا لثيم . . يا ابن

اللئيمة» وإنه الزيني في المسجد: «أنت تكذب...». ومن خلال تبثيره ذاته تكشف لنا هواجس الجهني الذاتية، عذابات بعد زواج سماح، عدم ثقته في الزيني، خوفه على حاضره المظلم ومستقبله المسدود.

نلاحظ بجلاء أن الخطبة تقدم لنا من خلال رؤيتين سرديتين:

1- خارجية مع الناظم الخارجي (الرحالة). وهو يقدمها لنا من عمق واسع: الناس - آراؤهم...

2- داخلية: مع الناظم الداخلي من خلال شخصية مركزية: الجهني وعمق المنظور كما نلاحظ محدود ومركز.

ومن خلال تقديمهما حول «حدث» واحد الخطبة نلاحظ ليس فقط تعدد الرؤيتين بل أيضاً تناقضهما وتقابلهما، وهذه الخاصية سبق تسجيلها وبعد التحليل سنبين هذه الخاصية ودورها على صعيد علامات الرؤيات.

16.8. نلتقي من جديد مع الناظم الداخلي الذي يركز على شخصية في القصة هو مقدم بصاصي القاهرة. غير أن المبدأ ليس الخطبة كحدث آني، ولكن من خلال سعيد الجهني مبراً:

«لم يروجه سعيد ويعرفه تماماً لكثرة ما قرأ عنه، يعلم أموراً تخصه، لا يدري بها سعيد نفسه يود لو أسرع الوقت حتى يراه. الوجه الذي قرأ كثيراً عن صمته» (ص 185). لقد ذهب رجاله لاعتقاله، وهو ينتظر حضوره، ثم بعد ذلك وهو معتقل عنده.

17.8. بعد اعتقال الجهني، يبار «كوم الجارج» كعنوان، وكوم الجارج هو المكان الذي يوجد به الشيخ أبو السعود والذي كان الجهني يتردد عليه بين الفينة والأخرى. يفقد الخطاب هنا طبيعته التي تعودنا عليها، وكأننا أمام نص شعري، إنه صوت كوم الجارج الصوفي يسجل من خلال رؤية سردية جوانية داخلية ما آل إليه الجهني:

«سعيد أرجف قاع روحه، أضاعوه. أصوات المدينة تتباعد. ما أحوجه إلى غيبة، إلى إحاطة الروح بجدار الصمت... سقط في كمين متقن، أعده باغ بعناية» (ص 186).

18.8. بعد اللقاء بين الزيني وزكريا، يبدأ الفرز على مستوى الشخصيات، يصبح سعيد الجهني «منفرداً» يتناوب النداء والتقرير والرسالة الحكيم، ويصبح موضوع السرد والتبشير غير ذا أهمية، وبعد عودة الزيني وخطبته تقدم لنا من خلال الناظم رؤيات سعيد وزكريا، وبعد ذلك رؤيات الناس حول «الخطبة»، وصولاً إلى اعتقال الجهني، إن الانتقال من رتبة الحكيم الملحوظة في بداية «اللقاء» إلى التحول بعد «العودة»، أعطى كما بينا سواء على مستوى القصة أو الرؤية أبعاداً جديدة، فالحدث الواحد يصبح منظوراً من رؤيات متعددة (زكريا - سعيد - الناس)، بل ومتناقضة، وبعد ذلك يبار سعيد من لدن زكريا والزيني، وأخيراً مقدم البصاصين، وبعد اعتقاله من منظور كوم الجارج.

IX - الحرب / الهزيمة

1.9. تبدأ هذه الوحدة بمقتطف من مشاهدات الرحالة الإيطالي لكن هناك إشارة سابقة تمت من خلال الفاعل الخارجي (النداء) يخبر فيها عن طريق تبشير السلطان خارجياً: «يا أهالي القاهرة/ نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر، اليوم نبشركم/ بقلع السلطان الصوف الأسود وارتدائه اللباس الأبيض/ مع دخول الحر». (ص 176). وفي نفس النداء: «جاءت الأخبار/ بوقوع معركة... وهذا أول دم يسيل/ فانتبهوا يا أهالي مصر» (ص: 177).

وإلى جانب النداء، يأتي خبر «الحرب» في الأزهر من خلال الناظم الخارجي، ومن خلال تبشير أحاديث الطلبة عن سخرية ابن عثمان من الرسل الذين بعثهم السلطان الغوري إليه.

2.9. لكن هذه الوحدة تبتدى عملياً من خلال الناظم الخارجي (الرحالة الإيطالي) الذي يزور القاهرة سنة 922 هـ في رحلته الثالثة، لكنه يأسف لعدم «مشاهدته» خروج موكب السلطان إلى الشام لمحاربة العثمانيين، فـ «ينقل» عن ابن إياس المؤرخ الذي عايش هذه اللحظة وكان شاهداً لموكب الخروج، ومن خلال تبشير الموكب السلطاني خارجياً يصف الجيش والسلطان، والاستعدادات للحرب، وإلى جانب ذلك يتم تبشير منادين بإضافة وظائف جديدة إلى الزيني.

3.9. من الناظم الخارجي الذي يثير الموكب السلطاني من خلال رؤية سردية برانية خارجية، تنتقل إلى الفاعل الداخلي (زكريا بن راضي). الذي يبار خطابه، أو الأرضية التي أعدها زكريا بن راضي لاجتماع كبار بصاصي العالم، والتي تقع في 11 صفحة. يوضح فيها زكريا دور البصاص وكيفية تحقيقه لمهامه، والأساليب التي يجب اتباعها في التعذيب أو لاستخراج ما في رأس المتهم، مع مشروع من أجل المستقبل، وتذليل الأرضية بأربعة ذيول كملاحق مترجمة إلى لغات الحاضرين، تتعلق بكيفية إطعام المساجين، واستعمال الأرقام للناس بدل الأسماء، وممارسة الرقابة على الرقابة، وكيفية إقناع الناس بوجود ما هو غير موجود.

إن تبشير خطاب زكريا بن راضي تم من لدن زكريا نفسه باعتباره فاعلاً (راوياً). إن هذا التبشير ذو طبيعة خارجية في الخطاب لكنه داخلي لسببين: أولهما أنه يتم من خلال «وجهة نظر» زكريا بن راضي كما توصل إليها من خلال اشتراكه مع الزيني بركات، وثانيهما، لأنه يكشف لنا - داخلياً - عن بعض الممارسات التي تم عرضها في القصة ولكنها قدمت إلينا خارجياً: ممارسة البصاصة وكيفية استخراج الحقائق أثناء التعذيب، وباقي الممارسات التي

قدمت لنا نتائجها، وفي هذه الأرضية بيان طرائقها.

4.9. من خلال الفاعل الداخلي مع زكريا بن راضي، تنتقل إلى كوم الجارج مع الناظم الداخلي، الذي من خلال تبثيره من الخارج ومن الداخل كوم الجارج وأبا السعود ومريديه. نتعرف أولاً من خلال رؤية برانية خارجية على أبي السعود والشيخ الكرمانى من خلال العرض غير المباشر عن النبي الخضر وأمل أبي السعود في رؤيته. ويسرد بعد ذلك ما تناهى إلى علم أبي السعود عما لحق الناس من مظالم، وما يتداوله أهل مصر عن الزيني ورفعه أسعار بعض المواد، وادعاءاته أن ما يفعله تطبيق لأوامر مولاه أبي السعود، ودائماً ومن خلال الرؤية الخارجية نفسها يسرد مجيء «الدمراوي» من منفلوط إلى الشيخ ليخبره بما فعل الزيني في منفلوط، والدموع التي أجراها وهو يخطب في الناس عن حالة الحرب، وتخيير الناس بين دفع المال أو تصبح بناتهم نهباً للمماليك العثمانيين. وحصوله على ضرائب عام مقدماً، ثم تجنيه على الدمراوي وآخرين، فارضاً عليهم ألف دينار جوراً وعدواناً.

نعان هنا تفسيراً للطريقة التي سار عليه الزيني بركات في جمع الأموال، والتي كان يتساءل عنها زكريا، وأخبرنا من خلال الخطبة أن جمعت طوعية من الناس. ومن خلال رؤية سردية برانية داخلية نتعرف على رؤية أبي السعود من الداخل لما يجري والذي يماثله بخروج ياجوج وماجوج:

«هل نفذ بعض الياجوج إلى دينانا، وتكروا في هيئة البشر؟ سيهجر السرداب حيناً. خلا البيت من مجيء سعيد» ص: 210.

وعبر الانتقال إلى الناظم الخارجي يأمر خادمه بالذهاب إلى الزيني وإحضاره إلى كوم الجارج.

5.9. إذا انتهينا في المقطع السردى السابق إلى الناظم الخارجي وهو يبيّر أوامر إحضار الزيني، يتم التحول إلى الفاعل الداخلي (مع التقرير الذي أعده مقدم البصاين ليقدمه إلى زكريا بن راضي) ومن خلال الفاعل الداخلي (كزراو وكبئر من الداخل) نتعرف على لماذا أمر أبو السعود بإحضار الزيني. من منظور الفاعل الداخلي يسرد ما جرى للزيني عندما توجه إلى الشيخ الذي أمر باعتقاله، وضربه واستبقائه عنده حتى يستخرج منه الأموال التي أخذها لنفسه، ويشهره بعد ذلك على حمار، يطوف به المدينة.

6.9. ومن خلال الفاعل الداخلي الذي يتكلف بالتقرير الذي يرسل إلى زكرياء، نجدنا أمام الفاعل الذي يبيّر من الخارج وقائع الحرب مع العثمانيين وانقلابها ضد السلطان الغوري وموته في مرج وابق. واستيلاء العثمانيين على كل ما كان مع السلطان. إن هذا التبثير الذي تم من الخارج يجعلنا أمام رؤية جوانية خارجية.

7.9. ينقلنا الناظم من خلال تبثيره عمرو بن العدوي من الداخل إلى رؤية سردية برانية داخلية يتكشف لنا من خلالها ما يعانيه عمرو بن العدوي من هلع وخوف يهيمنان عليه بعد اكتشاف أمره داخل رواق الصعايدة إذ هو السبب في اعتقال الجهيني، وعدم قيامه بواجباته كبصاص. وعبر الرؤية البرانية الذاتية، ومن خلال صيغة المسرود الذاتي يعرض همومه (عدم رؤيته أمة منذ سنوات / ضياع مستقبله / خوفه من مقدم البصاصين . . .) وبالاتقال إلى رؤية برانية خارجية يسرد من خلال الناظم الخارجي توبيخ مقدم البصاصين له على أخطائه وهفواته في أداء واجبه كبصاص، بسبب انكشاف أمره.

8.9. من خلال الناظم أيضاً يبار سعيد الجهيني بعد خروجه من المعتقل. إن الحدث (إطلاق سراحه) لا يتم الاخبار عنه إلا عند تبثير الموضوع من الخارج، وهو جالس في المقهى. ومن خلال صيغة الخطاب غير المباشر يسأل الشيخ حمزة صاحب المقهى مفتعلاً: «لك وحشة يا شيخ سعيد . . . سنتان وأكثر. هانت عليك العشرة . . .» ص: 218.

وبالاتقال إلى الناظم الداخلي، من خلال تبثير الجهيني من الداخل، يتساءل سعيد عن افتعال حمزة هذا الغباء، ويتذكر العيون التي راقبته هنا، والتي ما تزال تراقبه، «وسماح»، وتساؤلاته عنها، وكيف أحبها، وأين هي الآن، يتذكر قصة الجارية والعتار، وكيف طلقها منه الزيني، وتركه مخبواً بتيه في الشوارع. ومن خلال رؤية سردية برانية خارجية، يصف إنزواء الجهيني في زاوية إحدى أعمدة الجامع، وعدم مشاركته في النقاش إلا وقت الدرس خشية العيون، ويتذكر من جديد من خلال الناظم الداخلي «سماح» التي تستباح في إحدى القرى التي احتلها العثمانيون. ويتساءل لما لا يحركه ما يجري؟ يتفحص الشامي والمغربي وحتى النساء إلا هو:

«لوجهر بالدعاء، ربما تضايقوا، يريدونه هادئاً وادعاً» ص: 222.

ومن خلال المنظور الخارجي يتابع الناظم الخارجي السرد، واصفاً حالة الاستنفار والهتافات، من خلال رؤية خارجية ذات عمق ممتد وواسع ويصف امتلاء المساجد بالدعاء والصلوات، لكن سعيد المشدوه إلى الفاجعة، يعتمل ذلك، من خلال رؤية داخلية، في دواخله، ولكن بحياد:

«كلما اقترب منه إنسان، يلقي الدمع هاطلاً من عينيه» ص: 223.

يشتاق الجهيني لكرم الجراح لكنه غشى العيون. ومن خلال منظوره الداخلي، يتبين إدراكه لعرض السلطنة على طومامباي واقتناعه ورفضه إياها. والتجاء الأمراء إلى أبي السعود لإقناعه، ويتذكر سعيد تدخله إلى جانب الزيني بركات لدى الشيخ وخيبة الأمل فيه. ويتناهى إلى معرفته نبأ خروج أبي السعود إلى الحرب واستنفاره العربان ومريديه، وإعجاب الناس

بالشيخ الذي يحارب بعزيمة لا تفتّر، وينتهي هذا المقطع الذي يشرف فيه الجهيني بمجيء «وجه غريب» عنه يسأله أن يصحبه .

9.9 . مع الناظم الداخلي مرة أخرى، ولكن هاته المرة من منظور زكريا الداخلي يتم سرد حيرته تجاه ما يجري، وما آلت إليه الأمور، ومعرفته بما سيحدث لِطُومَانْبَائِي وخوفه عليه وعلى نفسه بعد عقاب الزيني، وتردده في إنقاذه. ويتخلل تبشير زكريا بن راضي الفاعل الخارجي النداء الذي من خلال النداء الذي يبشر الدعوة الجماعية للتعبئة وإلى الانخراط الجماعي في الحرب. يكون الرجوع إلى الناظم لمتابعة تبشير زكريا من الخارج وهو يكتب إلى طومامباي ناصحاً إياه بعدم الظهور المستمر أمام العامة كي لا تسقط هيئته في أعينهم، ويأمره بالتدخل لدى أبي السعود لاطلاقه سراح الزيني بركات، وإنقاذه من الشنق بذريعة استخراج الأموال العديدة التي في حوزته. ويطمئن لِمَا وصل إليه من عدم شنق الزيني، لكن آثار الهزيمة مبارة من خلاله.

10.9 . الناظم الخارجي (من خلال النداء) يخبر الناس (الأهالي) بضرورة الانضباط والاخبار عن المكان الذي يوجد فيه طومامباي وملاحقة الشيخ أبي السعود وأتباعه من الدراويش والصوفية .

11.9 . مع الناظم الداخلي ومن خلال تبشير سعيد الجهيني من الداخل، يتبدى ذلك من تناوب تبشرين: الأول خارجي، وفيه تظهر الغاية من استدعاء (الوجه الغريب). إنه أحد أتباع مقدم البصاصين الذي يدعوه إلى التعامل معهم، والثاني ذاتي، ومن خلاله تبدو ذاتية الجهيني وهو يعاني مما تعانيه مصر المنهزمة، يتذكر سماح وأبا السعود وتجربته في المعتقل، والأعمال التي يقوم بها شيوخه أبو السعود ومن خلال الرؤية السردية البرانية الذاتية يبار خطاب الجهيني :

«آه . . أعطوني . . وهدموا حصوني» ص : 238.

12.9 . يتجلى من خلال هذه الوحدة كما في العديد من الوحدات تعدد الرؤيات وتحولها وتناقضها في آن . . وهذه الوحدة تتميز بتلاحق أحداثها وتطورها السريع، كما تتميز بتداخل أحداثها وصورها من الرؤيات التي تقدم آنياً وبشكل متواتر، ومن خلال تحول الرؤيات أمكننا معاينة المنظورات المختلفة حول الحدث المركزي: الحرب والهزيمة، وما يصاحبها من أحداث: استنفار الخلق، كثرة النداءات . . .

X - الزيني محتسباً جديداً

1.10 . فتحنا الخطاب على الناظم الخارجي الذي يزور القاهرة وهو متعرف على أحوالها ولغتها وناسها (الرحالة الإيطالي). بهذا الناظم تبار القاهرة أيضاً وهي تعرف

الهزيمة، ومن خلال رؤيته يختم الخطاب. يزور الرحالة الإيطالي هذه المرة في 923 هـ، ومن منظور خارجي يصف أحوالها بعد دخول العثمانيين محتلين، مقارناً بين ما كانت عليه سابقاً وما آلت إليه الآن. واصفاً صور الظلم والعسف المهيمنين، والطلب الجاري وراء طومامباي. ومن خلال تبشير كلام الناس (العرض غير المباشر) يكشف ما يقال عن قتال أبي السعود، وما يتردد عن شربه من نبيح الحياة. وبعد تبشيره الخارجي لنداءات الأمان التي يرسلها الغزاة، يبشر من الخارج دائماً ما يرى وما يسمع:

«في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات...» ص: 239.

وما يتناقله الناس عن قوة أبي السعود ورجاله، إلى أن يعلن الأمان، ويدق طبل، ووسط موكب يمر الزيني بركات وهو يركب حصاناً أبيض، بينما الطريق خال من الناس والدكاكين مغلقة، ولا أحد من المارة القلائل يعير دقائق الطبول اهتماماً، بينما المنادي يعلن عن الزيني المحتسب، ويوضح العملة الجديدة:

«الطريق خال، الخراب الخفي ساع في الفراغ الدكاكين كلها مغلقة، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن، تطلع مارة قلائل. أصغوا إلى دقات الطبول، هزوا رؤوسهم، لم يتوقفوا حاذاني الركب، ورأيت الزيني يضع لثاماً حول وجهه... تابعت الركب الصغير المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى وابتعد النداء الخافت في هواء شاحب» ص: 241.

من خلال الناظم الخارجي تبأر القاهرة المنهزمة، والزيني بركات وهو محتسب جديد في دولة الاحتلال، ومن خلال الرؤية السردية البرانية الخارجية المقدمة هنا، نعاين بجلاء أن المبار قدم هنا بشكل موضوعي عكسما رأينا في الوحدة الأولى الذي كان فيها الناظم داخلياً يقدم لنا الحدث من خلال منظوره الداخلي لما آلت إليه القاهرة التي يعرف لغة أهلها وعاداتها وتقاليدهم.

IV - خصوصية الرؤية السردية

في الزيني بركات

1 - تقديم :

من خلال تحليلنا للرؤية السردية في الزيني ، قدمنا في البداية صورة عن الرؤية السردية في الخطاب من خلال ما أسميناه بـ «تفصلات الرؤية السردية» الكبرى . وخلالها كشفنا عن الأشكال السردية والأصوات التي يضمها الخطاب ، وأجلنا إمكانية معانية مختلف التظاهرات التي يعرفها الخطاب على الصعيد الرؤية السردية بحسب التحديد الذي وصفناه في التقديم النظري .

وبعد إنجاز التحليل على صعيد كل وحدة من الوحدات العشر ، كان هدفنا المركزي ، من خلال تقسيم كل وحدة إلى مقاطع سردية الوقوف على مختلف الرؤيات حتى أكثرها فرعية ، سواء من حيث تبدلها أو رصد أوجه تجاورها واشتغالها ، وغالباً ما كنا نذلل تحليل كل وحدة بمجموعة من الملاحظات أو كنا ، نقوم باستخلاصها كلما بدا لنا ذلك ضرورياً ونحن لم ننه بعد تحليل تلك الوحدة .

في هذا التركيب سنحاول كشف خصوصية الرؤية السردية في الزيني بركات كخطاب روائي من منطلقين . يتجسد الأول في اختبار التصور الذي صدرنا به هذا الفصل ، وبرز الثاني في تشخيص نتائج تحليلنا كجزء من العمل النقدي الذي مارسناه على الخطاب الروائي بقصد مراكمة جوانب هذا التحليل لتتاح لنا إمكانية دفعه إلى مداه في ما نسميه بالنص . وقبل ذلك ، لمعانية طرائق توظيف التقنيات الكتابية ، عن طريق المقارنة بين المتن الروائي المدروس والمحلل في هذا البحث بشكل جزئي (الزيني بركات) ، وبآخر كلي (باقي الروايات الأربع) .

وسنحاول الكشف عن خصوصية الرؤية السردية في الزيني بركات من خلال نقطتين هامتين : الأولى تتصل بما نسميه التبدلات السردية والثانية اشتغال الرؤيات في الخطاب .

2 - التبدلات السردية :

سجلنا في التقديم النظري الذي صدرنا به في هذا الفصل ، التعالق الحاصل بين

الصيغة والرؤية السردية، إذ لا يمكن الفصل بين من يتكلم ومن يرى، كما حاولنا توضيح ذلك، ولكننا ميزنا بينهما لضرورة التحليل عندما صرفنا موضوع «الصيغة» بجعلنا إياه مقتصرًا على كيف تم إنجاز «الكلام» في تقديم القصة، وأهملنا تعيين المتكلم، أو الوقوف على الموقع الذي يحتله في إرسال الخطاب، وهو الذي جعلناه مدار بحثنا.

في حديثنا عن الصيغ، ميزنا بين الخطاب المسرود والخطاب المعروض. وداخل الخطاب المسرود ميزنا بين خطاب الراوي، وخطابات أخرى تشترك وإياه في العديد من الصفات. من هذه الخطابات: التقرير/ المذكرة الرسالة/ الخطبة ومن حيث التكرار لاحظنا أن هناك توازياً بينهما على مستوى الكم. إذ وجدنا عدد مرات تكرار خطاب الراوي هو 21 مرة، وباقي الخطابات المسرودة 19 مرة، أي أن مجموع الخطابات المسرودة من حيث طبيعتها هو 41 مرة.

وعندما نقارن الخطابات المسرودة بالخطابات المعروضة نجد تكافؤاً بينهما من حيث العدد، إذ أن الخطابات المعروضة هي النداء 28 مرة، والمرسوم والفتوى 13، بما مجموعه 40 مرة، وفي تحليلنا للصيغ وقفنا على خصوصية الصيغة في الزيني بركات، انطلاقاً من هذه المعطيات التي يقدمها لنا المتن.

إنها المعطيات نفسها التي سنقوم بقراءتها على ضوء الرؤية السردية، وأولى الملاحظات التي يمكن تسجيلها في إطار العلاقة بين الرؤية والصيغة، على صعيد التبدلات السردية والصيغية واشتغالهما، ما كنا قد سميناه في التقديم بـ «المؤشرات السردية»، لقد تبين لنا من خلال التحليل في إطار الحدود التي وصلنا إليها في التحليل الجزئي للوحدات المؤشرات السردية هي نفسها المؤشرات الصيغية، إننا ننتقل من رؤية إلى أخرى كما ننتقل من صيغة إلى أخرى، ولذلك تجنباً للتكرار في مرحلة من التحليل، لم نعمل على تعيين هذه المؤشرات، على عكس المؤشرات الزمنية التي تظل تتميز بخصوصيتها واستقلالها. إذ داخل الموقع الزمني الواحد يمكن أن ننتقل من صيغة إلى أخرى، وهكذا.

وثاني الملاحظات التي يجب تسجيلها في نطاق الحديث عن التبدلات السردية هو خصوصية هذه التبدلات السردية بالمقارنة مع الصيغة على مستوى مظهرها الخطابي من خلال المفاهيم التي استعملنا في إطار تحديد الرؤية السردية، وهكذا إذ كنا في الصيغة نتحدث عن خطاب مسرود، فإن تعييننا لمرسله سيضعنا أمام أشكال سردية وأصوات سردية متعددة، وليست صفة «السرود» إلا عامة جداً في هذا التحديد. هذا مع ملاحظة أننا على مستوى التحليل النهائي، سوف لن نجد تبايناً مع نتائجنا حول الصيغة ونظيراتها حول الرؤية، بل على العكس سنجد تكاملاً بينهما وتآزراً، على نحو ما سنبين.

إن مجموع الخطابات التي قسمناها في الصيغة إلى مسرود ومعرض يمكننا هنا تقسيمها من حيث الشكل السردى أيضاً إلى قسمين رئيسيين براني الحكى وجوانيه، أي أننا سنعين من خلال هذا التقسيم علاقة الراوى بالقصة التي يقوم بتقديمها، وهكذا نجدنا أمام:

1 - الشكل الأول: البرانى الحكى . ويضم ما كنا قد أسميناه في الصيغة بالراوى (خطاب الراوى)، فهو غير محدد وليس مشاركاً في القصة، وإلى جانبه نجد خطاب الرحالة (المذكورة). فالرحالة الإيطالى برانى عن القصة . وهو يحضر بين الفترة والأخرى، وخلال حضوره إلى القاهرة يسجل مشاهداته (سميناه في الفصلين السابقين: الراوى / الشاهد).

2 - الشكل الثانى: الجوانى الحكى : ويضم باقى الخطابات سواء كانت مسرودة أو معروضة، على اعتبار أن أصحابها مشاركون في القصة بهذه الدرجة أو تلك: (النداء - المرسوم - الفتوى - التقرير - الرسالة - الخطبة).

نستنتج من خلال تقسيم الخطاب بحسب الشكل السردى أن جوانى الحكى يمارس ضمن الشكل الأول، فهل معنى ذلك أن القصة تحكى من داخلها وليس من خارجها، أي من خلال الراوى العارف بكل شيء والموجود في كل مكان؟ لا يمكن الجواب عن هذا السؤال حالياً، ما لم ندفع بتركيبنا إلى مده.

عندما ننظر في كل شكل سردى وما استوعب من أصوات سردية سنجدنا أمام:

1 - البرانى الحكى:

- الناظم الداخلى .
- الناظم الخارجى .
- الناظم الذاتى .

2 - الجوانى الحكى:

- الفاعل الداخلى .
- الفاعل الخارجى .

نعين من خلال هذا التقسيم ملاحظتين أساسيتين:

1 - أصوات الشكل البرانى الحكى أكثر من أصوات الشكل الجوانى .

2 - حضور صوتين إضافيين لا نجدهما في خطاطتنا .

وكان من الممكن إضافة ملاحظة ثالثة تتصل بغياب الفاعل الذاتى كصوت سردى تستوعبه خطاطتنا الرباعية الأصوات والرؤيات، لكننا استبعدناها لها مشيتها، فمن البديهي أن

لا يستوعب خطاب ما كلما نقدمه في خطاطة ندعي شموليتها.

إن الناظم الذاتي كصوت سردي يتجلى لنا بشكل أساسي عندما يتكلف رَأُو براني بالسرد، ودائماً بضمير الغائب لكن ذات التأثير تتوحد وموضوعه من خلال شخصية مركزية، وبالأخص سعيد الجهيني وزكريا بن راضي، ويأتي هذا الصوت من خلال صيغة المسرود الذاتي. وغالباً ما يأتي حضور هذا الصوت عندما يتم التركيز على الشخصية، ليس لتسجيل رؤيتها الداخلية للحدث، ولكن انعكاسه على ذاتها. فيقع استبطان الذات، فنصبح من خلال الحدث المبرأ أمام انعكاساته على الذات، ومن خلاله يتم التركيز على الذات في اللحظة (رؤيتها للحدث) وفي الماضي، وأمام احتمالات المستقبل - وفي هذا النطاق نجدنا أمام رؤية سردية برانية ذاتية.

أما بالنسبة للفاعل الخارجي، فله خاصية كون الراوي مشاركاً في القصة، لكنه مكان تقديم الحدث المبرأ من داخله، يتم تركيزه عليه من الخارج، سواء تعلق الأمر بشخصية مركزية أو غيرها أو بحدث من الأحداث. بخصوص الشخصية يكون رصد أفعالها وسلوكها من الخارج كما تتصرف أماننا. وعلى قدر كبير من الموضوعية، وإذ يقوم بهذا العمل من الداخل (داخل القصة)، يكون أكثر قدرة على رصد الخارجي المتصل بالشخصية. ويتجلى لنا هذا النمط بشكل أولي في التقرير الذي يعده البصاص (عمرو بن العدوي / مقدم البصاصين). ويرز لنا هذا الصوت بخصوص الحدث عندما يبار من خلال المنادي الذي يخبر عن الحدث بشكل موضوعي. إنه نظير صوت المذياع كما نجده في العديد من الروايات. وتثير الحدث بهذا الشكل يبرز لنا تعالي الحدث على الشخصيات. وهو يبار وفق صيغة الخطاب المعروض بما فيه من إيجاز وصيغ تقريرية، وأسمينا هذا بالفاعل الخارجي لأن الحدث لا يصنع من خلال أفعال الشخصيات ويتطور موضوعياً، ولكنه يقدم بشكل خارجي، والذي يتكلف به صوت سردي من داخل القصة.

هكذا يمكن استخلاص أن الخطاب الروائي في الزيني بركات يقدم بشكلين مترابطين ومتكاملين معاً هو البراني والجواني. ومن خلال هذين الشكلين نجدنا أمام خمسة أصوات تذهب من الناظم الخارجي إلى الفاعل الداخلي، الشيء الذي يجعلنا أمام الرؤيات السردية التالية:

- 1 - رؤية سردية برانية خارجية.
- 2 - رؤية سردية برانية داخلية.
- 3 - رؤية سردية برانية ذاتية.
- 4 - رؤية سردية جوانية خارجية.
- 5 - رؤية سردية جوانية داخلية.

إنها رؤيات سرديّة متعدّدة كما نعاين تتبدّل وتتجاوز أفقياً (على طول الخطاب) وعمودياً بخصوص الوحدة الواحدة. وفي هذا التبدل نجدنا أمام ثلاثة أشكال تعرفها الرؤية السردية، يمكن التمثيل لها من خلال الوحدة السادسة:

1 - الثابتة: عندما يتم التركيز على رؤية ثابتة حول الحدث الواحد. توافق تعيين زكريا بن راضي نائباً للزيني بركات مع حدث الفوانيس. لكننا سنجدنا أمام رؤية سرديّة ثابتة تمت من خلال منظور سعيد الجهيني حول هذا التعيين، وثبات هذه الرؤية وتركزها على الجهيني له أكثر من دلالة على صعيد تطور الحدث. إنه الوحيد الذي انتبه إلى أن هذا هو الحدث المركزي وأن الحدث الآخر (الفوانيس) ثانوي، لكن الحدث الثانوي سيقدم لنا من خلال رؤيات متعدّدة ومتحوّلة.

2 - المتعدّدة: حدث الفوانيس يقدم لنا من خلال رؤيات متعدّدة تمتد من الشارع إلى الأزهر إلى المقهى إلى الجوامع وبذلك يقدم لنا الحدث كما يدرك من خلال رؤيات متعدّدة لشخصيات القصة.

3 - المتحوّلة: إلى جانب تعدّد هذه الرؤيات نجدنا متحوّلة تنتقل بنا من الفاعل الخارجي إلى الفاعل الداخلي إلى الناظم الداخلي إلى الناظم الذاتي.

إن هذه الأشكال الثلاثة في تكاملها وتداخلها علاوة على كونها تقنية سرديّة مركبة وعميقة في تقديم القصة، وشاملة، تجعلنا ندرك عالم القصة من خلال تفاعلها والشخصيات إذ تنفذ بنا إلى أعماق إدراك الشخصيات للأحداث ورؤياتها الخاصة والمتميزة لها، وبذلك نستتج عبر هذا التفاعل ليس فقط تعدّد الرؤيات وتحوّلها، ولكن تناقضها أيضاً. وهذه السمة (التناقض) تهمنا كثيراً في الحديث عن أبعاد هذه الرؤيات السردية النصية، أو لنقل النفسية والمعرفية والإيديولوجية.

3 - اشتغال الرؤية السردية:

في التبدلات السردية حاولنا إبراز الرؤيات التي يعرفها الخطاب وهو يقدمها ثابتة أو متحوّلة أو متعدّدة أو هي جميعاً أفقياً وعمودياً، وفي مجال كشفنا عن الأصوات السردية يمكننا استعادة ما رأيناه في النقطة السابقة لمعاينة كيفية اشتغال هذه الرؤيات وفق التبدلات التي عرفتها في الخطاب.

رأينا في مجال المقارنة بين صيغ الخطاب المسرود والخطاب المعروف نوعاً من التوازي على الصعيد الكمي، وعندما قسمنا هذه الصيغ بحسب الشكل السردى لاستخراج الأصوات السردية في علاقتها بالرؤيات، رأينا أن أصوات الشكل البراني (الخطاب المسرود) أكثر من أصوات الشكل الجواني، ولو قمنا بإحصاء كالذي قمنا به في فصل الصيغ

سنعاين أن ما يتصل بتكرار الشكل الجواني أكثر بكثير من الشكل البراني . ورأينا أن السبب في ذلك يكمن في أصوات الشكل الجواني التي يضخمها النداء بالدرجة الأولى فيصل إلى 28 نداء، وهذه النداءات تأتي مركزة ومختصرة على عكس خطاب الراوي الذي قد يمتد على مدى صفحات عديدة، ولو أعدنا توزيع هذه الأصوات بحسب طبيعتها في الخطاب لرأينا نوعاً من التكافؤ على هذا النحو:

1 - البراني الحكيم :

- خطاب الراوي 21 مرة .

- المذكرة (الرحالة) 5 مرات .

2 - الجواني الحكيم :

- التقرير : 8 مرات .

- الرسالة : 4 مرات .

- الخطبة : 2 مرتان .

3 - الجواني الحكيم :

- النداء : 28 مرة .

- المرسوم الفتوى : 13 مرة .

إن الشكل الجواني قسمناه قسمين ومجموع مرات تكراره 55. مرة. والبراني لا يتعدى 26 مرة، أي أن الجواني ضعف البراني . وبتقسيمنا الجواني بحسب طبيعة صيغته السردية سنجدنا أمام :

- الخطاب المسرود : 14 مرة .

- الخطاب المعروف : 41 مرة .

وبإضافة عدد مرات تكرار الخطاب المسرود (14 مرة) ما نراه تحت الشكل البراني (26 مرة)، سنجدنا أمام عدد متكافئ (40 مرة) مع ما نجده في الخطاب المعروف (41 مرة)، وهكذا نعاين أننا بتقسيمنا الخطابات بحسب طبيعتها السردية أمام تكافؤ المسرود والمعروض، كما سبق لنا رؤية ذلك في فصل الصيغة، وهذا التكافؤ لم يتم إلا بعد أن قسمنا الجواني الحكيم قسمين بحسب طبيعة الخطاب الذي يتضمنه الشكل الجواني .

وإذا كان التقسيم بحسب صيغة الخطاب قد أفادنا في الكشف عن الصيغ وتمييزها، فما هي قيمته، والللجوء إليه ونحن بصدد الحديث عن الرؤية السردية؟! هل الهدف هو الحصول على تكافؤ تكرار «الرؤيات السردية»؟! .

إن التلازم بين الصيغ والرؤيات وثيق جداً هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن الذي أدى بنا إلى هذا التمييز ضمن الشكل السردى الجوانى إلى قسمين، علاوة على طبيعة الصيغة (مسرود/ معروض)، ما نجدُه متعلقاً بطبيعة الرؤية السردية نفسها، وتفصيل ذلك يمكننا تلخيصه فيما يلي .

بناء على التحليل الذي مارسنا أمكننا تقسيم الخطاب من حيث الرؤية السردية قسمين رئيسيين :

1 - القسم الأول : خاص بتبشير الحدث .

2 - القسم الثانى : خاص بتبشير ردود الفعل تجاه الحدث .

إن القسم الأول لا يظهر لنا إلا من خلال الصوت السردى : «الفاعل الخارجى» الذى يظهر لنا من خلال الخطاب المعروض (النداء / المرسوم / الفتوى) . إن الحدث لا يبار إلا من خلال شخصية مشاركة فى القصة، والأحداث المركزية كما قسمنا إليها الخطاب تحت عناوين الوحدات التى تم تبشيرها من خلال هذا الصوت السردى هي : الاعتقال - تعيين بركات - الإعدام - الزنى حاكماً - الفوانيس - تعيين زكريا - الحرب - الهزيمة . . . حدثان فقط لم يُبأَرَا من خلال هذا الصوت السردى (الخطاب المعروض) هما : «الخطبة» و «اللقاء» الذى جرى بين الزينى وبين زكريا بن راضى، ولا يخفى الفرق بين هاتين الوحدتين وباقي الوحدات .

أما القسم الثانى فيظهر من خلال باقى الأصوات السردية وهى موزعة بحسب الشكل السردى إلى نوعين :

- برانى الحكى :

- الناظم الداخلى .

- الناظم الخارجى .

- الناظم الذاتى .

- جوانى الحكى :

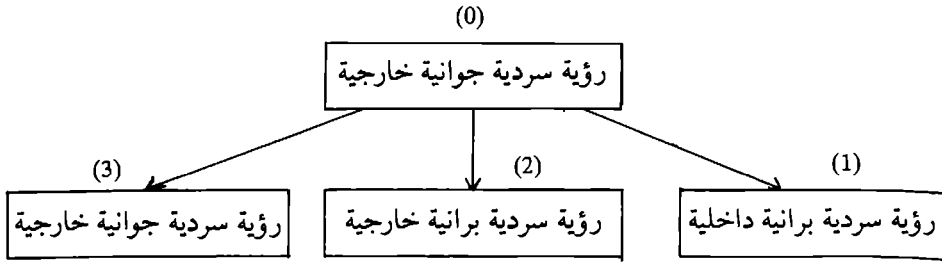
- الفاعل الداخلى .

- الفاعل الخارجى .

أى أن كل الأصوات السردية الأخرى تسهم فى تبشير ردود الفعل تجاه الحدث الذى يقدم من خلال «الفاعل الخارجى» .

إن التكافؤ هنا يظهر لنا بجلاء بين تبشير الحدث وبين تبشير ردود الفعل تجاه الحدث . فى تبشير الحدث نجدنا أمام رؤية سردية جوانية خارجية، وفى تبشير ردود الفعل نجدنا من

خلال الأصوات السردية الخمسة أمام الرؤيات السردية الخمس التي سبق تحديدها .
نستخلص مما تقدم أن اشتغال الرؤية السردية في الزيني بركات يأخذ هذه الصورة :



- (1) - في الرؤية السردية (0)، يبار الحدث المركزي .
 - (2) - في الرؤية السردية (1)، ومن خلال الناظم الداخلي (الراوي)، ومن خلال التركيز على شخصية مركزية يتم تبثير رؤيته للحدث داخلياً (الراوي - سعيد الجهيني) .
 - (3) - في الرؤية السردية (2)، ومن خلال الناظم الخارجي (الرحالة)، يتم تبثير المدينة خارجياً وقت وقوع الحدث (الإعدام مثلاً) .
 - (4) - في الرؤية السردية (3)، ومن خلال الفاعل الداخلي (كاتب التقرير)، يتم تبثير الحدث جوانياً من خلال التركيز على شخصية مركزية ومعاينة ردود أفعالها حول الحدث المبار (عمرو بن العدوي / سعيد الجهيني) .
- في هذه الصورة العامة نضبط الطابع المهيمن، لكن في إطار التفاعل والتداخل والتعدد والتحول، نجد صوراً أخرى فرعية تؤكد ما سبق لنا رأيناه . وهذه جميعاً تصب في مجرى واحد يؤكد خصوصية الرؤية السردية في الزيني بركات . وفي نطاق اشتغال هذه الرؤيات نجد الرؤية الصفر كما نعتناها فقط لتمييزها عن باقي الرؤيات تظل ذات الطابع نفسه . أما الرؤيات الأخرى فتأخذ الطوبع التالية :

1 - الرؤية السردية البرانية الداخلية : تشتغل وفق هذا النمط بوجه عام : وقوع الحدث ،

أ - تأطير الفضاء خارجياً : الناظم الخارجي .

ب - التركيز على شخصية مركزية : وتقديمها من الخارج، ثم من الداخل ثم ذاتياً، وبذلك نجدنا تنتقل من رؤية سردية برانية خارجية إلى الداخلية إلى الذاتية .

2 - الرؤية السردية البرانية الخارجية : يهيمن فيها الناظم الخارجي (الرحالة)، ولكنه

أحياناً ييثر رؤيته الداخلية إلى الحدث، ونجد هذا بشكل جلي في الوحدة الأولى أما في غيرها فدور المشاهد الخارجي يظل هو المهيمن .

3- الرؤية السردية الجوانية الخارجية: يهيمن فيها الفاعل الخارجي من خلال رصده للمدينة خارجياً أو من خلال تركيزه على شخصية محددة، ثم ييثرها خارجياً، وأحياناً داخلياً.

في نطاق هذه التبدلات التي يظهر لنا من خلالها هذا الاشتغال نجدنا من خلال هذا الناظم أو ذاك الفاعل ننتقل من شخصية إلى أخرى، ومن فضاء إلى آخر، وعلى سبيل المثال: فالناظم الداخلي قد يبدأ بتبثير سعيد الجهيني من الداخل، ثم يأتي الفاعل الخارجي فيبثره من الخارج، ثم يأتي الناظم الداخلي من جديد فيبثر زكريا بن راضي من الداخل ومن الخارج. . . وفق هذا الاشتغال نجدنا أمام تعدد الرؤيات وتحولها، بالانتقال من شخصية إلى أخرى ومن رؤية إلى أخرى، ومن صوت إلى آخر. وبذلك تتغير ذوات التبثير وموضوعاته يتداخل الراوي والمبثر وانفصالهما عن بعضهما البعض، وانتقال المبثر إلى مبثر، والانتقال من موضوع للتبثير إلى آخر.

وهكذا بصدد موضوع التبثير، نجد من بداية الرواية إلى وحدة اللقاء أن موضوع التبثير المركزي كان هو الزيني بركات. ومنذ وحدة اللقاء إلى نهاية الخطاب، يصبح موضوع التبثير هو سعيد الجهيني لكن منظوراً إليه فقط من خلال منظور عمرو بن العدي وزكريا والزيني .

من خلال هذه التبدلات السردية وطرائق اشتغالها يمكننا استخلاص ما يلي :

1- إن توظيف الشكّلين السرديين (الجواني والبراني) ومختلف الأصوات السردية المسجلة ساهم بشكل أساسي في تعدد الرؤيات السردية وتحولها.

2- إن هذا التعدد الصوتي والسردى ساهم بدور كبير في جعل القصة تقدّم إلينا من داخلها، وليس من خلال هيمنة صوت الراوي ورؤيته السردية، كما نجد في أغلب الروايات التقليدية، التي يسيطر فيها الشكل السردى البراني الحكيم والصوت السردى الخارجى .

3- رغم كون الخطاب يشتغل على مادة حكاية تاريخية، فهو لم يكتف برسم الشخصيات، أو تقديمها خارجياً كأوعية مكتملة، وهنا ممكن خصوصية الزيني بركات الفنية والجمالية. إن الشخصيات تتحرك وتتطور تدريجياً، ولا تكتمل صورها عند المتلقى إلا في نهاية الخطاب، وتعدد الرؤيات وتحولها وتناقضها ساهم بشكل كبير في ذلك .

4- عندما نربط تعدد الصيغ وتعدد الرؤيات نستخلص بجلاء قيمة الخطاب الجمالية في توظيف أدواته وتقنياته في تقديم المادة الحكائية، بشكل قل أن نجد نظيراً له في الرواية العربية، فتوزيع الصيغ والأصوات تم توظيفه وفق نسق محكم ومنظم. وستتاح لنا فرصة

معاينة هذا بشكل جلي عندما نتحدث عن بناء النص، كما سنحاول الوقوف على الأبعاد النصية لخصوصية الاستعمال الرؤية السردية في الخطاب، في علاقتها بالقارئ وبمختلف العناصر التي سنقف عندها في تحليلنا للنص ومكوناته التي هي امتداد وتوسيع المكونات الخطاب في الكتاب الثاني حول «انفتاح النص الروائي».

قبل ذلك، نحاول الآن، في النقطة الموالية، معاينة الرؤية السردية من خلال المقارنة بين الخطاب الروائي في الزيني بركات والخطاب التاريخي من خلال مقطع من بدائع الزهور لابن إياس لتجسيد خصوصية الرؤية في الزيني بركات، وبعد ذلك في المتن الروائي الذي نقوم بدارسته في هذا التحليل، وذلك بهدف الإجابة على بعض الأسئلة التي طرحنا في مقدمة هذا البحث.

فكيف نجد الرؤية السردية في الخطاب التاريخي؟.

٧ - الرؤية السردية

يبين

الخطاب الروائي والخطاب التاريخي

في الفصلين السابقين حاولنا إجراء مقارنة بين الخطاب التاريخي والخطاب الروائي على مستوى الزمن والصيغة، بهدف معاينة تميز خطاب الزيني بركات عن الخطاب التاريخي الذي امتح منه المادة التاريخية التي اشتغل عليها. وتبين لنا جلاء من خلال العنصرين تميز الخطاب الروائي وهو يقدم المادة الحكائية نفسها، بل إننا سنجد قطائع على مستويات عديدة بين الخطاب التاريخي كما نجده عند ابن إياس، والخطاب الروائي عند جمال الغيطاني .

وعلى غرار ما قمنا به سابقاً، سنحاول إثبات مقطع من كتاب ابن إياس، وسنحاول من خلاله الوقوف على الرؤية السردية المستعملة في هذا الخطاب، على اعتبار أننا سنستمر هذه المقارنة في معرض حديثنا عن العلاقات الموجودة بين النصوص في حال اشتغالها وعلاقتها بعضها ببعض في الكتاب الثاني :

«ولما كان مستهل الشهر يوم الإثنين جلس السلطان في الميدان، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا إلى دورهم ثم في ذلك اليوم نزل الزيني بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباي والي القاهرة، وأشهبوا المناداة في القاهرة بالأمان والإطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكثر الكلام وأن كل شيء على حكمه يعني في أمر المشاهدة والمجاعة التي قررت على الحسبة، وأن لا أحد من الناس يخرج بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزي ولا يغطي وجهه في الأسواق ومن فعل ذلك شق من غير معاودة. وأن لا أحد من الناس يحتمي على المحتسب. وقد تقدم القول بأن المماليك أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان (. . .) وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك، فلما أن طلع السلطان إلى القلعة، وبات بها أصبح فأمر بأن ينادي في القاهرة بما تقدم ذكره، ولم يفعل شيئاً مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع بإثارة هذه الفتنة ثانياً،

وكثر القال والقييل بين الناس، وكانت الناس استبشرت بإبطال المشاهدة والمجاعة، فلما نودي بأن كل شيء على حكمه نزل الناس جمرة بسبب ذلك. وفي يوم الثلاثاء ثاني الشهر جلس السلطان في الحوش وعرض أغاوات الطباقي، فلما وقفوا بين يديه، وبخهم بالكلام وقال: لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاماً لأنهم يرمون بيني وبينكم ولا تشتموا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا (...). ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة، وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل في ذلك ونادى بأن كل شيء على حكمه، وتخلقت جماعته بالزعفران في عمائمهم، وشق في القاهرة، تنكد المماليك الجلبان لذلك، وقالوا لم يطلع بأيدينا من الإتفاق شيء، وخلق جماعته بالزعفران جكاره فينا والله ما نرجع حتى نقتله. وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان سلم لنا ابن موسى نقتله بسبب غلو البضائع من كل شيء في الأسواق (...). وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزيني بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوق أرباب البضائع وضربهم ضرباً مبرحاً وأشهرهم في القاهرة، وأشهر المنادة في ذلك اليوم، وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع، وكل ذلك خوفاً من المماليك الجلبان ...»⁽¹⁾.

يتضح لنا من خلال هذا المقطع السردى التاريخي الذي أثبتنا هنا عندما نحاول تحليله وفق الأدوات التي استعملنا في تحليل الرؤية السردية في الخطاب الروائي أننا أمام:

1- شكل سردي واحد: هو البراني الحكيم، على اعتبار أن الراوي / المؤرخ لا يشارك في القصة، أو في مادة حكيه. صحيح كان ابن إياس معاشياً للعديد من الأحداث التي يسردها في كتابه التاريخي (بدائع الزهور)، وبالأخص ما اتصل منها بأحداث القصة التي نجدها في الزيني بركات، لكن مع ذلك لا يمكنه اعتباره شخصية في المادة التاريخية لأن موضوعها يتركز بالضرورة حول الموضوع التاريخي المركزي: أخبار الدولة.

2- صوت سردي واحد: هو الناظم الخارجي، على اعتبار أن ما يسرده من أحداث وأخبار هو في الوقت نفسه مبثرا، وهو يثيرها من الخارج.

وبالنظر إلى موضوع التبثير، نجده في المقطع المستشهد به هنا نجده يتركز على الموضوعات التالية:

(1) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس المطبعة الكبرى الأميرية بولاق. سنة 1312 هـ، الجزء الثالث ص: (4-5).

- 1 - السلطان : استقبال المهنيين .
- 2 - الزيني بركات : إشهار النداءات .
- 3 - المماليك : توعّد الزيني بركات بالقتل .

تتغير موضوعات التبشير وتتداخل (المماليك / الزيني / الناس / السلطان) لكن مبرها يظل واحداً وهو نفسه القائم بالسرد (الناظم) . إن الناظم المبرر ينتقل من فضاء إلى آخر، ومن الزمن الحاضر إلى الماضي سارداً ومبشراً، الشيء الذي يشي بسلطته المعرفية المطلقة، وحضوره الدائم . إنه يأخذ صورة الراوي التقليدي للحكي .

إنطلاقاً من أحادية الشكل والصوت نجدنا بالضرورة أمام أحادية الرؤية التي لا تخرج هنا، عن الرؤية السردية البرانية الخارجية . كما أن عمق المنظور السردى الذي من خلاله تقدم الأحداث ممتد وواسع أو بتعبير آخر لا محدود، إنه يذهب من القلعة إلى الحوش إلى الشارع .

هذه الصورة تَبْدُو لنا أيضاً حتى على صعيد الصيغة كما سبق أن أوضحنا . إن صيغة الخطاب المسرود هي المهيمنة ، وحين يتم من خلالها الانتقال إلى صيغة أخرى ، نجدنا أمام صيغة الخطاب المنقول التي هي أقرب الصيغ إلى الخطاب المسرود ، على اعتبار أن صيغة الخطاب المنقول تظل مزدوجة من خلال حضور إشارات الراوي وإشارات الشخصية .
«ونادى بأن كل شيء على حكمه» .

إن الراوي - المؤرخ من خلال استعماله ضمير الغائب في إرسال مادته الحكائية يقيم بينه وبين الحدث مسافة . ومن خلال هذه المسافة يبدو متعالياً على مادته وهذا يتيح له إمكانية تسيير الأحداث وفق تسلسلها الخارجى ، وعلاقتها السببية . وبهذا يمكن تفسير لجوئه إلى إشارات زمنية ناظمة في حال الانتقال من سنة إلى أخرى أو من يوم إلى آخر ، أو عندما يشير إلى ما سبق له أن تحدث عنه من أحداث ظلت آثارها ممتدة زمنياً : «- وقد تقدم القول بأن المماليك . . .

- وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك . . . »

فمثل هذه الإشارات لا تعني غير كون الراوي يسعى جاهداً إلى إضفاء الطابع الموضوعي والمنطقي على أحداثه باعتباره المسير والناظم لها خارجياً . وإذا كان نجد مثلها بشكل كبير في الرواية التقليدية أو في الخطابات التقريرية ، فإن الرواية الجديدة لا تلجأ إليها بسبب كون الراوي لا يحتل مثل هذا الموقع الذي يحتله الراوي التقليدي أو صاحب الخطاب التربوي مثلاً . لذلك يبدو لنا أن المسافة المتحدث عنها تتجلى خارجياً أيضاً بشكل آخر عندما يمارس الراوي تدخلاته الذاتية في القصة ، والتي تأخذ شكل التعليق أو

التفسير أو استخلاص العبرة، إنها جميعاً - أي التدخلات - ذات طبيعة خارجية لأنها تجسيد لوجهة نظر الراوي - الكاتب أو رؤيته السردية.

إن أحادية الرؤية السردية وليدة تصور محدد للحكي، المعرفة المطلقة والصوت الأحادي كلها سمات دالة على مبتغى الراوي التوجيهي لعملية القراءة، لأنه يوجه المتلقي (المروي له) ليشركه رؤيته السردية إيها، ومن خلالها مشاركته لابعادها الخارج - خطابية، أما في الرؤية السردية المتعددة والمتحولة، كما في الزيني بركات، فإننا سوف لن نجدنا أمام مروي له واحد ولكن أمام مروي له متعدد. وهذا يفترض أساساً احتمالات قراءات متعددة، وقراء متعددين، ودلالات متعددة.

وهكذا فالخطاب التقليدي التاريخي من خلال المثال المقدم يتصف على صعيد الزمن بالتسلسل، وعلى صعيد الصيغة والرؤية بالأحادية أي أحادية الصوت المهيمن وصيغة السرد المهيمنة، وهو في كل هذه الحالات يتوجه إلى المروي له الأحادي، ونقيض ذلك مع الزيني بركات والتمن الذي نشتغل عليه وإن بدرجات مختلفة وتفاوتات - كما سنبين.

إن التعدد والتحول علاوة على كونه يمارس خروجاً على الأحادية وأبعادها يتجاوز الارتقاء الذي نحس به كملقين عندما نتعامل مع الخطابات الأحادية، بخلقه لنوع التوتر لدى المتلقي، وإذا كان الخطاب الأحادي يتصف بالشفافية، فنقيضه الخطاب المتعدد الذي يطفح بالعتامة. إن كل هذه المواصفات سنحاول الوقوف عليها عندما يحين وقتها، وأننا لنتدرج في رصد وتحليل وكشف خصوصيات الخطاب وبنياته الداخلية ليتاح لنا الانتقال الطبيعي إلى بنياته الخارجية.

VI - الرؤية السردية في خطاب الرواية العربي

كما تميزت الزيني بركات بتعدد خطاباتها على مستوى الصيغ بالمقارنة مع باقي الخطابات التي نحلل، نجدها تتميز عنها بكثرة أشكالها السردية وأصواتها. إن تعدد الخطابات يستلزم بالضرورة تعدد الأشكال السردية، غير أن أحادية الخطاب في الروايات الأربع سيستتبع بالضرورة أحادية الشكل السردية أو ثنائيته في أحسن الأحوال. هذا ما سنحاول الكشف عنه بصدد الحديث عن الرؤية السردية في خطاب الرواية المتن، وذلك من خلال إبراز الصورة المشتركة على صعيد الشكل والصوت السرديين أولاً، ثم نتقل إلى الرؤية السردية، بناء على تلك الصورة، من خلال كل رواية على حدة ثانياً.

1 - الشكل والصوت السرديان

تتقدم إلينا الخطابات الروائية الأربعة من خلال صورة متشابهة، يظهر لنا ذلك في كونها جميعاً يتركز موضوع تبئرها على شخصية مركزية، من بداية الخطاب إلى نهايته. وهكذا نلاحظ أن موضوع التبئير والسرد معاً يتركز على الشخصيات التالية:

- أنت منذ اليوم : عربي .
- الزمن الموحش : شبلي .
- عودة الطائر : صفدي .
- الوقائع الغريبة : سعيد .

إن هذه الشخصيات المحورية هي موضوع السرد والتبئير، وهي في الآن نفسه ذوات السرد والتبئير معاً. ولا يعني هذا طبعاً أنه ليست هناك ذوات أخرى تمارس السرد أو التبئير، أو أنها الموضوعات الوحيدة، إننا نركز على الطابع التبئيري والسردية المهيمن. وعلى سبيل المثال نلاحظ أحياناً في عودة الطائر كيف أن موضوع السرد والتبئير يوجّه بعيداً عن الفضاء الذي يوجد فيه صفدي، والمقصود بذلك فضاء الأرض المحتلة (أريحا - القدس...) حيث يصبح موضوع السرد والتبئير متركزاً على شخصيات هذا الفضاء الجديد، وحيث تصبح ذات التبئير ليست هي ذات تلك الشخصية المركزية، وقل الشيء نفسه عن الخطابات الأخرى،

وإن بشكل أقل، وبالأخص في الوقائع الغريبة.

من خلال تمركز ذات التبئير وموضوعه نجدنا أمام الشكليين التاليين اللذين يشغلان بالتناوب، والأصوات السردية التالية :

1 - البراني الحكيم، ويظهر لنا خصوصاً من خلال الناظم الداخلي الذي نجده يمارس الحكيم بضمير الغائب، ومن خلال تركيزه على الشخصية المركزية (صفدي - عربي - شبلي)، أو خلال تركيزه على فضاء محدد ومن خلاله على شخصية محددة. ونادراً ما يتحول هذا الناظم الداخلي إلى ناظم خارجي لأن مجاله يظل محصوراً على شخصية محورية لا يتجاوزها.

2 - الجواني الحكيم: وهو الشكل المهيمن، ويتجلى عندما تصبح ذات السرد هي موضوعه في آن معاً، سواء وهي تركز على محيطها الذي يدور بها (الفاعل الداخلي)، أو عندما تركز على ذاتها (الفاعل الذاتي)، ونلاحظ أن الصوتين معاً يتجاوران ويتناوبان، لكون الشخصيات المركزية التي تمارس السرد والتبئير مشاركة في القصة مشاركة خاصة باعتبارها المحور الأساس، ولكونها أيضاً تضطلع بالسرد والتبئير معاً. إن الشخصيات الأساسية تمارس الكتابة، ومن خلالها نتعرف على قصة حياتها، وبالأخص :

- عربي: «يكتب رواية» (ص: 42).

- سعيد: يكتب الرسائل ويبعث بها إلى المروي له.

يظهر لنا من خلال الشكليين السرديين والأصوات السردية الثلاثة كيف أن هذه الخطابات تختلف عن الزيني بركات التي نجد فيها تعدداً على مستوى الشكل أو الصوت بتعدد ذوات السرد وموضوعاته، لكنها هنا متمركزة من خلال ذات محورية، مع تنوعات على هذه الذات. يمكننا تبين هذه الصورة عبر الوقوف على كل خطاب على حدة بهدف تشخيص أهم الرؤيات السردية فيها من خلال تعالق الشكليين السرديين والأصوات السردية.

1 - أنت منذ اليوم

إن التقطيع الزمني والسرد اللذين سجلناهما من خلال الزمن والصيغة يبرز لنا أيضاً من خلال الرؤية السردية، وهذا يُجسد لنا باللمس تكامل هذه المكونات وتعالقها على صعيد الخطاب. إننا في انتقالنا من مشهد إلى آخر، نجدنا ننتقل من زمن ومن صيغة إلى زمن آخر وصيغة مختلفة ورؤية أخرى.

نفتح الخطاب على الشكل الجواني الحكيم حيث عربي (الفاعل الداخلي) يبشر أباه وهو يمسك بالعصا يتربص بالقطة :

«رأيت من النافذة، واقفاً بباب المطبخ ويده العصا...» ص: 7.

وبضمير المتكلم يمارس السرد والتبشير، يرصد حركات أبيه إلى أن يقتل القطة. ثم يبتر بعد ذلك جلسة والديه على مائدة الإفطار، وطريقة أكل والده، وهو يتحدث عن القطة التي التهمت قطعة الكتف. وينتهي هذا المقطع السردى بانسحاب عربي من المائدة، إننا هنا أمام رؤية سردية جوانية داخلية تقدّم لنا من منظور الفاعل الداخلي. لقد ساء فعل أبيه، فبأره داخلياً وهو يقتل القطة، وهو ثانياً يأكل بنهم، وثالثاً يتحدث إليه بطريقة صارمة. صورة الأب المبارة تختلف جذرياً عن صورة الأم: وجهها محمر من أثر الطبخ، وهو معروق، وتحدث إلى عربي بلطف.

من هذه الرؤية السردية الجوانية الداخلية تنتقل إلى الرؤية نفسها في المشهد الثاني وعربي يتحدث إلى صابر عن حفل الحزب، فتبين رغبتهما من خلال صيغة العرض في عدم الذهاب، مؤثرين الذهاب إلى بار أبي معروف. وفي المشهد الثالث نجدنا أمام الناظم الداخلي الذي من خلال ضمير الغائب يتحدث عن عربي، وخروجه صباحاً إلى المدرسة وهو يرى رأس القطة مفصلاً عن جسدها ومسلوخاً. إننا هنا أمام رؤية برانية داخلية، على اعتبار السرد يتفصل عن التبشير: فالراوي (الناظم) يسرد ما يراه المبر (عربي). وعلاقة المبر (عربي) بالمبار (القطة) علاقة داخلية. لذلك فالراوي يسرد ما يراه عربي. وهو من خلال سرده عن عربي ينقل لنا رؤيته الداخلية، ولهذا أسميناه الناظم الداخلي:

«كان رأسها مفصلاً عن جسدها ومسلوخاً، رآه عربي عندما فتح الباب فاخبطت معدته، فأشاح، وأسرع هابطاً إلى المدرسة». ص: 9. وتستمر الرؤية نفسها عند طريق الانتقال إلى بار أبي معروف من خلال تبشير عربي وصابر وهما يشربان ويتحدثان. وهكذا دواليك.

إن هذه الصورة هي المهيمنة على طول الخطاب حيث نجدنا نتقل من الرؤية السردية الجوانية الداخلية إلى البرانية الداخلية عن طريق التناوب والتداخل وعندما نقف على كون عربي عندما لا يمارس السرد يكون عادة هو المبر يتبين لنا لماذا يهيمن ازدواج هذه الرؤية وكونها في الحالتين معاً داخلية. إننا لا نرى إلا ما يرى عربي سواء كنا أمام ناظم يحكي بضمير الغائب، أو فاعل بضمير المتكلم.

تتعمق لدينا هذه الصورة عندما نصبح أمام رؤية جوانية ذاتية يمارس فيها السرد والتبشير من خلال ذات عربي كموضوع، يظهر لنا هذا من خلال بنية الحلم من جهة، ومن جهة ثانية في القسم الثاني من الخطاب عندما تقع الهزيمة.

إن هذه الرؤيات الثلاث تأتي متناوبة ومتداخلة من خلال تبشير عربي بواسطة السرد، أو

تبثيره ذاته وهو يتكلف بالسرد. ولما كانت كل الأشياء المبارة من منظور عربي (الأب - الحزب - المرأة - المجتمع - الهزيمة...)، فإن التبثير هنا يأخذ بعداً داخلياً، وهذا البعد الداخلي هو المهيمن، فكل شيء نراه بعين عربي ووجدانه معاً، من ذاته إلى محيطه.

2 - الزمن الموحش

لا يختلف الزمن الموحش كثيراً كما سبق تسجيل ذلك، عن أنت منذ اليوم، فالرؤيات السردية تتجلى لنا هنا أيضاً بشكل جلي، وخصوصاً الجوانية لأن شبلي مركز السرد والتبثير، بحيث لا يكونان إلا حيثما يكون. لكن هناك اختلافاً نجده في كون موضوعات تبثير الزمن الموحش متعددة ولها حضورها البين في الخطاب، وبالأخص الشخصيات التي يزخر بها. فالناظم الداخلي وهو يثر أحياناً محيط شبلي الزاخر بالشخصيات يثر منظوراتها إلى شبلي وإلى محيطها أيضاً. وإذا كان الطابع المهيمن هو منظور شبلي إلى هذه الشخصيات، ونلاحظ أن الفصل الثاني بكامله تبثير لشخصيات سامر البدوي ووائل الأسدي ومسروور وديانا... من منظور شبلي الداخلي. ولا غرابة في ذلك فشبلي يؤكد من خلال السرد (الفاعل الداخلي) أنه يعمل على تعرية الجميع بمن فيهم نفسه أيضاً، إن تكسير الأصفاذ الزمنية من وجهة نظر الراوي تمر عن طريق الولوج إلى الداخل:

«لا بد من عبور النار الداخلية في محاولة تطهيرية بذلك تتألق النفس وتظل في مركز الوهج. وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكر القديم» ص: 44.

إن الموقف النظري الذي يأتي في سياق الحديث عن الطفولة والذاكرة بين شبلي ومنى، وكثيرة هي المواقف التي تناظره، تمارس بشكل كبير على مستوى الرؤية السردية في الخطاب، وسنحاول تشخيصها الآن من خلال الرؤيات السردية المشار إليها أعلاه، وبالأخص الرؤيتين الجوانية الداخلية والذاتية، أما البرانية الداخلية، فنادرة جداً.

«ترى كم هي المسافة النفسية بينه وبين ما يريد، في وطن ما يزال منشداً نحو تراثه وارتكاساته القبلية والدينية؟

سَمُّ ما شئت... مطلوب منه أن يستشهد أو ينسحب. في الحالة النواسية بين الشهادة والانسحاب، كنت أقع، وفي هذه النقطة الحرجة كنت أبحث مع منى عن شيء آخر في دمشق، وقطّ لم أكن أبتغي مجدداً...» ص: 23.

نلاحظ من خلال هذا المقطع كيف أننا ننتقل من الناظم الداخلي، الذي يبدأ أولاً بتأطير الفضاء «دمشق التي تلوح وجعاً...»، ثم بعد ذلك يؤطر الشخصية المركزية «شبلي». من خلال طرح السؤال عن رغبة شبلي في دمشق لننتقل منه إلى الفاعل الداخلي (شبلي) الذي يثر ذاته داخلياً من خلال الإشارة إلى إحدى حالاته الدائمة «النواسية»

وما يصاحبها من إسقاطات. إن الفاعل الداخلي وهو يثر ذاته كما نلاحظ من الداخل كيف أنه يقيم بينه وبينها مسافة ليصبح قادراً على رؤيتها واستنباطها. ونفس الشيء نلاحظه في الانتقال إلى الرؤية الجوانية الذاتية:

«أأنت تخدعها إذ تقول لها: أحبك؟ وأنت تود أن تقول: أنت تأري الخاص، وبطفولة امرأة سحقها الزمن تحكي لك أنها هجست بك منذ أعوام طويلة...»
ص: 31.

فمن خلال تبثير الذات بانقسامها إلى ذات ترى ذاتها في علاقته بالموضوع (أمنية في المثال) تبرز لنا ذات السرد من خلال رؤية سردية جوانية ذاتية. وهي ليست إلا تنوعاً على الرؤية السابقة الجوانية الداخلية، إلا أنها أكثر منها عمقاً في الكشف عن أعماق الذات.

وحتى عندما يكون الفاعل الداخلي يثر غيره من الشخصيات، فإننا لا نجده يثرها إلا من الداخل. فليس همه الأساس هو أن يثرها من الخارج. يمارس هذا الفعل بين الفينة والأخرى، لكنه يفعله ليكشف عن دواخل الشخصيات وأعماقها، ليس من خلال صيغة السرد، ولكن من خلال العرض. وفي الخطاب الذي بين أيدينا نجد التبثير لا يتم دائماً من خلال السرد، بل يتم أحياناً عبر التعارض معه بواسطة العرض والعرض غير المباشر، ولهذا وهو يثر غيره من الشخصيات نجده يتأثر معه وضمنها، وما احتفال الخطاب بهذا التداخل بين السرد والعرض إلا خير مثال على ذلك:

«... قلت: وماذا عنك؟»

واخترقني بعينين فيهما بريق غريب، ثم انخطف عيناها مغطياً ارتياحه بضحكة تحمل إيقاعاً مؤسياً: نخبك، ورفع كأسه بعد امتصاص الخمر امتعض: أية خمرة رذيئة وسامة هذه!

- العرق أقل المشروبات مضايقة في النهار القادم.

- منذ متى تشرب الخمر؟

- بالتحديد لا أذكر.

- تبدو سكيراً أصيلاً.

- بالوراثه ربما.

- هل كان يشرب الخمر؟

- بالخمر مات. ظل يحتسي الخمر طوال أربعين عاماً حتى تسمم الدم...»

ص: 27.

نلاحظ من خلال هذا العرض غير المتكامل كيف أن الفاعل الداخلي وهو يثر رفيقه

راني من خلال السرد كيف أنه يركز على صفات ذات طبيعة «داخلية»: بريق العينين: الضحكة ذات الإيقاع المؤسي، الامتعاض ومن خلال العرض يصبح يبشر ذاته (أبوه - الخيبة...).

إن لعبة التبشير في الخطاب تبعاً للعب الصيغي والزمني تجعلنا تنتقل من رؤية إلى أخرى مع هيمنة الرؤيتين الجوانيتين الداخلية والذاتية من خلال عملية التقطيع السردية.

3- عودة الطائر إلى البحر.

تتميز عودة الطائر إلى البحر بحضور الناظم الداخلي كصوت سردي مهمين. فهو الذي يمارس السرد بضمير الغائب. لكنه يختلف عن الناظم الخارجي في كونه لا يمارس السرد إلا عندما يكون موضوع التبشير وذاته معاً محددين. إنه يقوم بدوره السردية بشكل بارز من خلال تركيزه على صفدي ومحيطه (مع بامبلا أو مع زملائه من الأساتذة والطلبة) من جهة أولى، وتركيزه على فضاءات أخرى محددة في الأرض المحتلة، ومن خلال شخصيات محددة. إنه يمسك بدفة السرد والعرض (العرض غير المباشر). لكنه لا يسرد إلا ما يرى المبرر (صفدي مثلاً).

تم العلاقة بين الراوي والمبرر من خلال منظور الشخصية الداخلي، لذلك نجدنا هنا نتحدث عن الرؤية السردية البرانية الداخلية المهيمنة أفقياً. لكن عمودياً سنجد تنوعات تجعلنا تنتقل من رؤية إلى أخرى وفق النمط الذي سجلناه مع الزمن والصيغة. وللتدليل على ذلك نأخذ مقطعاً سردياً كالذي تناولنا في الصيغة لتقديم صورة عن أنواع الرؤيات وكيفية اشتغالها.

في اليوم الأول من الأيام الستة نجدنا أمام خمسة تمفصلات سردية كبرى.

- 1 - الراوي ← (بيروت = صفدي).
- 2 - الراوي ← (الأرض المحتلة).
- 3 - الراوي ← (بيروت = صفدي).
- 4 - الراوي ← (الأرض المحتلة).
- 5 - الراوي ← (بيروت = صفدي).

نعين من خلال هذه الصورة تحول الرؤية وتبدلها، فهي تنتقل من فضاء إلى آخر، ويؤطرها دائماً التركيز على صفدي. فالراوي (الناظم الداخلي) يتابع حركاته وأحاسيسه حيال ما يجري، وانعكاساته على ذاته. يبدأ معه منذ استيقاظه من النوم إلى أن يعود مساء إلى بيته: يركز على أفعاله بالصورة التي سبق لنا أن رأيناها في الزمن الموحش، أي الصورة

التي يتم من خلالها الكشف عن عالمه الداخلي. يبرز ذلك في هيمنة أفعال من قبيل: «يتوقع - أحس - يراوده - يملكه انقباض - يفكر - يحس - هز رأسه دون أن يعلق...» .

إنها جميعاً أفعال دالة على حالة نفسية داخلية تعبر عن أحاسيسه حول ما يجري. إنه عاجز عن الفعل، وليس له إلا أن يعبر عن أحاسيسه وانفعالاته وأقواله مع زملائه. بهذا الشكل يمارس الراوي السرد من منظور صفدي وهو يتحرك داخل الجامعة، يتحدث إلى طلبته أو زملائه أو باميللا.

وبتحول الراوي إلى الأرض المحتلة، نجدها يثير مشاهد عديدة من خلال تركيزه على:

- صبري محمود/ أم ماهر/ نعمت عبد الرحيم/ أهل أريحا/ عزمي عبد القادر/ خالد عبد الحليم.

وتبعاً لهذا التركيز على كل شخصية في محيطها الخاص بها، ينتقل الناظم من داخلي إلى خارجي، لكن هذا الانتقال سرعان ما يتجاوزُه لينقل إلينا أحاسيس هؤلاء وردود أفعالهم إزاء ما يحدث والحرب قائمة: يتتابهم الهلع والخوف، بعضهم يتأهب لجمع الناس وتنظيمهم (طه كنعان/عزمي عبد القادر. .) وعندهم أمل ممزوج بالتوجس بالرجوع إلى أوطانهم أو بيوتهم التي طردوا منها في 1948.

بهذه الوتيرة تتعدد المنظورات إلى ما يجري (الحرب)، وتتحول من فضاء إلى آخر، ومن شخصية إلى أخرى مع التركيز على صفدي الذي تُوَظَر رؤيته كل الرؤيات وتستوعبها. فمن خلال منظوره الذي يقدم لنا الناظم الداخلي نتعرف على أحاسيسه وانفعالاته وأفكاره. إن ازدواج الرؤية الذي يبرز لنا من خلال صفدي وزملائه في بيروت وأهل الأرض المحتلة من جهة ثانية يجعلنا أمام رؤية سردية متحولة ومتعددة في آن. فهي متحولة من حيث كونها تتقدم إلينا من فضاءين مختلفين أو من خلال ذاتين مختلفتين للتبشير. وهي متعددة من حيث كون تعدد المنظورات السردية إلى الموضوع المركزي المبار (الحرب). فمنظور صفدي وزملائه للموضوع المبرار داخلي لأنهم «يرون» -ه- خارجاً عنهم. أما منظور أهل الأرض المحتلة للموضوع المبرار فخارجي على اعتبار أنهم جزء منه. لذلك نجد الناظم الداخلي كثيراً ما يتحول إلى ناظم خارجي يثير أفعال أهل الأرض المحتلة وأقوالهم باعتبارهم جزءاً من الموضوع المبرار خارجياً من خلال رؤية برانية خارجية.

يتأكد لنا هذا انطلاقاً من التقابل بين الفضاءين والتناوب بينهما من خلال التركيز على صفدي: فحيثما تكون الأفعال الدالة على الحركة، سواء في الأرض المحتلة أو بيروت (مظاهرات الطلبة)، تكون أفعال الحالة النفسية مع صفدي. وعندما نعرف أن الناظم

الداخلي وهو يركز على صفدي يعمل على تبشيره لما يراه من الداخل يتأكد لنا ذلك. إن ما يجري خارجياً (رؤية برانية خارجية) ينعكس داخلياً (رؤية برانية داخلية). إن العالم الخارجي (البعد البراني) ينعكس داخلياً (البعد الداخلي) على ذاتية صفدي بصفته ذات السرد والتبشير وموضوعهما في آن معاً.

4- الوقائع الغريبة

نفتح الخطاب الروائي في الوقائع الغريبة الراوي المؤطر الذي يبدأ بإبراز علاقته براوي القصة عن طريق الكتابة. فهو يكتب إليه مخبراً إياه أن يروي عنه، ويستمر حكّي الراوي الثاني إلى نهاية القصة. فيظهر الراوي المؤطر من جديد ليعلق على القصة. فالرسائل التي كان يتوصل بها مدموعة في بريد عكا، ويخبرنا بخروجه للبحث عنه، فيدلونه على مستشفى المجانين ويجد اسماً قريباً منه «سعدي نحاس الملقب أبو الثوم، ويقال أبو الشوم» ص: 207. ومن خلال الإيحاء إلى «باقية» يخبر في المستشفى أن امرأة زارته زاعمة أنها عبرت الجسر من بيروت فأخبروها بموته - وينتهي بإعلان أنه سيبحث عنه طالباً منا مساعدته في البحث عنه.

إن الراوي المؤطر للخطاب يتحول إلى مروي له، وفي الخطاب تظل العلاقة بينهما قائمة من خلال العديد من الإشارات التي يتوجه فيها الراوي إلى المروي له مباشرة «يا محترم، يا معلم...»، بينما المروي له لا يبرز أمامنا إلا في بداية الخطاب ونهايته. إنه يقوم بوظيفة التأطير والتعليق النهائي عن القصة، أما الراوي (سعيد المتشائل فيقوم بوظيفة الإخبار عن قصته العجيبة).

يتكلف راوي قصة الخطاب بالحكي بضمير المتكلم، وهو يحكي قصته الذاتية، إنه ذات السرد وموضوعه في آن. وتبعاً لذلك يغدو الشكل السردى جوائياً، أي أنه يحكي لنا قصة هو بطلها ومحورها، ولما كان كذلك فهو الفاعل الذاتي كصوت سردي يقوم بترهين خطاب قصته من خلال ضمير المتكلم.

إن كل شيء في قصة الخطاب يبدو أمامنا من منظور الفاعل الذاتي، فهو الذي يقوم بالسرد والتبشير. ولا يكونان إلا حشماً يكون، لكننا نجد الفاعل الذاتي أحياناً في إطار اشتغال الصيغ يتحول إلى مروي له وهو يستمع إلى ما يحكيه معلم العربية أو معلم علم الفلك وهو يتحدث عن البيروني، أو يستمع إلى قصة أبي محمود عن سير القرية والرجل الضرب (ص: 192). ويتحول الراوي إلى مروي له يبرز أمامنا كونه لا يثر فقط ما يراه ولكن أيضاً ما يسمعه أو يتذكره سواء تعلق الأمر بحياته أو أجداده أو محيطه العام الذي يتحرك فيه. وتبعاً لما رأينا في الزمن والصيغة تبرز لنا خصوصية الرؤية في الوقائع الغريبة، فهي ثابتة من حيث كون

منظورها يتم دائماً من خلال الفاعل لكنها متعددة على اعتبار الراوي (الفاعل) ينتقل من فاعل ذاتي إلى فاعل داخلي: فهو يمارس السرد والتبشير وهو يثير ذاته من الداخل أو ذاتياً عندما يصبح ينظر إلى ذاته كموضوع: من خلال تبشير أفعاله وأقواله. أو من خلال تبثيره إياه لذاته في علاقتها بموضوع (يعقوب - يعاد. . .)، أو تبعاً لتبثيره للموضوع (شخصية - حدث) كما ينطبع في ذاته. ويساعد على هذا التعدد خصوصية شخصية سعيد المتشائل فهو الأهل العاقل، والعاقل الأهل، وازدواج هذه الشخصية يجعلها، وبالخصوص قبل التحول الذي نجده في الكتاب الثالث، ذات رؤية مزدوجة كما تبتدى أماننا، يمكننا التدليل على هذا من خلال تبثيره لذاته كموضوع (قصة إنقاذ حياته (ص: 16) - دخوله إلى الأرض المحتلة. . .) ص: (20). من خلال هذا السرد المرتبط بالتبشير الذاتي يبرز لنا الفاعل الذاتي يقدم لنا ذاته على أنها متميزة (فهو فذ - وذو طالع حسن. . .). وفي تبثير الذات في علاقتها بالموضوع تبرز لنا جوانب أخرى من ذاتية الفاعل (قصة اعتقال يعاد في بيته - حديثه مع معلمه - رفعه العلم. . .) إنه هنا يبرز لنا مناقضاً للصورة التي سبق تقديمها عن ذاته. ونفس الشيء يمكننا معاينته وهو يثير الموضوع كما ينطبع في ذاته (طرد الناس من بيوتهم - تستر باقية وأهل القرية. . .) حيث نجدنا أمام منظور مختلف.

إن تحول الفاعل من ذاتي إلى داخلي في التمرکز على ذات السرد وجعلها موضوعه في وقت واحد ومن خلال الحالات الثلاث لا يجعلنا أمام رتابة الشخصية أو الرؤية، كما أن التداخل بين الرؤيتين الجوانية الذاتية والداخلية وتبادلها زمنياً وصيغياً، يجعلنا نرى موضوع السرد من منظورات تتعدد بواسطة هذا التبدل والانتقال. ولما كان التبشير لا يتم فقط على ما يراه الفاعل، ولكن أيضاً ما يتذكره ويسترجعه زمنياً فإن ذلك يسهم بدوره في تعدد المنظور السردية الذي لا يبرز لنا فقط من خلال السرد، ولكن أيضاً من خلال العرض كما رأينا الزمن الموحش. فعبر صيغ العرض تبار شخصية المتشائل من خلال أقوالها وأقوال شخصيات أخرى، الشيء الذي يكشف لنا جوانب جديدة من حياة الشخصية في علاقتها بذاتها وبالأخرين.

وتكفي في هذا الإطار مقارنة الوقائع الغريبة بإحدى الخطابات التي تتركز على «الفاعل الذاتي» كذات للسرد وموضوع لتظهر لنا بجلاء خصوصية الرؤية السردية هنا. فاشتغال الزمن والصيغة بالشكل الذي حدّدناه، وتعدد جوانب شخصية المتشائل وازدواجها ساهم بدور كبير في طبع الرؤية السردية بهذا الطابع المزدوج: الانتقال من الرؤية السردية الجوانية الذاتية إلى الجوانية الداخلية وفق علاقات تقوم على التضمين والاستطراد والتداخل. وبهذا يبرز أماننا المنظور الداخلي للفاعل، سواء للأحداث أو الشخصيات، من خلال هيمنة الرؤية الجوانية الداخلية بسبب التداخل الحاصل بين الذات كموضوع للسرد

والتبشير والموضوع المبدأ من خلال الذات. وهي هنا تختلف نسبياً عن الرؤية الجوانية الداخلية في الزمن الموحش وأنت منذ اليوم.

تركيب:

نخلص مما تقدم إلى أن الرؤية السردية في الخطابات الأربع وهي تتم من منظور ذاتية مركزية، سواء كانت ذات السرد أو موضوعه في آن، أو ينفصل أحدهما عن الآخر، لتري الذات موضوعاً آخر، أننا أمام هيمنة الرؤية الجوانية الداخلية، إن هذه الرؤية هي التي تؤثر كل الرؤيات الأخرى وتستوعبها جميعاً. يبرز هذا في كون الذات تحتل المركز الأساس تجاه الموضوع الأساس (عالم القصة).

لكن هذه الرؤية الجوانية الداخلية لا يمكنها أن تحجب عنا اللعب السري والتبثيري الذي يعجب به الخطاب، هذا اللعب الذي يمكننا اختزاله فيما يلي:

1 - انفصال السرد عن التبشير: يؤدي إلى ازدواج الرؤية السردية من برانية داخلية إلى جوانية داخلية حيث يسرد الناظم ما يراه المبرر داخلياً، وحيث يبرر الشخص ذاته من خلال علاقته بالموضوع (عربي - صفدي).

2 - اتحاد السرد والتبشير: يؤدي إلى الانتقال من الجوانية الداخلية إلى الجوانية الذاتية حيث ننظر إلى الذات كموضوع وإلى الذات من خلال الموضوع (الزمن الموحش - الوقائع الغريبة).

إن هذا الازدواج لا يخفي بدوره رؤيات فرعية صغرى تأتي تنوعاً عليه وإغناء له على المستوى العمودي حيث التحول والتبدل الزمني والصيغي. وهذه التحولات تسهم مجتمعة في جعلنا لا نلمس هيمنة هذه الرؤية أو تلك أو ازدواجها إلا عندما ننظر إلى الخطاب على المستوى الأفقي العام، على اعتبار أن الاشتغال الكمي والكيفي للتبدلات السردية يسهم بدور كبير في تحديد الرؤيات بشكل أكثر دقة وعيانية. بل إن وصولنا إلى ازدواج الرؤية أو هيمنة إحداها على غيرها لم يأت لنا إلا من خلال معاينة هذا التعدد.

هكذا يمكننا استخلاص أن ازدواج الرؤية السردية في هذه الخطابات: البرانية الداخلية والجوانية الداخلية في أنت منذ اليوم وعودة الطائر إلى البحر، والجوانية الداخلية والجوانية الذاتية، يجعلنا أمام البعد الداخلي للرؤية، وهذا البعد يجلي منظور الذات إلى ذاتها وموضوعها معاً، إذ من خلال الذات الداخلية تصلنا القصة وعوالمها وهي تتمفصل إلى ذات وموضوع للسرد والتبشير معاً.

الراوي والمروي له في الخطاب الروائي على سبيل التركيب.

1.1. وقفنا من خلال تمييزنا بين القصة كمادة حكاية والخطاب كطريقة لتقديم هذه المادة، عبر ثلاثة مكونات مركزية هي على التوالي: الزمن والصيغة والرؤية السردية. كان تحليلنا «تقنياً» كما يحلو للعديد من وصف نوع هذا العمل. حاولنا من خلاله تجلية الطريقة التي قدمت المادة الحكائية بواسطتها، إيماناً منا بأن الخطاب هو الأساس فالمادة الحكائية أو القصة، يمكن بدورها أن يكون محط دراسات مستقلة. لكن إلحاحنا على أهمية الخطاب يكمن في أنه شكل التعبير الذي يبرز في خلاله الاختلاف. فقد تكون المادة الحكائية واحدة، لكننا عندما نقدمها لكتاب عديدين نجد كل واحد منهم يقدمها لنا بواسطة خطاب معين، سواء داخل النوع الأدبي الواحد، أو ضمن أنواع متعددة. ومدار التعدّد الخطابي هو الذي يتيح لنا إمكانية ملاسة ثوابت الخطابات أو تحولاتها من خلال التحليل. لذلك كان الكشف عن خصائص الخطاب ومكوناته ومميزاته سانكرونية، كما مارسنا ذلك، خطوة أساسية وضرورية نحو معانية ما طرأ على الخطاب الروائي العربي في صيرورته. وبالإمكان إنجاز تحليل الخطاب الروائي دياكرونية، سواء من خلال كل المكونات أو أحدها للهدف نفسه.

2.1. كما أننا، مارسنا تحليل الخطاب (كمظهر لفظي) من داخله، جعلنا طرفيه المتقاطعين هما الراوي والمروي له كما يتجلّيان سردياً داخل الخطاب. واستبعدنا الحديث عن الكاتب أو القارئ لأنهما عنصران مشوشان. ومصدر التشويش يأتي من كونهما خارجين عن الخطاب أو نفترضهما كذلك، إجرائياً، بهدف البقاء عند الحد الذي يتيح لنا أكثر ملاسة الجوانب التي نبغي كشفها بكامل الموضوعية والعلمية.

هذا هو المنطلق الذي حدد ممارستنا إلى الآن، وجعلنا نحاصر أنفسنا به، وستاح لنا في الكتاب الثاني المتعلق بالنص، إمكانية فتح حد جديد يتجاوز الحد الذي وقفنا عنده هنا. وهو الذي كنا قد أسميناه في مدخل هذا الكتاب بـ «المستوى الدلالي» حيث سنعين جوانب أخرى ومكونات موسعة يطالها التحليل لأهداف أخرى.

يهيئنا في هذه النقطة التي وصلنا إليها في تحليلنا للخطاب الروائي أن نقوم على سبيل التركيب بتسجيل بعض الملاحظات عن الراوي والمروي له في الخطاب الذي حللناه على صعيد الزمن والصيغة والرؤية السردية.

1.2. من المصطلحات التي شاعت كثيراً في الدراسات السردية مصطلح «الترهين السردى» الذي نضع مقابل: (Instances narratives). يعود هذا المصطلح إلى بنفست الذي استعمله وهو يتحدث عن الترهين الخطابي (Instances du discours)، قائلاً بصدد الضمائر بأن بعضها ينتمي إلى تركيب اللسان، وبعضها الآخر هو الذي نسميه «ترهينات الخطاب» بمعنى الأفعال أو الأعمال المكتومة والمتفردة في كل مرة، والتي بواسطتها يرهن اللسان إلى كلام بواسطة متلفظ⁽¹⁾. وعندما يتحدث عن «الأنا» يرى أنه يعني الشخص التي يتلفظ بالترهين الخطابي الحاضر، والمحتوي «أنا» ولا معنى لـ «أنا» إلا من خلال الترهين الخطابي الذي أنتجها، أي الفعل الكلامي الذي تلفظ به. إنه نفس المعنى الذي نجده في معجم اللسانيات (1973 - ص: 264) والذي يقول في تعريفه إياه: «إنه الفعل الكلامي، المتفرد دائماً، والذي بواسطته يرهن المتكلم اللسان (القدرة) إلى كلام (إنجاز). لهذا السبب وضعنا هذا المقابل «الترهين» ومعناه إنجاز الفعل الكلامي راهناً، أي في «حال». يتم نقل هذا المفهوم اللساني إلى السرديات، ليأخذ مع جنيت بعد «السرد» بما هو ترهين للقصة من خلال فعل السرد، أي «الصوت السردى» بمعنى آخر أو الراوي في علاقته بالمروي له (جنيت 1972 - ص: 76 - 226).

تعددت الترهينات السردية وبالأخص مع ميك بال ولتلفلت وهي تذهب من المباشر إلى الضمني، التي يمكننا تلمسها من خلال معينات أو مؤشرات سردية أو مفترضة، مجردة كانت أو ملموسة. وفي معرض رد جنيت (1983) على ميك بال يلاحظ تسبب إستعمال هذه الترهينات.

ما يهيئنا في هذا النطاق هو الإشارة إلى أن «أنا» السرد أو «هو» في الخطاب السردى أو «أنت كضمائر» هي وببساطة «ترهينات سردية» أو «أصوات سردية» منتجة من خلال السرد أو الخطاب، وهو يتشكل بواسطتها من خلال الإنتاج السردى. إنها لو شئنا تقريب المراد أكثر نمثلها بالضمير المحايد (it). وهذه الترهينات السردية كيفما كان الضمير المنتجة بواسطته والمتوجهة إليه لا تحيل إلى شيء خارجي عنها، لأن وجودها مرهين في الفعل الكلامي المنجز، ومرهون به أيضاً.

لماذا نعتبر الراوي والمروي له ترهينين سرديين؟ ببساطة لدفع أي الالتباس يقع بين

(1) بنفست 1966، ص: 251 « 252.

الراوي والكاتب بالدرجة الأولى كيفما كانت نوعية العلاقة أو المسافة القائمة بينهما. والربط بين الراوي (كشخص من ورق كما يقول بارت) والكاتب كإنسان مارسه النقد التقليدي بشكل لم يساهم في تحليل الخطاب من داخله، ولكن من خلال الكاتب. وأولى أهداف السرديات دفع هذا الخطأ، وتجاوزه في آن. إن الراوي والمروي له صوتان سرديان يقدمان لنا من خلال الخطاب السردى، حتى وإن لم يكونا مُحَدِّدين بشكل تشخيصي (صفات معينة - أسماء...).

إن التمييز بين الراوي والكاتب، مورس بشكل كبير منذ الستينات، كما أن الاهتمام بالمروي له في الخطاب ابتدأ بشكل خاص مع جيرالد برينس منذ بدايات السبعينات، وتطور بشكل خاص في الثمانينات⁽¹⁾. وانطلاقاً من هذه الأبحاث نحاول الآن معاينة الراوي والمروي له في المتن الذي حللنا، كما يظهر لنا من خلاله، مع ربط ذلك بالمكونات السالف تحليلها، بحسب السياق.

2.2. بدءاً، نحاول تحديد أنواع الرواة وصفاتهم، ونثني بعد بالحديث عن وظائفهم: في الزيني بركات نجدنا أمام رواة متعددين يتناوبون في تقديم القصة. وجميعاً مشاركون في القصة، باستثناء الرحالة البندقي. وإلى جانب هؤلاء الرواة هناك راو غير مشارك وغير محدد، هذا الراوي يساهم في تأطير الفضاء (أول الناس، وصف المدينة صباحاً...). لكنه سرعان ما يتحول إلى ناظم داخلي يركز على شخصية من الشخصيات ومن منظورها يقدم لنا مادة القصة:

الراوي ← (الراوي ← الخطاب ← المروي له) ← المروي له.

هذه هي الصورة التي يقدمها لنا خطاب الزيني بركات، فالراوي الأول هو الناظم الذي يقوم بتأطير الخطاب ككل، ولكنه يتناوب ورواة آخرين في تقديم المادة الحكائية. بالنسبة للرواة الآخرين نجدهم يمارسون الحكي من خلال خطاب خاص يتم توجيهه إلى مروي له محدد على هذا النحو.

الراوي ← الخطاب ← المروي له.

الكاتب	الرسالة	القارئ
الكاتب	التقرير	القارئ
الخطيب	الخطبة	المخطوب عليه
الرحالة	المذكرة	القارئ الأجنبي

(1) P. A. Ifri: proups et son narrataire. Droz (Genève) 1983. Introduction

إن الراوي سواء كانت كاتباً أو خطيباً، ونفس الشيء كذلك بالنسبة لمتلقي المذكرة أو الرسالة أو قارئها أو متلقي الخطبة، جميعاً شخصيات ملموسة داخل الخطاب. يتواصلون بينهم بهذه الخطابات التي تتآزر وخطاب الراوي (الناظم) الذي يتم من خلال شخصية محورية لتقديم المادة الحكائية. ومقابل هذا الراوي الناظم، هناك المروي له المفترض الذي يتلقى كل الخطابات ومن مختلف مرسلها بحيث يغدو مضمناً في كل الخطابات، يتلقاها كما يتلقاها أي مروي له من منظوره الخاص. وهذا ما يجعله على مسافة من الخطاب الذي يتلقاه باعتباره غير مباشر، أي أن الخطاب غير متوجه إليه مباشرة كما نجد في الرواية التقليدية.

- في الوقائع الغريبة: نجد الصورة تقريباً على اعتبار الراوي المؤطر مروي له في الأصل. فهو يتلقى الرسائل من راوي القصة وعلى طول الخطاب يظل مروباً له بشكل مباشر، وفي النهاية يبرز المروي له راوياً يتحدث عن الخطاب المرسل إليه:

الراوي ← (الراوي ← المروي له) ← المروي له .

فالراوي الأول هو مؤطر الخطاب (الناظم)، وهو يتحول إلى مروي له في علاقته بالراوي الثاني. وهو المروي له المباشر الذي يتلقى القصة ولكنه براني عنها، (أي غير مشارك فيها). أما المروي له الثاني فهو المجرد مادام غير مشارك وإن كان الراوي المؤطر (الناظم) يتحدث إليه مباشرة: (ابحثوا معي عن المتشائل).

- في أنت منذ اليوم والزمن الموحش: نجدنا أمام الناظم الداخلي الذي من خلال منظور عربي أو شبلي يقدم المادة الحكائية، وسرعان ما يتم التحول إلى الفاعل الداخلي عندما يمسك عربي أو شبلي بالحكي كشخصية وراوٍ. في هذه الحال يمارس الحكي بشكل مباشر إلى مروي له مباشر (عربي يحكي لصابر، وشبلي لرائي أو أمينة...) أو يتحول إلى مروي له يستمع إلى راوٍ مباشر هو إحدى هذه الشخصيات، أو يتلقى منها رسالة (رائي/شبلي). هذه العلاقات التي يتحول فيها الراوي إلى مروي له والعكس، أو يتم الحكي من منظوره تجعلنا أمام صورة الراوي الذي يتحدث إلى ذاته أو إلى موضوعه. ومن خلالها يظل المروي له المجرد غير مضمن وغير مباشر.

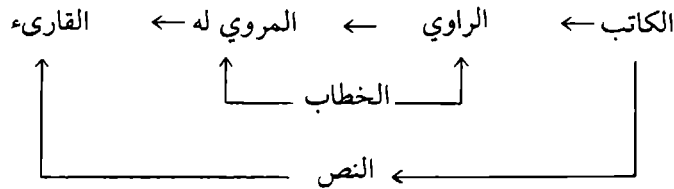
- في عودة الطائر إلى البحر: يظل الناظم الداخلي يسرد من منظور صفدي. أو من منظور إحدى الشخصيات في الأرض المحتلة. وهناك علاقات بين الشخصيات في إطار تبادل الحكي وممارسته (قصة الضبع)، لكن المروي له المجرد غير مباشر وغير مشارك.

من خلال هذه الصورة المقتضبة نتبين العلاقة بين الراوي والمروي له في الخطاب الروائي تأخذ الشكلين التاليين:

- 1 - حضور الراوي الجواني الحكي مُقابل المروي له الجواني الحكي .
- 2 - حضور الراوي الجواني الحكي مقابل المروي له البراني الحكي .

إن هذين الشكلين تبرز لنا من خلالهما صورة الراوي الجديد الذي لا يقدم علماً هو بعيد عنه ومتعال عليه ، وحتى عندما يكون الراوي براني الحكي وغير مشارك فيه فإنه لا يمارس كل وظائف الراوي التقليدي سواء كانت سردية أو إيديولوجية أو تعليلية ، ما دام يركز على منظور شخصية محورية نصيح نرى الأشياء من خلال رؤيتها الداخلية . إن وظيفة الراوي المركزية تأطيرية وسردية بالدرجة الأولى ، ولكن المروي له المجرد لا يمكنه أن يتماهى وأي مروي له مباشر في القصة وحتى عندما يمارس الراوي المؤطر التعليق في نهاية الوقائع الغريبة ، فإن تعليقه هنا الذي يتوجه فيه إلى المروي له المجرد مباشرة من خلال ترهينه إياه ، يظل تعليقاً غير محدد لا يعلن حقيقة أو مغزى أخلاقياً للحكي الذي كنا نتلقاه من منظوره (كمروي له مباشر) إنه تعليق معلق، تمويهى، يدفع المروي له إلى التفكير والبحث، وتكوين فكرته الخاصة عن الحكي .

3.2. هذه هي الصورة المشتركة بين هذه الخطابات . فالمسافة واسعة بين الكاتب والقارئ عندما نبغي الانتقال من المستوى النحوي إلى المستوى الدلالي الذي نتنقل فيه من الراوي إلى الكاتب ومن المروي له إلى القارئ وفق هذا الشكل :



وجود هذه المسافة يعود أساساً إلى كون الكاتب لا يتماهى مع الراوي (حاولت رضوى عاشور أن تطابق بين الغيطاني والجهيني) لأن تعدد الرواة والمنظورات الجوانية الحكي في علاقتها بالمروي له الجواني تجعلنا أمام صعوبة التماهى مع مروي له معين صحيح نجد إشارات تدل على بعض أوجه التعالق بين الراوي والكاتب وبالأخص في :

- الوقائع الغريبة : المروي له الصحفي في جريدة الإتحاد والشيوعي يوحى لنا بالكاتب حبيبي .

- عودة الطائر : الباحث السوسولوجي والذي درس في أمريكا (صفدي) يومئ إلى حلليم بركات .

- أنت منذ اليوم والزمن الموحش : توحى فيها شخصية عربي الذي يكتب رواية إلى

الكاتب، لكنه هل يمكن اعتبار حيدر حيدر هو شبلي أم راني الذي يكتب رواية؟

لكن إقامة هذا التطابق بناء على بعض الإشارات الموحية لا يخدم التحليل الخطابي لأنه يدفعنا إلى «قراءة» الكاتب في الشخصية المعينة أو الفكر المعين الذي تحمله هذه الشخصية، وليس إلى قراءة الخطاب أو النص قراءة كلية لا يمكنها البحث عن الكاتب إلا من خلال الكتابة وإنتاجيتها بصفة عامة، لأن هذا التماهي لوقمنا به بين المروي له (لهم) والقراء، لما أمكننا الوصول إلى المبتغى الذي نرمي إليه.

إن المسافة التي تبرز لنا في علاقة الراوي (الناظم) بالمروي له المجرد تقوم على تباعد، وهي نفسها التي تتم بين الكاتب والقارئ. وهذا التباعد يجعل القارئ وهو يقرأ من منظور أحد المروي لهم يبحث عن موقعه ومنظوره داخل النص، وهذا يجعله في النهاية دائم التساؤل عن دلالات النص وأبعادها والتي لا تقدم إليه بشكل مباشر.

وهذه الخاصية تتصافر وما رأيناه على مستوى تقنيات الخطاب وما تعرفه من لعب تجلى على مستوى الزمن والصيغة والرؤية. وبها جميعاً يختلف الخطاب الذي بين أيدينا عن الرواية التقليدية، التي يأخذ فيها الراوي الذي يتماهى والكاتب، بيد المروي له الذي يتماهى والقارئ والمستمع ويوجهه إلى عالم القصة كاشفاً له عن الزوايا والخبايا والنوايا معلقاً متسائلاً مفسراً ومستخلصاً عبرة الحكيم، أمراً المروي له/ القارئ - المستمع أن يستخلص الدرس الذي يقدمه الحكيم، ويمارسه في حياته.

يقلب الخطاب الروائي الجديد هذه المعادلة ويتوجه إلى المتلقي معتماً ومتوتراً، دافعاً إياه إلى التأمل والبحث ومعاودة القراءة. إنه يتقدم إليه ككل، ولا يمكن لصورة الخطاب أن تكتمل لديه إلا بعد الانتهاء من القراءة، والقراءة المتأنية. بهذه السمات والخصائص يتميز الخطاب الروائي العربي الجديد عن الخطاب الحكائي والروائي التقليدي على المستوى النحوي، وعلينا الآن أن نعين إلى أي حد يتطابق هذا الخطاب كمستوى نحوي مع النص كمستوى دلالي في علاقته بالبنية النصية والاجتماعية التي أنتج فيها، أي أننا نحاول الانتقال من «النبوي» إلى «الوظيفي» أو الدلالي، من السرديات إلى السوسيو سرديات. كما نقدم اقتراحاً لذلك في «انفتاح النصّ الروائي: النصّ والسياق».

مراجع البحث :

1 - الروايات :

- جمال الغيطاني : الزيني بركات . - مكتبة مدبولي . القاهرة . ط 2 . 1975 .
- دار المستقبل العربي ط 3 . 1985 .
- حليم بركات : عودة الطائر إلى البحر: دار النهار . ط 1 . 1969 .
- تيسير سبول : أنت منذ اليوم : ابن رشد (الأعمال الكاملة) 1980 .
- إميل حبيبي : الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل : دار الفارابي . ط 2 . 1974 .
- حيدر حيدر : الزمن الموحش : المؤسسة العربية . ط 2 . 1979 .
- Jamal Ghitany: Zayni Barakat trad. J. François Fourcade. Seuil 1985.

2 - الدراسات :

- بالعربية :

- ميشيل بوتور . بحوث في الرواية الجديدة . تر . فريد أنطونيوس . منشورات عويدات 1971 .
- ابن هشام : مغني اللبيب . تحقيق مازن المبارك . دار الفكر 1979 .
- ر . ويليك / أ . وارين : نظرية الأدب . تر . محي الدين صبحي . المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون . دمشق 1972 .
- تمام حسان : اللغة العربية : معناها ومبناها : الهيئة المصرية العامة . القاهرة . 1973 .
- الفراء : معاني القرآن : عالم الكتب . بيروت ط 2 . 1980 .
- ابن جني : الخصائص . تحقيق : محمد علي النجار . دار الهدى . بيروت ط 2 .
- بيرسي لوبوك : صناعة الرواية . تر . عبد الستار جواد . دار الرشيد . بغداد 1981 .
- سيبويه : الكتاب . مؤسسة منشورات الأعلمي . بيروت . ط 2 . 1967 .
- ج . د . السيوطي : المزهري في علوم اللغة . دار الفكر . بيروت .
- الشكلاونيوس الروس : نظرية المنهج الشكلي : تر . إبراهيم الخطيب . الشركة المغربية للنشر المتحدنين . 1982 .
- أ . السامرائي : الفعل زمانه وأبنيته . مطبعة العاني ، بغداد 1966 .
- سعيد يقطين : - القراءة والتجربة . دار الثقافة 1985 .
- مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي : آفاق . ع 1 . 1984 .
- الأنماط السردية عند جاب ليتنفلت : أ . نوال الثقافي ع . 1987 .

- J.M. ADAM / J.P. Goldenstein: Linguistique et discours littéraire. Larousse. 1976.
- J.M. ADAM: Le récit: Que sais-je? 1984.
- M. Bal: Narration et focalisation. in «Poétique» N° 29. 1977.
- R. Barthes: Introduction à l'analyse des récits: in «Communications» N° 8. 1966.
- E. Benveniste: Problèmes de linguistique générale. édi. Tel-Gallimard. T.I. 1966. T.II. 1974.
- W.C. Booth: The rhetoric of fiction. The University of Chicago press. 2^d édi. 1983.
 - Distance et Point de Vue. in Poétique du récit. Seuil / Points. 1977.
- R. Bourneuf. et R. Ouellet: L'univers du roman. Puf. 1981.
- S. Briosi: La narratologie et la question de l'auteur. in «Poétique» N° 68 - 1986.
- J. Carou : Les régulations du discours. Puf. 1983.
- J.C. Coquet: Sémiotique littéraire. édi. J.P. Dalarge. 1972.
- J. Dubois (et autres): Dictionnaire de linguistique. Larousse 1973.
- Ducrot / T. Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Seuil / Points. 1972.
- Groupe d'Entreverne: Analyses Sémiotiques des textes. Presses Universitaires 1979.
- R. Fowler: Linguistique and the novel. Methuen. London, third édi. 1984.
- G. Genette: - Frontières du récit. in «Communication» N° 8. 1966.
 - Discours du récit. in: Figures III. Seuil. 1972.
 - Palimpsestes (La littérature du second degré). Seuil. 1982.
 - Nouveau discours du récit. Seuil. 1983.
- R. Debray-Genette: Du mode narratif dans les «Trois coutures», in Littérature N° 2; 1971.
- Greimas / Courtès: Sémiotique: Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Hachette. 1979.
 - Du sens: Seuil. 1970.
- A.R. Grillet: Pour un nouveau roman. édi. Gallimard, idée. 1972.
- Groupe M: Rhétorique générale. Points / Seuil. 2^{ème} édi. 1982.
- F. Van R-Guyon: - Critique du roman. édi. Gallimard. 1970.
 - Point de vue ou perspective narrative. Poétique, n° 4. 1970.
- M. Hoey: On the Surface of discourse: édi. Ellen and Vuwin London. 1983.
- Sh. R-Kenan: Narrative fiction. Methuen. London. 1983.
- W. Krynski: Carrefours du Signe: Essai sur le roman moderne. Mouton. 1981.
- G.N. Leech / M.H. Short: Style in Fiction. Longman 3^d édi. 1984.
- M.J. Lefebvre: Structure du discours de la poésie et du récit. édi de la Baconnière (Suisse) 1971.
- J. Lintvelt: Essai de typologie narrative: «Le point de vue». édi. José Corti. 1981.
- J. Lyons: Linguistique générale. Larousse. 1970.
 - Sémantique Linguistique. Larousse. 1980.
- M. Matheu Colas: Frontières de la narratologie. in «Poétique» n° 65. 1986.
- D. Maingueneau: Initiation aux méthodes de L'analyse: du discours. Hachette. 1976.
- F. Marchand et autres: Les analyses de la langue. Delagrave. 1978.

- J. Moechler: *Argumentation et conversation*. Hatier-Credif. 1985.
- C. Kerbrat-Orecchioni: *L'énonciation: de la subjectivité dans le Language*. Armand Colin. 1980.
- J. Pouillon: *Tempset roman*. édi. Gallimard. 1946.
- J. Prince: *Narratology: The form and fonction of narrative*. Mouton. 1982.
- F. Rastier: *Sémantique des isotopies*; in: *Essai de sémiotique Poétique*. Larousse. 1972.
- J. Ricardou: *Problèmes du nouveau roman*. Seuil / Tel Quel. 1967.
- P. Ricœur: *Temps et récit*. Seuil. – Tome I. 1983.
– Tome II. 1984.
- R. Scholes /R. Kellogg: *The nature of narrative*. édi. Oxford University Press. London. 1968.
- M. Stubbs: *Discourse analysis*. édi. Basil Blakwell. Oxford 1983.
- T. Todorov: – *Les Catégories du récit littéraire* in «Communications» n° 8. 1966.
– *Littérature et signification*. Larousse. 1967.
– *Poétique*. Seuil / Points. 1973.
– *Poétique de la prose*: Seuil/Points. 1978.
- Vitoux: *Le jeu de la focalisation*. in *Poétique* n° 51. 1982.
- C.H.M. Versteegh: *La conception des «Temps» du verbe chez les grammairiens arabes*. in «Analyses et théories» n° 3 1981.
- H. Weinrich: *Le temps: Commentaire et récit*. Seuil / Coll. Poétique. 1973.

فهرست

اهداء	5
تقديم	7
مدخل إلى تحليل الخطاب الروائي	11
الفصل الأول: زمن خطاب الرواية	59
1 - تقديم نظري	89
2 - زمن القصة، زمن الخطاب	89
3 - التمفصلات الزمنية الصغرى	98
4 - خصوصية زمن الخطاب (الزيني بركات)	136
5 - الزمن بين الخطاب التاريخي والخطاب الروائي	143
6 - الزمن في الخطاب الروائي العربي	148
الفصل الثاني: صيغة خطاب الرواية	167
1 - تقديم نظري	169
2 - تعدد الصيغ، تعدد الخطابات	202
3 - اشتغال صيغ الخطاب	207
4 - خصوصية الصيغة في الزيني بركات	252
5 - الصيغة بين الخطاب التاريخي والروائي	262
6 - صيغة خطاب الرواية العربي	269
الفصل الثالث: الرؤية السردية في الخطاب الروائي	281
1 - تقديم نظري	283
2 - تمفصلات الرؤية السردية الكبرى	314
3 - تمفصلات الرؤية السردية الصغرى	318
4 - خصوصية الرؤية في الزيني بركات	358
5 - الرؤية بين الخطاب التاريخي والروائي	368
6 - الرؤية السردية في الخطاب الروائي العربي	372
الراوي والمروي له في الخطاب: على سبيل التركيب	382
- مراجع البحث	388
- فهرست	

تحليل الخطاب الروائي

(الزمن - السرد - التبيين)

كيف يمكننا تحليل الرواية العربية بدون تصوّر نظري للرواية؟
ما هي هذه النظرية؟
ما هو موضوعها؟
ما هي أدواتها وأسئلتها؟
كيف يمكننا إقامتها وتطويرها؟
يطمح هذا العمل إلى طرح هذه الأسئلة، ويسعى جاهداً للإجابة
على بعضها نظرياً وتطبيقياً...
موضوع «تحليل الخطاب الروائي» ليس الرواية، إنما الخطاب.
والخطاب هو الطريقة التي تقدم بها مادة الحكاية. ننظر في الخطاب
من خلال المقولات التالية: الزمن - الصيغة - الرؤية.
يندرج هذا البحث ضمن السرديات البنيوية لكنه يطرح أسئلة
لتوسيعها، وجعلها قادرة على الانتقال من المظهر النحوي إلى
المظهر الدلالي...

